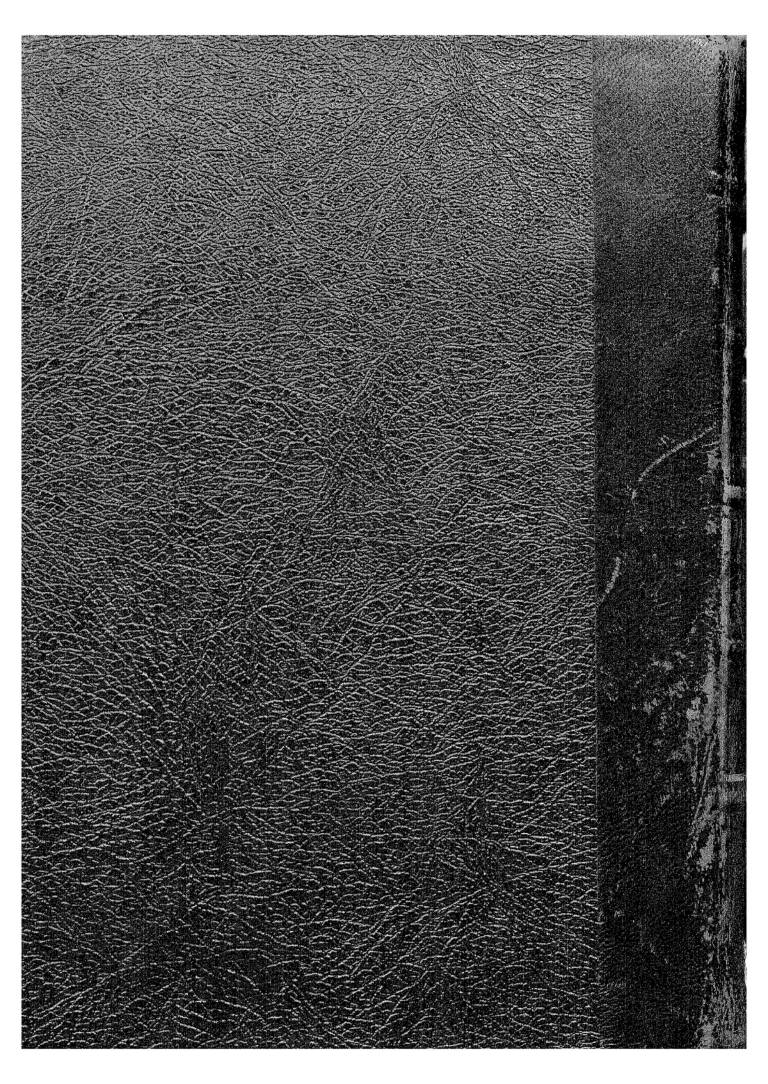


إهـــــــداء2005

الأستاذ الدكتور/ أحمد حمدي محمود

القاهرة


البخلاء
للجاحظ

ذخائر العرب
٢٣



للجاحظ

حقق نصه وعلق عليه
طه الحاجري
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

إلى

أستاذ الجيـــــل ، وإمام الجامعيين

الدكتور طه حسين

فهرس



تصدير

فى ختام القرن التاسع عشر (سنة ١٩٠٠) أصدرت دار برل C. J. Brill بليدن كتاب البخلاء لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . وقد عنى بنشره وتحقيق نصه العلامة المستشرق فان فلوتن C. Van Vloten وأهداه إلى شيخ المستشرقين فى عصره العلامة الكبير نولدكه Th. Nöldeke .

وقد أسدى فان فلوتن — بنشره هذا الأثر الجليل — إلى الأدب العربى منة لا تكاد تقدر ، وأضاف إلى ما كان طوق به المستشرقون أعناقنا — نحن أبناء اللغة العربية — يداً جديدة ، لا يسعنا إلا أن نذكرها وننحنى أمامها تقديراً وشكراً ، مهما داخل هذه النشرة من أسباب النقص ومظاهره . فأكبر الظن أنه لولا عناية ذلك المستشرق بكتاب البخلاء لظل حيناً من الدهر حبيساً حيث كانت مخطوطته مودعة ، وظل الجاحظ مختفياً عن قراء العربية بأمثل آثاره الفنية ، وأجدرها بتمثيل قيمته الأدبية ، وحرمت نهضتنا الأدبية فى ذلك الوقت هذه الصورة الرائعة من صور الأدب القديم الخالد .

نشر فان فلوتن هذا الأثر عن المخطوطة الوحيدة التى وفق إليها ، كما سنذكر بعد ، فأثار نشره له كثيراً من آيات التقدير والإعجاب فى دوائر المستشرقين ، وقد رأوا فيه لوناً جديداً من ألوان الأدب العربى ، واتجاهاً فريداً بين اتجاهاته . ولم تكد تمضى على ظهوره بضعة أشهر حتى كتب العلامة الكبير نولدكه فصلا عنه فى *Literalisches Sentralblatt* (سنة ١٩٠٠ ص ١٩٨٨) يعرف به ويشيد بقيمته . وقد تمنى فى هذا الفصل لو أن أحد المستشرقين انتدب له يوماً ما ، فترجمه إلى إحدى اللغات الأوربية .

وقد بقيت هذه الأمنية الكريمة دون تحقيق حتى اليوم[1] ، وإن كانت قد أخذت مكانها فى خلد بعض العلماء من العرب والمستعربين . وقد خطا بها بعضهم خطوة تمهيدية ،

(١) كان هذا عند إخراج هذه النشرة فى طبعتها الأولى (سنة ١٩٤٨) ولم تكد تمضى على ذلك ثلاث سنوات حتى ظهرت باللغة الفرنسية ترجمة هذا الكتاب (سنة ١٩٥١) . وقد قام بهذه الترجمة الأستاذ شارل بلا Ch. Pellat ، ونشرت فى مجموعة الأونسكو :

Collection Unesco d'oeuvres Représentatives .

وهو العلامة وليم مرسيه W. Marçais ، فجعل يواجه بعض الصعوبات التى تقف دون هذه الترجمة ويحاول تذليلها ، إذ رأى أنه لن يستطيع تقديم صورة مثلى من هذا الأثر العربى إلى القارئ الغربى ، بترجمته إلى اللغة الفرنسية إلا بعد أن يحرر النص العربى للكتاب من آثار الخطأ والاضطراب التى تعتوره وتستهلك كثيراً من دقائقه ، بالرغم مما بذل فيه الناشر (فان فلوتن) من جهد عظيم موفق فى كثير من الأحيان ، وعلى هذا قدم الأستاذ مرسيه فى سنة ١٩٢٥ طائفة من الملاحظات القيمة على نشرة فان فلوتن ، صحح فيها بعض الكلمات وقوم فيها بعض العبارات ، وأشار فيها إلى بعض المقارنات .

لم تكد هذه النشرة التى نشرها فان فلوتن تصل إلى مصر حتى تلقفها أحد أولئك الذين يتجرون بنشر الكتب ، وهو الحاج محمد الساسى المغربى ، فقذف بها إلى المطبعة (سنة ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م) دون أن يتكلف شيئاً من أوليات ما ينبغى فى نشر الكتب ، فلم يحاول مراجعة المخطوطة (وقريب منه ، فى دار الكتب المصرية ، فى مجموعة كتب الشنقيطى ، نسخة مخطوطة عن مخطوطة كبريلى التى صدر عنها فان فلوتن) ، بل ولا ملاحظة القراءات التى أثبتها فان فلوتن فى هوامش الصفحات ، أو الملاحظات والإيضاحات التى ذيل بها نشرته ، وهى ملاحظات لها قيمتها ، بل لم يكلف نفسه الإشارة إلى النشرة التى طبع عنها . وبذلك جاءت هذه الطبعة المصرية الأولى صورة مشوهة من النشرة الأوربية . وظاهر أنه ما كان لنا — والأسف تنفطر منه قلوبنا — أن ننتظر غير هذا فى ذلك العهد ، ما دامت آثارنا العقلية ومظاهر مجدنا الأدبى قد بلغت من الهوان علينا حتى ندعها لعبث الاتجار الغفل وأهوائه ، فنرى أن القائمين على نشر الكثير منها قوم هم بطبيعة تكوينهم والغاية التى تحدوهم أبعد الناس عن الروح العلمية التى يجب أن تكون صاحبة المكان الأول فى هذا العمل الخطير .

على أنه يسرنا أن نشير هنا إلى أن وزارة المعارف المصرية قد تنبهت إلى شىء من واجبها فى هذا الصدد ، فعهدت بكتاب البخلاء إلى عالمين من علمائها ، هما الأستاذان أحمد العوامرى بك ، وعلى الجارم بك ، فأظهراه فى نشرة يبدو فيها أثر الجهد ومظهر القصد إلى التحقيق ، ولكن الطابع الأول لهذه النشرة أنها نشرة مدرسية ، عنى فيها — قبل كل شىء وفوق كل شىء — بالتفسير اللغوى والإعراب النحوى والتطبيق البلاغى إلى حد بعيد مسرف ، ثم تجىء بعد ذلك العناية بتصحيح النص ، ويؤسفنا أنه لم يظفر إلا بحظ قليل ، فجاءت هذه النشرة من ناحية النص صورة أخرى من نشرة فان فلوتن التى صدرت

عنها لم تكد تغايرها إلا فى بعض التصحيحات التى تكاد تكون متعينة . ولعله من أجل مدرسيتها هذه أغفلت فيها بعض أصول النشر من مراجعة المخطوطات ومقارنة قراءاتها . كما أن مدرسيتها هذه فرضت على الأستاذين الناشرين إسقاط بعض النصوص فيها ، وقد قالا فى ذلك : « وإذ كان من المزمع أن تتداول هذا الكتاب أيدى شبابنا الطلاب رأينا من الخير أن نتخطى ما عسى أن يمس الحياء ، وهو قليل جداً فى جملته . كما عدلنا عما يبلغ صفحة أو ما فوقها مبعثراً هنا وهناك ، مما شوهه التحريف ، وتعاصت تجليته ، وذلك كقطعة أسقطناها من حديث خالد بن يزيد » .

فهاتان الطبعتان المصريتان تتفقان فى أنهما اتخذتا من نشرة فان فلوتن الأصل الوحيد لهما ، وإن كانتا تختلفان بعد ذلك على النحو الذى عرضناه ، وكذلك الأمر فى الطبعة التى طبعت بعد ذلك فى دمشق وإن كانت تمتاز عنهما بمراجعة آراء بعض العلماء فى مواضع من النص ، وقد عقب على هذه الطبعة الأستاذ داود الجلبى فى سلسلة مقالات نشرها بالمجلد العشرين من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق .

وهكذا نرى أن هذه الطبعات المختلفة التى جاءت بعد نشرة فان فلوتن إنما جعلت تصدر عنها وترجع إليها ، لا تملك التحرر من هذه التبعية إلا بقدر . وقد يعتمد بعضها فى بعض الحالات على ما أثبته فان فلوتن بهوامش نشرته من القراءات وأصول الكلمات التى عنى بتصحيحها ، ولكن لاحظنا أن هذه القراءات تنقصها — فى كثير منها — الدقة ، ففيها كثير من التجنى على المخطوطة ، كما أن فيها كثيراً من الخطأ فى القراءة وسوء النقل . فنى الاعتماد عليها مجازفة لا تتفق مع الروح العلمية .

وإذا كان فان فلوتن قد بذل غاية جهده فى مراجعته المخطوطة الوحيدة التى أتيحت له ، وهى مخطوطة كبريلى ، ومقارنة ما عسى أن يوجد من نصوص البخلاء فى بعض المصادر الأخرى ، واستشارة بعض العلماء المستشرقين مثل دى جويه de Goeje فى تحقيق نصه ، واستجلاء بعض مشكلاته ، وتحرير بعض عباراته ، حتى يجىء الكتاب أقرب ما يمكن من النص الأصلى الذى كتبه الجاحظ ، على ما هو الأصل فى النشر العلمى ، فإن ذلك كله لم يمنع من أن يجىء مليئاً بالأخطاء التى تجعل النص فى بعض المواضع غامضاً مستغلقاً ، كما تجعله فى مواضع أخرى ركيكاً سقيم العبارة متنافراً مع الصياغة العربية . ولا ريب أن جزءاً كبيراً من تبعة هذا يقع — بطبيعة الحال — على اضطراب النص فى المخطوطة ، واشتباه الحروف العربية بعضها ببعض فى كثير من الكلمات ، مما

يحتاج فى تبين الوجه فيه إلى بصيرة قوية تمدها الروح العربية ، وإلى مرانة تامة فى قراءة المخطوطات ، وتبين ما عسى أن يعرض للناسخين الذين يتعاورون الكتاب من حالات .

على أن هناك كثيراً من مواضع الخطأ فى نشرة فان فلوتن لا يرجع إلى المخطوطة قدر ما يرجع إلى الناشر نفسه . فقد يكون النص فى المخطوطة صحيحاً مستقيما لا تكاد تداخله شبهة ، فيضطرب فى عينى الناشر ، فيسىء قراءته ، فيحرفه عن أصله ، أو يضطرب فى إدراكه ، إذ لا يتبين وجهه ودلالته ، فيعدل به عن وضعه ، بقصد تصحيحه ، وهو لا يدرى أنه بذلك يزيد النسخة فساداً إلى فساد .

وإن مما يؤسف له أن تزيد كمية السقط فى هذه النشرة على ما فى المخطوطة المنقول عنها ، فقد سقط نحو سطر كامل فيها كما يرى القارئ فى (ص ٢٠٣ س ١٧) ، بينما أقحم فى بعض النصوص ما ليس هناك دليل على سقوطه ، كما يرى فى (ص١٨٨ س٧).

فمهما يكن الأمر فى نشرة فان فلوتن وما تقصد إليه من الدقة والتحقيق ، وما تتسم به من مظاهر الروح العلمية ، فإنها بهذا الذى ألمعنا إلى طرف منه لا تصلح أن تكون الأصل الذى يصدر الناشرون عنه ، أو أن تكون صورة من بخلاء الجاحظ يطمئن الباحثون إليها ، وإذن فلا بد من مراجعة النظر فى هذا الأثر مراجعة أصيلة تعتمد على الأصول الأولى ، وتستخدم الوسائل العلمية المقررة ، وتعنى بإخراجه إخراجاً جديداً علمياً جديراً بمكانة الجاحظ فى تاريخنا الأدبى والعقلى ، وبالروح العلمية التى يجب أن تسيطر على اتجاهاتنا فى هذه السبل سيطرة قوية . وكذلك كان الاتجاه إلى هذه النشرة الجديدة التى نقدمها ، والتى لم نأل جهداً فى اصطناع كل ما أتيح لنا من الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق غايتنا فيها ، وهى تأدية نص كتاب البخلاء تأدية إلا تكن دقيقة كل الدقة ، فإنها مقاربة قدر الطاقة .

وقد اعتمدنا فى هذه النشرة على طائفتين من المصادر : مباشرة وغير مباشرة . أما الأولى فتتألف من المخطوطة التى اعتمد عليها فان فلوتن فى نشرته ، وهى المخطوطة المحفوظة فى مكتبة كبريلى ، ومخطوطة أتيحت لنا فى مكتبة باريس الأهلية . وأما الأخرى فتتألف من الكتب المختلفة التى رجعنا إليها فى تخريج الآثار والشواهد التى ضمنها الجاحظ كتابه ، ثم الكتب التى تضمنت بعض المقتبسات من كتاب البخلاء . وفيما يلى وصف لهذه المصادر :

مخطوطة كبريلى (ك) :

تتكون هذه النسخة من ٢٧٨ صحيفة ، ومسطرتها ١٧ سطراً ، وهى مكتوبة بخط نسخى لا بأس به سنة ٦٩٩ هجرية ، كما هو ثابت فى آخرها بخط الناسخ نفسه : « تم كتاب البخلاء للجاحظ ، وذلك صبيحة يوم الجمعة لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة تسع وتسعين وستمائة ، غفر الله لكاتبه ولمالكه ولمن دعا لهم ولجميع المسلمين ، والحمد لله ، وصلى الله على النبى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . وحسبنا الله ونعم الوكيل » . كما يبدؤها بهذه الصيغة : « رب أنعمت فزد » .

وهى قليلة الشكل جداً ، وما جاء منه فيها أقرب إلى أن يكون للزينة لا للضبط . وحرف الدال فيها منقوط من أسفله باطراد ، وكذلك حرف الطاء فى بعض الأحيان . وبها قليل من الألحاق بخط الناسخ ، كما أن بهوامشها تعليقات مختلفة بخطوط متغايرة ، وهى تعليقات أكثرها تافه ، كأن يقول عند قصة أبى الجهجاه النوشروانى : « اللهم لا قبلته ولا قبلت منه ما أطعم » . وصفحاتها معقبة ، ففى آخر كل صفحة كتبت الكلمة التى تبدأ بها الصفحة التالية ، ولكن بخط غير خط الناسخ . أما ناسخها فلا نعرف حتى اسمه ، ويظهر أنه كان من تلك الطبقة التى تحترف النسخ دون معرفة أو ثقافة تؤهله لفهم ما ينسخ ، فكان لا يدرى ما يقرأ ، فتشتبه عليه الحروف والكلمات ، فيكتبها على ما يخيل له . ولهذا جاءت النسخة مغمورة بالخطأ والتحريف .

أما مكان نسخها فلا نعرف عنه شيئاً كذلك .

وقد ملكت هذه النسخة أيد كثيرة فى أوقات مختلفة كما يؤخذ من التمليكات المكتوبة فى صدرها ، إلى أن انتهت أخيراً إلى الوزير أبى العباس أحمد بن الوزير أبى عبد الله محمد المعروف بكوبريلى ، فوقفها بخزانته ، وهى الآن بها تحت رقم ١٣٥٩ .

ولعلنا نستطيع بعد هذا أن نصف هذه النسخة — فى جملة القول — بأنه لا بأس بها من ناحية أن ليس بها خرم ولا كثير سقط . والسقط الذى فيها يرجع — كما يرجع التحريف

بها — إلى جهل الناسخ واشتباه الحروف والكلمات عليه ، وأغلب الظن أنها منقولة عن أصل جيد ، وإن كنا لا نعرف شيئاً عنه .

ومهما يكن فإن هذه النسخة — على ما بها — من خير ما يعتمد عليه فى نشر الكتاب ، وقد رمزنا لها بالحرف (ك) .

مخطوطة باريس (ب) :

تتكون هذه النسخة من ٧٦ صحيفة ، ومسطرتها ١٥ سطراً . فهى ليست إلا قطعة من كتاب البخلاء تمثل نحو الثلث منه ، تبدأ بدأها الحقيقى بنوادر المراوزة ، وتنتهى عند حديث محمد بن أبى المؤمل تقريباً ، أما الصحيفتان الأوليان منها فتتألفان من طائفة من الجمل مضطربة مختلطة ، بعضها من مقدمة البخلاء وبعضها من رسالة سهل بن هارون ، وقد ضمت هذه الجمل المتنافرة بعضها إلى بعض دون مراعاة أى رابط بينها .

وهذه القطعة واقعة فى مجموعة تشتمل عليها وعلى كتابين آخرين ، أحدهما : « فضل الكلاب على من لبس الثياب » لأبى بكر محمد بن خلف بن المرزبان ، والثانى : « نور العيون فى تلخيص سيرة الأمين المأمون » للحافظ أبى الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس . ولكن خطها مغاير لخط بقية المجموعة ، كما أن مسطرتها تختلف عن مسطرة الكتابين الآخرين ، فيظهر أنها مستقلة فى النسخ عنهما ، وإن كانت ضمت إليهما .

وهى مكتوبة بخط نسخى جميل يظهر أنه أحدث من خط النسخة السابقة ، ولكننا لا نملك إلا وصفها بالسقم والرداءة ، فالتصرف فى عبارة الجاحظ كثير فيها ، ولعل فى هذه العبارة التى استهلت بها ، ووضعها الناسخ فى صدرها ، ما يصور لنا مقدار ما أباحه لنفسه من حرية التصرف فيها . قال : « اعلم أرشدك الله لما سألتنى أن أجمع لك كتاباً يتضمن أخبار البخلاء فأجبتك إلى سؤالك وأبرزت لك بعض ما هنالك » . هذا إلى كثير من التحريف والتصحيف والسقط أو الاختصار والاكتفاء ببعض الكلام عن بعضه . ولكنا نلاحظ إجمالا أن التحريف هنا يختلف فى أصله ومصدره عن التحريف فى مخطوطة كبريلى . إذ مصدره هنالك الاشتباه والغفلة ، ومصدره هنا الرغبة فى التصحيح والحذلقة ، وهذا من أخطر صور التحريف .

على أنها مع هذا كله لا تخلو من قراءات طيبة كان لها قيمتها فى تصحيح النص ، وقد رمزنا لها بالحرف (ب) .

المصادر غير المباشرة

نعنى — كما قدمنا — بالمصادر غير المباشرة الكتب التى نقلت نصوصاً من كتاب البخلاء ، أو روت نصوصاً اشتركت مع كتاب البخلاء فى روايتها . ومهما يكن الأمر فى هذه المصادر فقد كان لها قيمتها فى تحرير النص فى كثير من المواضع . وقد جعلنا لهذه المصادر الهامش الثانى فى ذيل النص ، كما جعلنا الهامش الأول للقراءات المختلفة .

ولكنا نقرر هنا أنا جعلنا معتمدنا الأول فى تحرير النص على مخطوطة كبريلى ، ثم مخطوطة باريس ، ولم نلجأ إلى هذه المصادر ما دام نص المخطوطة مستقيما مقبولا ، فإن التحريف فى هذه المصادر أكثر احتمالا ، على اختلافها فى ذلك . كما أنا جعلنا أكثر اعتمادنا من هذه المصادر على ما كان أقرب من زمن الجاحظ كابن قتيبة ، أما المتأخرون كالأبشيهى ، محمد ابن أحمد بن منصور المحلى ، من أهل القرن التاسع ، فى كتابه المستطرف ، فقد لاحظنا أن أكثر ما يروى فى مثل هذا المصدر كثير التحريف سقيم العبارة ظاهر الدخل ، فأغفلناه .

وبعد ، فإنا نرجو أن يكون قد كتب لنا التوفيق فى تجلية نص كتاب البخلاء ، فى حدود الأصل الأول لنشر آثارنا العقلية ، وذلك الأصل عندنا هو — كما قررنا فى غير هذا الموضع — إبراز صورة أمينة من تلك الآثار ، بريئة مما تركته عليها الأجيال المختلفة ، والأيدى الجانية ، من تشويه أو تحريف أو تزوير ، وسواء بعد هذا أن تجىء هذه الصورة كما نشتهى وكما ترجوها مثلنا ، أو أن تكون منحرفة عن هذه المثل ؛ ذلك هو الأصل فى النشر ، ومن هذا كان الناشر مقيداً فى عمله بقيود مختلفة ، ومحكوماً باعتبارات كثيرة ، تمسك يده أن تنطلق ، وتكف نفسه أن تتدخل ، ولا تدع لمزاجه الخاص أو محصوله العلمى سبيلا إلى أن يفرض نفسه ، أو يطبع كلام المؤلف بطابعه ، أو يترك عليه أثراً منه . إنما هو الاستغراق فى صاحب الأثر وعصره ، والانطباع بأسلوبه وفنه ، والذهاب فى ذلك إلى أبعد ما يستطاع . وذلك هو ما نستطيع أن نزعم أننا أخذنا أنفسنا به ، وحاولنا أن نتخذ منه الوسيلة إلى تحرير نص الجاحظ وتحقيقه ، ونحن نرجو أن نكون قد بلغنا من ذلك مبلغاً نملك معه أن نستشعر شيئاً من الطمأنينة العلمية .

على أنه لم يذهب عنا أنه بالرغم من ذلك ، ومما اصطنعناه من المصابرة والمطاولة وتقليب الرأى ، لا يزال فى الكتاب مواضع مشتبهة ، نرجو أن تظفر من معاودة النظر ومعالجة النقد بما يجلو الوجه فيها ؛ والله ولى العون والتسديد .

هذا ، ولا بد لنا بعد ذلك من كلمة صغيرة عن الأسلوب الذى اتبعناه فى إثبات القراءات المختلفة فى « هامش القراءات » ، وهو الأسلوب الذى اصطنعناه من قبل فى « مجموع رسائل الجاحظ » ، فقد خالفنا هنا كذلك العادة المتبعة فى الإشارة خلال النص إلى الكلمات المراد إثبات قراءاتها بالأرقام ، واكتفينا بالإحالة إلى أرقام السطور ، مع تعيين الكلمات ذوات القراءات بوضع نجمة صغيرة هكذا * إلى جانبها . حرصاً منا على نقاء النص وإبرازه فى صورة مجتمعة لا تفصل الأرقام الكثيرة بينها ، وعلى اجتماع خاطر القارئ العادى الذى لا تعنيه هذه القراءات ، وعدم تشتيت خاطره بتلك الأرقام التى تبلغ فى كثير من الصفحات مبلغاً كبيراً جديراً بأن يغمر الصفحة ، ويذهب بذهن القارئ هنا وهنا . ثم اكتفينا كذلك فى إثبات هذه القراءات بوضع الرمز إلى جانبها للدلالة على أن هذه القراءة تمت إلى نسخة كذا ، أو كتاب كذا ، أو أنها اختيار فلان أو فلان ، ممن وقفنا على آرائهم.

وكذلك اصطلحنا على نوعين من العلامات للدلالة بهما على النقص والزيادة ، وهما قوسان مربعان [ ] علامة على النقص ، وآخران مثلثان < > علامة على الزيادة . فمثل هذا التعليق فى صفحة ٢٠ : « (١٩) [الشيخ] ب» ، يعنى أن كلمة « الشيخ » فى السطر ١٩ ، والمعينة بنجمة ، غير موجودة فى نسخة ب . ومثل هذا التعليق فى صفحة ١٣ : « (٩) < من > لم (فان فلوتن) : لم ك » ، يعنى أن كلمة « من » زيادة اقترحها فان فلوتن فى نشرته ، وأنها غير موجودة فى الأصل ك . وكذلك مثل هذا التعليق فى ص ١٩ : « (١٧) مثلك < حتى وفقنى الله إلى ما هو أرشد > (فان فلوتن = العقد) » تعنى أن هذا الموضع المشار إليه فى السطر ١٧ قد أقحم عليه فان فلوتن هذه الزيادة ، وليست فى الأصل ، وإنما صدر بها عن كتاب العقد الفريد .

وهناك علامة أخرى مكونة من نجمتين هكذا * * يراها القارئ إلى جانب بعض الكلمات وقد اصطلحنا عليها للدلالة بها على أن الكلمة المشار إليها بها موضوع شرح أو تعليق فى الجزء الخاص بالشروح والتعليقات التى ذيلنا بها نص كتاب البخلاء .

ويلى الهامش الذى جعلناه لإثبات القراءات هامش آخر جعلناه للتخريجات والمقارنات. وقد أثبتنا فيه المواضع التى وردت فيها هذه النصوص من كتاب البخلاء .

ولعلنا نكون بهذا كله قد مهدنا السبيل للباحث فى نص ذلك الكتاب ، وهيأنا المادة له ، ووفرنا له الأداة التى تتيح له النقد البصير .

وبعد ، فإن مما يتصل بتصحيح النص وتحرير عبارته وتأديته إلى القارئ تأدية صحيحة تحقيق معانيه وتمكين القارئ من فهمه فهماً صحيحاً . والتمهيد بذلك لدراسة كتاب البخلاء درساً عميقاً ، بكشف تلك الأغشية التى راكمتها العصور المتطاولة عليه ، وإزاحة ذلك

الغموض الذى يحيط به فى كثير من المواضع بطبيعة المدى البعيد الفاصل بيننا وبينه . فكما حاولنا أن نعود بالنص إلى صفائه واستقامته كما كتبه الجاحظ ، كان لا بد لنا أن نحقق — ما أمكنتنا وسائلنا — الجو الخاص بهذا الكتاب فى عصر الجاحظ ، ولهذا عنينا — إلى جانب عنايتنا بالنص — بمحاولة تبين ما فى الكتاب من غوامض ومجاهل .

ولعل من أول ما يبدو فيه من ذلك كثرة ما فيه من أعلام المغمورين الذين لم يعن التاريخ بهم عناية توضح شخصياتهم ، وتبين وجوه حياتهم ، وتعين صلاتهم بما حولهم ، وما من شك فى أن تبين هؤلاء يلقى ضوءاً كبيراً على ذلك الأثر الفنى الرائع ، ويبرز حيويته ويوضح من دلائله ، ولهذا لم نأل جهداً فى البحث عن أخبارهم المبعثرة المنتثرة هنا وهنا فى زوايا كتب الأدب والتاريخ والمحاضرات ، دون أن نغفل خبراً صغيراً لصغره ، ولا تافهاً لتفاهته ، ما دام مقبولا لدينا ، فلعله بضميمته إلى غيره تكون له دلالته ، ثم أخذنا نكون منها — ما أمكن — صوراً واضحة الملامح بينة القسمات ، عن الأشخاص الذين تتعلق بهم ، وقلما عرضنا لأعلام المشهورين إلا أن يكون لنا فيها ملحظ خاص نحب أن ننوه به ونشير إليه .

وهناك فى كتاب البخلاء كثير من الموضوعات المشتبهة التى تحتاج إلى بحث وتحقيق يكشفان عن حقيقتها ويبينان الوجه فيها ، وكثير من الكلمات الغامضة المتروكة التى فقدت عندنا دلالاتها ، إما لأن معاجمنا العربية أغفلتها إغفالا تامًّا ، وإما لأنها حين ذكرتها مرت بها مسرعة ، واكتفت من بيانها بإيراد معناها الإجمالى الذى لا يكاد يغنى شيئاً فيما نقصد إليه من تبين حقيقة ذلك العصر ، وما يداخله من صور ، وما تتميز به حياته من ألوان خاصة . وقد أخذنا أنفسنا بتبين هذه النواحى والاحتيال فى التماس الوسائل المختلفة لتعرفها ، قدر ما تبلغه الطاقة .

ولعلنا استطعنا بهذه الأبحاث الجزئية التى ذيلنا بها نص كتاب البخلاء أن نكشف كثيراً من غوامضه ، وأن نهيئ السبيل إلى فهمه وتذوقه وتبين ما بينه وبين الحياة من صلات وثيقة ، كما نرجو أن نكون قد وضعنا بذلك الأساس لدراسته دراسة عميقة مستقصية .

والمواضع التى علقنا عليها أشرنا إليها فى النص — كما قدمنا — بنجمتين هكذا** ثم أوردناها فى قسم « التعليقات والشروح » مرتبة ترتيب مجيئها فى النص ، وقد عينا موضعها منه بذكر رقم الصحيفة والسطر .

مقدمة

النزعة الفنية عند الجاحظ ، ومكانها من نزعاته الأخرى – كتاب البخلاء : أصل وضعه ، تاريخه ، أسلوبه التأليفي – الوضع الفنى عند الجاحظ – أبرز الخصائص الفنية فى كتاب البخلاء : الوصف ، السخرية.

١

كان الجاحظ إماماً من أئمة الكلام ، وزعيما من زعماء المعتزلة . وصاحب نحلة من نحلهم . وكان عالماً محيطاً بمعارف عصره ، لا يكاد يفوته شىء منها ، سواء فى ذلك أصيلها ودخيلها ، وسواء منها ما كان إلى العلم والتحقيق ، وما كان إلى الأخبار والأساطير ، وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها ، غابرها ومعاصرها ، واسع الرواية ، دقيق المعرفة ، قوى الملكة فى نقد الآثار وتمييزها . ولكنه كان فوق هذا كله ، كاتباً أديباً بكل ما تتضمنه هذه الصفة من رهافة فى الحس ، وخصوبة فى الخيال ، وقوة فى الملاحظة ، ودقة فى الإدراك ، وقدرة على التغلغل فى دقائق الموجودات ، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة ، وتمكن من العبارة الحية النابضة ، والتصوير الكاشف البارع الذى يبرز الصورة بشتى ملامحها وظلالها ، فى بساطة ودقة وجمال .

وكتاب البخلاء الذى نقدمه هو أكبر الآثار التى أبقت الأيام عليها من ميراث الجاحظ الأدبى الخالص . ومن ذلك كانت تلك الصفة الأخيرة هى موضوع الكلام فى هذا الفصل ، ولست أحسبنى مغالياً فى شىء إذا ذهبت إلى القول بأنها كانت أقوى صفات الجاحظ التى قدمنا ذكرها ، وأغلبها عليه ، وأبرزها فى جميع آثاره .

ولقد يكون مرجع ذلك – فى بعض أمره – إلى طبيعة الفن الجميل ، من شدة لصوقه بالنفس ، وتأثيره فى الوجدان ، وقدرته على مغالبة تقلبات الرأى ومذاهب الحياة ، ولكنه يرجع – فى أكثر أمره – إلى قوة المزاج الفنى ، وغلبة النزعة الفنية عند الجاحظ ، حتى ليمكننا القول فى غير تحرج بأن تلك القوة هى التى رفعت من شأنه بين المتكلمين من المعتزلة ، فجعلته علماً من أعلامهم ، وإماماً من أئمتهم ، فقد كان – كما يفيده كلام الشهرستانى عنه[1] – لسانهم الناطق باسمهم ، الشارح لمبادئهم ، بما أوتى من براعة وقدرة

---

(١) أبو الفتح ، محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ٩٤ (هامش الجزء الأول من كتاب الفصل لابن حزم) ، ط الأدبية ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ . ونص عبارته : « كان من فضلاء المعتزلة ، والمصنف لهم . وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخلط وروج بعباراته البليغة ، وحسن براعته اللطيفة » .

على التصرف فى وجوه الكلام وطرائق المحاجة والمجادلة ، وذلك — فى حقيقة أمره — من فيض النزعة الأدبية القوية الغالبة .

ونحن إذا رجعنا إلى ما بقى لنا من آثار الجاحظ الكلامية ، منثوراً فى كتاب الحيوان ، وفى بعض الرسائل والقطع التى تخلفت من الدثور . وجدنا ذلك واضحاً كل الوضوح : سماحة فى الكلام . واسترسالا فيه ، وبساطة فى التعبير ، وتصرفاً فى المحاجة . على حين أن طبيعة هذه البحوث الكلامية مما يبعث على التعسر والتكلف والالتواء . وها هو ذا أبو الحسن الأخفش يتحدث عن أبى إسحق النظام ومن إليه من المتكلمين ، فيصف ما يكتبون بالتعقيد والغموض ، حتى ليأخذ هذه الكتب مثله « فى موافقته ، وحسن نظره ، وشدة عنايته ، ولا يفهم أكثرها »[1] هذا والنظام غير بعيد عن النزعة الأدبية ، بل هى أصيلة فيه ، كما نعرف ذلك من أخباره وبعض ما بقى لنا من آثاره . وقد يكون فى كلام الأخفش شىء من المبالغة والتجنى ، ولكن الأصل — على كل حال — صحيح ، وهو أن هذه البحوث عسرة المسلك بطبيعتها ، شديدة النفرة والجموح على قلم الكاتب ، إلا أن تعينه قوة أدبية غلابة تروضها وتنهنه من شلتها .

وكذلك نلاحظ هذه السيطرة الأدبية واضحة فى الناحية العلمية . فها هو ذا كتاب ككتاب الحيوان ، حشد فيه الجاحظ شتى المعارف والنظريات العلمية السائدة فى عصره ، وناقش فيه بعضها مناقشة سديدة ، لا نكاد نحس فيه شيئاً من الجفاء العلمى أو الحذلقة فى المناقشة أو الكزازة أو ثقل السرد والتقرير الذى نلاحظه فى غيره . فقد استطاع أن يغشى تلك المعارف والنظريات والمناقشات بغشاء فنى جميل ، وأن يبرزها فى صورة أدبية معجبة ، تظهر فى سياقه السهل المتبسط ، وألفاظه الجميلة المناسبة ، وتفصيل الكلام ببعض الآثار الأدبية الملائمة ، إلى غير ذلك من مظاهر الروح الأدبية ، حتى ليكاد القارئ ينسى أنه يقرأ أشياء من العلم ، مأخوذاً بتلك الروعة الفنية الظاهرة .

وشىء آخر له قيمته فى الدلالة على غلبة الروح الفنية عليه فى هذا الاتجاه ، والروح الفنية روح حرة طليقة تأبى القيد ، وتسمو على كثير من الاعتبارات . وذلك أنه رجل بعيد عن التحرج والتأثم فى إيراد بعض الأشياء التى ينكرها الدين ، أو يرفضها العلم ، أو يزدريها النظر ، كالأساطير والخرافات وما إليها فعنايته بهذه الناحية عناية ظاهرة . فهو يذكرها

(١) الحيوان ١ : ٩٢ ، ط مصطفى البابى الحلبى ، سنة ١٩٣٨ م .

بأسمائها ، ويصفها بصفاتها ، ما عرضت مناسبة لها ، ثم لا يدع الوعد بالرجوع إليها ، فيقول مثلا : « وللنساء وأشباه النساء فى هذا وشبهه خرافات عسى أن نذكر شيئاً منها إذا بلغنا إلى موضعه إن شاء الله »[1] . ولا ريب أن هذه الأساطير كان لها مكان ملحوظ فى ذلك العهد ، ولكن مصدر ذلك كان الروح القومية التى كانت تتهيأ وتتوثب ، وكانت تجمع شخصيتها من هنا وهنا ، فكانت الأساطير من بعض مظاهر هذه الحالة ، وإذن فقد كانت عرضاً من أعراض الشعوبية المتحفزة فى ذلك الحين . ولكن الأمر يختلف هنا تماماً عن ذلك ، فلا شىء من ذلك يمكن أن يتهم به الجاحظ ، إنما هى روحه الفنية القوية التى لم تغلبه عليها الروح العلمية المحققة ، ولا الدينية المتأثمة ، والتى كانت ترى فى هذه الأساطير ميراثاً من مواريث الإنسانية فى بعض عهودها ، أو مظهراً من مظاهر الخيال الجامح ، أو الحركات الذهنية البدائية الساذجة ، ففيها إذن مواطن للفن جديرة بالتدوين ، خليقة بالمطالعة والتأمل .

فإذا انتقلنا إلى الناحية الأخرى من نواحيه التى قدمناها وهى ناحية الرواية ، وجدنا روحه الفنية غالبة عليها كذلك غلبة ظاهرة ، ونستطيع أن نتبين هذا تبيناً واضحاً إذا نحن قارنا بين منهجه فى الرواية ومنهج الرواة الآخرين فى عصره من أمثال الأصمعى وأبى زيد ومن إليهما ، فقد كان همّ هؤلاء أن يجمعوا الشعر القديم والآثار العربية الأولى ويزجوها إلى الناس ، وغاية ما يعنيهم فيها هوأن يتحروا صحة نسبتها ، فى بعض الأحيان ، ثم لايكادون يعنون بعد ذلك بشىء من التفريق والاختيار . فإذا كان ثمة اختيار فأساسه الغرابة اللفظية فى أكثر الأمر ، لإثبات كلمة لغوية ، أو توجيه عبارة مأثورة ، أو إثارة شعور الدهشة لدى جمهور المتأدبين . وربما كان أساس الاختيار الاستشهاد لخبر من الأخبار التى كانت فنًّا واسعاً من فنون الرواية . فأما الجاحظ فقد كانت سبيله فى الرواية غير هذه السبيل ، إذ كانت نزعته الفنية هى التى تقوم بين هذه الآثار الأدبية متبصرة متخيرة ، فتقبل وترفض ، وتثبت وتنفى . ونلاحظ هذا بوضوح فى كتاب ككتاب البيان والتبيين وغيره من الكتب التى عنى الجاحظ فيها بالرواية . فهنالك نجد هذه الرواية خاضعة لذوقه الأدبى ونزعته الفنية ، حتى ما نكاد نجد فيها معنى غثًّا ، أو بيتاً غريباً ، أو عبارة مستكرهة. بل هناك دائماً — تقريباً — صفاء الديباجة ، والدقائق الشعرية ، والمعانى الطريفة .

ويشير الجاحظ إلى هذين المنهجين فى سياق عرضه لمناهج الرواة واتجاهاتهم فى

(1) الحيوان ٣ : ٥٣٤ .

الرواية ، إذ يقول عن الفريق الأول : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل » ، وقال عن الفريق الثانى إنهم « لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا ضارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعانى ، ورأيت البصر بهذا الجوهر فى رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أشهر »[1] .

فهذه هى سبيل الجاحظ وطابعه فى الرواية ، وهى سبيل وجهته فيها نزعته الفنية الغالبة .

وهناك ظاهرة أخرى تصدر ذلك المصدر فى روايته الأدبية ، وهى عدم وقوفه عند فحول الشعراء المعترف لهم والمجمع عليهم ، لا يجاوزهم ، وهم الشعراء المثاليون فى نظر الرواة لذلك العهد . فإنما هنالك دائماً نزعته الفنية الطليقة التى لا تكاد تعبأ بتلك الرسوم التقليدية ؛ فهى تلمح مواطن الفن أينما وجدت فتثبتها ، سواء كانت لشاعر فحل أم لشاعر مغمور ، وسواء كانت لشاعر قديم أم لشاعر معاصر ، فليس يعنيه كثيراً أن تكون للأعشى أو الفرزدق أو بشار ، أو تكون لابن عبدل أو ابن يسير أو أبى الشمقمق .

وهكذا نرى أن صفة الجاحظ الأدبية لم تكتف بتبريزها فى مجالها ، حتى ما تكاد صفاته الأخرى تذكر إلى جانبها ، بل سيطرت مع ذلك على تلك النواحى الأخرى فيه . فوجهتها وطبعتها بطابعها . ومن هنا تتبين قيمة « كتاب البخلاء » باعتباره أعظم الآثار التى بقيت لنا ، صادرة عن هذه النزعة القوية . وممثلة لهذه الصفة الغلابة .

على أن من الحق علينا أن نذكر — إلى جانب ذلك — أن تلك الصفات الأخرى كان لها أكبر الأثر فى تكييف الصفة الأدبية عند الجاحظ ، وإعدادها على ذلك النحو الخاص ، إلى جانب الاستعداد الطبيعى ، وتأثيرات البيئة الاجتماعية ، وما إلى ذلك من العوامل.

فأما الصفة الكلامية فإنها تتضمن الاطلاع الواسع العميق على المذاهب الدينية المختلفة ، وقد أتيح للعراق — والبصرة خاصة — أن يشهد منها فى عصر الجاحظ خليطاً عجيباً مختلف الألوان ، وعلى المناحى الفلسفية التى أتيحت للغة العربية ، مع توفر ملكة النقد التى تنظر وتمد النظر ، وتحلل وتمعن فى التحليل ؛ وإن مثل هذه الصفة التى كانت

(١) البيان والتبيين ٤ : ٢٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ .

عناصرها — فيما يبدو — قوية عند الجاحظ من شأنها أن تدفع ملكات صاحبها فى سبيلها ، فتتلاشى فيها وتندمج فى تمثيلها ، أو أن تلونها بلون منها ، فتتخذ هذه الملكات سبيلا خاصة بها . وكذلك كان الجاحظ وكانت ملكته الفنية القوية ، لم ينل منها جفاء البحوث الكلامية ، ولكنها أصبحت مدينة لتلك الصفة الكلامية وما تتضمنه بذلك الاتجاه الفريد الذى اتجهته ، وأخذ به معاصروه ومن بعدهم .

وماذا عسى كانت تتجه تلك النزعة الأدبية الجياشة عند أبى عثمان لو أنه نشأ بعيداً عن الكلام والفلسفة وتلك المسائل التى كانت بطبيعتها إلى الموضوع لا إلى الشكل ، والتى وسعت الآفاق العقلية أى سعة ، إلا تلك الوجهة التى اتجهت إليها النزعات الأدبية قبل الجاحظ ، وهى وجهة الشعر بطرائقه المرسومة ، وحدوده المعلومة المحتومة ، وموضوعاته المعينة المقررة ؟ أما ذلك النهج الأدبى الجديد الذى انتهجه الجاحظ ، والذى اشتقه من الحياة الزاخرة حوله ، والذى افتن فيه الفنون المختلفة وسلك به المسالك المتعددة ، والذى استحدث به للأدب موضوعات جديدة ، وبرأه مما قد يتهم به من أنه « كاد يكون شكلا بحتا » ، على ما يقوله الأستاذ أحمد أمين[1] ، والذى مكن به للنثر الأدبى أصوله وعبد سبيله ، فما كان ليجد مسلكه إلى الأدب العربى بتلك البداية القوية الرائعة ، لولا تلك الصفة الكلامية التى صادفت فى الجاحظ روحاً فنية قوية .

ولسنا نزعم بهذا أن الجاحظ كان بشخصه وباجتماع عنصرى الفن والكلام فيه خالق هذا الطور الجديد فى الأدب العربى ، فلا ريب أن طبيعة الحياة إذ ذاك ، وفى ذلك الإقليم خاصة ، كانت مفضية إلى هذا النوع من الأدب . وإنما حقيقة الأمر هى « أن هذه الحياة العقلية غلبت العقل العربى على الخيال العربى ، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر ، وأكثرت الكتاب وقللت الشعراء » كما يقول أستاذنا الدكتور طه حسين[2] . ولكنا مع هذا لا نستطيع أن نغفل قيمة الشخصيات الأدبية والاستعدادات الطبيعية فى إبراز النتائج التى تهيئ لها مقدماتها الاجتماعية وما إليها .

وهكذا نرى فضل الكلام على الفن الأدبى عند العرب ، كما كان فضله عظيما فى نشأة البلاغة العربية وتطورها واتخاذها صورة علمية . ذلك أنها نشأت — أول ما نشأت — بين المعتزلة ، ثم ظلت بعد ذلك وثيقة الصلة بالنزعة الكلامية فى أدوارها المختلفة . ويبدو

(١) ضحى الإسلام ، ٣ : ١٢٨ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .
(٢) من حديث الشعر والنثر ، ص ٨٤ ط الصاوى .

أن هذا هو المنهج الطبيعى الذى لا غرابة فيه . ومن أجل ذلك كان لهذه الظاهرة عند العرب مشابه عند اليونان .

فبين الفلاسفة اليونانيين ظهر النقد الأدبى ، باعتباره فنًّا ذا أصول وقواعد ، وقد ظل هذا الفن الأدبى خاضعاً للفلسفة متأثراً بها فى جميع عصورها منذ ديموقريط Démocrite والسوفسطائيين إلى العصر الإسكندرى الأخير . ويبين لنا العلامة إيجيه فى الفصل الثانى من الباب الثانى من كتابه « تاريخ النقد عند اليونان » أن الدراسات اللغوية الأولى إنما نشأت أول نشأتها عند الفلاسفة السوفسطائيين مثل بروتجراس Protagoras وألسيدماس Alcidamas وبولوس وهبياس Hippias سواء منها ماكان يتعلق بالألفاظ وتقسيمها وأصل دلالتها ، وما كان منها خاصًّا بالفن الأدبى من الوزن الشعرى ، والانسجام بين الكلمات ، وحسن اختيار الألفاظ[1] .

وإذ كان الجاحظ من أوفى أهل عصره لطابع ذلك العصر ، ومن أول المتكلمين تمثيلا لهم ، لم يكن عجيباً أن يكون بينه وبين أولئك السوفطائيين كثير من أوجه الشبه . وكذلك تفضى بنا المقارنة إلى ملاحظة كثير من التناظر بينه وبينهم ، ولا سيما فى تلك الناحية التى عرفوا بها ، واشتهروا بحذقها ، وهى ناحية البيان ، واعتبارهم « خطباء أبيناء » . فقد كان أسلوبهم — فيما يوصف به — من أجمل الأساليب وأسمحها وأكثرها مرونة وطواعية ، كما كان الجاحظ علما فى هذا الباب . على أن الجاحظ يمكن اعتباره كذلك « معلم بيان » ، وهو الوصف الأول لهم . وكما كان معنيا أشد العناية بأن يقدم إلى النشء نماذج من بليغ الكلام ، يضمنها كتبه المختلفة أحياناً ، ويفردها بالوضع أحياناً أخرى ، مما يفتح للسان باب البلاغة ، ويدل الأقلام على مدافن الألفاظ ، ويشير إلى حسان المعانى ، كما يقول فى البيان والتبيين ، كذلك كانت هذه الطريقة شائعة عند السوفسطائيين فى تعليمهم للبيان ، كما ذكر « إيجيه » عن هبياس[2] ، وكما يقول فى موضع آخر من كتابه : « إن الجزء الأول من طريقة معلمى البيان المتقدمين هو تدوين نماذج بلاغية كالفواتيح والخواتيم . وقد تكون خطباً كاملة عن موضوعات تختلف فى حقيتها ، وتعد من هذا النوع مجموعات مختلفة لبروتجوراس وجورجياس وتراز يماك وانتيفون وسيفالوس»[3] .

ثم من ذا الذى يرى عناية الجاحظ بمدح الشىء وذمه فى كثير من الموضوعات التى يعرض لها فى كتبه ، والتى يخصها بالتأليف ، إذ يكتب كتاباً فى ذم الكتاب وآخر فى

(١) Eggér, *Essai sur l'Histoire de la Critique chez les Grecs*

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٢ . (٣) المصدر نفسه ، ص ١١٤ — ١١٥ .

مدحهم ، وكذلك فى ذم الوراقين ومدحهم أيضاً[1] ، وإذ يضع رسالة فى مدح العلوم وذمها ، حتى شاع عنه هذا الاتجاه ، ثم لا يذكر أسلوب « معلمى البيان » هؤلاء ؟ وهم الذين كانوا بتأثير مذهبهم الفلسفى فى حقائق الأشياء لا يعتبرون الكلام إلا أداة للخداع ووسيلة إلى العبث ، كما يقول « ايجيه » ، وكما يصورهم أفلاطون فى محاورته « جورجياس » . بل إن كتاب البخلاء الذى نحن الآن بصدد الكلام عنه يعتبر فى بعض نواحيه صورة واضحة من هذه النزعه ، إذ هو يمثل فى مجموعه قدرة الجاحظ على صناعة الكلام والمداورة بالمعانى المختلفة ، والإقناع بما لا يذهب إليه أو يؤمن به . ولعلنا نستطيع أن نتمثل هذا ، بصورة خاصة ، فى رسالة أبى العاص الثقفى ورد ابن التوأم عليه ، وفى جزء من قصة تمام ابن جعفر .

بل إنا لنلاحظ — فوق ذلك — نوعاً من المشابهة فى اتخاذ أساليب معينة ، تعتمد على البراعة فى اصطناع الكلام ، والمرانة فى استخدام اللغة ، والارتفاع بها عن أن تكون أداة ساذجة للتعبير المجرد فحسب . يقول العلامة « إيجيه » فى كتابه الذى أشرنا إليه : « إن إيفانوس الباروسى Evénus be Paros كان موهوباً فى ابتداعه للمدائح والأهاجى غير المباشرة ، وهما صورتان من السخرية التى تقوم على الهجاء الذى يشبه أن يكون مديحاً ، والمدح الذى يشبه أن يكون هجاء » ، وهذا بعينه هو ما يمكن أن توصف به بعض أساليب الجاحظ الساخرة ، كالذى نراه فى رسالة التربيع والتدوير مثلا .

وبعد ، فهل يحق لنا — بعد هذا — أن نعتبر الجاحظ من تلاميذ هؤلاء البيانيين ، وأنه إنما تأثر بهم ، فسلك مسالكهم ، وانطبع بطابعهم . وبهذا التأثر كان يتناول الموضوعات المختلفة ، ويشقق المعانى المتغايرة ، إلى غير ذلك مما يصل بينه وبينهم ؟ إن إثبات هذا أمر عسير كل العسر ، لا يكفى فيه ما قدمناه من وجوه الشبه ، ولا يعضده أن مذهب هؤلاء السوفسطائيين كان معروفاً فى عهد الجاحظ . وإنما مبلغ القول فى هذا لا يعدو — فيما نحسب — ما قاله أستاذنا الدكتور طه حسين فى بحثه عن « البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر » ، وذلك إذ يقول : « لقد أثرت الهيلينية فى الأدب العربى البحت من طريق غير مباشر ، لتأثيرها أولا فى متكلمى المعتزلة الذين كانوا جهابذة الفصاحة العربية غير مدافعين ، والذين كانوا بتضلعهم من الفلسفة اليونانية مؤسسى البيان العربى حقاً . نعم لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا مطلعين على البيان اليونانى لعهدهم ، ولكن لا شك أن

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٦ : ١٠٩ ط دار المأمون ؛ القاهرة

تفكيرهم الفلسفى قد أعدهم لأن يتصوروا صناعة البيان كما كان يتصورها اليونانيون من بعض الوجوه »[١] فهذا التفسير لما بين الجاحظ ومعلمى البيان اليونانيين من تشابه هو تفسير قائم على حقائق الأشياء الثابتة ، لا على فروض يعسر كل العسر إثباتها ، ومرده إلى تلك الصفة الكلامية التى ذكرناها .

وإذا كانت هذه الصفة الكلامية ، بكل ما تتضمنه من معنى ، هى صاحبة التأثير الأول فى هذا التوجيه الأدبى ، كما يتمثل فى الأدب الجاحظى ، فإن من الطبيعى أن يكون لهذه الصفة مظاهرها فى الأسلوب الذى يؤدى به ذلك الأدب .

فمن ذلك أنه أدب عقلى ، يعتمد — إلى حد ما — على الترتيب العقلى والتقسيم المنطقى[٢] وهذه الظاهرة بينة فى كثير من كتابات الجاحظ الأدبية . وحسبنا فى التمثيل لها هذه القطعة من صدر كتابه « البخلاء » :

« ولا بد أن تعرفنى الهنات التى نمت على المتكلفين . . . لتقف — زعمت — عندها ، ولتعرض نفسك عليها ، ولتتوهم مواقعها وعواقبها . فإن نبهك التصفح لها على عيب قد أغفلته ، عرفت مكانه فاجتنبته . فإن كان عتيداً ظاهراً معروفاً عندك نظرت ، فإذا كان احتمالك فاضلا عن بخلك ، دمت على إطعامهم ، وعلى اكتساب المحبة بمؤاكلتهم ، وإن كان اكترائك غامر الاجتهاد ، سترت نفسك وانفردت بطيب زادك ، ودخلت مع الغمار ، وعشت عيش المستورين . وإن كانت الحروب بينك وبين طباعك سجالا ، وكانت أسبابكما أمثالا وأشكالا ، أجبت الحزم إلى ترك التعرض ، وأجبت الاحتياط إلى رفض التكلف ، ورأيت أن من حصل السلامة من الذم فقد غنم ، وأن من آثر الثقة على التغرير فقد حزم » .

ومن هذه المظاهر أنه أدب واقعى لا أدب خيالى . وهذه الواقعية تظهر فى نواحيه المختلفة ، ومنها أنه يعتمد على إبراز الصورة ، كما يراها الرائى ، وكما يرسمها المصور ، لا على الصور الخيالية التى ينتزعها الخيال ، والتى يستعين بها الشعر من التشبيه والمجاز

(١) *La Rhétorique Arabe de Djahiz à 'Abd Al Kahir*, Etude Présentée au XVIIIe Congrés des Orientales à Leiden le 11 Septembre 1931 ، وترجمه إلى العربية الأستاذ عبد الحميد العبادى وجعل كالمقدمة لكتاب نقد النثر ، ص ١١ ط دار الكتب المصرية ١٩٣٢ م .

(٢) روى الجاحظ — فيما روى من تعريف البلاغة — أنه قيل لليونانى : ما البلاغة ؟ فقال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام (البيان والتبيين ١ : ٩٠ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ) .

والاستعارة . وسنعرض لهذه الظاهرة بعد ، حين نأخذ فى تعرف بعض الخصائص الفنية لكتاب البخلاء .

وأما الصفة العلمية للجاحظ ، على الصورة التى أجملنا صفتها ، فقد أمدت نزعته الأدبية بكثير من المادة المعنوية ، فجاء أدباً دسماً غزيراً مملوءاً بما يثير التأمل ، ويبعث على التفكير والنظر ، فقد تفتحت أمامه آفاق المعرفة فى شتى مناحيها ، واستطاعت نفسه أن تمتد فى تلك الآفاق البعيدة المختلفة ، وبذلك وجدت تلك النزعة مادة خصيبة متنوعة لها . وكذلك صار أدب الجاحظ من صنف آخر غير ذلك الصنف الذى يعتمد مرة على الصور الخيالية يولدها ويشققها ويتلاعب بها ، ومرة على اللفظ وما يثيره فى الذهن ، وما يبتعثه فى الخيال ، فتتداعى المعانى بتداعى الألفاظ ، فهى معلقة بها ، حميلة عليها .

كان الجاحظ فى غنى عن هذا ، إذ كان غنياً بالمادة المعنوية التى أتاحتها له دراسة طويلة دائبة منوعة ، وملاحظة فى الحياة قوية نافذة مستبصرة ، فهو يمتح منها كيف شاء ، وكيف داربه الكلام وحسبنا أن نقرأ رسالته فى أحمد بن عبد الوهاب لنرى كيف أمدته معارفه الواسعة بما جعل هذه الرسالة بدعاً فى التهكم والسخرية . وماذا عسى كان يبلغ من السخرية لو أنه كان خلاء من تلك المعارف ، إلا أن يضرب لفظاً بلفظ ، أو يولد معنى من معنى ، أو يلجأ إلى ما هو مألوف فى مثل هذا الموضوع من رذل القول وساقط الكلام .

على أنا نخص بالذكر نوعاً من المعارف كان الجاحظ متسعاً فيه ، وهو بالأدب أمس صلة ، ذلك هو المعارف الاجتماعية ، فقد أتاح هذا النوع لنزعته الأدبية أن تتخذ من الحياة الاجتماعية موضوعاً لها ، فأتيح للأدب العربى هذا النوع من الأدب الموضوعى ، وهو الذى طغى عليه الأدب الذاتى طغياناً كبيراً ، ولعل من أكبر أسباب هذه الذاتية قصور معارف الأدباء ، فلا تجد النزعة الأدبية مسرباً لها ، إلا التحدث عن النفس ووجداناتها .

وإذا كانت هذه الصفة العلمية قد أمدته بالمادة المعنوية ، فإن صفته الروائية قد أمدته بالمادة الصورية ، كما يمكن أن يقال . فجعلت عبارته سمحة طيعة ، وجاء أسلوبه اللفظى من أسمح الأساليب وأجملها ، وأبعدها عن المعاظلة والتكلف وذلك التعثر اللفظى الذى يرجع فى كثير من حالاته إلى قلة المحصول اللغوى ، ثم لعله كذلك من أدقها فى الدلالة على ما يراد التعبير عنه . ذلك أن دراسته للغة ، وروايته لآثارها ، واستبطانه لروحها ، وطول إلفه لأساليبها وعباراتها ، قد وضع بين يدى نزعته الفنية ذخيرة حافلة منوعة من الصور اللفظية ، والألوان اللغوية ، تبرز بها فنها ، فهى تستطيع أن تجد فى يسر ما يحقق

لها الجمال والدقة فى العبارة معاً . وبذلك تجىء صوره البيانية دقيقة التجاوب مع نفسه ، قوية التأثير فى نفس القارئ . بما فيها من جمال وبيان وطواعية .

ولكن هنالك من آثار هذه الرواية اللغوية الواسعة . والثروة اللفظية الكبيرة . أثراً لا يروق الكثير من القارئين ، وهو ذلك الإسهاب والترجيع فى إيراد المعنى ، وتلك المواجهة اللفظية فى تأليف الجمل ، من غير كبير طائل ، كما يقولون ، كما نرى مثلا فى هذه العبارة من كتاب البخلاء : « ولا بد من أن تعرفنى الهنات التى نمت على المتكلفين ، ودلت على حقائق المتموهين ، وهتكت عن أستار الأدعياء ، وفرقت بين الحقيقة والرياء » ، إذ يذهبون إلى القول بأن المعنى الذى سيقت له هذه العبارات لم يكن يتطلبها جميعاً ، وأن ما بين هذه الجمل المزدوجة من فروق ليس إلا فروقاً ثانوية بسيطة ، لا خطر لها ، ولعل اللفظ هو الذى استحضرها .

وقد يكون فى مثل هذا القول شىء من الغلو فى الذهاب بهذه الظاهرة هذا المذهب ، وفى الحكم عليها ذلك الحكم . ولكن مهما يكن من أمر فلسنا نرجع بها إلى سعة روايته ، وإن تكن هى التى أعانت عليها ومكنت لها ، وإنما مرجعها عندنا إلى طبيعة الجاحظ الفنية المعنية بالجمال ومظاهره المختلفة . والجمال اللفظى — إن صح أن يكون هنالك جمال لفظى بحت — من أقوى عناصر الأدب ، وهذه المزاوجة اللفظية ليست إلا مظهراً من مظاهر هذا الجمال اللفظى . ثم إلى ما أصابه النثر من تطور جعله يشارك الشعر فى التعبير عن الموضوعات الشعرية . فكان لا بد له — تماماً على ذلك — من أن يشاركه أيضاً فى بعض خصائصه اللفظية ، ليستطيع أن يحقق هذه الغاية الجديدة . ولا ريب أن الجاحظ يعتبر — بحق — من أول من مكن لهذا التطور وهيأ له ، وأقوى من ظفر للنثر العربى بهذه المنزلة .

وأخرى هى أن ذلك نوع من الترف اللغوى بدأ عند الجاحظ ، ثم استفاض فيما بعده ، ولا سيما فى القرن الرابع ، فهو ليس فى بعض أسبابه إلا صورة من صور الترف الذى أخذ يسيطر على الحياة العراقية خاصة ، ويلونها بألوانه ، فى ذلك العهد . وهو ذلك الترف الذى يرجع إلى الميل نحو الزينة والزخرف ، والمبالغة فى إبراز نواحى الحياة المختلفة فى صور براقة معجبة . فمن الطبيعى أن يكون لهذا الميل مظهره فى الأسلوب الأدبى ، فنرى رجلا كالجاحظ ، شديد الحس بميول عصره ، قوى الطواعية للاتجاهات السائدة ، يستجيب بطبيعته إلى ذلك الميل ، فيبدو فى أسلوبه على ذلك النحو الذى نراه ، ونرى أنه استطاع أن يحقق به للغة العربية فضلا من الثروة الفنية .

٢

وبعد ، فما الذى لفت الجاحظ إلى موضوع البخلاء ، يصطنعه كتاباً ، وهل كان مبتدعاً فيه ، أم سبقه السابقون من كتاب العربية إليه ؟

أما أنه ابتدع الكتابة فى هذا الموضوع ابتداعاً فلا ، فابن النديم فى الفهرست ، والجاحظ نفسه فى كتاب البخلاء ، يشيران إلى أن له فى هذا الموضوع أسلافاً من أمثال الأصمعى وأبى الحسن المدائنى وأبى عبيدة . ولكن الأمر مختلف بين الجاحظ وبينهم . ونحن فى هذا الفصل نحاول أن نحدد الألوان المختلفة ، والنزعات التى كانت تسود هذا النوع من الكتابة :

كانت أحاديث البخل وأخبار البخلاء تسير فى طريقين ، وتتجه إلى غايتين . وفى أحد الطريقين يقوم دعاة الشعوبية ، فيردون على العرب فخرهم التقليدى بالكرم ، ويقولون إن أكثر هذا الفخر كلام لا يفى به الفعل ، ونوع من النفج لا حقيقة له فى الواقع . وفى سبيل ذلك يذهبون يتلقطون من هنا وهنا أخبارهم مما يتعلق بمآكلهم الغثة ، ومطاعمهم الكريهة ، وهيئة معيشتهم الخشنة ، إلى غير ذلك مما هو من لوازم البداوة ، ليغضوا بذلك من قدرهم فى نظر جمهور الناس ، ويحيطوهم فى أخيلتهم بجو من الضعة والمهانة ، وليقولوا لهم : أنى تكون مع هذه الحياة الدنيئة التى يحيونها كل تلك الدعاوى العريضة التى يتشدق الشعراء بها ، ويتغنى بها أنصار العربية المنافحون عنها . كما وجدوا فى باب الهجاء عند شعراء العرب مادة موفورة يصدرون عنها . والهجاء قائم على التجنى ، « والعرب إذا وجدت رجلا من القبيلة قد أتى قبيحاً ألزمت ذلك القبيلة كلها » كما يقول الجاحظ[١] . فحين ظفروا بهذه المجموعة عقدوا عليها خناصرهم ، وذهبوا يصنفونها أصنافاً ، ويملؤون بها الجو على العرب والعربية كافة تشنيعاً وسخرية . وهيهات أن تسلم قبيلة من هذه الشنع ، متى جاءت من هذه السبيل . وقد أشار الجاحظ إلى هذا المنحى ، فقال — بعد أن أورد شيئاً من هذه الأهاجى — : « . . . وهذا الباب يكثر ويطول . . . فإن أردته مجموعاً فاطلبه فى كتاب الشعوبية، فإنه هنالك مستقصى »[٢] ، ويقول فى موضع آخر : « والشعوبية

---

(١) البخلاء ص ٢٣٤ .   (٢) البخلاء ص ٢٣٧ .

والآزاد مردية المبغضون لآل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ممن فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالإسلام ، تزيد في جشوبة عيشهم وخشونة ملبسهم ، وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيشهم » [1] .

فهذا نوع من حديث البخل وجهته هذه الوجهة ولونته هذا اللون تلك الخصومة الجنسية التي ثارت بين الروح العربية والروح الشعوبية ، كما وجهت أنواعاً أخرى مختلفة من الأحاديث ، وخلقت ضروباً أخرى من الكتب والتآليف .

وفي الطريق الأخرى يقوم دعاة الدولة القائمة ، ومن وضعوا أنفسهم في خدمة السلطان ، ومسايرته في سبيله ، من العلماء وأهل الأدب . ومن هؤلاء من ينصر الدعوة العربية ويتعصب لها كالأصمعي ، ومنهم من هو أميل إلى الشعوبية كالمدائني . وليست الدعوة للدولة ببعيدة عن الدعوة للشعوبية ، فبينهما وشائج واصلة ، وإن كانت قد اتخذت لوناً خاصاً بها .

ولقد كانت الدولة العباسية تشعر ، منذ قامت على أنقاض الأمويين ، بالحاجة إلى التمكين لنفسها ، والتخلص من هذه الأشباح الأموية التي كانت تتخايل لها . ببث الدعوة ضد هؤلاء الذين كانوا ما يزالون يمثلون في كثير من الأذهان طائفة من المزايا والفضائل ، لا بد للدولة من محاولة محقها ، باصطناع ضروب مختلفة من الدعاية ، إلى جانب ما كانت تصطنعه من أخذ الأمويين وأنصارهم بالقوة ، وتحريم الإشادة بذكرهم . فكان من مظاهر هذا الموقف الذي اتخذته ضد الأمويين أن يوحى إلى العلماء والكتاب بكتابة الكتب وإذاعة الرسائل ، إشادة بمآثر الدولة القائمة ، وتمجيد العباس بن عبد المطلب ، وتفضيل هاشم على عبد شمس ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي تحقق ذلك الغرض ، من التماس شنع الأمويين وتصنيف الكتب فيها . وطبيعي أن يكون لرواة الأخبار نصيبهم الموفور من هذه السياسة . وكذلك جعلوا يتلقفون أخبار الشنع ما وجدوها ، ويضعونها ويتزيدون فيها على خلفاء بني أمية وعمالهم وسراتهم . ولعل في هذا الخبر الذي يحكيه الطبري ما يؤدي إلينا صورة من هذا الذي نقرره . قال[2] :

« وذكر محمد بن عمر عن حفص مولى مزينة عن أبيه ، قال : كان هشام الكلبي صديقاً لي ، فكنا نتلاقى ، فنتحدث ونتناشد . فكنت أراه في حال رثة ، وفي أخلاق ، على بغلة هزيلة ، والضر فيه بيّن وعلى بغلته . فلما راعني إلا وقد لقيني يوماً على بغلة شقراء

(١) البخلاء ص ٢٢٨ . (٢) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٣ ، ط الحسينية المصرية .

من بغال الخلافة ، وسرج ولجام من سروج الخلافة ولجمها ، فى ثياب جدد ورائحة طيبة . فأظهرت السرور ، ثم قلت له : أرى نعمة ظاهرة . قال لى : نعم ! أخبرك عنها ، فاكتم : بينا أنا فى منزلى منذ أيام بين الظهر والعصر ، إذ أتانى رسول المهدى . فسرت إليه ، ودخلت عليه ، وهو جالس خال ليس عنده أحد ، وبين يديه كتاب . فقال : ادن يا هشام ! فدنوت ، فجلست بين يديه . فقال : خذ هذا الكتاب فاقرأه ، ولا يمنعنك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه . قال : فنظرت فى الكتاب ، فلما قرأت بعضه استفظعته ، فألقيته من يدى ولعنت كاتبه . فقال لى : قد قلت لك إن استفظعته فلا تلقه . اقرأه بحقى عليك حتى تأتى على آخره . قال : فقرأته ، فإذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلباً عجيباً ، فلم يبق له فيه شيئاً . فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الملعون الكذاب ؟ قال : هذا صاحب الأندلس . قال : قلت فالثلب — والله — يا أمير المؤمنين فيه وفى آبائه وفى أمهاته . ثم اندرأت أذكر مثالبهم . قال : فسر بذلك وقال : أقسمت عليك لما أمللت مثالبهم كلها على كاتب . قال : ودعا بكاتب من كتاب السر فجلس ناحية ، وأمرنى فصرت إليه ، فصدر الكاتب من المهدى جواباً ، وأمللت عليه مثالبهم ، فأكثرت ، فلم أبق شيئاً ، حتى فرغت من الكتاب . ثم عرضته عليه ، فأظهر السرور . ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل فى خريطة ودفع إلى صاحب البريد ، وأمر بتعجيله إلى الأندلس . قال : ثم دعا بمنديل فيه عشرة أثواب من جياد الثياب وعشرة آلاف درهم وهذه البغلة بسرجها ، فأعطانى ذلك ، وقال لى : اكتم ما سمعت » .

وما نحب أن نقف طويلا عند هذه القصة ، وحسبنا ما تدل عليه من هذه المعركة القلمية التى كانت مظهراً من مظاهر الخصومة بين العباسيين والأمويين ، والتى استخدم لها العلماء والكتاب من هؤلاء وأولئك يتبادلون الشنع ويتقاذفون بالمثالب . ولعل من أقرب الشنع تأثيراً فى نفوس الجماهير ما يتعلق منها بالمطاعم ، بين الشره الذى تتقزز منه الحضارة ، والبخل الذى تنفر منه الإنسانية . وهما يتجاوران كثيراً فى حديث البخلاء .

وهكذا نجد أن معاوية كان « نهماً شحيحاً على الطعام . . . كان يأكل فى كل يوم خمس أكلات ، آخرهن أغلظهن ، ثم يقول : يا غلام ! ارفع ، فوالله ما شبعت ولكن مللت ، وأنه أصلح له عجل مشوى ، فأكل معه دستاً من الخبز السميذ وأربع فرانى وجدياً حارًّا وآخر بارداً ، سوى الألوان ، ووضع بين يديه رطل من الباقلا الرطب فأتى عليه » . وأما شحه على الأكل فإن ابن أبى بكرة دخل عليه ومعه ابنه ، فجعل ابنه يأكل أكلا

مفرطاً ومعاوية يلحظه ، وفطن ابن أبى بكرة لحنق معاوية ، وأراد أن ينهى ابنه عن كثرة الأكل فلم يتفق له ذلك ، وخرجا من عند معاوية . فى الغد حضر الأب وليس معه ابنه ، فقال له معاوية : ما فعل ابنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين انحرف مزاجه . قال : علمت أن تلك الأكلة ما كانت تتركه حتى تهيضه[1] .

وعبد الملك بن مروان كان يلقب برشح الحجر ولبن الطير لبخله[2] .

وكذلك يتحدثون عن سليمان بن عبد الملك أنه كان نهماً قذر الأكل ، « قال الأصمعى : ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفافيد ، فقال لى : قاتلك الله ! ما أعلمك بأخبارهم ! اعلم أنه عرضت على جباب بنى أمية ، فنظرت إلى جباب سليمان ، وإذا بكل جبة منها أثر كأنه أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتنى بذلك الحديث . ثم قال : على بجباب سليمان . فأتى بها . فنظرنا فإذا بتلك الآثار فيها ظاهرة ، فكسانى منها جبة . وكان الأصمعى ربما خرج فيها أحياناً فقال : هذه جبة سليمان التى كسانيها الرشيد »[3] .

وذكر المدائنى فى كتاب الأكلة أنه خرج يوماً من منزله يريد منزل يزيد بن المهلب ، فتلقاه ، فدخل منزله . فقال له : أتريد الغداء يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ! فأكل أربعين دجاجة كردناجا سوى ما أكل من الطعام[4] . إلى كثير غير ذلك من القصص التى تحكى عن سليمان بن عبد الملك خاصة ، من هذا القبيل ، كالقصة التى يرويها ابن قتيبة عن الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص[5] .

وكذلك كان هشام بن عبد الملك فيما يذكرون ، كان بخيلا شديد البخل ، كما يقول ابن الطقطقى[6] . وذكر الجاحظ أنه دخل حائطاً له فيه فاكهة وأشجار وثمار ، فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة . فقال هشام : يا غلام اقلع هذا واغرس مكانه الزيتون[7] .

وكذلك كان عمال العصر الأموى ووجوهه ، كخالد بن عبد الله القسرى ، وخالد ابن صفوان المنقرى ، والمغيرة بن عبد الله الثقفى ، وزياد الحارثى ، وبلال بن أبى بردة ،

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٨٠ ط الرحمانية ١٩٢٧ م ، البخلاء ص ١٥٢ — ١٥٣ .
(٢) نهاية الأرب ٣ : ٣١٥ ، ط دار الكتب المصرية .
(٣) مروج الذهب ٥ : ٤٠١ ط باريس ، الفخرى ، ص ٩٣ .
(٤) نثر الدرر للآبى ٤ : ٢٣١ . (٥) عيون الأخبار ٣ : ٢٢٧ .
(٦) الفخرى ص ٩٦ . (٧) البخلاء ص ١٥٠ .

والحكم بن أيوب الثقفى ، ومن إليهم ، موضع التندر بالبخل والشره من الأصمعى والمدائنى وأبى عبيدة . وقد أورد الجاحظ طرفاً من هذه الأخبار مسندة إليهم ، وهى مقصورة على العصر الأموى[1] .

هذان هما الاتجاهان البارزان فى الحديث عن البخل وإقحامه فى باب الكتابة والتأليف . ولا ريب أنه كان هناك اتجاهات أخرى يتجه إليها هذا الحديث ويصطبغ بألوانها فى البيئات الأدبية فى ذلك العصر ، كبعض الأغراض الشخصية التى تثير فى أصحابها الرغبة إليه ، وتشعر نفوسهم الحاجة إلى اصطناعه ، كالذى نحكيه — فى بعض ما نستقبل فى هذه المقدمة من حديث الوضع — عن أبى العيناء ، ولكنها اتجاهات لم تبلغ ذلك المبلغ . كما أنا إنما عنينا بهذين المنحيين عناية خاصة إذ كان الجاحظ نفسه قد أشار إليهما فى كتابه على النحو الذى رأيناه . وإن كنا لا نستطيع أن نملك أنفسنا عن التحفظ فى إطلاق القول بنسبة كل ما صدر ذلك المصدر إلى هذا الغرض أو ذاك ، من النعرة الجنسية أو الدعاية السياسية ، فقد يكون بعض الكتاب قد سلك هذا المسلك من غير أن يضمر فى نفسه شيئاً من ذلك ، وإنما هو عنده باب من أبواب الحديث عن الحياة العربية ، وسبيل من سبل تصويرها وتسجيل ألوانها المختلفة .

ومهما يكن من أمر فهاهم أولاء أسلاف الجاحظ فى الكتابة عن البخل والبخلاء ، وها هو ذا أسلوبهم فى تناول ذلك الموضوع . ومهما تكن حقيقة الحوافز إليه ، فقد كانت كتابتهم فيه أخبارية لا فنية ، تعرض صوراً من الحياة الماضية دون الحياة الحاضرة ، ولكنها مع ذلك كانت — فيما نحسب — مما لفت الجاحظ إلى هذا الموضوع ، ونبه نزعته الفنية إلى اقتحامه والإبداع فيه ، فكان هذا الكتاب : كتاب البخلاء .

وكان هذا شأن الجاحظ فى كثير من الموضوعات التى طرقها ، كشأنه فى كتاب اللصوص مثلا وقد عنينا بعرض صورة منه فى موضع آخر[2] . فأبو عبيدة يضع كتابه عن « لصوص العرب » يسجل فيه هذا اللون من ألوان الحياة العربية القديمة ، كما يعرضها الشعر والخبر ، فينقل الجاحظ موضوع « التلصص » من الحياة الغابرة إلى الحياة الحاضرة ، ويرتفع به عن الأسلوب الأخبارى إلى الأسلوب الفنى . وكذلك كان شأنه — فيما نرى — فى موضوع المفاخرة بين الكلب والديك ، وهو الموضوع الذى كسر عليه من كتاب الحيوان قريباً من ربعه . فقد كانت هذه المفاخرة فى أصلها مظهراً من مظاهر الخصومة

(١) البخلاء ص ٦٦ ، ١٤٨ — ١٥٣ .

(٢) انظر جزء التعليقات والشروح فى هذا الكتاب (ص ٢٤٧ — ٢٥٠) .

بين النزعتين العربية والشعوبية ، فنقلها الجاحظ من هذا الميدان ، وارتفع بها عن هذا الدرك ، وجعل منها موضوعاً أدبيًّا طريفاً .

وهكذا نرى فى كتاب البخلاء مظهراً من مظاهر النزعة الأدبية الجياشة القوية الحس السريعة الاستجابة التى يمتاز الجاحظ بها ، والتى كانت تطبع شخصيته بطابعها . فقد كانت الغاية من إثارة موضوع البخل والتحدث فى نوادر البخلاء ووضع الكتب فى ذلك غاية سياسية لا تمت إلى الأدب أو الفن بصلة ، أو غاية من غايات المعرفة المجردة ، ولذلك كانت بعيدة عن تصوير الحياة الاجتماعية الراهنة ، وتحليل البخل والحركات النفسية التى تداخله ، فذلك منزع آخر هو منزع النفس الفنية الشاعرة . أخذ الجاحظ هذا الموضوع الذى كان أكبر مثاره الشهوات السياسية والعنصرية ، والذى كان جديراً أن يثير عوامل المشاقة والمخاصمة ، فجعله موضوعاً أدبيًّا خالصاً ، ومتعة فنية رائعة. وكان رهيناً بالأغراض الموقوتة التى أثير من أجلها ، فصار خالداً خلود النفس الإنسانية : يمتح منها ، ويصدر عنها ولها .

وهنا يبرز لنا سؤال نسائل أنفسنا إياه : أكانت تداخل نفس الجاحظ إذ كان يكتب هذا الكتاب أغراض شخصية ، لونت فصوله الأدبية بألوانها ، وأثرت فى توجيهها ؟ وليس ذلك مما يعيب الكتاب ويغض من قيمته ، فكم من قطعة فنية رائعة كان الحافز إليها غرضاً شخصيًّا تافهاً ، فلم يغض ذلك منها ، ولم ينقص من روعتها . الواقع أن الإجابة على هذا السؤال أمر عسير كل العسر ، فمن الصعب أن نتصور رجلا عصبى المزاج كالجاحظ كانت نفسه خلاءاً من المؤثرات الشخصية التى لا مناص من تأثر فنه بها . ولكننا حين نبحث عن هذه المؤثرات فى كتاب البخلاء لا نهتدى إلى شىء منها ، لأننا نحتاج فى معرفتها إلى معرفة الصلات بينه وبين معاصريه من مختلف الطبقات معرفة دقيقة مفصلة ، وهذا أمر تقطعت أسبابنا إليه إلا قليلا . فنحن منه فى مجهل مشتبه النواحى . وإذا نحن حاولنا أن نتخذ من المذاهب الدينية والاجتماعية هادياً يبين لنا السبيل ، لم نكد نصل من ذلك إلى شىء ، فها هو ذا يسخر من أبى الهذيل العلاف وعلى الأسوارى ، وهما من أئمة المعتزلة الذين ينتسب إليهم ، ثم ها هو ذا يسخر من الأصمعى العربى وأبى سعيد المدائنى الشعوبى . وهكذا يختلط علينا الأمر حتى لا نتبين شيئاً .

والواقع أن مرجع الأمر فى هذا الكتاب إلى نزعة الجاحظ الفنية وحدها ، فهى حافزته إليه وباعثته فيه وصاحبة الأمر فى تصريفه وتلوينه . وإن كان الأستاذان أحمد العوامرى وعلى الجارم يغمزان الجاحظ فى الفصل الذى كتباه عنه ، بأنه إنما يصدر فى هذه

البراعة التى يمتاز بها فى وصف البخل ، وفيما يلقى على ألسنة هذا وذاك من البخلاء ، من عبارت الإيثار له والمحاجة عنه ، عن أنه كان هو نفسه بخيلا ، وبذلك استطاع أن « يلقنهم الحجج على حسن الاتصاف بادخار المال وأنه الحزم بعينه ، والتدبير الذى هو عماد الحياة المتزنة الفاضلة » و « لأن الولوع بالشىء يحبب إلى النفس التحدث عنه والإفاضة فيه ، ولأن من عرف الجاحظ وأن من أبرع صفاته أن يستر ما يحب أحياناً بإعلان ما لا يحب رجح أنه كان بخيلا »[1] .

وهذا كله كلام ملقى على عواهنه . ولا ندرى كيف ذهب عن الأستاذين الفاضلين أن يستشفا هذه السخرية التى تشيع فى كلام الجاحظ وما يرسل من القول على ألسنة البخلاء . بل كيف غاب عنهما أن أول ميزة لرجل الفن وأظهرها أنه يستطيع أن يتكلم بكل لسان ، ويصطنع كل هيئة ، ويتغلغل إلى بواطن النفوس المختلفة ، فيشرف عليها ، ويخالطها ، ويصور الحركات المختلفة التى تداخلها ، ويبرز الشخصيات المختلفة بجميع مشخصاتها ، من السمات والحركات والكلمات . فإذا كان الجاحظ قد أجاد فى رسم شخصيات البخلاء فى كتابه وفى إنطاقها بما هو أشبه بها ، فإنما ذلك فى حقيقته مظهر من مظاهر تلك الموهبة الفنية القوية ، لا أثر من آثار بخله وكزازة يده ، وإلا وجب أن نخلع على رجل الفن الواحد جميع الصفات المتناقضة التى وصف بها شخصياته وأبرزها فيها .

والآن وقد عرفنا شيئاً من الملابسات التى لفتت الجاحظ إلى موضوع البخلاء واقترحته عليه ، والعامل الأول الذى بعثه إليه ، نحاول أن نتعرف شيئاً من الجو الاجتماعى الذى كان يحيط به ، والذى طبع كتاب البخلاء بطابعه ، بعد أن ألغينا من حسابنا ما عسى أن يكون من المؤثرات الشخصية التى لابسته فى كتابته ، إذ كنا منها فى مجهل مبهم غامض .

---

(١) كتاب البخلاء ، طبعة وزارة المعارف المصرية ، ١ : ١٥ — ١٦ . ويتوارد الأستاذان الفاضلان هنا مع المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى (فى الفصل الذى كتبه عن محمد بك المويلحى) ، فى وصف الجاحظ بالبخل ، وإن كان يذهب مذهباً مخالفاً لما ذهبا إليه فى تقرير صلة ما بين بخله وكتابه البخلاء ، إذ يحكمان هذه الصلة بينهما على النحو الذى رأيناه . فأما الأستاذ البشرى فيذهب إلى أن لا وجه لمثل هذه الصلة ، ويرى أنك « لو اتكأت فى طلب خلال الجاحظ على مجرد آثاره لخرج لك منها أنه كان أزهد الناس فى المال ، وأنه لو سقط لبده لكان أجود به من الريح المرسلة ، فإن أحداً لم ينع البخل ولم يذم الأشحاء كما نعى الجاحظ وكما ذم ، وإن أحداً لم يؤلف كتاباً فى البخلاء أبلغ فيهم إيجاعاً ، وأشد لهذه الخلة وأصحابها إقذاعاً ، كما صنع الجاحظ . ومع هذا لقد كان هو نفسه من أشد المبخلين الذين أوفوا على الغاية من الجشع ، والحمل على المروءة أحياناً فى طلب المال » .

وأول ما نلاحظه هو ما صارت إليه الحياة الاجتماعية من تعقد مشتبك النواحي ، منذ انتقلت الدولة إلى الشرق ، وأسرعت بتلك الحياة إلى ذلك التعقد ، فأصبحت متعددة الوجوه كثيرة المطالب وفارقتها تلك البساطة التي كانت ما تزال غالبة على المجتمع الإسلامي من قبل . وبذلك صار المال ميزان الرجال ، وأصبح من الأمثلة الجارية في مدينة كبغداد مثلا : « المال المال وما سواه محال » [1]، ورأينا أبا نواس يصور — في بساطة — المثل المنشود في عصره بقوله :

سأبغي الغنى : إما جليس خليفة ... نقوم سواء أو مخيف سبيل

وجعل الناس يتكالبون على المال : يتوسلون إليه بشتى الوسائل : لا يعفون عن محرم ولا يتورعون عن خبيث ، ولا يعبأون أن يتخذوا من المعاني الكريمة أسباباً يخادعون بها ، حرصاً عليه وإجلالا له . حتى أصبحت مظاهر الدين شركاً من شراكه . وإلى هذا يشير ابن المبارك في شعر له يدفع به الزهاد عن الإقامة في بغداد ، إذ يقول[2] :

إن بغداد للملوك محل ... ومناخ للقارئ الصياد

ولما ولي معاذ بن معاذ قضاء البصرة كتب إليه أبان اللاحقي :

يا معاذ بن معا ... ذ الخير يا خير حكيم
قد تهيا اللاحقيـ ... ون وأصناف تميم
لزموا مسجدنا في ... ضيقه أي لزوم
شمروا القمص وحكوا ... موضع السجد بثوم
كلهم يأمل أن تو ... دعه مال يتيم
فاتق الله فقد أصـ ... بحت في أمر عظيم[3]

ومثل هذا أبيات مساور الوراق التي رواها الجاحظ في البيان والتبيين وأورد بيتين منها هنا في البخلاء[4] . ومما يصور لنا ذلك ما ذكره الثعالبي في ثمار القلوب عن « خريطة شهر » إذ يقول : « يضرب مثلا في ما يختزله القراء والفقهاء من أموال الناس والودائع » . وذلك أن شهر بن حوشب — وكان من جلة القراء والمحدثين — دخل بيت المال فأخذ خريطة فيها دراهم ، فقال فيه القائل :

(١) انظر شرح مقامات الحريري للشريشي ٢ : ١٩٢ . (٢) تاريخ بغداد للخطيب ١ : ٦ .
(٣) الأوراق ١ : ٢٨ .
(٤) البيان والتبيين ٣ : ١٧٥ — ١٧٦ ط لجنة التأليف ١٩٥٠ ، البخلاء ص ٢٠٨ .

لقد باع شهر دينــه بخريطــة   فمن يأمن القراء بعدك يا شهر[1]

إلى كثير غير هذا من الأخبار والآثار التى تبين لنا إلى أى حد عظمت مكانة المال وفتنته حتى اتخذت تلك المعانى التى كان الأصل فيها العزوف عن الدنيا والبعد عن زخارفها وسيلة للمخادعة عليها .

وهناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة أشد الاتصال ، وتعد فى حقيقة الأمر من أول العوامل المؤثرة فى قيامها ، وهى نشوء طبقة التجار الأثرياء فى البصرة وبغداد ، وهى الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى الغرب . وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم ، إذ كانت ثغر العراق ، والمركز التجارى الخطير الذى يصل الشرق والغرب ، والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية ، ومن أجل ذلك كانت تسمى أرض الهند كما ينص على ذلك المسعودى فى مروج الذهب ، وأم العراق كما يذكره الثعالبى فى ثمار القلوب[2] .

وهذه الطبقة هى بطبيعتها أكثر الناس تقديراً للمال ، وأشدهم مغالاة به وحرصاً عليه ، مع اختلاف أفرادها فى هذا . وفى تقرير هذه الصفة الغالبة عليهم يقول الثعالبى : «ومعلوم أن البخل والنظر فى الطفيف مقرون بالتجارة ، والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق »[3] . والناظر فى كتاب البخلاء يرى أن معظم الشخصيات التى رسمها الجاحظ فيه هم من هذه الطبقة ، حتى ليمكن القول بأنه يعتبر من أحد جوانبه تصويراً لها ، ووصفاً لبعض ألوان حياتها . ولا ريب أن لنشأة الجاحظ فى البصرة حيث تكثر هذه الطبقة وتحتل فيها مكاناً ظاهراً ، واتصاله على نحو ما ببيئاتها ، مما كان له أثره فى اتجاهه إلى تصويرها ، وفى هذه النظرة المتغلغلة التى استطاع أن يكشف بها كثيراً من خفياتها ودقائقها وأن يعبر تعبيراً دقيقاً واضحاً عما يخالجها من مشاعر قلقة مضطربة بين المال وإيثاره والحرص عليه والمغالاة به ، وبين هذه الحياة المترفة التى اصطنعوها وما تلزم به أهلها وتأخذ به أصحابها .

٣

وبنا الآن أن نتبين قدر المستطاع الوقت الذى وضع الجاحظ فيه كتابه البخلاء .

وليس لدينا نص قاطع نستطيع أن نتعرف به ذلك التاريخ على وجه يقينى أو أدنى إلى اليقين ، وإن كان هناك حقيقتان يمكن التهدى بهما فيما نحن بصدده . أولهما أن

(١) ثمار القلوب ص ١٣٣ .   (٢) مروج الذهب ٤ : ٢٢٥ ، ثمار القلوب ص ٢٠٣ .
(٣) ثمار القلوب ص ٩ .

كتاب البخلاء مذكور فى مقدمة كتاب الحيوان ، إذ يقول الجاحظ : « . . . وعبتنى بكتاب احتجاجات البخلاء ومناقضاتهم للسمحاء »[1] وإذن فهو سابق عليه . وثانيهما أنه يشير فيه إلى إصابته بالفالج ، فى سياق قصة رجل يدعى محفوظاً النقاش ، إذ يحكى عنه أنه قال له : « . . . وأنت رجل قد طعنت فى السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً »[2] . وإذن فقد كتب الجاحظ كتابه البخلاء بعد أن أصيب بالفالج .

فأما كتاب الحيوان فنستطيع القطع فى طمأنينة علمية بأنه كتبه فى أواخر حياته ، بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ ، وأكبر الظن عندنا أنه كتبه قبيل وفاته . وأما إصابته بالفالج فلا نملك ما نقطع معه بتاريخ ابتدائها ، وإن كان يبدو أنها ابتدأت فى أواخر عهد ابن الزيات ، قبل مقتله سنة ٢٣٣[3] .

وهكذا نرى أننا بهذين النصين لا نتقدم كثيراً فى افتراض تاريخ كتاب البخلاء ، وإن كنا نستطيع أن نستيقن ما كان يغلب على الظن من أن اتجاه الجاحظ إلى مثل هذا النوع من التأليف الفنى الخالص إنما كان بعد ما علت سنه ، واتسع أفقه ، وبلغ من الدراسة النظرية الكلامية ما يريد ، واستوت له المنزلة التى كان يطمح إليها ، فأخذ بعد ذلك ينزع إلى ذلك النوع من الكتابة .

وقد عرض أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى بحثه عن « أبى يوسف يعقوب ابن إسحاق الكندى » لتأليف الجاحظ كتابه البخلاء ، فى سياق مقارنة النصوص التى تعين على استخلاص تاريخ وفاة الكندى ، فقال : « ثم إن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ يذكر ما ذكره عن الكندى فى كتابه الحيوان والبخلاء فى صيغة الماضى الدالة على أن الكندى كان ميتاً حين كتب كتابه ، وكتاب البخلاء مؤلف على الراجح سنة ٢٥٤ وكتاب الحيوان سابق عليه . فالكندى لم يكن حيًّا فى سنة ٢٥٤ ولا فى سنة ٢٥٣ إن صح أن الجاحظ كتب الحيوان فى هذه السنة »[4] .

فعلى هذا الفرض يكون الجاحظ كتب كتابه « البخلاء » قبيل وفاته بأشهر معدودات ، ولكنا نلاحظ أن الجاحظ كان يعانى فى مثل هذه الفترة من حياته كثيراً من القلق والاضطراب النفسى ، كما كان كثير الشكوى من آصار المرض وأعباء الشيخوخة الواهنة ،

---

(١) الحيوان ١ : ٤ ط مصطفى البابى الحلبى . (٢) البخلاء ص ١٢٣ .

(٣) انظر ، من قبيل الاستئناس ، قصة إصابة الجاحظ بالفالج فى سرح العيون ص ١٣٦ .

(٤) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . المجلد الأول ، الجزء الثانى ص ١٤٨ .

على نحو ما نراه واضح المظاهر فى مواضع مختلفة من كتبه التى كتبها فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته ككتاب الحيوان وكتاب البغل وكتاب النساء ، مما لا محل هنا للإفاضة فيه ، وليس فى كتاب البخلاء أية أثارة تدل على هذه الحالة ، بل إنه ليدل دلالة واضحة على حالة نفسية هادئة مطمئنة ، وعلى نشاط موفور لا يرنقه شىء ، مما يبعد عندنا معه أن يكون كتب فى تلك الفترة .

وإنما الأشبه عندنا ، بعد تتبعنا للألوان الأسلوبية التى اتخذتها كتبه فى المراحل المختلفة ، أن يكون كتب هذا الكتاب فى أواخر عهد ابن الزيات ، وأوائل إصابته بالفالج ، فى الوقت الذى كتب فيه رسالة الجد والهزل . ويغلب على الظن لدينا ، من ملاحظة بعض الإشارات فيه ، أنه كتبه وهو بالبصرة .

٤

أما الأسلوب التأليفى لكتاب البخلاء فيتلخص فيما وصفه به مؤلفه من أنه فى « نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز فى باب الجد »[١] ، فعلى هذا بنى الكتاب كله ، إلا ما ذيله به من حديث العرب والأعراب . فهو بين أحاديث يسوقها على لسان بعض من عرفوا بالبخل من معاصريه كسهل بن هرون والحرامى والحارثى والكندى والثورى وابن أبى المؤمل وابن التوأم والأصمعى ، يحتجون لمذهبهم فى الاقتصاد فى النفقة والتثمير للمال ، أو مذهب الجمع والمنع كما يحلو للجاحظ أحياناً أن يذكره بهذا الوصف ، ويدافعون عنه ما ينبز به . فيأخذ الجاحظ فى إيراد هذه الحجج مذاهب مختلفة ، فهو يسوقها مرة مساق الجد ، والسخرية تترقرق فى خلالها ، ويعرضها أخرى فى معرض السخرية الصريحة والتهزؤ المكشوف . وهو فى ذلك كله يحكى حركاتهم النفسية حكاية دقيقة ، ويعرض ما تورده على خواطرهم أسبابهم المختلفة التى تحكمهم من بواطنهم عرضاً رائعاً . وبين نوادر قصار مما يؤثر عن البخلاء ، ويصور بعض نواحيهم فى ضربات سريعة ولمحات خاطفة ، يتخلل بها تلك الأحاديث والرسائل التى قد تبلغ من الطول مبلغاً عظيماً ، وتمعن فى تشقيق الكلام والتحليل النفسى إمعاناً كبيراً .

والجاحظ إنما يسير بذلك على طريقته التأليفية من المراوحة بين الأحاديث الطويلة

---

(١) كتاب البخلاء ص ١ .

والرسائل المسهبة ، بالطرف القصيرة والنوادر المقتضبة ، إيثاراً لاستهواء القراء ، وحرصاً على استجلاب رغبتهم ، ودفع السآمة والملل عنهم . وقد كان من الكتاب الذين ينظرون إلى القارئ ويرعون جانبه ويوجهون إلى رضائه هممهم، وهو يعلم أن الرسائل الطويلة تثقل على جمهور القراء ، كما يقرر ذلك إذ يقول : « إلا أنى لا أشك على حال أن النفوس — إذ كانت إلى الطرائف أحن، وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار الأحاديث أميل وبها أصب — أنها خليقة لاستثقال الكثير ، وإن استحقت تلك المعانى الكثيرة ، وإن كان ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أرد »[1] .

وهكذا نجده لا يكاد ينتهى من رسالة سهل بن هرون حتى يأخذ فى نوادر المراوزة ، وما يكاد يفرغ من حديث خالد بن يزيد ، حتى يأخذ فى حكاية بعض النوادر عن يحيى ابن عبد الله وفلان بن فلان ، وهكذا ينتهى من الكتاب على هذه الخطة المرسومة .

فإذا انتهى من هذا وبلغ من التصوير والتحليل غايته ، وحسب أنه قد أرضى بذلك رغبة القراء أو شهوة الناس كما يقول ، أخذته نزعته العربية فمال إلى رواية ما يتصل بهذا الباب من حديث العرب والأعراب ، فيقول : « احتجنا عند التطويل ، وحين صار الكتاب طويلا كبيراً ، إلى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم ، وما يتمادحون به وما يتهاجون به ، شىء ، وإن قل، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب . ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس ، لكان الخبر عن العرب والأعراب أكثر من جميع هذا الكتاب »[2] ، وكذلك يأخذ فى الكلام عن أطعمة العرب وضروبها ، وما تسمى به فى مناسباتها المختلفة ، ويصف طرفاً من ألوان معيشتهم ، وما يلاقونه فى الخصب والجدب ، مستشهداً لما يقول بشواهد من مأثور الشعر والنثر ، ثم يعرض لما تقوله الشعوبية عنهم ، فى الغض منهم والتشنيع عليهم ، فتأخذه شنشنته فى الدفاع عنهم ، ورد ما ينسب إليهم أو توجيه القول فيه ، متسعاً فى رواية الأشعار مما يتصل بهذا المنحى . وبذلك ينتهى كتاب البخلاء .

على أن أكثر ما فى هذا الكتاب إمتاعاً واستثارة للذة الأدبية ، وأقوى ما فيه دلالة على قوة الجاحظ الفنية ، هو تلك الرسائل الطويلة والأحاديث المسهبة المفتنة التى وضعها الجاحظ وضعاً ، وحقق بها رسالته الفنية تحقيقاً طريفاً ، وأتاح بها للغة العربية هذا اللون الرائع من ألوان الأدب . فبنا أن نتحدث عن هذا المنحى الذى انتحاه الجاحظ .

(١) كتاب الحيوان ٦ : ٨ — ٩ ط الحلبى .

(٢) البخلاء ص ٢١٣ .

٥

كان وضع الأحاديث وتوليدها باباً من الأبواب التى اتسمت بها نزعة الجاحظ الأدبية ، ووجدت فيها متاعاً لها ومجالا لعبقريتها . وقد يتأثم بعض المتزمتين من أن نسند إلى الجاحظ أنه كان وضاعاً مولداً ، ويرون فى هذا المنهج من التكذب والتزوير ما يجلون الجاحظ عنه ، ويرفعونه من أن يتدنى إليه .

أما أن الجاحظ كان يولد الأقوال ويضع الأحاديث ويفنّن فى ذلك شتّى الأفانين فأمر ظاهر كل الظهور فى هذه الأحاديث المستطيلة والرسائل المستفيضة والقصص المفتنة التى ضمّنها كتابه هذا ونسبها إلى هذا وذاك من رجال عصره ، فإن أسلوبها وطريقة وضعها ومنحى الاستدلال فيها ، كل ذلك شاهد قوى الحجة واضح الدلالة على أن الجاحظ هو صاحبها .

ولعل من أوضح الأمثلة على هذا الاتجاه الفنى الذى كان الجاحظ يصطنعه ويؤثره فى كثير من المواضع « رسالة القيان » التى وضعها فى وصف حياة هذه الطائفة ، وتصوير ذلك الجانب من المجتمع الإسلامى لذلك العهد ، فقد جعلها على لسان طائفة من معاصريه المعروفين بين الناس بتلك الناحية ، وقد سماهم ووصفهم فى صدرها ، ثم قال فى ختامها : « هذه الرسالة التى كتبناها عن الرواة منسوبة إلى من سمينا فى صدرها ، فإن كانت صحيحة فقد أدينا منها الرواية ، والذين كتبوها أولى بما تقلدوا من الحجة فيها ، وإن كانت منحولة فمن قبل الطفيليين ، إذ كانوا قد أقاموا الحجة فى اطراح الحشمة ، والمرتكبين ، ليسهلوا على المقينين ما صنعه المترفون »[1] .

على أن النصوص الصريحة مظاهرة على هذا الذى نقرره . فقد تكلم الجاحظ عن التوليد فى مقدمة البخلاء . فقال : « ولو أن رجلا ألزق نادرة بأبى الحارث جمين والهيثم ابن مطهر وبمزبد وابن أحمر ، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون ، ولو ولد نادرة حارة فى نفسها مليحة فى معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء ، لصارت باردة ، ولصارت فاترة ، فإن الفاتر شر من البارد ، وكما أنك لو ولدت كلاماً فى الزهد وموعظة الناس ، ثم قلت : هذا من كلام بكر بن عبد الله

(١) انظر مجموعة « ثلاث رسائل للجاحظ » نشرها يوشع فنكل ، ط السلفية ١٣٤٤ هـ .

المزنى وعامر بن عبد قيس العنبرى ومؤرق العجلى ويزيد الرقاشى ، لتضاعف حسنه ، ولأحدث له ذلك النسب نضارة ورفعة لم تكن له . ولو قلت : قالها أبو كعب الصوفى أو عبد المؤمن أو أبو نواس الشاعر أو حسين الخليع ، لما كان لها إلا ما لها فى نفسها ، وبالحرى أن تغلط فى مقدارها ، فتبخس من حقها »[1] .

فهذا كلام رجل يتحدث عن فن من الفنون الأدبية يعرفه حق المعرفة ، ويعرف مواطن قوته وضعفه ، وأسباب إحكامه وتهافته .

وهناك نص آخر يعترف فيه الجاحظ بأنه كان يكتب الكتب والرسائل وينحلها هذا أو ذاك من الكتاب والمؤلفين وذلك إذ يقول فى سياق الكلام عن الحسد : « وإنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن . . . وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم . . . وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على . . . إلخ »[2] والذى يعنينا فى هذا النص هو إقرار الجاحظ بأنه لم يكن يتحرج ، لغاية فى نفسه ، من أن يكتب الكتاب ثم ينسبه إلى غيره . وما كانت هذه الغاية إلا نوعاً من العبث بخصومه ، أو الرغبة فى إذاعة ما يكتب وترويجه . ومثل هذا لا يبلغ مبلغ ذلك الحافز الفنى الذى يحفزه إلى وضع الأحاديث إرضاء لتلك النزعة الغالبة عليه .

وأما أن هذا غير جدير به ، وشىء يحيك فى مكانته ، لأنه — كما يقولون — من باب الكذب والتزيد والتزوير ، فلعمرى إن هذه الأسماء التى يسمونها لتفقد قيمتها وتنضو عنها دلالتها الخلقية ، متى جاءت فى معرض الكلام عن الأدب والفن ، ولقد قالوا فى ذلك الكذب الرخيص التافه الذى يضمنه بعض الشعراء شعرهم : « أعذب الشعر أكذبه » ، فلم يكتفوا باغتفار الكذب فى الشعر ، بل اعتبروه من مقومات حسنه ومقاييس جماله . والأمر هنا لا يبلغ هذا المبلغ من الكذب الشعرى الذى قيل فيه ذلك القول السائر ، والذى يقوم — فى أكثر أمره — على شهوة وضيعة أو على خيال جامح ، وهذا هو كل نصيبه من

(١) كتاب البخلاء ص ٧ — ٨ .

(٢) رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ، مجموع رسائل الجاحظ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وانظر التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٦٦ ، ط الصاوى ، ١٩٣٨ م .

الفن أو ما عسى أن يسمى فنًّا . وإنما الأمر هنا قائم على أسمى النزعات الفنية وأجدرها أن ترتفع به فوق جميع تلك الاعتبارات ، ذلك هو تصوير الحركات النفسية المختلفة والخلجات الذهنية المتفاوتة فى أسلوب فنى جميل ، ليس بالتقرير العلمى الجاف ، ولا بالسرد الواقعى المجرد ، وإنما هو تصوير حى يقرؤه القارئ فلا يكاد يحس أنه يقرأ كلاماً ، بل يغمره الشعور بأنه يشهد صورة من الحياة النابضة ، كما تتمثل فى هؤلاء الأشخاص الذين يتكلم الجاحظ بلسانهم ، على ما هو معروف عنهم ، واشتهروا به عند خلطائهم .

فإنما هى النزعة الفنية القوية التى كانت تدفع بالجاحظ فى تلك السبيل ، يرسم صوراً من هذه الحياة وينفث فيها الحياة ، وينفخ فيها من روحه ، ويعرضها فى أسلوب طبيعى جميل أشبه شىء بهذه الحياة نفسها ، متاعاً للروح الإنسانية والخيال البشرى . فأنى يمكن القول بأن مثل هذا الوضع الفنى لون من الكذب والتزوير والتلفيق يجب أن يتنزه عنه عظماء الرجال وأصحاب الضمائر ؟

على أنا لا ننكر أن الجاحظ كان يحس فى أعماق نفسه بالمكاره التى تحف بهذه السبيل حين يريد أن يتوفر عليها ، ويوفى الفن حقه فيها ، ويعرض هذه الصور وقد أحكمت الصلة بينها وبين الحياة الواقعة ، « وليس يتوفر أبداً حسنها إلا بأن يعرف أهلها ، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادنها واللائقين بها ، وفى قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة ، وذهاب شطر النادرة » كما يقول فى التقدمة لكتابه ، فكان يجد نفسه بين هذا الاعتبار الفنى ، وبين اعتبار الرعاية لهذا أو ذاك من أصحابه ، وهو يشعر بالحرج ، ثم لا يلبث أن يعتذر ويقول فى هذه المقدمة : « وهذا كتاب لا أغرك منه ، ولا أستر عنك عيبه ، لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده ، ولا يجوز أن يوفى حقه كما ينبغى له ، لأن ها هنا أحاديث كثيرة متى أطلعنا منها حرفاً عرف أصحابها ، وإن لم نسمهم ، ولم نرد ذلك بهم — وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم — منهم الصديق والولى والمستور والمتجمل . وليس يفى حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم. فهذا باب يسقط ألبتة ويختل به الكتاب لا محالة»[1] .

ومن هذا نرى أنه لم تكن تنزع بالجاحظ إلى هذه الأحاديث نزعة غير النزعة الفنية ، أما غيرها من الدوافع الأخرى كالرغبة فى التشهير وما إليها من الحوافز التى وجهت هذا المنحى وغلبت عليه ، منذ وضع الشعر فى عهد حماد إلى وضع الأحاديث والأخبار كما كان يفعل ابن الكلبى والهيثم ابن عدى ، فشىء مختلف كل الاختلاف عما هنا ، بعيد كل البعد

---

(١) كتاب البخلاء ص ٧ .

عن الروح التى كانت تسيطر على الجاحظ وتوجهه .

ولكن هذا يلفتنا — من ناحية أخرى — إلى أن الجاحظ لم يبتدع هذا المنحى ابتداعاً ، فقد كان أمراً مقرراً — من قبل — فى الرواية ، وقد شق سبيله فى تاريخ الأدب العربى قبل الجاحظ بزمن غير قصير .

كان حماد الراوية وخلف الأحمر يضعان — كما نعرف — الأشعار على غرار الشعر القديم ، وينحلانها الشعراء المتقدمين ، لكل من الشعر ما هو أدنى إليه وأشبه بطريقته وأسلوب صياغته ، لأن رواية أشعارهم والاستكثار منها والتبحر فيها كان من أكبر أسباب الحظوة عند خلفاء بنى أمية ، التماساً لنوع من الأنس بالحياة العربية والصور البدوية . فقد كانا يتجران بالرواية ويستبضعانها من هنا وهنا ، ولكنها كانت تعوزهم فى كثير من الأحيان . فإذا لم تكن بضاعة حاضرة لجأوا إلى الصناعة والتزييف ، على نحو ما يصنع تجار الآثار القديمة ، حين تعوزهم القطع الأثرية الصحيحة .

ثم تغيرت الظروف وتحولت العقلية الإسلامية وجدت دواع أخرى للوضع بقيام بعض الحالات الجديدة كقيام الخصومة بين الروح العربية والروح الشعوبية ، فكان لا بد أن تضع الرواية نفسها فى خدمة هذه الحالة ، وكذلك كثر وضع الأخبار والأحاديث لهذه الأغراض السياسية أو الجنسية ، فنرى — مثلا — رجلا كالهيثم بن عدى يستغل معرفته بالأخبار وشهرته بالرواية ، فيضع الأخبار والأحاديث ويلفقها فى مثالب العرب ، وفى الحط من قدر أولئك الذين يفخرون بهم ، من الجاهليين والإسلاميين . ونرى فيما يورد الجاحظ مثلا من ذلك ، فى سياق كلامه عن بعض عيوب الكلام وما عرف عن بعض الخطباء ، قال : « وروى الهيثم بن عدى عن أبى يعقوب الثقفى عن عبدالملك بن عمير ، قال : قدم علينا الأحنف الكوفة مع مصعب بن الزبير ، فما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا وقد رأيتها فيه . كان أصعل الرأس ، أحجن الأنف ، أغضن الأذن ، متراكب الأسنان ، أشدق ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة ، باخق العين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجلين . ولكنه إذا تكلم جلى عن نفسه » . والجاحظ لا يسلم بصحة هذه الرواية ، فهو يعرف الهيثم ونوازعه فى مثلها ، ويرى أنه قد اختلقها وزورها على من نسبها إليهم فى صدرها ، تشهيراً بالأحنف سيد تميم فى البصرة ، فعقب عليها بقوله : « ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضاً لمنعه ، ولولا أنه لم يجد بداً من أن يجعل له شيئاً على حال لما أقر بأنه إذا تكلم جلى عن نفسه » . ثم يقول

بعد ذلك : « المثل الأحنف يقال : إلا أنه إذا تكلم جلى عن نفسه ؟ »[1] .

وهذا باب واسع مستفيض الشواهد المنبثة فى كتب الأدب والمحاضرات .

وهناك نوع آخر من الوضع متصل بهذا الباب ، وهو وضع الأخبار والأحاديث عن رجال الدعوة العباسية ، وهم فاتحة استعلان الشعوبية وانتصارها ، تمجيداً لهم وتنويهاً بمآثرهم ، وكذلك نجد عند الجاحظ الإشارة إلى هذا النوع ، فى الفصل الذى عقده للكلام عن خطباء بنى هاشم ، فذكر جماعة من ولد العباس ، ثم قال : « وكان إبراهيم بن السندى يحدثنى عن هؤلاء بشىء هو خلاف ما فى كتب الهيثم بن عدى وابن الكلبى . وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور »[2] .

فهذه نزعة إلى وضع الأخبار والأحاديث تقوم على التشهير بالعرب والزراية عليهم ، إلى جانب الإكبار للفرس ومن إليهم والإشادة بهم . ولا ريب أن روح الفن كان لا بد أن تداخل هذا النوع من الوضع كما كانت تداخل سابقه ، ولكن الغاية التى كان ينزع عنها لم تكن من الفن بسبيل .

وهناك إلى جانب هذه النزعات التى كانت تصدر عن روح الجماعة نزعات شخصية بحتة ، تصدر عن بعض الأغراض والأهواء . ومن أمثلة ذلك ما حكاه الحصرى عن أبى العيناء محمد بن القاسم ، قال : «ولما حبس الواثق إبراهيم بن رباح ، وكان لى صديقاً ، صنعت له هذا الخبر ، راجياً أن ينتهى إلى أمير المؤمنين فينتفع به . فأخبرنى زيد بن على ابن الحسين أنه كان عند الواثق حين قرئ عليه ، فضحك واستظرفه وقال : ما صنع هذا كله أبو العيناء إلا بسبب إبراهيم بن رباح ، وأمر بتخليته » ، ثم أورد بعد ذلك الخبر الذى صنعه أبو العيناء وقد جعله على لسان أعرابى لقيه ، فجعل يسأله عن رجال الدولة واحداً واحداً ، وهو يجيبه عنهم[3] .

وإذا كان هذا الخبر جاء منسوباً إلى أبى تمام كما فى رواية الصولى فإنا نرجح هذه الرواية التى تنسبه إلى أبى العيناء ، فقد كان فيما يبدو معروفاً بذلك النحو ، مصطنعاً له فى كثير من الأغراض ، من ذلك ما حكاه عنه الخطيب البغدادى ، قال : « قال أبو العيناء : كان أولاد ابن أبى دؤاد فى أخلاقهم مختلفين ، وكان أبو الوليد منهم بخيلا ، ولهم أخبار كثيرة ، فأما أبو الوليد فشكا إلى خبازه فساد الخبز فقال له : إنما أخبز كل يوم أرغفة

(١) البيان والتبيين ١ : ٦٣ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢م . (٢) المصدر نفسه ١ : ٢٦٦ .

(٣) زهر الآداب ٣ : ٧٥ ، ط الرحمانية . وانظر أيضاً أخبار أبى تمام ص ٨٩ – ٩٢ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م .

ليملأ التنور ، فقال له : اقطع التنور ببراستج ، فكان يخبز فيه . قال المرزبانى : أبوالعيناء خبيث اللسان ، ولعله سأل أبا الوليد حاجة ، فلم يقضها له ، فوضع هذا الحديث »[1] .

ومن ذلك ما يرويه الحصرى من فقرات مختلفة صنعها أبو العيناء فى أحمد بن الخصيب حين نكب ووضعها على ألسنة القواد والرؤساء والكتاب وغيرهم كمحمد بن عبد الله بن طاهر والمعلى بن أيوب وإبراهيم بن رباح ، وقد أطلق فيها عليه مجموعة من الصفات المذمومة والمستهجنة ، فى صياغة موجزة محكمة[2] ، على نحو ما نرى فى تلك الفصول التى زعمنا أن الجاحظ هجا بها محمد بن الجهم البرمكى[3] .

وما دمنا فى بيان النزعات المختلفة التى تعتبر من دواعى الوضع فلا ينبغى أن ننسى النزعة الدينية التى كانت تظهر فى وضع القصاص للأخبار والأحاديث إرهافاً للعاطفة الدينية أو ترويجاً لبعض الاتجاهات المذهبية .

وربما نشأت فى ذلك الوقت إلى جانب تلك النزعات النزعة التعليمية اللغوية ، فتوضع الأبيات من الشعر أو القطعة من الخبر على لسان أحد الأعراب ، وقد لاحظ فيها واضعها أن تتضمن طائفة من الصفات المختلفة والكلمات الغريبة لتكون وسيلة هينة محببة إلى حفظ اللغة وفهم بعض ألوان الحياة العربية ، ويمثل هذا المنحى ما نراه من ذلك فى كتاب ككتاب الأمالى لأبى على القالى .

ولسنا ننكر أن جميع هذه الضروب من الوضع لم تكن تخلو من الفن يداخلها ويسمها بميسمه ، بطبيعة الأمر ، كما قلنا ، ولكن الجاحظ قد أخلص الوضع للفن وحده ، أسلوباً وغاية ، وخاصة فى هذا الكتاب الذى نقدمه ، وقد تكون هناك تيارات نفسية خفية تتدخل فى الأمر ، أو تصرف الفن بعض التصريف ، ولكن مهما يكن من شىء ، فإن مثل هذا لا يمنعنا من أن نصف وضع الجاحظ بما وصفنا ، ومن أن نرى فيه سلطان الفن غالباً ، وقد طبع كتاب الجاحظ بطابعه ، ثم خفى كل ما عداه .

ثم لسنا نزعم أن الجاحظ قد تفرد بهذا الوضع الذى يصدر عن الفن ويقصد إليه — وإن كنا نستطيع أن نزعم فى طمأنينة أنه قد تفرد بالبراعة فيه على ذلك النحو الذى نراه — فأكبر الظن أنه كان هناك من تدفعه نزعته الأدبية إلى ذلك المنزع ، وتأخذ به فى تلك السبيل ، ولدينا عن الجاحظ نفسه نص لعله يشير إلى ذلك إشارة واضحة ، وذلك إذ يذكر أنه قال لرجل اسمه حباب : « إنك تكذب فى الحديث » ، فقال له : « وما عليك إذا كان الذى

(١) تاريخ بغداد ١ : ٣٠٠ . (٢) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص ١٦٨ — ١٧٠ ، ط الرحمانية .
(٣) مجلة الكاتب المصرى ، عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) ، ص ٥٥ .

أزيد فيه أحسن منه ؟ فوالله ما ينفعك صدقه ، ولا يضرك كذبه ، وما يدور الأمر إلا على لفظ جيد ، ومعنى حسن ، ولكنك والله لو أردت ذلك لتلجلج لسانك وذهب كلامك»[1] ، أم ترى وضع الجاحظ هذا الحديث ، وأجراه بينه وبين صاحب هذا الكلام ، ليدافع به عن ذلك الأسلوب الذى اصطنعه على لسان غيره ، ونحن — بعد — لا نعرف شخصاً اسمه حباب بين معاصرى الجاحظ ، كان بمثل هذه القوة التى تأذن له أن يتحداه بمثل ذلك الأسلوب ، إلا أن يكون القول جرى على سبيل الهزل والمعابثة .

وبعد ، فما نحب أن ندع هذا الفصل بدون أن نشير إشارات خاطفة إلى بعض الآثار التى خلفها هذا الأسلوب . فلم يكن من الطبيعى أن يمعن الجاحظ فى هذه الطريقة من طرق الإبداع الفنى ، وأن تظفر بما ظفرت به من إعجاب ، ثم يمضى بدون أن يتأثره فيها متأثر .

وليس بنا فى هذا الفصل أن نتعمق هذه الآثار تتبعاً ودراسة وتحليلا ، ولكنا نكتفى بعرض بعض الآثار الفنية التى جاءت متأثرة بذلك الأسلوب من أساليب الجاحظ . ولعل أقرب من يخطر بالبال من تلاميذ أبى عثمان الذين فتنوا به ، وتأثروا به أبلغ الأثر ، أبو حيان التوحيدى ، من أهل القرن الرابع . والوضع الفنى على النحو الذى نراه عند أستاذه الجاحظ ظاهر كل الظهور فى أدبه ، ومن ذلك « حديث السقيفة » الذى أسنده إلى أبى حامد أحمد ابن بشر المروروذى ، وقد أورده ابن أبى الحديد ، من أهل القرن السابع ، فى شرحه على نهج البلاغة ، وعقب عليه بأنه « كله مصنوع موضوع ، وأنه من كلام أبى حيان التوحيدى . . . وأنه صورة ما جرت عليه حال القوم ، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال ، فقد نطقوا به بلسان الحال » . وهذا الحديث هو كلام من النمط العالى البليغ تنوقل بين أبى بكر وعمر وبين علىّ بواسطة أبى عبيدة بن الجراح ، وقد وضعه أبو حيان ليمثل به ما كان يدور فى نفوسهم ، وتختلج به قلوبهم ، فى أسلوب قصصى جميل[2] ، فهو كما يقول ابن أبى الحديد صورة ما جرت عليه حال القوم .

وهناك أثر آخر لأبى حيان ، مما يجرى هذا المجرى ، ساقه مساق السخرية والتهزؤ بأبى العباس أحمد بن ثوابة الكاتب ، من أهل القرن الثالث ، وأكبر الظن أنه كان يقصد بما كتبه فى ذلك غيره من معاصريه من الكتاب . وهو فصل رائع أسند فيه القول إلى أحمد ابن الطيب السرخسى معاصر ابن ثوابه ، وقد أراد بوضعه أن يصور مبلغ جهل طائفة

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٨٠ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ .

(٢) انظر صبح الأعشى للقلقشندى : ٢٣٧ — ٢٤٧ ط الأميرية .

الكتاب بالهندسة ، وسوء نظرهم إليها واعتبارهم إياها وخلطهم فيها ، فأدار الأمر على أن يقترح أحد أصحاب ابن ثوابة عليه أن يتعلم « الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء » ، ويشير عليه أن يتلقى ذلك عن رجل اسمه قويرى . ولكنه ما كاد يجلس إليه ويسمع قوله ، فإذا عبارات تثير اشمئزازه ، وتكشف – عنده – عن إلحاد وكفر ، حتى أنكره أشد الإنكار ، فمضى عنه ولم يعد إليه ، ثم كتب ابن ثوابة إلى صاحبه أحمد بن الطيب رسالة طويلة طريفة يصف فيها ما كان من أمر ذلك الرجل قويرى وصفاً غاية في الطرافة ، ثم ما كان من أمر ذلك الرجل الآخر المسلم المكنى بأبى يحيى ، فإذا به « إن كان مباينا للنصرانى فى دينه لمؤازر له فى كفره » . وتعد هذه الرسالة من أروع ما يصور سذاجة الجهل مع إساءة الظن بالعلماء ، وروح الحذر التى تداخل الجهالة المعتصمة بظاهر من الدين ، كما تصور روح السخرية والعبث التى كان أبو حيان يضمرها لكتاب القرن الرابع ، ولئن كان يقصد بها شخصاً بعينه فأكبر الظن أنه كتبها تعريضاً بالصاحب بن عباد ، وكانت الخصومة بينهما حادة عنيفة ، وكان ابن عباد يسب أصحاب الهندسة كما يقول عنه أبو حيان فى كتابه أخلاق الوزيرين[1] ، ولكنها على كل حال تعتبر صورة من أروع الفن التصويرى الساخر ، كما يتبين فيها بوضوح تلمذة أبى حيان للجاحظ وتأثره به فى ذلك الاتجاه .

ورجل آخر ممن تأثر بهذا النحو من الأدب ، وهو أبو على الحاتمى ، من أهل القرن الرابع ، فى مثل الحكاية التى وضعها على أستاذه على بن هارون ، ووصفها الحصرى بأنها طويلة فى نحو أربعة أجلاد . وإذا كانت هذه الحكاية لم تصل إلينا ، ففيما ذكره الحصرى عنها ، وفى الفقرات التى أوردها من صدرها وخاتمتها ما يعرفنا بطريقته فيها ، ويبين لنا منهجه فى صناعته[2] ، وهو منهج الوضع الفنى الذى استطاع الجاحظ أن يجعله منهجاً مقرراً ، وفناً من الفنون الأدبية معتبراً ، وقد شاع فى القرن الرابع شيوعاً كبيراً ، ولم يعد الأمر فيه موقوفاً على الأحاديث والرسائل المقصورة كما رأينا عند أبى حيان ، وإنما تعدى ذلك إلى الكتب المطولة كهذا الكتاب الذى وضعه أبو على الحاتمى ، وكحكاية أبى القاسم البغدادى التى وضعها أبو المطهر الأزدى من أهل القرن الرابع أيضاً ، وأبان فى صدرها عن تأثره بالجاحظ واتباعه سبيله . وقد وصلت إلينا هذه الحكاية كاملة[3] ، ونستطيع أن

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٤ : ١٦٠ – ١٧٣ ، ط دار المأمون . (٢) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ، ص ١٧٦ – ١٧٧ . (٣) حكاية أبى القاسم البغدادى لمحمد بن أحمد أبى المطهر الأزدى ، نشرها آدم متس ، وقدم لها بمقدمة جيدة ، وطبعت فى هيدلبرج بمطبعة كرل ونتر عام ١٩٠٢ م .

نرى فيها تطور هذا الفن من فنون الأدب .

وبعد ، فهذه أمثلة من الآثار الأدبية التى جاءت متأثرة بطريقة الجاحظ التى نراها واضحة فى كتاب البخلاء ، لم نحاول فيها التتبع والاستقصاء ، وإنما أردنا أن نلقى نظرة سريعة على هذا الأسلوب الذى يعتبر أبو عثمان من أول من شقوا سبيله وأعظم من مهدوه ، ثم ماكان من أثره فى التاريخ الأدبى بعده، ولعلنا نستطيع من ذلك أن نتبين إلى أى حد كان الجاحظ بليغ الأثر فى تكوين الأساليب الفنية فى الأدب العربى ، ولا سيما فى القرن الرابع .

٦

والآن نأخذ فى إلقاء نظرة سريعة أيضاً على أبرز الصفات الفنية فى كتاب البخلاء.

ولعل أول هذه الصفات تجلياً لقارئ ذلك الكتاب هو البراعة فى الوصف والدقة فى التصوير . ونحن حين نطلق كلمة الوصف نعنى بها ما يشمل الوصف الحسى والوصف النفسى جميعاً .

ولقد كان الجاحظ من أقدر الكتاب على الوصف والتصوير ، إذ نشأ منذ طفولته قوى التصور ، دقيق الملاحظة ، كما يمكن أن نرى ذلك فى القصة التى قصها عن زميل له من زملاء « الكتاب » ، من أولاد القصابين ، فلم يفت خياله أن يسجلها بجميع تفصيلاتها ودقائقها ، حتى أتاح له أن يقدم منها صورة حية واضحة[1] تشهد له بهذه الموهبة التى وهبها منذ كان صغيراً ، وظل متمتعاً بها حياته كلها ، وكان خياله من أخصب الأخيلة وأقدرها على إمداده بالتفصيلات الدقيقة والملاحظات الصغيرة ، مما تكمل به الصورة ، وتستتم به وسائلها إلى الحياة الفنية النابضة التى تستثير الإعجاب والافتتان من قرارة النفس الإنسانية. وقد لاحظ المتقدمون هذه الخاصة فيه ، ومن ذلك كان إعجابهم بتلك القطعة الرائعة التى صور فيها عبد الله بن سوار القاضى وركانته فى مجلس القضاء تصويراً عجيباً[2] .

على أن كل قطعة من كتاب البخلاء الذى نقدم له بهذه المقدمة شاهد قوى لا يحتمل الجدل على قوة تصوره ودقة ملاحظته وخصوبة خياله وعنايته بالتفصيلات التى تجلى الصورة وتبرزها من جميع نواحيها وتضعها أمام القارئ وقد اجتمعت لها خصائص الوضوح

---

(١) الحيوان ٢ : ١٤ ط مصطفى البابى الحلبى .

(٢) الحيوان ٣ : ٣٤٣ — ٣٤٥ ، وانظر ثمار القلوب لأبى منصور الثعالبى ص ٣٩٦ — ٣٩٧ ، ط الظاهر ، ١٩٠٨ م .

وبلاغة التعبير وقوة التأثير ، كهذه القطعة التى صور بها هيئة على الأسوارى وهو يأكل ، فيقول على لسان الحارثى ، أحد من بنى عليهم كتابه :

« وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب ، ولم يسمع ، ولم يبصر . فلما رأيت ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلا ، ولم يفجأنى قط وأنا آكل تمراً إلا استفه سفاً ، وحساه حسواً ، وزدا به زدواً ، ولا وجده كنيزاً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها ، ويقلها من الأرض . ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتى عليها جميعاً ، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث ولم يفصل تمرة قط من تمرة . وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ، ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعاً ، ولا نفى عنه قشراً ، ولا فتشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر ، وشحشحان صاحب طائلة ، وكأنه عاشق مغتلم أو جائع مقرور »[١] .

فانظر كيف استطاع الجاحظ بذلك الخيال المبدع أن يرسم هذه الصورة دون أن يغادر من مقوماتها شيئاً ، وأن يضعها أمام أعيننا دقيقة الأجزاء واضحة المعالم جيدة العبارة ، لا تكلف فيها ولا تصنع ولا مبالغة . وكأن لا فرق بين أن يقدمها إلينا فى هذه المجموعة المختارة اختياراً دقيقاً والمؤلفة تأليفاً بارعاً ، من الألفاظ والكلمات ، وبين أن يرسمها مصور عبقرى بخطوط وألوان . إلا أنها تمتاز هنا — ولا ريب — بالتعبير عن الحركة ، مما لا يد للتصوير به ولا قدرة له عليه .

ولعلنا بهذا المثال الذى نقدمه هنا نستطيع أن نتمثل خصائص فن الجاحظ فى الوصف ومذهبه فى التصوير . فهو كما نرى لا يلجأ — كما يفعل الكثيرون — فى سبيل ذلك إلى تلمس التشبيهات والاستعارات يستعين بها فى تصوير المشهد الذى يريد أن يضعه أمام القارئ ، وكثيراً ما تجنح بهم هذه التشبيهات والاستعارات إلى صورة أخرى غير التى يريدون إقرارها فى أخيلة القراء ، ثم لعلهم لا يصنعون لهذه الأخيلة إلا أن يثيروا فيها صوراً ملفقة عابثة ، أو يهيجوا فيها ما تهيجه الشعوذة فى النظارة . لم يلجأ إلى ذلك ولم يتورط فيه إلا بالقدر الطبيعى الذى يستثيره الحس استثارة طبيعية لا صناعة فيها ، كما فى الفقرات الأخيرة من هذه العبارة . فأسلوب الجاحظ فى الوصف هو — فى حقيقة الأمر — وجه من وجوه « الواقعية » الغالبة عليه ، وقد أعانه على أن يبلغ بأسلوبه هذا ذلك المبلغ من دقة التصوير

(١) كتاب البخلاء ص ٧٩ — ٨٠ .

وروعته قوة إدراكه لقيم الكلمات ، وإحساسه الملهم بالظلال التى تنتشر عنها ، وهدايته البالغة فى كيفية تأليفها وتنسيقها ومزج ما بينها ، حتى تؤدى الأغراض التى يعنيها ، وتبرز الصور التى يتصورها ، بالرغم من أن الألفاظ بطبيعتها محدودة القوى .

ولم يخدع الجاحظ نفسه ، ولم تفتنه براعته الفنية فى استخدام الألفاظ عن إدراك هذا القصور الذى يتعرض له وهو يحتال للتعبير بالألفاظ عما يريد من الصور ، بل لعله كان من أكثر الناس إدراكاً لهذه الناحية من طبيعة الألفاظ . ولكنه لم يكن يألو جهداً فى أن يضع الصورة أمام القارئ ، فإذا أحس بأن اللفظ قد أعوزه ، وأن اللغة لم تطع له بالقدر الذى يريد ، وأن المادة الكلامية لم تعد كافية لإبراز الصورة على الوجه الذى يعنيه ، جعل يلجأ إلى تنبيه مخيلة القارئ لعلها تستطيع أن تدرك ما لا يستطيع اللفظ أن يؤديه ، كما صنع بعد وصف صورة أبى جعفر الطرسوسى ، وقد حكته شفته من طيب جعله فى شاربه ، فقال : « وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ، ولا يأتى لك على كنهه ، وعلى حدوده وحقائقه »[1] . وبذلك كان أميناً لفنه ، مؤدياً للقارئ حقه .

وبعد ، فهذه صورة من قدرة الجاحظ على الوصف الحسى وأسلوبه فيه . فأما الوصف النفسى الذى يعتمد على استشفاف الحركات النفسية المختلفة التى تلابس البخل ، واستبطان الأحاسيس التى تصحبه وكشف المحاولات الباطنة التى يحاولها البخلاء ، لإخفائه وستره مرة ، ولتبريره والدفاع عنه مرة أخرى ، فشيء من أروع ما أتيح للجاحظ أن يبرزه ويفتن فيه فى آثاره الفنية ، دقة فى الملاحظة ، وبراعة فى السياق ، وتغلغلا فى خفايا النفس البعيدة .

والجاحظ — كما يبدو فى كثير من آثاره وفى البخلاء خاصة — مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبين الحركات الشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلة بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة ، من كلمة عابرة ، أو إشارة طائرة ، أو لفتة سريعة معجلة . ولا ريب أن ما أتيح للجاحظ فى حياته الطويلة الحافلة من صلة بالمجتمع وثيقة ، ومداخلة للناس دائمة ، إلى جانب ما رأينا عنده من قوة الملاحظة ودقة الحكم ، كان مما مكن له من هذه الناحية تمكيناً كبيراً ، ووجه فنه إليها هذا التوجيه الخصب .

وكذلك نراه يعنى هنا فى كتاب البخلاء عناية ظاهرة « بالهنات التى نمت على المتكلفين ودلت على حقائق المتموهين » ، وهو يعنى بذلك الفلتات التى تجرى على غير الإرادة ،

---

(١) كتاب البخلاء ص ٥٨ .

وتصدر عما نسميه الآن باللاشعور أو ما هو قريب مما يدعوه بالطبيعة وبالعلل الباطنة التي توجه حياة الناس ، وتؤول بها حقائق تصرفاتهم ، على النحو الذى تحدث عنه فى بعض كلامه فى كتاب الحيوان ، وقد عرض فيه لتلك الفلتات التي تصدر عن تلك العلل الباطنة بعد ما جهد صاحبها فى كبتها وقمع نوازعها ، وذلك حيث يقول : « وليس العجب من رجل فى طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور ، ويحركه فى بعض الجهات ، ولكن العجب ممن يموت مغنياً وهو لا طبع له فى معرفة الوزن ، وليس له جرم حسن ، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغنى خاصة أن يكون مطرباً ومغنى عامة ، وآخر قد مات على أن يذكر بالجود ، وأن يسخى على الطعام ، وهو أبخل الخلق طبعاً ، فتراه كلفاً باتخاذ الطيبات ، ومستهتراً بالتكثير منها ، ثم هو أبداً مفتضح وأبداً منتقض الطباع ، ظاهر الخطأ ، سيء الجزع عند مؤاكلة من كان هو الداعى له ، والمرسل إليه ، والعارف مقدار لقمه ونهاية أكله »[1].

وموضوع « الهنات التي نمت على المتكلفين » هذا هو من الموضوعات التي اقترح عليه بيانها ، كما جاء فى مقدمته التي صدر بها كتاب البخلاء ، أو بعبارة أخرى من الموضوعات التي رسمها لنفسه ، وجعلها منهجاً للكتاب فى مقدمته ، ليأخذ — بعد — فى بحثها وتحليلها وبيان وجوهها فى خلال القصص التي يقصها ، والأحاديث التي يضعها ، والمحاورات التي يديرها ، كما يفعل كتاب القصة حين يجعلون مدار قصتهم حالة نفسية أو اجتماعية خاصة ، يدبرون القصة لها ، ويحيكون خيوطها عليها ، فيعالجون بذلك بحثها وتحليلها ، ويبينون عناصرها وعواملها فى أسلوبهم الفنى .

وقد عرض الجاحظ لهذا الموضوع بذلك الأسلوب فى مواضع من كتاب البخلاء أخصها ذلك الفصل الرائع الذى كتبه بعنوان : « قصة محمد بن أبى المؤمل »[2] .

وابن أبى المؤمل هذا هو الشخصية التي تمثل ذلك النوع من الناس الذى أشار إليه الجاحظ فى نص الحيوان الذى نقلناه آنفاً ، فهو رجل بخيل بطبيعته وفى قرارة نفسه ، ولكنه يرى البخل شيئاً بغيضاً جديراً أن يغض منه ويضع من منزلته ، فهو يقمعه فى نفسه قمعاً ، يحاول أن يكون عند الناس كريماً ، ويتخذ لذلك أسبابه ، فها هو ذا يصطنع الجود اصطناعاً ، ويتكلف الكرم تكلفاً ، ويذهب فى هذا مذهب السراة : يصنع الطعام ويجوده ويتنوق فيه ، ثم يواتر الرسل والكتب إلى أصدقائه ومعارفه ، يدعوهم إلى طعامه ،

(١) الحيوان ١ : ٢٠١ — ٢٠٣ ، ط مصطفى البابى الحلبى . (٢) البخلاء ص ٩٤ .

فإذا أبطأوا عليه لم يدع أن يعاتبهم ويتغضب عليهم ، وهو يتكلف ذلك كله استجابة لهذه الرغبة التي يفرضها على نفسه أو يفرضها المجتمع عليه ، فى أن ينتفى من الشهرة بالبخل ، وأن يعرف عند الناس بما يعرف به السراة من الكرم ، ولكنه لا يكاد يبلغ من ذلك هذا المبلغ ، حتى تنتقض عليه طبيعته ، وتذهب المذاهب المختلفة فى الإعلان عن نفسها ، والاحتيال فى فرض إرادتها على وجه من الوجوه . وهنا نرى كيف يفتن الجاحظ فى تصوير هذه الحالة ، والتعبير عما يختلف على نفسه من الحركات المختلفة ، ومن مظاهر المغالبة بين الطبع والتطبع .

فهو حين يغالب طبيعته فى مظاهر الكرم العليا ، واصطناع أساليب المترفين من السراة ، فيجود الطعام ويتأنق فيه ، ويبالغ فى الإنفاق عليه ، والدعوة إليه ، لا تدعه هذه الطبيعة الغلابة حتى تجد المنفذ الذى تنفذ منه من خلال توافه الأمور وصغائر النفقات ، فإذا هو إزاءها ضعيف مغلوب . إنها تسلك إليه سبيلا جانبية ، وتأتى إليه من ناحية لم يبالغ فى توطين نفسه عليها كما صنع فى غيرها ، فها هى ذى تحمله على أن يبخل بالخبز ، وهو أيسر الأمور وأهونها نفقة ، « وليس بين قلة الخبز وكثرته كثير ربح » . فإذا لاحظ الجاحظ عليه ذلك وأخذه عليه ، خطأه وبالغ فى تخطئته ، وذهب ينتحل الحجج ويلتمس الأدلة على أن ما يصنع من ذلك لا مأخذ فيه ، وأن الإقلال من الخبز ليس من البخل بسبيل ، بل أجدر به أن يكون مظهراً من مظاهر الكرم والمغالاة فيه ، « لأن الخبز إذا كثر على الموائد ورث ذلك النفس صدوداً ، ولأن كل شيء من المأكول وغير المأكول إذا ملأ العين ملأ الصدر ، وفى ذلك موت الشهوة وتسكين الحركة » .

وهذا الاحتجاج ينطوى على نوع من الخداع أو التخادع بينه وبين طبيعته تلك . ولكن الجاحظ لا يقف عند هذا الحد ، ولا يكتفى بإظهار هذه الحركة النفسية الخفية من المداورة والمجاهدة فى ذلك الأسلوب ، وإنما يمضى فى ملاحظة تلك الدخائل التى تداخل نفس صاحبه وبيانها ، فها هو ذا يمعن فى جداله ، ويضيق عليه الخناق ، فإذا به قد جهد وكل واستسلم ولم يعد يملك أن يتماسك ويعتصم ، وإذا بتلك الطبيعة الكامنة أخذت تطفو وتتكشف ، وإذا بها تقول على لسانه : « إن الخبز إذا كثر على الخوان فالفاضل مما يأكلون لا يسلم من التلطخ والتغمير » ، وإذن فليست هى الرغبة فى تنشيط شهية أصحابه كما كان يزعم ، وإنما هو الحرص الذى يدفعه إلى الإقلال من الخبز . فإذا وصل إلى هذا الحد من الكلام تنبه واستيقظ ، وعلم أنه قد عثر فوقع فى الاعتراف بالبخل ، وهو الذى كان ما يزال ينتفى منه جهده ، فقد أوشك أن يذهب ذلك الجهد باطلا .

وبذلك أخذ من جديد يحاول المغالبة ويمضى فى توجيه الكلام وجهة أخرى ، عله يبعد عنه هذه التهمة التى كادت تنشب به ، فيقول : « والجرذقة الغمرة والرقاقة المتلطخة لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحى أيضاً من إعادتها ، فيذهب ذلك الفضل باطلا ، والله لا يحب الباطل » . وهكذا لا يزال الجاحظ به ، ولا يزال يداور ويحاور ، وفى خلال ذلك يظهر القارئ على تلك الحركات النفسية المختلفة التى تصدر عن تلك العقدة وتدور حولها .

وبعد، فهذه صورة مقتضبة من اتجاه الجاحظ فى هذا الكتاب إلى الوصف النفسى ، ومثل عابر من قدرته على التغلغل فى بواطن النفس الإنسانية وتتبع حركاتها وملاحظة الحالات المختلفة لها ، وتعرف الدقائق التى تلابس مشاعر البخيل . ولعل فيما أوردنا ما نستطيع أن نتبين به طريقته فى تصور هذه الحالات ، والتعبير عن هذه الدقائق . كما يتبين لنا مبلغ ما يتجنى عليه بعض الباحثين ، حين يزعم الزاعم منهم — كالأستاذ شفيق جبرى — أن أدبه فى كتاب البخلاء لم يعد العناية بالظواهر إلى ما يتسم به أدب الفرنجة من « التسرب فى البواطن » ، على حد تعبيره فى مقالة له عن « بخلاء الجاحظ وبخيل موليير »[1] ، وأنه اقتصر فيه « على نوع واحد من الحركات ، وهى حركات العين أو اليد أو أمثالهما » ، وأنه جعل « همه الإضحاك قبل كل شىء » ، وأننا « إذا كنا نضحك من بخلاء الجاحظ فالذى يضحكنا ظاهر البخيل ذاته ، لا صورة البخيل ولا حركات نفسه » ، وأنه من أجل ذلك « لم يكن بخيله عالميًّا ، أى بخيل كل العصور وكل البلدان » . وهذا كله تجن نخشى أن يكون مصدره النظر فى كتاب البخلاء نظراً سطحيًّا ، أو نظراً متأثراً برأى سابق فى الأدب العربى عامة ، وهو الذى عبر عنه بقوله : « . . . وإنما الغاية التنبيه على أمر واحد ، وهو أننا نهتم فى معظم أدبنا بالظواهر ، ويهتم الافرنجة بالبواطن » .

٧

ننتقل بعد هذا إلى الكلام عن صفة أخرى من أبرز الصفات الفنية التى تبدو هنا فى كتاب البخلاء ، وهى « السخرية » ، فنلقى عليها نظرة سريعة ، قدر ما يعيننا على تفهم هذا الكتاب واستبطان روحه .

وتعتبر السخرية من أبرز الصفات التى يمتاز بها الجاحظ فى كتابته حين يأخذ فى النقد والتصوير ، بل لعلها من أكثرها شيوعاً فى آثاره المختلفة ، حتى ما يكاد القارئ المتمرس به

(١) مجلة الثقافة ، العدد الأول (٣ يناير ١٩٣٩) ص ٢٥ .

يبرئ قطعة من قطعه الفنية من أن تكون مشوبة بروح السخرية . أما فى كتاب البخلاء خاصة فالأمر أظهر من أن يكون موضع مماراة ، فروح السخرية سارية فى كل جزء من أجزائه ، مترقرقة فى كل صورة من صوره .

والأصل فى هذه الروح يرجع — فيما نحسب — إلى طبيعة الجاحظ ومزاجه ، فقد كان رجلا مرح النفس ، متهلل الخاطر ، متطلق الوجه ، نزاعاً إلى الضحك . ومن ذلك ما نجده لديه من الدعوة إلى الضحك والمزاح والفكاهة ، والدفاع عنها ، ورد ما يعترض به عليها ، كما نرى صورة بينه من ذلك فى مقدمة البخلاء[1] وفى ذلك الفصل الطويل القيم الذى تحدث فيه عن المزاح وعرض لوجوه النظر المختلفة فيه ، فى رسالة التربيع والتدوير[2] . ولقد كان يرى أن الميل إلى المزاح والتقبل له إنما يكون من سهولة الخلق وسعة الأفق ، إذ يقول فى موضع آخر من هذه الرسالة : « من يغضب من المزاح إلا كز الخلق ، ومن يرغب عن المفاكهة إلا ضيق العطن »[3] . كما كان يحكى عن نفسه كيف كان يسترسل فى الضحك ويغرق فيه . ونرى مثلا من ذلك فى القصة التى قصها عن نفسه مع محفوظ النقاش[4] . فأكبر الظن عندنا أن ميل الجاحظ إلى السخرية وما إليها إنما جاء — أول شىء — عن هذه الطبيعة المرحة المتبسطة الضاحكة ، ثم من أنه كان — إلى هذا — رجلا سهل الجانب لين الحاشية محبًّا للناس عطوفاً عليهم ، لا يضيق بهم ، ولا يتبرم بعيوبهم ، ولا يتسخط عليهم . وإنما هم فى مختلف اشكالهم وشتى مسالكهم ، صورة من هذه الحياة التى يحبها . وأمثلة من الإنسانية التى يقدرها ويعطف عليها ، ومن هنا سلكت نفسه فى نقدهم مسلك السخرية اللطيفة التى تشير إلى مواطن العيوب وتصورها فى جو مرح تتخلله بسمات الاستحسان ، وتغمره ضحكات السرور ، فالجاحظ نقادة بطبيعته ، ولكن لين جانبه وحبه للحياة نكبا به كثيراً عن طريق الجد الصارم فى النقد ، وما يكون فى هذا الطريق كثيراً من الغضب والتسخط والبغضاء وما إليها من المعانى المباينة للحب ، المزورة عن سبيل الحياة. وله فى هذا كلمة دقيقة لعل فيها بياناً لتلك الطبيعة وتفسيراً لذلك المذهب ، وهى قوله : « الجد مبغضة والمزح محبة »[5] . وجملة القول أن قوة حيوية الجاحظ هذه تعتبر من أول العوامل فى هذه النزعة الساخرة العابثة .

---

(١) كتاب البخلاء ص ٦ . (٢) رسائل الجاحظ ص ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ط الرحمانية ١٩٣٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢١١ . (٤) كتاب البخلاء ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .
(٥) رسائل الجاحظ ، ص ٢٢٠ .

وإذا كنا فى بيان الأسباب والملابسات التى جعلت من الجاحظ ذلك الأديب الساخر ، وأتاحت لنا أن نستمتع فى أدبنا بتلك الصور الفنية الساخرة ، فليس يفوتنا أن نشير إلى ما كان لحياة الجاحظ أولا ، ثم ما كان لألوان دراسته ثانياً ، من أثر فى ذلك الوجه من وجوه أدبه . ذلك أن الجاحظ صحب الدنيا طويلا وتقلبت على عينه ، كما يقول المتنبى ، فقد لابس صنوف الجماعات وأنواع الناس ملابسة استطاع بها أن ينفذ إلى بواطنهم، ويظهر على ما يخالج نفوسهم ويوجههم فى حياتهم، ومارس ألوان الحياة ممارسة جعلته أدنى إلى فهمها، وأبعد عن الافتتان بتلك الظواهر التى تتبرج للناس، فتصرف هؤلاء الذين يعبرون الحياة دون أن يتعمقوها عن أن ينفذوا إلى ما وراءها، فكأن هذا الفهم العميق للحياة وهذه المعرفة الدقيقة للناس قد بعدا به عن ذلك الذى يتكلفه الناس، ويعنون أنفسهم به حين ينظرون إليها نظرة جادة صارمة ، فلم يعد لها فى نفسه تلك القيم التى يضمرها الناس لها . ولكنه — كما قلنا — رجل مرح ضاحك متطلق النفس ، يحب الحياة والاستمتاع بها ، وكذلك لم تدفعه تلك النظرة إلى الانصراف عنها ، ولكنها وجهته إلى تلك السخرية ، يرتاح إليها ، ويجد فيها لوناً جديداً من ألوان الاستمتاع بهذه الحياة .

وكذلك كان أثر دراسته المفتنة أفانين مختلفة ، الذاهبة مع شتى المعارف والآراء والمذاهب ، على النحو الذى أتاحته له مدينة البصرة الزاخرة بصنوف الأجناس وألوان العقول وأنواع الثقافات ، ثم روح الاعتزال التى كانت تتجه بأصحابها إلى التغلغل فى النواحى المختلفة للمعرفة . فقد كان من ذلك أن اتسعت آفاقه العقلية أى سعة . فإذا أضفنا إلى ذلك نزعة الجدل والمناظرة التى كانت غالبة عليه ، ثم هذه المرانة والألفة العقلية التى امتاز بها ؛ حتى كان يستطيع أن يتمثل الآراء المختلفة ووجوه النظر إليها بدرجة واحدة تقريباً ، وكان يملك المقدرة على استبطانها جميعاً، حتى لا يكاد واحد يفضل الآخر فى ذلك عنده ، عرفنا إلى أى مدى كانت أسباب « الشك » موفورة لديه ، بقدر ما كانت تنحسر أمامها عوامل « الإيمان المطلق » . وإذا كان لهذا « الشك » أثره فى ضعف « الملكة الإيمانية » ، إذا جازت لنا هذه التسمية ، فقد كان له أثره الأدبى الخطير ، وهو هذه السخرية التى اجتمعت لها أسبابها المختلفة عند كاتبنا العظيم الذى كان — فيما نحسب — صورة مركزة لما كان يسود البصرة والمجتمع البصرى .

ذلك هو الجاحظ الساخر العابث . وكتاب البخلاء هو من أكثر آثاره الأدبية تأثراً بهذه الناحية ، وكشفاً عن هذه الطبيعة المرحة الساخرة ، إذ تكاد كل قطعة من قطعه ، وكل صفحة من صفحاته ، تجلو لنا صورة كاريكاتورية رائعة لا نقضى منها عجباً ،

وتبين لنا إلى أى حد كانت هذه الروح عنده ، وإلى أى مدى اجتمعت أدواتها لديه ، وبأى براعة ومقدرة امتلك ناصية هذا النوع من التصوير الذى ينقد ويضحك فى وقت معاً . ونحن لسنا هنا بصدد تحليل كتاب البخلاء بالمعنى الدقيق ، وإنما هى نظرات عابرة ، وملاحظات مقتضبة على بعض وجوهه الفنية ، فلا علينا إذا نحن لم نبعد فى تحليل « سخريته » من خلال هذه الصور الساخرة التى أودعها هذا الكتاب .

ولكنا نحب — قبل أن نفرغ من هذا الفصل — أن نشير إلى بعض السمات التى تتسم بها سخرية الجاحظ : من أى نوع كانت هذه السخرية ، وأى لون كانت تصطنعه ؟ أكانت سخرية عارية فاقعة ، تبالغ فى إبراز ما تريده وفى الألوان التى تسبغها عليه ، مبالغة صارخة ، كما هو الشأن فى أكثر سخرية العامة ؟ كلا! فما كان الجاحظ ليلجأ إلى هذا الأسلوب الفج الذى يقتسر به العامة ضحك العامة ، وهو رجل الفن الصناع الدقيق الذهن الجيد السبك ، وإنما هى السخرية التى تقصد إلى الأذواق المترفة والمدارك المرهفة ، حتى لقد يرى بعض القراء هذه الصورة أو تلك من صوره الساخرة فلا يكاد يتنبه إلى مواطن السخرية فيها ، إذ كانت سخرية الذهن الدقيق والذوق الرفيع المهذب والفن الخالص المتمكن . وقد أشار الجاحظ — إشارة ما — إلى مذهبه هذا فى التعليق على قصة مما كان يتناقله الناس عن رجل عرف بأشنع البخل ، فلما مات قدم ابنه ، فسأل عن إدامه ، فإذا هو قطعة من الجبن ، وإذا فيها حز من أثر مسح اللقمة ، فرأى فى هذا الحز ما يدل عنده على الإسراف ، فغضب . فقيل له : « فأنت كيف تريد أن تصنع؟ » ، فقال : « أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة » . قال الجاحظ فى التعليق على هذه النادرة : « ولا يعجبنى هذا الحرف الأخير ، لأن الإفراط لا غاية له . وإنما نحكى ما كان فى الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم ، مثلة أو حجة أو طريقة ، فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره »[(١)] فى هذا التعليق ما قد يشير إلى مذهب الجاحظ فى التصوير الساخر ، وهو المذهب الذى نستطيع أن نراه مطرداً فى كتاب البخلاء .

وبعد ، فهذا ما قصدنا إلى أن نقدم به للقارئ ذلك الأثر الرائع من آثار الجاحظ ، ولم نرد إلى أن يكون دراسة تحليلية مستفيضة له ، فذلك ما لا تتسع له هذه المقدمة . وحسبنا أن نكون بما قدمناه قد استطعنا — فيما نرجو — أن نعين القارئ على الإحاطة بما لهذا الأثر من خطر فى تاريخنا الأدبى وفى ثروتنا الفنية ، وعلى معرفة الملابسات المختلفة التى لابست وضعه ، ونرجو أن نكون قد وقفنا من ذلك عند حدود الروح العلمية فى البحث والتتبع والاستنتاج .

(١) البخلاء ص ١٣٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تولاك الله بحفظه وأعانك على شكره ووفقك لطاعته وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرتَ — حفظك الله — أنك قرأت كتابي** في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سرّاق الليل ، وأنك سددت به كل خَلَل وحصّنت به كلّ عورة ، وتقدمتَ — بما أفادك من لطائف الخُدع ونبّهك عليه من غرائب الحِيل — . فيما عسى ألّا يبلغه كيدٌ ولا يجوزه مكر . وذكرتَ أن قدرَ* نفعه عظيم وأن التقدم في درسه واجب . وقلت : اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً والراحة* جماماً ، فإن* للجدّ كدًّا يمنع من معاودته ولابدّ لمن التمس نفعه من مراجعته وذكرت مُلح الحزامي** ، واحتجاج الكندي** ، ورسالة سهل بن هارون، وكلام ابن غزوان** ، وخطبة الحارثي** ، وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم . ولم سموا البخل إصلاحاً* والشحّ اقتصادًا، ولم حاموا على المنع ونسبوه إلى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرَفاً والأثرة جهلًا ، ولم زهدوا في الحمد وقلّ احتفالهم بالذم* ، ولم استضعفوا من هشّ للذكر وارتاح للبذل، ولم حكموا بالقوة لمن لايميل إلى ثناء* ولا ينحرفُ عن هجاء ، ولم احتجّوا *لِظلف العيش على لينه ولمرِّه على حُلوه* ، ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات في رحالهم مع استهتارهم بها في رحال غيرهم ، ولم تتايعوا* في البخل، ولم اختاروا ما يوجب

(٥) قدر ، صححنا : قد وقع لك ، موقع (فان فلوتن) — (٧) والمزاحة (مرسيه) — جماما فان : حاحاتان لك — (١٠)صلاحاً (فان فلوتن) — (١٢) في الذم (فان فلوتن) — (١٣) الثناء (فان فلوتن) — (١٤) لظلف ... ولمره على حلوه ، صححنا : بظلف ... وبحلوه على مره لك — (١٥) تتابعوا لك . وقارن هذه الكلمة في : رسالة ابن التوأم من هذا الكتاب « فالمتتايع لا يثنيه زجر » ، ورسالة التربيع والتدوير : « وكان ... متتايعاً في العنود » (رسائل الجاحظ ص ١٨٧) ، وكتاب استحقاق الإمامة (رسائل ص ٢٥٢) وكتاب التاج ص ٥٢ إلخ .

ذلك الاسم مع أنَفَتهم من ذلك الاسم ، ولم رغِبوا فى الكسب مع زهدهم فى الإنفاق ، ولم عملوا فى الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ولم يفعلوا فى الغنى عمل الراجى لدوام الغنى ، ولم وفَّروا نصيب الخوف و بخسوا نصيبَ الرجاء ، مع طول السلامة وشُمول العافية والمعافَى أكثر من المبتلَى ، *وليست الفوائد أقلّ من الجوائح* . بل كيف يدعو إلى السعادة من خصّ نفسه بالشِّقوة ، فكيف ينتحل نصيحة العامّة من بدأ بغش الخاصّة .

ولم احتجُّوا — مع شدة عقولهم — لما* أجمعت الأمة على تقبيحه ولم فخروا — مع اتساع معرفتهم — بما أطبقوا على تهجينه . وكيف يفطن عند الاعتلال له ويتغلغل عند الاحتجاج عنه ، إلى الغايات البعيدة والمعانى اللطيفة ، ولا يفطن لظاهر قبحه وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله . وكيف وهو الذى يجمع له بين الكدّ وقلّة المرزئة* و بين السهر وخُشونة المضجع ، و بين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع ، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوّه وأنه أحق بماله من وليّه . أوليس هو* أظهر الجهل والغباوة وانتَحل الغفلة والحماقة ، ثم احتج* لذلك بالمعانى* الشِّداد و بالألفاظ الحسان وجودة الاختصار و بتقريب المعنى و بسهولة المخرج وإصابة الموضع ، فكان ما ظهر من معانيه و بيانه مكذِّباً لما ظهر من جهله ونقصانه . ولم جاز أن يُبصر بعقله البعيدَ الغامض ويغبى* عن القريب الجليل .

وقلتَ : فبيّن لى ما الشىء الذى خبّل عقولهم وأفسد أذهانهم وأغشى تلك الأبصار ونقض ذلك الاعتدال ؛ وما الشىء الذى له عاندوا الحقّ وخالفوا الأُمَم ، وما هذا التركيب المتضادّ والمِزاج المتنافى ، وما هذا الغَباء الشديد الذى إلى جنبه فطنة عجيبة ؛ وما هذا السبب الذى خفى* به الجليل الواضح وأدرك به الجليل الغامض .

(٤) وليست الفوائد أقل من الجوائح ، صححنا : وليست الجوائح أقل من الفوائد ك ، الحوائج (فان فلوتن) – (٦) لما ، صححنا : بما ك – (٩) المرزئة ، صححنا : المرزؤ ك ، المرفق (فان فلوتن) – (١١) هو (مرسيه) : لو ك – (١٢) بتلك المعانى (فان فلوتن) – (١٤) و يعيى (فان فلوتن) – (١٩) خفى : خص ك –

(١٨ – ١٩) « وما هذا . . . عجيبة » (عيون الأخبار ٢ : ٢١٦ ط دار الكتب بالقاهرة)

وقلت : وليس عَجَبى ممن خلع عِذاره فى البخل وأبدى صفحته للذم ، ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخَصْم ولا من الاحتجاج إلا بما رُسِم فى الـكتب ، ولا عجبى من مغلوب على عقله مسخَّر* لإظهار عيبه ، كعجبى ممن قد فطن لبخله وعرّف إفراط شحه ، وهو فى ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه ، ولربما ظن أنْ قد فُطِن له وعُرِف ما عنده ، فموّه شيئاً لا يقبل التمويه ورقّع خُرقاً لا يقبل الرقع . فلو أنه كما فطن لعيبه وفطن لمن فطن لعيبه ، فطن لضعفه عن علاج نفسه وعن تقويم أخلاطه** وعن استرجاع ما سلف من عاداته وعن قلبه أخلاقه المدخولة إلى أن تعود سليمة ، لترك تـكلف ما لا يستطيعه ولربح* الإنفاق على من يذمّه ولمـا وضع على نفسه الرقباء ولا أحضر مائدته الشعراء ، ولا خالط بُرُد الآفاق ولا لابس الموكّلين بالأخبار ، ولاستراح من كدّ الـكلفة ودخل فى غِمار الأمة . و بعد ، فما بالُه يفـطُن لعيوب الناس إذا أطعموه ولا يفطن لعيب نفسه إذا أطعمهم ، و إنْ كان عيبه مكشوفاً وعيب من أطعمه مستوراً . ولم سخت نفس أحدهم بالـكثير من التبر وشحّت بالقليل من الطُّعم ، وقد علم أن الذى مَنَع يسير فى جنب ما بذل ، وأنه* لو شاء أن يحصل* بالقليل مما جاد به أضعاف ما بَخِل به ، كان ذلك عتيداً و يسيرًا موجوداً .

وقلت : ولا بدّ من أن تعرّفنى الهَنات التى نمّت على المتـكلِّفين ودلّت على حقائق المتموّهين ، وهتكت عزّ أستار الأدعياء وفرّقت بين الحقيقة والرّياء ، و فصَلت بين المقهور المنزجر* ، والمطبوع المبتهل ، لتقف ـــ زَعمتَ ـــ عندها ولتعرِض نفسك عليها ولتتوهّم مواقعها وعواقبها . فإن نبّهك التصفّح لها على عيب قد أغفلته ، عرفت مكانه فاجتنبته ، فإن كان عتيدًا ظاهرًا معروفاً عندك نظرتَ ، فإن كان احتمالك فاضلاً على بخلك دمتَ على إطعامهم وعلى اكتساب المحبّة بمؤاكلتهم . و إن كان اكترائك غامرَ

(٣) مستحق ب (٨) ولرمح (فان فلوتن) . وقارن هذه الكلمة فى كتاب إسحاق بن إبراهيم الموصلى إلى على بن هشام : « فان كان كما قال القائل : قبح الله كل دن أوله دردى لم نتجشم إتمامه ، وربحنا العناء فيه » (الأغانى ١٥ : ١٥٠) - (١٣) لوشا أن يحصل : مع بنتا أن نحصرك - (١٧) المقهور المنزجر (مرسيه) : المتهور والمنزجر ك ، المبهرج المتزخرف (فان فلوتن)

الاجتهاد . سترت نفسك وانفردت بطيّب زادك ، ودخلتَ مع الغِمار * وعشت عيش المستورين . وإن كانت الحروب بينك وبين طباعك سِجالا وكانت أسبابكما أمثالا وأشكالا ، أجبت الحزمَ إلى ترك التعرّض وأجبت الاحتياط إلى رفض التكلّف ، ورأيت أنّ من حصّل السلامة من الذمّ فقد غَنِم وأنّ من آثر الثقة على التغرير فقد حَزُم . وذكرتَ أنك إلى معرفة هذا الباب أحوج ، وأن ذا المروءة إلى هذا العلم أفقر . وأنى إن حصّنتُ من الذمّ عِرضك بعد أن حصنت من اللصوص مالك ، فقد بلغتُ لك ما لم يبلغه أبٌ بار ولا أم رؤوم .

وسألتَ أن أكتب لك علّة خبَّاب ** فى نفى الغيْرة ، وأن بذل الزوجة داخل فى باب المواساة والأثرة ، وأن فرج الأمة فى العارية كحُكم الخدمة ، وأن الزوجة فى كثير من معانيها كالأمَة ، وأنّ الأمة مالٌ كالذهب والفضة ، وأن الرجل أحقُّ ببنته * من الغريب وأولى بأخته * من البعيد ، وأن البعيدَ أحقُّ بالغيْرة والقريبَ أولى بالأنفة وأنّ الاستزادة فى النسل كالاستزادة فى الحرث ، إلاّ أنّ العادة هى التى أوحشت منه والديانة هى التى حرّمته ، ولأنّ الناس يتزيّدون أيضاً فى استعظامه و ينتحلون أكثرَ ممّا عندهم فى استشناعه .

وعلّة الجهجاه ** فى تحسين الكذب فى مواضع * ، وفى تقبيح الصدق فى مواضع ، وفى إلحاق الكذب بمرتبة الصدق ، وفى حطّ الصدق إلى موضع الكذب . وأنّ الناس يظلمون * الكذبَ بتناسى مناقبه وتذكّر مثالبه ، ويحابون الصدق بتذكّر منافعه وبتناسى مضارّه . وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما * وعدّلوا بين خصالهما ، لمَا فرّقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون .

ومذهبَ صحصح ** فى تفضيل النسيان على كثير من الذكر ، وأن الغباء فى الجملة أنفع من الفطنة فى الجملة ، وأنّ عيش البهائم أحسن موقعاً من النفوس من عيش العقلاء :

---

(١) العال ك – (١٠ – ١١) ببيته ك – بأخيه ك ب . (١٥) فى تحسين الكذب فى مواضع ، صححنا : فى تحسين الكذب بمرتبة الصدق فى مواضع ك – (١٧) يظلمون (مرسيه) : يطلبون ك – (١٨) مرافقهما : موافقتهم ك

وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلا ذا مروءة ، أو امرأة ذاتَ عقل وهمة وأخرى ذاتَ غَباء وغفلة ، لـكان الشحم إلى البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأنّ العقلَ مقرون بالحذَر والاهتمام ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمةُ تقنو شحماً فى الأيام اليسيرة ولا تجد ذلك لذى الهمَّة البعيدة . ومتوقّع البلاء فى البلاء وإن سلِم منه والغافل* فى الرجاء إلى أن يدركه البلاء .

ولولا أنك تجد هـذه الأبواب وأكثر منها مصوّرة فى كتابى الذى سمِّىَ كتابَ المسائل** لأتيتُ على كثير منه فى هذا الـكتاب .

فأما ما سألتَ من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء ، فسأوجدُك ذلك فى قَصَصهم — إن شاء الله تعالى — مفرقاً وفى احتجاجاتهم مجملا . فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندى دون ما انتهى إلىّ من أخبارهم على وجهها . وعلى أن الـكتاب أيضاً يصير أقصر ويصير العار فيه أقل .

ونبتدئ برسالة سهل بن هارون ، ثم بظُرف أهل خُراسان ، لإكثار الناس فى أهل خراسان .

ولك فى هذا الـكتاب ثلاثة أشياء : تبين حُجَّة طريفة ، أو تعرّف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة . وأنت فى ضحك منه إذا شئت وفى لهو إذا مَلِلت الجد .

وأنا أزعمُ أنّ البكاء صالحٌ للطّبائع ، ومحمودُ المغَبّة ، إذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ولم يعدِل عن الجهة ، ودليلٌ على الرّقة والبعد من القسوة ، وربّما عُدّ من الوفاء وشدّة الوجد على الأولياء . وهو من أعظم ما تقرّب به العابدون واستَرحم به الخائفون . وقال بعض الحـكماء لرجل اشتدّ جزَعه من بكاء صبىّ له : لا تجزع ، فإنه أفتح لجرمه وأصح

(٥) والغافل ، صححنا : والعاقل ك .

(١٨ — ص٦ : ١) « وقال بعض الحكماء ... لبصره » البيان والتبيين ١ : ١٤٤ ، مطبعة الفتوح الأدبية ، القاهرة ، سنة ١٣٣٢ هـ

لبصَره . وضربَ عامرُ بنُ عبدِ قيس** بيده على عينه ، فقال : جامدةٌ شاخصةٌ لاتندَى . وقيل لصفوان بن محرز** عند طول بكائه وتذكّر أحزانه : إن طول البكاء يورث العمى ، فقال : ذلك لها شهادة . فبكى حتى عَمِي . وقد مُدح بالبكاء ناسٌ كثير ، منهم يحيى البكاء وهَيْثم البكاء . وكان صفوانُ بن محرز** يسمّى البكّاء . وإذا كان البكاء — < و > * مادام صاحبه فيه فإنه فى بلاء ، وربّما أعمى البصر وأفسد الدماغ ودل على السُّخف وقُضِى على صاحبه بالهلع ، وشبِّه بالأمة اللكعاء وبالحدَث الضّرَع — كذلك ، فما ظنّكَ بالضحك الذى لايزال صاحبُه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه . ولو كان الضحكُ قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحِبَرة والحَلْى والقصر المبنىّ : كأنّه يضحك ضَحِكا . وقد قال الله جل ذكره : « وأَنّهُ هُو أَضحَكَ وأَبكَى وَأَنّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَي »، فوضع الضحك بحِذاء الحياة ووضع البكاء بحِذاء الموت ، وإنه لايضيفُ الله إلى نفسِه القبيح ، ولا يمنُّ على خَلقه بالنقص . وكيف لا يكونُ موقِعُه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ؛ لأنّ الضحك أوّل خير يظهرُ من الصبىّ ، وبه* تطيبُ نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علّة سروره ومادة قوّته .

ولفَضل خِصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحّاك وببسّام وبطَلْق وبطليق . وقد ضحك النبىّ — صلى الله عليه وسلم — ومزَح* وضحك الصالحون ومزحوا* ، وإذا مَدَحوا قالوا : هوضَحوك السنّ ، وبسّام العشيّات ، وهشٌّ إلى الضيف وذو أرْيحيّة واهتزاز ، وإذا ذمّوا قالوا : هو عَبوس ، وهو كالح ، وهو قَطوب ، وهو شَتيم

---

(٥) < و > ، أضفنا : ساقطة فى ك — (١٣) وبه ، صححنا : وقد ك — (١٦—١٧) وفرح . . . وفرحوا (فان فلوتن)

(٢ — ٣) « وقيل لصفوان . . . شهادة » البيان والتبين ٣ : ١٠٥ مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة ، سنة ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ٢ : ٢٩٦ — (٩—١٠) « وأنه هو أضحك . . . وأحيا » سورة النجم : ٤٣ — ٤٤ — (١٦— ص ٧ : ٢) « وقد ضحك . . . منضوح » العقد الفريد ٣ : ٤٢١ المطبعة الجمالية ، القاهرة ، ١٩١٣ م

المحيّا ، وهو مكفهرٌّ أبداً ، وهو كريه ، ومقبّض الوجه ، وحامض الوجه ، وكأنما وجهُهُ بالخلّ منضوح .

وللضحِكِ موضع وله مقدار ، وللمَزْح موضعٌ وله مقدار ، متى جازهما أَحد وقصّر عنهما أحد ، صار الفاضل خَطَلا والتقصير نقصاً . فالناس لم يعيبوا الضحك إلاّ بقدر ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفعُ ، و بالضحك الشىء الذى له جُعل الضحك ، صار المزحُ جِدّا والضحك وقاراً .

وهذا كتابٌ لا أغرّك منه ولا أستر عنك عيبَه ، لأنّه لا يجوز أن يكمُل لما تريده ولا يجوز أن يُوفّى حقه كما ينبغى له . لأن ههنا أحاديثَ كثيرة متى أطلعنا منهـا حرفاً عُرف أصحابُها ، وإن لم نسمهم ولم نُرد ذلك بهم ، وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدلّ على أسمائهم ، منهم الصديق والولىّ والمستور والمتجمّل * ، وليس يفى حسنُ الفائدة لـكم بقبح الجناية عليهم؛ فهذا بابٌ يسقط البتّة و يختلّ به الـكتاب لا محالة ، وهو أكثرها باباً * وأعجبُها منك مَوقعاً . وأحاديث أُخر ليس لها شهرة* ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هى مقيدةٌ أصحابها ، وليس يتوفّر أبداً حسنها إلاّ بأن يُعرف أهلها ، وحتى تتّصل بمستحقّها و بمعادنها واللائقين بها ، وفى قطع ما بينَها و بين عناصرها ومعانيها * سقوطُ نصف الملحة وذهابُ شَطر النادرة . ولو أنّ رجلا ألزق نادرة بأبى الحارث جمّين ** والهيثم بن مطهر ** و بمزبّد ** وابن أحمر ، ثم كانت باردة * لجرت على أحسن ما يكون ، ولو ولّد نادرة حارة فى نفسها مليحة فى معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين ** و إلى ابن النوّاء ** وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ولصارت فاترة ، فإن الفاتر شر من البارد . وكما أنّك لو ولّدت كلاماً فى الزهد وموعظة الناس* ، ثم قلتَ :

---

(١٠) والمتجمل، صححنا : والمنخمل ك – (١١) بياناً (مرسيه) – (١٢) شهر (فان فلوتن) – (١٤) ومغانيها (مرسيه) – (١٦) بادرة ك (١٩) للناس ك

(٥ – ٦) « ومتى أريد . . . وقارا » كرر هذا المعنى بشىء من التفصيل فى الحيوان ١ : ٣٧ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٣٨ م – (١٩) « فان الفاتر شر من البارد » كرره أيضاً بشىء من التفصيل فى البيان والتبيين ١ : ٨١ ، مطبعة الفتوح الأدبية ، القاهرة ، ١٣٣٢ هـ

هذا من كلام بكر بن عبد الله المُزَنِىّ ** وعامر بن عبد قيس العنبرىّ ومؤرق العجلىّ ** ويزيد الرقاشىّ ** ، لتضاعف حسنه ولأحدث له ذلك النسَب نضارة ورفعة لم تسكن له ، ولو قلتَ : قالها أبو كعبٍ الصوفىّ ** أو عبدُ المؤمن أو أبو نواسٍ الشاعر أو حسين الخليع ، لما كان لها إلّا ما لها فى نفسها ، و بالحَرَى أن تغلط فى مقدارها فتبخس من حقها .

وقد كتبنا لك أحاديثَ كثيرةً مضافة إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إمّا بالخوف منهم و إمّا بالإكرام لهم . ولولا أنّك سألتنى هذا الكتاب لما تكلّفته ولما وضعتُ كلامى موضِع الضَّيم والنقمة ، فإن كانت لائمة أو عجز فعليك و إن كان عذرٌ فلى دونك .

٩

رسالة سهل بن هارون **

إلى محمد بن زياد وإلى بنى عمه من آل زياد *

حين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوا كلامه فى الكتب *

« بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . أصلح الله أمرَكم وجمع شَملكم ، وعلَّمكم الخير وجعلكم من أهله .

قال الأحنفُ بنُ قيس : يا معشرَ بنى تميم لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإنَّ أسرع الناس إلى القتال أقلُّهم حياءً من الفِرار . وقد كانوا يقولون : إذا أردتَ أن ترى العيوب جمّة فتأمَّل عيَّاباً ، فإنه إنَّما يعيب بفضل ما فيه من العيبْ . وأوّل العيب أن تعيب ما ليس بعيب . وقبيحٌ أن تنهى عن مرشد أو تغرى بمشفق . وما أردنا بما قلنا إلَّا هدايتكم وتقويمكم ، وإلَّا إصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم . ولئن أخطأنا سبيلَ إرشادكم فما أخطأنا سبيلَ حُسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أنَّا ما أوصيناكم إلَّا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشُهِرنا به فى الآفاق دونكم ، فما كان أحقَّكم — فى تقديم حُرمتنا بكم — أن ترعَوا * حقّ قَصدنا بذلك إليكم وتنبيهنا * على ما أغفلنا من واجب حقكم، فلا العذرَ المبسوطَ عرفتم * ولا بواجب الُحرمة قمتم . ولو كان ذكز العيوب برًّا وفضلا ،

(٢) إلى محمد بن زياد وإلى بنى عمه من آل زياد ك : أبى محمد بن راهبون إلى بنى عمه من آل راهبون (فان فلوتن) . وانظر صلة ما بين سهل بن هارون ومحمد بن زياد الزيادى (زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ — ٢٥٩)—(٣) الكسب (مرسيه) (١٣) ترعوا: ترعون ك — (١٣) تنبيهنا: تنبيهاً ك — (١٤) عرفتم ك : بلغتم (فان فلوتن)

(٦ — ٧) «قال الأحنف ... الفرار» البيان والتبين ٢ : ٥٦ مطبعة مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م

لرأينا أن فى أنفسنا عن ذلك شُغلا . وإن من أعظم الشِّقوة وأبعد من السعادة ، ألّا يزال يُتذكَّرُ زللُ المعلِّمين. ويُتناسى * سوء استماع المتعلمين ، ويُستعظم غلطُ العاذلين ولا يحفل بعمد* المعذولين .

عِبتمونى بقولى لخادمى : أجيدى عَجْنه خميراً كما أجدتِه فطيراً ، ليكونَ أطيبَ لطعمه وأزيدَ فى ريعه . وقد قال عمرُ بن الخطاب — رضى الله عنه ورحمه — لأهله : املكوا العجين فإنه أرْيَع الطحينين * .

وعبتم على قولى : من لم يتعرَّف * مواقع السرَف فى الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد فى المُمتنع الغالى . فلقد أُتيت من ماء الوُضوء بكَيْله يدلّ حجمُها عن * مبلغ الكِفاية ، وأشفَّ من الكفاية ، فلما صِرتُ إلى * تفريق أجزائه على الأعضاء و إلى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدتُ فى الأعضاء فَضْلا على الماء ، فعَلمتُ أن لو كنت مكَّنت الاقتصادَ فى أوائله ورغبتُ عن التهاون به فى ابتدائه ، لخرج آخرُه على كفاية أوَّله ، ولكان نصيبُ العضو الأول كنصيب الآخِر ؛ فعبتمونى بذلك ، وشنَّعتموه بجُهدكم وقبَّحتموه . وقد قال الحسن ** عند ذكر السَّرَف : إنَّه ليكونُ فى الماعونين : الماء والكلأ . فلم يرضَ بذلك < فى > الماء * ، حتى أردفه بالكلأ .

وعبتمونى حين ختمتُ على سَدٍّ عظيم ، وفيه شىء ثمينٌ من فاكهةٍ نفيسةٍ ومن رُطَبة غريبة ، على عبد نَهِم وصبىّ جَشِع وأمة لَكْعاء وزوجة خَرْقاء . وليس من أصل

---

(٢) ويتناسى (فان فلوتن) : ويتناسوا ك — (٣) بتعمد (فان فلوتن) — (٦) الطحنتين (فان فلوتن) — (٧) يعرف (فان فلوتن) — (٨) عن ك : على (فان فلوتن) — (٩) صرت إلى (العقد) : صرت تفريق ك — (١٤) بذلك < فى > الماء ، صححنا : بذلك الماء ك ، بذكر الماء (العقد ونهاية الأرب) .

(١ — ٣) «وان من أعظم . . . المعذولين» ساقط فى العقد ونهاية الأرب .

(٥ — ٦) «املكوا . . . الطحينين» : مع بعض المغايرة فى البيان ٢ : ١٥١ ، ط الفتوح ، عيون الأخبار ٣ : ٢٩٦ ، العقد ٢ : ٤٥٦ ط لجنة التأليف ، القاهرة ؛ ١٩٤٠ م ، اللآلى ص ٦٨٩ ط لجنة التأليف .

الأدب ولا فى ترتيب الحكم < ولا > * فى عادات القادة ولا فى تدبير* السادة أن يستوىَ فى نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب ، والناعم من كلّ فنّ واللباب من كلّ شكل ، التابع والمتبوع والسيّد والمسُود ، كما لا تستوى مواضعهم فى المجلس ومواقع أسمائهم فى العُنوانات وما يستقبلون* به من التحيّات . وكيف وهم لا يفقِدون من ذلك ما يفقِد القادر ولا يكترثون له اكتراث العارف . من شاء أطعم كلبَهَ الدَجاج المسمّن وأعلفَ حِماره السمسم المقشر . فعِبتمونى بالختم ، وقد خَتَم بعض الأئمة على مِزود سويق ، وختم على كيسٍ فارغ ، وقال : طينة خير من طَنَّة* . فأمْسَكتم عمّن ختم على لا شىء وعبتم من ختم على شىء .

وعبتمونى حين قلتُ للغلام : إذا زدتَ فى المَرَق فزد فى الإنضاج ، لنجمع بين التأدُّم باللحم < و > المرق * ، ولنجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب ؛ وقد قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : إذا طبختم لحماً فزيدوا فى الماء ، فإن لم يُصب أحدُكم لحماً أصابَ مرقاً .

وعِبتمونى بخصف النعال وبتصدير* القميص ، وحين زعمتُ أنّ المخصوفةَ أبقى وأوطأ وأوقى ، وأنفى للكبر وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم * ، وأن الاجتماع مع الحفظ وأن التفرق مع التضييع . وقد كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يخصِفُ نعله ويرقع ثوبَهَ ويلطع إصبعه ، ويقول : لو أُتيتُ بذِراع لأكلت ولو دُعيت إلى كُراع لأجبت . ولقد لفّقت سُعدى ابنةُ عوف إزارَ طلحة ، وهو جَواد قريش ، وهو طلحة الفيّاض** . وكان فى ثوب عمرَ رقاعُ أدَم . وقال : من لم يستحيِ من الحلال خفَّت مؤنته وقلّ كبره .

---

(١) < ولا > فى (فان فلوتن = العقد ونهاية الأرب) : فى ك – تدبير (فان فلوتن = العقد ونهاية الأرب) : برسى ك – (٤) ينفلون ك – (٧) طنه (مرسيه) : طيه (فان فلوتن = العقد) (١٠) المرق ك – (١٢) وبصديد ك – (١٣) الحزم (فان فلوتن = العقد) : الرفيع ك ، ولعلها : الأدب الرفيع

---

(٧) « طينه . . . طنه » عيون الأخبار ١ : ٣٦ – (١٥) « ويقول . . . لأجبت » البيان والتبيين ٣ : ٢٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م – (١٧) « من لم يستحى ... كبره » عيون الأخبار ١ : ٢٦٧ .

وقالوا : لا جديدَ لمن لا يلبسُ الخَلَق . وبعث زيادٌ رجلا يرتاد له محدِّثًا ، واشترط على الرائد أن يكون عاقلاً مسدداً ، فأتاه به موافقاً ، فقال : أكنتَ ذا معرفة به ؟ قال : لا ولا رأيتُه قبل ساعته . قال : أفناقلتَه الكلام وفاتحته الأمور ، قبل أن توصله إلىّ ؟ قال : لا . قال : فلم اخترتَه على جميع مَن رأيته ؟ قال : يومُنا يومٌ قائظٌ ، ولم أزل أتعرّف عُقولَ الناس بطعامهم ولِباسهم فى مِثل هذا اليوم ، ورأيتُ ثيابَ الناس جُدُداً وثيابَه لُبُساً ، فظننتُ به الحزم .

وقد علِمنا أنّ الجديد فى < غير > موضعه دون الخَلَق . وقد جعل الله عزّ وجلّ لكلّ شئ قدْراً وبوّأ له موضِعاً ، كما جعل لكلّ دهر رجالا ولكلّ مَقامٍ مقالا . وقد أحيا بالسُّم وأمات بالغِذاء ، وأغصَّ بالماء وقتل بالدواء . فترقيعُ الثوب يجمعُ مع الإصلاح التواضُع ، وخلافُ ذلك يجمع مع الإسراف التكبّر . وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين ، كما زعموا أنّ قلّة العيال أحد اليسارين . وقد جبّر الأحنفُ يد عنز ، وأمر بذلك النعمان . وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة ، وقال رجلٌ لبعض السادة : أهدى إليك دَجاجة ، قال : إن كان لا بدّ فاجعلها بيّاضة . وعد أبو الدرداء العُراق جَزر البهيمة .

وعِبتموني حينَ قلتُ : لا يغترّنّ أحد بطول عُمْره وتقوُّس ظهره ورقّةِ عظمه ووَهن قوته ، أن يرى أكرومته ، ولا يُخرجْه ذلك إلى إخراج مالِه من يديه وتحويله إلى مِلك غيره ، وإلى تحكيم السَّرَف فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعلَّه أن يكون معمَّراً وهو

---

(٤) قايض ك — (٧) الجديد فى < غير > موضعه دون الخلق، صححنا : الخلق فى موضعه دون الخلق ك ، الجدد فى موضعه دون الخلق (فان فلوتن) ، الخلق فى موضعه ذوق الخلق (مرسيه) — (١١) اليسارتين (فان فلوتن) — (١٣) وقال (فان فلوتن) — (١٦) أن يرى أكرومته ، ولا يخرجه ذلك : وأن يرى نجوه أكثر من رزقه فيدعوه ذلك (العقد) ، وأن يرى دخله . . . (نهاية الأرب)

---

(١) « لا جديد . . . الخلق » تاريخ الطبرى ٩ : ٣٠٠ فى كلام أبى جعفر المنصور — (١١) قلة . . . اليسارين » عيون الأخبار ١ : ٤٧ ، الأمالى ٢ : ٥٦ ط دار الكتب ، نهج البلاغة (شرح ابن أبى الحديد) ٤ : ٣٠٩ ط دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ

لا يدرى وممدوداً له فى السنّ وهو لا يشعر ، ولعله أن يُرزق الوَلَد على اليأس أو يحدُث عليه بعض مخبّآت الدهور ، ممّا لا يخطُر على البال ولا تدركُه العقول ، فيستردُّه ممن لا يردُّه ويظهرُ الشكوى إلى من لا يرحمه ، أضعفَ ما كان عن الطلَب وأقبحَ ما يكون به الكسبُ. فعبتمونى بذلك ، وقد قال عمرو بن العاص : اعمل لدنياك عملَ من يعيش أبداً ، واعمل لآخرتك عملَ من يموت غداً .

وعبتمونى حين زعمتُ أن التبذير إلى مال القِمار ومال الميراث وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع ، وأنّ الحفظ إلى المال المكتسَب والغنى المجتلَب ، وإلى ما يعرض فيه لذَهاب الدين واهتِضام العِرض ونَصَب البدن واهتمام القلب أسرع ، وأن < من > لمْ * يحسُبْ ذَهابَ نفقته لم يحسُبْ دخلَه ، ومن لم يحسُب الدخل فقد أضاع الأصل ، وأنّ من لم يعرِف للغنى قدره ، فقد أذِن بالفقر وطاب نفساً بالذلّ .

وزعمتُ أن كسْبَ الحلال مضمّن بالإنفاق فى الحلال ، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث ، وأن الطيّب يدعو إلى الطيّب ، وأن الإنفاق فى الهوى حِجاب دون الحقوق ، وأنّ الإنفاق فى الحقوق حِجاز دون الهوى ؛ فعبتم علىّ هذا القول ، وقد قال معاويةُ : لم أر تبذيراً قطُّ إلاّ و إلى جانبه حقّ مضيّع . وقد قال الحسن : إذا أردتم أن تعرِفوا من أين أصاب ماله ، فانظُروا فى أىّ شىء ينفقُه ، فإن الخبيثَ يُنفَق فى السَّرَف .

وقلت لكم — بالشفقة منى عليكم و بحسن النظر لكم وبحفظكم لآبائكم ولما يجبُ فى جِواركم وفى مُماالحتكم ومُلاَبستكم — : أنتم * فى دار الآفات ، والجوائح * غيرمأمونات، فإن أحاطت بمال أحدِكم آفة لم يرجع إلى بقية . فأحرزوا النِعمة باختلاف الأمكنة ، فإنّ البليّة

---

(٩) < من > لم (فان فلوتن) : لم ك — (١٧) وأنتم (فان فلوتن) — والجوائح (فان فلوتن)

(٤ — ٥) « اعمل . . . غداً » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ منسوباً إلى عبد الله بن عمرو ، محاضرات الراغب ١ : ٢٣٦ منسوباً إلى أبى الدرداء — (١٣ — ١٤) « وقد قال . . . مضيع » محاضرات الراغب ١ : ٢٣٨ — (١٤ — ١٥) « وقد قال الحسن . . . السرف » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ ، محاضرات الراغب الأصبهانى ١ : ٢٣٩ ط الشرفية ، ١٣٢٦ هـ

لا تجرى فى الجميع إلّا مع موت الجميع . وقد قال عمرُ رضى الله عنه — فى العبد والأمة وفى مِلك الشاة والبعير وفى الشىء الحقير اليسير —: فرِّقوا بين المنايا . وقال ابنُ سيرين لبعضِ البحريين : كيفَ تصنعونَ بأموالـكم ؟ قال : نفرّقها فى السفن ، فإن عطِب بعضٌ سلِم بعض ، ولولا أنّ السلامةَ أكثرُ لما حملنا خزائننا فى البحر . قال ابن سيرين : تحسَبها خَرْقاء وهى صَناع .

وقلتُ لـكم — عند إشفاقى عليكم — : إنّ للغِنَى سُكرًا وإنّ للمال لنزوة ، *فمن لم يحفظ الغنى من سُكر الغنى* فقد أضاعه ومن لم يَرْتبِط المـالَ بخوف الفقر فقد أهمله . فعبتمونى بذلك ، وقال زيدُ بن جَبَلة** : ليسَ أحدٌ أفقرَ من غَنِيّ أمِن الفقر ، وسكرُ الغنى أشدُّ من سُكر الخمر .

وقلتم : قد لزِم الحثّ على الحقُوق والتزهيدَ فى الفُضول ، حتّى صارَ يستعملُ ذلك فى أشعاره بعد رَسائله وفى خُطَبه بعد سائرِ كلامه ، فمن ذلك قولُه في يحيى بن خالد :

عدوُّ تِلاد المـال فيما ينوبُه   منوعٌ إذا مامنعُه كان أحزما

ومِن ذلك قولهُ فى محمّد بن زياد** :

وخليقتان : تقًى وفضلُ تحرّم   وإهانةٌ : فى حقّه ، للمـال

وعبتمونى حين زعمتُ أنى أقدّم المال على العلم ؛ لأنّ المال به يغاثُ العالم وبه تقوم النفوس ، قبل أن تعرف فضيلةُ العلم . وأنّ الأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع ، وأنّى قلتُ: وإن كنّا نستبينُ الأمورَ بالنفوس ، فإنا بالـكفاية نستبين : وبالخَلّة نعمى . وقلتم :

(٦–٧) فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى (فان فلوتن = العقد) : فمن حفظ الغنى بسكر الغنى ك

(٢) «فرقوا بين المنايا» البيان والتبيين ٢ : ١٥١ ط الفتوح ، ١٣٣٢ هـ ، عيون الأخبار ١ : ٢٥٠ ، العقد الفريد ٢ : ٤٥٦ ط لجنة التأليف – (٨) «ليس . . . الفقر» عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ – (١٢) «عدو . . . أحزما» البيان والتبيين ٣ : ١٧٤ ، الحيوان ٣ : ٤٦٦ ، ٥ : ٦٠٤ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٨ م ، زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ العقد الفريد ٦ : ١٩٢ ط لجنة التأليف . . . (منسوباً إلى كثير عزة)

وكيف تقول هذا ، وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدَّم* الأدباء : العلماء أفضلُ أم الأغنياء؟ قال : بل العلماء . قيل : فما بالُ العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء أكثرَ مما يأتى الأغنياء أبوابَ العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هى الفاصِلةُ* بينهما ، وكيفَ يستوى شىءٌ ترى حاجة الجميع إليه ، وشىء يَغنى بعضُهم فيه عن بعض .

وعِبتمونى حين قلتُ : إن فضل الغِنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكونُ فى الدار ، إن احتيج إليها استعملت ، وإن استُغنى عنها كانت عُدَّة . وقد قال الحُضين بن المنذر** : ودِدت أنَّ لى مثلَ أُحُد ذهباً لا أنتفع منه بشىء . قيل : فما ينفعُك من ذلك ؟ قال : لكثرةِ من يخدُمنى عليه . وقال أيضاً : عليك بطلب الغنى ، فلو لم يكن لك فيه إلاَّ أنه عزٌّ فى قلبك وشُبهة فى قلب غيرك ، لكان الحظّ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً .

ولسنا ندعُ سيرةَ الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء ، لأصحاب الأهواء . كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج . وقالوا* : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك . فقسَّموا الأمور كلَّها على الدين والدنيا ، ثم جعلوا أحد قِسمى الجميع الدرهم . وقال أبو بكر الصديق رَحمة الله عليه ورضوانه : إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام فى اليوم . وكانوا يبغضون أهلَ البيت اللحِمين* . وكان هِشام يقول : ضَع الدرهمَ على الدرهم يكونُ مالاً . ونهى أبو الأسود الدؤلى ، وكان حكيماً أديباً

(١) ومقوم ك — (٤) القاضية (فان فلوتن = العقد) — (١٣) وقالوا ، صححنا : وقال ك — (١٦) اللحمين ك ، اللخميين ب

(٧ — ٩) « قال الحضين . . . عليه » عيون الأخبار ١ : ٢٤١ ، غرز الخصائص الواضحة للوطواط ص ٣١٢ — (٩ — ١٠) « عليك ... غيرك » شرح الشريشى للمقامات ٢ : ١٩١ — (١٤) « درهمك . . . لمعادك » العقد الفريد ، ٣ : ٢٩ ط لجنة التأليف — (١٥ — ١٦) « وقال أبو بكر . . . اليوم » محاضرات الراغب ١ : ٢٣٨ — (١٦) « وكانوا . . . اللحمين » عيون الأخبار ٣ : ٢٠١ ، النهاية فى غريب الحديث ٤ : ٥٥ ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٢٢ هـ

وداهياً أريباً ، عن جودكم هذا المولّد وعن كرمكم هذا المستحدث ، فقال لابنه : إذا بسَط الله لك فى الرزق فابسُط ، وإذا قبض فاقبِض ، ولا تجاود الله فإن الله أجود منك . وقال : درهم من حلّ يخرجُ فى حقّ ، خير من عشرةِ آلافٍ قَبْضاً . وتلقّط عُرجُداً من بَرَم * فقال : تضيعون مثل هذا ، وهو قوتُ امرئٍ مسلم يوماً إلى الليل ؟! وتلقط أبو الدرداء حبّات حنطة ، فنهاه بعضُ المسرفين ، فقال : إيهاً * ابنَ العبسية ، إن من فقه * المرء رفقه فى معيشته .

فلستم علىّ تردُّون ولا رأيى تفندون * ، فقدِّموا النظر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم . والسلام » .

(٣ — ٤) عرجداً من برم ، صححنا : عرمداً من بريم ك ، عزنداً من بريم (فان فلوتن) — (٥) أيهن ك — (٦) من فقه ، صححنا : مرفقه ك — (٧) تفندون ب : تفتدون (فان فلوتن)

---

(٢) « ولا تجاود . . . منك » عيون الأخبار ١ : ٣٣٢ ، نهاية الأرب ٣ : ٢٢٣ ط دار الكتب المصرية — (٣ — ٦) « وتلقط . . . معيشته » عيون الأخبار ١ : ٣٣١

نبدأ بأهلِ خُراسان ، لإِكثارِ الناس فى أهل خراسان ، ونخص بذلك أهل مَرو** ، بقدر ما خصّوا به :

قال أصحابنا: يقول المروَزىُّ للزائر إذا أتاه ،وللجليس إذا طال جلوسُه : تغديتَ اليوم ؟ فإن قال : نعم ، قال : لولا أنك تغدّيتَ لغدّيتك بغَداء طيّب ، و إن قال : لا ، قال : لو كنتَ تغدّيتَ لسقيتُك خمسةَ أقداح . فلا يصيرُ* فى يده على الوجهين قليل ولا كثير .

وكنتُ فى منزل ابن أبى كريمة** وأصله من مَرو ، فرآنى أتوضّأ من كوز خزف ، فقال : سُبحان الله ! تتوضّأ بالعذب ، والبئر لك معرضة * ؟ قلتُ : ليس بعذب ، إنما هو من ماء البئر** . قال : فتفسدُ علينا كوزنا بالملوحة . فلم أدر كيف أتخلص منه .

وحدّثنى عمرُو بن نَهيَوىَ*** قال : تغديتُ يوماً عند الكندىّ ، فدخل عليه رجل كان له جاراً وكان لى صديقاً ، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل — وكان أبخل مَن خلق الله — قال : فاستحييت منه ، فقلت : سبحان الله ! لو دنوتَ فأصبتَ معنا مما نأكل . قال : قد والله فعلت . فقال الكندى : ما بعدَ الله شىء . قال عمرو : *فكَتَفه ، والله ، كَتفاً* لا يستطيعُ معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه ولو مدَّ يده لكان كافراً أو لكان قد جعل مع الله ، جل ذكره ، شيئاً .

وليس هذا الحديثُ لأهل مرو ، ولكنّه من شكل الحديث الأول .

---

(٥) فلا خير ب — (٧) لك معرضة لك : عندنا ب — (١٢—١٣) فكتفه والله كتفاً لك : أخجلته والله يا أبا عثمان خجلا ب

(٣ — ٥) « يقول . . . كثير » العقد الفريد ٤ : ٢١٦ ط الأزهرية ، ٦ : ١٧٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٩ م (٩ — ١٤) « وحدثنى . . . شيئاً » العقد الفريد ٦ : ١٨٢ ط لجنة التأليف

وقال ثُمامة** : لم أرَ الديك فى بلدة قطّ إلّا وهو لافظ* ، يأخذُ الحبة بمنقاره ، ثم* يلفِظها* قُدّام الدجاجة ، إلا دِيَــكة مرو ، فإنّى رأيتُ دِيَــكة مرو تسلُب الدَّجاج ما فى مناقيرها من الحبّ . قال : فعلمتُ أنّ بُخلَهم شىء فى طبع البلاد وفى جواهر الماء ، فمن ثَمّ عمّ جميعَ حيوانهم .

فحدّثتُ بهذا الحديث أحمدَ بن رشيد ، فقال : كنتُ عند شيخ من أهل مرو ، وصبىٌّ له صغيرٌ يلعب بين يديه ، فقلت له ، إما عابثاً وإما ممتحناً : أطعمنى من خُبزكم . قال : لاتريده ، هو مرّ . فقلت : فاسقنى من مائكم . قال : لاتريده ، هومالح . قلتُ : هاتِ* لى من كذا وكذا . قال : لا تريده ، هو كذا وكذا . إلى أن عدَدْتُ أصنافاً كثيرة ، كلّ ذلك يمنَعُنيه ويبغّضه إلىّ . فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علّمه ما تسمع ؟ يعنى أنّ البخل طبع فيهم وفى أعراقهم وطينتهم .

وزعم أصحابنا أنّ خُراسانية ترافقوا فى منزل ، وصَبَروا عن الارتفاق بالمصباح ما* أمكن الصبر . ثم إنهم تناهدوا وتخارجوا* ، وأبى واحدٌ منهم أن يعينهم ، وأن يدخل فى الغرم معهم . فكانوا إذا جاء المصباحُ شدّوا عينه بمنديل ، ولايزالُ ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فإذا أطفؤوهُ أطلقوا عينيه .

ورأيتُ أنا حمّارة منهم ، زُهاء خمسين رَجُلًا ، يتغدَّون على مباقلَ بحضرة قريةِ* الأعراب** ، فى طريق الكوفة ، وهم حجاج . فلم أر من جميع الخمسينَ رجلَين يأ كلان معاً ، وهم فى ذلك متقاربون ، يحدِّث بعضُهم بعضاً . وهذا الذى رأيتُه منهم من غريب ما يتّفق للناس .

حدثنى مُوَيس بنُ عِمران** قال : قال رجلٌ منهم لصاحبه — وكانا إمّا متزاملين ،

---

(١) لاقط ك – ولم ك ب – يلقطها ك – (٧) فأت ب – (١١) فا ب – (١٢) تعاونوا وأخرج كل منهم شىء ب – (١٥) خضرة من قرية ب

(١ – ٣) « وقال ثمامة . . . الحب » الحيوان ٢ : ١٤٩ ط مصطفى البابى الحلبى ، العقد ٣ : ٢١٣ المطبعة الأزهرية ، ١٩١٣ م ، ٦ : ١٧٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

و إما مترافقين — : لم لا نتطاعم ؟ فإنّ يدَ الله مع الجماعة ، وفى الاجتماع البركة ، وما زالوا يقولون * : طعامُ الاثنين يكفى الثلاثة ، وطعامُ الثلاثة يكفى الأربعة . فقال له صاحبُه : لولا أعلمُ أنك آ كل منى لأدخلتُ لكَ هذا الـكلام فى باب النصيحة . فلمّا كان الغدُ ، وأعاد عليه القول ، قال له : ياعبدَ الله معك رغيفٌ ومعى رغيف ، ولولا أنّك تريد الشر * ما كان حرصُك على مؤاكلتى . تريد الحديثَ والمؤانسة ؟ اجعل الطبقَ واحداً ، ويكون رغيف كلّ منا قدّام صاحبه . وما أشك أنك إذا أ كلتَ رغيفك ونصفَ رغيفى ستجدُه مباركاً . إنّما كان ينبغى أن أ كون أجدُه أنا لا أنت .

وقال خاقانُ بن صُبَيح ** : دخلتُ على رجلٍ من أهل خراسان ليلا ، وإذا هو قد أتانا بمِسرَجة فيها فَتيلةٌ فى غاية الدقة ، و إذا هو قد ألقى فى دُهن المِسرجة شيئاً من مِلح ، وقد علّق على عمود المنارة عُوداً بخَيط ، وقد حزَّ فيه حتى صار فيه مكانٌ للرِّباط . فـكان المصباحُ إذا كاد ينطفئ أشْخَص رأسَ الفَتيلة بذلك * . قال : فقلتُ له : ما بالُ العودِ مربوطاً ؟ قال : هذا عودٌ قد تشرَّب الدُهن ، فإن ضاع ولم يحفظ احتجنا إلى واحد عَطشان ، فإذا كان هذا دأبَنا ودأبه ضاع من دُهننا فى الشهر بقدرِ كفاية ليلة. قال : فبينا أنا أتعجَّب فى نفسى ، وأسأل الله جلّ ذكره العافية والستر ، إذ دخل شيخٌ من أهل مَرو ، فنظر إلى العود فقال : يا أبا فلان فررتَ من شىء ووقعتَ فى شىء * . أما تعلمُ أنّ الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء ؟ أو ليس قد كان البارحةَ عند إطفاء السِراج أرْوَى ، وهو عند إسراجك الليلةَ أعطش ؟ قد كنتُ أنا جاهلا مثلك * ! اربُط — عافاك الله — بدلَ العود إبرة أو مِسَلّة صغيرة . وعلى أنّ العود والخِلال والقصبةَ ربماتعلّقت بها * الشعرةُ

---

(٢) وما زال يقول ب — (٤) الشر ك ب : أكبر (فان فلوتن) — (١١) لعله : بذلك < العود > — (١٥) شىء ب: شبيه به ك — (١٧) مثلك < حتى وفقنى الله إلى ماهو أرشد > (فان فلوتن = العقد) — (١٨) به ك ب

(٨—ص ٢٠ : ٢) « وقال خاقان... نشاف » العقد الفريد ٤ : ٢١٣ ط الأزهرية ، ٦ : ١٧٤—١٧٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

من قُطن الفَتيلة إذا سوينّاها بها فيشخص لها* . وربّما كان ذلك سبباً لانطفاء السراج . والحديد أملس ، وهو مع ذلك غيرُ نشّاف . قال خاقانُ : ففى تلك الليلة عرفتُ فضلَ أهل خُراسان على سائر الناس ، وفضلَ أهل مَرو على سائر أهل خراسان .

قال مُثنّى بن بشير** : دخل أبوعبد الله المرْوَزىّ على شَيْخ من أهل خُراسان ، وإذا هو قد استَصْبح فى مِسْرجة خَزَف ، من هذه الخزفيَّة الُخضر . فقال له الشيخُ : لا يجيء والله منك مِن صالح* أبداً . عاتبتُك فى مَسارج الحجارة ، فأعتَبتَنى بالخزَف . أوَماعلمتَ أنّ الخزَف والحجارة يحسُوان الدُّهن حَسْواً ؟ قال : جُعلتُ فداك ! دفعتُها إلى حريف لى دهّان ، فألقاها فى المِصفاة شهراً حتى رَوِيَت من الدُّهن ريًّا لا تحتاج معه أبداً إلى شىء . قال : ليس هذا أريد ، هذا دواؤه يسير ، وقد وقعتَ* عليه . ولـكن ماعلمتَ أنّ موضعَ النار من المِسرجة فى طَرَف الفتيلة لا ينفكّ من إحراق النار وتجفيفه ونشف ما فيه ؛ ومتى ابتلّ بالدُّهن وتسقّاه ، عادت النار عليه فأكلته ؟ هذا دأبهُما . فلو قِسْتَ ما يتشرّب* ذلك المـكانُ من الدهن ، بمايستمدّه طرَف الفتيلة منه ، لعلمتَ أنّ ذلك أكثرُ* . وبعد هذا فإنّ ذلك الموضعَ من الفتيلة والمِسرجة لا يزال سائلاً جارياً . ويقال إنّك متى وَضعتَ مسرجة فيها مصباحٌ ، وأخرى لا مِصباحَ فيها لم تلبثْ إلّا ليلةً أو ليلتين حتى ترى السفلى ملآنةً دهناً . واعتبر أيضاً ذلك بالمِلح الذى يوضع تحت المِسرجة ، والنُّخالةِ التى توضع هناك لتسويتها وتصويبها ، كيف تجدُهما يَنعصران دُهناً . وهذا كلّه خسرانٌ وغَبن ، لايتهاونُ به إلا أصحابُ الفساد . على أنّ المفسدين إنّما يُطعمون الناس ويسقون الناس ، وهم على حال يَسْتَخلفون شيئاً ، وإن كان دوناً* . وأنتَ إنّما تُطعم النارَ وتسقى النار ، ومنْ أطعَمَ النار جعله الله يوم القيامة طعاماً للنار . قال الشيخ* : فكيف أصنع

---

(١) فيشخص لها ك : فيخسر الزيت بها ب . وانظر قراءة العقد : فتشخص لها

(٦) من صالح ك : بصالح ب . أمر صالح (فان فلوتن) — (٩) وقفت ب — (١١) ما يشرب ب — (١٢) أكثر ، صححنا : أكثره ك ، كثير ب — (١٨) دونا ك ب : رونا (فان فلوتن) — (١٩) [الشيخ] ب

جُعلت فداك ؟ قال : تتّخذُ قنديلاً ، فإنّ الزجاج أحفظ من غيره ، والزجاج لا يعرف الرَّشح ولا النَّشف ، ولا يقبلُ الأوساخ التى لا تزول إلاّ بالدلك الشديد أو بإحراق النار ، وأيّهما ما كان ، فإنه يعيدُ المِسرجة إلى العطش الأوّل . والزجاج أبقى على الماء والتراب من الذهب الإبريز ، وهو مع ذلك مصنوع والذهب مخلوق ، فإن *فضله الذهب بالصلابة فضله* الزجاج بالصفاء ، *والزجاج مجلٍ والذهب ستّار* . ولأنّ الفتيلة إنّما تكونُ فى وسَطه ، فلا تحمَى جوانبُه بوَهَج المصباح ، كما تحمَى بموضِع النار من المِسرجة . وإذا وقع شُعاع النار على جَوْهر الزجاج ، صار المصباحُ والقنديلُ مصباحاً واحداً ، وردّ الضياء كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه . واعتبرْ ذلك بالشُّعاع الذى يسقط على * وجهِ المرآة أو على * وجه الماء أو على الزجاجة ، ثم انظر كيف يتَضاعف نورُه ، وإن كان سقوطُه على عين إنسانٍ أعشاه ، وربّما أعماه . وقال الله جل ذكره : « ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » . والزيتُ فى الزجاجة نورٌ على نور ، وضوءٌ على ضوء مضاعف . هذا مع فضل حُسن القِنديل على حسن مَسَارج الحجارة والخزف .

وأبو عبد الله هذا كان من أطيب الخلق وأملحهم بخلا وأشدّهم رياء* .

(٤–٥) فضيلة ... وفضيلة ب — (٥) مجل ... ستار (فان فلوتن) : محلى ... سناد ك ب
(٨–٩) [وجه المرآة أو على] ب — (١١) رياء ك ب : دقا (فانْ فلوتن)

(٣ — ١٠) « الزجاج ... أعماه » ا نظر مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٣١٤ فى شرح المثل : « أنم من زجاجة على ما فيها » (منسوباً إلى سهل بن هارون) (٥ — ٩) « الله نور ... من يشاء » سورة النور : ٣٥

أدخل على ذى اليمينين طاهر بن الحسين ، وقد كان يعرفه بخراسانَ بسبب الكلام ، فقال له : منذُ كم أنتَ مقيمٌ بالعراق يا أبا عبد الله ؟ فقال : أنا بالعراق منذُ عشرين سنةً ، وأنا أصومُ الدهر منذُ أربعين سنة* . قال : فضَحِك طاهر ، وقال : سألناك يا أبا عبد الله عن مسألة ، فأجبتنا* عن مسألتين .

ومن أعاجيبِ أهل مَرْو ما سَمعناه من مَشْيختنا* على وجه الدهر* ، وذلك : أنّ رجلا من أهل مرو كان لايزال يحجُّ و يتّجر ، و ينزِل على رجل من أهل العراق ، فيكرِمُه و يكفيه مؤنته . ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقىّ : ليتَ أنى قد رأيتك* بمرو ، حتى أكافئك ، لقديم إحسانك ، وما تجدّد لى من البرّ فى كل قَدمة* . فأما هٰهُنا فقد أغناك الله عنى* .

قال : فعرضتْ لذلك العراقىِّ بعد دهر طويل حاجةٌ فى تلك الناحية ، فكان ممَّا هوَّن عليه مكابدة السفر ووَحشة الاغتراب ، مكانُ المرْوَزىّ هنالك* . فلمَّا قَدِم مضى نحوه فى ثياب سَفره وفى عمامته وقَلَنسُوته وكسائه ، ليحطَّ رحلَه عنده ، كما يصنع الرجل بثقتِه وموضع أُنسه . فلمَّا وجده قاعدًا فى أصحابه ، أكبَّ عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به* سؤال من رآه قط . قال العراقىُّ فى نفسه : لعلّ إنكاره إيَّاى لمكان القِناع ، فرمى بقناعه ، وابتدأ مُساءلته ، فكان له أنكر . فقال : لعلّه أن يكون إنما أُتِىَ من قِبَل العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، وجدَّد مُساءلته ، فوجده أشدَّ ما كان* إنكارًا . قال : فلعله إنما أُتى من قبل القلنسُوة . وعلم المروزىُّ أنه لم يبقَ شىء يتعلق به المتغافل والمتجاهل* ، فقال* : لو خرجتَ من جِلدك لم أعرفْك . ترجمة هذا الكلام بالفارسية : « اكرازپوست پارون بيائى نشناستم »*

---

(٣) ولدتنىأمى ب — (٤) فأجبتنا ب : أجبتنا ك ، وأجبتنا (فان فلوتن) — (٥) مشايخنا ب — الهزل ب— (٧) أراك ب— (٨) مرقب—(٩) عنه ب— (١١) هناك (فان فلوتن) — (١٤) عنه ب— (١٦) كان له ب —(١٨) أو المتجاهل ب — قال ك — (١٩) اكران يوست ابارون ىانى نستاسم ك ب

(١ — ٤) « ادخل . . . مسألتين » البيان والتبين ٢ : ١٧٠ ، ط الفتوح ، ١٣٣٢ هـ ، الحيوان ٣ : ٨ — ٩ ، ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٨ م

وزعموا أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا ، فتناهدوا وتلازقوا* فى شراء اللحم ، فإذا اشترَوا اللحم قَسموه قبلَ الطبخ ، وأَخَذَ كلٌّ إنسان منهم نصيبَه فشكَّه* بخوصة أو بخيط ، ثمّ أرسَله فى خل القِدر والتوابل . فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطَه وقد علمه بعلامة ثم اقتسَموا المرَق ، ثم لا يزال أحدُهم يسلُّ من الخيط القِطعة بعد القطعة ، حتّى يبقى الحبلُ* لا شىء فيه . ثم يجمعون خيوطهم . فإن أعادوا الملازقة* أعادوا تلك الخيوط ، لأنها قد تشرّبت الدسَم ، فقد رَوِيَت . وليس تناهدُهم* من طريق الرغبة فى المشاركة ، ولكن لأن بضعة* كل واحدٍ منهم لا تبلغ مقدارَ الذى يُحتمل أن يُطبخ وحدَه ، ولأنّ المؤنة تخفُّ أيضاً والحطَب والخل والثوْم والتوابل ، ولأن القِدرَ الواحدة أمكنُ من أن يقدِر كلٌّ واحدٍ منهم على قِدر . وإنما* يختارون السِّكباجْ** لأنها تبقى* على الأيام ، وأبعدُ من الفساد .

حدثنى أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام قال : قلتُ مرّةً لجار كان لى ، من أهل خراسان : أعِرْنى مِقلاكم فإنى أحتاجُ إليه . قال : قد كان لنا مِقلى ولكنّه سُرق . فاستعرتُ من جار لى آخر . فلم يلبث الخراسانىُّ أن سَمِع نشيش اللحم فى المقلى ، وشمّ الطُباهجِ** ، فقال لى ، كالمُغضب : ما فى الأرض أعجبُ منك ، لو كنتَ خبّرتنى أنك تريدُه لِلَحم أو لِشَحم لوجدتنى أسرع إليك به* ، إنما خَشِيتك* تريدُه للباقلّى ، وحديد المِقلى يحترقُ إذا كان الذى يقلَى فيه ليسَ بدسِم . وكيفَ لا أعيرك إذا أردتَ الطباهج ، والمقلى بعد الردّ من الطباهج أحسنُ حالا منه وهو فى البيت .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام : دعانا جارٌ لنا ، فأطعمنا تمراً وسَمْنَ* سلاء ، ونحنُ على خوان ليس عليه إلّا ما ذكرت ، والخراسانىُّ معنا يأكل ، فرأيتهُ يقطُر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك . فقلت لرجل إلى جنبى : ما لأبى فلان يُضيع سمنَ

---

(١) وشكه ب — (٢) فتغارموا وتلازموا ب ، وانظر اللسان فى مادة (نهد) : « والتناهد إخراج كل واحد من الرفقة نفقته على قدر نفقة صاحبه . . . والمخرج يقال له النهد بالكسر » (٥) الخيط ب — الملازمة ب — (٦) تغارمهم ب — (٧) بضعة ، صححنا : بضاعة ك ، أن غرم ب — (٩) فانما ك — أبقى ب (فان فلوتن) — (١٥) أسرع إليك به ب : أسرع إليك ك ، أسرع (فان فلوتن) — ظننتك ب — (١٨) وسمناً (فان فلوتن)

القوم ، ويسيء المؤاكلة ، ويغرف فوق الحق ؟ قال : وما عرفتَ علّته ؟ قلت : لا والله . قال : الخِوان خِوانه ، فهو يريد أن يدسَمه ، ليكون كالدبغ له . ولقد طلّق امرأته — وهي أمّ أولاده — لأنه رآها غَسَلت خواناً له بماء حارّ ، فقال لها : هلاّ مسحتِه .

وقال أبو نُواس : كان معنا في السفينة — ونحنُ نريد بَغداد — رجلٌ من أهل خراسان ، وكان من عُقلائهم وفقهائهم* . فكان* يأكل وحده . فقلت له : لم تأكل وحدَك ؟ قال : ليس عليّ في* هذا الموضع مسألة : إنما المسألة على من أكلَ معَ الجماعة ، لأنّ ذلك هو التكلُّف . وأكلي وحْدي هو الأصل وأكلي مع غيري زيادة في الأصل .

وحدّثني إبراهيم بنُ السِّنْديّ** قال : كان على رَبض* الشاذَرْوَان** شيخ لنا ، من أهل خراسان . وكان مصححاً بعيداً من الفساد ومن الرشا ومن الحكم بالهوى ، وكان حَفيًّا جدًّا* ، وكذلك كان في إمساكه وفي بخله وتدنيقه في نفقاته ، وكان لا يأكل إلا ما لا بدّ منه ولا يشرب إلا ما لا بدّ له* منه . غير أنه إذا* كان في غَداة كلّ جُمعة حمل معه منديلاً* فيه جَرذقتان** ، وقِطع لحم سِكْباج مبرّد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان ، وأربع بيضات ليس منها بدّ ، ومعه خِلال . ومضى وحده ، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ ، وينظر* موضعاً تحت شجرة وسط خضرة وعلى ماء جار . فإذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرّة ومن هذا مرّة . فإن وجد قيِّم ذلك البستان رَمَى إليه بدرهم ، ثم قال : اشْتَرِ لي بهذا ، أو أعطني بهذا ، رُطَباً — إن كان في

(٥) وفهمائهم (فان فلوتن) — وكان (فان فلوتن) — (٦) من ب — (٩) ربض ، صححنا : ربع ك — (١١) جذبا ب — (١٢) [له] ب — [إذا] (فان فلوتن) — (١٣) منديل ك ب — (١٥) [وينظر] ك ، وطلب (فان فلوتن) .

(٤ — ٧) « وقال أبو نواس ... التكلف » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٠ ، العقد الفريد ٤ : ٢٣٠ ، ط الأزهرية .

زمان الرطب — أو عنباً — إن كان فى زمان العنب — ويقول له : إيّاك إيّاك أن تحابيَنى ، ولـكن تجَوّدْ لى ، فإنك إن فعلت لم آكله ولم أعُد إليك . واحذر الغَبن فإن المغبون لامحمودٌ ولا مأجور** . فإن أتاه به أكل كلّ شىء معه ، وكل شىء أتى به ، ثم تخلّل وغسل يديه ، ثم تمشّى مقدار مائة خُطوة . ثم يضع جنبه ، فينام إلى وقت الجمعة . ثم ينتبه فيغتسِل ، ويمضى إلى المسجد . هذا كان دأبه كلّ جمعة .

قال إبراهيم : فبينا هو يوماً من أيامه يأكلُ فى بعض المواضع ، إذ مرّ به رجل فسلم عليه ، فردّ السلام ، ثم قال* : هلمّ عافاك الله . فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعاً ، يريد أن يطفُر الجدول أو يعبر النهر* ، قال له : مكانك ، فإنّ العجلة من عمل الشيطان . فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخُراسانىّ وقال* : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أتغدّى . قال : ولم ذاك* ؟ وكيف طمِعت فى هذا ؟ ومَن أباح لك مالى ؟ قال الرجل : أوَليسَ قد دعوتنى ؟ قال : ويْلك ، لو ظننتُ أنك هكذا أحمقُ ما ردَدْتُ عليكَ السلام . الآيين* فيما نحن فيه أن تـكونَ إذا كنتُ أنا الجالس وأنتَ المار ، أن تبدأ أنتَ فتُسَلِّم* ، فأقولُ أنا حينئذ مجيباً لك : وعليكم السلام . فإن كنتُ لا آكلا* شيئاً سكتُّ أنا وسكتَّ أنت ، ومضيتَ أنت وقعدتُ أنا على حالى . وإن كنتُ آكلُ فها هنا آيين* آخر ، وهو أن أبدأ أنا فأقول : هلمّ ، وتجيبُ أنت فتقول : هنيئاً . فيـكون كلام بكلام ، فأما كلامٌ بفَعال وقولٌ بأكل فهذا ليس من الإنصاف ، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرًا ، قال : فورد على الرجل شىء لم يكن فى حِسابه .

فشهر بذلك فى تلك الناحية ، وقيلَ* له : قد أعفينا* من السلام ومن تـكلّف

---

(٧) قال له ب — (٨) يريد أن يعبر النهر ب ؛ أو يعدى النهرك — (٩) فقال ب — (١٠) ولم ذا ب، ولم ذلك (فان فلوتن) — (١٢) الأحسن ب — (١٣) بالسلام ب — [لا] آكل ب — (١٥) وجه ب — (١٩) وقال ب — أعفيناك ب .

الردّ . قال : ما بى إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفى أنا نفسى من « هـلمّ » ، وقد اسْتقام الأمر .

ومثلُ هذا الحديث ما حدثنى به** محمد بن يسير* عن والٍ كان بفارس ، إما أن يكونَ خالداً خُو مَهْرَوَيْهِ* أو غيرَه ، قال :

بينا هُوَ يوماً فى مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احْتَجَب بجُهده* ، إذ نَجَم شاعرٌ من* بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه ومجّده . فلمّا فرَغ قال : قد* أحسنتَ . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرةَ آلاف درهم . ففرِح الشاعر فرحاً قد يُستطار له*، فلما رأى حاله قال : وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقِع ؟ اجعَلها عشرين ألفَ درهم . فـكاد الشاعرُ يخرجُ من جِلده . فلمّا رأى فرحَه قد أضعف* ، قال : وإن فرحك ليتضاعفُ على قدر تضاعف القول ؟ أعطه يا فلان أربعين ألفاً . فـكاد الفرحُ يقتلُه .

فلمّا رجعتْ إليه نفسُه قال له : أنتَ — جُعلتُ فِداك — رجل كريم ، وأنا أعلمُ أنك كلما رأيتَنى قد ازددتُ فرحاً زدتَنى فى الجائزة ، وقبولُ هذا مِنك لا يكونُ إلّا من قلّة الشـكر* . ثمّ دعا له وخرج .

قال : فأقبلَ عليه كاتبُه فقال : سُبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً ، تأمرُ له بأربعين ألف درهم ؟ قال : ويْلكَ ! وتريد أن تعطيَه شيئاً ؟ قال : * ومِن إنفاذ أمرك بدّ* ؟ قال : يا أحمق ، إنما* هذا رجلٌ سرّنا بكلام ، وسررناه بكلام . هو حينَ زعمَ أنّى أحسنُ من القمر ، وأشدّ من الأسد ، وأن لسانى أقطعُ من السيف ، وأن أمرى أنفذُ من السِّنان جعلَ* فى يدى من هذا شيئاً أرجعُ به إلى بيتى ؟ ألسنا* نعلمُ أنه قد

---

(٣) يشير ك ب — (٤) خالد أخو مهرويه ك ب (فان فلوتن) (٥) بحجره (مرسيه) — (٦) [من] بين ب — [قد] ب — (٨) فرحاً شديداً ب — (٩) تضاعف ب — (١٤) الشكر صححنا : الشكر له ، ك ب — (١٦ — ١٧) ولم أمرت له بذلك ب — (١٧) إن ب — (١٩) هل جعل ب — [ألسنا] نعلم ب

كذبَ ؟ ولـكنه قد سرّنا حين كذبَ لنا ، فنحنُ أيضاً نسرُّه بالقَول ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذِباً ، فيـكون كذبٌ بكذب وقولٌ بقول . فأمّا أن يكون كذبٌ بصدق وقول بفعل ، فهذا هو الخسران المبين* الذى سمعتَ به .

ويقالُ : إن هذا المثلَ الذى قد جرى على ألسِنة العوامّ من قولهم : ينظر إلىّ شَزْراً كأنّى أكلتُ اثنين وأطعمتُه واحداً ، إنما هو لأهل مرو .

قال : وقال المروزى : لولا أنّى أبنى مدينة لبنَيْتُ آرِيًّا لدابتى .

قال : وقلتُ لأحمدَ بن هشام** ، وهو يبنى دارَه ببغداد : إذا أراد اللهُ ذَهاب مال رجل سلّط عليه الطين والماء . *قال: ومايصنع بذكر الطين والماء ؟ إنما إذا أراد الله ذهاب مالِ رجلٍ جعلَه يرجو الخلف ، لا والله إن* أهلكَ الناسَ ولا أفقرَ بيُوتَهم ، ولا ترك دورهم بلاقع ، إلاّ الإيمان بالخلف ، *وما رأيتُ جُنَّةً قط أوقى من اليأس*

قال : وسمع رجلٌ من المراوزة الحسنَ وهو يحثّ الناس على المعروف ، ويأمرُ بالصدقة ، ويقول : ما نقصَ مال قط من زكاة . ويعدهم* سرعةَ الخلَف . فتصدّق* بمالِه كلِّه فافتقر ، فانتظرَ سنة وسنة ، فلمّا لم* يرَ شيئاً بكر* على* الحسن ، * فقال : حسنٌ* ما صنعتَ بى ؟ ضمنتَ لى الخلَفَ ، فأنفقتُ على عِدتك ، وأنا اليومَ مذ كذا وكذا سنةً أنتظرُ ما وعدتَ ، لا أرى منه قليلا ولا كثيراً . هذا يحلُّ لك ؟ اللصُّ كان يصنع بى أكثرَ من هذا ؟

والخلفُ يكون معجَّلا ومؤجَّلا . ومن تصدّق وتشرّط الشروط استحقّ الحرمان . ولو كان هذا على ما توهّمه المَرْوَزىُّ لـكانت المحنة فيه ساقطة ، ولترك الناسُ التجارة ، * ولما بقِيَ فقيرٌ ، ولذهبت* العبادة .

(٣) [المبين] ك – (٦) [قال . . . لدابتى] ب – (٨) [قال . . . إنما] ك – (٩).والله ما ب – (١٠) [وما ... اليأس] ب – (١٢) ويعده ب – فتصدق < المروزى > ب – (١٣) فلم ير ب – فبكر إلى ب – وقال انظر ب – (١٩) ولم يبق فقير وذهبت ب

(ص ٢٦ : ٣ – ٢٧ : ٢) «ومثل . . . بكذب» كتاب البخلاء للخطيب البغدادى ، ورقة ٣٦ ، مخطوطة المتحف البريطانى .

وقيل : أصبح ثُمامة شديدَ الغمِّ حين احترقت داره . وكان كلّما دخلَ عليه إنسان قال : الحريقُ سريعُ الخلَف . فلما كثر ذلك القولُ منهم ، قال : * فأستحرق الله * . اللهم إنى أستحرقُك فأحرِق كل شىء لنا .

وليس هذا الحديثُ من حديثِ المراوزة ، ولكنا ضمّناه إلى ما يشا كله .

قال سَجّادة** ، وهو أبو سَعيد سجادة : ناسٌ من المراوزة إذا لَبِسوا الخِفاف فى الستّة الأشهر التى لا ينزَعون فيها خفافهم ، يمشون على صُدور أقدامهم ثلاثة أشهر ، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثةَ أشهر حتى يكون * كأنهم لم يلبسوا خِفافهم إلا ثلاثة أشهر ، مخافةَ أن تنجرد نِعال خفافهم أو تنقَب * .

حكى أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام ، عن جاره * المروزى : أنه كان لا يلبس خفًّا ولا نعلا إلى أن يذهبَ النبق اليابس ، لكثرة النوى فى الطريق والأسواق . قال : ورآنى مرةً مَصَصْتُ قصبَ سكّر ، فجمعتُ ما مصصت ماءه لأرمىَ به ، فقال : إن كنت * لا تنّور لك ولا عيال عليك * ، فهبْه لمن له تنّور وعليه عيال * . وإياك أن تعوّد نفسك هذه العادة فى أيام خفّة ظهرك ، فإنك لا تدرى متى يأتيك العيال * .

---

(٢) [فاستحرق الله] ب – (٧) يكونوا ب – (٨) تنتقب ب – (٩) حار < عن > ب – (١٢) كان ب – ولالك عيال ب ، ولا عيال (فان فلوتن) – و [عليه] عيال ب – (١٣) ما يأتيك العيال لك ، ما يأتيك من العيال (فان فلوتن) .

(١ – ٢) « أصبح . . . الله » البيان والتبيين ٢ : ٢٥٣ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م

قصة أهل البصرة من المسجديّين**

قال أصحابُنا من المسجديين* :

اجتمع ناسٌ فى المسجد ، ممن يَنْتَحِل الاقتصاد فى النفقة ، والتثمير* للمال ، من أصحاب الجمع والمنع . وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحابّ ، وكالحِلف الذى يجمع على التناصر وكانوا إذا التقَوا فى حِلَقهم* تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارَسوه ، التماساً للفائدة ، واستمتاعاً بذكره .

فقال شيخٌ منهم :

ماء بئرنا ـ كما قد علمتُم ـ مالحٌ أُجاج ، لا يقرَبه الحمار ولا تُسيغه الإبل وتموتُ عليه* النخل ، والنهرُ منا بعيد وفى تكلف العَذب علينا مؤونة . فكنّا نمزجُ منه للحِمار ، فاعتلّ منه* وانتقض علينا من أجله ، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذبَ صِرفاً . وكنت أنا والنعجة* كثيرًا ما نغتسلُ بالعذب مخافة أن يعترىَ جلودَنا منه مثلُ ما اعترَى جوفَ الحِمار . فكان ذلك الماء العذبُ الصافى يذهب باطلاً . ثم انفتحَ لى فيه بابٌ من الإصلاح ، فعمِدتُ إلى ذلك المتوضَّأ ، فجعلت فى ناحية منه حُفرة ، وصَهرجتها وملستها ، حتى صارت كأنها صخرةٌ منقورة ، وصوَّبت إليها المسيل فنحنُ الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافياً لم يخالطه شىء . ولولا التعبد لكان جلدُ المتغوِّط أحقّ بالنَّتْن* من جلدِ الجُنُب ، فمقاديرطيب* الجلود واحدة ، والماء على حاله . والحِمار أيضاً لا تقززُ* له من ماء الجنابة ، وليس علينا حرجٌ فى سَقيه منه . وما علمنا أنّ كتاباً حرَّمه ولا سُنَّة نهت عنه فربِحنا هذه منذ أيام ، وأسقطنا مؤنة عن النفس والمال** .

* قال القوم : هذا* بتوفيق الله ومَنّه

---

(١) من المحدثين ك ، [من المسجديين] ب – (٢) [من المسجديين] ب – (٣) التثمير ، صححنا . التميز ك ، التمير ب – (٥) حلقة ب – (٨) وتموت منه ب – (١٠) عنه ك – (١١) والمرأة ب – (١٥) بالبتر ب (١٦) – طب ب – لا يتقذر من ب –.(١٩) مال القوم وهذا ك

فأقبل عليهم شيخٌ فقال :

هل شَعَرتم بموتِ مريم الصنّاع *؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح. قالوا : فحدِّثنا عنها . قال : نوادرُها كثيرة وحديثُها طويل، ولكنى* أخبركم عن واحدة فيها كفاية . قالوا : وما هى ؟ قال :

زوّجتْ ابنَتها ، وهى بنتُ اثنَتى عشرة سنة ، فحلّتها الذهبَ* والفضةَ وكستها المروىّ والوَشْى والقزّ والخزّ وعلّقت المعصفرَ ، ودقّت الطيب ، وعظّمت أمرها فى عين الختَن*، ورفعَت من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجُها أَنى لك* هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عندِ الله . قال : دعِى عنك الُجملة وهاتى التفسير ، والله ما كنتِ ذا* مال قديماً ولا ورثتِه حديثاً ، وما أنتِ بخائنةٍ فى نفسك ولا فى مال بعلك* ، إلاّ أن تكونى قد وقعتِ على كنز . وكيف دار* الأمر ، فقد أسقطتِ عنى مؤنة وكفيتِنى هـذه النائبة . قالت : اعلمْ أنى منذُ يوم ولدتُها إلى أن زوّجتُها كنتُ أرفع من دقيق كل عَجنة حَفنة ، وكنّا — كما قد علمتَ — نخبِزُ فى كل يومٍ مرّة، فإذا اجتمع من ذلك مكُّوكٌ* بعتُه . قال زوجُها* ثبّت الله رأيكِ وأرشدكِ ، ولقد* أسعد اللهُ من كنتَ له سَكَناً ، وبارك لمن جُعلتِ له إلفاً . * ولهذا وشِبهه قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : من الذوْد إلى الذوْد إبل* . وإنى لأرجو أن يخرُج ولدكِ على عِرقك الصالح ، وعلى مذهبِك المحمود . وما فَرَحى بهذا منكِ بأشدّ من فرَحى بما يثبِّت الله بكِ فى عَقِبى من هذه الطريقة المرضيّة.

فنهضَ القوم بأجمعِهم إلى جِنازتها ، وصلّوا عليها . ثم انكفئوا* إلى زوجها فعزّوه على مصيبته . وشاركوه فى حزنه .

---

(٢) الصباغة ب — (٣) ولكن ب — (٥) بالذهب ب — (٧) الخلق ب — أنى (لك) ك — (٨) ذا ك ب : ذات (فان فلوتن) — (٩) مال فعلك أن ب — (١٠) هذا ب — (١٣) فقال — لها — زوجها ب — فقد ب (١٤ — ١٥) (ولهذا . . . إبل) ب — (١٧) رجعوا ب —

(١٤—١٥) « من الذود . . . إبل » مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٢٨٨ ، لسان العرب ٤ : ١٤٨ وهو فيهما ليس حديثاً ، بل مثلا . ونصه فيهما : « الذود إلى الذود إبل ».

ثم اندفع شيخٌ منهم فقال :

يا قوم لا تحقروا صغار الأمور ، فإن أوّلَ كلّ كبير صغير ، ومتى شاء * اللهُ أن يعظم صغيراً عظّمه وأن يكثّر قليلاً كثره . وهل بيوت الأموال إلاّ درهَم على درهَم ** ؟ وهل الدرهَم * إلّا قيراط إلى جنب قيراط ** ؟ أو ليس * كذلك رملُ عالج وماءُ البحر ؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلّا بدرهَم من ههنا * ودرهَم من ههنا . * قد رأيتُ صاحبَ سَقَط قد اعتقد مائة جَريب فى أرض العرب . ولربّما رأيتهُ * يبيعُ الفُلفل بقيراط والحِمّص بقيراط ، فأعلمُ * أنه لم يربَحْ فى ذلك الفلفل إلا الحبّة ** والحبّتين من خَشَب * الفلفل ، فلم يزل يجمعُ مَن الصغار الكبار ، حتى اجتمع ما اشترى به مائةَ جريب .

ثم قال : اشتكيتُ أياماً صدرى ، من سُعال كان أصابنى . فأمرنى قومٌ بالفانيذ ** السكرى ، وأشارَ علىّ آخرون بالحزيرة تتّخذ من ** النشاشتج * والسكر ودهن اللوز وأشباه ذلك. فاستثقلتُ المؤنة وكرهت الكُلفة ورجوتُ العافية . فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعضُ الموفقين : عليك بماء النُّخالة ، فاحسُه حارًّا . فحسَوْت ، فإذا هو طيّب جدًّا ، وإذا هو يعصِم * . فما جعتُ ولا * اشتهيتُ الغَدَاء فى ذلك اليوم إلى الظهر . ثم ما فرغتُ من غَدائى وغسل يدى ، حتى قاربت العصر . فلما قَرُبَ وقتُ غدائى من وقتِ عشائى ، * طويت العَشاء وعرفت * قصدى .

فقلتُ للعجوز : لم لا تطبخين * لعيالنا فى كل غداة نخالة ؟ فإن ماءها جِلاء للصدر وقُوتَها غِذاء وعِصمة ، ثم تجففين بعدُ * النخالة ، فتعود كما كانت ، فتبيعينَهُ إذا اجتمع * بمثل الثمن الأول ، ونكون قد ربحنا فضلَ ما بين الحالين . قالت * : أرجو أن يكون الله قد

(٢) أراد ب – (٤) الذهب ك – وليس ك – (٥) هنا ب – (٥ – ٦) وقد رأيت صاحب لى أخذ جراب فيه فلفل وحبوب فرأيته ب – (٧) فعلمت ب – حساب ب – (١٠) النشا ب – (١٣) يعصم < جداً > ب – وما ب – (١٥) [طويت العشاء] وحرفت ب – (١٦) تطحنين ك – (١٧) بعد < ذلك > ب – الجميع ك – (١٨) فقالت ب .

جمعَ لك* بهذا السُّعال مصالح كثيرة، لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاحُ بَدنك وصلاحُ معاشك .

وما أشك أن تلك المشورَةَ كانت من التوفيق .

قال القوم : صدقتَ . مثلُ هذا يُكتسبُ بالرأى ، ولا يكون إلّا سماويًّا .

ثم أقبل عليهم شيخٌ آخر* فقال :

كنا نلقى من الحُرّاق والقدّاحة جَهداً ؛ لأن الحجارة كانت — إذا انكسَرت حروفُها واستدارت — كلت ولم* تقدح قَدَحَ خير* ، وأصلدت فلم تورِ . وربما أعْجَلنا المطر والوَكف . وقد كان الحجرُ أيضاً يأخذُ من حروف* القدّاحة حتّى يدَعها كالقوس ، فكنت أشترى المرقشيثا** بالغَلاء والقدّاحةَ الغليظةَ بالثمن الموجِع . وكان علينا أيضاً فى صَنعة الحُرّاق وفى معالجة العُطْبَة* مؤنة، وله ريحٌ كريهة . والحراق لا يجىء من الخرق المصبوغة ، ولا من الخرق الوسخة، ولا من الكتّان، ولا من الخلقان . فكنا نشتريه بأغلى الثمن . فتذاكرنا منذ أيام أهلَ البدو والأعراب ، وقدحَهم النار بالمرْخ والعَفار ، فزعم لنا صديقُنا الثورى ، وهو — ماعلمت — أحدُ المرشدين : أن عراجين الأعذاق تنوبُ عن ذلك أجمع ، وعلّمنى كيف تعالَج. ونحن نُؤتى بها من أرضنا بلا كلفة . فالخادم اليوم لا تقدَحُ ولا تُورِى إلاّ بالعُرجُون .

قال القومُ : قد مرّت بنا اليومَ فوائد كثيرة ، ولهذا ما قال الأول* : مذاكرةُ الرجال تلقَح الألباب .

---

(١) [لك] ك — (٥) [آخر] ك — (٧) فلم ب — [قدح خير] ب — (٨) حرف ب — (١٠) العطنه ك ب ، القطنة (فان فلوتن) — (١٦) ولهذا قال الأولون ب

(٩ ص٣١–٢ص٣٢) « ثم قال . . . معاشك» انظر العقد الفريد ٦ : ١٧٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٦ — ١٧) . « مذاكرة . . . الألباب » البيان والتبيين ١ : ١٩ ، ط مصطفى محمد ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٤ ، كتاب المعلمين للجاحظ (مختارات من رسائل الجاحظ ورقة ١٠) مخطوطة المتحف البريطانى

ثم اندفع شيخٌ منهم فقال :

لم أر فى وَضع الأمور مواضعَها وفى توفِيتها غاية حُقوقها ، كمعاذةَ العنبرية . قالوا : وما شأن* معاذةَ هذه ؟ قال ·

أهدى إليها العامَ ابنُ عمٍّ لها أضحيّة . فرأيتُها كئيبةً حزِينة مفكّرة مُطرِقة ، فقلتُ لها : مالكِ يامُعاذة ؟ قالت أنا امرأة أرْملة وليس لى قيّم* ، ولاعهد لى بتدبير لحم الأضاحى. وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون بحقّه . وقد خفتُ أن يضيعَ بعضُ هذه الشاة ، ولستُ أعرفُ وضعَ جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمتُ أن الله لم يخلُق فيها ولا فى غيرها شيئاً لا منفعة فيه . ولكن المرء يعجز لا محالة . ولستُ أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجُرُّ تضييع* الكثير .

أما القرنُ فالوجهُ فيه معروف ، وهو أن يُجعلَ منه* كالخُطاف ، ويسمّر فى جِذع من أجذاع* السقف ، فيعلّق عليه الزُّبُل والكيران ، وكل ما خيفَ عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وَردان والحيّات وغير ذلك . وأما المُصران فإنه لأوتار المِندفة* ، وبنا إلى ذلك أعظمُ الحاجة . وأما قِحف الرأس واللَّحيان* وسائرُ العظام فسبيله أن يُكسَر بعد أن يُعرَق ، ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان لِلْمِصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذُ تلك العظام فيوقَدُ بها ، فلم يرَ الناسُ وقوداً قطُّ أصفى ولا أحسنَ لهَباً منه . وإذا كانت كذلك* فهى أسرعُ فى القدر ، لقلّة ما يخالطها من الدخان . وأما الإهابُ فالجلدُ نفسه جِراب . وللصوف وجوهٌ لا تُعد* . وأما الفرْثُ والبعر فحطَبٌ إذا جفف عجيب .

ثم قالت : بقى الآن علينا الانتفاعُ بالدم . وقد علمتُ أنّ الله — عزّ وجلّ — لم يحرِّم من الدم المسفوح إلَّا أكلَه وشربه ، وأن له مواضعَ يجوز فيها ولا يُمنع منها ، وإن أنا لم

---

(٣) ما كان من أمر ب – (٥) زوج ب – (٩) [تضييع] ب – (١٠) منه ، صححنا : فيه ك ، [منه] ب – (١١) أجذاع ، صححنا : جذاع ك ب – (١٢) مندفة ب – (١٣) واللحيين ب – (١٦) هكذا ب – (١٧) لا تدفع ك .

أقعْ على علم ذلك حتّى يوضَع مَوْضِعَ الانتفاع به ، صار * كَيّة فى قلبى وقذًى فى *عينى، وهمًّا لا يزالُ يعودنى .

قال * : فلم ألبثْ أن رأيتُها قد طلّقت وتبسّمت . فقلتُ : ينبغى أن يكونَ قد انفتح لكِ باب الرأى فى الدم . قالت : أجل ذكرتُ أنّ عندى قدوراً شاميّة جُدُداً . وقد زعموا أنه ليسَ شىء أدبغَ ولا أزيدَ فى قوّتها من التلطيخ بالدم الحارّ الدسِم . وقد استرحتُ الآن ، إذ وقع كلُّ شىء موقِعه .

قال : ثم لقيتُها بعدَ ستة أشهر ، فقلتُ لها : كيف كان قديدُ تلك * ؟ قالت بأبى أنت ! لم يجئْ وقتُ القديد بعدُ . لنا فى الشَّحم والأليـة والجنُوب والعظم المعرق وفى * غير ذلك مَعاش . ولكلّ شىء إبَّان .

فقبضَ صاحبُ الحمارِ والماء * العذب قَبضة من حصى ، ثم ضرب * بها الأرض ، ثم قال * : لا تعلمُ أنك من المسرفين ، حتى تسمعَ بأخبار الصالحين .

---

(١) كان صار (فان فلوتن) — وبدا بين ك ، وقذاء فى ب — (٣) [قال] ك — (٧) تلك < الشاة > (فان فلوتن) — (٨) [فى] (فان فلوتن) — (١٠) و < صاحب > الماء ب — وضربا ب — (١١) قالوا ب .

قصة زبيدة بن حميد

وأما زبيدةُ بنُ حُميد** الصَّيرفىّ ، فإنه استَسلف مِن بقّال كان على باب داره درهمين وقيراطاً ، فلمّا قَضاه بعد ستّة أشهر ، قضَاه درهمين وثلاثَ حبّات شعير . فاغتاظ* البقال ، وقال* : سبحانَ الله ! أنتَ ربُّ مائة ألفِ دينار ، وأنا بقّال لا أملك مائة فَلْس ، وإنّما أعيشُ بكدّى* وباستِفضال الحبّة والحبّتين . *صاحَ على بابك جمّال ، وحمال* ، *ولم يحضُرك <شىء> ، وغابَ وكيلُك* ، فنقدتُ عنك درهمين وأربعَ شعيرات ، فقضيتنى بعد ستّة أشهر دِرهمين وثلاثَ شَعيرات ! فقال زبيدةُ : يا مجنون أسلفتَنى فى الصيف فقضَيتُك فى الشتاء ، وثلاثُ شعيراتٍ شِتويّة نديّة ، أرزنُ من أربع شعيراتٍ يابسه صيفيّة . وما أشكّ أنّ معك فضلًا .

وحدثنى أبو الإصبغ بن ربعىّ قال :

دخلتُ عليه بعد أن ضَرَب غِلمانه بيوم ، فقلتُ له : ما هذا الضربُ المبرِّح ، وهذا الخُلقُ السيّئ ؟ هؤلاء غلمانٌ ، ولهم حُرمة وكفاية وتربية ، وإنما* هم ولَد . هؤلاء كانوا إلى غير هذا أحوج . قال : إنّكَ لستَ تدرى أنهم أكلوا كلّ جُوارِشْنٍ** كان عندى .

قال أبو الإصبغ . فخرجتُ إلى رئيس غِلمانه فقلتُ : ويلك ! مالكَ وللجُوارشن ؟ وما رَغبتُك فيه ؟ قال : جُعلتُ فداك ! ما أقدر أن أكلّمك من الجوع إلا وأنا متّكِئٌ .

---

(٣) اغتاظ ك — (٤) فقال ك — (٥) بكدا ب — (٥) وإذا بصائح على بابك معه حمال وجمال ب ، صاح على بابك حمال والمال لم . . . (فان فلوتن) . وانظر نص الخطيب : « وإنما صاح على بابك جمال وحمال » . — (٦) ولم يحضرك وغاب وكيلك ك ب ، فلم يحضرك شىء وغاب وكيلك (الخطيب) — (١٢) [هم . . . هؤلاء] ب

(٢ — ٩) وأما زبيدة . . . فضلا » كتاب البخلاء للخطيب البغدادى ، ورقة ٢٣ ، العقد الفريد ٦ : ١٧٨ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الجوارِشنُ** ما أَصنَعُ به ؟ هو نفسُه ليس يشبَع ، ولا يَحتاجُ إلى الجوارِشْن ، ونحن الذين إنّما نسمعُ بالشبع سَمَاَعاً من أفواه الناس ، ما * نصنع بالجوارشن ؟

واشتدّ على غِلمانه فى تصفية المـــاء ، وفى تبريده وتزميله ، لأصحابه وزوّاره . فقال له غازى أبو مُجاهد : جُعلتُ فِداك ! مُر بتزميل الخبزِ و بتـكبيره ، فإنّ الطعام قبلَ الشراب.

وقال مَرّةً : ياغلام هاتِ خِوان النرْد . وهو يريد تختَ النرد . فقـال له غازى : نحن إلى خِوان الخبز أحوج .

وسكِر زُبيدةُ ليـلة ، فـكسا صديقاً له قميصاً ، فلمـا صار القميصُ على النديم خاف البَدَوات . وعلم أن ذلك منهَفَوات السكر. فمضى من ساعته إلى منزله ، فجعله برنـكانا ** لامرأته * . فلمّا أصبَح ، سأل عن القميص ، وتفقّدَه . فقيل له : إنّك قد كَسَوته فلاناً . فبعثَ إليه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما * علمتَ أن هبـةَ السكران وشراءه و بيعَه وصَدَقتَه وطلاقَه لا يجوز ؟ و بعد فإنى أ كره ألّا يكونَ لى حَمْد، وأن يُوَجِّه * الناس هذا منى على السُّـكر ، فرُدَّه علىّ حتى أهبَـه لك صاحِياً عن طيب نفس ، فإنى أ كره أن يذهب شىء من مالى باطلًا . فلمـا رآه صمّ أقبل عليه فقال : ياهناه ! إن النـاسَ يمزَحون و يلعبون ولا يؤاخَذون بشىء من ذلك ، فردَّ القميصَ عافاكَ الله . قال له الرجل : إنّى والله قد خفتُ هـذا بعينه ، فلم أضَع جنبى إلى الأرض حتى جيّبتـه لامرأتى . وقد زدتُ فى الـكمَّين وحذفتُ المقاديم . فإن أردت بعد هـذا كلِّه أن تأخذه فخذه . فقال : نعم آخذه ، لأنه يصلحُ لامرأتى كما يصلح لامرأتك . قال : فإنه عندَ الصبّاغ . قال : فهاته . قال : ليس أنا أسلمتُه إليه . فلمّا علم أنّه قد وقَع ، قال : بأبى وأمى رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — حيثُ يقول : جُمِع الشرّ كله فى بيت ، وأغلِقَ عليه ، فـكان مفتاحُه السكر .

---

(٢) فما ب – (٩) عند امرأته ب – (١٠) أما ب – (١١) ترى ب

قصة ليلى الناعطية**

وأمّا ليلى الناعطية ، صاحبة الغالية من الشيعة ، فإنها ما زالت ترقَع قميصاً لها وتلبسُه ، حتى صار القميصُ الرِّقاع ، وذهبَ القميصُ الأول . ورفَت كِساءها ولبِسته* ، حتّى صارت لا تلبسُ إلا الرَّفو ، وذهَبَ جَميعُ الـكِساء . وسمعتْ قولَ الشاعر :

البس قميصَك ما اهتَدَيْتَ لجَيْبه فإذا أضلّك جيبُـه فاستبدِل

فقالت : إنّي إذًا لخرقاء . أنا — والله — أحُوصُ الفتقَ وفتقَ الفتق ، وأرقَع الخرْق وخرْقَ الخرق .

---

(٣) [ولبسته] ب

(°) « البس . . . فاستبدل » العقد الفريد ٦ : ١٩٩ ط لجنة التأليف ، ١٩٤٩ م

ومضيتُ أنا وأبو إسحاقَ النظامُ وعمرُو بن نُهَيْوى ، نريدُ الحديث فى الجبّان ، ولِنتناظر فى شَىء من الـكلام . فمررنا بمجلسِ وَلِيدٍ القُرَشى — وكان على طريقنا — فلمّا رآنا تمشّى معنا . فلما جاوزنا الخَندق ، جلسنا* فى فِناء حائطه . وله* ظِلّ شديدُ السواد بارد ناعم ، وذلك لِثِخَن الساتر ، واكتِناز الأجزاء ، ولبُعد مسقِط الشمس من أصل حائطه . فطال بنا الحديثُ ، وجَرينا* فى ضُروب من الـكلام . فماشعَرنا إلا والنهار قد انتصف ، ونحن فى يوم قائظ . فلمّا *صِرنا فى الرجوع* ، ووجدت مسَّ الشمس ووقعَها على الرأس ، أيقنت بالبِرسام . فقلتُ لأبى إسحاق — والوَليد إلى جَنبى يسمعُ كلامى — الباطِنةُ* منا بعيدَة ، وهذا يومٌ منـكَر ، ونحن فى ساعة تذيبُ كل شىء* . والرأىُ أن نميلَ إلى منزلِ الوليد فنَقيلَ فيه ، ونأكل ما حضَر ، فإنه يوم تخفيف* . فإذا أبرَدنا تفرّقنا . وإلّا فهو* الموتُ ، ليس دونه شىء . قال الوليدُ رافعاً صوته : أمّاعلى هذا الوجه لا يكونُ والله أبداً ، فضَعه فى سُويداء قلبِك . فقلتُ له : ما هذا* الوجهُ الذى أنـكرتَه علينا رحِمَك الله ؟ هل ههنا إلّا الحاجة والضرورة ؟ قال : إنك أخرجتَه مخرَجَ الهزْء . قلتُ : وكيفَ أخرجُه مُخرَجَ الهزْء ، وحَياتى فى يدك ، معَ مَعرِفتى بك ؟ فغضِب وتَبَريده من أيدينا ، وفارقنا . ولا والله ما اعتذر إلينا ممّا رَكِبنا به* إلى الساعة *ولم أر منْ يجعَلُ الأسَى حجّةً فى المنع إلّا هو* ، وإلّا* ما كان من أبى مازن إلى **جَبَل العمّىّ* .

---

(٣) وجلسنا ك ب — حائط له ب — (٥) فجرينا ك ب — (٦) أردنا الرجوع ب — (٨) البلد ب — تذيب الحديد ب — (٩) شديد ب — (١٠) فهذا ب — (١١) فقلت [ما] له هذا الوجه ك — (١٤) مافعل ب — (١٥) [ولم أر . . . هو] ب — وأما ب — (١٦) العمى ، صححنا ، الغمر ك ، [العمى] ب .

وكان جَبلٌ خرج ليلا من موضعٍ كان فيه ، * فخافَ الطائفَ ، ولم يأمن المستقفى * . فقال : لو دَقَقْتُ البابَ على أبي مازن ، فبتُّ عندَه فى أدنى بيت * أو فى دِهليزه ، ولم ألزِمْه من مؤنتى شيئاً ، حتى إذا انصَدع عمودُ الصبح خرجتُ فى أوائل المدلجين .

فدقّ عليه البابَ دقّ واثِق ودقّ مُدِلّ . ودقّ من يخافُ أن يُدرِكه * الطائف أو يقفوَه المستقفى * ، وفى قلبه * عزُّ الكِفاية * *والثقة بإسقاط المؤنة * . فلم يشكّ أبو مازن أنه دقّ صاحبِ هديّة ، فنزل سريعاً .

فلما فَتح الباب * و بصُر بجبل ، بصُر بملَك الموت * . فلمّا رآه جَبَل واجِماً لا يُحيرُ كلمة ، قال له : إنى خِفتُ معرّة * الطائف وعجلة المستقفى * فملتُ إليك لأبيتَ عندك . فتساكرَ أبو مازن ، وأراه أن وجُومه إنما كان بسَبَب السُّكر . * فخلّع جوارحَه وخبّل لسانه * ، وقال : سكران والله ، أنا والله سَكران . قال له جَبَل : كُن كيفَ شئتَ . نحنُ فى أيام الفَصْل * ، لا شتاء ولا صَيف ، ولستُ أحتاجُ إلى سَطح فأغمّ عِيالك بالحرّ ، ولستُ أحتاج إلى لِحاف فأكلفَك أن تؤثرنى بالدثار . وأنا كما ترى ثمِل من الشراب ، شبعانُ من الطعام ، ومِن منزِل فلان خرجتُ ، وهو أخصَبُ الناس رَحْلا . وإنما أريد أن تدَعنى أغفِى فى دِهليزك إغفاءةً * واحدة ، ثم أقومُ فى أوائل المبكِّرين . قال أبو مازن — وأرخى عينيه وفكّيه ولسانه ، ثم قال — : سكران ، والله ، أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله إنْ * أفهمُ ما تقول .

ثم أغلَقَ البابَ فى وجهه ، ودخَلَ * لا يشكّ أن عذره قد وَضَح ، وأنه * قد ألطف النظرَ حتّى وَقَعَ على هذه الحيلة .

---

(١) فخاف العسس ولم يأمن من أحد يتبعهفيضره ب – (٢) أى موضع كان ب
(٤ – ٥) العسس أو أحد يتبعه ب – (٥) من الخوف ما يزيد عن الكفاية ب – [والثقة . . . المؤنة] ب – (٧) ونظر لجبل أبصر به الموت ب – (٨) العسس وخوف أحد يضرنى أو يتبعنى ب – (٩) ففتح فاه وحرك لسانه ب – (١١) الربيع ب – (١٤) غفوه ب – (١٦) ما ب – (١٧) [لا يشك . . . وأنه] ب

وإن وَجَدتم فى هذا الكتاب لحناً ، أو كلاماً غيرَ مُعرَب ، ولفظاً معدولا عن جهته فاعلموا أنّا إنما تركنا ذلك لأنّ الإعرابَ يبغِّض * هذا الباب ، ويخرجُهُ من حدّه * *.

٣ إلّا أن أحكيَ كلاماً من كلام متعاقِلى البخلاء وأشحّاء * العلماء ، كسهل بن هارون ، وأشباهه .

(٢) يبعض ب ، ينغص (مرسيه) – [و] يخرجه ب – (٣) وراشحى ب

قصة أحمد بن خلف**

ومن طيّاب * البخلاء أحمدُ بن خَلَف اليزيدى. ترك أبوه فى منزله يوم مات ألفَىْ ألفِ درهم ، وستمائةَ ألف درهم ، وأربعين ومائة * ألف دينار . فاقْتَسَمها هو وأخوه حاتمٌ قبل دفنه ، فأخذ * أحمدُ وحدَه ألفَ ألفٍ وثلاثمائة ألفِ درهم ، وسبعين ألف دينار، ذهباً عَيناً مثاقيلَ وازنة جياداً ، سوى العُروض .

فقلتُ له — وقد وَرِث هذا المال كله — : ما بطّأ بك الليلةَ ؟ قال : لا والله إلّا * أنى تعشّيتُ البارحةَ فى البيت . فقلتُ لأصحابِنا : لولا أنه بعيدُ العهدِ بالأكل فى بيته، وأنّ ذلكَ غريبٌ منه ، لما احتاج إلى هذا الاستثناء ، وإلى هذه الشَّريطة . وأين يتعشّى الناس إلّا فى منازلهم ؟ وإنما يقولُ الرجلُ عند مثل هذه المسألة : لا والله إلا أن فلاناً حَبَسنى ، ولا والله إلا أن فلاناً عَزَم علىّ . فأما ما * يستثنى ويشترط ، فهذا ما لا يكونُ إلّا على ما ذكرناه قبلُ .

وقال لى مُبتدئاً مرّة ، عن غيرِ مَشُورة وعن غير سَبَب جرى :

انظُر أن تتّخذ لِعيالك فى الشتاء مِن هذه المثلّثة ، فإنها عظيمة البَرَكة كثيرة النزَل * ، وهى تَنُوب عن الغَداء ، ولها نفخة تُغنى عن العشاء . وكلُّ شَىء من الأحساء فهو يُغنى عن طلَب * النبيذ وشُرب الماء . ومن تحسَّى الحارّ عَرِق، والعرقُ يُنْفِض *الجلدويخرج ضرّ * الجوف . وهى تملأُ النفسَ * وتمنع من التشهى . وهى أيضاً تدفىء ، فتقومُ لك *فى أجوافهم مَقام فحم الكانون من خارج . وحسوُ الحار * يغنى عن الوَقود ، وعن لبس الحشو * .

(٢) [طياب] ب – (٣) بمائة وأربعين ب – (٤) وأخذ ك – (٦) [إلا] ب – (١٠) [ما] ك ب – (١٣) الفوائد ب – (١٥) [طلب] ب – ينفض ، صححنا : يمص ك ، بيتص ب – ضر ، صححنا : من ك ب – (١٦) < الجوف > والنفس ب – فيقوم ذلك ب – (١٧) وحسو الحار ، صححنا : وحسوا طار ك ، وحسو ب ، وحسو طار (فان فلوتن) –[وعن لبس الحشو] ب

*والوقودُ يسوِّدُ كل شيء وينتِّنه . وهو سَريع فى الهضم ، وصاحبه بعرض حريق ، ويذهبُ فى ثمنِه المال العظيم * . وشرٌّ شيء فيه أنَّ مَنْ تعوَّده لم يدفئه شيءٌ سواه . فعليك يا أباعثمان بالمثلّثة ، واعلم أنها لا تـكونُ إلّا فى منازِل المَشْيَخَة وأصحاب التجربة . فخُذها من حكيم مجرِّب ومن ناصِح مُشفِق .

وكان لا يفارق مَنازلَ إخوانه . وإخوانهُ *مخاصيبُ مناويب *، أصحاب نفح وترَف وكانوا يَتحَفّونه ويدلّلونه * ويفـكّهونه ويحكمونه ، ولم يشكّوا أنه سيدعوهم مرَّة ، وأن يجعلوا بيتَه نُزهة ونشوة . فلمّا طالَ تغافلهُ ، وطالَتْ مُدافعته ، وعرَّضوا له بذلك فتغافَل ، صرَّحوا له . فلمّا امتنع قالوا : اجعَلْها دَعْوة ليسَ لها أخت . فلمّا بلغ منهُ ومنهُم المجهود ، اتَّخذ لهم طُعَيِّماً خفيفاً شهيّاً مَليحاً ، لا ثمنَ له ، ولا مؤنة فيه . فلمّا أكلوا وغَسَلوا أيديَهم ، أقبل عليهم فقال : أسألكم بالذى لا شيء أعظمُ منهُ ، أنا الساعةَ أيسَرُ وأغنى أوقَبلَ أن تأكلوا طعامى؟ قالوا : ما نشُكّ أنك — حينَ كنتَ والطعامُ فى ملـكِك — أغنى وأيْسَر . قال : فأنا الساعةَ أقربُ إلى الفقر ، أم تِلك الساعة ؟ قالوا : بل أنتَ الساعةَ أقربُ إلى الفقر . قال : فمن يلومُنى * على دَعوة قوم قرَّبونى من الفقر وباعدونى من الغِنى ، وكلّما دعوتهم أكثرَ ، كنتُ من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد ؟ ! وفى * قياسه هذا أنَّ من رأيه * أن يهجُرَ كلَّ من استسقاه شربةَ ماء ، أو تناولَ من حائطه تينة * ومن خليط دابته عوداً .

ومر بأصحاب الجِداء — وذلك فى زَمان التوليد — فأطمَعه الزمانُ فى الرُّخْص ، وتحرَّكت شهوتهُ على قَدْرِ إمكانه عندَه . فبعثَ غلاماً له يقالُ له ثَقَف — وهو معروف — ليشترىَ له جَدْيا ، فوقفَ * غيرَ بعيد . فلم يلبثْ أن رَجَع الغلام يُحضر ، وهو

(١ — ٢) لعل سياق القول يجعل العبارة هكذا : « والوقود يسود كل شيء وينتنه ، وصاحبه بعرض حريق . والنبيذ سريع فى الهضم ، ويذهب فى ثمنه المال العظيم » —(٥) [مخاصيب مناويب] ب ، ولعل مناويب محرفة عن : متاريب — (٦) ويدلكونه ك — (١٣) على < ترك > دعوة (فان فلوتن) — (١٤ — ١٥) وفى قياس هذا أن من كان له رأى ب — (١٥) سه ك ، لينه ب ، تبنه (فان فلوتن)— (١٩) لعل الأشبه ؛ ووقف

يشير بيده و يومِئ برأسه، أن : اذهبْ ولا تَقِف. فلم يبرَحْ. فلمّا دنا منهُ قال : وَيْلَكَ* ! تُهَرِّبُني كأني مطلُوب ؟ قال : هذا طُرفة* . الجديُ بعشرة . أنت من ذِي البابة ؟ مرَّ* الآن ، مرَّ مرَّ* . فإذا غلامُه يرَى أن من المنكَر أن يُشْتَرى جَدْيٌ بعشرة دراهم ، والجَدْيُ بعشرة إنما ينكَرُ عندَنا بالبصرة ، لكثرة الخير ورُخص السِّعر . فأمّا فى العساكر* فإن أنكرَ ذلك منكِر ، فإنما ينكرُه من طريق رُخْصه وقلَّة ثمنه ، لا لغيرِ ذلك .

* ولا تقولوا الآن : قد والله أساء أبو عُثْمان إلى صديقه ، بل ما تناوله بالسُّوء حتّى بدأ بنفسه . ومَنْ كانت هذه صِفتَه وهذا مذهبَه ، فغير مأمونٍ على جليسه . وأىّ الرجال المهذَّب . هذا والله الشُّنُوع* والتَّبوع والبذاء وقلة الوفاء .

اعلموا أنى لم ألتَمِس بهذه الأحاديث منه إلّا مُوافقَته وطلبَ* رِضاه ومحبّته . ولقد خِفتُ أن أكونَ عندَ كثير من الناس دَسِيساً مِن قِبَله وكميناً من كَمَنائه . وذلك أن أحبّ الأصحاب إليه ، أبلغهُم قولاً فى إيأَس الناس ممّا قبلَه ، وأجودُهم حَسْماً لأسباب الطمع فى ماله . على أنى إن أحسنتُ بجُهدى ، فسيجعلُ شكرى موقوفاً : فإن* جاوَزَ كِتابِى هذا حُدودَ العراق شَكَر ، وإلّا أمسك . لأن شُهرته بالقبيح عندَ نفسِه فى هذا الإقليم ، قد أغناه عن التنويه والتنبيه على مذهبه . وكيفَ وهو يرى أن سهلَ بنَ هارون وإسماعيل بن غَزوان كانا من المُسرفين ، وأن الثَّورىّ والكِنْدىّ يستوجِبان الحَجْر ؟ وبلغنى أنه قال : لو لم تَعرِفوا من كرامةِ الملائكة على الله إلا أنه لم يبتلِهم* بالنفقة ، ولا بقوْل العِيال : هات هات* لعرفتم حالَهم ومنزلتهم* .

---

(١) < مالك > ويلك ب — (٢) [هذا طرفه] ب، أطرفه ك — (٢—٣) [مر الآن مر مر] ب — (٥) العشائر ب ، ولعلها : العسكر ، أى عسكر مكرم ، فى أغلب الظن — (٦—١٧) [ولا تقولوا ... ومنزلتهم] ب — (٨) الشيوع ك — (٩) فطلب (فان فلوتن) . (١٢) وإن (فان فلوتن) — (١٦) يبتلها ك — (١٧) هاب [هات] (فان فلوتن) .

وحدثني صاحبٌ لي قال :

دخلتُ عَلى فُلانِ بنِ فلان ، وإذا المائدةُ مَوضوعة بعدُ ، وإذا القومُ قد أكلوا ورَفعوا أيديَهم ، فمددتُ يدى لآكل فقال : أجهزْ على الجرحى، ولا تَعَرَّضْ * للأصحّاء. يقولُ : اعرِضْ للدجاجة التى قد نِيل منها ، وللفرخِ المنزوعِ الفَخِذ ، فأمّا الصحيحُ فلا تَعَرَّضْ * له . وكذلك الرغيفُ الذى قد نيلَ منه ، وأصابَه بعضُ المرق .

وقالَ لى هذا الرجلُ : أكلنا عنده يوماً ، وأبوه حاضر ، وبُنَىٌّ له يجىء ويذهب . فاختلفَ مِراراً ، كلَّ ذلك يرانا نأكل . فقال الصبىّ : كم تأكلون لا أطعم اللهُ بطونكم ! فقال أبوه — وهو جد الصبىّ — ابنى وربِّ الكعبة .

وحدّثنى صاحبُ مَسْلَحة بابِ الكرخ ، قال :

قال لى صاحبُ الحَمّام ألّا أعجِّبك * من صالح بن عفان ؟ كان * يجىء كلَّ سَحَر ، فيدخلُ الحمَّام ، فإذا غبتُ عن إجّانة النورة مسَح عانته وأرفاغه ، ثم يتستّر بالمئزر * ثم يقوم فيغسِله فى غِمار الناس. ثم يجىء بعدُ فى مثل تلك الساعة ، فيَطلى ساقَيه وبعضَ فَخِذيه ، ثم يجلسُ ويتّزر بالمئزر ، فإذا وَجَدَ غَفلة غَسَله . ثم يعودُ فى مثل ذلك الوقت ، فيمسحُ قطعة أُخرى من جسده . فلا يزال يَطّلى فى كلّ سحَر حتى ذهبَ منّى بطلْية . * قال : ولقد رأيتّه وإنّ فى زيق سراويله نورة * .

(٣) تتعرض ب – (٥) تتعرض ب – (١٠) ما أعجبك ب – [كان] ب – (١٢) بالمنورية ب (١٥) [قال ... نوره] ب – لوتّر ك .

(٢ – ٥) «دخلت ... فلا تتعرض له» العقد الفريد ٤ : ٢١٧ ، الأزهرية ، ١٩١٣ م ، ٦ : ١٨١ ط لجنة التأليف والنشر .

وكان لا يرى الطبخَ فى القُدور الشاميَّة ، ولا تبريدَ الماء فى الجرار المَذَارية . لأن هذه ترشَح ، وتلك تنشَف .

حدثنى أبو الجهجاه النوشَروانى قال :

حدثنى أبو الأحوصِ الشاعرُ قال : كنَّا نفطِر عند الباسيانى * فكانَ يرفعُ يديه قبلنا ، ويستلقى على فراشه ويقول : إنما نُطْعِمُكمْ لِوَجْهِ الله ، لا نُريدُ مِنكم جزَاء وَلا شُكوراً .

---

(٤) الباسبيانى (فان فلوتن)

(٤ – ٦) حديث الباسيانى : انظر العقد ٤ : ٢١٦ ، الأزهرية ، ١٩١٣ م –
(٥ – ٦) « إنما . . . شكورا » سورة الإنسان : ٩

حديث خالد بن يزيد

وهذا خالدُ بنُ يزيد مولى المهالبة — هوخالَويه المُكَدِّى — وكانقد بلغ في البخل والتكدية وفى كثرة المال المبالغَ التيلم يَبْلغها أحد .

وكان ينزِل فى شِقِّ * بنى تميم ، فلم يعرفوه . فوقف عليه ذاتَ يومٍ سائلٌ ، وهو فى مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده فى الكيس ليُخرج فلساً — وفُلوس البصرة كبار — فغلِط بدرهم بَغْلى ، فلم يفطن حتى وضَعَه فى يد السائل . فلما فطن استردّه ، وأعطاه الفلسَ . فقيل له : هذا * لا نظنه يحل ، وهو بعدُ * قبيح * . قال : قبيحٌ * عند من؟ إنى * لم أجمع هذا المالَ بعقولكم ، فأفرّقه بعقولكم . ليس هذا من مساكين الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس. * والله ما أعرفه إلّا بالفِراسة *.

قالوا : وإنك لتعرفُ المكَدِّين * ؟ قال : وكيفَ لا أعرِفهم؟ وأنا كنتُ ** كاجَارَ * فى حَداثة سنّى . ثم لم يبق فى الأرض مخطرانىّ * ولا مستعرضٌ ** إلا فُقْتُه * ، ولا شحَّاذ ولا كاغانى ** ولا بانوان ولا قرسنى * ولا عواء * ولا مشعب ولا فلور * *ولا مزيدى ولا ** إسطيل * إلا وكان تحتَ يدى . * ولقد أكلتُ الزكورىَ ** ثلاثين سنة *. ولم يبق فى الأرض كعبىّ ولا مكدٍ * إلا وقد أخذتُ العِرافة عليه * حتى خضَع لى إسحاقُ ** قتال الحر * ، وبنجويه شعر الجمل ، وعمرو القوقيل ، وجعفر كردى كلك *، وقرن أيره ، وحمّويه عين الفيل، وشهرام * حمار أيوب ، وسعدويه نائك أمه *.

---

(٤) حى ك — (٧) [لا . . . بعد] ب — < بمثلك > قبيح ب — عندكم وأما أنا فانى ب — (٩) والله < إنى > [ما] اعرفه [الا] بالفراسة ب — (١٠) المكذبين ب — كاجار ، صححنا : كاحار ك ، مكذباً ب ، كاغان (فان فلوتن) — (١١) مخطرا ب — الاعيه ك ، الاقفية (فان فلوتن) — (١٢) قرشى ك ، توشى ب — غرا ب — قلور ك ب — (١٣) [ولا مزيدى ولا اسطيل] ب — (١٣ — ١٤) [ولقد . . . سنه] ب — (١٤) مكدى ك ب — (١٥) كذا فيما نحسب ، فقال المره ك ، ولم أهتد إلى تحقيق صور هذه الأسماء — (١٤ — ١٦) [حتى . . . أمه] ب — (١٦) كذا ، ولعلها : كله . انظر يتيمة الدهر ٣ : ١٣٨ — ١٣٩ ط الصاوى ١٩٣٤ م (ترجمة أبى الفضل ابن العميد) — كذا ، ولعلها شهريار .

(٢ — ٣) « خالد . . . أحد » معجم الأدباء ١١ : ٤٢ — ٤٣ ، ط دار المأمون .

و إنما أراد بهذا * أن يوئسهم مِن ماله، حين عرَف حِرصَهم وجشَعَهم * وسوء جِوارهم. وكان قاصًّا متكلّمًا بليغًا داهيًا ، وكان أبو سليمانَ الأعورُ وأبو سعيدٍ المدائنىّ القاصّان من غلمانه .

وهو الذى قال لابنه عندَ مَوْته :

« إنى قد تركتُ لك ما تأكله * إن حفظتَه. وما لا تأكلُه إن ضيّعته . ولما وَرّثْتُك من العُرف الصالح ، وأشهدتُك من صَوَاب التدبير ، وعوّدتك من عَيْش المقتصدين ، خيرٌ لك من هذا المال . *ولو دفعتُ إليك آلة لحفظ المال عليك بكل حيلة ، ثمّ* لم يكنْ لك معينٌ من نفسك ، لما انتفعتَ بشىء من ذلك . بل يعودُ ذلك النهىُ كلُّه إغراء * لك ، وذلك المنعُ تهجينًا لطاعتك .

قد بلغتُ فى البرِّ منقطَعَ التُّراب ، وفى البحرِ أقصَى مبلغِ السفن . فلا عليكَ ألا ترى ذا القرنين . ودع عنكَ مذاهب ابن شَرْيةَ ** ، فإنه لا يعرفُ إلاّ ظاهرَ الخبر . ولو رآنى تميمٌ الدارىّ ** لأخَذَ عنّى صِفةَ الروم . ولأنا أهدَى مِن القَطا ومن ** دُعيميص * ومن ** رافع المِخَش* إنى قد بتُّ بالقَفر مع الغُول ** وتزوّجتُ السِّعلاة ، وجاوبتُ الهاتِف ، ورغتُ عن الجنّ إلى الجِن ، واصطدتُ الشِّقّ ، وجاوبتُ النّسناس ، وصَحِبنى الرئىّ * ، وعرَفت خُدَع الكاهِن وتدسيسَ العرّاف ، و إلى ما يذهبُ الخطّاط والعيّاف ، ومايقولُ أصحاب الأكتاف ** ، وعرفتُ التنجيم والزّجز والطَّرْق والفِكر **

إنّ هذا المالَ لم أجمعه من القَصَص والتَّكْدية * ، ومن احتيال النهار ومكابَدَة الليل. ولا يُجْمع مثلُه أبدًا إلا من مُعاناة ركوبِ البحر ، أو * مِن عَمَل سلطان ، أو مِن كيمياء الذهب والفضة ، قد * عرفتُ الرأسَ ** حقّ معرفته ، وفهمتُ كسر الإكسير ** على

(١) وما أراد بهذا إلا ب — وخبثهم ب — (٤) ما لا نأكله ك ب . وانظر رواية ياقوت (معجم الأدباء) — (٧) الحفظة < ان > ك — ولو ، صححنا : وقد ك — وقد دفعت بجميع ذلك إليك فعليك بحفظ المال بكل حيلة فإن لم يكن ب — (٩) إغراء ، صححنا : اعتزا ك ب — (١٢) دعميص ك ب — (١٣) المخشرانى ب — (١٥) الرمى ك ., الذى ب — (١٧) الكذب ب — (١٨) ومن ك — (١٩) فقد ب

حقيقته . ولولا علمي بضيق صَدرك ، ولولا* أن أكونَ سَبباً لتلف نفسِك ، لعلمتُك الساعةَ الشيء* الذى بلغ به قارون* وبه تبنكت خاتون ** . والله ما يتّسع صدرك عندى لسرٍّ صديق ، فكيفَ مالا يحتملُه عَزم ولا يتسع له صدر . وخَزْنُ سرّ الحديث ، وحبس كنوز الجواهر ، أهوَنُ من خَزن العلم . ولوكنتَ عندى مأموناً على نفسِك لأجريتُ الأرواحَ فى الأجساد، وأنت تبصر ، إذ كنت لا تفهمه بالوصف ولا تحقّه بالذكر. ولـكنى سألقى عليك* علم الإدراك ، وسَبك الرخام ، وصَنعة الفسَيْفِساء*، وأسرار السيوف القَلعيّة ** ، وعقاقير السُّيوف اليمانيّة ، وعمل الفرعَونى ** ، وصنعة التلطيف ** على وجهه ، إن أقامَنى اللهُ من صَرعتى هذه .

ولست أرضاك ، و إن كنتَ فوقَ البنين ، ولا أثِقُ بك و إن كنت لاحقاً بالآباء ، لأنى لم أبالغ فى مِحنتك * . إنى قد لابست السلاطينَ والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمُكَدِّين، وخالطت النُّسَّاك والفُتّاك ، وعَمَرتُ السُّجون كما عمرتُ مجالس الذكر ، *وحلبتُ الدهر أشْطُرَه * وصادفت دهراً كثير الأعاجيب فلولا أنى دخلت مِن كلِّ باب ، وجَريت مع كلِّ ريح ، وعَرَفت* السرَّاء والضرَّاء *، حتى مثّلت لى التجاربُ عواقبَ الأمور ، وقرّبتنى من غوامضِ التدبير ، لما أمكننى جمعُ * ما أخلّفه لك ، ولا حفظُ ما حبَستُه عليك ، ولم أحمد نفسى على جَمعه ، كما حَمدتُها على حفظه ، لأن بعض هذا المال* لم أنله بالحزم والـكَيْس* . قد حَفظْتُه عليك من فِتنة البناء * ومن فِتنة النساء ، * ومن فتنةِ الثناء* ، ومن فِتنة الرياء ، ومن أيدى الوكلاء ، فإنّهم الداء العيَاء .

ولستُ أوصيك بحفظه لفضل حبّى لك ، ولـكن بفضل بُغضى للقاضى * . إن الله

(١) و [لولا] ب — (٢) المشى ب — بلغ بقارون ك ، به قارون < ما بلغ > ب — (٦) اليك ب — الفلاسفة ب (١٠) محنتك (مرسيه) : محبتك ك ب — (١١–١٢) وجربت الدهر [أشطره] ب — (١٣) الخير والشر ب — (١٤) جميع ك ب . (١٥ – ١٦) [لم . . . والكيس] ب — (١٦) الأبناء ب —(١٦ –١٧) [ومن فتنة الثناء] ب — (١٨) بنفاضى ك ، بالتقاضى ب

(ص ٤٧ : ٥ — ص ٤٨ : ١٧) « إنى قد تركت ... العياء » معجم الأدباء لياقوت ٤ : ١٦٩ — ١٧٧، ط أمين هندية (١١ : ٤٣هـ — ٤٧ ، ط دار المأمون) .

— جَلّ ذكره * — لم يسلّط القُضاة على أموال الأولاد إلاّ عقوبةً للأولاد ، لأن أباه إن كان غنيًا قادرًا أحبّ أن يُريَه غناه وقدرتَه ، وإن كان فقيراً عاجزاً أحبّ أن يستريح من شَيْنه ومن حَمل مؤنته ، وإن كان خارجاً من الحالين أحبّ أن يستريح من مُدَاراته، فلا هم شكَروا مَن جَمع لهم وكفاهم وَوَقاهم وغرَسهم ، ولا هم صَبَروا على من أوجَب الله حقَّه عليهم . والحقّ لا يوصف عاجلُه بالحلاوة ، كما لا يوصفُ عاجِل الباطل بالمرارة . فإن* كُنتَ منهم فالقاضى الك ، وإن لم تكن منهم فالله لك . فإن سلَكتَ سبيلى صار مالُ غيرِكَ وديعةً عندك ، وصرتَ الحافظَ على غيرِك . وإن خالفت سبيلى صار مالك وديعةً عند غيرك ، وصار غيرُك الحافظَ عليك . وإنك يومَ تطمعُ أن تُضيعَ مالك ويحفظه غيرُكَ ، لجشِع * الطمع مخذول الأمل . احتال الآباء فى حَبس الأموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالت القُضاة على أولادهم بالاستبحاث* ما أسرعهم إلى إطلاق الحَجْر * ، وإلى إيناس الرُّشد ، إذا أرادوا الشراء منهم . * وأبطأهم عنهم إذا* أرادوا * أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم .

يا ابنَ الخبيثة إنك وإن كنت فوقَ أبناء هذا الزمان ، فإنّ الكفاية قد مَسَخَتك * ومعرفتُك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك . وزاد فى ذلك أن كنت بِكرى ، وعُجْزة * أمّك .

أنا لو ذهب مالى لجلَسْتُ قاصًا ، أوطفت فى الآفاق — كما كنتُ — مكدِّيًا . اللحية وافرة بيضاء ، والحلْقُ جَهير طلّ * والسمتُ حَسَن ، والقبولُ علىّ واقع . إن سألت عَينى الدمعَ أجابت — والقليلُ مِن رحمة الناس خيرٌ من المال الكثير — وصرتُ مُحتالاً بالنهار ، واستعملتُ صناعةَ الليل . أو خرجتُ قاطعَ طريق ، أو صِرتُ للقوم عيناً ولهم مِجهرًا . سل عنى صَعاليك الجبَل** وزواقيلَ الشام** وزطّ الآجام* ورؤوس

(١) عز وجل ب — (٥) وإن ب (٩) لكان ب، ولعلها : لكاذب — (١٠) بالاستبحاث (مرسيه)، بالأسحار ك ، بالاستيجار ب — الخير ب — (١١) [وابطأهم عنهم إذا] ب — أو أرادوا ب — (١٤) منحتك ك ب ، مجنتك (دى جويه) ، فنختك ، فتختك (مرسيه) — (١٥) وعجزت ك ب — (١٧) جلى ب

الأكراد ومَرَدَة الأعراب وفُتّاك * نهر بطّ ** ولُصُوص ** القفص * ، وسَل عنى *القيقانية ** والقطرية ** وسَل عنى المتشبهة * وذبّاحى الجزيرة * : كيفَ بطشى ساعة البطش ، وكيف * حِيلتى ساعةَ * الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة * ، وكيفَ ثباتُ جَنانى عندَ رؤية الطليعة ، وكيفَ يَقَظَتى إذا كنتُ ربيئة * ، وكيف كلامى عندَ السلطان إذا أُخذتُ ، وكيف صبرى إذا جُلدت ، وكيفَ قِلّة ضَجَرى إذا حُبِستُ ، وكيف رَسَفانى * فى القَيْد إذا أُثقلت . فكم من دِيماس ** قد نَقَبته ، وكم من مُطبَق قد أفضَيْته ، * وكم من سِجن قد كابدته . لم تَشْهَدنى وكردويه الأقطعَ أيامَ سندان ** ، ولا شهِدتنى فى فِتنة سَرَنديب ، ولا رأيتَنى أيامَ حرب المولتان ** ، سل عنّى الكتيفية والخليدية والحرّبية * والبلالية ** ، وبقية أصحاب صَخرٍ ومُصخِرٍ ، و بقية أصحاب فاسٍ وراسٍ ومقلاس ** ، ومن لقِيَ أزهرَ أبا النقم . كان آخر من صادفنى حَمدويه أبو الأرطال. وأنا مجيبُ مردويه بن أبى فاطمة ، وأنا خلعتُ بنى هانئ . وأنا أوّلُ من شَرِب الغربىّ حارًّا ،والبزيل * بارداً . وأوّلُ من شَرِب بالعِراق بالكَبَرة * ، وجعل القَنْقَل * قرعة . وأوّلُ من ضَرَب الشاهسبرم ** على ورق القرع ، وأوّل من لَعِب باليرمع * فى البَدو ، وأسقط الدفّ المربع من بين الدّفاف . وما كان النقاب إلا هدّاماً حتى نشأت ،وما كان الاستقفاء إلا استلاباً * حتّى بلغتُ .

وأنت غلام ، لِسانُك فوق عَقلك ، وذكاؤك فوقَ حَزمك لم تعجُمك الضرّاء * ، ولم تزَل فى السَّرّاء * والمال واسع ، وذرعُك ضيّق . وليس شىء أخوفُ عليك عندى

(١) قتال ب – القصص ك – (٢) [لقيقانية . . . الجزيرة] ب – كذا ، ولعلها : المشبهة – (٣) وقت ب – الحوالة ك ، الحولة ب – (٤) فى ربية ب – (٦) ساق ب– (٧ – ١٤) [وكم من سجن . . . استلابا] ب – (٩) والحربية ك – (١٢) والبزيل ، صححنا : البرك ك – (١٢) كذا ك : العرق بللكبر (فان فلوتن) – القنقل ، صححنا ؛ المنقل ك ، وانظر شعر التيمى ، الأغانى ١٨ : ١١٥ – (١٣) بالمرمع ك – (١٦) لم يصبك ضراء ب – (١٧) سراء ب .

(١٦) « لسانك . . . حزمك » عيون الأخبار ٣ : ٢١٥ – (١٦–ص ٥١ : ١١) « وأنت غلام . . . ومات » الاشارة إلى محاسن التجارة ، ص ٦٧ ، ط المؤيد ١٣١٨ ﻫ

من حُسن الظن بالناس، فاتّهم * شِمالَك على يمينك ، وسمعَك على بَصَرك ، وخَفْ عباد الله على حَسب ما ترجو الله .

فأول ما أوقَعَ * فى رُوعى أنّ مالى محفوظ علىّ ، وأن النماء لازمٌ لى ، وأن الله سَيَحفظُ عَقبى من بعدى ، أنى لمّا غَلَبتنى يوماً شهوتى ، وأخرجتُ يوماً دِرهَماً لقضاء وَطَرى ، ووقعتْ * عينى على سِكَّته ، * وعلى اسمِ الله المكتوبِ عليه * ، قلتُ فى نفسى :إنى إذاً لمن الخاسرين الضالّين ، لئن أنا أخرجتُ من يدى ومن بَيْتى شيئاً عليه : « لا إله إلا الله » وأخذتُ بدلَه شيئاً ليس عليه شىء . والله إن المؤمنَ لينزع خاتمه للأمر يريدُه *، وعليه ، « حَسبى الله » أو : « توكلتُ على الله» فيظنُّ أنه قد خَرجَ من كنف الله — جلّ ذكرُه — حتى يُرَد الخاتم فى موضعه . وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريدُ أن أخرِجَ فى كلّ يوم درهماً عليه الإسلامُ كما هو ؟ إنَ هذا لَعظيم .

وماتَ من ساعته ، وكفّنه ابنُه ببعض خُلقانه ، وغَسّله بماء البئر . ودفنه من غير أن يَضرِحَ له ، أو يَلحدَله * . ورجع .

فلمّا صار فى المنزل نظر إلى جَرّةٍ خضراء معلّقة . قال : أىُّ شىء فى هذه الجرّة ؟ قالوا : ليسَ اليومَ فيها شىء . قال : فأىُّ شىء كان فيها قبلَ اليوم ؟ قالوا : سمن . قال : وما كان يصنعُ به ؟ قالوا : كنّا فى الشتاء نلقى له فى البُرمة شيئاً من دقيق نعمَلُه له ، فكان ربّما برّقه بشىء من سمن . قال : يقولون ولا يفعلون . السمنُ أخو العسَل . وهل أفسدَ الناسُ أموالَهم إلا فى السمن والعسل؟ والله إنى لولا أنّ للجرّة ثمناً لما كسرتها إلا على قبره . قالوا : فخرجَ فوقَ أبيه ، وما كنّا نظنُّ أن فوقَه مزيداً .

* المخطرانى : الذى يأتيك فى زىّ ناسك ، ويُريكَ أن بابَكَ قد قوّر لِسانه مِن أصله ، لأنه كان مؤذِّناً هناك . ثمّ يفتحُ فاهُ كما يصنعُ مَن يتثاءب ، فلا ترى له لساناً البتة .

---

(١) فاتّهم (مرسيه) : فاتهم ك ب — (٣) وقع ك ب — (٥) وقعت ك ب — وعليه مكتوب اسم الله ب — (٨) لأمر [يريده] ب — (١٢) يلحده ب (١٩) أول السقط الذى يشمل جميع التفسير ، فى ب .

ولسانُه فى الحقيقة كلسان الثور . وأنا أحد من خُدع بذلك . ولا بدّ للمخطرانى أن يكون معه واحدٌ يعبّر عنه ، أو لَوحٌ أو قِرطاس قد كتبَ فيه شأنه وقصّته .

والكاغانى : الذى يَتَجنّن ويَتَصارع ويُزبد ، حتى لا يُشَكّ أنه مجنونٌ لا دَوَاء له ، لشِدّة ما يُنزِلُ بنفسه ، وحتّى يتعجّبَ من بقاء مثلِه على مِثل علّته .

والبانوان * الذى يقف على الباب ويسل الغلق ، ويقول : بانوا . وتفسيرُ ذلك بالعربية : يا مَوْلاى * .

والقَرَسىّ : الذى يَعصِب ساقَه وذراعَه عَصْباً شديدًا ، ويبيتُ على ذلك لَيلَة . فإذا تورّم واختنقَ الدمُ ، مَسَحه بشىء من صابون ودم الأخوين ** ، وقَطَر عليه شيئًا * من سَمن ، وأطبَق عليه خِرقة ، وكَشَف بعضَه . فلا يشكّ من رَآه أنّ به الأُكلة ، أو بليّةً شبه الأكلة .

والمشعب : الذى يحتالُ للصبىّ حينَ * يولد ، بأن يُعميَه أو يجعله أعسم * أو أعضد ، ليسأل الناسَ به أهلُه . وربّما جاءتْ به أمه وأبوه ليتولّى ذلك منه بالغُرم الثقيل ، لأنّه يصيرُ حينئذ عُقْدَة وغلّة . فإما أن يكتَسِبا به ، وإمّا أن يُكرياه بكِراء مَعْلوم . وربّما أكروا أولادَهم ممن يمضى إلى أفريقيّة ، فيسأل بهم الطريقَ أجمع ، بالمال العظيم . فإن كان ثِقةً مليئاً * ، وإلّا أقام بالأولاد والأجرة كفيلا .

والفلور : الذى يحتالُ لخصيته ، حتى يُريك أنه آدر . وربما أراك أن بها سَرَطاناً أو خُرّاجاً أو غَرَبا . . أو ربّما أرى ذلك فى دُبُره بأن يُدخل فيه حُلقوماً ببعض الرئة . وربما فعلت ذلك المرأةُ بفرجها .

والكاغان * : الغلام المُكَدّى إذا واجر ، وكان عليه مَسحة جمال ، وعَمِل العَمَلين جميعاً .

---

(٥) والبابوان ك — (٦) لعلها : يامولاتى ، انظر مجلة المجمع العلمى العربى ٣ — ٤ : ٢٠ ص ١٦١ — (٨) شىء ك — (١١) حتى ك — اعشم ك —(١٥) ملى (مرسيه) — (١٩) والكاخان (فان فلوتن).

والعوّاء : الذى يسأل بين المغرب والعشاء . وربّما طرّب ، إن كان له صوتٌ حسن وحلق شجىّ .

والإسطيل : هو المُتعَامى : إن شاء أراك أنه منخسِفُ العَيْنين ، وإن شاء أراك أن بهما ماءً ، وإن شاء أراك أنه لا يُبصِر ، للخَسْف ولريح السَّبَل** .

والمزيدىّ * : الذى يدورُ ومعَه الدُّرَيهمات ، ويقول : هذه دراهمُ قد جُمِعَت لى فى ثمن قطيفة ، فزيدونى فيهـا رحمكم الله . وربّما احتملَ صبيا على أنه لقيط . وربّما طلب فى الـكَفَن .

والمُستعرِض : الذى يعارِضُك وهو ذو هيئة ، وفى ثياب صالحة . وكأنه قد مات* من الحياء ، ويخافُ أن يراه مَعرفة . ثم يَعترضُك اعتراضاً ، ويكلِّمك خفيًّا .

والمقدِّس : الذى يقفُ على الميِّت يسأل فى كفنه . ويقفُ فى طَريق مكّة على الحِمار الميّت ، والبعير الميت فيدعى* أنه كان له ، ويزعم أنّه قد أُحصِر . وقد تعلّم لغة الُخراسانية واليمانيَة والأفريقية ، وتعرّف تلك المدنَ والسِّككَ والرجال . وهو متى شاء كان أفريقيًّا ، ومتى شاء كان من أهل فَرغانة ، ومتى شاء كان من أىّ مخاليف اليَمن شاء .

والمـكدّى : صاحبُ الـكداء* .

والـكعبى : أضيف إلى أُبىّ بن كَعب* المَوْصلى وكان عريفَهم بعد خالَويه سنة على ماء .

والزكورى : هو خبز الصدقة ، كان على سَجين* أو على سائل .

هذا تفسيرُ ما ذكرَ خالويه فقط . وهم أضعافُ ما ذكرنا فى العَدَد . ولم يكن يجوزُ أن نتـكلّف شيئاً ليسَ مِن الـكتاب فى شىء* .

(٥) والزيدى ك — (٨) هاب (فانفلوتن) — (١١) يدعى (فان فلوتن) — (١٤) الكداد ب — (١٥) أبى كعب (فان فلوتن) — (١٦) جنى ك — (١٧) نهاية ما سقط فى ب : [المخطرانى . . . فى شىء]

(٥٢ : ٣ — ٥٣ — ٩) « والكاغانى . . . خفيا » انظر المحاسن والمساوى للبيهقى ٢ : ٢١٩ — ٢٢٠ ، ط السعادة ١٩٠٦ م

طرف شتى

رفع يحيى بنُ عبدِ الله بن خالدِ بن أُميَّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد رغيفاً من خوانه بيده ، ثم رطَله والقوم يأكلون ، ثمَّ قالَ : يزعمون أَن خُبزى صِغار . أَىّ ابنِ زانية يأكل من هذا الخبزِ رَغيفين ؟

وكنتُ أَنا وأَبو إسحاق إبراهيمُ بن سيّار النظّام ، وقطربُ النحوى ** ، وأَبو الفتح مؤدِّبُ منصور بن زياد ، على خِوان فلان بن فلان . والخوان من جَزْعة ، والغَضار صِينىّ ملمَّع ، أَو خَلَنجية كَيماكِيّة ** ، والأَلوان طيّبة شهيَّة * وغذية قدية * ، وكل رغيف فى بياض الفضة ، كأنه البدر وكأنه مرآة مجلوَّة ولكنَّه على قَدر عَدَد الرؤوس . فأكل كلُّ إنسان رغيفَه إلا كِسرة . ولم يَشبعُوا فيرفعوا أَيديَهم ، ولم يُمَدُّوا * بشىء فيتمُّوا أَكلَهم ، والأَيدى مُعلقة . وإنما هم فى تَنقير وتَنتيف .

فلمّا طالَ ذلك عليهم ، أَقبلَ الرجلُ على أَبى الفتح — وتحت القَصعة رقاقه — فقال : يا أَبا الفتح خُذ ذلك * الرغيف فقطّعه واقسِمه على أَصحابنا . فتغافل أَبو الفتح . ثم أَعاد عليه القول ، فتغافل . فلما أَعادَ عليه القولَ الرابعةَ قال : مالك ويلَك لا تقطّعه بينهم ؟ قطّع الله أَوصالك ! قال : تُبتلى على يدىْ غيرى أَصلَحَك الله ! فخجّلناه مرّة ، وضَحِكنا مرّة ، وما ضحك * صاحبنا ولا خجل .

وزُرْته أَنا والمكىّ ** . وكنتُ أَنا على حِمار مُكارى ، والمكىّ على حمار مُستعار . فصار الحمارُ إلى أَسوَإ من حال الزَّوْر * . فكلّم المكىُّ غِلمانَه فقال : لا أُريد منكم

---

(٧)[وغذية قدية] ب — (٩) يمدوا ، صححنا : يغلو ك ، يأتوا ب — (١٢) ذاك ب — (١٥) وما ضحكنا ب — (١٧) الزود ب ، الرود (فان فلوتن)

(٢ — ٤) « رفع ... رغيفين » العقد ٤ : ٢١٧ ، الأزهرية ، ١٩١٣ م ، ٦ : ١٨١ ط لجنة التأليف ...

التبْنَ فما فوقه ، اسقُوه ماءً فقط . فسقَوه * ماءَ بئر ، فلم يشربه الحمار ، وقد مات عَطَشاً . فأقبل المكىُّ عليه ، فقال : أصلحَك الله إنهم يسقُون حمارى ماء بئر ، ومنزلُ صاحب الحمار على شارع دجلة ، فهو لا يعرفُ إلا العذب . قال ، فامزجوه له ياغلام . فمزجوه ، فلم يشربه . فأعاد المسألة فأمكَنَه من أذن من * لا يسمع إلا ما يشتهى .

وقال لى مَرَّة : يا أخى إنّ ناساً من الناس يغمسون اللُّقمة إلى أصبارها * فى المرى فأقول هؤلاء قومٌ يحبُّون الملوحة ولا يُعجَبون بالحامِض . فما ألبث أن أرى أحدهم يأخذ حَرف الجرذقة ، فيغمسها فى الخلّ الحاذق ويغرِقها فيه . وربما رأيت أحدَهم يُمسِكها فى الخل بعد التغريق ساعة ، فأقول : هؤلاء قومٌ يجمَعون * حبَّ * الحموضة إلى حبّ الملوحة . ثم لا ألبثُ أن أراهم يصنعون مثل ذلك بالخرْدل . والخردلُ لا يُرام : قل * لى أىُّ شىءٍ طبائعُ هؤلاء ؟ وأىّ * ضرْب هم ؟ وما دواؤهم ؟ وأى شىءٍ علاجُهم ؟

فلما رأيتُ مذهَبَهُ وحُمْقَه ، وغلبةَ البُخل عليه ، وقهره له ، قلتُ : ما لهم عندى علاجٌ هو أنجعُ فيهم مِن أن يمنعوا الصِّباغ كله . قال : لا والله إن هو غيرَه !

وصديقٌ لنا * آخر ، كنا قد ابتُلينا بمؤاكلته ، وقد كان ظنّ أنا قد عرَفناه بالبُخل على الطعام ، وهَجَس ذلك فى نفسِه ، وتوهَّم أنا قد تَذاكرنا أمرَه . فكان يتزيَّد * فى تكثير الطعام ، وفى إظهار الحِرصِ على أن يؤكل ، حتى قال : مَن رفَعَ يده قبل القوم غرَّمناه ديناراً * فيرى بعضُهم أن غُرمَ دينار أولى ، فذلك منه مُحتمل فى رِضا قلبه * ، وما يَرجو من نفع ذلك له .

ولقد خبّرنى * خبَّاز لبعض أصحابِنا أنه جَلَده على إنْضَاجِ الخُبز ، وأنه * قال له :

---

(١) فاسقوه ب — (٤) [من] ب — (٥) آخرها ب — (٨) يحبون ب — [حب] ب — (٩) فقل ب — (١٠) و < من > أى ب (١٣) و [كان] لناصديق ب — (١٤) يتزايد ب — (١٦) فيرى بعضهم أن غرم دينار أولى فذلك منه . . . صححنا : فترى لك ، بغضه (فان فلوتن) ، ديناراً وظاهر لا تمته لك ، دينار وفى ذلك رضا نفسه ب ، [منه محتمل فى] ب — (١٨) أخبرنى ب — و [أنه] ب

انْضج خبزى * الذى يوضَعُ بينَ يدىّ   واجعل خبزَ من يأكلُ معى * على مقدار بين المقدارين * . وأمّا خبز العِيال والضَّيف فلا تقربنه من النار إلا بقدر ما يَصير العجينُ رغيفاً و بقدر ما يتماسَك فقط . * فـكلَّفه العويصَ * فلمّا أعجزَه ذلك جَلَده حدَّ الزانى الحرّ .

فحدثتُ بهذا الحديثِ عبدَ الله العَروضى ** ، فقال : ألم تعرفْ شأن الجدْى ؟ ضربَ الشوّاء ثمانين سوطاً لمـكان الإنضاج . وذلك أنه قالَ له ضعْ الجدىَ فى التنور حين نَضَعُ الخِوان ، حتى أستبطئك أنا فى إنضاجه ، وتقولُ أنت : بَقِىَ قليل . ثم تجيئنا به وكأنى قد أعجلتُك . فإذا وُضِع بين أيديهم غيرَ مُنضَج * ، احتسبْتُ عليهم بإحضار الجدى . فإذا لم يأكلوه أعدتَه إلى التنور ، ثم أحضَرْتناه الغد بارداً فيقومُ الجدى الواحد مَقامَ جَدْيَيْن . فجاء به الشوّاء يوماً نضيجاً ، فعمِل فيه القومُ . فجلَده ثمانين جلدة ، جلد القاذفِ الحرّة .

حدثنى أحمد بنُ المثنَّى ** ، عن صديقٍ لى وله ، ضخمِ البدَن كثير العلم فاشى الغلَّة عظيمِ الوِلايات ، أنه إذا دُعِىَ على مائدته بفضْل دَجاجة أو بفضل رقاق أو غير ذلك ردَّ الخادم مع الخبّاز إلى القهْرمان حتى يَصُكَّ له بذلك إلى صاحب المطبخ .

ولقد رأيته مرّة وقد تناول دَجاجة فشقَّها نصفيْن * ، فألقى نِصفَها إلى الذى عن يمينه ، ونِصفَها إلى الذى عن شِماله . ثم قال ياغلام جئنى * بواحدة رَخصة ، فإن هذه كانت عَضِلة جدا . فحسبتُ أن أقل ما عندَ الرجُلَين ألا يعودا إلى مائدته أبداً . فوجدتهما قد فَخَرا علىَّ بما حَبَاهما به من ذلك دونى .

وكانوا ربّما خَصُّوه ، فوضَعوا بين يديه الدُّرّاجة * السمينة ، والدجاجة الرخصة . فانطفأت الشمعةُ فى ليْلة من تلك الليالى ، فأغار علىُّ الأسوارى ** على بعض ما بين يديه واغتنمَ الظلمة ، وعمل على أن الليلَ أخفى للويل . ففطن له ، وما هو بالفطنِ إلا فى

(١) الخبز ب — (١ — ٢) متوسط بين ذلك ب — (٣) فخالفه الخباز ب — (٨) نضيج ب — (١٥) بنصفين ك — (١٦) ايتنى ب — (١٩) الدجاجة ب .

هذا الباب .وقال : كذلكَ * الملوكَ كانت لا تأكل معَ السوقة * .

وحدثنى أحمد بنُ المثنّى أنّهم كانوا يعمدون إلى الجراذِق التى تُرفَع عن مائدته ، فما كان منها مُلطّخاً دُلك ذلك دَلْـكاً شديداً ، وما كان منها قد ذهَب جانبٌ منه ، قطع بسكّينٍ من ترابيع الرغيف مثلُ ذلك ، لئلا يَشُكَّ من رآه أنهم قد تعمّدوا ذلك ، وما كان من الأنصاف والأرباع ، جُعِلَ بعضُهُ للثريد ، وقطع بعضه كالأصابع ، وجُعِلَ مع بعضِ القلايا .

ولقـد رأيتُ رَجُلا ضخماً فخم اللفظ فخم المعانى ، تربيةً فى ظل ملك ، مع عِلمٍ جَمّ * ولسان عَضْب ، ومعرفة بالغامِض من العيوب والدقيق من المحاسن ، مع شِدَّة تسرُّع إلى أعراض الناس وضيق صدر بمـا يَعرف من عُيوبهم ، وإن ثريدته لبلقاء ، إلّا أن بياضها ناصع ، ولونَهـا الآخر أصهب . * فرأيت ذلك مرَّة أو مرَّتين * . وكنتُ قد هَمَمْتُ قبل ذلك أن أعاتبَه على الشيء يستأثر به ، ويُخَصُّ به ، وأن أحتمِلَ ثِقَل تلكَ النصيحة * ، و بشاعتَها فى حَظِّه وفى النظر له . ورأيت أن ذلك لا يكونُ إلا من حاقٍّ * الإخلاص ومن فرط الإخاء بينَ الإخوان . فلما رأيت البُلقة ، هان علىَّ التحجيلُ والغُرَّة . ورأيت أن تَرْكَ الـكلام أفضل وأن الموعظةَ لغوٌ .

وقد زعمَ أبو الحسنِ المدائنى ** أن ثريدةَ مالك بن المُنذر *' كانت بَلقاء . ولعلَّ ذلك أن يكونَ باطلا . وأمّا أنا فقد رأيتُ بعينى مِن هذا الرجُل ما أخبرُك به . وهو شىء لم أرَه إلّا فيه ولا سَمِعتُ به فى غَيره .

ولسنا من تسمِيَة ' الأصحابِ المتهتّـكين ولا غـيرهم من المستورين ، فى شىْء . أمّا الصاحبُ فإنا لا نُسمِّيه * لحرمته وواجب حقّه ، والآخر لا نسميه لِسَتْرِ الله عليه ، ولما يجبُ لمن كانَ فى مِثلِ حاله ، وإنما نسمّى من خرَج من هاتَـيْن الحالين * ، ولربما سمّينا الصاحبَ إذا كانَ ممن يُمازِحُ بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرّف به ، ويجعلُ ذلك الظّرفَ سُلَّمـاً إلى منع شَيْنه * .

---

(١) لذلك (مرسيه) — السوق ك — (٧) علو جم ك ، علوهم (فان فلوتن) — (١٠) ما رأيت ذلك مرة ولا مرتين ك — (١١) الفضيحة ك ب — (١٢) حق ب — (١٨) [تسمية] ب — (١٩) لا اسمية ب — (٢٠) الحالتين ب — (٢٢) منيته ك ب .

قصـــــة أبي جعفر

ولم أرَ مثل أبي جعفر الطَّرَسوسى :

٣ زار قوماً فأكرموه وطَيَّبوه ، وجَعلوا فى شاربه وسَبَلته غالية . فحكته* شفتهُ العُليا ، فأدخلَ إصبعه فحكّها من باطنِ الشفة ، مخافةَ أن تأخذَ إصبَعُه من الغاليــة شيئاً إذا حكّها مِن فَوق .

٦ وهذا وشِبهُه إنما يطيبُ جدًّا إذا رأيتَ الحكايةَ بعينِك . لأنّ الكتابَ لا يصوّر لك كلَّ شيء ، ولا يأتى لكَ على كُنهه ، وعلى حُدوده وحَقائقه .

---

(٣) فحك بها (فان فلوتن)

قصة الحزامى

وأما أبو محمّد الحزامىّ ، عبدُ الله بن كاسِب ، كاتبُ مُوَيْس ، وكاتبُ داودَ بنِ أبى داود ، فإنه كان أبخلَ مَن برأ الله ، وأطيَبَ من برأ الله . وكان له فى البُخل كلام . وهو أحد من يَنصرُه * ويفضّله ، ويحتجُّ له ويدعو إليه .

وإنه رآنى مرة فى تَشْرينَ الأوّل ، وقد بكّر البردُ شيئاً ، فلبِسْتُ كساءً لى قُومَسِيًّا ** خفيفاً ، قد نِيلَ منه . فقال لى : ما أقبحَ السَّرَف بالعاقل وأسمجَ الجهل بالحكيم . ما ظننتُ أن إهمالَ النفس وسوءَ السياسة يَبلغ بك ما أرى . قلتُ : وأىُّ شىء أنكرْتَ منّا مُذ اليوم ، وما كان هذا قولُك فينا بالأمس؟ فقال : لُبسُكَ هذا الكِساء قبلَ أوانه. قلتُ : قد حَدَث من البردِ بمقداره . ولو كان هذا البردُ الحادثُ فى تمّوزَ وآب ، لكان إبّاناً لهذا الكِساء قال : إن كان ذلك كذلك ، فاجعلْ بَدَل هذه المبطّنة جبّة محشوّة ، فإنها تقومُ هذا المَقام ، وتكونُ قد خَرَجتَ من الخطأ . فأمّا لبسُ الصوف اليوم ، فهو * غيرُ جائز . قلت : ولِمَ؟ قال : لأن غُبارَ آخِر الصَّيف يتداخلُه ويسكن فى خَلَله، فإذا أُمطِر الناس ونَدِىَ * الهواء وابتلّ كلُّ شىء . ابتلّ ذلك الغُبار . وإنما الغُبار تراب ، إلّا أنه لُباب التّراب . وهو مالِح ، ويَنقبّضُ * عند ذلك عليه الكِساء ويتكرّش، لأنه صوف ، فتنضمُّ أجزاؤه عليه . فيأكله أكلَ القادِح ويعملُ فيه عَملَ السُّوس ، ولهو أسرَعُ فيه من الأرَضة فى الجذوع النَّجْرانيّة . ولكن أخِّر لُبسَه ، حتى إذا مُطِر الناسُ وسَكن الغُبار وتلبّد التّراب وحطَّ المطرُ ما كان فى الهواء من الغُبار وغَسَله وصفّاه ، فالبسْه حينئذ على برَكة الله .

وكان يقع * إلى عِياله بالكوفة كلَّ سنة مَرّة ، فيشترى لهم من الحبِّ مقدار طبيخِهم * *وقُوتِ سَنَتِهم * . فإذا نظَرَ * إلى حبِّ هذا وإلى حبِّ هـذا ، وقام على * سِعره ،

---

(٤) يبصره (فانفلوتن) – (١١) فهذا ب، فهو < اليوم > ك – (١٣) تندى ب – (١٤) وينتقض ب – (١٩) يأتى ب – طحينهم (مرسيه) – (٢٠) [وقوت سنتهم] ب – فإذا < أراد أن يشترى > فينظر ب

اكْتال* من كلٍّ واحد منهَا كَيْلة معلومة < ووزنها >* بالميزان ، واشتَرى أثقلها وَزْناً . وكان لايختارُ على البَلَدى والموصلىّ شيئاً ، إلّا أن يتقارَبَ السعر . وكان على كلِّ حال يفرّ من المَيْسانى ، إلّا أن يُضطرَّ إليه . ويقول : هو ناعِمٌ ضَعيف ، ونارُ المَعِدة شيطان ، فإنّما ينبغى لنا أن نَطعَم الحجرَ وما أشبه الحجر . وقلتُ له مرّةً أعلمتَ أن خبز البلدىِّ ينبُتُ عليه شىءٌ شبيهٌ بالطين والتُّراب والغُبار المتراكم ؟ قال : حبّذا ذلك من خُبز . ولَيْته قد أشبَه الأرض بأكثرَ من هذا* المقدار !

وكان إذا كان جديدَ القميص ومغسوله ، ثم أتَوه بكلِّ بَخور فى الأرض لم يتبخَّر ، مخافةَ أن يُسوِّد دُخانُ العُود بياضَ قميصه . فإن اتّسخ فأُتِىَ بالبَخور ، لم يرضَ بالتبخر واستِقصاء* ما فى العُود من القُتار ، حتّى يَدعُوَ بدُهن فيمسَح به صَدرَه و بطنَه وداخِلةَ* إزاره ، ثمّ يتبخّر ، ليَكونَ أعلقَ للبَخور .

وكان يقولُ : حبّذا الشِّتاء فإنّه يحفظُ عليك رائحة البخور ، ولا يحمَض فيه النبيذ إن تُرِكَ مفتوحاً ، ولا يفسُد فيه مَرَق إن بَقِىَ أياماً . وكان لا يتبخَّر إلّا فى منازل أصحابه . فإذا كان فى الصَّيف دعا بثيابه فلبِسَها على قميصِه ، لكيلا يضيعَ من البَخور شىء .

وقال مرّة : إن للشيبِ سَهْكة . و بياضُ الشَّعر الأسود* هو مَوْته ، وسوادُه حياتُه . ألا ترى أنّ موضِعَ دَبْرةِ الحمار الأسودِ لاينبتُ إلا أبيض . والناسُ لايرضَوْن منّا فى هذا العَسْكَر إلّا بالعِناق والِّلثام . والطِّيبُ غالٍ ، وعادتُه رديئة . و ينبغى لمن كان أيضاً عندَه أن يحرُسَه ويحفظَه من عِياله . و إنّ العطّارَ ليختِمه على أخصِّ غِلمانه به . فلستُ أرى شيئاً هو خيرٌ من اتّخاذ مُشط صَندَل ، فإنّ ريحَه طيّبةٌ ، والشَّعر سريع القَبول ، وأقلُّ ما يصنَع أن ينفِىَ سَهكَ الشَّيب . فصِرنا فى حالٍ لا* لنا ولاعلينا . فكان

---

(١) سعر واكتال لـ ب — < ووزنها > (مرسيه) ، وليست بالأصل — (٦) [هذا] (فان وتن) — (٩) واستقصى ب — وداخل ب — (١٤ — ٦١ : ١) [وقال مرة . . . صديق] ب — (١٥) سهمة ك — [الأسود] (فان فلوتن) — (١٩) [لا] (فان فلوتن) .

(١٤ — ١٩) « وقال مرة . . . ولا علينا » العقد الفريد ٤ : ٢١٤ ، الأزهرية ، ١٩١٣ م ، ٦ : ١٧٥ ط لجنة التأليف

عِطرُ الخزامى إلى أن فارق الدنيا مُشطَ صَندل ، إلّا أن يطيِّبه صديق * .

واسْتَسْلَفَ منه عليٌّ الأسْوارىّ مائةَ دِرهم ، فجاءنى وهو حزينٌ مُنكسِر . فقلتُ له : إنّما يَحزَنُ من لا يجدُ بُدًّا من إسلاف الصّديق ، مخافةَ ألّا يرجعَ إليه مالهُ ولا يعدّ ذلك هِبةً منة . أو رجلٌ يخافُ الشكيّة ، فهو إن لم يُسلف كَرَمًا أسلف خَوفًا . وهذا بابٌ الشُّهرة فيه هى قُرَّة عينِك . وأنا واثقٌ باعتزامك وتَضميمك ، و بقلّة المُبالاة بتَبْخِيل الناسِ لكَ فما وجهُ انكسارِك واغتمامِك ؟

قال : *اللهم غَفرًا ! ليسَ ذاكَ بى إنما بى أنى قد * كنتُ أظنُّ أن أطماعَ الناس قد صارت بمعزِل عنّى وآيسةً منى ، وأنى قد أحكمتُ هذا البابَ وأتقنتُه ، وأوْدَعتُ قلوبَهم اليأس ، وقطعتُ أسبابَ الخواطِر . فأرانى واجداً منهم < . . . > * . إن من أسبابِ إفلاسِ المرء طَمَعَ الناس فيه . لأنّهم إذا طَمِعوا فيه احتالوا له الحِيَل ونصَبوا له * الشَّرُك ، و إذا يئِسوا منه فقد أمِن . * وهذا المذهَبُ من عَلِىّ استضعافٌ شديد . وما أشكُّ أنى عندَه غمر ، وأنى * كبعض مَنْ يأكُل مالَه . وهو مَعَ هذا خليطٌ وعشير . و إذا كان مثلُه لم يعرِفنى ، ولم يتقرَّر عندَه مذهبى ، فما ظنُّك بالجيران ، بل ما ظنُّك بالمعَارف ؟ أرانى أنفخ فى غير فَحم وأقدَحُ بزَنْد مُصلِد . ما أخوَفَنى أن أكون قد قُصِدَ إلىَّ بقول . ما أخوفَنى أن يكونَ اللهُ فى سَمائه قد قَصَد إلى أن يُفقرنى .

قال :و يقولون : ثوبُك على صاحبك أحسنُ منه عليك . فما يقولون إن كان أقصرَ منى ، أليس يتخبَّلُ فى قميصى ؟ و إن كان طو يلاً جدًّا وأنا قصيرٌ جدًّا فلبسه ، أليسَ يصير آية للسائلين * ؟ فمن أسوأ أثراً على صديقه ممن جعله ضُحكة للناس ؟ ما ينبغى لى أن أكسوَه حتى أعلمَ أنه فيه مثلى . ومتى يتفقُ هذا ، وأنى ذاك * مَحيا ومَمَات * ؟

---

(٧) [اللهم غفرا] ليس بى من هذا إنما [بى أنى قد]ب – (٩) < . . . > سقط فى الأصل، فيما يظهر – (١٠) [له] ب – (١١ – ١٩) [وهذا المذهب . . . ومات]ب – (١٢) عمرو أبى (فان فلوتن) – (١٨ للسابلين (فان فلوتن) – (١٨) وإلى ذاك (فان فلوتن) .

(١٦ – ١٩) «قال ويقولون . . . هذا» العقد الفريد ٤ : ٢٣٠ ، الأزهرية ١٩١٣ م ، ٦ : ١٩٨ ط لجنة التأليف

وكان يقول : أشتهي اللحمَ الذى قد تهرّأ ، وأشتهي أيضاً الذى فيه بعضُ الصّلابة . وقلتُ* له مرّة : ماأشبهَكَ بالذى قال : أشتهي لحمَ دجاجتين . قال : وما تصنعُ بذلك القائل ؟ هو ذا أنا أشتهي لحمَ دَجاجتين : واحــــدة خِلاسيّة مسمّنة ، وأخرى *خوامزكة** رَخْصَة .

وقلتُ له مرّة : قد رضيتَ بأن يقالَ : عبدُ الله بخيلٌ ؟ قال : لا أعدَمنى الله هذا الاسم . قلتُ : وكيفَ ؟ قال : لا يقالُ فلانٌ بخيلٌ إلاّ وَهُو ذُو مال ، فسلم إلىّ المال ، وادعُني بأىّ اسمٍ شئت . قلتُ : ولا يقالُ أيضاً فلانٌ سخىٌّ إلاّ وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسمُ الحمدَ والمال ، واسمُ البُخل يجمعُ المال والذمّ . فقد اخترتَ أخسّهما وأوضعَهما. قال : و بينَهما فرق : قلتُ : فهاتِه . قال : فى قَوْلهم بخيل تثبيتٌ لإقامة المال فى مِلكه ، وفى قولهم سخىٌّ إخبارٌ عن خروج المال من مِلكه . واسمُ البَخيل اسمٌ فيه حِفظ وذم ، واسمُ السخىِّ اسمٌ فيه تضييعٌ وحمد . والمالُ زاهر* نافع مُكرِم لأهله معزٌّ ، والحمدُ ريحٌ وسُخرية ، واستماعُك له ضعفٌ وفسولة وما أقلَّ غَناءَ الحمدِ — والله — عنه ، إذا جاع بطنهُ ، وعرِىَ جلدُه ، وضاع عياله ، وشمِت* به من كان يَحسُده .

* وكنّا عندَ داود بنِ أبى داود* بواسط ، أيّامَ ولايته كَسْكَر . فأتته من البَصرة هدايا فيها زِقاق دِبس ، فقَسَمها بيننا فكلنا أخذ ما أعطِىَ غيره* . فأنكرتُ ذلك من مَذهبه، ولم أعرِف جِهَة تدبيره . فقلتُ للمكىّ : قدعلمتُ أن الحزامى إنما يجزَعُ من الإعطاء وهو عدوُّه ، فأمّا الأخذُ فهو ضالّته وأمنيّته . وإنه لو أعطِىَ أفاعى سِجِسْتان ، وثعابينَ مصر ، وحيّاتِ الأهواز ، لأخذها ، إذ* كان اسمُ الأخذِ واقعاً عليها ،فعساه أراد التفضيل

(٢) لعلها : فقلت — (٤) جوامركه ك ، خوامرغه ب — (١١) كذا فى ك و ب ، زاهن : عيون الأخبار ، ناض : العقد ، ولعله : ناصر — (١٣) تشمت ب — (١٤) وكنا : أول سقط فى ب إلى آخر قصة الحزامى — داود ، عيون الأخبار : خالد ك — (١٥) فكلما أخذ ما أعطى غيره ك ، فكل ما أخذ منها الحزامى أعطى غيره (.فان فلوتن) — (١٨) إذا ك .

(٥ — ١٣) «وقلت . . . يحسده» عيون الأخبار ٢ : ٣٣ — ٣٤ ، العقد الفريد ٦ : ١٩٧ ط لجنة التأليف، محاضرات الراغب الأصبهانى ١ : ٢٩٠ ط العامرة الشرفية ١٣٢٦ هـ ، معجم الأدباء ٦ : ٥٨ ط هندية ، الإشارة إلى محاسن التجارة ص ٦٧ — ٦٨ ط المؤيد ، نهاية الأرب ٣ : ٣٢٤

فى القسمة . قال : أنا كاتبهُ ، وصَداقتى أقدم ، وما ذلك به . وإنّ ههنا أمراً ما نقعُ عليه . فلم يلبث أن دَخَل علينا ، فسألتُه عن ذلك ، فتعصَّر قليلًا . ثم باح بسرِّه . قال : وَضِيعته أضعافُ رِبحه ، وأخذُه عندى من أسباب الإدبار . قلت : أوَّل وضائعه احتمالُ الشكر *. قال : هذا لم يخطُر لى قطُّ على بال . قلت : فهاتِ إذاً ما عِندَك . قال :

أوَّل ذلك كِراء الحمَّال . ثم هو على خَطر حتَّى يصير إلى المنزل . فإذا صار إلى المنزل ، صار سَبَباً لطلبِ العَصيدة والأَرُزَّة والبِستَنْدود ** . فإن بِعتُه فِراراً مِن هذا ، صيَّرتمونى شُهرة ، وتركتُمونى عِندَه آية . وإن أنا حَبَستُه ، ذهب فى العصائد وأشباهِ العصائد ، وجذَبَ ذلك شراء السمن ، ثم جذَبَ السمنُ غيرَه ، وصارَ هذا الدِّبسُ أضرَّ علينا من العيال .

وإن أنا جَعلتهُ نبيــذاً ، احتجْت إلى كِراء القُدور ، وإلى شراء الحُبّ ، وإلى شِراء الماء ، وإلى كِراء من يُوقِدُ تحتَه ، وإلى التفرُّغ له . فإن وَلّيت ذلك الخادمَ اسوَدَّ ثوبُها ، وغرمنا ثمنَ الأشنان والصابون ، وازدادتْ فى الطُّعم * على قَدر الزِّيادة فى العَمَل . فإن فَسدَ ذَهَبت النفقةُ باطِلًا ، ولم نستخلفْ منها عِوَضاً بوجهٍ من جميع الوجوه . لأن خلَّ الداذِىّ يَخضِبُ اللحمَ ، ويغيِّر الطّعم ، ويسوِّد المرَقَ ، ولا يصلحُ للاصطباغ * . وهذا إذا استحال خلًّا ، وأكثرُ ذلكَ * أن يحولَ عن النبيذِ ، ولا يصــير إلى الخلّ . وإن سَلِم — وأعوذُ بالله — وجاد وصفا ، لم نجد بُدًّا مِن شُربه ، ولم تطِبْ أنفسُنا بتركِه . فإن قَعَدتُ فى البيت أشربُ منــه ، لم يُمكِن إلّا بتَركِ سُلافِ الفارسىِّ المعسَّل ، والدجاج المسمَّن ، وجِداء كسكر ** ، وفاكِهة الجبل ** ، والنَّقل الهشّ والرَّيحان الغضّ ، عند مَن لا يغيضُ مالُه ولا تنقطعُ مادّته ، وعند مَن لا يبالى * على أىِّ قُطريه سَقَط ، مَع فَوْتِ الحَديث المُونِس والسماع الحسن .

وعلى أنى إن جَلَستُ فى البيتِ أشرُبه ، لم يــكنْ * لى بدٌّ مِن واحد ، وذلك الواحدُ

---

(٣) السكر (فان فلوتن) – (١١) الطعام (فان فلوتن) – (١٣) للاصطباغ ، عيون الأخبار : < إلا > للاصطباغ ك – (١٤) لعلها : وأكثر من ذلك – (١٨) لا يبالى (عيون الأخبار) : لا أبالى ك – (٢١) يمكن ب .

لا بدَّ له مِن دريهِم لحم ، ومن طَسوّج نقَل ، وقيراط رَيْحان ، ومن أبزارٍ للقِدر ، ومن حَطَب للوقُود . وهذا كلُّه غُرمٌ . وهو بعدَ هذا شؤمٌ وحِرفة وخُروجٌ من العادة الحسَنة . فإن كان ذلك النديمُ غيرَ مُوافق ، فأهلُ الحبس أحسنُ حالًا منى . وإن كان — وأعوذُ بالله — موافِقاً ، فقد فَتَح الله على مالى باباً من التَّلَف . لأنه حينئذ يسيرُ فى مالى كسَيْرى فى مال مَن هو فَوْقى . وإذا عَلم الصديقُ أنَّ عِندى زائراً * ونبيذاً ، دقَّ الباب دقَّ المدل. فإن حَجَبناه فبلاء ، وإن أدخلناه فشَقاء .

وإن بدا لى فى استِحْسان حَديثِ النــاس كما يَستحسِنهُ منّى من أكونُ عندَه ، فقد شاركتُ المسرِفين ، وفارقتُ إخوانى مِن المصلِحين ، وصِرتُ من إخوانِ الشياطين . فإذا صرتُ كذلك ، فقد ذَهَب كسْبى من مالِ غَيْرى ، وصارَ غيرى يكسِبُ * منِّى . وأنا لو ابتُلِيتُ بأحـدهما لم أقُم له ، فـكيفَ إذا ابتليتُ بأن أعطِىَ ولا آخُـذ . أعوذُ بالله من الخُذلان بعد العِصمة ، ومن الحَوْر بعد الـكَوْر . لو كانَ هــذا فى الحداثة كان أهون .

هذا الدّوشاب دَسيسٌ من الحِرفة ، وكيدٌ من الشَّيطان ، وخُدعة من الحسود . وهو الحلاوةُ التى تُعقِب المرارة . ما أخوَفَنى أن يكونَ أبو سليمان قد ملَّ منـادَمتى ، فهو يحتالُ * لى الحِيَل .

وكنَّا مرَّةً فى مَوْضع حشمة ، وفى جماعة كثيرة . والقومُ سُـكوت ، والمجلس كبير. وهو بعيدُ المـكان منى . فأقبلَ * علىَّ المـكىُّ وقال — والقومُ يسمعون — : يا أبا عثمان مَن أبخل أصحابنا ؟ قلت : أبو الهُذَيل . قال : ثمّ من ؟ قلتُ : صاحبٌ لنـا لا أسمِّيه .

---

(٥) زائراً ك : داذيا (فان فلوتن) ، رأسا (عيون الأخبار) فى الأصل — (٩) يكتسب (فان فلوتن) — (١٥) محتال (فان فلوتن) — (١٧) وأقبل (فان فلوتن)

(ص ٦٢ : ١٤ — ص ٦٤ : ١٥) «وكنا عند . . . الحيل» عيون الأخبار ٣ : ٢٥٠ — ٢٥٣ .

قال الحزاميُّ من بعيد : إنما يعنيني . ثم قال : حَسَدتم للمُقتصِدين تدبيرَهم ونماء أموالهم ، ودوام نعمتهم ، فالتمستم تهجينَهم بهذا اللقَب ، وأدخلتم المَكرَ عليهم بهذا النَّبز. تظلِمون المتلِف لماله باسمِ الجود ، إدارة له عن شَيْنِه * ، وتظلِمون المصلحَ لماله باسم البُخل ، حَسَداً منكم لنعمته ، فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم * .

---

(٣) شينه (فان فلوتن) ، شيه ك — (٤) آخر السقط فى ب [وكنا عند . . . يسلم]

قال أبو عُبَيدة : بلغَ خالدَ بنَ عبدِ اللهِ القسْرى** أنَّ الناسَ يرمُونه بالبخـل على الطعام . فتـكلَّم يوماً ، فمـا زال يُدخِل كلاماً فى كلام ، حتَّى أدخَلَ الاعتذارَ من ذلك فى عُرض كلامه . فـكان مما احتجَّ به فى شدَّة رُؤْية الأكيل* عليه ، وفى نفُوره منه ، أن قال: نظر خالدُ المهزول فى الجاهليَّة يوماً إلى ناس يأكلون ، و إلى إبل تجترُّ ، فقال لأصحابه : أترَونى* بمثل هذه العَيْن التى أرى بها الناس والإبل ؟ قالوا : نعم . فحلفَ بإلٰهه ألا يأكل بقـلا ، و إن مات هُزْ لا . فـكان* يغتذِى اللبَن ، و يُصيب من الشراب . فأضمرَه ذلك وأيْبَسه . فلمَّا دقَّ جسمه ، واشتدَّ هُزاله ، سمِّىَ : المهزول .

ثم قال خالد : هأنذا مبتلًى بالمضغ ، ومحمولٌ على تحريك اللَّحْيَين ، ومضطرٌّ إلى مُناسبة البهائم ، ومحتمِلٌ ما فى ذلك من السخف والعجز . ما بالى* احتملتُه فيمن لى منـه بدٌّ ، ولى عنـه مذهب . ليأكلْ كلُّ امرئٍ فى منزله ، وفى موضع أمنـه وأنسه ، ودون سِتره و بابه .

*هذا مابَلَغَنا عن خالدِ بن عبد الله القَسْرىّ واحتجاجه .

فأمّا خالد المهزول فهو أحد الخالدَين ، وهما سيِّدا بنى أَسَد . وفيه وفى خالدٍ** بن نضلة يقول الأسودُ بن يَعفُر :

وقبلَك ماتَ الخالدانِ كلاهمـا : عَميدُ بنى جَحْوانَ وابنُ المضلَّلِ

---

(٣) الاكليل ك – (٥) أتروفى < إذاأكلت > ب – (٦) وكان (فان فلوتن) – (٩) ما بالى (مرسيه) : ما أبالى ك – (١٢) هذا ما بلغنا : أول سقط فى ب ينتهى عند قوله : وقيل للجماز ، فى قصة الحارثى

---

(١٥) « وقبلك . . . المضلل » شعراء النصرانية ص ٤٨٤ ، معجم البلدان ٦ : ٢٧٨ ، ط السعادة ، القاهرة ١٩٠٦ م ، إصلاح المنطق لابن السكيت ، ص ٤٤٦ ط دار المعارف .

قصـــــة الحـارثى

وقيل للحارثىّ بالأمس :

والله إنك لتصنعُ الطعام فتجيدُه ، وتعظُم عليك النفقة وتـكثر منـه . وإنّك لتُغالى بالخبّاز والطبّاخ والشوّاء والخبّاص ثمّ أنتَ — مع هذا كلّه — لا تُشهِدُه عَدُوًّا لتغُمَّه ، ولا وليًّا فتَسُرَّه ، ولا جاهِلا لتُعَرِّفه ، ولازا ئِراً لتعظّمه ، ولا شا كِراً لتثبّته . وأنت تعلم حين يتنحّى من بين يديك ، ويغيب عن عينيك . فقد صار نَهْبـاً مقسّما ، ومُتَوزَّعاً مستهلـكاً . فلو أحضرتَه من ينفع شكرُه ، ويبقى على الأيام ذِكرُه ، ومن يُمتِعك بالحديث الحسَن والاستماع ، ومن يمتدُّ به الأكل ، ويقصرُ به الدهر ، لـكان ذلك أوْلى بك ، وأشبهَ بالذى قدمته يدُك .

وبعدُ فلم تبيحُ* مَصون الطعام لمن لا يحمدُك ، ومن إن حَمِدك لم يحسِن أن يحمدَك ، ومن لا يفصِلُ بين الشهىّ القَدىّ* ، وبينَ الغليظ الزهم ؟ قال : يمنعُنى من ذلك ما قال أبو الفاتك . قالوا : ومن أبو الفاتك ؟ قال : قاضى الفتيـان . وإنى لم آكل مع أحد قطّ إلا رأيتُ منـه بعضَ ما ذمّه ، وبعض ما شنّعه وقبّحه . فشىءٌ يقبحُ بالشطّار ، فما ظنّـك به إذا كانَ فى أصحاب المروءات وأهل البيوتات ؟ قالوا* : فما قال أبو الفاتك ؟ .

قال : قال أبو الفاتك : الفتى لا يكونُ نشّالا * ، ولا نشّافاً ، ولا مِرسالا ، ولا لـكّاماً ، ولا مصّاصاً ، ولا نفّاضاً ، ولا دلّا كاً ، ولا مقوّراً * ولا مُغربلا ، ولا محلقِماً ، ولا مسوِّغاً * ولا مُلغِّماً * ولا مخضّراً . فـكيف لو رأى أبو الفاتك اللطّاع والقطّاع والنّهاش والمدّاد* والدفّاع والمحوِّل ؟ .

---

(١٠) تبح ك — (١١) الغلى ك — (١٤) قالوا ، صححنا : قال ك (١٦) [نشالا] ك — (١٧) معوراً ك — مسرعاً ك — (١٨) ميغلا ك — [والمداد] ك .

والله إنى لأفضِّل الدهاقين حينَ عابوا الحسو ، وتقزَّزوا من التعرُّق ، وبَهْرَجوا صاحبَ التمشيش ، وحين أكلوا بالبارجين** ، وقطَعوا بالسكِّين ، ولزموا عنـد الطعام السكتَة ، وترَكوا الخوْضَ ، واختاروا الزمزمة** .

أنا والله أحتملُ الضيفَ والضَّيْفَن ، ولا أحتملُ اللُّمْوظ ولا الجرْدَبيل** . والواغِل أهوَنُ علىَّ من الراشن .

ومن يشكّ أن الوحدةَ خيرٌ من جليس السوء ، * وأنّ جَليس السُّوء خيرٌ من أكيل السوء* ؟ لأن كلّ أكيل جليس ، وليسَ كلُّ جليس أكيلا . فإن كان لا بد من المؤاكلة ، ولا بدّ من المشاركة ، فمع من لا يَسْتَأثر علىَّ بالمخّ ، ولا ينتهزُ بَيْضَـةَ البَقيلة ، ولا يلتهِم كبِد الدجاجة ، ولا يبـادر إلى دِماغ رأس السُّلَّاءة* ، ولا يختطفُ كُلية الجدى ، ولا يزدردُ قانِصةَ الـكُرْكىّ ، ولا ينتزِع شاكِلة الحَمَل ، ولا يقتطع سُرّة الشِّيصان* ، ولا يعرِض لعيون الرؤوس ، ولا يستوْلى عَلَى صُدور الدجاج ، ولا يُسابقُ إلى أسقاط الفراخ ، ولا يتناوَلُ إلّا مابينَ يديه ، ولا يلاحظُ مابين يدىْ غيره ولا يتشهّى الغرائب ، ولا يمتحِن الإخوانَ بالأمور الثمينة ، ولا يهتِكُ أستار النـاس بأن يتشهّى ماعسى ألّا يكونَ موجوداً .

وَكيف تصلُح الدنيا ، وكيفَ يطيبُ العيش ، مع مَن إذا رأى جَزُوريّة التقط الأكباد والأسنِمة ، وإذا عاين بقريّة استولى على العِراق* والقِطْنَـة ، وإن أتوا بجَنب شِواء اكتَسَح كلّ شيء عليه . لا يرحَمُ ذا سنّ لضعفِه ، ولا يرقُّ على حَدَثٍ لحدَّة شَهْوته ، ولا ينظرُ للعِيال ، ولا يبـالى كيفَ دارت بهم الحال . وإن كان لا بدّ من ذلك ، فمع من لا يجعلُ نصيبَه فى مالى أكثرَ من نصيبى .

(٦ – ٧) وأن . . . السوء (العقد) : وأن أكيل السوء خير من جليس السوء ك – (٩) السلافة ك – (١١) الشيصان ، صححنا : الشصان ك ، السمك (العقد) ، الشصر (فان فلوتن) – (١٦) العرق ك .

(٦ –١٢) « الوحدة . . . الفراخ » ثمار القلوب للثعالبى ص ٣٩٣ ، ط الظاهر ، القاهرة ، ١٩٠٨ م – (٦ – ص ٦٩ : ٨) « الوحدة . . . الدم » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٣ – ٢٥٤ .

وأشدّ من كل ما وصفنا ، وأخبثُ من كلّ ما عَدَدْنا ، أنّ الطبَّاخ ربما أتى باللون الطريف ، وربّما قدّم الشيء الغريب ، والعادةُ في مثل ذلك اللون أن يكونَ لطيفَ الشخص ، صغيرَ الحجْم ، وليسَ كالطفْشِيليَّة ، ولا كالهَريسة ، ولا كالفجليَّة ، ولا كالكرنبيّة ؛ وربما عُجِّل عليه ، فقدّمه حاراً مُمتنِعاً ، وربَّما كانَ من جَوْهَرٍ بطيء الفُتور وأصحابي في سُهولة ازْدِرادِ الحارّ عليهم في طِباع النعام ، وأنا في شدَّة الحارِّ عليَّ في طِباع السباع . فإن انتظرتُ إلى أن يُمكنَ أتوا على آخِره ، وإن بَدَرْتُ مخافةَ الفوْت ، وأردتُ أن أشارِكَهم في بعضِه ، لم آمَن ضَرَرَه . والحارُّ ربَّما قتل ، وربَّما أعقَم ، وربَّما أبال الدم .

ثم قال : هذا عليٌّ الأسواريّ ، أكل مع عيسى بن سُليمان بن علي ** ، فوضعتْ قُدّامَهم سَمَكة عجيبة ، فائقة السِّمَن ، فجلَط بطنها جلطَة * ، فإذا هو يكتنِز شَحْماً . وقد كان غَص بلُقمة — وهو المستقي * — ففَرغ من الشراب ، وقد غَرَف من بطنها كلُّ إنسان منهم بلقمته غرفة . وكان عيسى ينتخبُ الأكلَة ، ويختارُ منهم كلّ مَنهوم فيه ومفتونٍ به . فلما خاف عليٌّ الأسواريّ الإخفاق ، وأشفَقَ من الفَوْت — وكان أقربهم إليه عيسى — استلَب من يده اللُّقمة بأسرع من خَطْفةِ البازي وانكِدار العُقاب ، من غير أن يكونَ أكلَ عندَه قبل مرَّتهِ . فقيل له : وَيحك ! استلبتَ لقمةَ الأمير من يدِه ، وقد رفعها إليه وشَحَا لها فاه ، من غيرِ مؤانسة ولا ممازحة سالفة . قال : لم يكن الأمرُ كذلك ، وكذبَ من قال ذلك . ولكنَّا أهوَيْنا أيدِيَنَا معاً ، فوقعت يدي في مُقدَّم الشّحمة ، ووقعت يده في مؤخّر الشحمة ، معاً . والشحمُ ملتَبِسٌ بالأمعاء . فلمَّا رَفَعنا أيدِيَنا معاً ، كنت أنا أسرعَ حركة ، وكانت الأمعاء متَّصلة غير متباينة ، فتحوَّل كلُّ شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتِّصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر .

وأنا كيف آكل أقواماً يصنعون هذا الصنيع ، ثم يحتجُّون له بمثلِ هذه الحُجَج ؟

---

(١٠) فحلط بطنها لحطة ك — (١١) وهو لمستسق (فان فلوتن)

ثم قال : إنكم تشيرون عليَّ بملابسة شِرار الخلق وأنذال الناس ، وبكلِّ عيّاب متعتِّب ، ووثّاب على أعراض الناس متسرِّع . وهؤلاء لم يرضَوا* أن يدعوَهم الناس ، ولا يَدْعوا الناس ، وأن يأكلوا ولا يُطعِموا ، وأن يتحدّثوا عن غيرهم ، ولا يبالون أن* يُتحدَّث عنهم ، وهم شِرار الناس .

ثم قال : أجلسَ مُعاوية — وهُو فى مرتبة الخلافة ، وفى السطح* من قُرَيش ، وفى نُبل الهمة ، وأصالةِ* الرأى ، وجَوْدة البيان ، وكمال الجِسم ، وفى تمام النَّفْس عندَ الجولة ، وعندَ تقصُّف الرماح وتَقَطّع السُّيوف — رجُلًا على مائدته ، مجهولَ الدار ، غيرَ معروف النّسب ، ولا مذكور بيومٍ صالح . فأبصَرَ فى لُقمتِه شَعرة ، فقال : خُذ الشعرةَ مِن لُقمتك . ولا وَجهَ لهذا القول منه إلّا مَحضُ النصيحة وإلا* الشفقَة فقال الرجلُ : وإنّك لتُراعينى مُراعاةَ من يُبصر معهَا الشَّعرة ؟ لا جلستُ لكَ على مائدةٍ ما حييتُ ، ولَأَحكِينَّها عنك ما بقيت . فلم يَدْر الناسُ أىّ أمرَى معاويةَ كان أحسن وأجمل : تغافلُه عنه أم شفقتُه عليه . فكان هذا جزاؤه منه ، وشكرُه له .

ثم قال : وكيفَ أطعِمُ مَن إن رأيتُه يقصِّر فى الأكل فقلتُ له : كل ولا تقصِّر فى الأكل ، * قال : ولم فَطِن* لفضلِ ما بينَ التقصير وغيره ؟ وإن قصّر فلم أنشِّطه ولم أحثَّه قال : لولا أنه وافقَ هواه .

ثم قال : ومدَّ رجلٌ من بنى تميم يدَه إلى صاحبِ الشراب يستسقيه ، وهو على خِوان المهلب ، فلم يَرَه الساقى ولم* يفطَن له . ففَعل ذلك مِرارًا والمهلّب يراه ، وقد أمسَك عن الأكل إلى أن يُسيغ لقمتَه بالشراب . فلما طال ذلك على المهلّب قال : اسقِه يا غلام

---

(٢) لعلها : لم يرضوا إلا أن — (٣) ان لا ك — (٥) السطح (فان فلوتن) :. السطع ك — (٦) وإصابة (فان فلوتن) — (٩) و [الا] (فان فلوتن) — (١٤) قام ولم يفطن (فان فلوتن) — (١٧) فلم (فان فلوتن)

(٥ — ١١) « اجلس . . . ما بقيت » عيون الأخبار ٣ : ٢٢١ (بإيجاز) . العقد الفريد ٢ : ٤٥٧ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ما أحبَّ من الشراب. فلما سقاه استقلَّه وطلبَ الزيادةَ منه. وكان المهلَّب أوصاهم بالإقلال من الماء ، والإكثار من الخبز .قال التميمىّ: إنك لسريع إلى السقْى ، سريعٌ إلى الزيادة. وحبَس يدَه عن الطعام . فقال المهلب : اللهُ عن هذا أيُّها الرجل ، فإن هذا لا ينفعك ولا يضرُّنا . أردنا أمراً وأردتَ خلافه .

وقد علمتُ أنى دونَ معاوية ، ودون المهلَّب بن أبى صُفرة ، وأنهم إلىَّ أسرع ، وفى لَحمى أرتع .

ثم قال : وفى الجارود بن أبى سبرة ** لكُمْ واعظ ، وفى أبى الحارث جُمَّين زاجر. فقد كانا يُدعيَان إلى الطعام وإلى الإكرام ، لظَرفهما وَحلاوتهما وحسن حديثهما وقِصَر يومهما . وكانا يتشهَّيان الغرائب ، ويقترحان الطرائف ، ويكلِّفان الناسَ المؤن الثقال ، ويمتَحِنَان ما عندَهم بالكُلَف الشِّداد . فكان جَزاؤهم من إحسانِهم ما قد عَلِمتم .

قال : ومن ذلك أنَّ بلالَ بن أبى بُردة كان رَجَلا عيَّاباً ، وكان إلى أعراض الأشراف مُتسرِّعا ، فقال للجارود : كيف طعامُ عبد الله بن أبى عثمان؟ قال : يُعرَف ويُنكر. قال : فكيفَ هو عليه ؟ قال يُلاحظ اللقم ، وينتهرُ السائل . قال : فكيفَ طعام سَلْم بن قُتَيبة ** ؟ قال : طعامُ ثلاثة ، فإن* كانوا أربعةً جاعوا . قال : فكيفَ طعامُ تَسنيم ابن الحوارى ** ؟ قال : نقَط العروس. قال : فكيفَ طعامُ المِنجاب بن أبى عُيينة؟ قال : يقول : لا خيرَ فى ثلاث أصابعَ فى صحْفة* . حتَّى أتى على عامّة أهل البصرة ، وعلى كلِّ من كانَ يُؤثره بالدَّعوة وبالأُنسة والخاصّة ، ويحكِّمه فى ماله . فلم يَنجُ منه إلَّا من كان يبعده ، كما لم يُبتلَ به إلَّا من كان يقرِّبه .

وهذا أبو شُعَيب القَلَّال ** ، فى تقريب مُوَيْس له وأنسه به ، وفى إحسانه إليه ، مع سَخائه على المأكول ، وغَضِّ طرفه عن الأكِيل ، وقلة مبالاته بالحفظ ، وقلَّة احتفاله بجَمع الكثير — سُئلَ عنه أبو شُعَيب فزَعَمَ أنه لم يَرَ قط أشحَّ منه على الطعام . قيل :

(١٤) وان (فان فلوتن) — (١٦) صفحة (فان فلوتن) .

وكيفَ ؟ قال : يدلّك على ذلك أنّه يصنَعُه صَنعةَ ، ويهيّئهُ تهيئةَ من لا يُريد أن يُمَسّ ، فضلا على غير ذلك . وكيف يجترئ الضِّرس على إفساد ذلك الُحسن ، ونقضِ ذلك النظم ، وعلى تفريق ذلك التأليف ، وقد عَلِم أن حُسنه يُحشِم ، وأن جماله يهيِّب منه . فلو كان سخيًّا لم يَمنع منه بهذا السِّلاح ، ولم يجعل دونه الُجنَن . فحوّل إحسانه إساءة ، و بذلَه منعاً ، واستدعاءه إليه نهياً .

قال : ثم قيل لأبى الحارث جُمّين : كيفَ وجهُ محمّد بن يحيى** على غَدائه ؟ قال : أمّا عَيناه فمينا مجنون . وقال فيه أيضاً : لو كان فى كفّه كُرٌّ خَردل ، ثم لَعِب به لَعِب الأُبُلِىّ بالأكرة ، لما سقَطتْ من بَين أصابعه حبّة واحدة . وقيل له أيضاً : كيفَ سَخاؤه على الخبز خاصّة ؟ قال : والله لو ألقِىَ إليه من الطعام بقَدْر ما إذا* جَدَس نزَف السحاب لَوْ ثرّ* ، ما تجافى عن رَغيف .

وكان أبو نُواس يرتعى على خِوان إسماعيلَ بن نُيبَخت** ، كما ترتعى الإبل فى الَحمض بعد طول الخلّة ، ثم كان جزاؤه منه أنه قال :

خبزُ إسماعيلَ كالوَشْـ ى إذا ما شُقّ يُرفا

وقالَ :

وما خبزُه إلّا كُليبُ بنُ وائل ليالىَ يحمِى عزُّه منبِت البَقلِ

وكان أبو الشمَقْمق** يعيب فى طعام جَعفر بن أبى زُهير ، وكان له ضِيفانٌ* فى ضيافة جعفر . وهو مع ذلك يقول :

---

(٩) جلس نزف السحاب يوثر لك ، جلس فوق السحاب يوبر (فان فلوتن) – (١) ضيفا (فانْ فلوتن) .

---

(١٣) «خبز . . . يرفا» الديوان ص ١٤١ ط الحميدية المصرية ، ١٣٢٢ هـ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٨ ، العقد ٤ : ٢٢٥ ، ط الأزهرية ، ٦ : ١٩١ ط لجنة التأليف ، نهاية الأرب ٣ : ٣٢١ ط دار الكتب المصرية (١٥) «وما خبزه . . . البقل» نهاية الأرب ٣ : ٣٢٢

رأيتُ الخبزَ عزَّ لديك حتَّى حسبتُ الخبز فى جو السحابِ
وما روَّحتنا لتذبَّ عنـــا ولـكن خِفتَ مَرزئة الذُّباب*

وقيل للجمّاز : رأيناك فى دِهليز فلان ، و بين يَديْك قَصعة ، وأنت تأكل ، فمن أىّ شىء كانت القصعة ، وأىّ شىء كان فيها ؟ قال : قىء كلب فى قِحف خنزير .

وقيل لرجُل من العرب : قد نزلتَ بجميع القبائل ، فـكيفَ رأيتَ خُزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث .

ونزل عمرُو بنُ مَعدى كَرِب برَجُل من بنى المُغيرة — وهم أكثرُ قريش طعاماً —فأتاه بما حَضَر — وقد كان فيما أتاه به فضل — فقال لعمرَ بن الخطّاب، وهم أخواله : لِئام* بنى المغيرة يا أميرَ المؤمنين . قال : وكيفَ؟ قال : نزلتُ بهم فما قَرَونى غير* قوسٍ وكعبٍ وثور* . قال عمر : إن ذلك لشبعة .

وكم قد رأينا من الأعراب < * من > نزل برَبٍّ صِرْمة ، فأتاه بلَبَن وتمر وحَيْس وخبز وسَمْنٍ سِلاء ، فبات ليلتَه ثم أصبح يَهجوه : كيف لم ينحرْ له — وهو لايعرفه* — بعيراً من ذَوْده أومن صِرمته . ولو نحرَ هذا البائسُ لـكلّ كلب مرّ به بعيراً* من مخافة لسانه* ، لما دار الأسبوع إلاّ وهُو يتعرّض للسابلة* ، يتكفّف الناس ، و يسألهم العُلَق* .

وسأل زيادٌ عن رَجل من أصحابه فقيل : إنه لملازِم ، وما يُغِبُّ غَداء الأمير . فقال زياد : فليُغِبَّه ، فإن ذلك مما يضرُّ بالعيال . فألزَموه الغِبَّ . فعابوا زيادًا بذلك . وزعموا أنه استثْقَل حُضورَه فى كل يوم ، وأراد أن يزجُر به غيره ، فيُسقط عن نفسه وعن

(٢) آخر السقط فى ب — (٩) العام ب — قرس وكعب ثور ك قرس وكعب وثور ب — (١١) < من > ساقطة فى ك و ب —(١٢) لا يعرف ك ب —(١٣—١٤) [من مخافة لسانه] ب — (١٤) للسؤال ب — [العلق] ب .

(١ — ٢) « رأيت . . . الذباب » الحيوان ٣ : ٣١٧ ، ط مصطفى البابى الحلبى ، عيون الأخبار ٢ : ٣٦ ، العقد ٤ : ٢٢٥ ط الأزهرية ، ٦ : ١٩١ ط لجنة التأليف ، البخلاء للخطيب، ورقة ٣٦ ، ٣٧ — (٢) . « وما روحتنا . . . الذباب » المحاسن والمساوى ١ : ٢٠٣ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م ، منسوباً إلى أبى نواس — (٩ — ١٠) . « نزلت . . . وثور » لسان العرب ، مادة ث ور

ماله مؤنة عظيمة . وإنما كان ذلك من زياد على جهةِ النظَر للعيالات * ، وكما ينظُر الرّاعى للرعيَّة ، على * مذهبِ عُمرَ بن الخطاب رضى الله عنه * . وقد قال الحسَن : تشبَّه زيادٌ بعمرَ فأفرط ، وتشبّه الحجّاج بزيادٍ فأهلك الناس . فجعلتُم ذلك عيباً * منه .

وقال يوسُف بنُ عُمرَ ** لقُوّام موائده : أعظموا الثَّريدة ، فإنّها لُقْمة الدرداء . فقد يحضُر طعامَكم الشيخُ الذى قد ذهب فمه ، والصبىُّ الذى لم يُنبِت * فمه . وأطعِموهم * ما يَعرفون ، فإنه أنجعُ وأشفى للقرَم . فقلتم : إنّما أراد العَجَلة والراحة ، بسُرعة الفراغ ، وأن يكيدهم * بالثريد ، ويَملأ صدورَهم بالعراق . وقد قال رسولُ الله — صلّى الله عليه وسلم — : سيِّدُ الطعام الثريد . ومثَلُ عائِشة فى النساء مثَلُ الثَّريد فى الطعام . ولعِظَم صفِة * الثريد فى أعين قريش سمَّوا عَمرَو بن عبد مناف بهاشِمَ ، حين هَشمَ الخبز واتخذ منه الثَّريد ، حتّى غَلَب عليه الاسمُ المشتقُّ له من ذلك .

وقال عَوفُ بنُ القَعْقاع ** لمولاه : اتخذْ لنا طعاماً يُشْبِع فضلُه أهلَ الموسم . قلتم : فلمّا رأى الخبزَ الرِّقاق والغِلاظ والشواء والألوان ، واستطرافَ الناس للَّون بعدَ اللون * ، ودوامَ أكلهم لدوام الطُّرَف ، وأن ذلك لو كان لوناً واحداً لكان أقلَّ لأكلهم ، قال : فهلاّ جعلتَه * طعامَ يد ، ولم تجعلْه طعام يدَيْن . فقلتم : اتّسع ثم ضاق ، حين أراد إطعامهم الثريدَ والحَيْس ، وكلّ ما يُؤكل بيدٍ دونَ يدين . و < ابن > * القعقاع عربىّ كَرِه لمولاه أن يرغَب عن * طَعام العرَب إلى طَعام العجم ، وأراد دوامَ قومِه على مثلِ

(١) للعيال ب — (٢) وعلى ك — [رضى الله عنه] ب — (٣) عنتا (فان فلوتن) — (٥) يثبت ب — وأطعموه (فان فلوتن) — (٧) يصدرهم ب — (٩) صنعة ك — (١٢) لوناً بعد لون ب — (١٤) فعلته (فان فلوتن) — (١٥) و < ابن > القعقاع ، صححنا : والقعقاع ك ب — (١٦) من (فان فلوتن)

(٢-٣) «قال الحسن . . . الناس» البيان والتبيين ٢ : ٣١ ، ط الفتوح الأدبية ، عيون الأخبار ١ : ٣٢١

ما كانوا عليه . وعلى أن الترفة * تفتّخهم * وتُفسدهم ، وأنّ الذى فُتح عليهم من باب الترفة أشدُّ عليهم مما أغلق * عليهم من باب فُضول اللذة . وقد فَعَل عمرُ من جِهة التأديب أكثر من ذلك ، حين دُعِى إلى عُرس ، فرأى قِدراً صفراء وأخرى حمراء ، وواحدة ٣
مُرّة وأخرى حُلوة ، وواحدة محمَضة . فـكدَرها كلّها فى قِدر عظيمة . وقال : إن العربَ إذا أكلت هذا قتلَ بعضُها بعضاً .

(١) الترفة ، صححنا : التردة ك ، الثروة (فان فلوتن) ، الفرقة ب — تفتخهم : كذا الأشبه فى ك ، تفنخهم (فان فلوتن) ، تفتحهم ب . وقارن فى هذا نص الجاحظ فى البيان والتبين ٣ : ١٠ (ط ١٩٣٢) : «... كراهية أن يتكلوا على بعض ما يورثهم الاسترخاء والتفتخ ، ويضاهئون أصحاب الترفة والنعمة» — (٢) غلق (فان فلوتن) .

*تفسير كلام أبى فاتك

أما قوله : الفتى لا يكونُ نشّالا ، « فالنشال » عنده : الذى يتناوَلُ من القِدر ، ويأكُل قبلَ النُّضج ، وقبلَ أن تنزِل القِدر ويتتامّ القوم .

و « النشّاف * » : الذى يأخذُ حَرفَ الجرذقة ، فيفتحهُ ، ثم يغمسُه فى رَأس القِدر ، ويشرِّبه الدسَم . يستأثِر بذلك دون أصحابه .

و « المِرسال » رجلان : أحدهما إذا وضعَ فى فيه * لُقمة هريسة أو ثَريدة أو حَيْسة أو أرُزّة ، أرسلها فى جَوْف حَلقه إرسالاً . والوجهُ الآخر : هو الذى إذا مَشَى فى أشَب من فَسيل أو شَجَر ، قَبضَ على رأس السَّعَفة ، أو على رأس الغصن ، لينَحِّيها عن وجهه ، فإذا * قضى وطرَه أرسلها مِن يده . فهى لامحالةَ تصكُّ وجهَ صاحبِه الذى يتلوه ، لايحفلُ بذلك ، ولا يعرف ما فيه .

وأما « اللكّام » : فالذى فى فيه اللُّقمة ، ثم يلكُمها بأخرى قبلَ إجادة مضغها أو ابتلاعها .

و « المصّاص »: الذى يمصُّ جوفَ قَصَبة العَظم ، بعد أن استخرجَ مخّه ، واستأثر به دون أصحابه .

وأما « النفّاض » : فالذى إذا فرَغ من غسل يده فى الطَّست نَفَض يديه من الماء ، فنضح على أصحابه .

وأما « الدلّاك » : فالذى لا يجيدُ تنقيَة يَدَيه بالأشْنان ، ويجيدُ دَلكها بالمِنديل .

وله أيضاً تفسير آخر ، وليس هو الذى تظنّه * ، وهو مليح ، وسيقع فى موضعه إن شاء الله .

---

(١) أول سقط فى ب ينتهى عند قصة الكندى – (٤) والمنساف كا – (٦) فمه (فان فلوتن) – (٩) وإذا (فان فلوتن) – (١٨) تظنه (مرسيه) : نظنه كا ، نظنه (فان فلوتن) .

و «المقوّر» : الذى يقوِّر الجَرَاذِق، و يستأثر بالأوساط ، و يدَعُ لأصحابه الحروف .

و « المغربِل » : الذى يأخذُ وِعاء الملح ، فيديرُه إدارةَ الغِربال ليجمعَ أبازيره ، يستأثرُ به دونَ أصحابه . لا يبالى أن يدعَ مِلحهم بلا أبزار .

و «المحلقم» : الذى يتكلّم واللُّقمة قد بلَغت حُلقومه . نقول لهذا : قبيح ! دع الكلام إلى وقت إمكانه .

و « المسوِّغ» : الذى يُعظِّم اللُّقَم ، فلا يزالُ قد غَصَّ ، ولا يزال يسيغه بالماء .

و «الملغِّم*» : الذى يأخذ* حُروف الرغيف، أو يغمزُ ظهرَ التمرة بإبهامه : ليحمِلا* له من الزُّبد والسمن ، ومن اللِّبَأ واللبن ، ومن البَيْض النيمبرشت ، أكثرَ .

و « المخضِّر » : الذى يدلُك يَدَه بالأُشْنان من الغَمَر والوَدَك ، حتى إذا اخضَرَّ واسوَدَّ من الدَّرَن ، دلَك به شفتَه .

هذا تفسيرُ ما ذكَرَ الحارثىّ من كلام أبى فاتك ، فأما ما ذكره هو* :

فإنّ « اللطّاع » معروف ، وهو الذى يلطَع إصبعه ، ثم يعيدُها فى مَرَق القوم أو لبنهم أو سَوِيقهم وما أشبهَ ذلك .

و « القطّاع » : الذى يعَضُّ على اللُّقمة ، فيقطَع نِصفَها ، ثمّ يغمسُ النصفَ الآخَر فى الصِّباغ .

و « النهَّاش» : هو* معروف ، وهو الذى ينهش اللحمَ كما ينهشُ السبعُ .

و « المدَّاد » : الذى ربما عضَّ على العَصَبة التى* لم تنضَج ، وهو يمدُّها بفيه ، ويدُه توتِّرها له. فربَّما قطَعها* بنَتْرة ، فيكون لها انتضاحٌ على ثَوْب المؤاكل . وهو : الذى إذا أكل مع أصحابه الرُّطَب أو التمر أو الهريسة أو الأرُزَّة ، فأتى على ما بين يديه ، مدَّ ما بين أيديهم إليه .

و « الدفّاع » : الذى إذا وَقَع فى القصعة عظمٌ ، فصار مما يليه ، نحّاه بلقمة من الخبز ،

---

(٧) الملغم : المبلغم ك — أخذ (فان فلوتن) — ليحملان ك — (١١) [هو] (فان فلوتن) — (١٦) وهو (فان فلوتن) — (١٧) العصب الذى ك — (١٨) قطعه ك .

حتى تصير مكانه قطعة من لحم . وهو فى ذلك كأنه يطلب بلُقمته تشريبَ المرق ، دون إراغة اللحم .

و«والمحوِّل» : هوالذى إذا رأى كثرةَ النوى بين يديه ، احتال له حتى يخلطَه بنوى صاحبه.

وأما ما ذكره < من > * الضيف والضَّيْفن ، فإنّ الضيفنَ ضيفُ الضيفِ . وأنشدَ أبو زيد :

إذا جاء ضيفٌ جاء للضيف ضَيْفَن فأودَى بما يُقرَى الضيوفُ الضيافِن

يقول : الأكيل لا يكون إلاّ بالمعاينَة ، وقد يكونُ الضيفُ — وإن كان < معه الضيفن > * — لا يؤاكل من أضافه. يقول : فأكل الكثيرمن حيثُ لا أراه أهونُ علىّ .

وأما قوله : « * الواغل أهونُ علىّ من الرّاشِن * » فإنه يزعمُ أنّ طفيلى الشراب أهونُ علىّ * من طفيلىّ الطعام .

وقول الناس فلانٌ طفيلىٌّ ليس من أصول كلام العرب ، ليس كالراشن واللُّموظ . وأهل مكة يسمُّونه البُرَقىّ .

وكان بالكوفة رجلٌ من بنى عبدِ الله بن غَطَفَان يسمّى « طُفَيل » ** : كان أبعد الناس نُجعة فى طَلَب الولائم والأعراس ، فقيل له لذلك « طُفَيل العرائس » ، وصار ذلك نَبْزاً له ، ولقباً لا يُعرَف بغيره . فصار كلٌّ من كانت تلك طِعمته يقال له « طفيلى » . هذا من قَول أبى اليقظان ** .

ثم قال الحارثى :

وأعجبُ من كلِّ عجَب ، وأطرفُ من كلِّ طريف ، أنكم تشيرون على بإطعام الأكلة ودفعى إلى الناسِ مالى . وأنتُم أتركُ لهذا منى . فإن زَعمتم أنى أكثر مالاً ، وأعدّ عُدة ،

(٤) < من > ساقطة فى ك — (٨) < معه الضيفن > (فان فلوتن) : ليست فى ك — (١٠) الراشن . . . الواغل ك — (١١) لعله : عليه

(١) «إذا . . . الضيافن» تهذيب الألفاظ ص ٦١٧ ، مبادىء اللغة للاسكافى ، ص ٧٢ ، ط السعادة ، القاهرة (٢٠ — ٧٩ : ٣) «وأنتم . . . شطره» عيون الأخبار ٣ : ٢٥٤ .

فليس بين * حالى وحالكم فى التقارب ، أن أطعمَ أبداً ، وأنتم تأكلون أبداً . فإذا أتيتم * فى أموالكم من البذل والإطعام ، على قدر احتمالكم ، عرفتُ بذلك أنّ الخيرَ أردتم ، وإلى تزيينى * ذهبتم . وإلاّ فإنكم إنما تحلبون حَلَبًالكم شَطره . بل أنتم كما قال الشاعر :

يحبُّ الخمرَ من مال النَّدامى ويكره أن تفارقَه الفُلوس

ثم قال :

والله إنى لولم أترك مؤاكلة الناس وإطعامَهم ، < إلا > * لسُوء رِعة علىّ الأسوارىّ لتركتُه . وما ظنُّكم برَجُل نهَش بَضعة لحم تعرُّقًا ، فبَلَع ضِرسَه وهو لا يعلم . فعل ذلك عند إبراهيمَ بنِ الخطّاب ، مَوْلى سُليم * . وكانَ إذا أكلَ ذهب عقلُه ، وجَحَظت عينُه ،وسكِر وسدِر وانبهر ، وتربّد وجهه ، وعَصِب * ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلمّا رأيتُ ما يعتريه وما يعترِى الطعام منه ، صرتُ لا آذَن له إلا ونحن نأكل التمرَ والجوْزَ والباقلّى . ولم يفجَأنى قطّ وأنا آكلُ تمْراً إلا استفّه سفًّا ، وحساه حسواً ، وزدا به زدْواً * . ولا وجده كنيزاً * إلا تناول القطعة * كجُمْجُمة الثَّور ، ثم يأخذُ بحِضنَيها ، ويُقِلّها من الأرض . ثم لا يزالُ ينهشُها طولا وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتىَ عليها جميعاً . ثم لا يقعُ غضبه * إلا على الأنصاف والأثلاث * . ولم يفصِل تَمْرة قطّ من تمرة . وكان صاحبَ جُمَل ولم يكن يرضى بالتفاريق . ولا رَمَى بنواة قطّ ، ولا نَزَع قمعًا ،

(١) بين (مرسيه) : من ك – ابيتم ك – (٣) تزيينى (عيون الأخبار) : بوبى ك ، تربيتى (فان فلوتن) – (٦) < الا > (فان فلوتن) : ليست فى ك – (٨) سليمان (فان فلوتن) – (٩) وغصب (فان فلوتن) (١٢) وردا به ردوا ك ، وذرا به ذروا (فان فلوتن) – كنيزاً (عيون الأخبار) : كثيراً ك – القطعة (عيون) : القصعة ك – (١٤) عصبه ك ، غصبه (فان فلوتن) ، عضه (عيون) – والاتلاف ك

(٦ – ص ٨٠ : ١) « إنى لو . . . والدود » عيون الأخبار ٣ : ٢٢٩ – ٢٣٠

ولا نفى عنه قشراً ، ولا فتّشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيتهُ قطّ إلاّ وكأنه طالبُ ثأر ، وشَحْشحَان صاحبُ طائلة . وكأنه عاشِق مغتَلِم ، أو جائع مقرور .

٣ والله يا إخوتى لو رأيتُ رَجُلا يفسد طين الردَغة ، ويضيع ماء البحر ، لصرفتُ عنه وجهى . فإذا كان أصحابُ النظر وأهل الديانة والفلسفة ، هذه سيرتهم ، وهكذا أدبهم ، فما ظنكم بمن لا يُعَدُّ ما يعدّون . ولا يبلغُ من الأدب حيثُ يبلغون .

قصة الـكندىّ

حدثنى عمرو بن نُهيوىّ قال :

كان الـكِنْدىّ لا يزال يقول للساكن ، وربَّما قال للجار : « إنّ فى الدّار امرأة بها حَمْل ، والوَحْمى ربما أسقَطَت من ريح القِدر الطيِّبة ، فإذا طَبَختم فردُّوا شهوتها ولو بغَرفة أو لَعقة ، فإنّ النفس يردُّها اليسير . فإن لم تفعلْ ذلك بعدَ إعلامى إيّاك ، فـكفَّارتك إن أسقطتْ غُرَّة : عبدٌ أو أمة ، ألزمتَ ذلك نفسَك أم أبيت » قال : فـكان ربمايوافى إلى منزله مِن قِصاع السكَّان والجيران ما يكفيه الأيام وكان * أكثرُهم يفطَن ويتغافَل . وكان الـكندىّ يقول لعياله : أنتم أحسن حالاً من أرباب هـذه الضياع . إنما * لـكلّ بيتٍ منهم لوْن واحد وعندكم ألوان .

* قال : وكنتُ أتغدَّى عنده يوماً ، إذ دخل عليه جارٌ له . وكان الجارُ لى صديقاً . فلم يعرض عليه الغَداء . فاستَحْييت أنا منه فقلتُ : لو أصبتَ معنا ممَّا نأكل . قال : قد — والله — فعلت . قال الـكِندى : ما بعد الله شىء . قال : فـكتَفه والله — ياأباعثمان — كَـتْفاً لا يستطيعُ معه قَبضاً ولا بَسْطاً ، وتَركه ولو أكل لشَهِد عليه بالـكُفر ، ولـكان عندَه قد جَعل مع الله شيئاً * .

قال عَمْرو : بينا أنا ذاتَ يوم عندَه إذ سَمع صوت انقلابِ جرَّةٍ مِن الدار الأخرى : فصاح : أىْ قصافِ ! فقالت ، مجيبةً له : بئر * وحياتك ! فـكانت الجارية فى الذكاء ، أكثرَ منه فى الاستقصاء .

---

(٧) [و] كان ك ، < وان > كان (فان فلوتن) — (٩) فلن ب — (١٠ — ١٤) [قال وكنت . . شيئاً] ب — (١٦) < ماء > بئر ب

(٢ — ٦) « قال كان . . . أمة » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٨

قال مَعبد : نزلنا دارَ الـكِندىِّ أكثرَ من سَنة ، *نروِّج له الـكِراء* ونقضِى له الحوائج ، ونفى له بالشرط . قلت : قد فهمتُ ترويج* الكراء ، وقضاءالحوائج . فما مَعْنى الوفاء بالشرط ؟ قال : فى شَرطه على السُّكَّان أن يكونَ له رَوْثُ الدابة ، وبعرُ الشاة ونَشْوار العلوفة ، وألا يُلقوا* عظماً ، *ولا يخرجو كُساحة* . وأن يكون له نَوى التمر ، وقشورُ الرُّمان ، والغَرفةُ من كلِّ قدر تطبخ للحبلى فى بيته . وكان فى ذلك يتنزَّل عليهم. فـكانوا لِطيبه و إفراط بُخله وحُسنِ حديثه يحتملون ذلك .

قال معبد** : فبينا أنا كذلك إذ قدم ابن عمٍّ لى ومعه ابنٌ له ، و إذا *رقعةٌ منه قد جاءتنى : « إن *كان مُقام هذين القادِمين ليلةً أو ليلتين ، احتملناذلك . و إن كان إطماعُ السكَّان فى الليلة الواحدة، يجرُّ علينا الطمعَ فى الليالى الـكثيرة » . فكتبتُ إليه : « ليس مقامُهما عندَنا إلا شهراً أونحوه » . فـكتب إلىَّ : « إنَّ دارَكَ بثلاثين درهماً، وأنتم ستَّة ، لـكلِّ رأس* خمسة . فإذ قد زدتَ رَجُلين، فلابدَّ من زيادة خمستين . فالدارُ عليكَ من يومِك هذا بأربعين » . فـكتبتُ إليه : « وما يضرُّك من مقامُهما ، وثقلُ أبدانهما على الأرض التى تحمِل الجبال ، وثِقَلُ مَؤُنتهما علىَّ دونك ؟ فاكتب إلىَّ بعُذرك لأعرفَه » .ولم أدرِ أنى أهجُم على ما هَجَمت، وأنى أقع منه فيما وقعت فـكتب إلى :

« الخصالُ التى تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهى قائمة معروفة . من ذلك سرعةُ امتلاء البالوعة ، وما فى تنْقيتها من شدَّة المؤنة . ومن ذلكأنَّ الأقدامَ إذا كثُرت ، كثُر المشىُ على ظهور *السُّطوح المطيَّنة ، وعلى أرض البيوت المجصَّصة ، والصعودُ على الدَّرَج الـكثيرة. فينقشِر لذلك الطين ، وينقلِع الجصّ ، وينكسر العَتَب. مع انثِناء الأجذاع لـكثرةالوطء وتـكسُّرهالفرْط الثقل . و إذا كثُرالدُّخول والخروجُ والفتحُ والإغلاقُ والإقفالُ وجذبُ* الأقفال، تهشمت* الأبواب وتقلَّعت* الرزَّات* . و إذا كثُر الصِّبيان، وتضاعف البوْش*

[(١) يأخذ الكرى ب – (٢) أخذ ب – (٤) يخرجوا ك – [ولا . . . كساحة] ب – (٧) [و] إذا ك – (٨) < وفيها > ان ب – (١١) واحد ب – (١٧) ظهر ب – (١٩) وجدت ب – (٢٠) والأبواب تقلعت ب – [الرزات] ب – البوس ت

(١ – ٦) «قال معبد . . . ذلك» عيون الأخبار ٣ : ٢٥٩ .

نُزِعَت مسامير الأبواب ، وقُلِعت كلّ ضَبَّة ، ونزعت كلّ رَزّة ، وكسرت كل حَوزة ، حفر فيها آبار * الزدو * ، وهشّموا بلاطَها بالمداحى . هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخَشَب الرفوف .

و إذا كثُر العيالُ والزوّار ، والضِّيفان والنُّدَماء ، احتيج من صَبّ الماء واتّخاذ الحبَبَة القاطِرة ، والجِرار الرّاشِحة ، إلى أضعافِ ما كانوا عليه . فكم من حائط قد تأكّل أسفله ، وتناثر أعلاه ، واستَرخى أساسه ، وتداعى بنيانهُ ، من قَطْر حُبٍّ ورشح جرّة ، ومن * فَضل ماء البئر ، ومن سُوء التدبير . وعلى قَدر كثرتِهم يحتاجون من الخَبيز والطبيخ ومن الوقُود والتسخين . والنارُ لا تُبقى وَلا تَذَر . و إنما الدورُ حَطَبٌ لها . وكلُّ شىء فيها من مَتاع فهو أُكُل لها . فكم من حريقٍ قد أتى على أصل الغلّة . فكلّفتم أهلها أغلظ النفقة . وربّما كان ذلك عند غاية العُسرة ، وَشِدَّة الحال . وربّما تعدَّت تلك الجناية إلى دُور الجيران ، و إلى مُجاورة الأبدان والأموال . فلو ترَك الناسُ حينئذٍ ربّ الدار وَقدرَ بليّته ومقدارَ مصيبته ، * لكان عَسَى ذلك أن يكونَ مُحتَمَلاً * . ولكنهم يَتَشاءمون به ، وَلا يزالون يَسْتَثقلون ذكره ، ويُكثرون من * لا ئمته وتَعْنيفه * .

نعم * ثمّ يتّخذون المطابخَ فى العلالىّ على ظهور السُّطوح ، و إن كان فى أَرض الدار فَضل وفى صَحنها متّسع . مع ما فى ذلك من الخِطار بالأنفس ، والتغرير بالأموال ، وتعرُّض الحُرَم ليلَة الحريق لأهل الفساد ، وهجُومِهم مع ذلك على سِرٍّ مكتوم ، وخبء مستور : من ضَيفٍ مُستخفٍ ، وربّ دارٍ مُتَوارٍ ، ومن شراب مكروه ، وَمن كِتاب مُتّهم ، وَمن مال جمّ أُريدَ دفنهُ ، فأعجَلَ الحريقُ أهله عن ذلك فيه * ، ومن حالاتٍ كثيرة ، وأمور لا يحبُّ الناسُ أن يعرَفوا بها . ثم لا * ينصبون * التنانير ، ولا يمكّنون * للقدُور * ، إلّا * على مَتْن السطح ، حيثُ ليسَ بينَها و بينَ القَصَب والخشب إلّا الطينُ الرقيق والشىء

---

(٢) الردو ك ، الددن (فان فلوتن) — (٦) [و] من ك — (١٢) لكان [عسى] ذلك [أن يكون] محتملا ب — (١٣) لومه ويعنفوه ب — (١٤) [نعم] ب — (١٨) [فيه] ب — (١٩) [لا] ب — [التنانير ولا يمكنون] ب — القدور ب — [إلا] ب .

لا يقى * . هذا مع خِفَّة المؤنة فى إحكامها وأمن القلوب من المتالف بسَبَبها . فإن كنتم تُقْدِمون على ذلك منّا ومنكم وأنتم ذاكرون ، فهذا عَجَب * وإن كُنتُم لم تحفِلوا بما عليكم فى أموالنا ، ونَسيتم * ما عليكم فى أموالكم ، فهذا أعجب .

ثمّ * إن كثيراً منكم يُدافع بالكِراء ، ويماطِل بالأداء . حتّى إذا اجتمعت * أشهرٌ عليه فرّ وخلّى أربابَها جِياعاً ، يتندّمون على ما كان من حُسن تقاضيهم وإحسانهم . فكان جزاؤهم وشكرُهم اقتطاعَ حقوقهم ، والذّهاب بأقواتهم .

ويَسكنها الساكنُ حين يسكنُها ، وقد كَسَحناها * ونظّفناها ، لتحسُن فى عَيْن المستأجر ، وليرغبَ فيها الناظر . فإذا خَرَج ترك فيها مز بلة وخراباً ، لا تصلِحه إلا النفقةُ الموجِعة ، ثم لا يدع مَتْرساً إلا سرَقه ، ولا سَلّماً إلا حمله ، ولا نقضاً * إلا أخذه ، * ولا برادة إلّا مضى بها معه * ، ويَدَعُ * دقّ الثوب ، والدقَّ فى الهاون * والمنحاز * * فى أرض الدار . ويدقّ * على الأجذاع والحواضِن والرّواشِن ، وإن كانت الدار مُقرمَدة أو بالآجرّ مفروشة ، * وقد كان صاحبُها * جَعَل فى ناحيةٍ منها صَخْرة ، ليكون الدقُّ عليها ، ولتكون واقيةً دونها . دعاهم التّهاون والقسوةُ ، والغشُّ والفُسولة إلى أن يدقوا حيث جَلَسوا ، وإلى ألّا يحفِلوا بما أفسدوا . لم يُعط قط لذلك أرْشاً ، ولا استحلّ صاحبَ الدار ، ولا استغفر الله منه فى السرّ . ثم يستكثرُ من نفسه فى السنة إخراجَ عشرة دراهم ، ولا يستكثرُ من رب الدار ألفَ دينار فى الشهر * . أيذكرُ ما يصير إلينا مع قلّته ، ولا يذكرُ ما يصير إليه مع كثرته ؟

* هذا والأيام التى تنقض المبرَم ، وتُبلى الجِدّة ، وتفرّق الجميع المجتمع ، عاملةٌ فى الدور

(١) < الذى > لا يقى ب – (٢) اعجب ك ب – (٣) نسيتم ك – (٤) من ك ب – جمعت (فان فلوتن) – (٧) كنسناها ب – (٩) مسمارا ب – (١٠) [ولا برادة . . . معه] ب – و < لا > يدع ب ، (فان فلوتن) – المنجاز ك ب ، المنجان (فان فلوتن) – (١١) ويدع ك – (١٢) ويكون صاحب الدار ب – (١٦) الشهر ، صححنا : الشرك ، الشراء ب (فان فلوتن) – (١٨) أول سقط فى ب إلى قوله : ولا تأمنوهم على حال (ص ٩٠ : ١٨)

كما تعملُ فى الصخور ، وتأخذ من المنازل كما تأخذُ من كلِّ رطب و يابس ، وكما تجعلُ الرَّطب يابساً ، واليابس * هشيماً ، والهشيمَ مضمَحِلاً .

ولانهدام المنازل غايةٌ قريبةٌ ، ومدَّة قصيرة . والساكنُ فيها هو كان المتمتعَ بها ، والمنتفعَ بمرافقها . وهو الذى أبلى جِدَّتها و < ذهب > * بحلاها ، و به هَرِمت وذهبَ عمرها ، لسوء تدبيره . فإذا قِسْنا الغُرم عند انهدامها بإعادتها ، و بعد ابتدائها ، وغُرم ما بين ذلك من مرمَّتها و إصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاَّتها ، وارتَفَقْنا به من إكرائها ، خرج على المُسكِن من الخُسران ، بقدر ما حصَل للساكن من الربح . إلّا أن الدراهم التى أخرجناها من النفقة كانت جملة ، والتى أخذناها على جهة الغلَّة جاءت مقطَّعة . وهذا مع سُوء القضاء ، والإحواج إلى طُولِ الاقتضاء ، ومع بغض الساكن للمُسكن ، وحبِّ المُسكنِ للساكن. لأن المُسكن يحبُّ صحَّة بدن الساكن ، ونفاقَ سوقه إن كان تاجراً ، وتحرُّكَ صناعتِه إن كان صانعاً . ومحبَّةُ الساكن أن يشغلَ الله عنه المسكن كيفَ شاء . إن شاء شغله بعينه * ، و إن شاء بزمانه ، وإن شاء بحَبْس ، و إن شاء بمَوْت ومدارُ مُناه أن يُشغل عنه . ثمَّ لا يُبالى كيفَ كان ذلك الشُّغل ، إلاَّ أنه كلَّما كان أشدَّ كان أحبَّ إليه ، وكان أجدَر أن يأمَن ، وأخلقَ لأن يسكُن . وعلى أنه إن فترت سُوقُه أو كسَدَت صِناعته ، ألحَّ فى طلب التخفيف من أصل الغلَّة ، والحطيطة ممَّا حصل عليه من الأجرة . وعلى أنه إن أتاه اللهُ بالأرباح فى تجارته ، والنَّفاق فى صِناعته ، لم يَرَ أن يزيد قيراطاً فى ضَريبته ، ولا أن يُعجِّل فَلساً قبل وقته .

ثم إن كانت الغلَّة صِحاحاً دفعَ أكثرها مقطَّعة ، و إن كانت أنصافاً وأرباعاً دفعها قُراضه مفتّتة . ثم لا يدعُ مزبَّقاً * ولا مكحلاً ولا زائفاً ولا ديناراً بَهْرَجاً إلّا دسّه فيه ودلّسه عليه ، واحتالَ بكلِّ حيلة ، وتأتّى له بكلِّ سَبَب. فإن ردُّوا عليه بعد ذلك شيئاً ، حلفَ بالغَموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله ، ولا رآه قطّ ولا كان فى مِلكه . فإن كان الرسول

(٢) [واليابس] (فان فلوتن) — (٤) و < ذهب > بحلاها ، صححنا : بحلاها ك — (١٢) بغيبه (مرسيه) — (١٩) مرتعاً ك .

جارية ربٍّ الدار أفسدها وربما أحبلها، وإن كان غلاماً خدعه وربما شطر به. هذا مع التشرّف* على الجيران والتعرّض للجارات، ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم. وربما استضعف عقولهم، وطمع فى فسادهم وعيبهم. فلا يزال يضربُ لهم بالإسلاف، ويُغريهم بالشهوات، ويفتحُ لهم أبواباً من النفقات، ليُعْيِيَهم* ويربح عليهم. حتى إذا استوثق منهم، أعجلهم وحزّق بهم، حتى يتّقوه ببيع بعض الدار، أو باسترهان الجميع، ليربحَ — مع الذهاب بالأصل — السلامة، مع طول مُقامه —، من الكراء. وبما جعله بيعاً فى الظاهر، ورهناً فى الباطن، فحينئذٍ يقتضيهم* دون المهلة، ويدّعيها قبل الوقت.

وربّما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء، أنْ يدعى أن له شقيصاً وأن له يداً ليصيرَ خصماً من الخصوم، ومنازعاً غير غاصب. وربما أخذهم* ومعه امرأةٌ يفجرُ بها، فيجعَلُ استئجارَ البيوت وتصفُّح المنازل، علة لدُخولها والمقام ساعة فيها. فإذا استقرّ فى المنزل، قضى حاجتَه منها، وردَّ المفتاح. وربما اكترى المنزلَ وفيه مرمّة، فاشترى بعض ما يُصلِحُها، ثم يتوخّى عاملاً* جيّدَ الكُسوة، وجيراناً* أصحابَ آنية وآلة، فإذا شُغِل العاملُ وغفَل، اشتمَل على كلٍّ ما قدَر عليه، وتركهم يتسكّعون. وربما استأجَر إلى جَنب سجن لينقُب أهلُه إليه، وإلىٰ جَنب صرّاف لينقبَ عليه، طلباً لطُول المُهلة والستر، ولطول المدة والأمن. وربّما جَنى الساكنُ ما يَدْعو إلى هَدْم دار المُسكن، بأن يقتل قتيلاً أو يجرَح شريفاً، فيأتى السلطانُ الدّار — وأربابُها إمّا غُيَّب وإما أيتام وإما ضُعَفاء — فلا يصنع شيئاً دون أن يسوِّيها بالأرض.

وبعد فالدُّور ملقّاة، وأربابُها منكوبون ومُلقَّون. وهم أشدُّ الناس اغتراراً بالناس، وأبعدُهم غايةً من سَلامة الصدور. وذلك أن من دفَع داره* ونقْضها وساجَها وأبوابها*، مع حديدها وذهب سقوفها، إلى مجهولٍ لا يُعرف، فقد وَضَعها فى مَواضع الغرَر وعلى

(٢) التشرف، صححنا: الشرف ك — (٤) ليعييهم: ليعيهم ك، (فان فلوتن)، ليغنهم (دى جويه) — (٧) يقتضيهم، صححنا: يقطنهم ك، يفظ بهم (فان فلوتن) — (٩) كذا فى ك، ولعلها — كما يدل السياق —: «وربما أخذ < المفتاح > منهم». (١٢) عاملا (فان فلوتن): غلاما ك — وجيرانا ك، ولعلها وصبيانا — (١٩) ونقضه وساجه وأبوابه ك.

أعظم* الخطر . وقد صار فى معنى المُودِع ، وصار المُكتَرِى فى موضِع المودَع . ثم ليستْ الخيانة وسُوء الوَلاية إلى شىء من الوَدائع أسرعَ منها إلى الدور . وأيضاً إنّ أصلح السكان حالاً من إذا وجد فى الدار مَرَمّة فوّضوا* إليه النفقة ، وأن يكونَ ذلك محسوباً عند الأهلَّة ، الذى* يُشفِّف فى البناء ويزيد فى الحساب . فما ظنّك بقوم هؤلاء أصلحُهم وهم خِيارهم . وأنتم أيضاً ربما* أكرَيتُم* مستَغلّات غيركم ، بأكثرَ مما اكتريتموها منه . فسِيروا فينا كسيرتِكم فيهم ، وأعطونا من أنفُسِكم مثلَ ما تريدونه* منهم . وربما بنيتُم فى الأرض ، فإذا صار البناء بنيانَكم — وإن كانت الأرضُ لغيركم — ادَّعيتم الشركة ، وجعلتموه كالإجارة ، وحتى تصيِّروه كتِلاد مال أو مُورَث* سَلَف .

وجُرمٌ آخر ، وهو أنكم أهلكتُم أصول أموالنا ، وأخربتم غلّاتِنا ، وحطَطتم بسُوء معاملتِكم أثمان دورنا ومُستَغلّاتنا ، حتى سَقَطت غلاتُ الدور من أعين المياسير وأهل الثّروة ، ومن أعيُن العوامّ والحُشوة . وحتى تدافعوكم بكل حيلة ، وصرّفوا أموالهم فى كلّ وجه ، وحتّى قال عُبَيد الله بنُ الحسن قولا أرسله مَثَلا ، وعاد علينا حجّة وضررا . وذلك أنه قال: « غلّة الدار مسكة* وغلّة النخل كَفاف، وإنما الغلّة غلّة الزرع والنّسولتين». وإنما جرّ ذلك علينا حسنُ اقتِضائنا ، وصَبرُنا على سوء قضائكم . وأنتم تقطّعونها علينا وهى عليكم مُجملة ، وتُلوونا بها وهى عليكم حالّة . فصارت كذلك* غلّات الدور — وإن كانت أكثرَ ثمناً ودَخْلاً — أقلّ يمناً وأخبثَ أصلاً ، من سائر الغلّات .

فأنتم* شرٌّ علينا من الهِند والروم ومن التُّرك والدَّيلم ، إذ كنتُم أحضرَ أذى وأدوَمَ

---

(١) عظم (فان فلوتن) — (٣) فوضوا ك ، فوضعوا (فان فلوتن) — (٤) [الذى] (فان فلوتن) — (٥) ربما (مرسيه) : إنما ك — اكبر تم ك — (٦) ترويدونه ك ، تزويدوا به (فان فلوتن) ، ترتادونه (مرسيه) — (٩) موروث (فان فلوتن) — (١٣) مسكة (عيون الأخبار) ؛ مسألة ك — (١٥) لذلك (فان فلوتن) — (١٧) وأنتم (فان فلوتن) .

---

(١٤) « غلة . . . النسولتين » عيون الأخبار ١ : ٢٥٢ ، العقد الفريد ٣ : ٣٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

شرًّا . ثم كانت هذه صفتُكم وحِلْيتكم ومعاملتُكم فى شىء لا بدَّ لكم منه ، فكيفَ كنتُم لو امتُحِنتم بما لكم عنه مندوحة والوجوه لكم فيه مُعرِضة ، وأنتم فيه بالخِيار وليس عليكم طَريقٌ للاضطرار* ؟

وهذا مع قولكم : إن نزولَ دورِ الكِراء أصوبُ من نزول دُور الشراء . وقلتم : لأن صاحبَ الشراء قد أغلق رهنَه وأشرط نفسَه ، وصار بها ممتَحناً و بثمنها مرتَهَناً . ومن اتَّخذ دارًا ، فقد أقام كَفيلاً لا يَخفُر وزعيماً لا يغرم . وإن غاب عنها حنَّ إليها ، وإن أقام فيها ألزمته المُؤَن وعرَّضته للفِتَن : إن أساءوا جوارَه ، وأنكَر مكانَه ، وبَعُدَ مُصلَّاه ، ونأت* عنه سوقُه ، وتفاوتَتْ حوائجُه ، ورأى أنه قد أخطأ فى اختيارها على سواها ، وأنه لم يوفَّق لرُشده حين آثرها على غيرها . وإنَّ من كان كذلك ، فهو عبدُ داره وخوَل جاره.

وأن صاحبَ الكراء الخيارُ فى يده والأمرُ إليه ، فكلُّ دار هى له متنزَّه إن شاء ، ومتجر إن شاء ، ومَسْكن إن شاء . لم يحتَمِل فيها اليسيرَ من الذلّ ، ولا القليلَ من الضَّيْم ، ولا يعرف الهوَان ، ولا يُسَام الخسْف ، ولا يحترِسُ من الحسَّاد ، ولا يدارى المتعلِّلين .

وصاحبُ الشراء يجرَّع المُرار ، ويُسْقى بكأسِ الغيظ ، ويُكدُّ بطلَب* الحوائج ، ويحتَمِل الذِّلة وإن كان ذا أنَفة . إن عفا عفا على كظْم ، ولا يُوجَّه ذلك منه إلّا إلى العَجْز ، وإن رام المكافأة تعرَّض لأكثر مما أنكره . قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: « الجارُ قبل الدار ، والرَّفيق قبلَ الطريق » .

وزعمتُم أنّ تسقُّط الكِراء أهون ، إذا كان شيئاً بعدَ شىء . وأنّ الشدائد إذا وقعت جُملة ، جاءت* غامرة للقوَّة* فأما إذا تقطَّعُ* وتفرَّق ، فليس يكترِثُ لها إلّا من تفقَّدها وتذكرها . ومال الشِّراء يخرج جُملة ، وثُلمته فى المال واسعة وطَعنته نافذة . وليسَ كلُّ خَرق يُرقَع ، ولا كلُّ خارج يرجِع . وأنه قد أمِن من الحرق* والغرَق وميل* أسطُوان وانقِصاف سهم واسترخاء أساس وسُقوط سِترة وسوء جوار وحَسَدِ مُشاكل ،

(٣) الاضطرار (فان فلوتن) — (٨) ومات (فان فلوتن) — (١٣) ويكد الطلب ك — (١٣) وجاءت ك — لتقوت (مرسيه) : « وجاءت غامرة لتقوت » — انقطع ك — (٢٠) الحرق ك (فان فلوتن) — مثل ك .

وأنه إمَّا لا يزالُ فى بلاء ، وإما أن يكونَ متوقِّعاً لبلاء . وقلتُم : إن كان تاجراً فتصريف ثمن الدار فى وجُوه التِّجارات أربح ، وتحويلُه فى أصناف البياعات أكيَس . وإن لم يكن تاجراً ، ففى ما وصفناه له ناهٍ وفيما عَدَدنا له زاجر . فلم تمنعكم حُرمة المساكنة وحقّ المجاورة والحاجة إلى السُّكنى ومُوافقة المنزل ، أن أشرتُم على الناس بتَرْك الشراء . وفى كَساد الدُّور فَساد لأثمان الدور ، وجُرأة للمستأجر ، واستِحْطاط من الغلّة ، وخسرانٌ فى أصل المال . وزعمتم أنكم قد أحسنتم إلينا حينَ حثثتم الناس على الكِراء ، لما فى ذلك من الرَّخاء والنَماء . فأنتم لم تريدوا نفعَنا بترغيبهم فى الكِراء ، بل إنما أردتم أن تضرُّونا بتزهيدِكم فى الشِّراء . وليس ينبغى أن يُحكم عن كلِّ قوم إلا بسبيلهم * ، وبالذى يغلِبُ عليهم من أعمالهم .

فهذه الخصال المذمومة كلّها فيكم ، وكلّها حُجّة عليكم ، وكلّها داعيةٌ إلى تُهَمَتكم وأخذ الحِذْر منكم . وليست لكم * خَصلة محمودة ، ولا خَلَّة فيما بيننا وبينكم مَرضيَّة .

وقد أرَيْنا كم أنَّ حُكم النازلين كحُكم المقيمين ، وأنّ كلَّ زيادة فلها نصيبٌ من الغلّة . ولو تغافلتُ لك يا أخا أهل البَصرة عن زيادة رَجُلين لم أُبعِدْك — على قَدْر ما رأيتُ منك — أن تلزمَنى ذلك ، فيما يتبيَّن * ، حتى يصيرَ كِراء الواحد ككِراء الألف ، وتصيرَ الإقامة كالظَّعن والتفريغُ كالشغل . وعلى أنى لو كنتُ أمسكت عن تقاضيك وتغافلتُ عن تعريفك ما عليك ، لذهب الإحسانُ إليك باطلا . إذ كنتَ لا ترى للزيادة قدراً .

وقد قال الأوّل :

والكُفرُ مَخبَثةٌ لنفس المُنعِمِ

(٨) سبيلهم ك — (١١) له (فان فلوتن) — (١٤) سن ك .

(١٩) « والكفر . . . المنعم » معلقة عنترة العبسى ، والمصراع الأول : « نبئت عمراً غير شاكر نعمتى »

وقال الآخر :

تبدّلتُ بالمعرُوف نُـكْراً وربّما تنكّر للمعروفِ مَن كان يُكفر

أنت تطالبنى ببُغض المُعتزِلة للشِّيعة ، وبما * بينَ أهل الـكوفة والبَصرة ، وبالعَداوة التى بين أسد وكِندة ، وبمـا فى قلبِ السا كن من استثقال المُسكن . وسيُعِينُ الله عليك . السلام » .

قال إسماعيلُ بنُ غَزوان : لله درُّ الـكندىّ ! ما كان أحكمَه وأحضرَ حجّته ، وأنصحَ جيبَه وأدوم طريقَته !

رأيته — وقد أقبلَ على جَماعة مافيها إلّا مفسد ، أو من يزيِّن الفسادَ لأهله . مِن شاعر يوُدّه أن الناس كلّهم قد جاوزوا حدَّ المسرفين إلى حُدود المجانين ، ومن صاحب تفقيع * واستِئكال ، ومن ملّاق متقرِّب — فقال :

تسمّون من مَنَع المال من وجُوه الخطأ ، وحصَّنه خَوفاً من الغِيلة ، وَحفِظه إشفاقاً من الذلّة بخيلا ، تريدون بذلك ذامّه وشينه ؟ وتسمُّون من جَهِل فضلَ الغِنَى ، ولم يعرِف ذلّة الفقر ، وأعطى فى السرَف ، وتهاون بالخطأ ، وابتذَل النعمة ، وأهان نفسَه بإكرام غيره جَواداً ، تريدون بذلك حَمدَه ومدحه ؟ فاتّهموا على أنفسِكم من قدّمكم على نفسه . فإنّ من أخطأ على نَفسه ، فهو أجدرُ أن يخطِئ على غيره ، ومن أخطأ فى ظاهر دُنياه وفيما يوجدُ فى العَين ، كان أجدر أن يخطِئ فى باطِن دِينه وفيما يوجد بالعقل . فمدحتم من مدح * صُنوف الخطأ ، وذَممتم من جَمَع صُنوف الصَّواب . فاحذروهم كل الحذر ولا تأمنوهم على حال * .

قال إسماعيل ، وسمعتُ الـكِندىّ يقول :

إنما المـالُ لمن حَفِظه ، وإنما الغنى لمن تمسّك به . ولحفظِ المال بُنيت الحيطان .

---

(٣) وربما ك — (٩) تفقيع ، صححنا : تنقيع ك — (١٧) مدح ك : جمع (فان فلوتن) — (١٨) آخر السقط فى ب : [هذا والأيام . . . حال] .

وعلّقت * الأبواب واتّخذت الصّناديق ، وعُمِلت الأقفال ، ونُقِشت الرُّشوم * والخواتيم ، وتُعُلِّمَ الحساب والكِتاب . فَلِمَ يتّخذون هذه الوقايات دونَ المال ، وأنتم آفته وأنتم سوسه وقادحه * ؟ وقد قال الأول ، احرس أخاك إلّا من نفسِه ولكن احسُبْ أنك قد أخذته فى الجواسق * ، وأودَعته الصُّخور ، ولم يشعُرْ به صَديق ولا رسول ولا مُعين . من لك بألا تَكونَ أشدَّ عليه من السارق وأعدى عليه من الغاصب ؟ واجعلْك قد حصّنته من كلِّ يد لا تملكُه ، كيف لك من أن تحصِّنه من اليد التى تملكه ، وهى عليه أقدَر ودَواعيها * أكثر ، وقد علِمنا أنّ حِفظ المال أشدُّ من جَمعه ؟ وهل أُتِىَ الناس إلا من أنفسهم ، ثم ثقاتهم ؟ فالمالُ * لمن حفِظه ، والحسرةُ لمن أتلفه . و إنفاقهُ هو إتلافه ، وإن حسّنتموه بهذا الاسم وزيّنتموه بهذا اللّقَب .

*وزعمتُم أنما سمَّينا البخلَ إصلاحاً * والشح اقتصاداً ، كما سمّى قوم * الهزيمة انحيازًا والبِذاء عارِضة، والعَزل عن الولاية صَرْفًا ، والجائرَ على أهلِ الخراج مُستقصياً . بل أنتم الذين سمّيتم السَّرَف جودًا * ، والنفجَ * أريَحيّة، وسوء نظر المرء لنفسه ولعَقِبه كرماً . قال رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — : « ابدأ بمن تَعول » . وأنتَ تريدُ أن تغنىَ عِيال غيرِك بإفقارِ عِيالك ، وتُسعِد الغريب بشِقوة القَريب ، وتتفضّل على من لا يعدِل عنك ، ومَن لو أعطيتَه أبداً لأخذ أبدًا .

قد عَلِمتم ما قال صاحبُنا لأخى تَغلِب ، فإنه قال : يا أخا تغلِب إنى والله كنت أجرى ماجرى هذا الغيل ، وأجْرى وقد انقطَع النّيل . إنى والله لو أعطيتُك ، لما وصلت إليك ، حتى أتجاوزَ من هو أحقُّ بذلك منك . إنى لو أمكنتُ الناسَ مِن مالى لنَزَعوا

(١) وغلقت ب — الرشوم ب : الرسوم ك — (٣) قارحه (فان فلوتن) — (٤) الجواسيق ب — (٧) ودواعيه ك ب — (٨) والمال (فان فلوتن) — (١٠) أول سقط فى ب — صلاحا (فان فلوتن) — يوم ك — (١٢) السر وجودا ك — والنفح ك ، والنفخ (فان فلوتن) —

(٩٠ : ٢٠ — ٩١ : ٢) « والحفظ المال : . . سوسه » الإشارة إلى محاسن التجارة ص ٦٧ ، ط المؤيد —
(١٦—٩٢ : ١) « قد علمتم . . . ما منعته الناس » العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ .

دارى طُوبة طُوبة . إنه والله ما بَقِىَ مَعى منه إلا ما منعتهُ الناس . ولـكنّى أقول : والله إنى* لو أمكنتُ الناسَ من نَفسى لادّعوا رقِّى ، بعد سَلب نِعمتى .

قال إسماعيل : وسَمِعته يقول :

عجبت لمن قلّت دراهمُه كيفَ ينام . ولـكن لايستوى من لم يَنم سروراً ، ومن لم ينم غمًّا . ثم قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى وصيّة المرء يومَ فقره وحاجَته ، وقبلَ أن يُغَرغر : « الثلثُ ، والثلثُ كثير » . فاستحسَنت الفقَهاء ، وتمنّى الصالحون أن نَنقُصَ* من الثلُث شيئاً ، لاستِكثار رَسول الله — صلى الله عليه وسلم — الثلث ، ولقوله : « إنك إن تدَع عِيالَك أغنياء خيرٌ من أن تدَعَهم عالةً يتكفّفون الناس » ورسوُل الله — صلّى الله عليه وسلم — لم يرحَم عِيالَنا إلّا بفَضل رحمَتِه لنـــا . فـكيفَ تأمرُونى أن أوثِرَ أنفسَكم على نفسى ، وأقدِّم عِيالـكم على عيالى ، وأن أعتقدَ الثناء بدَلا من الغِنى ، وأن أ كنِز الريح وأصطَنِـع السراب ، بدلا من الذّهَب والفِضّة*.

قال إسماعيل : وسمعته يقول لِعياله وأصحابه :

اصبِروا عن الرُّطَب عند ابتدائه وأوائله ، وعن با كورات الفا كهة . فإن للنفس عند كلِّ طارف* نزوة ، وعندَ كلِّ هاجم بدوة* ، وللقادم حَلاوة وفَرحة، وللجديد بَشاشة وغِرّة . فإنك متى رَدَدْتها ارتدّت ، ومتى ردعتها ارتدَعت . والنفسُ عَزوف، ونفور ألوف ، وما حمّلتها احتَملت وإن أهملتَها فسدت . فإن لم تـكفَّ جميعَ دواعيها وتحسِم جميعَ خواطرها ، فى أول ردّة ، صارت أقلَّ عدداً وأضعفَ قوة . فإذا أثّر ذلك فيها ، فعظها فى تلك البا كورة بالغلاء والقلَّة . فإنّ ذ كرَ الغلاء والقلّة حُجّة صَحيحة وعلّة عاملة فى الطبيعة . فإذا أجابتك فى البا كورة فسُمْها مثلَ ذلك فى أُوائل كثرتها ، واضرِب نُقصان* الشهوة ونقصان قوّة الغلبة* ، بمِقدار ماحَدَث لها من الرُّخص والـكثرة ،

---

(٢) انى ، صححنا : ان ك – (٧) نفض ك : ننقص (فان فلوتن) . – (١١) آخر السقط فى ب : « وزعمتم انما سمينا ... والفضة» – (١٤) طارق ب – بدوة ، صححنا : نزوة ك ، ثروة ب – (٢٠) واصرف يقظان ب – الطبيعة ب

(٥ – ٨) « قال رسول الله . . . يتكففون الناس » صحيح البخارى ، كتاب الوصايا ، الحديث رقم ٢٠٥٥

فلستَ تلقَى على هذا الحسابِ من معالجة الشهوة فى غدك * ، إلا مثلَ ما لقيتَ * منها فى يومك * ، حتى تنقضىَ أيام الفاكهة وأنت على مثل ابتداء حالك وعلى أول مُجاهَدتك لشَهوتك . ومتى لم تعدَّ أيضاً * الشهوة فتنة والهوى عدوًّا ، اغتررتَ بهما وضُعفتَ عنهما ، وائتمنتهما على نفسِك ، وهما أَحْضَرُ عدوّ وشَرُّ دخيل .

فاضمَنوا لىَ النَّزوة الأولى * ، أضمن لكم تمام الصبر وعاقِبة اليُسر ، وثباتَ العزِّ فى قلوبكم والغِنى فى أعقابكم ؛ ودَوام تعظيم الناس لكم . فإنه لو لم يكن من منفعة الغنى إلّا أنك لا تزالُ معظَّماً عند مَن لم ينلْ مِنك قطُّ دِرهماً ، لكان الفضلُ فى ذلك بيِّناً والربح ظاهراً . ولو لم يكن من بَرَكة الثروة ومن منفعة اليُسر ، إلا أن ربَّ المال الكثير لو اتّصل بمَلِك كبير ، وفى * جلسائه من هو أوجبُ حُرمة، وأقدمُ صُحبة وأصدق محبة ، وأمتع إمتاعاً، وأكثر فائدة وصواباً ، إلاّ أنه خفيفُ الحال قليلُ ذاتِ اليد ؛ ثم أراد ذلك الملك أن يقسم مالا أو يوزِّع بينهم طُرَفاً ، لجعل حظَّ الموسر أكثر ، وإن كان فى كلِّ شىء دون أصحابه ، وحظَّ المخِفّ أقل، وإن كان فى كلِّ شىء فوقَ أصحابه .

* قد ذكرنا رِسالة سَهل بنِ هارون ، ومذهَب الحرامى ، وقِصَص الكِندىّ ، وأحاديث الحارثى ، واحتجاجاتهم ، وطرائفَ بُخْلهم * ، و بدائع حِيَلهم * .

---

(١) عذك ك ، فى عدل ب ، عندك (فان فلوتن) — (١–٢) ثمنها فى يومك ب ، منها فى نومك (فان فلوتن) — (٣) فيض ب — (٥) الثروة [الأولى] ب — (٩) [و] فى (فان فلوتن) — (١٤ — ١٥) [قد ذكرنا . . . حيلهم] ب — (١٥) نحلهم (فان فلوتن) .

قصّة محمد بن أبى المؤمّل

قلتُ لمحمّد بن أبى المؤمّل :

أراكَ تُطعِم الطعامَ وتتخذه ، وتنفق * < عليه > المال وتجوِّده * . وليس بين قلّة الخُبز وكثرته كثيرُ ربح . والناس يبخِّلون من قلّ عددُ خُبزه ، * ورأوا أرضَ خِوانه * . وعلى أنى أرى جَماجِم من يأكُل مَعك أكثرَ من عدد خُبزك . وأنتَ لو لم تتكلّف ، ولم تحمِلْ على مالك بإجادته والتكثيرِ منه ، ثم أكلتَ وحدكَ ، لم يلُمك الناس ، ولم يكترِثوا لذلك منك ، ولم يقضُوا عليك * بالبخل ولا بالسخاء ، وعشتَ سليماً مَوْفوراً ، وكنتَ كواحدٍ من عُرض * الناس . وأنتَ لو لم تُنْفِق الحرائب وتبذُل المصون ، إلا وأنتَ راغبٌ فى الذِّكر والشكر ، وإلّا لتحرزَ * الأجر ، فقد صِرنا لقلّة عَدَد خُبزك من بين الأشياء ، نرضَى لك من الغنيمة بالإياب ، ومن غُنم الحمد والشكر بالسلامة من الذّم واللوم. فزد فى عَدَد خُبزك شيئاً ، فإنّ بتلكَ الزيادة القليلة ينقلبُ ذلك اللوْمُ شكراً وذلك الذمُّ حمداً . أعلمتَ أنك لستَ تخرجُ من هذا الأمر بعد الكُلفة العظيمة سالماً ، لاَ لكَ ولا عليك ؟ فانظرْ فى الأمر رَحِمَك الله !

قال : يا أبا عثمان أنت تخطئُ ، وخَطأ العاقل أبداً يكونُ عَظيماً ، وإن كان فى العُذر قليلاً . لأنه إذا أخطأ أخطأ بنيقة * وإحكام . فعلى قَدْر التفكّر والتكلُّف يبعدُ من الرّشاد ويذهبُ عن سبيل الصّواب . وما أشكّ أنك * قد نَصَحتَ بمبلغ الرأى مِنك . ولكن خَف ما خوّفتك ، فإنه * مخوف .

بل الذى أصنعُ أدلّ على سخاء النفس بالمأكول ، وأدلُّ على الاحتيال ليبالِغوا . لأن

(٣) وتنفق < عليه > المال وتجوده ، صححنا : وتنفق المال وتجوده ك ب ، وتنفق المال وتجود به (فان فلوتن)
(٤) [ورأوا . . . خوانه] ب – (٧) ولم يذكروك ب – (٨) [عرض] ب – (٩) لتحوز ب ، لتخزن (فان فلوتن) – (١٥) بنيفه ك ، بتفقه (فان فلوتن) ، [بنيقة واحكام] ب – (١٦) < إلا > أنك ب –
(١٧) وانه (فان فلوتن) .

الخبزَ إذا كثر على الموائد ورَّث ذلك النفسَ صُدوداً ، وكلُّ * شيء من المأكول وغير المأكول إذا ملأ العينَ ملأ الصدر ، وفى ذلك موتُ الشَّهوة وتسكين الحركة . *ولو أن رجلا جَلَس على بَيْدر تَمْر فائق ، وعلى كُدس كُمّثرى منعوت ، وعلى مائة قِنو موز مَوصوف ، لم يكن أكلُه إلاّ على قدْر اسْتِطْرافه ، ولم يكن أكله على * قدر أكله إذا أُتِى بذلك فى طَبَق نظيف ، مع خادِم نَظيف ، عليه منديلٌ نظيف .

و بعدُ ، فأصحابُنا آنِسون واثِقون مُسْتَرسِلون ، يَعلمونَ أنّ الطعامَ لهم اتُّخِذ ، وأنّ أكلَهم له أوفقُ من تمزيق الخدَم والأتباع له . ولو احتاجوا لدَعَوا به ولم يحتشِموا منه ، ولكان لا أقلّ من * أن يجرِّبوا ذلك المرَّةَ والمرتَين وأن لا يقضُوا علينا بالبخل دون أن يروناه * . فإن كانوا محتشمين وقد بَسطناهم ، وساء ظنّهم بنا مع ما يرَون من الكُلفة لهم ، فهؤلاء أصحابُ تجنٍ وتترُّع . وليسَ فى طاقتى إعتاب المتجنِّى ولا ردُّ المتترِّع

قلتُ له : إنى قد رأيتُ أكلَهم فى مَنازلهم وعند إخوانهم ، وفى حالاتٍ كثيرة ومواضعَ مُختلفة ، ورأيتُ أكلَهم عندَك ، فرأيتُ شيئاً متفاوتاً وأمراً مُتَفاقماً . فاحسُب أنّ التجنِّيَ * عليهم غالِب ، وأنّ الضعفَ لهم شامِل ، وأنّ سوء الظن يُسرِع إليهم خاصّة، لِم *لا تُداوى هذا الأمرَ بما لا مؤنة فيه و بالشيء الذى لا قَدْر له ، أو تدعَ دُعاءهم والإرسالَ إليهم والحرصَ على إجابتهم ؟ والقومُ ليسَ يُلقونَ أنفسَهم عليك ، و إنما يجيئونك بالاستِحباب منك . فإن أحْبَبْتَ أن تمتحن ما أقول ، فدَعْ مُواترة الرسل والكتب ، والتغضّب عليهم إذا أبطؤوا ، ثم انظر .

قال : فإن الخبزَ إذا كثر على الخوان فالفاضِل مما يأكلون لا يسلَم من التلطيخ * والتَّغمير . والجرذَقة الغَمِرة والرقاقة المتلطِّخة ، لا أقدرُ أن أنظُر إليها ، وأستحيي أيضاً من إعادتها . فيذهبُ ذلك الفضلُ باطلا ، واللهُ لا يحبُّ الباطل .

(١) و < لأن > كل(فان‌فلوتن) — (٢) أول سقط فى ب‌إلى قوله : « وحكى أن الثورى حم ... »
(٤) على ، صححنا : < الا > على ك — (٨) لا أقل‌من : الأقل منهم (فان فلوتن) —(٩) يرونه ك —
(١٣) التجنى (مرسيه) : البخل ك — (١٤) لم (مرسيه) : ثم ك — (١٨) التلطخ (فان فلوتن).

قلتُ : فإن ناساً يأمرُون بمَسْحه ، ويجعلون الثريدةَ منه . فلوأخذتَ بزيِّهم وسلكتَ سبيلهم ، أتى ذلكَ على ما تر يدُ ونُر يد .

قال : أفلستُ أعلم كيفَ الثريدة ، ومن أيِّ شيء هى ؟ وكيفَ أمنعُ نفسى التوهُّم وأحُول بينها * و بين التذكّرِ * ؟ ولعلَّ القومَ أن يعرفوا ذلك على طول الأيّام ، فيكونَ هذا قبيحاً .

قلت : فتأمرُ به للعِيال . فيقومُ الحُوّارى المتلطِّخ مَقام الخُشكار * * النظيف . وعلى أنّ المسحَ والدَّلك يأتى على ما تعلّق به < من > * الدسم .

قال : عِيالى — يرحَمك الله — عيالان : واحدٌ أعظِمهُ عن هذا وأرفعهُ عنه ، وآخَرُ لم يبلغ عندى أن يُترَفَ بالحوّارى .

قلتُ : فاجعَلْ إذاً جميعَ خُبزك الخُشكار : فإن فضلَ ما بينَه و بين الحوّارى فى الحُسْن والطيب ، لا يقومُ بفَضْل ما بينَ الحمد والذمّ .

قال : فها هُنا رأىٌ هو أعدل الأمور وأقصدُها ، وهو أنا نُحضِرهذه الزيادةَ من الخبز على طَبَق ، ويكونُ قريباً حيث تناله اليد ، فلا يحتاجُ أحدٌ * مع قُربه منه إلى أن يدعوَ به ، ويكونُ قر بهُ من يدهِ كثرةً * على مائدته .

قلتُ : فالمانعُ من طَلَبه هو المانعُ من تحويله . فأطِعْنى وأخرِج هذه الزيادةَ من مالكَ كيف شئت . واعلمْ أنّ هذه المقايسةَ وطولَ هذه المذاكرة ، أضرّ علينا ممّا نَهيْتُك عنه وأردتكَ على خِلافه .

فلما حضَر وقتُ الغَداء ، صوّت بغلامه — وكان ضَخْماً جَهِير الصوت ، صاحبَ تَقْعير وتَفْخيم وتشديق وهَمْز وجَزْم — يا مبشِّر هاتِ من الخُبز تمامَ عَدَد الرؤس .

< قلت > * : ومن فرضَ لهم هذه القَر يضة ؟ ومن جَزَم عليهم هذا الجَزْم ؟ أرأيتَ إن لم يُشبع أحدَهم رغيفُه ، أليسَ لابدّ له من أن يعوِّل على رغيف صاحبه ، أو يتنحّى وعليه

(٤) بينهم (فان فلوتن) — التذكر ، صححنا ؛ التذكير ك — (٧) < من > الدسم ، صححنا ؛ الدسم ك — (١٣) < أحد > اليه ك — (١٤) كثرتك —(٢٠) < قلت > ، صححنا : [قلت]ك —

بقيَّة ، و يعلِّق يدَه منتظراً للعادة * فقد عادَ الأمرُ و بطَل ما تناظرنا فيه .

قال : لا أعلمُ إلّا تركَ الطعام البتَّةَ ؛ أهون علينا من هذه الخُصومة .

قلت : هذا ما لاشكَّ فيه ، وقد عملت * عندى بالصواب ، وأَخذتَ لنفسِك بالثقة ، إن وفيت بهذا القول .

وكان كثيراً ما * يقول : ياغلام هاتِ شيئاً من قلية وأَقِلَّ منها ، وأعدَّ لنا ماء بارداً وأكثِر منه . وكان يقول :قد تغيَّر كلُّ شيء من أمر الدنيا ، وحال عن أمره وتبدّل ، حتى المؤاكلة . قاتل اللهُ رجالا كنا نؤاكلهم ، ما رأيتُ قَصْعة قطّ رفِعَت من بين أيديهم إلّا وفيها فَضْل . وكانوا يعلَمون أنّ إحضار الجَدى إنما هو شىء من آيين الموائد الرفيعة ، وإنما جعل كالعاقِبة والخاتِمة ، وكالعلامة لليسر وللفراغ * ، وأنه لم يحضر للتمزيق والتخريب ، وأن أهله لو أرادوا به السُّوء لقدَّموه قبل كلِّ شىء لتقع الحدَّةُ * به . بل ما يأكلُ * منه إذا جىء به إلا العابِث ، وإلّا الذى لو لم يره لقد كان رَفَع يده ولم ينتظِر غيره . ولذلك قال أبو الحارث جُمّين ، حين رآه لا يمسّ ، «هذا المدفوع عنه» . ولولا أنه على ذلك شاهَدَ الناسَ ، لما قال ما قال . ولقد كانوا يتحامَوْنَ بَيْضَة البُقَيلة ، ويَدَعُها كلّ واحد منهم لِصاحبه ، حتى إن القَصعة لقد كانت ترفَعُ وإن البيضَ * خاصّةً لعلى حاله وأنتَ اليومَ إذا أردت أن تمتِّع عينكِ بنظرة واحدة منها ، ومن بيض السُّلاءة * لم تقدِر على ذلك . لا جَرَمَ لقد كان تركَه ناسٌ كثير ، مابهم إلا أن يكونوا شُرَكاء مَن ساءت رِعَته .

وكان يقول : الآدام أعداء للخبز . وأعداها له المالح . فلولا أنّ الله انتقم منه وأعان عليه بطلَب صاحبِه الماء و إكثارِه منه ، لظننتُ أنه سيأتى على الحَرْثِ والنَّسْل . وكان مع هذا

---

(١) كذا ك ، ولعلها المادة — (٣) علمت (فان فلوتن) — (٥) وكان كثيراً ما ك ، وكان أكثر ما (فان فلوتن) — (٩) والفراغ (فان فاتن) — (١٠) الحرة ك — أكل (فان فلوتن) — (١٤) الحصر ك — (١٠) السلافة ك

(١٣ — ١٥) « ولقد كانوا . . . على ذلك » ثمار القلوب للثعالبى ص ٣٩٣ ط الظاهر ، القاهرة ، سنة ١٩٠٨ — (١٧ — ١٨) وكان يقول . . . النسل » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٥ ، العقد الفريد ٤ : ٢٣١ ، الأزهرية ، ١٩١٣ .

يقول : لو شَرِب الناسُ الماء على الطعام ما اتّخموا ، وأقلُّهم عليه شُرباً أ كثرهم منه* تَخَماً . وذلك أنّ الرجل لايعرف مقدارَ ما أ كل حتى ينالَ من الماء . وربّما كان شبعانَ* وهو لايدرى . فإذا ازداد على مِقدار الحاجة بَشِم . وإذا نال من الماء شيئاً بعد شىء ، عرّفه ذلك مقدارَ الحاجات ، فلم يزِد إلّا بقَدْر المصلحة . والأطباء يعلمون <أن> ما أقول حق* ، ولكنّهم يعلَمون أنهم لوأخذوا بهذا الرأى لتعطّلوا ، ولذهب المكسَب . وماحاجةُ الناس إلى المعالِجين إذاصحَّت أبدانهم ؟ وفى قولِ جميع الناس أن ماء دجلة أمرأ من الفُرات وأن ماء مهران أمرأ من ماء نهر بَلخ ، وفى قول العرب : هذا ماء نَمِير يصلح عليه المال ، دليلٌ على أن الماء يُمرِئ ، حتى قالوا : إن الماء الذى يكونُ عليه النقّاطات** أمرأ من الماء الذى يكون عليه القيّارات . فعليكم بشربِ الماء على الغداء ، فإن ذلك أمرأ .

وكان يقول : ما بالُ الرجُل إذا قال : ياغلام اسقِنى ماء أو اسقِ فلاناً ماء ، أتاه بقُلَّة على قَدر الرىّ ، فإذا قال : أطعِمنى شيئاً ، أو قال : هاتِ لفلان طَعاماً ، أتاه من الخبز بما يفضُل عن الجماعة ، والطعامُ والشراب أخَوان مُتَحالفان ومتوازران ؟ وكان يقول : لولا رُخص الماء وغَلاء الخبز ، لما كَلِبوا على الخبز وزَهِدوا فى الماء . والناسُ أشدُّ شىء تعظيماً للمأ كول إذا كثر ثمنُه ، أو كان قليلًا فى أصل منبته ومَوضع عنصُره . هذا الجزَر الصافى ، وهـذا الباقلّى الأخضر العبّاسى ،أطيبُ من كمّثرى خُراسان ، ومن المَوْز البستانى . ولكنّهم لقِصَر همّتهم لا يتشهّون إلّا على قَدْر الثمن ، ولا يحِنّون إلى الشىء إلّا على قَدْر القلّة . وهذه العوامُّ فى شَهوات الأطعِمة إنما تذهب مع التقليد ، أو مع العادة ، أو على قَدْر مايعظُم عندَها من شأنِ الطعام . وأنا لست أطعَم الجزَر المسلوقَ بالخلّ والزيتِ والمُرّىّ ، دونَ الكمأة بالزُّبد والفُلفل ، لمكان الرُّخص ، أو لموضع الاستفضال ، ولكن لمكان طِيبه فى الحقيقة ، ولأنه صالح للطبيعة* . عَلِم ذلك من علم ، وجهِل ذلك مَن جهل .

---

(١) عنه ك - (٢) شبعانا ك - (٤ - ٥) يعلمون ما أقول حق ك ، حقاً (فان فلوتن)
(٢٠) مالح الطبيعة (فان فلوتن)

(ص ٩٧ : ١٨ - ٩) «وكان معهذا يقول . . . امرأ» عيون الأخبار ٣ : ٢٥٦ - (١٠ - ١٦) «وكان يقول . . . الثمن» عيون الأخبار ٣ : ٢٥٥ - ٢٥٦ ، العقد الفريد ٣ : ٢٣١ ، ط الأزهرية.

وكان إذا كان فى منزله ، فربما دخل عليه الصديقُ له ، وقد كان تقدّمه < الزائر أو > *الزائران — وكان يستعمِل على خِوانه من الخُدَع والمكايد والتدبير ما لم يَبلُغ بعضَه قيسُ بن زُهَير **، والمهلّب بن أبى صُفرة *وخازم بن خُزيمة **وهرثمة ابن أعين ** . وكان عندَه فيه من الاحتيال ما لا يعرفه عمرو بن العاص ولا المغيرةُ بن شُعبة . وكان كثيراً مايُمسك الخِلال بيده ، ليوئس الداخلَ عليه من غَدَائه — فإذا دخل عليه الصديقُ له ، وقد عزمَ على إطعامِ الزائر أو الزائرَين *قبلَه ، وضاقَ صدره بالثالث — وإن كان قد دعاه وطلب إليه — أراد أن يحتال له ، أو الرابع إن ابتُلِيَ كلٌّ واحد منهما بصاحِبه ، فيقول عند أول دخوله وخَلْع نعله — وهو رافعٌ صوتَه بالتنويه و بالتشنيع —: « هات يا مبشِّر لفلان شيئاً يطعَم منه ، هاتِ له شيئاً ينال منه ، هاتِ له شيئاً » ، اتّكالا على خَجَله أو غَضَبه أو أنفته ، وطمعاً فى أن يقول : « قد فعلتُ » .

فإن أخطأ ذلك الشقىّ وضَعُف قلبه وحُصِر ، وقال : « قد فعلت » ، وعَلِم أنه قد أحرزه وحصّله وألقاه وراء ظهره ، لم يرضَ أيضاً بذلك حتى يقولَ : « بأىّ شىء تغدّيت؟» فلا بد له من أن يكذِب ، أو ينتحِل المعاريض . فإذا استوثق منه رِباطاً ، وتركه لا يستطيعُ أن يترمرم ، لم يرضَ بذلك حتى يقول فى حَديث له : « كنّا عندَ فلانٍ ، فدَخل عليه فلانٌ فدعاه إلى غَدائه ، فامتنع . ثم بدا له ، فقال : فى طعامكم بُقَيلة أنتم تجيدونها ، ثم تَناوله » ؛ فلا يزال يزيدُ فى وَثاقه ، وفى سد الأبواب عليه ، وفى منعه البَدَوات . حتى إذا بلغ الغاية قال : « يا مبشر أما إذ * تغدّى فلان واكتفى ، فهاتِ لنا شيئاً نعبثُ به » .

فإذا وضعوا الطعام ، أقبل على أشدِّهم حياء ، أو على أشدِّهم أكلاً ، فسأله عن حديث حَسَن ، أو عن خَبَر طويل . ولا يسأله إلا عن حديث يُحتاج فيه إلى الإشارة باليد أو الرأس كلّ ذلك ليشغلَه . فإذا هُم أكلوا صَدْراً ، أظهر الفُتور والتشاغُل والتقزّز كالشبعان الممتلئ . وهو فى ذلك غيرُ رافع يده ولا قاطعٍ أكله . إنما هو النَّتْف بعد النتف ،

(٢) < الزائر أو > الزائران (فان فلوتن) : الزائران ك — (٣) خازم بن أبى خزيمة ك — (٦) والزائرين ك — (١٧) إذا ك .

وتعليق اليَد فى خلل ذلك . فلا بدّ من أن ينقبِضَ بعضُهم و يرفعَ يده ، ور بما شَمِلَ ذلك جماعتَهم . فإذا عَلِم أنه قد أحرزَهم واحتال لهم ، حتى يقلَعَهم من مواضِعهم من حول* الخِوان ، و يعيدَهم إلى مواضعهم من مجالِسهم ، ابتدأ الأكل ، فأكلَ أكلَ الجائع المقرور ، وقال : إنما الأكلُ تاراتٌ والشُّرب تاراتٌ .

وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : إذا بكَروا عليه ، لِمَ لا نشربُ* أقداحاً على الريق ؟ فإنها تقتلُ الديدان ، ونخفش لأنفسنا قليلا ، فإنها تأتى على جميع الفضول ، وتُشَهِّى الطعامَ بعد ساعة . وسُكْره أطيبُ من سُكر الكظّة . والشراب على الملأة* بلاء ، وهو بعدَ ذلك دليلٌ على أنك نبيذىّ خالصٌ . ومَنْ لم يشربْ على الريق فهو نِكْس فى الفتوة ودَعِىّ فى أصحاب النبيذ . و إنما يخاف على كبدِه من سَوْرة الشراب على الريق، من بَعُد عهده باللحم . وهــذه الصُّبحة تغسِل عنكم الأوضار ، وتنفى التَخَم ، وليس دواء الخُمار إلا الشرب بالكِبار . والأعشى كان أعلمَ به حيث يقول :

وكأس شربتُ على لذّة وأخرى تداويتُ منها بها

وهذا — حَفِظك الله — هو اليومُ الذى كانوا لا يُعاينون فيه لُقمةواحدة ، ولا يدخل أجوافَهم من النَّقل مايزِنُ خَرْدلة . وهو يوم سُرُوره التامّ ، لأنه قد رَبح المرزئة وتمتع بالمنادَمة.

واشترى مرّة شبُّوطة** وهو ببغداد . وأخذَها فائقةً عظيمة ، وغالى بها وارتفع فى ثمنها ، وكان قد بَعُد عهدُه بأكل السمك . وهو بَصْرى لا يصبرُ عنه . فكان قدأ كبرَ أمر هذه السمَكة ، لكثرة ثمنها وسِمَنها وعِظَمها ولشِدَّة شهوته لها . فحينَ ظنَّ عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرّد بأطايبها، وحَسَر عن ذِراعيه وصَمَدَ صَمْدَها، هجمتُ عليه ومعى السِّدرى** . فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارِف، ورأى الحتمَ المقضِىّ، ورأى قاصِمَة الظهر ، وأيقن بالشرّ ، وعلِم أنه قد ابتُلى بالتنين .

---

(٢) حوال (فان فلوتن) — (٥) تشرب (فان فلوتن) — (٨) الملأة ، صححنا : المللة ك

---

(١٢) «وكأس ... بها» ديوان الأعشى ص ١٢١ ط أوربا

فلم يُلبثه السدريّ حتى قوّر السرّة بالمبال. فأقبل عليّ فقال لى: « يا أباعثمان ،السدرى يعجبه السُّرَر »، فما فصلت الكلمة من فيه، حتى قبض على القفا فانتزعَ الجانبين جميعاً. فأقبل عليّ فقال : « والسدريّ يعجبُه الأقفاء » ، فما فرَغ من كلامه إلا والسِّدرى قد اجترفَ المتن كله، فقال: « يا أبا عثمان والسدريّ يعجِبُه المُتون » ، ولم يظن أن السدريّ يعرفُ فضيلةَ ذَنَب الشبُّوط وعذُوبةَ لحمه ، وظنّ أنه سيسلم له ، وظنّ معرفةَ ذلك من الغامِض ، فلم يَدْر إلّا والسدريُّ قد اكتَسَح ما على الوَجهين جميعاً . ولولا أنّ السِّدرى أبطره وأثقلهوأ كمده وملأ صدرَه وملأه غيظاً . لقد كان أدركَ معه طرَفاً ، لأنه كان من الأكلة . ولكنّ الغيظ كان من أعوان السِّدرى عليه .

فلمّا أكلَ السدريّ جميعَ أطايبها . و بقِيَ هو فى النّظارة ، ولم يبقَ فى يده مما كان يأمُله فى تلك السمكة إلّا الغيظُ الشديد والغُرم الثقيل ، ظن أن فى سائر السمكة ما يشبِعُه و يشفى من قرمه . فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هوالذى كان يمسكُ بأرماقه وحشاشات نفسه. فلما رأى السدريّ يفرى الفَرِيَ و يلتهم التهاماً قال : « يا أبا عثمان السدريُّ يعجِبُه كلُّ شيء » . فتولّد الغيظُ فى جَوْفه ، وأقلقته الرِّعدة . فخبُثَت نفسُه ، فما زال يقىء و يسلَح . ثم ركِبته الحمَّى .

وصحت تو بتُه وتمّ عزمه، فى أن < لا > * يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً ، ولا يشترى سمكة أبداً رخيصةً ولا غالية، و إن أهدوها إليه أن لا يقبلها، و إن وجدَها مطروحةً لا يمسُّها.

فهذا ما كان حَضَرنى من حَديث ابن أبى المؤمِّل . وقد مات . عفا الله عنا وعنه .

---

(١٥) فى أن يؤاكل ك

قصة أسد بن جانى

فأما أسدُ بن جانى ، فكان يجعلُ سريره فى الشتاء من قَصَب مقشَّر*، لأن البراغيث تزلَق عن ليط القصَب، لفَرط لينه وملاسته .

وكان إذا دخل الصيف ، وحرَّ عليه بيتُه ، أثاره* حتى يغرِّق المسحاة ، ثم يصبُّ عليه جراراً كثيرة من ماء البئر ويتوطؤه* حتى يستوىَ . فلا يزال ذلك البيتُ بارداً مادام نديًّا . فإذا امتدَّ به الندَى ودام بردُه بدوامه ، اكتفَى بذلك التبريد صَيفته . وإن جفَّ قبلَ انقضاء الصيف وعاد عليه الحرّ، عاد عليه بالإثارة والصبّ . وكان يقول : خَيْشتى ** أرض ، وماء خَيْشتى من بئرى . وبيتى أبرد ، ومؤنتى أخفّ . وأنا أفضُلهم أيضاً بفَضْل الحكمة وجودة الآلة .

وكان طبيباً فأكسَدَ مرة . فقال له قائل : « السنة وَبِئة والأمراض فاشية ، وأنت عالم ولك صبر وخدمة*، ولك بَيان ومَعرِفة، فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟». قال :« أما واحدة فإنى عندَهم مسلم ؛ وقد اعتقد القومُ قبل أن أتطبَّب ، لا بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطبّ؛ واسمى أسَد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليباً* وجبرائيل ويوحنَّا* وبيرا ؛ وكُنيَتى أبو الحارث، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى ، وأبو زكريا، وأبو إبراهيم؛ وعلىَّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغى أن يكون ردائى* حريراً أسود ؛ ولفظى لفظٌ عربىّ وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جُندى سابور » .

---

(٢) لعلها : < غير > مقشر – (٤) أثاره (مرسيه) : فأثاره ك – (٥) ويتوطؤه : ويتوطاه ك ، ويتوطا (فان فلوتن) – (١١) وحدمة ك ، ولعلها : وحكمة – (١٣) ومرايلو يوحنا ك – (١٥) ردائى حرير ك ، رداء حرير (فان فلوتن) .

قصة الثورى

قال الخليل السَّلولىّ، أقبلَ علىّ يوماً الثورىّ** وكان يملك خمسمائة جَريب، ما بين كرسى الصدَقة إلى نهر مرة**، ولا يشترى إلا كل غرَّة، وكلّ أرض مشهورة بكريم التُّربة، وشَرَف الموضِع، والغلَّة الكثيرة. قال:

فأقبل علىّ يوماً، فقال لى: «هل اصْطَبَغتَ بماء الزيتون قطّ؟». قال: قلت: «لا والله». قال: «أما والله لو فعلتَه ما نسيتَه». قال: قلت: «أجل إنى والله لو فعلتُه لما نسيتُه».

وكان يقول لعياله: لا تُلقوا نوَى التمر والرطَب، وتعوّدوا ابتلاعه، وخذوا حلوقَكم بتَسْويغه. فإن النوى يَعقِد الشحم فى البطن**، ويُدفئ الكُليتين بذلك الشحم. واعتبروا ذلك ببُطون الصفايا وجميع ما يعتَلفُ النوى. والله لو حَمَلتُم أنفُسَكم على البزر والنوى، وعلى قَضْم الشعير واعتلاف القت، لوجدتموها سريعة القبول. وقد يأكل الناسُ القتّ قَدَّاحًا، والشعيرَ فريكًا، ونوى البُسر الأخضر، ونوَى العجْوَة. فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة. لو رغِبتم فى الدفء لالتمستم الشحم. وكيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دُخان الوقود، وعن شناعة السكر*، وعن ثِقَل الغُرم. والشحم يفرِّج القلب، ويبيِّض الوجه. والنارُ تسوِّد الوجه؛ أنا أقدر أن أبتلِعَ النوى وأعلفه الشاء*. ولكنى أقول ذلك بالنظر منى لكم.

وكان يقول: كلوا الباقِلّى بقشوره. فإن الباقلى يقول: من أكَلَنى بقشورى فقد أكَلَنى، ومن أكلنى بغير قشورى فأنا الذى آكله. فما حاجتُكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم، وأكلاً لما جعل أكلاً لكم؟

(١٤) العسكر ك — (١٥) الشاء (عيون الأخبار) : النساء ك

(٨ — ١٦) «وكان يقول ... لكم» عيون الأخبار ٣ : ٢٥٦ — ٢٥٧ — (١٧ — ١٩) «وكان يقول ... لطعامكم» عيون الأخبار ٣ : ٢٥٧، العقد الفريد ٣ : ٢١٤، ٢٣١ ط الأزهرية.

وكان يُعَيِّن * مالاً عظيما، ولم يكن له وارث . فكان يسخَر ببعضهم ، فيقولُ عند الإشهاد : « قد علمتم أنه لا وارث لى ، فإذا مِتّ فهذا المالُ لفلان » . فكان قومٌ كثير يحرصون على مبايعته لهذا . وقد رأيتُه أنا زماناً من الدهر ، ما رأيتُه قطّ إلّا ونعله * فى يده أو يمشى طولَ نهاره فى نعلٍ مقطوعةِ العَقِب، شديدة * على صاحبها . قال : فهؤلاء * المجوس يرتعون * البصرةَ و بغدادَ وفارسَ والأهواز والدنيا كلها بنعالٍ سِندية * * ، فقيل له : إن المجوسىّ لا يستحلُّ فى دينه المشركة ، فأنتَ لا تجدُه أبداً إلا حافياً أو لابساً نعلاً سِنديَّة . وأنت مسلم ومالك كثير . قال: فمن كان ماله كثيراً فلا بدّ له من أن يفتَح كيسَه للنفقات وللسرّاق ؟ قالوا : فليس بين هاتين منزلة ؟

قال الخليل : جلس الثورىّ إلى حَلْقة المصلحين فى المسجد ، فسمِع رَجُلاً من مياسيرهم يقول : بطِّنوا كلّ شىء لكم فإنه أبقى . ولأمرٍ جَعل الله دار الآخرة باقية ، ودار الدنيا فانية . ثم قال : ربّما رأيتُ المبطَّنة الواحدة تُقطَع أربعةَ أقمصة ، والعمامة الواحدة تُقطَع أربعةَ أزر . ليسَ ذلك إلّا لتعاوُن الطىّ ، وترافُد الأثناء . فبطنوا البوارىّ ، و بطِّنوا الُحصر ، و بطِّنوا البسط ، و بطِّنوا الغداء بشَربة باردة .

قال : فقال له الثورى : لم أفهم مما * قلتَ إلّا هذا * الحرفَ وحدَه .

قال الخليل: حُمّ الثورىّ ، وحمّ عِياله وخادمه ، فلم يقدِروا مع شدّة الحمى على أكل الخبز ، فربح كيلةً تلك الأيام من الدقيق ، ففرِح بذلك وقال : لو كان منزلى سوقَ * الأهواز * * أو نطاةَ خيبرَ * * أو وادى الجحفة ، لرجوتُ أن أستَفْضِل كلّ سنة مائة دينار. فكان لا يُبالى أن يحمّ هو وأهلُه أبدًا ، بعد أن يستفضِل كفايتهم من الدقيق .

وكان يقول : إذا رأيتُ الرجلَ يشترى الَجدْىَ رحمتُه ، فإن رأيتُه يشترى الدجاج حقَرته ، فإن رأيتُه يشترى الدُرّاج لم أُبايعه ولم أُكلّمه * .

---

(١) يعين ك : يقتنى (مرسيه) – (٣) ونعلمه ك – (٤) شديد على صاحبه ك – فهو ذا ك
(٥) ربعون ك – (١٤) ما (فان فلوتن) – هذه ك – (١٦) بسوق ب – (٢٠) آخر النسخة ب

(١٥ – ١٧) «وحم . . . دينار» عيون الأخبار ٣ : ٥٢٧

وأنه قال : أولُ الإصلاح — وهو من الواجب — خصفُ النعل ، واستجادة الطِّراق، وتشحيمُها فى كلِّ الأيام * . وعقدُ ذُؤابة الشِّراك من زىِّ النسّاك * ، لكيلا يطأ عليه إنسانٌ فيقطعه . ومن الإصلاح الواجب قلبُ خِرقة القلنسُوة إذا اتسخت ، وغسلُها من اتساخها بعد القلب . واجعلها حِبَرة فإنها مما له مرجوع . ومن ذلك اتخاذ قميص الصيف جبّة فى الشتاء ، واتخاذُ الشاة اللَّبون إذا كان عندك حِمار . واتخاذ الحمار الجامع خيرٌ من غلّة ألف دينار ، لأنه لرحلك ، وبه تُدرك البعيد من حوائجك ، وعليه تَطحن فتستفضِلُ * ما يربحُه عليك الطحّان ، وتنقل عليه حوائجه وحوائجك ، حتى الحطب ، وتستقى عليه الماء . وهذه كلها مُؤن إذا اجتمعتْ كانتْ فى السنة مالا كثيراً .

ثمّ قال : أشهدُ أنّ الرِّفق يُمن ، وأن الخُرق شؤم . اشتريتُ * ملاءة مَذارية فلبستها — ما شاء الله — رداء وملحفة . ثم احتجتُ إلى طَيْلسان فقطعتها — يعلم الله — فلبستُه ما شاء الله . ثمّ احتجتُ إلى جبّة فجعلتُه — يعلم الله — ظِهارةَ جبّة محشوّة ، فلبستها ما شاء الله . ثمّ أخرجتُ ما كان فيها من الصحيح، فجعلتُه مَخادَّ ، وجعلت قطنها للقناديل . ثم جعلتُ ما دون خِرَق المخادّ للقلانس ، ثم عمدت إلى أصح ما بَقِى فبعته من أصحاب الصينيّات ** والصلاحيّات * . وجعلتُ ما لا رقعةَ له مِمْحاة لى وللجارية ، إذا نحنُ قضينا حاجةَ الرجال والنساء . وجعلتُ السُّقاطات وما قد صار كالخيوط وكالقُطن المندوف ، صمائم * لرءوس القوارير .

وقد رأيتُه وسمعتُ منه فى البخل كلاماً كثيراً . وكان من البَصريين ، ينزلُ ببغداد مسجد ابنِ رُغبان ** . ولم أرَ شيخاً ذا ثروة اجتَمع عندَه وإليه من البخلاء ما اجتَمع له . منهم : إسماعيلُ بن غَزوان وجعفرُ بن سَعيد ** وخاقان بنُ صبيح وأبو يعقوب الأعور ** وعبد الله العروضى والحرامىّ عبدُ الله بن كاسب .

وأبو عبد الرحمن هذا شديدُ البُخل ، شديد العارِضة ، عضبُ اللسان . وكان يحتجُّ

(٢) أيام ك — من ذى الشباك (دى جويه) — (٦) فتستفضل < عليه > ك — (٩) واشتريت ك — (١٤) والصياحات ك — (١٦) صيا مما ك ، صماما (فان فلوتن).

للبخل ويوصى به ويدعو إليه . وماعلمتُ أنّ أحداً جرّد فى ذلك كتاباً إلا سهل بن هارون وهو* .

وأبو عبد الرحمن هذا هو الذى قال لابنه :

أىْ بنىّ إنّ إنفاق القراريط يفتحُ عليك أبوابَ الدوانيق ، وإنفاقَ الدوانيق يفتحُ عليك أبواب الدراهم ، وإنفاقَ الدراهم يفتحُ عليكَ أبواب الدنانير . والعشراتُ* تفتحُ عليك أبواب المئين ، والمئونَ تفتحُ عليك أبوابَ الألوف ، حتى يأتى ذلك على الفَرْع والأصل ، ويطمِسَ على العَيْنِ والأثَر ، ويحتملَ القليلَ والكثير . أىْ بنىّ إنما صار تأويلُ الدِّرهم «دار الهم» ، وتأويلُ الدينار «يدنى إلى النار» < أن > * الدرهم إذا خَرَج إلى غير خلَف ، وإلى غير بدَل ، دار الهمُّ على دانق* مخرجه . وقيل : إن الدينار يُدنى إلى النار لأنه إذا أنفقه* فى غير خَلَف ، وأخرج إلى غير بَدَل ، بقى* مُخفِقاً مُعدِماً ، وفقيراً مبلطاً مُتَحرِّج المخارج* . وتدعوه الضرورةُ إلى المكاسِب الرديئة والطُعَم الخبيثة. والخبيثُ من الكَسْب يُسقط العدالة ، ويذهَبُ بالمروءة ، ويوجِب الحدّ ، ويُدخِلُ النار.

وهذا التأويلُ الذى تأوّله للدِرهم والدينار ليسَ له ، إنما هذا شىء كان يتكلّم به عبدُ الأعلى القاصّ** . فكان عبد الأعلى إذا قيل له : لم سمى الكلب قلطيا*؟ قال : لأنه قلّ ولطى . وإذا قيل له : سمِّىَ الكلبُ** سَلوقيًّا* ؟ قال : لأنه يستلّ ويلقى . وإذا قيل له : لم سمِّى العُصفور عصفوراً ؟ قال : لأنه عَصَى وفرّ .

وعبدُ الأعلى هذا هُو الذى كان يقول فى قَصَصه : الفقيرُ رداؤه علقة ، ومَرَقته* سلقه* وجَرْذَقته فلقة ، وسمكتُه شِلقة* . فى طيب له كثير .

وبعضُ المفسِّرين يزعم أنّ نوحاً النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما سمِّى نوحاً لأنه كان

---

(٢) [وهو] (فان فلوتن) — (٥) العشرات ك — (٨) < ان > : ليست بالأصل — (٩) دوانق (فان فلوتن) — (١٠) انعقه ك — بقيت (فان فلوتن) — (١١) محرج الخارج ك ، فيخرج الخارج (فان فلوتن) ، فيحرج الخارج (مرسيه) — (١٤) قلطى ك — (١٥) سلوق ك — (١٧) ومرمعته ك (١٩) سلبه ك — سلته ك

(١٧ — ١٨) «الفقير . . . شلقة» الحيوان ١ : ١٠٧ ط الحلبى ، عيون الأخبار ٢ : ٤٦ .

ينوح على نفسه . وأنّ آدم إنما سمّى آدم * لأنه حُذِى من أديم الأرض . وقالوا : كان لونه فى أدمة لون الأرض ، وأن المسيحَ إنما سُمِّى المسيحَ لأنه مُسِــحَ بدُهن البركة . وقال بعضُهم : لأنه كان لا يُقيم فى البلد الواحد ، وكان كأنه ماسحٌ يمسَح الأرض .

ثمّ رَجع الحديث إلى أعاجيب أبى عبد الرحمن :

وكان أبو عبد الرحمن يُعجَب بالرءوس ويحمَدُها ويصفها . وكان لا يأكلُ اللحم إلا يومَ أضحى ، أو من بقيّة أضحيَّته ، أو يكونُ فى عُرس أو دَعوة أو سُفرة . وكان سمّى الرأس عُرسا * لما يجتمع < فيه > * من الألوان الطيِّبة. وكان يُسمِّيه مرّة الجامع ، ومرّة الـكامل.

وكان يقول : « الرأس شىء واحد ، وهو ذو ألوان عَجيبة وطُعوم مختلفة . وكل قِدر وكلّ شِواء فإنما هو شىء واحد ، والرأس فيه الدِماغ فطعمُ الدماغ على حدة ، وفيه العَينان وطعمُهما شىء على حدة ، * وفيه الشحمة التى بين أصل الأذُن ومؤخّر العين وطعمُها على حدة * ، على أنّ هذه الشّحمة خاصّة أطيبُ من المخّ وأنعمُ من الزبد وأدسم من السلاء ، وفى الرأس اللسان وطعمْه شىء على حدة ، وفيه الخَيْشوم والغُضروف الذى فى الخيشوم وطعمهما شىء على حِدة ، وفيه لحمُ الخدَّين وطعمُه شىء على حِدة » ، حتى يقسِّم أسقاطه الباقية . ويقول : « الرأس سيّد البدَن ، وفيه الدماغ ، وهو معدِن العقل ، ومنه يتفرّق العَصَب الذى فيه الحسّ ، وبه قِوام البدن . وإنما القلبُ باب العقل . كما أنّ النفسَ هى المدرِكة ، والعينُ هى بابُ الألوان . والنفسُ هى السامعة الذائقة ، وإنما الأنف والأذن بابان . ولولا أن العقلَ فى الرأس لما ذَهبَ العقل من الضربة تصيبه ، وفى الرأس الحواسّ الخمس » . وكان ينشِد قول الشاعر :

إذا ضرَبوا رأسى ، وفى الرأس أكثرى   وغودِرَ عنــدَ الملتقَى ثمّ سائرى

(١) آدما ك – (٧) عرس ك – < فيه > ليست بالأصل (١٠–١١) < وفيه الشحمة . . . حدة > العقد : ساقطة فى الأصل

(٨ – ١٩) « وكان يقول . . . سائرى » العقد ٦ : ١٨٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

(١٩) « إذا . . . سائرى » الحيوان ٦ : ١٥٣ ط الساسى (لتأبط شرا) ، عيون الأخبار ٣ : ٢٠٠ ، العقد ١ : ١١٩ ط لجنة التأليف ، الأغانى ٢١ : ١٣٦ ط بريل (للشنفرى) .

وكان يقول : « الناس لم يقولوا : هذا رأس الأمر ، وفلانٌ رأسُ الكتيبة ، وهو رأس القوم ، وهم رؤوس الناس وخراطيمهُم وأنفهم ، واشتقّوا من الرأس الرياسة والرئيس ، وقد رأَسَ القوم فلان ، إلا والرأسُ هو المثَل وهو المقدم » .

وكان إذا فرَغ من أكل الرأس عَمَد إلى القِحف وإلى اللَّحْيَين* فوضعه بقرب بيوت النمل والذّر ، فإذا اجتمعن* فيه أخذه فنفَضه فى طست فيها ماء ، فلا يزال يعيد ذلك فى تلك المواضِع ، حتى يقلع أصل النمل والذرّ من داره ، فإذا فَرغ من ذلك ألقاه فى الحطَب ، ليوقَد به سائرُ الحطب* .

وكان إذا كان يومُ الرؤوس أقعدَ ابنَه معه على الخِوان . إلا أن ذلك بعد تشرُّط طويل ، وبعدَ أن يقفَ به على ما يريده . وكان فيما يقول له : « إيّاك ونَهَمَ الصبيان ، وشرَهَ الزرّاع ، وأخلاق* النوائح . ودع عنك خبطَ الملاحين والفَعَلة ، ونهشَ الأعراب والمهنة . وكل من* بين يديك ، فإنما حظك الذى وقع* وصار أقربَ إليك . واعلم أنه إذا كان فى الطعام شىء طَريف ولُقمة كريمة ومُضغة شهيّة ، فإنما ذلك للشَّيْخ المعظّم والصبىّ المدلّل ، ولستَ واحداً منهما . فأنتَ قد تأتى الدَعوَات وتجيب* الولائم ، وتدخلُ مَنازل الإخوان وعهدُك باللّحم قريب ، وإخوانك أشدُّ قَرَماً إليه منك . وإنما هو رأس واحد ، فلا عليك أن تتَجافى عن بعضٍ وتصيب بعضاً . وأنا بعدُ أكرَه لك الموالاة بين اللحم ، فان الله يُبغِضُ أهلَ البيتِ اللّحِمين. وكان < عمر > * يقول: إياكم وهذه المجازر ، فإن لها ضراوةً كضراوة الخمر . وكان يقول : مُدمِن اللحم كمدمن

(٤) اللحيين (عيون الأخبار) : الحمين ك ، الجبين (فان فلوتن) – (٥) اجتمعت (فان فلوتن) – (٧) فاستوقده فى التنور (عيون الأخبار) – (١٠) واحلاق ك – (١١) ما (فان فلوتن) – وقع < لك > (فان فلوتن) – (١٣) وتجيب الولائم (عيون الأخبار) : [وتجيب] الولائم ك ، والولائم (فان فلوتن) – (١٦) < عمر > (عيون الأخبار) : ساقطة فى الأصل .

(١٠٧ : ٥–١٠٨ : ٧) « وكان ابو عبد الرحمن . . . الحطب » عيون الأخبار ٣ : ١٩٩–٢٠٠ ، العقد الفريد ٤ : ٢١٩ ط الأزهرية – (١٦ – ١٧) « وكان . . . الخمر » الحيوان ٢ : ٨١ ط الحلبى ، حلية الأولياء ٢ : ١٩٤ (لسالم بن عبد الله)

الخمر . وقال المسيحُ * — ورأى رجُلا يأكل اللحم — فقال : لحمٌ يأكل لحماً ، أفٍّ لهذا عَمَلا . وذكر هَرِم بن قُطبة اللحمَ ، فقال : وإنه ليقتلُ السباع . وقال المهلب : لحمٌ واردٌ على غير قَرِم ، هذا الموت الأحمر . وقال الأول : أهلك الرجال الأحمران : اللحمُ والخمر ، وأهلك النساء الأحمران : الذهب والزعفران .

أىّ بنىّ عوِّد نفسَك الأثرة ومجاهدةَ الهوى والشهوة ، ولا تنهَش نهشَ الأفاعى ولا تخضِم خَضم البراذين، ولا تُدِم الأكل إدامة النعاج ، ولا تلقَمْ لقمَ الجمال . قال أبو ذرّ ، لمن بدّل من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تخضِمون ونقضِم والموعد الله » . إنّ الله قد فضَّلك فجَعلك إنساناً، فلا تجعلْ نفسَك بهيمة ولا سَبُعاً . واحذر سُرعة الكظَّة وسرف البطنة . وقد قال بعضُ الحكماء : إذا كنت بطيناً فعدّ نفسَك فى الزَّمنى . وقال الأعشى :

والبِطنةُ ممَّا تسفِّهُ الأحلاما

واعلم أنّ الشبَع داعية البَشَم ، وأن البَشم داعية السَّقَم ، وأنّ السَّقَم داعية الموت . ومن مات هذه المِيتةَ فقد مات مِيتة لئيمة ، وهو قاتِل نفسه وقاتِل نفسه ألوَم من قاتل غيره . واعجبْ إن أردتَ العَجَب . وقد قال الله جلّ ذكره ، ولا تَقْتُلوا أنْفُسَكُمْ . وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضُنا بعضاً كان ذلك للآية تأويلا * .

أى بنىّ إن القاتلَ والمقتولَ فى النار . ولو سألتَ حُذّاق الأطباء لأخبروك أن عامَّة أهل القبور إنما ماتوا * بالتخَم . واعرف خَطأ من قال : أكلة ومَوْتَة ، وخذ بقول من قال : ربّ أكلة تمنع أكلات . وقد قال الحسنُ : يا ابنَ آدم كل فى ثُلُث بطنك ، واشرَب فى ثُلُث بطنك ، ودع الثُلُث للتفكُّر والتنفّس . وقال بكر بنُ عبد الله المزنى :

---

(١) الشيخ ك — (١٠) مما : يوما ك — (١٤) تأويل ك — (١٦) أتوا (فان فلوتن)

(١٨ — ١٩) «وقال المسيح ... عملا» محاضرات الراغب الأصبهانى ١ : ٢٩١ المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٦ هـ — (٦ — ٧) «قال أبو ذر ... الله» البيان والتبيين ٣ : ١٠٢ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ — (٩) «إذا كنت ... الزمنى» الحيوان ٧ : ٢٨ ط الساسى — (٩) «والبطنة ... الاحلاما» لسان العرب مادة ب ط ن

ما وجدتُ طَعم العيش حتى استبدلتُ الخَمْص بالـكِظَّة ، وحتى لم ألبس من ثيابى مايَسْتَخدمنى ، وحتى لم آكل إلا ما < لا > * أغسل يدىّ منه .

يا بنىّ والله ما أدّى حقّ الركوع ولا وظيفةَ السجود ذو كِظَّة ، ولا خَشَع لله ذو بِطنة . والصّوم مَصَحَّة ، والوجباتُ عيش الصالحين .

ثم قال : لأمرٍ ما طالت أعمارُ الهند ، وصحّت أبدان الأعراب . فلله * درّ الحارث ابنِ كلدة حين زعم أن الدواء هو الأزْم ، وأن الداء هو إدخال الطعامُ فى أثر الطعام .

أى بنىّ لم صَفَت أذهان العرب ، ولم صَدَقت أحساس الأعراب ، ولم صحّت أبدان الرُّهبان ، مع طول الإقامة فى الصوامع ، وحتى لم تعرِف النِّقْرِس ولا وَجع * المفاصل ولا الأورام ، إلا لقلّة الرزء * من الطعام ، وخفة الزاد والتبلّغ * باليسير ؟

أى بنىَّ إن نسيمَ الدنيا ورَوْح الحياة ، أفضل من أن تبيتَ كَظيظاً وأن تكون بقِصَر العُمر خليقاً . وكيف لا ترغبُ فى تدبيرٍ يجْمعُ لك صحّة البدَن ، وذكاء الذهن ، وصلاح المعاد * ، وكثرةَ المال ، والقرب من عَيْش الملائـكة .

أى بنىّ لم صار الضبُّ أطول شىء عمراً ، إلا لأنه إنما يعيشُ بالنسيم ؟ ولم زعم الرسولُ صلى الله عليه وسلم أن الصومَ وجاء ، إلا ليجعل الجوع حِجازاً دون الشهوات ؟ افهم تأديب الله ، فإنه لم يقصِد به إلا إلى مثلِك .

أىْ بنىّ قد بلغت تسعين عاماً مانغض * لى سنّ ، ولا تحرّك لى عَظم ، ولا انتشر لى عَصب ، ولا عَرَفتُ دَنين أذن ولا سَيَلان عين ولا سَلَس بول ، ما لذلك علة

---

(٢) < لا > صححنا : ليست بالأصل — (٥) فلله (عيون الأخبار) : مبهمة فى الأصل ، لله (فان فلوتن) — (٨) ولا وجع المفاصل (عيون الأخبار) : ولا المفاصل ك — (٩) الرزق (فان فلوتن) — التبليغ ك — (١٢) المعاد (عيون الأخبار) : المعا ك . وقارن نص العقد : « وصلاح الدين » — (١٦) نغض (عيون الأخبار) : نقص (فان فلوتن) ، فى الأصل مهملة

(١٠٨ : ٨ — ١١١ : ٢) « وكان إذا كان . . . ظلم » عيون الأخبار ٣ : ٢١٦ — ٢١٩ ، العقد الفريد ٤ : ٢١٩ — ٢٢٠ ط الأزهرية ، ٦ : ١٨٤ — ١٨٥ ط لجنة التأليف ،

إلا التخفيف من الزاد . فإن كنت تحبُّ الحياة فهذه سبيل الحياة ، و إن كنت تحب الموت فلا يبعد الله إلا من ظلم » .

هذه كانت وصيَّته فى يوم الرءوس وحده . فلم يكن لعِياله إلا التقمُّم ومصُّ العظم . وكان لا يشترى الرأس إلا فى زيادة الشهر ، لمكان زيادة الدماغ . وكان لا يشترى إلا رأسَ فتى لوفارة الدماغ ، لأنَّ دماغ الفتى أوفر و يكون مخه أنقص ، ومخّ المسن أوفر ودماغه أنقص . و يزعمون أنّ للأهلّة* والمحاق فى الأدمغة والدماء عملاً معروفاً ، و بينها فى الربيع والخريف فَضْلاً بيناً . وتزعم الأعراب والعَرَب أن النطفة إذا وَقَعت فى الرَّحِم فى أول الهلال ، خرَج الولد قويًّا ضخماً ، و إذا كان فى المِحاق خرج ضَئيلا شَخْتا . وأنشد قولُ الشاعر :

لَقِحت فى الهلال عن قُبُل الطه ... ر وقد لاحَ للضـــياء* بشيرُ

ثم نمى ولم يُراضَــع فلوا ... ورضاع المجحّ عيبٌ كبير

وكان أبو عبد الرحمن يشترى ذلك الرأسَ من جميع رَءّاسى بغداد ، إلا من رَءّاسى مسجد ابن رغبان . وكان لا يشتريه إلا يومَ سبت . واختلَطَ عليه الأمرُ فيما بين الشتاء والصَّيف ، فكان مَرَّةً يشتريه فى هذا الزمان ، ومرّةً يشتريه فى هذا الزمان .

وأما زهدُه فى رؤوس مسجِد ابن رغبان ، فإن البصريِّين يختارون لحمَ الماعز الخصىِّ على الضأن كله ، ورؤوس الضأن أشحمُ وألحمُ وأرخص رُخصاً وأطيب . ورأسُ التَّيس أكثر لحماً من رأس الخصىّ ، لأنّ الخصىَّ من الماعز يعرَق جِلدُه ، ويقلُّ لحمُ رأسه ولا يَبلغُ جِلدُه — و إن كان ماعزًا — فى الثمن عُشرَ ما يبلغُ جِلد التيس ، ولا يكون رأسُه إلا دونًا . ولذلك تخطاه إلى غيره .

وأما اختيارُ شراء الرؤوس يومَ السبت ، فإن القصّابين يذبحون يومَ الجمعة أكثر ، فتكثُرُ الرؤوس يومَ السبت على قَدْر الفَضل فيما يذبحون ، ولأن العوامَّ والتجّار والصنّاع لا يقرمون إلى أكل الرؤوس يوم السبت مع قُرب عهدِهم بأكل اللحم يومَ الجمعة ، ولأن عامّتهم قد

(٦) الأهلة ك — (٩) للضبا ك ، الصباح (فان فلوتن)

(٩) « لقحت . . . بشير » عيون الأخبار ٢ : ٦٥

يقيَت عنده فَضْلة ، فهى تمنَعه من الشهوة . ولأن الناس لا يكادون يجمعون على خوان واحد بين الرؤوس واللحم .

وأمّا اختلاط التدبير عليه فى فَرْق ما بين الشتاء والصّيف ، فوجهُ ذلك أنّ العِلَل كانت تتصوّر له ، وتعرِض له الدواعى على قَدْر قَرَمه وحركة شَهْوته ، صيفاً وافَق ذلك أم شِتاء . فإن اشتراه فى الصّيف ، فلأن اللحمَ فى الصيف أرخَص ، والرؤوس تابعة للحم ، ولأن الناسَ فى الشتاء لها آكل ، وهم لها فى القَيْظ * أترك . فكان يختار الرُّخصَ على حسن الموقع . فإذا قَوِيت دواعيها فى الشتاء ، قال : « رأسٌ واحد شِتْوى كرأسين صَيفيين ، لأن المعلوفة غيرُ الراعية ، وما * أكل الكُسبَ فى الحبْس مَوثقاً ، غيرُ ما أكل الحَشيش فى الصّحراء مُطلقاً » . وكان على ثِقة أنه سيأتى عليه فى الشّتاء مع صِحّته وبَدَنه ، وفى شكٍّ من استبقائه فى الصّيف ، لنُقصان * شهوات الناس للرؤوس فى الصيف ، فكان * يخافُ جَريرةَ تلك البقيّة وجناية تلك الفضلة . وكان يقول إن أكلتُها بعد الشبع لم آمن العطب : وإن تركتُها * لهم فى الصيف ، ولم يعرفوا العلّة ، طلبوا ذلك منّى فى الشتاء .

---

(٦) القنص ك — (٨) واما ك — (١٠) < و > لنقصان (فان فلوتن) — فكان، صححنا : أكان ك — (٧) تركها ك

طرف شتى

عن العنبرى وأبى قطبة وفيلويه

حدثنى المكىُّ قال: كنتُ يوماً عند العنبرىّ، إذ جاءت جارية أمِّه، ومعها كوز فارغ، فقالت: «قالت أمك: بلغنى أنّ عندك مزمَّلة *، ويومُنا يومٌ حارّ، فابعث إلىَّ بشربة منها فى هذا الكوز». قال: «كذبتِ أمى أعقلُ من أن تبعثَ بكوز فارغ ونردُّه ملآن. اذهبى فاملئيه من ماء حُبِّكم، وفرِّغيه فى حُبِّنا، ثمَّ املئيه من ماء مزمّلتنا، حتى يكونَ شىء بشىء».

قال المكىّ: فإذا هو يريدُ أن تدفع * جوهرًا بجوهر < وعرضا > بعرض *، حتى لاتربح أمه إلاصرفَ ما بين العرَضين الذى هوالبرد والحرّ، فأما عددُ الجواهر والأعراض، فمثلا بمثل.

وقال المكى: دخلتُ عليه يوماً، وإذا عندَه جُلَّة تمر، وإذا ظِئره جالسةٌ قبالته فكلما * أكل تمرةً رمى بنوَاتها إليها، فأخذَتها فمصّتها ساعة ثم عزلتها. فقلت للمكى: أكان يدّعُ على النواة من جسم التمر شيئاً؟ قال: والله لقد رأيتُها لا كت نواة مرةً بعد أن مصّتها، فصاحَ بها صَيْحة، لو كانت قَتلت قتيلا ما كان عنده أكثرُ من ذلك. وما كانت إلا فى أن تبادِلَه * الأعراض وتسلّم إليه الجوهر. وكانت تأخذُ حَلاوة النواة، وتودعُها نَدْوة الريق.

قال الخليل: كان أبو قطبة يستغلّ ثلاثة آلاف دينار. وكان من البخل يؤخر تنقية بالوعته إلى يوم المطر الشديد وسَيْل المتاعب، ليَكتَرى رجُلا واحداً فقط، يُخرج ما فيها *، ويصبُّه فى الطريق، فيجترِفُه السيل، ويؤدِّيه إلى القناة. وكان < بين > *

---

(٨) جوهرا بجوهر < وعرضاً > بعرض، صححنا: جوهر الجوهر بعرض ك، جوهر < بعرض > لجوهر بعرض (مرسيه) – (١٢) فلما ك – (١٥) تناوله ك – (١٩) ما فيها (فان فلوتن): منه ك – ليست بالأصل.

موضع بئره والصبُّ قدرُ مائتى ذراع ، فكان لِمكان زيادة دِرهمين يحتمِل الانتظار شهراً أو شهرين . وإن هو جَرى فى الطريق ، وأذِىَ به الناس .

وقال : ونَظر يوماً إلى الكَسَّاحين ، وهو مَعنا جالس فى رجال من قريش ، وهم يُخرجون ما فى بالوعته ، ويرمُون به فى الطريق ، وسيلُ المثاعب يحتَمِله ، فقال : أليس البطُّ والجِداء والدَّجاج والفِراخ والدرَّاج وخبزُ الشعير والصَّحْناء والكرَّاث والجُواف جميعاً تصيرُ إلى ماترون ؟ فلِمَ يُغالَى بشىء يصيرُ هو والرخيصُ فى مَعْنى واحد ؟

قال الخليل : وسَمِعتُه يقول : إيَّاكم والفُسَاء فى ثيابكم التى تخرجُون فيها ، وفى لُحُفكم التى تنامون فيها ، فإن الفساء يدرُّ القمل . إنى والله ما أقول إلا بعلم . ثم قال : علمتم أنَّ الصوتَ يدبغ ؟ قلنا : وكيفَ صار الصوتُ يدبغ ؟ قال : الفَسوة هى الضَّرطة بلا صَوت ، وإنما تخرجان جميعاً من قارورة* واحدة ، فكيفَ تكون واحدةٌ طيبة وأخرى مُنتنة ؟ فهذا الذى يدلُّكم أن الصوتَ هو الذى يدبُغها .

قال : وهم ثلاثة إخوة : أبو قطبة والطيل وبانى* ، من وَلَد عتَّاب بن أسيد**. واحدٌ منهم كان يحجُّ عن حَمزة ، ويقولُ : استشهد قبلَ أن يحجَّ . والآخر كان يضحِّى عن أبى بكر وعمر ، ويقولُ : أخطأ السنَّة فى ترك الضحية وكان الآخر يُفطِر عن عائشة أيام التشريق ، ويقول غلِطت — رحمها الله — فى صَوْمها أيَّام العيد . فمن صام عن أبيه وأمّه ، فأنا أفطِر عن عائشة .

حدثتنى امرأة تعرِفُ الأمورَ ، قالت :

كان فى الحىِّ مأتم اجتَمع فيه عجائز من عجائز الحىّ ، فلما رأيْن أن أهلَ المأتم قد أقمن المناحة ، اعتزلنَ وتحدَّثن . فبينا هنَّ فى حديثهن ، إذ ذكرنَ برَّ الأبناء بالأمهات ، وإنفاقَهم عليهنَّ . وذكَرت كلُّ واحدةٍ منهنَّ مايُوليها ابنُها . فقالت واحدةٌ منهنَّ ،

---

(١٠) هاروره ك ، قاذورة (دى جويه) — (١٢) وبابى (فان فلوتن) .

(١٢ — ١٦) « وهم . . . عائشة » عيون الأخبار ٢ : ٥٥ ، العقد الفريد ٤ — ٢٠٢ ط الأزهرية .

وأم فيلويه * ساكِتة، وكانت امرأةً صالحة ، وابنُها يظهر النُّسك ويدين بالبخل، وله حانوت فى مقبرة بنى حِصن يبيع فيها الأسقاط .

قالت : فأقبلَت على أمّ فيلويه * ، قالت لها : مالكِ لا تحدِّثين معنا عن ابنِك كما يتحدثن ؟ وكيفَ صنع فيلويه فيما بينَك وبينَه ؟ قالت : كان يُجرى علىّ فى كلِّ أضحى دِرهماً . ثم قالت : وقَد قطعه أيضاً . فقالت لها المرأة : وما كان يُجرى عليكِ إلا دِرهماً ؟ قالت : ما كان يُجرى علىّ إلّا ذاك ، ولقد ربما أدخلَ أضحى فى أضحى . فقالت : فقلت : يا أُم فيلويه وكيفَ يُدخل أضحى فى أضحى ؟ قد يقولُ الناس : إنّ فلاناً أدخلَ شهراً فى شَهر ، ويوماً فى يوم ، وأما أضحى فى أضحى ، فهذا شىء لابنك * لا يَشرَكه فيه أحد .

(١) قبلوه ك – (٣) قيلويه ك – (٨) [لابنك] (فان فلوتن) .

(١١٤ : ١٧ – ١١٥ : ٨) قصة فيلويه السقطى : الحيوان ٧ : ٥٧ ط الساسى .

قصة تمّام بن جعفر

كان تمّامُ بنُ جعفر بخيلاً على الطعام، مفرطَ البخل. وكان يُقبِلُ على كلّ من أكل خبزَه بكلّ علّة، ويُطالبه بكلّ طائلة. وحتى ربما استخرّج عليه أنه كان حلال الدم*.

وكان إن قال له نديم: «ما في الأرض أحدٌ أمشَى منّي، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحُضر منّي» قال: «وما يمنعُك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحملُ الرجلَ إلّا البطن؟ لا حَمِد الله من يَحمَدك». فإن قال، «لا والله إن أقدر أن أمشي لأني أضعف الخلق عنه. وإني لأنبهر مِن مَشْيِ ثلاثين خطوة» قال: «وكيف تمشي، وقد جعلتَ في بطنك ما يحملهُ عشرون حمّالا*؟ وهل ينطلِقُ الناس إلا معَ خفة الأكل؟ وأيّ بطين يقدِرُ على الحركة؟ وإنّ الكظيظ ليعجزُ عن الركوع والسجود، فكيفَ بالمشي الكثير*؟».

فإن شكا ضِرسَه، وقال: «ما نمتُ البارحةَ مع وَجَعه وَضربانه» قال: «عجبت كيفَ اشتكَيْتَ واحداً، وكيفَ لم تشتكِ الجميع؟ وكيفَ بقيت إلى اليوم في فيك حاكّة؟ وأي ضِرس يقوى على الضرس والطحن؟ والله إن الأرحاء السورية لتكِلّ، وإن المنحاز* الغليظَ ليتعبُه الدقّ. ولقد استبطأتُ لكَ هذه العلّة. ارفقْ فإن الرِّفقَ يُمن، ولا تخرُقْ بنفسِكَ فإنّ الخُرْقَ شؤم». وإن قال: «لا والله إن اشتكيت ضرساً لي قط، ولا تحلحل* لي سنٌّ عن موضِعه، منذ عرفتُ نفسي» قال: «يا مجنون لأن كثرة المضغ

---

(٣) كابن جلاد الدم ك – (٨) حمال ك – (١٠) الكبير ك ، التكبير (فان فلوتن) – (١١) المنحار ك – المنجان (فان فلوتن) – (١٦) تجلجل (فان فلوتن)

(١٦ – ١١٧:١) «كثرة ... أصولها» كتاب التطفيل للخطيب البغدادي، ص ٨٩، مطبعة القدسي.

تشدُّ العُمور وتقوِّى الأسنان وتدبغ اللثة وتغذو أصولَها ، وإعفاء الأضراس من المَضْغ يريِّخها * ، وإنما الفم جزء من الإنسان . وكما أن الإنسان نفسَه إذا تحرّك وعَمِل قَوِى ، وإذا طال سكونُه تفتّخ واسترخى ، فكذلك الأضراس . ولكن رِفقاً ، فإن الإتعابَ ينقضُ القوة . ولكلٍّ شىء مِقدارٌ ونهاية . فهذا ضِرسُك لا تشتكيه ، بطنُك أيضاً لا تشتكيه؟».

فإن قال : « والله إن أروَى من الماء ، وما أظنُّ أنَّ فى الدنيا أحداً أشربَ منِّى للماء » قال : «لا * بدَّ للتراب من ماء . ولا بد للطين من ماء يبلّه ويَرويه . أو ليست * الحاجة على قَدْر كثرته وقلّته . والله لو شربتَ ماء الفراتِ ما استكثرتُه لك ، مع ما أرى من شدّة أكلك وعِظم لَقمك . تدرى ما قد تَصنع ؟ أنتَ والله تلعب . أنت لستَ ترى نفسك فسلْ عنك من يصدُقك ، حتى تعلَم أنَّ ماء دجلة يقصُر عما فى جَوْفك » . فإن قال : « ما شربتُ اليومَ ماء البتة ، وما شربتُ أمس بمقدار نصف رطل . وما فى الأرض إنسان أقلّ شرباً منِّى للماء » قال : «لأنك لا تدعُ لشُرب الماء مَوْضِعاً ، ولأنك تكنِز فى جَوفك كنزاً لا يجدُ الماء معه مدخلاً . والعجبُ لا تتخم ، لأن من لا يشرب الماء على الخِوان لا يدرى مقدارَ ما أكل ، ومن جاوَز مِقدار الكِفاية كان حرياً بالتخمة » .

فإن قال : « ما أنام الليلَ كلَّه . وقد أهلكَنى الأرق » قال : « وتدعُك الكظَّة والنَّفخة والقرقرة أن تنام ؟ والله لو لم يكن إلّا العَطش الذى ينبِّه الناس لما نمتَ . ومن شَربَ كثيراً بال كثيراً . ومن كان الليلَ كلَّه بين شُرب وبَول ، كيف يأخذه النوم ؟ » .

فإن قال : « ماهو إلا أن أضعَ رأسى ، فإنما أنا حجر مُلقًى إلى الصبح» قال : «ذلك لأن الطعامَ يسكر * ويخدِّر ويختر * ويبلُّ الدماغ ويبلُّ العروق ويستَرخى عليه جميعُ البدَن . ولو كان فى الحقِّ لكان ينبغى أن تنامَ الليلَ والنهار » .

فإن قال : « أصبحتُ وأنا لا أشتهى شيئاً » قال : « إياك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً ، فإن أكلَ القليل على غير شَهوة أضرُّ من الكثير مع * الشهوة . قال الخوانُ : ويلٌ لى

---

(٢) يريخها (مرسيه) : يريحها (فان فلوتن) ، ومن القراءات الجائزة : يرنخها ، يربخها — (٦) ساقطة فى ك فى الموضعين — أو ليت (فان فلوتن) — (١٨) يسكن (فان فلوتن) — ويحير ك ، ويحير (فان فلوتن) — (٢١) من ك

ممّن قال لا أريد . وبعد فكيفَ* تشتهى الطعامَ اليوم ، وأنتَ قد أكلت بالأمس طَعام عشرة ؟ » .

وكان كثيرًا ما* يقول لنُدمائه : « إياكم والأكل على الُخمار . فإنّ دواء الخمار الشرابُ. الخمارُ تخَمَة ، والمتخم إذا أكل ماتَ لامحالة . وإياكم والإكثارَ فى عَقِب الحِجَامة والفصد والحمَّام . وعليكم بالتخفيف فى الصيف كله . واجتَنِبوا اللحم خاصَّة » .

وكان يقول : ليسَ يفسدُ الناسَ إلَّا الناس . هذا الذى يضرُط ويتكلّم بالكلام البارد وبالطرَف المستنكرة ، لو لم يُصبْ من يضحَك له ، وبعضَ من يشكره ويَتَضاحَك له ، أو ليسَ هو عنده إلّا أن* يظهِر العَجَب به ، لما ضرَط الضارط ، ولما تكلف النوادر إلّا أهله . قولُ الناس للأكول النَّهم وللرَّغيب الشَّرِه : « فلان حسنُ الأكل » هو الذى أهلكه وزاد فى رُغبه* ، حتى جعَل ذلك صِناعة ، وحتى ربما أكل — لمكانِ قولهم وتقريبهم وتعجُّبهم — ما* لا يُطيقه فيقتُله* فلا يزالُ قد هَجَم على قوم ، فأكل زادهم وتركهم بلا زاد . فلو قالوا — بدَل قولِهم : فلانٌ حسَن الأكل — : فلان أقبحُ الناس أكلاً ، كان ذلك صلاحًا للفريقين* .

ولا يزال البَخيلُ على الطعام قد دعا الرغيبَ البطنِ ، واتّخذ له الطعام الطيِّب ، لينفى عن نفسه المقالة ، وليكذِّب عن نفسه تلك الظنون . ولو كان شدّة الضِّرس يعدُّ فى المناقب ويمدحَ صاحبُه به* فى المجالس ، لكانت الأنبياء آكلَ الخلق ، ولخصَّهم الله جلّ ذكره من الرُغب* بما لم يُعطِه أحداً من العالَمين . وكيفَ وفى مأثور الحديث « إنّ المؤمنَ يأكل فى مِعًى واحد ، وإنّ المنافقَ يأكل فى سَبعة أمعاء » . أوَلسنا قد نراهم يشتمون بالنَّهَم وبالرُّغب وبكثرة الأكل ، ويمدحون بالزّهادة وبقلّة الطّعم* ؟ أوَليسَ قد قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « من أدلّه على الحسناء القَتين ؟ » . وقد سابّ رجلٌ أيوبَ بنَ

---

(١) وكيف (فان فلوتن) – (٣) بما ك – (٨) إذا كان ك – (١٠) رغبه ، صححنا : رغبته ك – (١١) بما ك – فيقتل (فان فلوتن) – (١٣) لفريقين (فان فلوتن) – (١٦) [به] (فان فلوتن) – (١٧) الرغبة ك (فى الموضعين) – (١٩) الطعام (فان فلوتن) .

(١٧–١٨) « المؤمن . . . أمعاء » صحيح البخارى : الأطعمة : ١٣

سليمان بن عبد الملك ، فقال فى بعض ما يسبُّه : ماتت أمّك بغَرًا ، وأبوك بَشَمًا .

وبعدُ فهل سَمِعتم بأحد قطّ فخَر بشدَّة أكل أبيه ، فقال : أنا ابن آكل العرب ؟ بل قد رأينا أصحاب النبيذ والفتيان يَتمدَّحون بكثرة الشرب ، كما يتمدحون بقلّة الرّزء . * وكذلك* قالت العرب . قال الشاعر :

تــكفيه فلذة كِبد إنْ ألمَّ بها   من الشِّوَاء ويكفى* شربه الغمر

وقال :

لا يتأرَّى لمــا فى القِدر يطلبهُ   ولا تراه أمام القـــوم يقتفِر

وقال :

لا يغمزُ الساقَ من أيْن ولا وَصَم   ولا يعضُّ على شرسوفه الصَّفَر

(والصَّفَر هى حيَّات البطون ، إنما تكونُ من الفُضول والتَخَم ، ومن الفساد والبَشَم) .

وشَرِب مرَّة النبيذ ، وغنَّاه المغنِّى ، فشق قميصَه من الطرَب ، فقالَ ، لمولى له ، يقال له المحلول** ، وهو إلى جنبه : « شقّ أيضاً أنت — ويلك — قميصَك » — والمحلول هذا من الآيات — قال : « لا والله لا أشقّه ، وليسَ لى غيره » . قال : « فشقّه ، وأنا أكسوك غداً » قال : « فأنا أشقّه غداً » . قال : « أنا ما أصنَع بشقِّك له غداً ؟ » قال : « وأنا ما أرجو من شقه الساعة ؟ » .

فلم أسمَع بإنسان قط يقايِسُ ويُناظِر فى الوقتِ الذى إنما يشقُّ فيه القميصَ من غلبة الطَّرب ، غيرَه وغيرَ مولاه محلول .

---

(٣) الرزء : الرزق ك — (٤) ولذلك (فان فلوتن) — (٥) ويكفى (المبرد) : ساقطة فى الأصل ، ويروى (فان فلوتن) .

(٥ — ٩) « تكفيه . . . الصفر » الاصمعيات ص ٩١ ، ٩٢ ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ م الكامل للمبرد ٣ : ٢٨٥ ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٣٩ هـ ، أمالى السيد المرتضى ٣ : ١١٠ — ١١١ ، مختارات ابن الشجرى ، ص ٩ ، ط ١٩٢٥ م ، أمالى القالى ، ١ : ٦ ، أدب الكاتب ص ١٧ ، ط ١٣٣٠ (لأعشى باهلة) . والبيت الأول فى إصلاح المنطق لابن السكيت ، ص ٣١٦ والثانى ص ١٩٩ ، ط دار المعارف ، ١٩٤٩ م .

طرف شتى

دخل علىُّ الأعمى على يُوسف بن كلٍّ خير، وقد تغدّى، فقال: « ياجارية هاتى لأبى الحسَن غداء ». قالت: « لم يبقَ عندنا شىء » قال: « هاتى — ويلك — ما كان، فليسَ من أبى الحسن حِشمة ». ولم يشكّ علىٌّ أنه سيؤتى برغيف ملطخ، و برُقاقة ملطّخة، وبسكّر و ببقيّة مرق، وبعَرْق و بفَضلة شواء، و ببقايا ما يفضُل فى الجامات والسكرّجات. فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أرز قاحل، لاشىء معه * غيره. فلمّا وضَعوا الخِوان بين يديه، فأجال يدَه فيه، وهو أعمى، فلم يقع إلا على ذلك الرغيف. وقد علم أنّ قوله: « ليس منه حِشمة » لا يكون إلا مع القليل. فلم يظن أن الأمر بلغ ذلك. فلمّا لم يَجِدْ غيرَه، قال: « ويلكم ولا كل هذا بمرّة. رفعتم الحشمةَ كلها. والكلامُ لم يقع إلا على هذا؟ ».

حدّثنى محمد بن حسّان الأسود، قال: أخبرنى زكريّا القطان قال: كان للغزّال قطعة أرض قُدّامَ حانوتى. فأكرى نصفَها من سمّاك، يسقط عنه ما استطاعَ من مؤنة الكِراء. قال: وكان الغزّال أعجوبة فى البُخل، وكان يجىء من مَنزله ومعه رغيفٌ فى كمه، فكان أكثرَ دهره يأكله بلا أدم، فإذا أعيا عليه الأمر أخذ من ساكنه جُوافة * بحبّة، وأثبتَ عليها فَلساً فى حسابه. فإذا أراد أن يتغدّى أخذ الجُوافة، فمسحها على وَجه الرغيف، ثم عضّ عليه. وربما فتحَ بطنَ الجوافة فبطّن * جنبيها و بطنها باللقمة بعد اللقمة. فإذا خاف أن يُنهكها ذلك وينضمّ بطنُها، طلبَ من ذلك السّماك شيئاً من مِلح السمك. فحشا جَوْفها لينفخها، وليوهِمَ أن هذا هو مِلحها الذى مُلّحت به. ولربما غلبته شهوته، فكدَم طرْفَ أنفها، وأخذ من طرَف الأرنبة ما يُسيغ * به لقمَته. وكان ذلك منه لا يكون إلا فى آخرها لقمة، ليطيّب فمه بها، ثم يضعُها فى ناحية. فإذا اشترى من امرأة غَزْلا أدخَل تلك الجُوافة فى ثمن الغزَل، من طريق إدخال العُروض، وحسبها عليها * بفَلس. فيسترجِعُ رأسَ المال، ويُفضل الأدم.

(٦) [معه] (فان فلوتن) — (١٥) فبطن ك : فيطر (فان فلوتن) — (١٨) ما تشبع ك — (٢٠) عليها (فان فلوتن) : عليه ك .

وروَى أصحابنا عن عبدِ الله بن المقفع ، قال :

< كان > * ابن جُذام الشبى * يجلسُ إلىَّ ، وكان ربّما انصرف معى إلى المنزل ، فيتغدّى معنا ويقيمُ إلى أن يُبرد . وكنت أعرفه بشدّة البخل وكثرةِ المال . فألحّ علىّ فى الاستزارة ، وصمّمت عليه فى الامتناع . فقال : جعلتُ فداك أنت تظنّ أنى ممّن يتكلف وأنت تُشفِق علىّ ؟ لا والله إن هى إلا كُسَيرات يابِسة ، وملح ، وماء الحب . فظننتُ أنه يريد اختلابى بتهوين * الأمر عليه . وقلتُ : إن هذا كقولِ الرجل : ياغلام أطعِمنا كِسرة ، وأطعم السائلَ خمسَ تمرات . ومعناه أضعافُ ما وقعَ اللفظُ عليه . وما أظنّ أن أحداً يدعُو مثلى إلى الخُرّيبة * من الباطنة * * ، ثم يأتيه بكِسرات وملح .

فلما صرت عنده ، وقرّبه إلىّ ، إذ وقف سائل بالباب فقال : أطعِمونا مما تأكلون ، أطعمكم الله من طَعام الجنّة . قال : بورك فيك . فأعاد الكلام ، فأعاد عليه مثلَ ذلك القَوْل . فأعاد عليه السائلُ ، فقال : اذهب — ويلكَ — فقد ردّوا عليك . فقال السائل : سُبحان الله ما رأيتُ كاليوم أحداً يردّ من لُقمة ، والطعامُ بين يديه . قال : اذهب — ويلكَ — وإلاّ خرجتُ إليكَ — والله — فَدَققتُ ساقيك . قال السائل : سبحان الله ، ينهى الله أن يُنهر السائل ، وأنتَ تدقّ ساقيه؟ فقلت للسائل : اذهبْ وأرح نفسك ، فإنك لو تعرف من صِدق وعيده مثلَ الذى أعرفُ ، لماوقفتَ طرفة عين ، بعد ردّه إياك .

وكان أبو يعقوبَ الذقنان يقول : ما فاتنى اللحمُ منذ ملكتُ المال . وكان إذا كان

---

(٢) < كان > : ساقطة فى الأصل – الشبى (؟) : الشى ك – (٦) لتهوين ك – (٨) الخربية ، صححنا : الحربية ك .

---

(١) « قصة ابن المقفع مع ابن جذام الشبى » البيان والتبيين ٢ : ٢٠٣ – ١٠٤ ط الفتوح ، المحاسن والمساوى للبيهق ٢٧٧ – ٢٧٨ ، العقد الفريد ٤ : ٢٢١ ط الأزهرية ، ٦ : ١٨٦ ط لجنة التأليف وانظر البخلاء للخطيب (ورقة ٢٢) وقد وضع الأعمش موضع ابن المقفع .

يومُ الجمعة أشترى لحمَ بقَر بدرهم ، واشترى بصَلا بدانِق ، و باذنجاناً بدانق ، وقَرعة بدانق، فإذا كان أيامُ الجزَر فجزراً بدانق ، وطبَخه كله سِكباجا * . فأ كل وعيالَه يومئذ خبزَهم بشىء من رأس القِدر ، وما ينقطعُ فى القِدر البَصَل من والباذنجان والجزَر والقَرع والشحم واللحم . فإذا كان يومُ السبت ثرَّدوا خبزَهم فى المرَق . فإذا كان يومُ الأحد أ كلوا البصَل . فإذا كان يومُ الاثنين أ كلوا الجزَر . فإذا كان يومُ الثلاثاء أ كلوا القَرع . فإذا كان يومُ الأربعاء أ كلوا الباذنجانَ . فإذا كان يومُ الخميس أ كلوا اللحم . فلهذا كان يقول : ما فاتنى اللحمُ منذُ ملكتُ المال .

قال أصحابنا : نزلنا بناس من أهل الجزيرة ، و إذا هم فى بلاد باردة ، و إذا حطَبهم شرُّ حَطب ، و إذا الأرضُ كلّها غابةٌ واحدة طَرفاء . فقلنا : « ما فى الأرض أ كرم من الطرفاء » ، قالوا * : « هو كريم ، ومن كرَمه نفرّ . » . قالوا * : فقلنا : « وما الذى تفرّون منه ؟ » قالوا : « دخانُ الطرفاء يهضِم الطعام ، وعيالُنا كثير » .

وقد عاب ناسٌ أهل المازح والمدير ** بأمور : منها أنّ خشكنانهم ** من دقيق شَعير ، وحشْوه — الذى < يكون > * فيه من الجوْز والسكّر — من دَقيق خشكار . وأهلُ المازح لا يُعرفون بالبخل ، ولكنّهم أسوأُ الناس حالاً ، فتقديرُهم على قَدْر عيشهم . و إنما نحكى عن البُخَلاء الذينَ جَمَعوا بينَ البُخل واليُسر ، و بينَ خَصْب البِلاد وعيش أهل الجَدْب . فأمّا من يضيِّق على نفسه لأنّه لا يعرفُ إلا الضيق ، فليسَ سبيلهُ سبيلَ القوم .

قال المكى : كان لأبى عمّ يقال له سليمان الكثرىّ . سمّى بذلك لكثرة ماله . وكان يقرِّبنى وأنا صبىّ إلى أن بلغت . ولم يَهَبْ لى مع ذلك التقريب شيئاً قطّ . وكان قد جاوَزَ فى ذلك حدَّ البخلاء . فدخلتُ عليه يوماً ، و إذا قدّامَه قطعُ دار صينى لا تَسْوى قيراطاً ؛ فلما نال حاجتَه منها ، مددتُ يدى لآخذَ منها قطعة ، فلما نظرَ إلىّ قبضتُ يدى ، فقال : « لا تنقبض * وانبسط واسترسل وليحسن ظنّك ، فإن حالَك عندى على ما تحبّ ، فخذه كلّه ، فهو لك بزَوْبره و بحذافيره ، وهو لك جميعاً ؛ نفسى بذلك

---

(٢) سكباج ك — (١٠) قال ك — [قالوا] (فانفلوتن) — (١٣) < يكون > صححنا : ليست بالأصل

سخيّة . والله يعلمُ أنى مسرور بما وصل إليك من الخير » . فتركتُه بينَ يديه ، وقمت من عندِه وجعلتُه وجهى — كما أنا — إلى العِراق . فما رأيتُه وما رآنى حتّى مات .

وقال المكى : سمِعنى سليمان ، وأنا أُنشِدُ شعرَ امرئُ القَيْس :

لنـا غَنَم نسوّقهـا غِزار كأن قرونَ جِلّتهـا العصىّ
فتمـلأ بيتَنـا أقِطاً وسَمْناً وحسبُك من غِنًى شِبعٌ ورىّ

قال : لو كان ذكر مع هذا شيئاً من الكُسوة لكان جيداً .

وهو الذى قال ليحيى بن خالد ، حين نَقب فى أبى قُبيس ، وزاد فى داره : عَمَدت إلى شَيْخ الجبال فزَعزعْته وثلمتَ فيه .

وقال : حينَ عوتبَ فى قلّة الضّحك وشدّة القطوب : إن الذى يمنعُنى من الضّحك أنّ الإنسان أقربُ ما يكونُ من البَذل إذا ضَحِك وطابَت نفسه .

صحبنى محفوظٌ النقّاش من مسجدِ الجامع ليلاً . فلما صرتُ قربَ منزله ، وكان منزلُه أقرب إلى مسجد الجامع من منزلى ، سألنى أن أبيتَ عندَه ، وقال : « أين تذهبُ فى هذا المطر والبرد ، ومنزلى منزلُك ، وأنتَ فى ظُلمة وليسَ معك نار ، وعندى لبأ لم يرَ الناسُ مثلَه ، وتمرٌ ناهيك به جَوْدة ، لا تصلح إلا له » . فملتُ معه . فأبطأ ساعة ثم جاءنى بجام لِبَأ وطبق تمر، فلمّا مددتُ* قال : « يا أبا عثمان إنه لِبأ وغِلَظُه ، وهو الليلُ وركودُه ، ثم ليلةُ مطرٍ ورطوبة وأنتَ رجلٌ قد طعَنْتَ فى السنّ ، ولم تزل تشكو من الفالِج طرَفا ، وما زال الغليلُ* يُسرِع إليك ، وأنت فى الأصل لستَ بصاحبِ عِشاء . فإن أكلتَ اللّبأ ولم تبالغ ، كنتَ لا آكلاً ولا تاركاً ، وحرشت طباعَك، ثم قطعتَ الأكلَ أشهى ما كان إليك . وإن بالغتَ بتنا فى ليلة سَوْء ، من الاهتمام بأمرك . ولم نعدَّ لك نبيذاً ولا عَسَلا . وإنما قلتُ هذا الكلام ، لئلا تقول غداً : كانَ وكانَ . والله قد وقعتُ بين نابى

(١٥) لعلها : مددت يدى — (١٧) العليل ك

(٤ — ٥) « لنا غنم . . . ورى » ديوان امرىء القيس ص ١٤٩ . ط الرحمانية ١٩٣ م . الحيوان ٥ : ٤٩٥ (ط الحلبى)، عيون الأخبار ٢ : ٧٦ ، أمالى القالى ١ : ١٨ .

أسد . لأنى لو لم أجئك به، وقد ذكرته لك ، قلتَ: بَخِل به و بدا له فيه ؛ و إن جئتُ به ، ولم أحذّرك منه ، ولم أذكّرك كل ما عليك فيه ، قلتَ : لم يُشفِق علىّ ولم ينصح . فقد برئتُ إليكَ من الأمرين جميعاً . فإن * شئتَ فأكلة ومَوْتة ، و إن شئتَ فبعضُ الاحتمال، ونومٌ على سَلامة » .

فما ضحكتُ قط كضَحِكى تلك الليلة . ولقد أكلتُه جميعاً فما هضَمه إلّا الضحكُ والنشاط والسرور ، فيما أظنّ . ولو كان معى من يفهم ُطيبَ ماتكلّم به لأتى * علىّ الضحك، أو لقضى علىّ . ولـكن ضحِك من كان وحده لا يكونُ على * شطر مشاركة الأصحاب .

قال * أبو القماقم * * : أوّل الإصلاح ألا يردّ ماصار فى يدى لك ؛ فإن كان ماصار فى يدى لى فهو لى ، و إن لم يكنْ لى فأنا أحقّ به ممن صيّره فى يدى . ومن أخرَج من يده شيئاً إلى يدِ غيره ، من غير ضَرورة ، فقد أباحه لمن صيّره إليه . وتفريقك * إياه مثلُ إباحته .

وقالت له امرأة : ويحك يا أبا القماقم إنى قد تزوّجت زوجاً نهاريًّا ، والساعة وقته ، وليست علىّ هيئة فاشتر لى بهذا الرغيف آساً * ، وبهذا الفَلس دُهناً * ، فإنك تؤجر . فعسى الله أن يلقِيَ محبّتى فى قلبه . فيرزقَنى على يَدِكَ شيئاً أعيشُ به ، فقد والله ساءت حالى ، و بلَغ المجهود منّى ؛ فأخذَهما وجعلها وجهه . فرأته بعدَ أيام، فقالت : سبحان الله أما رحمتنى مما صنعتَ بى ؟ قال ويحكِ سقط والله منى الفَلس ، فمن الغمّ أكلتُ الرغيف .

وتعشّق واحدةً ، فلم يزَل يتبعُها ، ويبكى بين يدَيْها ، حتى رحِمته . وكانتْ مكثِرة وكان مقلاًّ . فاستهداها هَريسة ، وقال : أنتم أحذقُ بها . فلمّا كان بعدَ أيام تشهّى عليها رؤوساً * ، فلمّا كان بعدَ قليل طلبَ منهاحَيْسةَ . فلمّا كان بعدَ ذلك تشهّى عليها طَفَيْشيلة * .

---

(٣) وإن (فان فلوتن) — (٦) لأنى ك — (٧) لعلها : الا على — (٨) < و > قال (فان فلوتن) — (١٠) وتفريقك : وتعريفك ك ، وتغريبك (مرسيه) — (١٢) آس ك — دهن ك — (١٨) روس ك — (١٩) طفشيلة ك

(١٦ — ١٢٥ : ٢) « وتعشق . . . معدتك » انظر مثل هذه القصة فى نثر الدرر لزيد الكفاه الآبى ، خ دار الكتب المصرية

قالت المرأة : رأيتُ عِشق الناس يكونُ فى القَلب وفى الكبد وفى الأحشاء ، وعشقُك أنتَ ليس يجاوز مَعِدتك .

وقال أبو الأصبغ : ألحّ أبو القماقِم على قوْم عند الخِطبة إليهم ، يَسأل عن مال المرأة ويُحصيه . ويسأل عنه . فقالوا : قد أخبرناك بمالِها ، فأنت أىّ شىء مالُك ؟ قال: وماسؤالكم عن مالى ؟ الذى لها يَكفينى ويَكفيها .

سمعتُ شَيخاً من مَشايخ الأبلّة * * يزعم أنّ فقراء أهل البَصرة أفضلُ من فُقَراء أهل الأبلّة . قلتُ : بأىّ شىء فضّلتهم ؟ قال : هم أشدّ تعظيما للأغنياء ، وأعرفُ بالواجب .

ووَقع بين رجُلين أبلّيّين كلام . فأسمعَ أحدُهما صاحبَه كلاماً غليظاً ، فردّ عليه مثلَ كلامه . فرأيتُهم قد أنكَروا ذلك إنكاراً شديداً ، ولم أر لذلك سبباً . فقلت : لِم أنكرتم أن يقولَ له مثلَ ما قال ؟ قالوا : لأنه أكثرُ منه مالا . وإذا جوّزنا هـذا له ، جوّزنا لفقرائنا أن يكافِئوا أغنياءنا ، ففى هذا الفسادُ كلّه .

وقال حَمْدان بن صباح : كيف صار رِياحٌ يسمَعُنى ولا أسمعه ؟ < أفهو > * أكثرُ مالا منى ؟ ثم سكت .

قال : ويكونُ الزائر من أهل البَصرة عند الأبُلّىّ مقيماً مطمئنًّا ، فإذا جاء المدُّ قالوا * : « ماأينا مدًّا قطُّ ارتفَع ارتفاعَه ، وما أطيبَ السيرَ فى المدّ ، والسيرُ فى المدّ إلى البَصرة أطيبُ من السَّيْر فى الجزر * إلى الأبلّة » ؛ فلا يزالون به حتى يرى أنّ من الرأى أن يغتنم ذلك المدّ بعينه .

كان أحمدُ بنُ * الخاركىّ * * بخيلا ، وكان نفّاجاً . وهذا أغيظُ ما يكون . وكان يتّخذ لكلّ جُبّة أربعةَ أزرار ، ليرى الناسُ أن عليه جُبّتين . ويشترى الأعذاقَ والعراجين والسعَف من الكلاّء * ، فإذا جاء به الحمّال إلى بابه ترَكه ساعةً يُوهم الناس أنّ له من الأرَضين ما يُحتَمل أن يكون ذلك كلّه منها . وكان يكترى قُدُور الحمّارين التى تكون

---

(١٢) < أفهو > (فانفلوتن) : ليست بالأصل — (١٥) قالوا (فان فلوتن) : قدجاوك — (١٦) الجزر (فان فلوتن) : الحرة ك — (١٨) الخاركى ك — (٢٠) الكلا ك .

للنبيذ ، ثمّ يتحرّى أعظمَها ، ويهرب من الحمّالين بالكِراء ، كى يَصيحوا بالباب : « يشربونَ* الدّاذىّ* والسَّكَر ، ويحبِسون الحمّالين بالكِراء ؟ » وليسَ له فى منزله رِطل دِبس . وسمع قول الشاعر :

رأيتُ الخبزَ عزّ لدَيك حتّى ... حَسِبت الخبزَ فى جوّ السحاب
وما روّحتَنا لتذبّ عنــــا ... ولكنْ خِفتَ مرزئة الذباب

فقال : ولِم ذبّ عنهم لعنه الله ؟ والله* ما أعلم إلاّ أنه شهّى إليهم الطعام ، ونظف لهم القِصاع ، وفرّغهم له ، وسخّرهم عليه . ثم ألا تركَهم* تقعُ فى قِصاعهم وتسقُط على آنفِهم* وعيونهم ؟ هو والله أهل لما هو أعظم من هذا . كمْ* ترَون من مرّة قد أمرتُ الجارية أن تلقِيَ فى القَصْعة الذبابة والذبابتين والثلاثة ، حتى يتقزّز بعضُهم ، أو يكفى الله شرّه .

قال : وأمّا قوله :

رأيتُ الخــــبزَ عزّ لديك حتّى

قال : فإذا* لم أعزّ هذا الشىء الذى هو قِوام أهل الأرض ، وأصلُ الأقوات ، وأمير الأغذية ، فأىّ شىء أعِزّ . إى والله إنى أعزّه وأعزّه وأعزّه ، مدى النفس ، ما حَملتْ عَيْنى الماء .

وبلغ من نَفجه مع ذلك ما خبّرنى به إبراهيم بنُ هانئ** قال : كنتُ عندَه يوماً ، إذ مرّ به بعض الباعة ، فصاح : « الخَوْخ الخوخ » . فقلت : « وقد جاء الخوخ بعد ؟ » قال : « نعم قد جاء ، وقد أكثرنا منه » ، فدعانىَ الغيظُ عليه إلى أن دَعَوْتُ البيّاع ، وأقبلتُ على ابن الخاركى ، فقلتُ : « ويحَك نحنُ لم نسمع به بعدُ ، وأنت قد أكثرتَ منه ؟ وقد تعلمُ أن أصحابنا أترفُ منك » ، ثم أقبلتُ على البيّاع فقلت :

---

(٢) يشترون (فان فلوتن) — الذادى (فان فلوتن) — (٦) [والله] (فان فلوتن) — (٧) تركها (فان فلوتن) — (٨) آنافهم (فان فلوتن) — < أنت أيضاً دون > كم ك ، وعندى أنها أقحمت عند هامش بعض النسخ التى أخذت عنها نسختنا . والكلام مستقيم بدونها — (١٣) فان (فان فلوتن) .

« كيف تبيع الخوخ ؟ »، فقال : « ستة بدرهم » ؛ قلت : أنتَ ممن يَشترى ستَّ خَوْخات بدرهم ، وأنت تعلم أنه يباع بعد أيام مائتين بدرهم ؟ ثم تقول : وقد أكثرنا منه ، وهذا يقول : ستَّة بدرهم » قال : « وأىّ شىء أرخَصُ من ستَّة أشياء بشىء » .

كان غلام صالح بن عفَّان يطلبُ منه نِفطًا لبيت الحمار بالليل ، فكان يُعطيه كلَّ ليلة ثلاثةَ أفلس ، * والطسوج أربعةُ فلوس * . ويقول : طسُّوج يفضُل وحبة تنقص * و بينهما يرمى الرامى .

وكان يقول لابنه : تعطى صاحبَ الحمَّام وصاحبَ المعبر لكلٍّ واحد منهما طسُّوجًا * ، وهو إذا لم يرَ معك إلا ثلاثة أفلس لم يردّك ؟

قال أبو كعب : دعا موسى بنُ جناح جَماعة من جيرانه ، ليفطِروا عنده فى شهر رمضان ، وكنتُ فيهم . فلما صلَّينا المغرب ، * ونجَز ابنُ جَناح * ، أقبل علينا ثمَّ قال : لا تعجَلوا فإن العَجَلة من الشيطان . وكيف لا تعجَلونَ * وقد قال الله جلَّ ذكره : « وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً » وقال : « خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَل » . اسمَعوا ما أقول ، فإن فيما أقولُ حسن المؤاكلة ، والبعدَ من الأثرَة ، والعاقبةَ الرشيدة ، والسيرةَ المحمودة : « إذا مدّ أحدُكم يدَه إلى الماء فاستَسْقَى — وقد أتيتم بهطَّة أو بجوذابة أو بعصيدة ، أو ببعضِ ما يجرى فى الحَلق ولا يُساغ بالماء ، ولا يحتاجُ فيه إلى مَضْغ ، وهو طعامُ يَد لا طعام يدَين ، وليست على أهل اليَد منه مؤنة ، وهو ممَّا يذهبُ سَريعًا — فأمسِكوا حتى يفرغ صاحبُكم . فإنكم تجمَعون عليه خِصالا ، منها : أنكم تنغِّصون عليه تلك الشَّربَة * ، إذا عَلِمَ أنه لا يفرغ إلا مع فراغكم . ومنها أنكم تُحنِقونه * ولا يجد بدًّا من مكافأتكم ، فلعلَّه أن يتسرّع إلى لقمة حارَّة ، فيموت ، وأنتم ترونه ، وأدنى ذلك أن تبعثوه على الحِرص وعلى عِظَم اللقم . ولهذا ما قال الأعرابىُّ حينَ قيل له : « لم تبدأ

---

(٥) والطسوج أربعة فلوس ، صححنا : والفلوس أربعة طسوج ك — نقص ك — (٧) طسوج ك — (١٠) ونجز جناح ك — (١١) لا تعجلون (عيون الأخبار) : تعجلوا ك — (١٤) إذا (عيون) : وإذا ك — (١٨) السرعة به ك — تخنقونه ك .

بأ كل اللحم الذى فوق الثَّريد ؟ » قال : « لأنَّ اللحمَ ظاعن والثريدَ مقيم » . وأنا وإن كان الطعامُ طعامى ، فإنى كذلك أفعل ، فإذا رأيتم فعلى يُخالفُ* قولى فلاطاعةلى عليكم ».

٣ قال أبو كعب : فربما نسِى بعضنا فمدَّ يده إلى القَصعة ، وقد مد يدَه صاحبهُ إلى الماء . فيقولُ له مُوسَى : يدَكَ يا ناسى . ولولا شىء لقلتُ لكَ يا مُتغافل .

قال : وأتانا بأرزّة* ولو شاء إنسان أن يعدَّ حبَّها لعدَّه ، لتفرّقه ولقلته . قال فنثروا
٦ عليها لَبَكة* من دِبس* مقدارَ نصفِ أسَيْكِرة* فوقعتْ ليلتَئذٍ فى فمى قطعةٌ — وكنتُ إلى جنبه — فسمِع صوتَها حين مضغتُها ، فضربَ يده على جنبى ثم قال : « اجرُش يا أبا كعب اجرش » ؛ قلت : « ويلك ! أما تتَّقى الله ! كيف أجرُش جزأ لا يتجزأ ؟ »

(٢) مخالف (فان فلوتن) — (٥) بارز ك — (٦) لبكة (دى جويه) : لبلة ك — دبس (مرسيه) : ذلك ك — اسيكره ، صححنا : سكره ك ، سكرجة (مرسيه)

(١٢٧ : ٩ — ١٢٨ : ٨) « دعا . . . اجرش يا أبا كعب » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٧ — ٢٥٨ .

قصة ابنِ العَقَدى

كان ابنُ العَقَدى ربما استزارَ أصحابه إلى البُستان ، وكنتُ لا أظنه ممّن يحتمل قلبُه ذلك على حال . فسألتُ ذاتَ يوم بعض زوّاره فقلت : « احكِ لى أمرَكم » . قال : « وتستُر علىّ ؟ » قلتُ : « نعم ما دمتُ بالبَصرة » . قال : « يشترى لنا أرُزًّا بقشره ويحمله معه ، ليسَ معه شىء ممّا خلَق الله إلا ذلك الأرز . فإذا صرنا إلى أرضه ، كلَّف أكّاره أن يجشّه فى مِجشّة له ، ثم ذَرّاه ، ثم غربله . ثم جش الواش منه* . فإذا فرَغ من الشِّراء والحمل ، ثم من الجشّ ، ثم من التذرية ، ثم من الإدارة والغَرْبلة ، ثم من جشّ الواش ، ثم من تذريَته ، ثم من إدارته وغَرْبلته ، كلَّف الأكّار أن يطحنه على ثَوْره وفى رحاه . فإذا طحنه كلَّفه أن يغلىَ له الماء ، وأن يحتطِب له ، ثم يكلّفه العجنَ ، لأنه بالماء الحارّ أكثرُ نزَلا . ثم كلف الأكار أن يخبزه . وقبلَ ذلك ما قد كلّفهم أن ينصبوا* له الشصوص للسمك ، ويسكّروا * الدرياجة ** على صِغار السّمك لا يدخلوا فى السواق ، فيدخلوا أيديَهم فى جِحَرة الشلابى والرمان . فإن أصبنا من السّمك شيئًا ، جعله كباباً على نار الخبز تحت الطابق ، حتى لا يحتاجَ من الحطَب < إلى* > كثير . فلا نزال منذُ غُدوة إلى الليل فى كدّ وجُوع وانتظار . ثم لا يكونُ عَشاؤنا إلا خبزَ أرُزّ أسودَ غيرَ منخول بالشلابى . ولو قدَر على غير ذلك فَعَل » .

قلتُ له : « فلم لا يتّخذُ موضِعَ مرازٍ* من بعضِ رِقاق أرضه ، فيبذر* لكم الأرُز ثم يَكون الخيارُ فى يدهِ ، إن أرادَ أن يُعجِّل عليكم الطعامَ أطعمكم الفرد ، أو إن أحبَّ أن يتأنى ليطعمَكم الجوهرىّ . . » قال : والله لئن سَمِع هذا وعَرفه ليتكلّفنّه . اللهَ اللهَ فينا ، فإنا قومٌ مساكين ، ولو قدَرنا على شىء لم نحتمِل هذا البلاء .

---

(٦) < الواش الأرز الصحاح الذى ينقلب من أن تصيبه الرحا ويخرج سليما فيعاد عليه الجش ثم يذرى ثانية ويغربل > : شرح مقحم على النص فى الأصل – (١١) ينصبون ك – الدرياجة (فان فلوتن) : الدراجة ك – (١٣) < إلى > ليست بالأصل – (١٦) مذار (فان فلوتن) – فيذرى (فان فلوتن) .

طرف شتى

حدثنى المكىُّ قال : بتُّ عند إسماعيلَ بنِ غَزوان — وإنما بيَّتنى عندَه حين عَلم أنى تعشَّيتُ عند مُوَيس* ، وحملتُ معى قِرْبة* نبيذ — فلمّا مضى من الليل أكثرُه ، وركِبنى النوم ، جعلتُ فراشى البساطَ ومِرفَقتى يدى . ولَيس فى البيتِ إلا مُصَلًّى له ، ومِرفَقة ومِخدّة . فأخذ المخدّة فرمى بها إلىّ ، فأبيتُها ورددتُها عليه ، وأبى وأبيت . فقال : « سبحان الله ! يكون أن تتوسّد مِرفَقَك ، وعندى فَضْل مخدّة ؟ » فأخذتُها فوضعتُها تحتَ خدِّى . فمنعَنى من النوم إنكارى للمَوْضع ، ويبسُ* فِراشى . وظنّ أنى قد نمتُ ، فجاء قليلاً قليلاً ، حتى سلّ المخدّة من تحتِ رأسى . فلمّا رأيتُه قد مَضى بها ، ضحكتُ وقلتُ : « قد كنتَ عن هذا غنيًّا ! » . قال : « إنّما جئتُ لأسوّىَ رأسك » ، قلت : « إنى لم أكلِّمكَ حتى ولَّيْتَ بها » ، قال : « كنتُ لهذا جئت ، فلما صارت المخدّة فى يدى نسيتُ ما جئتُ له . والنبيذُ — ما علمتُ — والله يذهبُ بالحِفظ أجمع » .

وحدثنى الحزامىُّ والمكىُّ والعَروضىُّ ، قالوا : سمِعنا إسماعيلَ يقول : أو ليسَ قد أجمعوا على أنّ البخَلاء فى الجملة أعقلُ من الأسخياء فى الجملة . ها نحنُ أولاء عندَك جماعة فينا من يزعُم الناسُ أنه سخىٌّ ، وفينا من يزعُم النـاس أنَّه بخيل . فانظر أىُّ الفريقين أعقل ؟ هأنذا وسهلُ بن هارون ، وخاقانُ* بن صبيح ، وجعفر بن سعيد ، والحزامى ، والعروضىّ ، وأبو يعقوبَ الخرَيمى . فهل معك إلّا أبو إسحاق ؟

وحدّثنى المكىّ ، قال : قلتُ لإسماعيلَ مرّة : « لم أرَ أحداً قطّ أنفَق على الناس مِن ماله ، فلمّا احتاج إليهم آسَوْه » . قال : « لو كان ما يصنَعون لِله رضًى ، وللحقِّ موافقاً ،

(٣) مونس ك — قرابة ك — (٧) وبئس ك — (١٦) وعامان ك .

لما جَمع الله لهم الغَدْر واللؤمَ من أقطار الأرض . ولو كان هذا الإنفاقُ فى حقه ، لما ابتلاهُم الله جلّ ذكرهُ من جَميع خَلقه » .

حدّثنى تمام بنُ أبى نعيم ، قال : كان لنا جار ، وكان له عُرس . فجعلَ طعامَه كلَّه فالوذق ، فقيل له : إنّ المؤونة تعظُم . قال : « أحتمِلُ ثقلَ الغُرم بتَعجيل الراحة . لعن الله النساء ، وما * أشكُّ أنّ من أطاعهنّ شرٌّ منهنّ » .

وحديث سَمِعناه على وجه الدهر . زعَموا أنّ رجلا قد بلَغ فى البخل غايتَه ، وصار إماماً ، وأنه < كان > * إذا صار فى يَدِه الدرهمُ ، خاطَبه وناجاه وفدّاه واستبطأه* . وكان ممّا يقولُ له : « كم من أرض قد قَطعتَ ، وكم من كِيس قد فارقتَ ، وكم < من > * خامِل رفعتَ ، ومن رفيع قد أخملت . لك عندى أن لاتعرَى ولا تَضْحَى » ثم يُلقيه فى كِيسه ويقول له : « اسكُن على اسمِ الله فى مَكان لا تُهان ولا تَذِلّ ولا تُزعَج منه » . وإنّه لم يُدخِل فيه دِرهماً قطّ فأخرجَه .

وأن أهلَه ألحّوا عَليه فى شَهْوة* ، وأكثروا عليه فى إنفاق دِرهم ، فدافَعهم ما أمكنَ ذلك . ثمّ حمل درهماً فقط . فبيناهُ ذاهبٌ إذ رأى حوّاء قد أرسلَ على نفسِه أفعى لدِرهم يأخذه ، فقال فى نفسِه : أتلفُ شيئاً تُبذَل فيه النفسُ ، بأكلة أو شربة ؟ والله ما هذا إلا مَوعظةٌ لى من الله . فرَجع إلى أهله ، ورد الدرهم إلى كيسه . فكان أهلُه منه فى بَلاء ، وكانوا يتمنّون مَوته والخلاصَ < منه > * بالموت ، والحياة < بدونه > * .

فلمّا مات وظنّوا أنهم قد استراحوا منه ، قَدِم ابنُه ، فاستَوْلى على مالِه ودارِه ، ثم قال : « ما كانَ أدم أبى ؟ فإن أكثرَ الفَساد إنما يكونُ فى الإدام » قالوا : « كان يتأدَّم بجُبنة عنده » ، قال : « أرونيها » . فإذا فيها حزٌّ كالجَدْول من أثر مَسْح اللقمة .

---

(٥) [و] ما (فان فلوتن) (٧) < كان > (فان فلوتن) : ليست بالأصل واستبطنه (فان فلوتن) — (٩) < من > : ليست بالأصل — (١٢) سهوة ك — (١٦) < منه > . . . < بدونه > ، صححنا : ليست بالأصل.

(٧ — ١١) « وأنه . . . منه » نهاية الأرب للنويرى ، ٣ : ٣١٢ دار الكتب المصرية

قال : « ما هذه الحفرة ؟ » قالوا : كان لا يقطَع الجبن ، وإنما كان يمسَحُ على ظهره ، فيحفرُ كما ترى » قال : « فهذا أهلكنى ، وبهذا أقعدَنى هذا المقعَد . لو علمتُ ذلك ماصلّيتُ عليه » . قالوا : « فأنتَ كيف تريد أن تصنعَ ؟ » قال : « أضعُها من بَعيد ، فأشيرُ إليها باللقمة » .

ولا يعجِبُنى هذا الحرفُ الأخير ، لأن الإفراط لا غايةَ له . وإنما نحكى ما كانَ فى الناس ، وما يجوزُ أن يكون فيهم مثلُه ، أو حجّة أو طريقة . فأمّا مثلُ هذا الحرف فليس مما نذكُره . وأمّا سائر حَديث هذا الرجُل فإنه من < هذه > البابة* .

قال ابن جُهانةَ الثقفيّة : عجبتُ ممّن يمنعُ النبيذَ طالبَه ، لأن النبيذَ إنمايُطلب ليوم فَصد ، أو يوم حِجامة ، أو يوم زيارة زائر ، أو يوم أكل سمك طرىّ ، أو يوم شربة دواء . ولم نَر أحداً طَلَبه وعندَه نبيذ ، ولا ليدّخِره ويحتكرَه ، ولا ليبيعَه ويعقِد منه . وهو شىء يحسُن طلبه ، وتحسُن هِبته* ، ويَحسُن موقعه . وهو فى الأصل كثير رَخيص . فما وَجْه منعه ؟ ما يمنعهُ عندى إلا من لاحظَّ له فى أخلاق الكرام . وَعلى أنى لستُ أوجَل — بما أهبُ منه — على نبيذى النُّقصان ، لأنى إذا احتجبتُ عن ندَمائى ، بقدر ما أخرجتُ من نبيذى ، رَجع إلىّ نبيذى على حاله ، وكنت قد تحمَّدت بما لا يضرُّنى . فمن ترك التحمُّد بما لا يضرُّه كان من التحمد بما يضره أبعد .

فذكر ابنُ جهانة ما له من الكَرَم بهبةِ نبيذه ، ولم يذكُر ما عليه* بحَجْب ندمائه*

قال الأصمعىُّ أو غيره : حمَل بعضَ الناس مدينى* على بِرْذَون ، فأقامه على الأرِىّ . فانتبه من نَوْمه فوجده يعتلِف ، ثم نام فانتبه فوجده يعتلِف ، فصاح بغلامه : « يا ابن أمّ بِعه وَإلاّ فهَبه وَإلاّ فردّه وَإلاّ فاذبحه . أنام ولا ينام ؟ < يذهبُ > * بحرٌ مالى ؟ ما أراد إلاّ استئصالى » .

---

(٧) من البانه ك — (١١) هيئته ك — (١٦) ما عليه < من اللؤم > (فان فلوتن) — ببيذه ك — (١٧) مدينيا (فان فلوتن) — (١٩) < يذهب > (فان فلوتن) : ليست بالأصل .

قال أبو الحسن المدائنى : كان بالمدائن تمار ، وكان غُلامه إذا دَخل الحانوتَ يحتار * ، فربما احتَبَس فاتّهمه بأ كل التمر . فسأله يوماً فأنــكر ، فدعا بقُطنة بيضاء ، ثم قال : « امضغها » فمضَغها ، فلمّا أخرَجها وجد فيها حلاوةً وصُفرة . قال : « هذا دأبُك كلَّ يوم ، وأنا لا أعلم ؟ اخرج من دارى » .

وكان عندَنا رجُلٌ من بنى أسَد ،إذا صَعِد ابنُ الأ كّار إلى نخلة له ، ليلقطَ له رُطَباً ، ملأَ فاه ماء . فسخروا به ، وقالوا له : « إنه يشرَبه و يأ كل شيئاً * على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل بال فى يده ، ثم أمسَكه فى فيه» . والرطَب أهونُ على أولاد الأ كَرة ، وعلى أولاد غيرِ الأ كَرة من أن يَحتمل فيه أحدٌ شَطر هذا المـكروه ولا بعضَه . قال : فـكان بعدها يملأُ فاه مِن ماء أصفرَ أو أخضرَ ، لـكيلا يقدِرَ على مِثله فى رؤس النخل .

وحدثنى المِصرى وكان جارَ الداردريشى ، وماله لا يحصى ، قال : فانتهر سائلاَ ذات يوم وأناعندَه ، ثم وقفَ عليه آخَرُ فانتهره ، إلا أن ذلك بغَيظ وحنق . قال : فأقبلت عليه فقلتُ له : « ما أبغض إليك السؤال » قال : « أجل عامّة من تَرى منهم أيْسر منِّى » قال : فقلت : « ما أظنك أبغضتهم إلا * لهذا » قال :« كلُّ هؤلاء لو قَدروا على دارى هدَموها *، وعلى حَياتى لنزَعوها . أنا لو طاوَعتهم فأعطيتُهم كلما * سألونى ، كنتُ قد صِرتُ مثلَهم منذ زمان . فـكيف تظنُّ بغضى يكون لمن أرادنى على هذا » .

وكان أخوه شريكَه فى كلِّ شىء ، وكان فى البُخل مثلَه، فوضَع أخوه فى يوم جُمعة بينَ أيدينا ـ ونحنُ على بابه ـ طبَقَ رُطَب يُساوى بالبَصرة دانِقين، فبينما نحن نأ كل إذجاء أخوه ، فلم يسلِّم ولم يتكلَّم حتى دخل الدار . فأنـكر ناذلك، وكان يفرِط فى إظهار البِشر، و يجعَلُ البشرَ وقاية دونَ ماله. وكان يعلمُ أنه إن جمع بين المنع والـكِبر قُتِل. قال : ولم نعرِف علّته ، ولم يعرِفْها أخوه . فلمَّا كان الجمعة الأخرى ، دعا أيضاً أخوه بطَبَق رُطَب ، فبينا نحن نأ كل ، إذ خرج

(١) يحتال (فان فلوتن) — (٦) ويأكل كل شىء ك — (١٣) [إلا] (فان فلوتن) — لهدموها (فان فلوتن) — (١٤) كما ك .

من الدار ولم يسلم ولم يقف ، فأنكرنا ذلك ، ولم ندرِ أيضاً ما قصّته . فلما أن كان فى الجمعة الثالثة ، ورأى * مثلَ ذلك ، كتَب إلى أخيه : « يا أخى كانت الشَّركة بينى و بينك حينَ لم يَكثر الوَلَد ؛ ومع الكثرة يقع الاختِلاف . ولستُ آمَن أن يخرُج ولَدى وَولدُك إلى مكروه . وها هنا أموالٌ باسْمى ولك شَطرُها ، وأموال باسمك ولى شطرها ، وصامتٌ فى منزِلى وصامِت فى منزِلك ، لانعرِفُ فضلَ بَعض ذلك على بعض . و إن طَرقنا أمرُ الله ، ركدَت الحربُ بين هؤلاء الفِتية ، وطال الصَّخب بين هؤلاء النسوة . فالرأىُ أن نتقدَّم اليومَ فيما يحسِم عنهم * هذا السبب » .

فلمَّا قرأ أخوه كتابَه ، تعاظَمه ذلك وهاله . وقلب الرأى ظهراً لبَطن ، فلم يزِده التقليبُ إلاجهلاً . فجمع ولدَه وغلّظ عليهم ، وقال : « عسى أن يكونَ أحدٌ منكم قدأخطأ بكلمة واحدة ، أو يكون هذا البلاء من جَرائر النّساء » . فلماعرف براءةَ ساحة القوم ، تمشى إليه حافياً راجلاً ، فقال : « مايدعُوك إلى القسمة والتمييز ؟ ادعُ صُلَحاء أهل المسجد الساعة ، حتى أشهِدَهم بأنى وكيلٌ لك فى هذه الضِّياع . وحوِّل كلَّ شىء فى منزِلى إلى منزلك . وجرِّب ذلك منى الساعة ، فإن وجدتنى أروغ وأعتلّ ، فدونك . فحاجتى الآن أن * تخبرَنى بذنبى » . قال : « مالك من ذنب ، وما من القِسمة من بدّ » . فأقام عندَه يناشِدُه إلى نِصف النهار ، ثم أقام يومَه ذلك إلى نصفِ الليل ، يناشِده و يطلبُ إليه .

فلمَّا طال عليه الأمر ، و بلغ منه الجهد ، قال له : « حدثنى عن وَضعك أطباقَ الرُّطب و بسطِك الحصرَ فى السِّكك ، و إحضارَك الماء البارد ، وجمعَك الناسَ على بابى فى كلِّ جمعة ، كأنك ظننتَ أنا كنّاعن هذه المكرُمة عُمياً . إنك إذا أطعمتَهم اليومَ البرنىّ أطعمتهم غداً السكر ، و بعد غدٍ الهِلباثا * . ثم يصيرُ ذلك بعد أيام الجمع فى سائر أيام الأسبوع ، ثم يتحوّل الرّطَب إلى الغَداء ثم يؤدّى الغَداء إلى العَشاء . ثم تصيرُ إلى الكِساء ثم الأجداء ثم الحملان ثم اصطناع الصنائع . والله إنى لأرثى لبيوت الأموال ولخرَاج الممَلكة مِن هذا ، فكيفَ بمال تاجر جَمَعه من الحبّات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف ؟ »؛ قال : « جُعلتُ فداك

---

(٢) رأى ك - (٧) منهم (فان فلوتن) - (١٣) إلا أن ك - (١٩) الهليانا ك .

تريد أن لا آكلَ رطبة أبداً فضلاً على غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلَّمتُهم أبداً » . قال : « إياكَ أن تخطئَ مرّتين : مرّة* < فى > * إطماعِهم فيك ، ومرّة فى اكتساب عداوتهم . اخرُج من هذا الأمر على حساب ما دَخلتَ فيه . وتسلم تسلم* » .

كان أبو الهُذَيل أهدى إلى مُوَيس دَجاجة . وكانت دَجاجتُه التى أهداها دون ما كان يتّخذ لمويس ، ولـكنّه بكَرَمه و بحُسْن خُلُقه أظهر التعجُّب من سِمَنها وطِيبِ لحمها ، وكان يعرفه بالإمساك الشديد . فقال : « وكيف رأيتَ يا أبا عِمران تلك الدجاجة » ؟ قال : « كانت عَجباً من العجب » ، فيقول : « وتدرى ماجنسُها ؟ وتدرى ما سنّها ؟ فإن الدجاجة إنما تطيبُ بالجنس والسنّ . وتدرى بأىِّ شىء كنّا نسمنها* وفى أى مكان كنا نعلفها* ؟ » . فلا يزالُ فى هذا ، والآخر يضحَك ضَحِكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهُذَيل .

وكان أبو الهُذَيل أسلم الناس صدراً ، وَأوسعهم خُلقاً ، وأسَهلهم سُهولة . فإن ذكروا دَجاجة قال : « أين كانت يا أبا عِمران من تلكَ الدجاجة ؟ » ، فإن ذكروا بطّة أوعَناقاً أو جزوراً أو بقرة قال : « فأين كانت هذه الجزورُ فى الجزُر ، من تلك الدجاجة فى الدّجاج ؟ » ، وإن استسمَن أبو الهذيل شيئاً من الطّير والبهائم قال : « لا وَالله ولا تلك الدّجاجة » ، وإن ذكروا عُذوبةَ الشحم قال : عذوبةُ الشّحم فى البقَر والبطّ و بُطون السّمك والدّجاج ، ولا سيّما ذلك الجنسَ من الدجاج » ، وإن ذكروا ميلادَ شىء ، أو قدومَ إنسان قال : « كان ذلك بعدَ أن أهديتُها لك بسَنة ، وما كانَ بينَ قدوم فلان و بين البعثَة بتلك الدجاجة ، إلا يوم » . وكانت مَثَلاً فى كل شىء ، وتاريخاً فى كل شىء .

وأقبل مرّة على محمد بن الجهم** ، وأنا وأصحابنا عنده ، فقال : « إنى رجلٌ منخرِق

(٢) [مرة] (فان فلوتن) < فى > : ليست بالأصل - (٣) بسلام (فان فلوتن) - (٨) [وفى أى مكان كنا نعلفها] (فان فلوتن) ، نعلفها (ثمار القلوب) : نسمنها ك .

(٤ - ١٧) « كان أبو الهذيل ... كل شىء » ثمار القلوب للثعالبى ٣٧٥ - ٣٧٦ - (١٨ - ١٣٦ : ٤) « وأقبل مرة ... استحلفنى » عيون الأخبار ٢ : ٢٠٤

السكفّين ، لا أليقُ شيئاً . ويدى هذه صَناع فى الكَسب ، ولكنّها فى الإنفاق خَرْقاء . كم تظنُّ من مائة ألفِ دِرهم قَسمتها على الإخوان فى مَجلس ؟ أبو عثمانَ يعلم ذلك . أسألُك
بالله يا أبا عثمان ، هل تعلمُ ذلك ؟ » ، فقلت : « يا أبا هذيل ما نشك فيما تقول » . فلم يرضَ ٣
بإحضارى هذا الكلامَ حتى استَشْهدنى ، ولم يرض باستِشْهادى حتى استَحلفنى .

قصة أبى سعيد المدائنى

كان أبو سعيد المدائنى إماماً فى البُخل عندَنا بالبصرة . وكان من كبار** المعَيِّنين* ومَيَاسيرِهم ، وكان شديدَ العَقل ، شديد العارضة ، حاضِر الحجَّة ، بعيدَ الرويَّة .

وكنتُ أتعجّب من تفسير أصحابِنا لقول العرب فى لؤم اللئيم الراضع ، قال أصحابُنا : كلُّ لئيم بخيل ، وليسَ كلُّ بخيل لئيماً . لأنّ اسمَ اللئيم يقعُ على البُخل ، وعلى قلّة الشكر ، وعلى مَهانة النفس ، وعلى أنّ له فى ذلك عِرقاً متقدِّماً . قال أبو زَيد : هو لَئيم ومَلأَم ، فاللئيم ما فسَّرت ، والملأَم الذى يقومُ بعذر اللئيم . فأمّا اللئيم الراضع ، فالذى لا يحلب فى الإناء ، ويرضَع من الخِلف ، مخافةَ أن يضيعَ من اللبن شىء . قال ثوب ابنُ شَحْمة** العنبرىّ فى امرأته الهمدانية :

وحديث مالجةَ* التى حدَّثتنى   تدعُ الإناء تشرُّباً* للقادِم

(القادمان الخلفان المقدّمان) فلما بلغَه ذلك عنها طلَّقها ، فلما طلّقها قيل له : إن البخلَ إنما يعيبُ الرجلَ ، ومتى سمعتَ بامرأة هُجِيت فى البخل ؟ قال : ليسَ ذلك بى . أخافُ أن تلِد لى مثلَها .

قال رافع بنُ هرَيم** :

. . . . . تحلب قاعداً   وتملج* أحياناً وقعبك حاضر

يدعُو الله عليه أن يجعلَه صاحبَ شاء ، ولا يجعلَه صاحبَ إبل ، وأن يرتَضع من الخِلف ، وإن كان معه إناء . والعربىُّ ربما اتّلى* على صاحبِه فيقولُ : « إن كنتَ كاذباً فاحتلبتَ قاعداً » . أى أبدَلك الله بكرَم الإبل لؤمَ الغنم .

---

(٢) المعينين : المعسين ك ، المغتنين (فان فلوتن) — (١٠) لاجة ك — الاناء تشربا (فان فلوتن) : الانا ونثرا ك — (١٥) تلمج ك — (١٧) ربما اتلى ، ربما دل ك ، يمارى (فان فلوتن) ، يتباهل (مرسيه)

(١٧ — ١٨) « ان كنت . . . قاعدا » البيان والتبين ١ : ١٤٠ مطبعة الفتوح الأدبية ١٣٣٩ هـ ، أمالى القالى ١ : ١٠٦ .

فكيف نتعجّب من لؤم الراضع، و < قد > *صنَع أبو سَعيد المدائنى أعظَم من ذلك : اصطَبغ من دَنّ خلٍ ، وهو قائم حتى فَنِى ولم يُخرج منه قليلاً ولا كثيراً .

وكانت له حَلقة يقعُدفيها أصحابُ العِينة* والبُخَلاء الذين يتذاكرون الإصلاح. فبلغهم أن أبا سعيد يأتى الخُرَيْبَةَ* فى كلّ يوم ليقتضىَ رجُلاً هناك خمسةَ دراهم فَضَلَت عليه ، وقالوا : « هذا خَطأ عظيم وتضييع كثير . وإنما الحزمُ أن يتشدَّد فى غير تَضْييع . وصاحبُنا هذا قد رجَع على نفسه بضُررب من البَلاء » .

فاجتمعوا عَلَيه على طريق التفرّغ والاستفادة منه . قالوا : نراك تصنَعُ شيئاً لا نعرفهُ ، والخطأ منك أعظمُ منه مِن غَيرك . قد أشكلَ علينا هذا الأمر ، فأخبرْنا عنه ، فقد ضاقَت صدورُنا به . خبِّرنا عن مُضيِّك إلى الخُرَيبة لتقتضِى خمسةَ دراهم . فواحدةٌ أَنا لا نأمنُ عليك انتقاضَ بدنك ، وقد خلا* من سنِّك ، وأن تعتلَّ فتدعَ القاضىَ للكثير* بسبب القليل . وثانيةٌ أنك تنصَب* هذا النَّصَب ، فلا بدّ لك من أن تزداد فى العَشاء إن* كنتَ ممّن يتعشّى ، أو تتعشّى إن كنتَ ممّن لا يتعشّى . وهذا إذا اجتمع كان أكثرَ من خمسةِ دراهِم . وبعدُ، فإنّك تحتاج أن تشقّ وسط السوق، وعليك ثيابُك والحمولة تستقبلُك ، فمن ههنا نَتْرة ، ومن ههنا جَذبة ، فإذا الثوبُ قد أودى . ومن ذلك أنّ نعلك تنقَب وترقّ وساق سراويلك تتسخ وتبلَى . ولعلَّك أن تعثُر فى نعلك فتقدّها قدّاً، ولعلَّك تهرتُها هَرتاً . وبعدُ ، فاقتضاء القليل أدّى* بك إلى هذا < وما > * بلغت منه شيئاً* . وإنّك أفضل* . إلا أنا نحبُّ أنّك تجلى* عن الأمر بشىء ، فليسَ كلُّنا يثقُ لك بالصواب فى كلّ شىء »

قال أبو سعيد : « أمّا ما ذكرتم من انتقاض البدَن ، فإنّ الذى أخافُ على بَدَنى من الدعة ، ومن قلة الحركة أكثر . وما رأيتُ أصحّ أبداناً من الحمّالين والطّوافين. والقوم قبلى

(١) < قد > : ليست بالأصل – (٣) العثه ك ، القنية (فان فلوتن) – (٤) الحربية ك – (١٠) خلا < ما خلا > (فان فلوتن) – الكثير (فان فلوتن) (١١) < ان > تنصب (فان فلوتن) – اذ ك – (١٦) أدى : أولا ك – < وما > : ليست بالأصل – بينا ك – أفضل ك : لعلها أفضلنا – (١٧) تحكى (فان فلوتن)

(١ – ٢) « وقد صنع . . . كثيراً » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٨

إن يموتوا لم يكن لهم تلك عادة . وليس يقولُ الناسُ : والله لفلان أصحُّ من الجلاوزة ؟ يعنى اختلافَ الجلاوزة فى العَدْو* . ولربَّما أقمتُ فى المنزل لبعض الأمر ، فأكثرُ الصعودَ والنزول خوفاً من قلَّة الحركة . وأمَّا التشاغل بالبعيد عن القريب ، فإنى لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب . وأمَّا ما ذكرتم من الزيادة فى الطعم* فقد أيقنتْ نفسى، واطمأنَّ قلبى ، على أنه ليس لنفسى عندى إلّا ما لها ، وأنَّها إن حاسبَتْنى أيامَ النَّصَب ، حاسبتُها أيام الراحة . فستعلمُ حينئذٍ أينَ أيامُ الخُرَيبةِ من أيَّام ثقيف . وأما ماذكرتم من تلقِّى الحمولة، ومن مزاحمة أهل السوق ، ومن النَّتْر والجذْب ، فأنا أقطعُ عرضَ السوق من قبل أن يقومَ أهلُ السوق لصَلاتهم* ، ثمَّ يكونُ رجوعى على ظَهر السوق . وأمَّا ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل ، فإنى من لَدُن خروجى من منزلى ، إلى أن أقرُب من باب صاحبى ، فإنما نعلى فى يدى ، وسراويلى فى كمِّى . فإذاصرتُ إليه لبستُهما ، فإذا فصلتُ من عنده خلعتُهما. فهما فى ذلك اليومِ أوْدَعُ أبداناً وأحسن حالًا . بقى الآن لكُم مما ذكرتم شىء؟ » قالوا : « لا » ؛ قال : « فهاهنا واحدةٌ تفى بجميع ماذكرتم» قالوا : « وما هى ؟ » قال : « إذا عَلِم القريبُ الدار ، ومن لى عليه ألوفُ الدنانير ، شدَّة مُطالبتى للبعيد الدار، ومن ليسَ لى عليه إلا الفلوس ، أتى بحقِّى ولم يُطمع نفسَه فى مالى . وهذا تدبيرٌ يجمع لى إلى رجوع مالى طولَ راحة بدنى . ثم أنا بالخيار فى تَرك الراحة ، لأنى أقسمها على الأشغال حينئذ كيف شئت . وأخرى أنَّ هذا القليل لو لم يكنْ فضلةً من كثير ، وموصولًا* بدَين لى مشهور، لجاز أن أتجافى عنه . فأما أن أدع شيئاً يُطمِع فى فضول ما يبقَى على الغرماء ، فهذا مالا يجوز» .

فقاموا وقالوا بأجمعهم : « لا والله لا سألناك عن مُشكِلة » .

حدَّثنى أحمد المكىّ — أخو محمد المكيّ — وكان متَّصلاً بأبى سَعيد، بسبب* العينة، و بسبب* صنعة المال ، ولأعاجيب* أبى سعيد وحديثه .

قال أحمد : قلتَ له مرة: « والله إنَّك لكثيرُ المال، و إنك لتعرفُ مانجهل* ،وإن

(٢) العدو (فان فلوتن) : العدوى ك — (٤) الطعام (فان فلوتن) — (٧) ولصلاتهم ك — (١٦) وموصلا ك — (١٩) سبب ك — (٢٠) نسيت ك ، نسيت (فان فلوتن) فى الموضعين — [و] لأعاجيب ك — (٢١) ما نجهل (فان فلوتن) : وما تجهل ك .

قميصَك وسخٌ، فلم لا تأمرُ بغسله؟ » قال : « فلو كنتُ قليلَ المال وأجهل ماتعرف ، كيف كان قولُك لى ؟ إنى قد فـكرتُ فى هذا منذُ ستَّةِ أشهر، فما وَضح لى بعدُ وجهُ الأمرفيه .

أقولُ مرَّة : الثوبُ إذا اتسخ أكل البدَن ، كما يأكلُ الصدأ الحديد . والثوبُ إذا ترادَفة العرَق ، وجفَّ وتراكم عليه الوَسخ ولبد ، أكل السِّلك وأحرق الغَزل . هذا معَ نَتن ريحه وقبح منظره . وبعدُ، فإنى رجل آتى أبوابَ الغرُماء، وغِلمانغُرمائى جبابرة،فما ظنّك بهمإذا رأونى فى أطمار وَسِخة وأسمال*درنة وحال حداد؟ جبَهوا مرة ،وَحجَبوامرة. فيرجِـعُ ذلك علينا بمضرَّة من إصلاح المال ، وأن* ينفى عنه كل ما أعان على حبسه، مع ما يدخلُ من الغَيظ ، ويَلقى من كان كذلك من المكروه .

فإذا اجتمعتْ هذه الخواطر ، هممتُ بغَسلها . فإذا هممتُ به عارضنى معارِض يوهِمنى أنه أتانى من جِهـة الحزم ومن قِبَل العقل ، فقال : أول ذلك الغُرم الذى يكون فى الماء والصابون. والجاريةُ إذا ازدادت عناءً*، ازدادتْ أكلاً.والصابونُ نُورة ،والنورةتأكلُ الثوب وتبلى الخزَّ*، ولا يزال الثوبُ على خَطَر حتى يسلم إلى القصر* والدقّ. ثم إذا ألقى على الرَّسن ، فهو بعرض الجَذْبة والنَّترة والعلق . ولا بد من الجُلوس يومئذ فى البيت . ومتى جلستُ فى البيت ، فتَحوا علينا أبواباً من النفقة وأبواباً من الشَّهوات . والثيابلا بد لها من دقّ . فإن نحنُ دققناها فى المنزل قطَّعناها ، وإن نحن أسلمناها إلى القصَّار فغُرم على غُرم ، وعلى أنه ربّما أنزل بها من المكروه ما هو أشدّ . وما جلستُ فى المنزل قطّ إلا أرجف بى الغرُماء ، وادّعوا علىّ الأمراض والأحداث ، وفى ذلك لهم فساد والتواء وطَمَع لم يكن عندهم . فإذا أنا لبِستها ، وقد أبيضَّت وحَسُنت وجفَّتوطابت ، تبيَّنت عند ذلك وَسَخ جسدى وكثرة شعرى، وقد كان بعضُ ذلك موصولاً ببعض، ففرَّقتُه*، فاستبان لى ما لم يكن يَستبين ، واكترثت لما لم أكن أكترث * له . فيصيرُ ذلك مَدعاة إلى دُخول الحمَّام . فإن دخلته فغُرم ثقيل ، مع المخاطَرة بالثياب ، ولى امرأةٌ جميلة شابَّة ، إذا رأتْـنى

---

(٦) واشمال (فان فلوتن) – (٧) [و] ان ك – (١١) غناء (فان فلوتن) – (١٢) وان الخزف لا ك – العصر ك – (١٩) فعرفته (فان فلوتن) – (٢٠) اكترثت (فان فلوتن) .

قد اطّليت وغسَلت رأسى وبيَّضت ثوبى ، عارَضتنى بالتطيّب وبلبس * أحسنِ ثيابها ، وتعرَّضت لى ، وأنا فحل، والفحلُ إذا هاج لم يردّ رأسه شىء . فإذا أردتُ مواقعتها،ورأت حِرصى نثرت علىّ الحوائجَ نثراً . ثم احتجنا إلى تسخين الماء . وأشدّ من هذا كلّه أن تعلَق، فتحتاج إلى ظئر ، فنقعَ فى ما لا غايةَ له .

مع أمور كثيرة نسىَ بعضَها أحمد ، وبعضَها أنا .

وكان أبو سعيد هذا ، مع بخله ، أشدّ الناس نفساً وأحماهم أنفاً . بلغ من أمره ذلك ومن بلوغه فيه ، أنه أتى رجَلاً من ثقيف يقتَضيه ألفَ دينار، وقد حلّ عليه المال . فكان ربما أطال عنده الجلوس. ويحضرُ عنده الغداء فيتغدّى معه ، وهو فى ذلك يقتضيه .

فلما طال عليه المَطل ، قال له يوماً ، وهو على خِوَانه : « إنّ لهذا المالِ زكاةً مؤدّاة . وقد علِمنا أنّا حينَ أخرجنا هذا المالَ من أيدينا ، أنه معرّض للذّهاب، وللمنَازعة الطويلة، ولأن يقعَ فى الميراث ، ثم رَضينا منكَ بالربْح اليسير ، بالذى ظننّاه بك من حُسن القضاء، ولولا ذلك لم نرضَ بهذا المال . وهذا المال إذا كان شرطُه أن يرجع بعدَ سنة ،فرفّهت عنك بحسن المطالبة شهراً أو شهرين ، ثم مكث عندى — إلى أن أصبتُ له مثلَك — شهراً أو شهرين ، محق فضله وخرج علينا فضل . ومثلُك يكتفى بالقليل . وقد طال اقتضائى وطال تغافلك » . يقول هذا الكلام ، وهو فى ذلك لا يقطع الأكل .

فأقبل عليه رجلٌ من ثقيف ، فعرّض له بأنه لو أراد التقاضىَ محضاً لكان ذلك فى المسجد ، ولم يكن فى الموضع الذى يحضُر فيه الغداء . فقطَع الأكل ،ثم نزا فى وجهه الدم، ونظر إليه نظر الجمل الصؤول، ثم كاد يطير ، ثم أقبل عليه فقال : « لا أمّ لك ! أنا إنما اصطبغتُ من دنّ خلٍّ * حتى بَقِىَ من حسن * العقل ، وأحببتُ الغنَى بفضل بُغضى للفقر ، وأبغضتُ الفقرَ بفضل أنفتى من احتمال الذلّ . تعرّض لى لا أمّ لك بأنى أرغبُ فى غَدائه ؟ والله ما أكلتُ معه إلا ليستحيىَ من حُرمة المؤاكلة، وليصيرَ كرمُه سبباً لتعجيل

(١) وتلبس (فان فلوتن) — (١٩) در حل ك — حسب ك .

الحاجة » ، ثم نهض بالصك ، وعليه طينته ، فاعترض بها الحائط حتى كسرها . ثم تفَل في الـكتاب وحكّ بعضَه ببعض ، ثم مزّقه ورمى به . ثم قال لكلٍّ من شَهِد المجلس: « هذه ألفُ دينار كانت لى على أبى فلان ، اشهَدوا جميعاً على أنى قد قبضتُ منه ، وأنه برىء من كلِّ شىء أطالبه < به > * ، ثم نهض .

فلما صنع ما صنَع أقبل الغريمُ على صاحبه فقال : « ما دعاك إلى هذا الـكلام ؟ لِمَ * تقولهُ * لهذا الرجل على مائدتى ، وتقدم بهذا الـكلام على من لا تعرِفُ كيفَ موقِعُ الأمور منه ؟ و بعد ، فقد والله أردتُ مطلَه إلى أن أبيع الثمر ، ورجَونا حلاوته . فقد أحسنتَ إليه ، وأسأت إلينا ، وعجّلت عليه مالَه . اذهَب يا غلام ، فاضرب بذلك الثمر السُّوق ، فبعه بما بَلَغ ، فيأخذ * ماله كملا » . ثم ركب إليه ، فأبى أن يأخذَه ، فلما كثر الأمرُ فى ذلك قال : « أظنّ الذى دعا صاحبَك إلى ماقال أنه عربىٌّ وأنا مولى . فإن جعلتَ شُفعاءك من الموالى أخذتُ هذا المال ، وإن لم تفعل فإنى لا آخذه » . فجمع الثقفىُّ كل شعوبىّ بالبَصرة حتى طلبوا إليه أخذ المال .

وكان أبو سعيد ينهى خادِمه أن تخرِج الـكُساحةَ من الدار . وأمرها أن تجمَعها من دور السكّان، وتلقيها على كُساحتهم . فإذا كان فى الحين < بعد الحين > *جلس وجاءت الخادمُ ومعها زِبّيل ، فعزلتْ بين يديه من الـكُساحة زبّيلا ، ثم فتّشت واحداً واحداً ، فإن أصاب قِطَع دراهم وصرة فيها نفقة والدينار أو قِطعة حلى ، فسبيلُ ذلك معروف . وأما ما وَجد فيه من الصوف ، فـكان وجهُه أن يُباع إذا اجتمع من أصحاب البراذِع . وكذلك قطعُ الأكسية ،وما كان من خِرَق الثياب ، فمن أصحاب الصينيّات والصلاحيات * وما كان من قشور الرمّان ، فمن الصبّاغين والدبّاغين . وما كان من القوارير ، فمن * أصحاب الزُّجاج . وما كان من نَوى التمر ، فمن أصحاب الخشوف * . وما كان من نوى

---

(٤) < به > : ليست بالأصل – (٥) لم (مرسيه) : ثم ك ، ثم (فان فلوتن) – (٦) تقولك – (٩) فأخذ ك – (١٤) < بعد الحين > : ليست بالأصل – (١٨) والصلاحيات (فان فلوتن) : الصلاتحات ك – (١٩) من (فان فلوتن) – (٢٠) الحشوف ك .

الخوْخ ، فمن أصحاب الفَرَس . وما كان من المسامير وقِطع الحديد ، فللحدّادين . وما كان من القراطيس ، فللطراز . وما كان من الصُّحُف فلرؤس الجرار . وما كان من قِطَع الخشَب، فللأكافين . وما كان مِن قِطَع العِظام ، فللوَقود . وما كان من قِطع الخزَف*، فلِلتنانير الجُدُد : وما كان من** اشكَنْج* فهو مجموع للبناء ، ثم يحرّك ويُثار ويخلّل ، حتى يجتمعَ قماشه ، ثم يعزَل للتنور . وما كان من قِطَع القار ، بيع من القيّار . فإذا* بقيَ التراب خالصاً ، وأراد أن يضربَ منه اللبِن للبيع وللحاجَة إليه ، لم يتكلّف الماء، ولكن يأمرُ جميعَ من فى الدار أن لا يتوضّؤا ولا يغتسِلوا إلاّ عليه ، فإذا ابتلّ ضرَبه لَبِناً .

وكان يقول : من لم يتعرّف الاقتصادَ تعرَّفى فلا يتعرّضْ له .

وذهبَ من ساكن له شىء ، كبعض ما يُسرَق من البيوت . فقال لهم : اطرَحوا الليلة تراباً ، فعسى أن يندَم من أخذَه ، فيُلقيَه فى التراب ، ولا ينكَر مجيئهُ إلى ذلك المكان ، لكثرة من يَجىء لذلك . فاتفّق أن طُرِح ذلك الشىء المسروقُ فى التراب. وكانوا يطرَحونه على كناسَتِه ، فرآه قبل أن يراهُ المسروقُ منه . فأخذَ منه كِراء الكُساحة .

فهذا حديث أبى سعيد .

(٣) الخزف (مرسيه) : الخرق ك —(٤) اشكنج (فان فلوتن) : اشكنح (٥) وإذا (فان فلوتن) .

قصة الأصمعى

تمشّى قوم إلى الأصمعىّ مع تاجرٍ كان اشترى ثمرتَه ، لخُسرانٍ * كان ناله . وسأله حُسنَ النظر والحطيطة . فقال الأصمعىّ : « أسمِعتُم بالقِسمة الضيزى؟ هى والله ما تُريدونَ شَيخكم عليه . اشترى منّى على أن يكونَ الخسرانُ علىّ والربحُ له . هذا وأبيكم تجارةُ أبى العنبس . اذهبوا فاشتروا علىّ طعامَ العِراق على هذا الشرط . على أنى والله ما أدرى أصادقٌ هو أم كاذِب . وها هنا واحدةٌ ، وهى لكم دُونى — ولا بدّ من أن أحتمِلَ لكم، إذ لم تحتمِلوا لى — : والله ما مَشَيتم معه إلاّ وأنتم توجبون حقَّه وتوجِبون رِفده . لو كنتُ أوجبُ له مثلَ ما توجِبون لقد كنت أغنيتُه عنكم . وأنا لا أعرفه ولا يضربُنى بحقٍّ ، فهلمّوا نتوزع هذه الفَضلة بيننا بالسويّة . هذا حسنٌ ممّن احتَمل حقًّا لا يجبُ عليه ، فى رضًى من يجبُ ذلك عليه » .

فقاموا ولم يعودوا . فخرَج إليه التاجرُ من حقّه ، وأيِس مما قَبله .

---

(٢) لخسران (مرسيه) : بخسران ك .

(٢–١١) « تمشى . . . مما قبله » عيون الأخبار ٣ : ١٣٧ – ١٣٨ .

قصة أبى عيينة

حدّثنى جعفرُ ابنُ أختِ واصل ، قال :

قلتُ لأبى عُيَينة : قد أحسَن الذى سأل امرأتَه عن اللَّحم ، فقالت أكلَه السنَّور ، فوزَن السنَّور ، ثم قال : « هذا اللحمُ فاين السنور ؟ » قال : « كأنَّكَ تعرِّضُ بى » قال ، قلت : « إنك والله أهلُ ذلك . شيخٌ قد قاربَ المائة ، وغلته* فاضِلة ، وعِياله قليل ، ويُعطَى الأموالَ على مذاكرة العلم ، والعلمُ لذّته وصناعتُه ، ثم يرقى إلى جَوْف منزله . وأنتَ رجلٌ لك فى البستان ، ورجلٌ فى أصحابِ الفَسيل ، ورجل فى السُّوق ، ورجلٌ فى الـكلاء* . تطلُب من هذا وَقرَ جِصّ ، ومن هذا وَقرَ آجُرّ ، ومن هذا قِطعة ساج ، ومن هذا هكذا . ما هذا الحرصُ ؟ وما هذا الـكدّ ؟ وما هذا الشُّغل ؟ لو كنتَ شابًّا بعيدَ الأمل كيفَ كنت تكون؟ ولو كنتَ مدِيناً كثيرَ العيال كيف كنتَ تكون ؟ وقد رأينك فيما حدث تلبسُ الأطمار وتمشى حافياً نصفَ النهار » .

قال : « كم* أجَمجم : بلغنى أنَّك فقدتَ قِطعة بطّيخ ، فألححت فى المسألة عنها ، فقيل لك ، أكَلها السنَّور ، فرميتَ بباقى القِطعة قدّام السنور ، لتمتحنَ صِدقهم من كذبهم ، فلمّا لم يأكله غرَّمتَهم ثمن البطيخة كما هى . قالوا لك كان الليل ، فإن لا* تكن التى أكلتْه من سَنانير الجيران ، وكان الذى أكله سِنّورنا هذا ، فإنَّك رميتَ إليه بالقطعة وهو شَبْعان منه . فأنظِرنا ولا تغرمنا نمتحنه فى حال غير هذه . فأبيتَ إلاّ إغرامَهم » .

قال : « ويلك إنى والله ما أصِل إلى منعِهم من الفساد إلا ببعض الفساد . وقد قال زيادٌ* فى خُطبته : «والله إنى ما أصلُ منكم إلى أخذ الحقّ حتى أخوض الباطل إليكم خَوضاً » . وأما ما لُمتنى عليه آنفاً* فإنما* ذهبت إلى قوله : « لو أن فى يدى فَسيلة ،

---

(٥) وعليه ك — (٨) الكلا ك — (١٢) ثم (فان فلوتن) ، لم (شولتس) — (١٤) فان لم (فان فلوتن) — (٢٠) آنفا (مرسيه) : اتفاقاً ك — فانما : وانما (فان فلوتن) ، فانى انما (مرسيه)

(١٩ — ٢٠) «والله . . . خوضاً» من الخطبة البتراء : البيان والتبيين ٢ : ٣١ ط الفتوح الأدبية.

ثم قيلَ لى إنَّ القيامة تقوم الساعة ، لبادرتُها فغرستها » . وقد قال أبو الدرداء فى وجعه الذى مات فيه : « زوِّجونى ، فإنى أكره أن ألقى الله عَزَبًا » . والعربُ تقول : « من غلى دِماغه فى الصيف غلت قدرُه فى الشتاء » . قال مُكرَز : « العجز فِراش وطىء ، لا يستوطِئه إلاَّ الفَشِل الدثور » . وقال عبدُ الله بن ُوهب: « حبُّ الهوَينا يكسب النصب» وقال عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه : « إياكم والراحة ، فإنها غُفْلة * » . وقال: « لو أن الصبرَ والشكرَ بَعيران ، ما باليتُ أيُّهما أركب » . وقال : « تمعددوا واخشَوشِنوا ، واقطعوا الركب ، واركَبوا الخَيل نزوا » . وقال لَعمْرو بن معدى كرب ، حين شكا إليه الحِقاء : « كذَبت عليك الظهائر »وقال :« احتَفوا ، فإنكم لا تدرُون متى تكون الجفلة » . وقال : « إن يكن الشُّغل مَجهَدَة ، فإن الفراغَ مفسَدة ». وقال لسَعيد بن حاتم : « احذر النِّعمة كحذرك من المعصِية ، ولهىَ أخوفهُما عليك عندى » وقال: « أُحذِّركم عاقبةَ الفَراغ فإنه أجمعُ لأبواب المكروه من الشُّغل» . وقال أكثمُ بن صَيْفى : «ما أحبُّ أنى مكفىٌّ كل أمر الدنيا » قالوا : « وإن أسمنتَ وألبنتَ ؟ » قال : « نعم أكره عادةَ العجز » . أفترانى أدعُ وصايا الأنبياء وقول الخلفاء وتأديب العرب ، وآخذ بقولك .

(*) غفلة (فان فلوتن) .

(٢ — ٣) « والعرب . . . الشتاء » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ ، مناقب الترك (مجموعة رسائل الجاحظ) ط الساسى ص ٤٠ — (٦ — ٧) « تمعددوا . . . نزوا » انظر عيون الأخبار ١ : ١٣٢ — (٨) « كذبت عليك الظهائر » لسان العرب ٦ : ٢٠٠ (مادة ظهر) ط بولاق — (١١—١٢) « وقال أكثم . . . العجز » رسالة مناقب الترك (مجموعة رسائل الجاحظ — الساسى) ص ٤٠ عيون الأخبار ١ : ٢٤٦ ، البلدان لابن الفقيه ص ٤٩ .

أحاديث شتى

وتغدّى محمد بن الأشعث عند يحيى بن خالد ، فتذاكروا الزيتَ وفضلَ ما بينَه و بين السمن ، وفضلَ ما بين الأنفاق وزيتِ الماء * * . فقال محمد : « عندى زيتٌ لم يرَ الناس مثله » . قال يحيى : « لا يؤتى * منه بشىء ؟ » فدعا محمد * غلَامه فقال : « إذا دخلتَ الخِزانة ، فانظر الجرّة الرابعة عن يمينك إذا دخلتَ ، فجئنا منه بشىء » قال يحيى : « ما يُعجِبنى السيِّدِ يعرفُ موضِعَ زَيته وزيتونه » .

وقرّب خبّاز أَسَدِ بن عبد الله * * إليه — وهو على خُراسان — شِواءً قد أنضَجه * نضجاً . وكان يُعجبه مارُطب من الشِّواء . فقال للخبّازه : « أتظنُّ أن صنيعَك يخفى علىّ ؟ إنك لستَ تبالغُ فى إنضاجه لتطْييبه ، ولـكن تستَحلب جميعَ دَسَمه ، فتنتفعَ بذلك منه . فبلغتْ أخاه فقال : ربّ جهل خيرٌ من عِلم .

وكان رجل يغشَى طعامَ الجوهرىّ ، وكان يتحرَّى وقتَه ولا يخطِئُ . فإذا دخل ، والقومُ يأ كلون وحين وُضِـع الخوان ، قال : « لعنَ الله القدَرية ، من كان يستطيعُ أن يصرفَنى عن أ كل هذا الطعام ، وقد كانَ فى اللَّوح المحفوظ أنى سآ كله ؟ » فلمَّا أ كثر من ذلك ، قال له رياح : « تعال بالعشىّ أو بالغداة فإن وجدتَ شيئاً فالعن القدَريّة والعَن آباءهم وأمَّهاتِهم » .

وجاء غلامٌ إلى خالد بن صفوان * * بطبَق خَوْخ ، إما أن يكونَ هديَّةً ، وإمَّا أن غلامَه جاء به من البُستان . فلمَّا وضعه بينَ يديه قال : « لولا أنى أعلم أنك أ كلتَ منه لأطعمتُك واحِدة » .

وقال رمضان * : كنتُ مع شَيْخ أهوازىّ فى جَعْفَرية ، وكنتُ فى الذَّنَب وكان فى الصَّدر . فلمّا جاء وقتُ الغَداء ، أخرج من سَلة له دَجاجة وفَرْخاً واحِداً مبرَّداً ، وأقبلَ

---

(٤) لا تؤتى (فان فلوتن) — محمد : يحيى ك — (٧) نضجه (فان فلوتن) — (١٩) كذا بالأصل.

يأ كلُ ويتحدّثُ ولا يعرِضُ عليّ . وليسَ فى السفينة غيرى وغيرُه . فرآنى أنظرُ إليه مرّةً ، وإلى مابينَ يديه مرة . فتوهّم أنى أشتهيه واستنطيه ، فقال لى : « لِمَ تحدّق النَّظرَ؟ مَن كان عندَه أ كل مِثلى ، ومن لم يكنْ عندَه نظر مثلك » . قال: ثم نظرَ إلىّ وأنا أنظرُ إليه ، فقال : « يا هناه أناَ رجل حَسَن الأ كل ، لا آ كُل إلّا طَيِّب الطعام وأنا أخافُ أن تــكونَ عينُك مالحة . وعينُ مثلِك سَريعَة ، فاصرِف عنّى وجهَك» . قال فوثبتُ عليه ، فقبضتُ على لِحيتَه اليُسرى ، ثم تناولتُ الدّجاجة بيدى اليُمنى ، فما زلتُ أضربُ بها رأسَه حتى تقطّعت فى يدى . ثم تحوّل إلى مكانى ، فمسَح وجهَه ولحيَتَه ، ثمّ أقبلَ علىّ فقال : « قد أخبرتُك أن عينك مالحة ، وأنّك ستُصيبُنى بعَين » . قلتُ : « وما شبه هذا من العَين ؟ » ، قال: « إنما العينُ مكروه يحدُث . فقد أنزلتْ بنا عينُك أعظمَ المكروه». فضحِكتُ ضَحِكًا ما ضحكتُ مثلَه ، وتكالمنا حتى كأنّه لم يقل قبيحاً ، وحتى كأنى لم أفرُط عليه .

هذه مُلتَقطاتُ أحاديث أصحابِنا وأحاديثنا وما رَأينا بعُيوننا .

فأمّا أحاديثُ الأصمَعىّ وأبى عُبيدة وأبى الحسَن فإنى لم أجد فِيها* ما يصلُح لهذا المَوْضِــع إلّا ما قد كتبتُه فى هذا الــكِتاب ، وهى بضعَة عشرَ حديثاً :

قالوا : كان للمُغيرة بنِ عبد الله بن أبى عقيل الثقَفى ، وهو على الــكوفة ، جَدى يوضَع على مائِدته بعدَ الطعام . ولم يكن أحد يمسّه ، إذ كان هو لا يمَسُّه . فأقدَم عليه أعرابىٌّ يوماً — ولم يعرفْ سِيرة أصحابِنا فيه — فلم يرضَ بأ كل لحمه ، حتى تعرّق عظمَه . فقال له المُغيرة : «ياهذا ، تطالب عِظامَ هذا الجدى بذَحل ؟ هل نطحتكَ أُمُّه ؟». وكان الأصمعىُّ يقول : إنما قال : « يا هذا تطالب عظامَ هذا البائس بذحل؟ هل نطحتكَ أُمُّه ؟ » .

(١٣) منها (فان فلوتن) .

(١٥ – ١٩) « كان للمغيرة . . . أمه » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٠ ، العقد الفريد ٤ : ٢١٨ – الأزهرية ، ١٩١٣ م .

قال : وكان على شرطته عبدُ الرحمن بنُ طارق ، فقال لرجل من الشرَط : « إن أقدمتَ على جَدى الأمير ، أسقطتُ عنكَ نوبَةَ سنة » . فبلغه ذلك ، فشكاه إلى الحجّاج فعزله ، وولّى مكانَه زيادَ بنَ* جرير** . فكان أثقلَ عليه من عبد الرحمن . ولم يقدِر على عَزله ، إذ كانَ من قِبَل الحجّاج . فكان المغيرةُ إذا خطَب قال : « يا أهل الكوفة من بَغاكم الغوائِل وسعى بكم إلى أميركم ، فلعنَه الله ولعن أُمّه العوراء » . وكانت أُمُّ زياد عوراء . فكان الناسُ يقولون : « ما رأينا تعريضاً قط أطيبَ من تعريضه » .

قالوا : وكان لزياد الحارثىّ*** جَدى لا يمسُّه ، ولا يمسُّه أحد . فعشّى فى شهر رمضانَ قوماً فيهم أشعبُ*** . فعرض أشعبُ للجَدى من بينهم . فقال زياد : « أما لأهلِ السجن إمام يصلّى بهم ؟ » قالوا : لا . قال : « فليصلِّ بهم أشعب » . فقال أشعب : « أو غيرُ هذا أصلح الله الأمير » قال : « وما هو ؟ » قال : « أحلفُ بالمُحرِجات أن لا آكُلَ لحمَ جدى أبداً » .

قالوا : دعا عبدُ الملِك بن قَيس الذئبى رجلاً من أشراف أهل البصرة ، وكان عبد الملك بخيلاً على الطعام ، جواداً بالدراهم ، فاستصحبَ الرجلُ شاكراً* ، فلمّا رآه عبدُ الملك ضاقَ به ذَرعاً . فأقبلَ عليه ، فقال له : « ألف دِرهم خيرٌ لك من احتباسِكَ علينا » فاحتملَ* غُرم ألفِ درهم ، ولم يحتمِل أكل رغيف .

وتناولَ أعرابىٌّ* من بين يدَى سُليمان بن عبد الملك دَجاجة ، فقال له : « يكفيكَ مابينَ يدَيك ومايَليك » ، قال الأعرابىّ : « ومنها شىء حِمًى ؟ » ، قال : « فخذها لا بُورِك لك فيها » .

---

(٣) حد ر ك ، جديد (فان فلوتن) — (١٣) شاكرا : ساكرا ك ، ساكنا (فان فلوتن) — (١٥) واحتمل (فان فلوتن) .

(٧ — ١١) «وكان . . . أبدا» عيون الأخبار ٣ : ٢٦٠ — ٢٦١ ، العقد الفريد ٤ : ٢١٨ ط الأزهرية .

قالوا : وكان معاوية تُعجبه القِبّة . وتغدّى معه ذات يوم صَعْصعة بنُ صوحان ،فتناولها صعصعة** مِن بَين يَدى معاوية . قال معاوية : « إنّك لبعيدُ النُّجعة » ، قال صَعصعة : « من أجدبَ انتَجَع » .

وقالوا : دَخل هِشام بن عبد الملك حائطًا له ، فيه فاكِهة وأشجارٌ وثِمار ، ومَعه أصحابه . فجعلوا يأكلون ويدعون بالبَرَكة . فقال هِشام : « يا غُلام اقلَع هذا واغرِس مكانَه الزيتون » .

قالوا : وكانَ المغيرةُ بنُ عبدِ الله بن أبى عقيل الثقفى يأكل تمراً هو وأصحابه ، فانطفأ السراج ، وكانوا يُلقون النوَى فى طَست ، فسمِع صوتَ نواتين فقال : « من هذا الذى يلعبُ بالكعبتين* ؟ »

وقالوا : باع حُويطب** بنُ عبد العزّى داراً من مُعاوية بخمسة وأربعين ألف دينار . فقيل له : « أصبحتَ كثيرَ المال » ، قال : « وما منفعهُ خمسة وأربعين ألفاً مع ستّة من العيال ؟ » .

وقالوا : سأل خالدَ بنَ صَفوان رجلٌ فأعطاه درهمًا ، فاستقلَّه السائل . فقال : « يا أحمق إن الدرهمَ عشرُ العَشرة ، وإن العَشرة عُشْر المائة ، وإنّ المائة عُشر الألف ، وإن الألف عُشر العشرة آلاف* . أما ترى كيف ارتفع الدرهمُ إلى دِية مسلم ؟ » .

قالوا : كان بلالُ بن أبى بُردة** قد خاف الجُذام ، وهو والى البصرة . فوَصفوا له الاستنقاع فى السَّمن . فكان إذا فرَغ من الجلوس فيه أمرَ ببيعه . فاجتنب الناسُ فى

---

(٩) بالكعبتين (عيون الأخبار) : بالكعبين ك ، بكعبين (فان فلوتن) — (١٥) الف ك

(٤ — ٦) « دخل . . . الزيتون » مروج الذهب ٥ : ٤٨٧ ط باريس — (٧ — ٩) « وكان . . . بالكعبتين » عيون الأخبار ٣ : ٢٦١ — (١٣ — ١٥) « سأل . . . آلاف » البيان والتبيين ٢ : ١٦٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

تلك السنة أكلَ السمن . وكان يفطِر الناسَ فى شهر رمضان ، فكانوا يجلِسون حِلقاً ، وتوضَع لهم الموائد ، فإذا أقام المؤذّن نهضَ بلال إلى الصلاة ، ويستحى الآخَرون . فإذا قاموا إلى الصلاة جاء الخبّازون فرفَعوا الطعام .

قالوا : واحتقَن عمرو بن يزيد الأسدىّ * * بحقنة فيها أدهان . فلمّا حرّكته بطنُه ، كره أن يأتىَ الخلاء فتذهبَ تلك الأدهانُ ، فكان يجلسُ فى الطّست ويقول : « صَفّوا هذا ، فإنه يصلُح للسراج » .

قالوا : وخبّرنا جار له ، قال : رأيته يتخلّل من الطعام بخِلال واحد شَهْراً ، كلما تعدّى حذَف من رأسه شيئاً ، ثم تخلّل به ، ثمّ وَضعه فى مجرى دواته .

وقالوا : كان ذراعَ الذرّاع مع خالد بن صَفوان ، فوضعوا بين يدَيه دَجاجة ، وبين يدَيه شىء من زَيتون . فجعَل يَلحظ * الدجاجة ، فقال : « كأنك تهُمّ بها » ، قال : « ومن يمنعنى ؟ » ، قال : « إذاً أصير أنا وأنت فى مالى سواء » .

قالوا : مدّ يدَه أبو الأشهب إلى شى بين يدَى نميلة بن مرّة السّعدى ، فقال : « إذا أفردتَ بشىء فلا تعترِضْ * لغيره » .

قالوا : ومات وعليه للدّقاق وحدَه ثمانون ألف دِرهم ، لكثرةِ طعامه .

وقالوا : كان الحكَم بن أيوب الثّقفى عاملا للحجّاج على البَصرة ، فاستعملَ * على العِرق جريرَ بن بيْهس المازنى ، ولقبُ جَرير العطرّق . فخرج الحكَم يتنزّه ، وهو باليمامة ، فدعا العطرّق إلى غَدائه ، فأكل معه ، فتناوَل دُرّاجة كانت بين يَديه ،

---

(١٠) يلحظ (مرسيه) : يلقط ك — (١٥) واستعمل (فان فلوتن) .

(٤ — ٦) « واحتقن . . . للسراج » الأغانى لأبى الفرج ٢ : ٤٢٣ ط دار الكتب المصرية — (٩ — ١١) « وكان ذراع . . . سواء » نثر الدرر للآبى ٣ : ٣٢ (مخطوط) .

فعزله ، وولى مكانَه نوَيرة المازنىّ ، فقال : نويرة — وهو ابنُ عمّ العطرّق — :

قد كان فى العرق صَيْد لو قنعت به   فيه غـنًى لك عن دُرّاجة الحـكَم
وفى عَوارِضَ لا تنفكّ تأكلُها   لو كان يشفِيك لحمُ الجُزر من قَرَم
وفى وِطاب مُمَلأة متمّمة   فيها الصّريح الذى يشفى من القَرَم *

فلمّا * ولى مكانَه نُويرة بلغه أنّه ابن عم له فعزله ، فقال نويرة :

أبا يوسُفٍ لو كنتَ تعرفُ طاعتى   ونُصْحى ، إذاً ما بعتَنى بالمحلّق
ولا انهلّ * سرّاق العِرافة صالح   علىّ * ، ولا كلّفتُ ذنب العطرّق

فذهبت مثلا .

وتناول رجلٌ من قدّام أمير كان لنا ضَخمٍ بَيْضةً ، فقال : خُذها فإنها بيضة العُقر . فلم يزل محجوباً حتى مات .

وأتى ضَيعة له يتنزّه إليها * ، ومعه خَمسةُ رجال من خاصّته ، وقد حَملوا معه طعامَ خَمسمائة . وثقُل عليه أن يأكلوا معه ، واشتدّ جوعه . فجلَس على مَشارَة بقل ، فأقبل ينتزع الفجلة ، فيطوى جَزَرتها بعِرقها ، ثمّ يأكلُها من غير أن تُغسل ، من كلَب الجوع ، ويقول لواحِد منهم ، كان أقربَ الخمسة إليه مجلساً : « لو قد ذهب هؤلاء الثُقَلاء لقد أكلنا » .

قالوا : وأكل عبدُالرحمن بن أبى بكرة ** على خِوان مُعاوية ، فرأى لَقْم عبد الرحمن .

---

(٤) كذا ، ولعلها : العيم — (٥) ولأ (فان فلوتن) — (٧) انحل (فان فلوتن) ، الحل ك ، ساق (الحيوان) — بنى (الحيوان) — (١١) كذا فى ك ، ولعلها : فيها .

(١٥١ : ١٥ — ١٥٢ : ٨) قصة الحكم بن أيوب والعطرق : ديوان الفرزدق ص ٨٧٤ ط الصاوى ، ثمار القلوب للثعالبى ص ٣٧٦ ط الظاهر — (٦ — ٧) « أبا يوسف . . . العطرق » الحيوان ١ : ٢٠ ط الحلبى — (٩ — ١٠) « وتناول . . . مات » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٠ .

فلما كانَ بالعشيِّ ، وراح إليه أبو بكرة ، قال : « ما فَعَل ابنُك التِّلقامة ؟ » قال : « اعتلّ » قال : « مثلُه لا يَعدَم العلة » .

وأ كل أعرابيّ مع أبي الأسود الدؤلي ، فرأى له لَقْماً منكَرا ، وهاله ما يصنع . قال له : « ما اسمُك ؟ » قال : « لقمان » . قال : « صدق أهلك . أنتَ لقمان » .

قالوا : وكان له دكان لا يسعُ إلاّ مقعدَه ، وطُبيقاً* يوضَع بين يديه . وجعله مُرتفعاً ، ولم يجعلْ* < له > * عَتباً ، كي لا يرتَقى إليه أحد . قالوا : فكان أعرابيّ يتحيّن وقتَه ، ويأتيه على فرَس ، فيصير كأنه معه على الدكّان . فأخذ دَبّة وجعَل فيها حصى ، واتّكأ عليها . فإذا رأى الأعرابيّ قد أقبل ، أراه كأنه يحوِّل متّكأه ، فإذا قَعْقَعت الدبّة بالحصَى نفَرَ الفرس . قالوا : فلم يزَل الأعرابيُّ يدنّيه ويُقعقع هو به ، حتى نَفَر به* فصرَعه . فكان لا يعودُ بعد ذلك إليه .

(٥) وطبيق ك — (٦) < له > (فان فلوتن) : ليست بالأصل — (٩) منه (فانفلوتن)

(١٥٢ : ١٩ — ١٥٣ : ٢) «وأكل ... العلة» عيون الأخبار ٣ : ٢٢٨ — (٣ — ٤) «وأكل ... لقمان» عيون الأخبار ٣ : ٢٢٨ .

رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي**

إلى الثقفي

بسمِ اللهِ الرحمٰن الرَّحيم .

أمّا بعد ، فإن جلوسَك إلى الأصمعيّ ، وعجَبَك بسَهل بنِ هارون ، واستِرجاحَك إسماعيلَ بنَ غَزْوان ، وطعنَك على موَيس بن عِمران ، وخُلطتَك بابن مُشارك ، واختلافَك إلى ابنِ التوْأم ، وإكثارَك من ذكر المال وإصلاحِه والقيامِ عليه واصطِناعه، وإطنابك في وَصف التزْويج والتثمير ؛ وحُسن التعهّد والتوفير ، دليل خَبىء سوء ، وشاهدٌ على عيبٍ ودَبرٍ . بعدَ أن كنتَ تستثقِل ذكرَهم ، وتستَشنِع فعلَهم ، وتتعجّب من مَذهَبهم وتسرِف* في ذمهم . وليسَ يلهَج بذكرِ الجمع إلاّ من قد عزَم على الجمع ، ولا يأنس بالبُخلاء إلاّ المُستَوحِشُ من الأسخِياء .

في تحفّظك قولَ سَهل بن هارون في « الاستعْداد في حال المُهْلة ، وفي الأخذِ بالثّقَة ، وأنّ أقبح التفريط ما جاء مع طول المدّة ، وأن الحزْمَ كلَّ الحزم والصوابَ كلَّ الصواب ، أن يستَظهر على الحِدْثان ، وأن يجعلَ ما فضَل عن قِوام الأبدان رِدْءا دون صُرُوف الزمان ، فإنّا* لا نُنْسب إلى الحِكمة حتى نحوطَ أصلَ النعمة ، بأن نجعلَ دونَ فُضولها جنّة » ، شاهدٌ على عَجَبك بمذْهَبه ، وبرهانٌ* على مَيْلك إلى سَبيله .

وفي استِحْسانِك روايةَ الأصمَعيّ في أنّ أكثرَ أهلِ النار النساء والفقراء ، وأن أكثر أهل الجنّة البُله والأغنياء ، وأن أرباب الدُّثور هم الذين ذَهَبوا بالأجور ، برهانٌ على صِحّة حُكمِنا عليك ، ودليلٌ على صَواب رَأينا فيك .

---

(٩) وتسرف في (فان فلوتن) : وتشرف من ك — (١٤) وأنا (فان فلوتن) — (١٥) وبرهانا ك.

(١٦ — ١٧) «أكثر أهل الجنة البله» النهاية لابن الأثير ١ : ١١٤ ، المطبعة الخيرية ، ١٣٢٢ هـ —(١٧) «أرباب ... بالأجور» النهاية لابن الأثير ٢ :١٣ المطبعة الخيرية ، ١٣٢٢ هـ

وفى تفضيلِكَ كلامَ ابنِ غزوان حينَ قال: « تنعَّمتم بالطعام الطيِّب و بالثياب الفاخِرة و بالشَّراب الرقيق و بالغِناء المطرِب ، وتنعَّمنا بعزِّ الثروة و بصوَاب النظر فى العاقبة ، و بكثرة المال والأمنِ مِن سُوء الحال ، ومن ذُلِّ الرَّغْبة إلى الرجال والعجزِ عن مَصْلحة العِيال ، فتلكَ لذَّتـكم ، وهذه لذتنا . وهذا رأيُنا فى التسلُّم من الذمّ ، وذاك رأيـكُم* فى التعرض* للحَمْد . و إنما ينتفِع بالحمدِ السليمُ الفارغُ البال ، ويُسَرُّ باللّذات الصحيحُ الصادقُ الحسّ . فأما الفقيرُ فما أغناه* عن الحمد ، وأفقرَه إلى ما به يجدُ طَعْم الحمد . والطعامُ الذى آثرتموه يعُود رَجِيعاً ، والشرابُ يَصير بَوْلا ، والبناء يعود نقِضاً ، والغِناء* ريحٌ هابّة ومُسقِط للمروءة ، وسَخافة تفسد ، ورنّة تسير . فلذَّتـكم فيما حَوَى لـكم الفقر و نَقَض المروءة ، ولذَّتُنا فيما حَوَى لنا الغِنى و بنى المروءة ، فنحنُ فى بِناء وأنتم فى هَدم ، ونحن فى إبرام وأنتم فى نقض ، ونحن فى التماس العِزّ * الدائم مع فَوْت بعض اللذة ، وأنتم فى التعرض للذل الدائم مع فوت كل المروءة* » .

وقد فهِمنا معنى حكايتِك ، وما لهِجتَ به رِوايتك . والدليلُ على انتقاض طِباعك و إدبار أمرِك ، استِحْسانُك ضدَّ ما كنتَ تستحسِن ، وعشقُك لما < كنت >* لم تزَل تمقُت ، فبُعداً وسُحقاً . ولا يُبعِدُ الله إلا من ظَلَم . والشاعِرُ أبصر بكُم حيثُ يقول :

فإن سمعتَ بهُلك للبَخيل فقُل ... بُعداً وسُحقاً له من هالِكٍ مُودى

تُرَاثه جنة للوارثين إذا ... أوْدى ، وجُثمانه للتُرب والدود

وقال آخر :

تَبْلى محاسِن وجهه فى قَبره ... والمالُ بينَ عَدوِّه مقْسوم

---

(٤) رأيهم (فان فلوتن)—(٥)التعريض ك—(٦) أعماه ك ، أعياه (فان فلوتن) — (٧) والثناء (فان فلوتن)—(١٠) الغناء (فان فلوتن)—(١١) مروءة (فان فلوتن)—(١٢) <كنت > ليست بالأصل

---

(٦) « فأما الفقير . . . طعم الحمد » عيون الأخبار ٢ : ٢١٦ — (١٦) « فان . . . مودى » الحيوان ٣ : ٥٠ ط الحلبى .

والحمد لله الذى لم يمُتنى حتى أرانيك وكيلا فى مالِك، وأجيراً لوارثك . وأما* أنتَ فقد تعجّلتَ الفقر قبلَ أوانه ، وصرتَ كالمجلودِ فى غَيْر لذّة . وهل يزيدُ حالُ من أنفق جميعَ ماله ، و رأى المكروهَ فى عِياله ، وظهرَ فقرهُ وشَمِت به عدوُّه ، على أكثرَ من انصِراف المؤنسين عنه، وعلى* بُغض عِياله ، وعلى خُشونة الملبَس ، وجُشوبةَ* المأكل وهذا كلُّه مجتمعٌ فى مَسْك البخيل ، ومَصْبوب على هامَة الشحيح، ومعجَّل للئيم ، وملازِم للمَنُوع . إلّا أن المنفِقَ قد ربح المحمَدة ، وتمتَّع بالنِّعمة ، ولم يعطِّل المقدرة ، ووفى كلَّ خَصلة مِن هذِه حقّها ، ووفّر عليْها نصيبَها ، والمُمسِك معذَّبٌ بحَصْر نفسِه ، و بالكَدّ لغيره ، مع لُزوم الحجَّة ، وسُقوط الهِمَّة ، والتعرُّض للذمِّ والإهانة ، ومع تحكيم المِرَّة السوْداء فى نفسه ، وتسليطِها على عِرضه ، وتمكينِها من عَيْشه وسُرور قلبه .

ولقد سَرى إليك عِرق ، ولقد دَخَل أعْراقَك خَوَر ، ولقد عَمِل فيها قادِح ، ولقد غالها غُول . وما هذا المذهبُ من أخلاق صَميم ثَقيف ، ولا من شِيَمٍ أعرقَت فيها قُريش . ولقد عَرَض لك إقراف ، ولقد أفسَدَتك < هُجْنة > * . ولقد قال معاوية : « مَن لم يكُن مِن بنى عبد المطَّلب جَواداً فهوحميل* ، ومَن لم يكُن من آل الزّبَير شُجاعاً فهولَزِيق ، ومَن لم يكن من بَنِى المُغيرة تيّاهاً فهو سنيد » . وقال سَلم بن قُتيبة : « إذا رأيتَ الثَّقفِىّ يعزُّ من غَير طعام ، ويكسِب لغير إنفاق، فبَهْرجه ثم بَهْرجه ثم بهرجه» ، وقال ابنُ أبى بُردة : « لولا شبابُ ثَقيف وسُفهاؤهم ما كان لأهل البصرة مال » .

إن الله جَواد لا يبخل ، وصَدوق لا يكذِب ، ووَفىّ لا يغدُر ، وحليم لا يَعْجَل ، وعَدْل لا يظلِم . وقد أمرَ بالجود ونهانا عن البخل ، وأمر بالصدق ونهانا عن الكذِب ، وأمرنا بالحِلم ونهانا عن العَجَلة ، وأمرنا بالعَدل ونهانا عن الظُّلم ، وأمرَنا بالوفاء ونهانا عن الغَدْر . فلم يأمرْنا إلا بما اختاره لنفسِه ، ولم يزجُرنا إلا عمَّا لم يرضَه لنفسِه . وقد قالوا

(١) وما ك — (٣) [و] على ك — وخشونة ك — (١٢) < هجنة > (فان فلوتن) : ساقطة فى الأصل — (١٣) بخيل ك ، دخيل (مرسيه) .

(١٢ — ١٤) « ولقد قال ... سنيد » البيان والتبيين ٣ : ٢٥٨ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢م .

بأجمعهم: « إنّ الله أجوَد الأجْودين وأمجد الأمجدين». كما قالوا: «أرحَم الراحِمين وأحْسَن الخالِقين » . وقالوا فى التأدِيب لسائليهم ، والتعْليم لأجْوادهم : « لاتجاودوا الله فإن الله جلّ ذكره أجْود وأمجد » وذكر نفسَه — جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه — فقال : « ذُو الفَضْل العَظِيم » و«ذِى الطَوْلِ لَا إلهَ إلّا هُوَ » وقالَ : « ذُو الجَلَالِ والإكْرَام »

وذكروا النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلّم فقالوا : لم يَضع درهَماً على دِرهم ولا لَبِنة على لَبِنة ، ومَلك جزيرةَ العرب ، فقبضَ الصدَقات ، وجُبِيت له الأموال ما بين عِذار* العِراق ، إلى شِحر عُمان ، إلى أقصى مخاليف اليمن ، ثمّ تُوفّى وعليه دَين ، ودِرعُه مَرْهونة . ولم يُسأل حاجةً قطُّ فقال : لا . وكان إذا سُئل أعطى ، وإذا وعد أو أطمَع ، كان وعدُه كالعيان ، وإطماعُه كالإنجاز . ومَدَحته الشعراء بالجود ، وذكرته الخُطَباء بالسَماح . ولقد يهَبُ للرجُلِ الواحد الضاجعة من الشاء ، والعَرْج من الإبل . وكان أكثرُ ما يهَبُ المَلِك من العرب مائةَ بعير، فيقال وَهَب هُنَيدة . وإنما يقالُ ذلك إذا أريد بالقول غايةُ المدح . ولقد وَهَب لرجل ألفَ بعير، فلما رآها تزدَحِم فى الوادى* قال: « أشهدُ أنك نبىّ ، وما هذا مما تجودُ به الأنفس » .

وفَخرت هاشم على سائرِ قُريش فقالوا : نحنُ أطعم للطعام ، وأضرَب للهام . وذكَرها بعضُ العلماء فقالوا : أجوادٌ مُجّادٌ* ذَوو ألسِنة حِداد . وأجمعت الأمم كلُّها ، بخيلُها وسخيُّها وممزوجها ، على ذمّ البُخل وحَمد الجود ، كما أجمَعوا على ذمّ الكَذِب وحَمد الصدق* . وقالوا : أفضل الجُود الجود بالمجْهود . وحتى قالوا فى جُهد المُقلّ ، وفيمن أخرَج الجهد وأعطى الكلّ ، وحتّى جَعَلوا لمن جاد بنفسِه فَضيلة على من جاد بمالِه ، فقال الفرزدق:

على ساعةٍ لو كانَ فى القَوْم حاتمٌ — على جوده — ضنّت به نفس حاتم

(٧) عذار (مرسيه) : عذران ك — (١٣) الوادى : الفودى ك ، القوادى (فان فلوتن) — (١٦) أمجاد (فان فلوتن) — (١٨) الصديق ك .

(٤) «ذى الطول لا إله إلا هو» سورة غافر : ٣ — (٤—٥) «ذو الجلال والاكرام» الرحمن : ٢٧ — (٢٠) «على ساعة ... حاتم» ديوان الفرزدق ص ٨٤٢ ط الصاوى .

ولم يكن الفرزدقُ ليضربَ المثَل فى هذا الموضع بكَعْب بن مامة** ، وقد جَاد بحوْبائه عندَ المصافنة . فما رأينا عربيًّا سفّه حلمَ حاتم بجُودِه* بجميع ماله ، ولا رأيْنا أحداً منهم سفَّه حِلم كَعب على جوده بنفسه . بل جَعَلوا ذلك من كَعْب لإياد مَفخراً ، وَجعلوا ذلك من حاتِم لطيِّئ* مأثرة ، ثمّ* لعَدْنان على قحطان . ثم للعرب على العَجَم ، ثم لسكان جزيرة العرب ، ولأهل تلك التُربة* على سائر الجزائر والترب .

فمن أراد أن يُخالِف ما وَصف الله جلّ ذِكره به نفسَه ، وما مَنح من ذلك نبيَّه صلَّى الله عليه وسلّم ، وما فُطِر على تَفْضِيله العربُ قاطبة والأمَمَ كافّة ، لم يكُن عندَنا فيه إلّا إكفاره واستسقاطه .

ولم نرَ* الأمة أبغضت جَواداً قطّ ولا حَقَرته ، بل أحبّته وأعظَمته . بل أحبّت عَقِبه ، وأعظَمت — من أجله — رهطَه . ولا وَجدناهم أبغضُوا جَواداً لمجاوزته حدّ الجود إلى السَّرَف ولا حقَرته ، بل وَجَدناهم يتعلّمون مناقِبه ، ويدارسون محاسِنه ، وحتى أضافوا إليه من نَوادر الجميل ما لم يفعلْه ، ونحلوه من غَرائب الـكَرَم ما لم يكنْ يبلغهُ . ولذلك زَعَموا أنّ الثناء فى الدنيا يُضاعف كما تُضاعف الحسنات فى الآخرة . نعم وحتى أضافوا إليه كلّ مَديح شارِد ، وكلّ معروف مجهولِ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم* للبخيل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خِلاف هذا المذهَب . وجدناهم يبغِضونه مرة ، ويحقِّرونه مرة ، ويبغِضون — بفَضل بغضه — ولده ، ويحتقِرون* — بفضل احتقارهم له — رهطَه ، ويُضيفون إليه من نَوادر اللؤم ما لم يبلغْه ، ومن غَرائب البُخل ما لم يفعَلْه ، وحتى ضاعفوا عليه من سُوء الثّناء ، بقدْر ما ضاعفوا للجواد من حُسن الثّناء .

وعلى أنّا لا نجدُ الجوائح إلى أموال الأسخِياء أسرع منها إلى أموال البُخلاء ، ولا رأيْنا عدَدَ من افتقَر من البخَلاء أقلّ .

والبخيلُ عند الناس ليسَ هو الذى يبخَل على نفسِه فقط ، فقد يستحِقّ عندهم اسمَ

---

(٢) لجوده (فان فلوتن) — (٤) طى ك — [ثم] (فان فلوتن) — (٥) البرية ك — (٨) كفاره ك — (٩) يزل ك — (١٤) بانعاتهم (فان فلوتن) — (١٦) ويحتقر ك .

البخل* ، ويستوجِبُ الذمّ ، من لا* يدعُ لنفسِه هَوًى إلا ركِبه ، ولا حاجة إلّا قضاها ، ولا شَهْوة إلّا ركِبها وبلغ فيها غايتها* . وإنما يقعُ عليه اسمُ البخيل إذا كان زاهِدًا فى كلّ ما أوجبَ الشكر ونوّه بالذِكر وأذخر الأجر .

وقد يعلّق البخيلُ على نفسِه من المُؤَن ، ويُلزِمها من الكُلَف ، ويتّخِذ من الجوارى والخدَم ، ومن الدوابّ والحَشَم ، ومِنَ الآنية العَجيبة ، ومن البِزّة الفاخرة والشارة الحسنة ، ما يربى* على نفَقة السخىّ المُثرِى ، ويُضعِف على جُود الجواد الكريم* . فيذهبُ ماله وهو مَذموم ، ويتغيّر حاله وهو مَلوم . وربما غلَب عليه حُبُّ القِيان ، واستهتر بالخِصيان . وربما أفرطَ فى حبّ الصَّيد ، واستَولى عليه حبُّ المراكب . وربما كان إتلافه فى العُرس والخُرس والوَليمة ، وإسرافه فى الإعذار وفى العَقيقة والوكيرة . وربما ذهبتْ أمواله فى الوَضائع والودائع . وربما كان شديدَ البخل ، شديدَ الحبّ للذكر ، ويكونُ بخله أوسخَ* ، ولؤمه أقبح* ، فينفِقُ أمواله ، ويتلفُ خَزائنه ، ولم يَخرُج كَفافا ، ولم ينجُ سليماً .

كأنك لم ترَ بخيلا مخدُوعاً ، وبخيلا مَفتوناً* ، وبخيلاً مِضْياعاً ، وبخيلا نفّاجاً . أو بخيلاً ذهب ماله فى البناء ، أو بخيلاً ذهب ماله فى الكيمياء ، أو بخيلا* أنفق ماله فى طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفى طلب الولايات ، والدخول فى القَبالات ، وكانت فتنتُه بما يؤمِّل من الإمرة فوقَ فتنتِه بما قد حواه من الذهب والفضّة . قد رأيناه ينفِقُ على مائدتِه وفاكِهتِه ألفَ دِرهم فى كلّ يوم ، وعنده فى كلّ يوم عُرس ، ولأن يطعَن طاعِن فى الإسلام أهونُ عليه من أن يطعَن فى الرغيف الثانى ، ولا شقّ عصا الدين أشدّ عليه من شقّ رغيف . لا يعدُّ الثَلمة فى عِرضه ثلمة ، ويعدُّها فى ثَريدته من أعظم الثُلَم .

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البُخَلاء أسرع ، والجوائحُ عليهم أكلَب ، لأنهم

---

(١) البخيل (فان فلوتن) — ولا (فان فلوتن) . (٢) غايته (فان فلوتن) — (٦) ما يرى (فان فلوتن) — الكهم (فان فلوتن) — (١١) أوشح ك — أنتح ك — (١٣) ضعوفا ك ، مضعوفا (فان فلوتن) ، مغبونا (مرسيه) — (١٤) وبخيلا (فان فلوتن) .

أقلُّ توكُّلا وأسوأ بالله ظنًّا . والجوادُ إما أن يكونَ متوكّلا ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًّا . وهو على كلِّ حال بالمتوكِّل أشبه ، وإلى ما أشبهَه أنزع ، وكيفما دار أمرُه ورَجعَت الحال به ، فليس ممّن يتّكِل على حَزمه ، ويلجأ إلى كَيْسه ، ويرجِع إلى جَوْدة احتياطِه وشدّة احتراسه . واعتلال البَخيل بالحِدثان ، وسوء الظنِّ بتقلُّب الزمان ، إنما هو كِناية عن سُوء الظنِّ بخالق الحِدثان ، وبالذى يُحدِث الأزمان وأهلَ الزمان . وهل تجرى الأحداثُ إلا على تقدير المُحدِث لها ، وهل تختلِف الأزمنة إلا على تصريف مَن دَبّرها ؟ أولَسْنا وإن جَهلنا أسبابَها ، فقد أيقنا* بأنها تجرى إلى غاياتها ؟

والدليلُ على أنه ليسَ بهم خوفُ الفقر ، وأن الجمعَ والمنعَ إما أن يكونَ عادةً منهم أو طبيعة فيهم ، أنك قد تجدُ المَلِك بخيلا ومملكتُه* أوسعُ ، وخرجُه أدرّ ، وعدوُّه أسكن ، وتجد أحزَمَ منه جَواداً ، وإن كانت مملكتُه أضيق ، وخرجُه أقل ، وعدوُّه أشدّ حركة .

وقد علِمنا أن الزنج أقصَر الناس فكرة وروية ، وأذهلهم عن معرفة العاقبة . فلو كان سَخاؤهم إنما هو لكلال حدِّهم ونقصِ عقولهم وقلة معرِفتهم ، لكان ينبغى لفارس أن تكونَ أبخلَ من الروم ، وتكون الرومُ أبخل من الصَقالبة . وكان ينبغى للرجال ، فى الجملة ، أن يكونوا أبخلَ من النساء فى الجملة ، وكان ينبغى للصبيان أن يكونوا أسخى من النساء ، وكان ينبغى أن يكون أقلُّ البُخَلاء عقلاً أعقلَ من أسَدِّ الأجواد عَقلاً . وكان ينبغى للكلب — وهو المضروب به المثلُ فى اللؤم — أن يكون أعرف بالأمور من الديك المضروب به المثل فى الجود وقالوا : هو أسخى من لافِظة* ، وألأم من كلب على جِيفة ، وألأم من كلب على عَرق . وقالوا : أجِع كلبَك يتبعْك ، ونَعِم كلب فى بُؤس أهله ،

(٣) [و] رجعت ك – (٧) أتقنا (فان فلوتن) – (٩) وملكته ك – (١٢) مدة وروية ك – (١٦) يكونوا ك – (١٨) لاقطة (فان فلوتن) .

(١٢ – ١٦) « وقد علمنا ... عقلا » كرر هذا المعنى فى رسالة فضل السودان (مجموعة رسائل الجاحظ) ص ٦٤ ط الساسى – (١٨) « وألأم ... جيفة » الحيوان ١ : ٢٢٧ ط الحلبى – (١٩) « وألأم ... عرق » الحيوان ١ : ٢٣٨ ، عيون الأخبار ٢ : ٨١ .

وأسْمِن* كلبك يأكلْك ، وأحرَصُ من كلبٍ على عِقِى صَبى** ، وأجوَع من كَلبة حَومل، ولهو أبذأ من كلب ، وَحشَّ فلان من خُرء الـكلب ، واخسَ كما يقال للـكلب ، وكالـكلب فى الأرِىّ : لا هو يعتلِف ولا هُو يترك الدابَّة تعتلف ، وقال الشاعر :

سَرَت ما سرَت من لَيلها ثم عرَّست   على رَجُل بالعرْج ألأمَ من كلب

وقال الله جل ذكره : « فَمَثَلُه كَمَثَلِ الْـكَلبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » . وكان ينبغى فى هذا القِياس أن يكونَ المراوِزة أعقلَ البريّة ، وأهلُ خُراسان أدرَى البرية .

ونحنُ لا نجِدُ الجواد* يفرُّ من اسم السَّرَف إلى الجود ، كما نجد البخيلَ يفرُّ من اسم المتهوِّر* ، والمستحى يفرُّ من اسم الخجل . ولو قيل لخطيبٍ ثابتِ الَجنان : وَقَاح ، لجزِع . فلو لم يكنْ من فَضيلة الجُود إلا أن جميعَ المتجاوزين لحُدود أصناف الخير يكرَهون اسمَ تلك الفَضلة إلا الَجواد ، لقد كانَ فى ذلك ما يبين قَدْرَه* ، ويُظهر فَضله .

المالُ فاتن ، والنفسُ راغبة ، والأموالُ مَمنوعة ، وهى على مامُنِعت حَريصة ، وللنفوس فى المُـكاثرة علة معروفة ، ولأنّ* من لا فـكرةَ له ولا روّية ، موكَّل بتعظيم ذى الثَرْوة ، وإن لم يكنْ منه مَنَاله . وقد قال الأوّل :

وزادَها كَلَفًا بالحبِّ أن مُنِعت   أحبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنِعا

وفى بعض كُتب الفرس : « كلّ عزيز تحتَ القُدرة فهو ذَليل » ، وقالت مُعاذة العَدَوية : « كلّ مقدور عليه فمقلوٌّ أو محقور » .

---

(١) وسمن (فان فلوتن) — عق طبى ك ، عقبى ظبى (فان فلوتن) — (٨) الجود ك — (٩) المتهور (مرسيه) : المنهزم ك — (١١) قدرته (فان فلوتن) — (١٣) (و) لأن (فان فلوتن) —

(١٦٠ : ١٩ — ١٦١ : ١) « أجع ... صبى » عيون الأخبار ٢ : ٨١ ، الفاخر ص ٥٧ ، الحيوان ١ : ٢٢٦ (٤) « سرت . . . كلب » الحيوان ١ : ٢٥٧ ، ٢٦٦ ط الحلبى — (٥ — ٦) « فثله ... يلهث » سورة الأعراف : ١٧٦ — (١٥) « وزادها . . . مامنعا » الحيوان ١ : ١٦٨ ، عيون الأخبار ٢ : ٣ — (١٦ — ١٧) « وفى . . . محقور » عيون الأخبار ٢ : ٢ — ٣ .

ولو كانوا لأولادهم يجمَعون ولهم يكدُّون ، ومن أجلِهم يحرِصُونَ ، لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبُون ، ولترَكوا محاسَبَتهم فى كثير ممَّا يشتَهون . وهذا بعضُ ما بغَّض بعضَ المورِّثين إلى الوارثين ، وزهّد الأخلاف فى طُول عمر الأسلاف . ولو كانوا لأولادهم يمْهدون ، ولهم يجْمَعون ، لما جَمع الخِصيان الأموال ، ولما كنز الرُّهبان السكنوز ، ولاستراحَ العاقِر من ذلِّ الرّغبة ، ولسَلِم العقيمُ من كدِّ الحرص* . وكيفَ ونحن نجدُه بعد أن يموتَ ابنه الذى كان يعتلُّ به ، والذى من أجله كانَ يجمع ، على حالهفى الطَّلب والحِرص ، وعلى* مثلِ ما كان عليه من الجمع والمنع .

والعامة لم تقصر فى الطَّلَب ، والحكَرة والبخَلاء لم يحدّوا* شيئاً من جُهدهم ، ولا أعفَوا بعدُ قدرتِهم ، ولا قصَّروا فى شيء من الحِرص والحصْر ، لأنهم فى دار قُلْعة ، و بعرَض نقلة . حتى لو كانوا بالخلود موقِنين ، لأغفلوا تلكَ الفُضول . فالبخيل مجتهد ، والعامىُّ غيرُ مقصِّر . فمن لم يَستعِن على ما وصَفنا ، بطبيعة قوّية وبشَهوة شديدة و بنظَر شاف ، كان إمّا عامِّيًا و إمّا شقِيًا ، فيقيمُ اعتِلالهم بأولادِهم واحتجاجَهم بخوف التلوُّن من أزمنتهم .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لوافِدٍ كذَب عندَه كذبة ، وكان جواداً : « لولا خَصلة ومَقك الله عليها لشرَّدتُ بك من وافد قوم » . وقيل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : « هل لكفى بيض النساء وأُدْم الإبل ؟ » قال : « ومن هم ؟ » قيل : « بنو مُدلج » قال : « يمنعُنى مِن ذاك قِراهم الضَيْف وصلتهم الرحِم » . وقال لهم أيضاً : « إذا نحروا ثجّوا* ، وإذا لَبّوا عجّوا » . وقال للأنصار : « من سيِّدكم ؟ » قالوا : « جدُّ بن قَيس** ، على أنّه يُزَنّ فينا ببخل » فقال : « وأىّ داء أدوى من البُخل ! » < فجعله داء > *،

---

(٥) الحريص ك – (٦) [و] على ك – (٨) يحلوا (فان فلوتن) – (١٨) نجوا ك ، نحوا (فان فلوتن) – (١٩) < فجعله داء > : ليست بالأصل .

(١٤ – ١٥) «قال . . . قوم» النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٧٤ المطبعة الخيرية ، القاهرة – (١٨ – ١٩) «وقال للأنصار . . . البخل» العقد الفريد ١ : ٢٦٣ ط لجنة التأليف ، البخلاء للخطيب ، ورقة ٦ ، ٧ ، مخطوطة المتحف البريطانى

ثم جعَله مِن أدوى الداء . وقال للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتكثرون عندَ الفزع *، وتقلّون عند الطَمع » . وقال : كفى بالمرء حِرصاً رُكوبُه البحر » . وقال : « لو أن لابنِ آدَم وادِيَيْن من مالٍ لا بتَغى ثالثاً ، ولا يُشبِــع ابن آدم إلا التراب ، ويتوبُ الله على مَن تاب » . وقال : « السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان » . وقال : « إن الله جَواد يحبُّ الجود » . وقال : « أنفِق يا بلال ، ولا تخشَ من ذى العَرْش إقلالا » .

وقال : « لاتوكِ فيوكأ عليك » . وقال : « لا تحصِ فيُحصَى عليك » . وقالوا : « لا ينفعُك من زاد < ما > * تبقّى » . ولم يسمِّ الذهَب والفضّه بالحجرَين إلاوهو يريد أن يضع من أقدارهما، ومن فِتنة الناس بهما . وقال لقيس بنِ عاصم : « إنما لك من مالك ما أكلت فأفنَيت ، وما لَبستَ فأبليت ، أوأعطيت فأمضَيت ، وما سِوى ذلك فلِلْوارث »

وقال النَمِرُ بن تَوْلب ** :

وحَثّت على جَمع ومَنع ، ونفسُها لها فى صُروف الدهر حقّ كذوب
وكائِنْ رأينـــا من كَريم مرزّأ أخِى ثِقة طَلْق اليدَين وهوب
شَهدتُ وفاتونى وكنت حَسِبتُنى فقيراً إلى أن يَشهدوا وتَغيبــى
أعاذلُ إنّ يصبحْ صَداى بقَفرة بعيداً نآنى صاحبى وقَريـــبى
ترَى أنّ ما أبقيتُ لم أكُ ربّه وأن الذى أمضيتُ كان نصيبى

---

(١) الفراغ ك – (٧) < ما > : ليست بالأصل .

(١ – ٢) « وقال للأنصار . . . الطمع » البيان والتبيين ٢ : ١٦ ط مصطفى محمد ، الكامل للمبرد ١ : ٣ المطبعة الأزهرية – (٢ – ٤) « وقال لوان . . . تاب » البيان والتبيين ٢ : ١٨ – (٥) « وقال انفق . . . اقلالا » العقد الفريد ١ : ٢٦٣ – (٨ – ١٠) « إنما لك . . . فللوارث » البيان والتبيين ٢ : ١٨ ، عيون الأخبار ٣ : ١٧٩ ، الأغانى ٤ : ١٦٢ ط دار الكتب المصرية .

وذى إبِل يسعَى* ويحسبها له   أخى نصب فى سقيها* ودؤوب
غدَت وغدا ربٌّ سواه يسُوقها   وُبدِّل أحجاراً وجالَ* قليب

وقال أيضاً :

قامتْ تباكى* أن سَبَأْت لِفتية   زِقّاً* وخابِيــة بعَوْد مُقْطَع
وقَرَيتُ فى مقرى قلائصَ أربعا*   وقريتُ بعد قِرى قلائص أربع
أتبكيا من كلِّ شىء هــيّن   سَفَه بُكاء العين ما لم تدمَع
فإذا أتانى إخْوَتى فدَعيهــم   يتعلّلوا فى العَيش أو يَلْهوا معى
لا تطرُديهم عن فراشى ، إنه   لا بدَّ يوماً أن سيَخلو مضجَعى
هلا سألتِ بعادياء وبيتِــه   والخيــلِ والَخمْرِ التى لم تمنع

وقال الحارثُ بن حِلّزه :

بينا الفتَى يسعَى ويُسعَى له   تاح له من أمرِه خالــج
يترُك ما رقح من عَيْشه   يعيثُ* فيــه هَمَج هامِــج
لا تــكسَع الشَّول بأغبارها   إنّك لا تدرى مَن النــاتج

وقال الهُذَلى** :

إن الــكرامَ مناهِبــو   ك المجـدَ كلّهم فناهِب
أخْلِف وأتلِف ، كلّ شى   ء ذرعته الريحُ ذاهب

(١) يسعى (الكامل) : تسعى ك – شقها ك ، رعيها (الكامل) – (٢) وجال (الكامل) : وداك ك – (٤) تباكر (فان فلوتن) – [زقا] ك – (٥) أربع ك – (١٢) يعيش ك .

(١٦٣ : ١٥–١٦٤ : ٢) « أعاذل ... قليب » الكامل للبرد ١ : ٢٦٥ – (٤ – ٩) « قامت ... تمنع » خزانة الأدب للبغدادى ط بولاق ١٣٩٢هـ ، اللآلى لأبى عبيد البكرى ص٤٦٨ ط لجنة التأليف ، ١٩٣٦ م – (١٠ – ١٣) « وقال الحارث . . . الناتج » البيان والتبيين ٣ : ١٤٩ – ١٥٠ ط الفتوح ١٣٣٢ هـ ، الكامل للمبرد ١ : ٢٦٨ ، المفضليات – (١٥ – ١٦) « إن الكرام . . . ذاهب » البيان والتبيين ٣ : ١٢٦ ، ١٠٩ ، ٢٦٢ ط مصطفى محمد .

وقالت امرأةٌ :

أنتَ وهبتَ الفتيةَ السلاهب ... وإبلا يحارُ فيها الحالب
وغَنَمًا مثلَ الجرادِ الهارِب* ... متاعَ أيام وكلٌّ ذاهب

وقال تَميم بنُ مُقبل** :

فأَخلِفْ وأتلِف ، إنّما المالُ عارَةٌ ... وكلْه مع الدَّهر الذى هُو آكِله

وقال أبو ذرّ** : « لك فى مالِك شَريكان : الوارثُ والحِدْثان » . وقال الحُطَيئة :

من يَفعَل الخيرَ لا يعدَم جوَازِيَه ... لا يذهب العُرف بين الله والناس

وجاء فى* الأثر : إن أهلَ المعروف فى الدنيا أهلُ المعروفِ فى الآخرة . وفى المثَل : « اصنَع الخَيْر ولو إلى كَلْب » . وقال فى الحثّ على القليل ، فضلاً على الكثير ، قال الله جلَّ ذِكره : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه » ، وقالتْ عائشة فى حَبَّة عِنَب : « إنّ فيها لمثاقيل ذَرّ » ، ولذلك قالوا فى المَثَل : « مَنْ حَقَر حَرَم » . وقال سَلم بن قُتيبة : « يستحى أحدُهم من تَقريب القَليل مِن الطعام ، ويأتى أعظم منه » ، وقال : « جهد المرءِ أكثرُ من عَفوه » . وقدَّم رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم جُهدَ المقِلّ على عَفْو المكثر ، وإن كان مبلغُ جُهده قليلاً ، ومبلغُ عَفْوِ المكثِر كثيراً . وقالوا : « لا يمنَعْك من مَعروف صِغَره » . وقال النبىُّ صلّى الله عليه

(٣) لعلها : السارب ، كما فى الحيوان والبيان والتبيين — (٩) [فى] الأثر ك .

(٢ — ٣) « أنت ... ذاهب » البيان والتبيين ٣ : ١٢٦ ، الحيوان ٣ : ٧٥ — ٧٦ ط الحلبى — (٦) « وقال ... والحدثان » عيون الأخبار ٣ : ١٨٠ — (٨) « من يفعل ... الناس » الأغانى ٢ : ١٧٣ ط دار الكتب المصرية ، عيون الأخبار ٣ : ١٧٩ — (١١ — ١٢) « فمن ... يره » سورة الزلزلة ٧ ، ٨ — (١٢) « وقالت عائشة ... ذر » صحيح البخارى بشرح الكرمانى — (١٣) « من حقر حرم » عيون الأخبار ٣ : ١٧٨ ، أمثال الميدانى ٢ : ٢٦٨ — (١٣ — ١٤) « وقال سلم ... منه » عيون الأخبار ٣ : ١٧٨ — (١٤ — ١٥) « وقدم ... المكثر » انظر العقد الفريد ١ : ٢٧٣ ط لجنة التأليف.

وسلّم : « اتّقوا النارَ ولو بشِقّ تَمْرة » وقال : « لا تردُّوا السائلَ ولَو بِظلف محرق » وقال : « لا تردُّوه ولَو بفِرسِن شاة » ، وقال : « لا تحقِروا اللقمة ، فإنّها تعودُ كالجَبل العظيم ، لقول الله جل ذكره : يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصّدَقَاتِ » ، وقال : « لا تردُّوه ولو بِصلة حبل » . وقالت العرَب : « أَتاكم أخوكم يستَتِمُّكم ، فأتمّوا له » ، وقالوا : « مانع الإتمام ألأم » .

وقالوا : « البخيل إنْ سأل ألحف ، وإن سُئِل سوّف » ، وقالوا : « إن سُئِل جَحد . وإن أعطى حَقَد » ، وقالوا : « يردُّ قبل أن يَسمَع ، ويغضَب قبلَ أن يفهَم » ، وقالوا : « البخيلُ إذا سُئل ارتزّ ، وإذا سئل الجوادُ اهتزّ » . وقال النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم : « ينادِى كلَّ يوم منادِيان مِن السماء ، يقول أحدُهما : اللهمَّ عَجِّل لمنفِق خَلَفًا ، ويقول الآخر : اللهم عَجِّل لممسِك تلفاً » . وقالوا : « شرّ الثلاثة المليم ، يمنع درّه ودرَّ غيره » . وقال الله جلَّ ذكرُه : «الّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ». وقالوا فى المَثَلِ ، إذا أَلجأه* الدهر إلى بخيل : « شرٌّ مَا* أَلجأكَ إلى مُخّة عرقوب » وقال النبىُّ صلّى الله عليه وسلم : « قل العَدل ، وأعط الفَضل* » ، وقال* صلَّى الله عَلَيه وسلَّم : « أَنهاكم عن عُقوق الأمّهات ووَأْد البنات ومنع وهات » ، وقال الله عزَّ وجل : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً » ، وقال : « لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وقال : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

---

(١٢) ان الجأ ك (فان فلوتن) — مما (فان فلوتن) — (١٣) الفعل ك — وقال < النبى > (فان فلوتن) .

---

(١) « اتقوا . . . تمرة » النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٥٠ ط الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ — (٣) « يمحق . . . الصدقات » سورة البقرة : ٢٧٦ — (٩ — ١٠) « ينادى . . . تلفا » الترغيب والترهيب للمنذرى ١ : ٢٧٦ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦ هـ — (١١) « الذين ... بالبخل » سورة النساء : ٣٧ — (١٣ — ١٤) « أنهاكم . . . وهات » صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٢١ : ١٥١ المطبعة المصرية — (١٤ — ١٥) « ويطعمون . . . وأسيراً » سورة الدهر : ٨ — (١٥) « لن . . . تحبون » سورة آل عمران : ٩٢ — (١٦ — ١٦٧ : ١) « ويؤثرون . . . المفلحون » سورة الحشر : ٩ .

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . وقالوا * فى الصَّبر على النائبة ، وفى عَاقبة الصَّبر : « عندَ الصباح يحمَد القومُ السُّرى » ، وقالوا : « الغَمَراتُ ثمَّ ينجَلينا * » وقال الخرَيمى :

ودونَ الندى فى كلِّ قلب ثنيّةٌ　　لها * مصعد حَزن ومنحدَر سهل

وودّ الفتى فى كلِّ نَيْل ينيله　　إذا ما انقضَى لو أنّ نائله جَزْل

وقالوا : « خير الناس خَيْر الناس للناس ، وشرّ الناس شرُّ الناس للناس » ، وقالوا * : «خير مالك ما نفَعك» ، وقالوا : «عجباً لفَرط الـكِبْرة مع شباب الرغبة » ، وقال الراجز :

كلّنا يأمل مدًّا فى الأجل　　والمنايا هى آفاتُ الأمل *

وقال عُبَيد الله بنُ عِكراش ** : « زمَن خَؤون ووارث شفون وكاسب حزون ، فلا تأمَن الخؤون وكن وارث * الشفون » ، وقال : « يهرَم ابنُ آدم ويشبُّ معه خَصلتان : الحِرصُ والأمل» . وكانوا يعيبُون من يأكُل وحدَه ، وقالوا : « ما أكل ابنُ عمر وحدَه قطّ » ، وقالوا : « ما أكل الحسَن وحدَه قطّ » . وسمع مجاشِع الربَعى قولَهم : «الشحيح أعذَر من الظالم » فقال : « أخزى الله أمْرين خَيرُهما الشح » . وقال بَكر بن عَبد الله المُزنى * : « لو كان هذا المسجِد مفعَماً بالرجال ، ثمّ قيل لى من خيرُهم ؟ لقلتُ : خيرُهم

---

(١) وقال ك — (٢) ينجلين (فان فلوتن) — (٣) بها (فان فلوتن)— (٥) وقال ك — (٧) الأجل (فان فلوتن) — (٩) وارث (عيون الأخبار) : ارث ك ، وكل ارث (مرسيه) — (١٣) المرى ك

---

(٢) « الغمرات ثم ينجلينا » الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٢٥٦ — (٣ — ٤) « ودون . . . جزل » البيان والتبيين ٢ : ٢٧٩ أط مصطفى محمد ١٩٣٢ م ، وقد ورد البيت الأول فى نهاية الأرب (٣ : ٨٧ ط دار الكتب المصرية) منسوباً إلى الجرهمى ، وهو تصحيف عن الخريمى — (٨ — ٩) « وقال . . . الشفون » عيون الأخبار ٣ : ١٨٠ — (١١ — ١٢) « وسمع . . . الشح » البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ ، ٣ : ١٧٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، الفاخر للمفضل ص ١٨٦ — (١٢ — ١٦٨ : ١) « وقال بكر . . . لهم » انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢ : ٢٢٤ ، ط السعادة ، ١٩٣٢ م .

لهم » ، وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بشِرارِكم ؟ » قالوا : « بلى يارسول الله » قال : « من نَزَل وحده ، ومنَع رِفده ، وجَلد عبده » . وقالتْ امرأةٌ عندَ جِنازة رجُل : « أما والله ما كان مالُك لبطنك . ولا أمرُك لعرسك » .

(١ – ٢) « وقال النبي . . . عبده » البيان والتبيين ٢ : ١٧ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ ، الجامع الصغير للسيوطي ٣ : ٩٩ .

ردّ ابن التوأم

فلمّا بلغت الرسالة ابنَ التوأم** كَرِه أن يجيبَ أبا العاص ، لما فى ذلك من المنافسة والمبايَنة . وخافَ أن يترقّى الأمر إلى أكثرَ من ذلك .

فكتبَ هذه و بعث بها إلى الثّقفى :

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أما بعد فقد بلغَنى ما كان مِن ذكر أبى العاص لنا ، وتنويهِه بأسمائنا ، وتشنيعه عَلَينا . وليسَ يمنعُنا من جَوابه إلّا لأنه* إن أجابَنا لم يكنْ جوابُنا إياه على قولِه الثانى أحقّ بالترك من جوابنا على قوله الأوّل ، فإن نحنُ جعلنا لابتدائه جَوابا ، وجعلنا لجَوابه* الثانى جواباً ، خرَجْنا إلى التهاتُر* وصرنا إلى التخاير* . ومن خَرج إلى ذلك فقد رَضِى باللّجاج حظًّا و بالسُّخف نَصيباً .

وليسَ يحترسُ من أسباب اللّجاج إلا من عرَف أسباب البلوى . ومن وقاه الله سوء التكفّى وسُخْفه ، وعصمَه من سُوء التّصميم ونَكده ، فقد اعتدلَت طبائعُه وتساوت خواطره . ومن قامت* أخلاطه على الاعتدال ، وتكافأت خواطرهُ فى الوَزن ، لم يعرف من الأعمال < إلّا > الاقتصادَ ، ولم يجد أفعاله أبداً إلّا بينَ التقْصير والإفراط . لأن الموزونَ لايولد إلّا موزوناً . كما أن المختلِفَ لا يولد إلا مختلفاً . فالمتتابعُ* لا يثنيه زَجْر ، وليست له غايةٌ دون التلَف ، والمتكفّى ليس له مأتى ولا جِهة ، ولا له رُقية ولا فيه حِيلة . وكلٌّ متلوّن فى الأرض فمنحلُّ العَقد ، ميسَّر لكل ريح .

فدَع عنكَ خلطة الإمّعة فإنه حارِض* لاخيرَ فيه ، واجتنب ركوبَ الجموح** فإنّ غايتَه قبل الذواق . < ولا خيرَ فى المتلوّن > * ذى البدوات ولا فى الحرون* ذى التصميم

---

(٧) انه (فان فلوتن) — (٨) وجعلنا لجوابه (فان فلوتن) : وجعل لثوابه ك — (٩) التّهاير ك — السحار ك ، التجابرك (فان فلوتن) — (١٢) < ليس > قامت (فان فلوتن) — (١٤) < إلا > : ليست بالأصل — (١٥) المتتابع ك — (١٨) حارص ك — (١٩) < ولا خير فى المتلون > : ليست بالأصل — لعلها الجموح أو اللجوج .

والمتلوِّن شرٌّ من المصمِّم ، إذ كنتَ لا تعرفُ له حالا يقصد إليها ، ولا جهة يعمَل عليها . ولذلك صار العاقل يخدع العاقلَ ولا يخدعُ الأحمق ، لأن أبواب تدبير العاقل وحِيَله معروفة ، وطرقَ خواطِره مسلوكةٌ ، ومذاهبَه محصورة معدودة ، وليسَ لتدبيرِ الأحمق وحِيَله جهةٌ واحدة ، ومن أخطأها كذَب ، والخبرُ الصادقُ عن الشيء الواحدِ واحد ، والخبرُ الكاذبُ عن الشيء الواحِد لايُحصى له عدد، ولا يوقَف منه على حدّ . والمصمِّم قتلُه بالإجهاز ، والمتلوِّن قتلُه بالتعذيب .

فإن قلنا فليسَ إليه نقصِد ، وإن احتجَجْنا فلسنا عليه نردّ . ولكنّا إليك نقصِد بالقول ، وإليك نريدُ بالمشورة . وقد قالوا : « احفظ سرَّك ، فإن سرَّك من دمك » . وسواء ذهابُ نفسِك وذهابُ ما به يكون قوام نفسِك . قال المُنجَاب العَنبرىّ : « ليس بكبيرٍ ما أصلحه المال » ، وفقدُ الشيء الذى به تصلح الأمور أعظمُ من الأمور ، ولهذا قالوا فى الإبل : « لو لم يكن فيها إلا أنها رقوء الدم » ، فالشيء الذى هو ثمَن الإبل وغير الإبل أحق بالصّون . وقد قضَوا بأن حفظَ المال أشدُّ من جمعه . ولذلك قال الشاعر :

وحفظك مالا قد عُنيتَ بجمعه — أشدّ من الجمع الذى أنتَ طالبه

ولذلك قال مُشتَرى الأرض لبائعها ، حين قال له البائع : « دفعتُها إليك بطيئةَ الإجابة ، عظيمةَ المؤونة » قال : « دفعتَها إليك بطيئةَ الاجتِماع ، سريعةَ التفرّق » .

والدِّرهمُ هو القُطب الذى تدورعليه رَحا الدنيا . واعلم أنّ التخلُّص من نزوانِ الدِّرهم وتفلّته* < والتحرز* > من سكر الغنى وتقلبه* شديد . فلو كان إذا تفلّت كان حارسُه صحيحَ العقل سليم الجوارح ، لردّه فى عِقاله ولشده بوَثاقه . ولكنّا وجَدنا ضعفَه عن

(١٦) نزوات (فان فلوتن) — (١٧) وتقلبه ك،فتقليه (فان فلوتن) — < والتحرز > : ليست بالأصل — ونقليه ك .

(٨) «سرك من دمك» عيون الأخبار ١ : ٣٨ ، محاضرات الراغب ١ : ٥٩ ط الشرقية — (١٢) «حفظ ... جمعه» عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ — (١٣) «وحفظك ... طالبه» الحيوان ٣ : ٤٧ ط الحلبى ، محاضرات الراغب ١ : ٢٣٧ — (١٤ — ١٥) «ولذلك ... التفرق» البيان والتبيين ٣ : ١٠٥ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٢٥٠ .

ضَبطه ، بقدرِ قَلَقه فى يده . ولا تغترَّ بقولهم : مال صامِت ، فإنه أنطقُ من كل خَطيب ، وأنمّ من كل نمّام . فلا تكتَرِث* بقولهم : هذين الحجرين ، وتتوهَّم* جُمودَهما وسكونَهما وقلّةَ ظعنهما وطول إقامتهما ، فإن عملَهما وهما ساكِنان ، ونقضَهما للطبائع وهما ثابِتان* أكثر من صَنيع السمِّ الناقِع والسبُعِ العادى . فإن كنت لا تكتَفِى بصنعه حتى تفقدَه* ، ولا تحتال فيه حتى تحتال له ، فالقبرُ خيرٌ لك من الفقر ، والسِّجن خيرٌ لك من الذل .

وقولى هذا < مرٌّ > يعقِب حلاوةَ الأبد * ، * وقول أبى العاص * حلوٌ يعقِب مرارة الأبد . فخذ لنفسِك بالثِّقة ، ولا ترض أن يكون الحِرباء الراكب العودِ أحزمَ منك ، فإن الشاعرَ يقول :

أنَّى أتيح لها حرباء تَنضُبةٍ لا يرسلُ الساقَ إلا ممسِكاً ساقا

واحذَر أن تخرِج من مالك دِرهماً حتى ترى مكانَه خيراً منه . ولا تنظُر إلى كثرته ، فإنّ رمل عالج لو أُخِذ منه ولم يردّ عليه ، لذهَب عن آخره .

إنّ القوم قد أكثَروا فى ذِكر الجود وتفضيله ، وفى ذِكر الكرَم وتشريفه ، وسمّوا السرفَ جوداً وجعلوه كرَماً . وكيف يكونُ كذلك وهو نِتاج ما بينَ الضعْف* والنفج ؟ وكيفَ والعطاء لا يكون سَرَفا إلّا بعد مجاوَزَة الحقّ ، وليسَ وراء الحقّ إلى الباطل كَرَم ؟ وإذا كان الباطلُ كرَماً كان الحقُّ لؤماً . والسرَفُ — حفظك الله — مَعْصية ، وإذا كانت معصيةُ الله كرَماً كانت طاعتُه لؤماً . ولئن جمعهما اسمٌ واحد وشمِلَهما حكمٌ

---

(٢) تكترث (فان فلوتن) : تكبر ك — فتتوهم (فان فلوتن) — (٤) بانيان ك — (٥) تمده ك — (٧) < مر > (فان فلوتن) : ليست بالأصل — < الأبد > فخذ لنفسك بالثقة ك — وقول أبى العاصى : القاضى ، وبالهامش (فقول أبى) ك ، فقولك الماضى (فان فلوتن) — (١٤) الشرف ك : الضعف (فان فلوتن) : الصف ك .

---

(٥) « فالقبر . . . الفقر » انظر عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ — (١٠) « أنى . . . ساقا » ، الحيوان ٦ : ١٢٢ ط التقدم ، عيون الأخبار ٣ : ١٩٢ ، لسان العرب ، ونسبه إلى أبى دؤاد الأيادى .

واحد — ومضادّة الحقّ للباطل ، كمضادّة الصدق للكذب ، والوفاء للغَدر ، والجور للعَدل ، والعِلم للجَهل — ليجمعنّ هذه الخصالَ اسمٌ واحد ، وليشملنّها حُكم واحد .

وقد وَجَدنا الله عاب السرَف وعاب الحميَّة وعاب العصَبيَّة* ، ووجدناه قد خصّ السرَف بما لم يخصّ به الحميَّة : لأنه ليسَ حبّ المرء لرهطِه من العصَبيَّة ، ولا أنفته من الضَّيم من حميَّة الجاهلية . وإنما العصبية ما جاوز الحقّ ، والحميَّة المعيبة ما تعدّى القصد . فوجدنا اسمَ الأنفة قد يقعُ محموداً ومذموماً ، و < ما > * وجدنا اسم العصبية ولا اسمَ السرَف يقع أبداً إلا مذموماً . وإنما يسرٌ باسم السرف جاهلٌ لا علمَ له ، أو رجل إنما يسرٌ به لأن أحداً لا يسمِّيه مسرفاً حتى يكونَ عنده قد جاوَز حدّ الجود ، وحكم له بالحقّ ، ثم أردفه بالباطل . فإن سُرّ من غير هذا الوجه ، فقد شارَكَ المادِح فى الخطأ ، وشاكَله فى وَضع الشىء فى غير موضعه .

وقد أكثروا فى ذكر الكرَم . وما الكرمُ إلا كبعضِ الخِصال المحمودة التى لم يعدَمْها بعضُ الذمّ ، وليسَ شىء يخلو من بعضِ النقص والوَهن . وقد زعم الأوّلون أن الكرَم بسبب الغِنى* ، وأن الغنى* يسبِّب البلَه ، وأنه ليس وراء الأبله* إلا المعتوه . وقد حكَوا عن كِسرى أنه قال : « احذَروا صولة الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شَبع » ، وسواء جاع فَظَلم وأحنظ* وعَسف ، أم جاع فكذَب* وضَرع وأسفّ . وسواء جاعَ فَظَلم غيره ، أم جاع فظَلَم نفسَه ، والظلمُ لؤم . وإن كان الظلمُ ليسَ بلؤم فالإنصافُ* ليسَ بكرَم* . وإن كان الجودُ على مَن لا يستحق الجودَ كرَما ، فالجودُ لمن وجب له ذلك* ليس بكرم* . فالجودُ إذا كان لله فكان شكراً له ، والشكرُ كرَم . فكيف*

(٣) المعصية ك — (وكذلك فى الموضعين التاليين) — (٦) < ما > : ليست بالأصل ، لا (فان فلوتن) — (١٣) يسبب الغباء وان الغباء (مرسيه) — البله ك — (١٥) وحفط ك — وكذب ك — (١٦) والانصاف ك — (١٨) ليس بكرم (فان فلوتن) : اكرم ك — وان ك ، فكيف (فان فلوتن) —

(١١ — ١٣) « وقد ... البله » انظر عيون الأخبار ١ : ٢٤٦ — (١٤) « وقد حكوا ... شبع » عيون الأخبار ١ : ٢٣٨ ، الدرة اليتيمة (رسائل البلغاء) ص ٦٧ ، العقد الفريد ٢ : ٣٥٥ ط لجنة التأليف ، نهج البلاغة ٢ : ١٥٥ ط الرحمانية بمصر ، ١٣٢١ هـ ، تذكرة ابن حمدون ، ص ٤٦ .

يكون الجودُ إذا كان معصية كرما ، وكيف * يتكرّم مَن يتوصّل بأياديك إلى معصيتك ، و بنِعَمك إلى سُخطك ؟ فليسَ الكرمُ إلا الطاعة ، * وليس اللؤم إلا المعصية ، وليس بجود ما جاوز الحق * ، وليس بكرم ما خالفَ الشُّكر . ولئن كان مجاوِزُ الحق كريماً ، ليكونَنّ المقصِّر دونَه كريماً .

فإن قَضيتم بقوْلِ العامّة ، فالعامّة ليسَت بقُدوة . وكيفَ يكون قُدوةً من لا ينظر ولا يحصِّل ولا يفكر ولا يمثِّل ؟ وإن قَضَيتم بأقاويل الشُعراء ، وما كان عليه أهل الجاهليّة الجَهلاء ، فما قبَّحوه مما لا يُشَكُّ فى حُسنه أكثرُ من أن نقفَ عليه ، أو نتشاغَل باستِقْصائه . على أنه ليسَ بجُود إلا ما أوجبَ الشكر ، كما أنه ليسَ ببُخل إلا ما أوجَب اللّوم . ولن * تكون العطِيّة نعمةً على المعطَى حتى يراد * بهانفس ذلك المعطَى . ولن يجب عليه الشكرُ إلا مع شَريطة القَصد . وكلٌّ مَن كان جُوده يرجِعُ إليه ، ولولا رَجوعه إليه لما جادَ عليك ، ولو تهيأ له ذلك المعنَى فى سِواك لما قصَد إليك ، فإنما جعَلك مَعْبراً لِدَرك حاجتِه ، ومَركباً لبلوغ محبّته . ولولا بعضُ القول لَوَجب * لك عليه حق * يجبُ به الشكر . فليسَ يجبُ لمن كان كذلك شُكر ، و إن انتفعتَ بذلك منه ، إذ كان لنفسِه عَمِل . لأنَّه لو تهيّأ له ذلك النفعُ فى غيرك لما تخطّاه إليك .

و إنما يُوصَف بالُجود فى الحقيقة ، و يُشكر على النفع فى حُجّة العقل ، الذى إن جاد عليكَ فلكَ جاد ، ونفعَك أراد ، من غير أن يرجعَ إليه جودُه بشىء من المنافع ، على جِهة من الجهات ، وهو الله وحدَه لاشريكَ له . فإن شكَرنا للناس على بعضِ ما قد جَرى لنا على أيديهم فإنما هو لأمرين : أحدُهما التعبُّد ، وقد تعبّد * اللهُ بتعظيم الوالِدَين و إنْ كانا شَيْطانَين ، وتعظِيم مَن هو أسنّ * منّا و إن كنّا أفضلَ منهم . والآخر لأنّ النَّفْس

(٢ — ٣) [وليس اللؤم . . . الحق] (فان فلوتن) — (٩) وان ك — يراود ك — (١٢) أوجب (فان فلوتن) — حقا ك — (١٨) نعبد (فان فلوتن) — (١٩) شر ك

(١٠ — ١٧٤ : ١٠) «وكل . . . وفصلنا» عيون الأخبار ٣ : ١٧٠ — ١٧١ .

ما لم تحصِّل الأمورَ وتميِّز المعانى ، فالسابق إليها حبُّ *مَن جرى لها * على يدِه خيرٌ ، و إن كان لم يُرِدها ولم يقصِد إليها .

ووَجَدنا عطيّة الرجُل لصَاحِبه لا تخلُو أن تـكونَ لله ، أو لغير الله . فإن كانت لله ، فثوابهُ على الله . وكيفَ يجبُ عليَّ فى حُجَّة العقل شكرُه ، وهو لو صادفَ ابنَ سبيلٍ غَيْرى لما حَمَلنى ولا أعطانى . و إما أن يكونَ إعطاؤه إيّاى للذِّكر ، فإذا كان الأمرُ كذلك ، فإنما جعلنى سُلَّماً إلى تجارته وسبباً إلى بُغيته . أو يكونَ إعطاؤه إيّاى من طريق الرّحمة والرقة ، ولما يَجِد فى فؤاده من العصر * والألم ، فإن كان لذلك أعطَى ، فإنما داوى نفسَه من دائه ، وكان كالذى رَقّه من خِناقه . و إن كان إنما أعطانى على طَلب المُجازاة وحب المـكافاة فأمرُ هذا مَعروف . و إن كان إنما أعطانى من خَوف يدى أو لسانى ، أو اجترار * معُونَتى ونصرَتى * ، فسبيلُه سبيلُ جَميع ما وَصَفنا وفصّلنا .

فلاسم الجود مَوْضِعان : أحدُهما حقيقة ، والآخر مجاز . فالحقيقةُ ما كان مِن الله ، والمجازُ المشتقُّ له من هذا الاسم . وما كان لله كان ممدُوحاً ، وكان لله طاعة . و إذا لم تـكُن العطيَّة من الله ولا لله ، فليسَ يجُوز هذا فيما سمَّوه جُوداً ، فما ظنّك بما سَمَّوه سَرفا ؟

افهمْ ما أنا مُورِدُه عَليك وواصفهُ لك : إن التربح والتكسُّب والاستِئكال بالخديعة والطَّمَع الخبيثة فاشيةٌ غالبَة ومستفيضَة ظاهرة . على أنّ كثيراً ممّن يُضاف اليومَ إلى النزاهة والتـكرُّم و إلى الصّيانة والتوقّى ، ليأخذ من ذلك بنَصيب وافر و بمدٍّ واف . فما ظنُّك بدَهماء الناس وجُمهورهم ؟ بل ماظنّك بالشُّعَراء والخُطَباء الذين إنما تعلموا المنطق لِصناعة التـكسُّب ؟ وهؤلاء قومٌ بوُدِّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدَّ السلامة إلى الغفلة ، حتى لا يكونَ للأموال حارس ولا دُونها مانِــع . فاحْذرهم ، ولا تنظرُ إلى بِزّة أحدِهم فإن المسكينَ أقنع منه ، ولا تنظرُ إلى مَركبه * فإنّ السائلَ أعفّ منه . واعلم أنه فى مَسك مِسكين و إن كانَ فى ثِياب جِياد ، وروحُه رُوح نَذل و إن كان فى جِرم

(١) بالسابق ك ، بالسائق (مرسيه) – احبت (فان فلوتن) – له ك – (٧) الغصة (فان فلوتن) – (١٠) اجترار (عيون الأخبار) : صرف ك – ومضرتى (فان فلوتن) – (٢٠) موكبه ك .

مَلِك . وكلُّهم وإن اختَلَفت وُجوه مسألتهم واختَلفت أقدارُ مطالبهم ، فهو مِسكين . إلا أنّ واحداً يطلُب العُلَق، وآخَرُ يطلُب الخِرق ، وآخَرُ يطلبُ الدوانيق، وآخَر يطلُب الألوف . فجِهةُ هذا هِيَ جِهة هذا ، وطعمة هذا هِيَ طُعمة هذا . وإنما يختلفُون فى أقدار ما يطلبُون ، على قَدْر الحِذق والسبب . فاحذَرْ رُقاهم وما نَصَبوا لك من الشَّرك ، واحرُس نعمتك وما دسُّوا لها من الدَّواهى . واعمَل على أنّ سِحرهم يسترِق الذهن ويختطِف البَصَر . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « إنّ من البيان سحراً * » ، وسَمِع عمر بنُ عبد العزيز رَجُلا يتكلّم فى حاجة فقال : « هذا والله السِّحر الحلال » ، وقد قال رَسول الله صلّى الله عليه وسلم : « لاخِلابة » . واحْذَر احتمالَ مَديحهم ، فإنّ محتمل المديح فى وَجْهه كمادِح نفسِه .

إن مالك لا يَسَع مُريديه ولا يبلغ رِضا طالبيه . ولو أرْضَيتهم بإسْخاط مِثلهم ، لكان ذلك خُسراناً مُبيناً . فكيفَ ومَن يسخَط أضعافُ من يَرضى ، وهِجاء الساخِط أضرُّ من فَقد مَديح الراضى ؟ وعلى أنّهم إذا اعتَوَروك بمشاقِصهم وتداوَلوك بسِهامهم ، لم تَرَ ممَّن أرضَيته فى إسخاطهم * أحداً يناضِل عنك ولا يُهاجى شاعراً دونَك ، بل يخليك غَرَضاً لِسهامهم ودَريئة لنِبالهم ، ثم يقول : وما كانَ عليه لو أرضاهم ؟ . فكيف يُرضيهم ، ورِضى الجميع شَىء لا يُنال ؟ وقد قال الأوّل : وكيف يتفق لكَ رِضى المختلِفين ؟ وقالوا : منعُ الجميع أرْضى للجَميع .

إنى أحذِّرك مَصَارع * المخدُوعين ، وأرفعُك عَن مضاجع المَغبونين . إنّك < لست > * كمن لم يزلْ يقاسِى تعذّر الأمور ، ويتجرع مرار * العَيْش ، ويتحمّل ثقلَ الكدّ ،

(٦) سحرا ك : لسحرا (فان فلوتن) – (١٣) فى إسخاطهم ك : بإسخاطهم (فان فلوتن) .
(١٧) مصاريع ك – < لست > (مرسيه) : ليست بالأصل – (١٨) مرارة (فان فلوتن) .

(٦) «ان . . . سحرا» البيان والتبيين ١ : ٦١ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ٢ : ١٨ – (٨) «لا خلابة» النهاية لابن الأثير ١ : ٣٤٥ – (١٦) «منع . . . للجميع» عيون الأخبار ٢ : ٤ .

وَيَشْرَب بكأس الذلّ ، حتى كاد يمرَن على ذلك جلدُه ويسكنُ عليه قلبه . وفقرُ مثلك مُضاعَف الألم ، وجزَع مَن لم يعرف الألم أشدّ . ومن لم يزل فقيراً فهو لا يعرفُ الشامِتين ، ولا يدخُله المكروه من سُرور الحاسدين ، ولا يلام على فَقْره ، ولا يصيرُ مَوْعِظة لغيره ، وحديثاً يبقَى ذكرُه ، ويلعنهُ بعد المَمات وَلَده .

دَعنِي* من حِكايات المستأكلين ورُقَى الخادِعين ، فما زال الناسُ يحفَظون أموالَهم من موَاقع السَّرَف ، ويجنِّبونها* وُجوه التَبذير . ودَعْني ممّا لا نراه إلا في الأشعار المتكلّفة والأخبار المولّدة والكُتُب المَوْضوعة ، فقد قال بعضُ أهل زَماننا : « ذهبت المكارم إلا من الكُتُب » . فخذ فيما تعلَم ، ودَع نفسَك ممّا لا تعلَم .

هل رأيتَ احداً قطّ أنفقَ ماله على قوْم كانَ غِناهم سَبَبَ فقره أنّه سلّم عليهم حين افتقر فردوا عليه* فضلا على غَير ذلك ؟ أو لستَ قد رأيتَهم بَيْن محمِّق ومحتجب عنه ، وبين من يقول : فهلّا أنزل حاجتَه بفلان الذى كان يفضِّله ويقدِّمه ويؤثره ويخصُّه ؟ ثم لعلّ بعضَهم أن يتجنّى عليه ذنوباً ليجعلَها عُذراً في مَنعه وسَبَباً إلى حِرمانه .

قال الله جلّ ذِكرُه : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » .

فأنا القائمُ عليك بالموْعظة والزَّجر والأمر والنَهى ، وأنت سالِم العقل والعِرض ، وافِر المال حَسَن الحال . فاتّق أن أقوم غداً على رأسِك بالتقْريع والتّعْيير وبالتوبيخ والتأنيب ، وأنتَ عليلُ القلب مختلٌّ العرض ، عَديم من المال سيّء الحال .

---

(٥) وعنى ك ، ودعنى (فان فلوتن) — (٦) ويجنبونها < من > (فان فلوتن)
(١٠) [فردوا عليه] (فان فلوتن)

(٧ — ٨) « ذهبت ... الكتب » الحيوان ١ : ٥٢ ط الحلبى — (١٣ — ١٤) « يوم ... سالمون » سورة القلم : ٤٢ — ٤٣

ليسَ جَهد البلاء مدّ الأعناق وانتظارَ وَقْع السيوف ، لأنّ الوقتَ قصير والحسّ مغمور. ولـكنّ جهد البلاء أن تظهرَ الَخلة وتطول المدة وتعجز الحيلة ، ثم لا تعدَم صَديقاً مؤنّباً وابنَ عمّ شامِتاً ، وجاراً حاسداً * ، ووليا قد تحوَّل عدوًّا ، وزوجَة مختلِعة ، وجارية مستَبيعة ، وعبداً يحقِرك وولداً ينتهرُك . فانظر أين موقِـع فوْت الثناء من مَوقعِ ماعَددنا * عليك من هذا البلاء .

على أنّ الثناء طَعْم ولعلك ألا تطعمَه ، والحمدَ أرزاق ولعلك أن تحرَمَه ، وما يَضيعُ مِن إحسان الناس أكثر . وعلى أن الحفظَ قد ذهبَ بموت أهله ألا ترى أنّ الشِعرَ لما كَسَد أفحم أهله ؟ ولما دخل النقصُ على كلّ شيء أخذ الشعرُ منه بنصيبه ؟ ولما تحوَّلت الدولة فى العَجَم ، والعَجَمُ لا تحوط الأنسابَ ، ولا تتحفَّظ المقامات . لأنّ من كان فى الريف والـكِفايه ، وكان مَغْموراً بسُـكر الغِنَى ، كَثُر نِسيانه وقلَّت خَواطِره ، ومَن احتاجَ تحرّكت همّته وكثُر تنقيره . وعيبُ الغنى أنه يُورث البلدة * ، وفَضيلة الفقر أنه يبعَثُ الفِـكر . وإن أنتَ صحبتَ الغنى بإهمال النّفس أسكركَ الغنى، وسُـكر الغِنى شِيئَة * المُسْتأ كِلين وتَضْرِية * الخدّاعين وإن كنتَ لا ترضَى بحظّ النائم وبعَيْش البهائم ، وأحبَبْت أن تجمَع مع تمام نفس المثرى ، ومع عزّ الغِنى وسرور القدرة ، فِطنةَ المخفّ وخواطِر المقل ، ومعرفة الهارب واستِدْلال الطالِب ، اقتصدْتَ فى الإنفاق ، وكنتَ مُعِدًّا لِلحِدثان ، ومحترِساً من كلّ خَدّاع . أ

ليستْ * تبلغُ حِيَلُ لصوص النهار ، وَحِيَلُ سرّاق الليل ، وحيلُ طرّاق البُلدان ، وحيلُ أصحاب الـكيمياء ، وحِيَلُ التجّار فى الأسْواق والصنّاع فى جَميع الصِناعات ، ٨

وحيلُ أصحابِ الحروب ، حيلَ * المستأكِلين والمتكسِّبين . ولو جمعت الجفر * والسِحر

---

(٣) حاسراً (فان فلوتن) — (٤) ما عندنا (فان فلوتن) — (١١) البلادة (فان فلوتن) — (١٣) شيئة : سبة ك — وتهمة (فان فلوتن) ، وتهرمه ك — (١٧) لست (فان فلوتن) — (١٩) وحيل ك — الجفر : الحمر ، ك . الخبر (فان فلوتن) .

(١ —٤) « ليس . . . . ينتهرك » معجم الأدباء لياقوت ٦ : ٥٨ ط هندية .

(١١ — ١٢) « وعيب . . . الفكر » عيون الأخبار ١ : ٢٤٦ .

والتمائم والسمّ ، لـكانت حِيَلهم فى الناس أشدّ تغلغلا ، وأعرضَ وأسرى فى عُمق البدن ، وأدخَل إلى سُوَيداء القلب وإلى أمّ الدِماغ وإلى صَميم الـكَبِد ولهى أدقّ مَسلـكًا وأبعدُ غاية،من العِرقالسارى والشبهالنازع ، ولو اتّخذتَ الحيطان الرفيعة الثخينة والأقفالَ المحكَمة الوثيقة ، ولو اتّخذتَ المارقَ* والجواسقَ والأبوابَ الشِّداد ، والحرّسَ المتناوِبين بأغلظ المؤَن وأشدّ الـكُلَف ، وتركتَ التقدّم فيما هو أحضَر ضَرراً وأدوم شرًّا ولا غرمَ عليكَ فى الحراسة فيه ، ولا مشقّة عليكَ فى التحفظ منه .

إنك إن فتحتَ لهم على نَفْسك مِثلَ سَمّ الخياط ، جعلوا فيه طَريقًا نهجًا ولقمًا* رَحبًا فأحكِم بابَك ، ثم أدِم إصفاقَه، بل أدم إغلاقه ، فهو أولى بك . بل إن قدَرت على مُصْمَت لا حيلةَ فيه فذلك أشبَهُ بحزمك . ولو جعلتَ الباب مُبْهَمًا والقفل مُصْمَتًا لتسوّروا عليك مِن فَوقك،ولو رَفَعتَسَمْـكه إلى العيّوق لنقبوا عليك من تحتك . قال أبو الدرداء:« نعمَ صَوْمعة المؤمن بيتُه » . قال ابن سيرين** : « العُزلة عبادة » .

وحلاوة حديثهم تدعو إلى الاستِكْثار مِنهم ، وتدعو* إلى إحضار غرائبِ شَهَواتِهم . فمن ذلك قولُ بعضِهم لبعضِ أصحابه : « أ كلَ رِحلة ، وشَرِبَ* مِشْعلا ، ثم تجشَّأ واحدة لو أن عليها رحًا لطَحَنتْ » . ومن ذلك قولُ الآخر ، حينَ دَخل على قوْم وهم يَشربون ، وعندَهم قِيان ، فقالوا : « اقترِح أىّ صَوتشِئتَ ؟ » ، قال :«أقترحُ نشيشَ مقلى » . ومن ذلك قَولُ المدِينى : « من تصبّح بسَبْع مَوزات ، و بقدَح من لبن الأوَارِك* تجشَّأ بَخورَ الـكعبة » . ومن ذلك قولُهم لبعضِ هَؤلاء ، وقدّامَهم خبِيص : « أيّما أطيب ،

---

(٤) المارق ، كذا فى ك ، ولعلها : المخازن — (٧) لقا ك — (١٢) [و] تدعو ك
(١٣) واشرب ك . — (١٦) الأوراك ك .

(١٠ — ١١) « وقال أبو الدرداء . . . . بيته» نثر الد ر ٢ : ١٧٠ مخطوط — (١٤— ١٦) « ومن ذلك .. مقلى » انظر العقد الفريد ٤ : ٢٤٢ ط الأزهرية ، ١٩١٣ م — (١٦ — ١٧) « من تصبح . . . الكعبة » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٨ .

هذا أو الفالوذج أو اللوزينج * ؟ » ، قال : « لا أقضى على غائِب » . ومن ذلك قولُ أبى الحارث جُمَّين لبَعض الملوك : « جعلتُ فداكَ أىُّ شىء فى تِلك السَّلة ؟ » ، قال : « بظر أمّك » ، قال : « فأعضَّنى به » . ومن ذلك كلامُ الجارود بن أبى سبرة لبلال بنِ أبى بُردة ، حين قال له : « صِف عبدَ الأعلى وطَعامه » قال : « يأتيه الخبّاز فيمثُل بينَ يديه فيقول : ما عندَكَ ؟ فيقول : عِندى جَدْى كذا ، وعَناق كذا ، و بطّة كذا ، حتى يأتىَ على جميع ما عندَه » . قال : « وما يدعوه إلى هذا ؟ » قال : « ليقتصِرَ كلُّ امرئٍ فى الأكل ، حتى إذا أتى بالذى يَشتَهى بلَغ منه حاجتَه » . قال : « ثمَّ ماذا ؟ » . قال : « ثمَّ يؤتى بالمائدة *فيتسعون و يتضايق ويجدُّون و يعذِّر ، حتى إذا فتروا خوّى تخويةَ الظليم ، وأكل أكلَ الجائع المقرور » . وقال آخر : « أشتهى ثريدةَ دَكناء من الفُلفُل ، ورقطاء من الحِمَّص ، ذاتَ حِفافين من اللَّحم ، لها جَناحان من العُراق ، أضربُ فيها ضَرْبَ اليتيم عندَ وصىٍّ السوء » . وسُئل بعضُهم عن حُظوظ البُلدان فى الطعام ، وما قُسِم لكلِّ قوم منه ، فقال : « ذهبت الرُوم بالحشو والحسو * ، وذهبت فارِس بالبارد والحلو » . وقال عمر : « لفارس الشَفارق والحُموض » ؛ وقال دَوْسر المدينى : « لنا الهرائِس والقَلايا ، ولأهل البَدْو اللبأُ والسِلاء والجراد والكَمْأة والخبزة فى الرائب والتمرُ بالزبد » . وقد قال الشاعر :

ألا ليتَ خُبزًا قد تسَرْبَل رائبًا وخَيْلًا من البرنىِّ فرسانُها الزُبد

ولهم البَريقة * والخلاصة والحَيْس والوطِيئة * . وقال أعرابىٌّ : « أتينا ببُرٍّ كأفواه

---

(١) [أو اللوزينج] (فان فلوتن) — (٨) فيتضايقون حتّى نحوى تخوية الظليم فيجدون ويهزل حتّى إذا افتروا أكل ك ، وقارن النص فى البيان والتاج إلخ — (١٢) بالحشم والحشو ك ، بالجشم (فان فلوتن) (١٦) البرمة ك — الوطنه ك .

(١٧٨ : ١٧ — ١٧٩ : ١) « ومن ذلك . . . غائب » الحيوان ٥ : ١٩٢ — ١٩٣ ط الحلبى ، عيون الأخبار ٣ : ٢٢٩ — (٣ — ٩) « ومن ذلك . . . المقرور » البيان والتبيين ١ : ١٨٦ ط الفتوح الأدبية ، التاج ص ٢٠ ط دار الكتب المصرية ، العقد ٢ : ٤٥٧ ط لجنة التأليف ، ٤ : ٢٩٤ ط الأزهرية — (٩ — ١١) « وقال آخر . . . السوء » عيون الأخبار ٣ : ١٩٨ ، العقد الفريد ٣ : ٤٨٤ ط لجنة التأليف ، ٤ : ٢٩٤ ط الأزهرية — (١١ — ١٢) « وسئل . . . والحلو » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٤ .
(١٥) « ألا ليت . . . بالزبد » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٢ ، العقد الفريد ٦ : ٢١٣ ط لجنة التاليف .

النِغْران ، فخبزنا منه خُبزةَ زيت فى النار : فجعلَ الجمرُ يتحدَّر عنها تحدُّر الحشو < عن > * البطنان ، ثم ثردَها فجعل الثريدُ يجُول فى الإهالة جَوْلان الضبعان فى الضَّفِرة. ثم أتانا بتَمْر كأَعناقِ * الورلان ، يوحل فيه الضِّرس» . * وعيبَ السويق < بحضرة أعرابى فقال : < لاتعبه > ،فإنه* من عدد المسافر ، وطعام العَجلان، وغِذاء المبَـكِّر * ، و بلغة المريض ، ويَسْرو* فؤاد الحزين ، ويردّ من نفس المحدود،* وجيِّد فى التّسمين ومنعوتٌ فى الطِّب . قَفاره يجلو البلغم ، ومسمُونه يُصَفِّى الدم . إن شئت كـان ثريداً ، وإن شئت كـان خبيصاً ، وإن شئت كان طعاماً ، وإن شئت كـان شَراباً » . وقيل لبعض هؤلاء اللعامِظة والمستأ كلين والشناغيف والمقفِّعين* ، ورُئى سَميناً : « ما أسمنك ؟ » ، قال : « أ كلى الحارَّ ، وشُربى القارَّ ، والاتِّـكاء على شِمالى . وأ كلى من غَيْر مالى » . وقد قال الشاعر :

وإن امتلاءَ البطن فى حَسَب الغنى   قليلُ الغَناء وهو فى الجِسم صالح

وقيل لآخر :« ما أسمنك ؟» ، قال:« قلة الفِـكرة ، وطول الدَّعة ،والنوم على الـكِظَّة». وقال الحجَّاج للغَضبان بنِ القبعثرى : «ما أسمنَك ؟ » قال : «القَيْد والرتعة ،ومَن كان فى ضِيافة الأمير سَمِن » . وقيل لآخر :«إنك َلحسن السَّحنة» ! قال : « آ كل لُبابَ البُرّ ، وصِغار المَعز ، وأدَّهن بخام البنفسج ، وألبس الـكتَّان » .

(١) رميت (مرسيه) ، قارن فى هذا قول الشاعر (عيون الأخبار ٤ : ٨٨) :

انخ فاختبز خبزاً إذا اعترك الهوى   بزيت لكى يكفيك فقـد الحبائب

(٢) — < عن > (فان فلوتن) : ليست بالأصل —(٣) كأعيان (فان فلوتن) — (٣—٤) وعيب السويق فانه ك ، ونعت السويق بانه (فان فلوتن) ، قارن نص عيون الأخبار — (٤) المتكره ك — (٥) يشد ك ، قارن نص الأمالى والمخصص — وحيد فى السمين ك — (٨) والشناغيف : والشفافيق ك ، والسفافيق ك (فان فلوتن) . وانظر أدى شير ١٠٢ — والمقفمين ك .

(٣) «ثم أتانا . . . الضرس» عيون الأخبار ٣ : ٢٠١ — (٣ — ٧) «وعيب . . . شراباً» عيون الأخبار ٣ : ٢٠٦ ، الأمالى ٢ : ١٩٥ ط دار الكتب ، المخصص ٥ : ٩ ، محاضرات الراغب ١ : ٢٩١ — (٧ — ٩) «وقيل . . . مالى» عيون الأخبار ٣ : ٢٢٤ — (١١) «وإن . . . صالح» محاضرات الراغب ١ : ٣٠٢ — (١٢ — ١٥) «وقيل . . . الكتان» عيون الأخبار ٣ : ٢٢٤ — ٢٢٥ .

والله لو كان من يسأل يعطى لما قام كَرَمُ العطيّة بلؤم المسألة . ومدار الصّواب على طيب المكسبة ، والاقتصاد فى النفقة : وقد قال بعضُ العرَب : « اللهمَّ إنى أعوذُ بكَ من بعض الرزق » حين رأى نافِجة من ماله ، من صَداق أمّه .

وأىُّ سائل كان ألحفَ مسألةً من الحُطَيئة ولا ألأم*؟ ومن ألأم من* جَرير بن الخَطَفى وأبخَل ؟ ومن أمنعُ من كثيِّر ، وأشحُّ من ابن هَرمة** ؟ ومن كان يشقُّ غبار ابن أبى حفصة** ؟ ومن كان يَصْطَلى بنار أبى العتاهية ؟ ومن كان كأبى نُواس فى بُخله ، أو كأبى يعقوب الخُرَيمى فى دِقة نظره وكثرة كسبه ؟ ومن كان أ كثرَ نحرًا لجَزْرة لم تخلق من ابنِ هرمة ، وأطعنَ برُمح لم ينبُت ، وأطعَم لطعام لم يُزْرع ، من الخرَيمى ؟ فأين أنت عن ابن يسير * وأين تذهبُ عن ابن* أبى كريمة ؟ ولم تقصِّر فى ذكر الرقاشى ومن * لم يذكر شره * ؟

والأعرابىُّ شرٌّ من الحاضِر . سائل جبّار ، وثابة ملّاق . إن مدح كذَب ، وإن هجا كذب ، وإن أيس* كذَب ، وإن طَمِع كذب . لا يقرَبهُ * إلا نَطِف أو أحمق ، ولا يعطيه إلا من يحبّه ، ولا يحبُّه إلا من هُو فى طِباعه .

ما أبطأ كم عن البَذل فى الحقّ ، وأسرَعكم إلى البذل فى الباطل . فإن كنتم الشعراء تفضِّلون ، وإلى قولهم ترجِعون ، فقد قال الشاعر :

قليلُ المـال تصلحُه فيبقَى ... ولا يبقى الـكثير على الفساد

وقد قال الشمّاخ بن ضِرار** :

لمـالُ المرء يصلحُه فيغنِى ... مفاقِرَه أعفُّ من القنوع

---

(٤) وألأم (فان فلوتن) — [من] ك — (٩) ابن بشير ك — [بن] ك — (١٠) [من] (فان فلوتن) — شره (فان فلوتن) : سر ك — (١٢) سب (فان فلوتن) — لايقربه (مرسيه) : لايمرقه ك — . لايعرفه (فان فلوتن) .

---

(١٦) « قليل . . . الفساد » الحيوان ٣ : ٤٧ ط الحلبى . الأغانى ٢١ : ٢١٠ ، نهاية الأرب للنويرى ٣ : ٦٤ — (١٨) « لمال . . . القنوع » مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٢٥٤ ط ١٣٥٢ هـ .

وقال أحَيحة بن الجلاح** :

استغن أو متْ ولا يغرُرك ذو نَشب   من ابنِ عمّ ولا عمّ ولا خال
إنى أكِبُّ على الزّوْراء أعمُرُها   إنّ الكريمَ على الأقوامِ ذو المال

وقال أيضاً :

استغنِ عن كلٍّ ذى قُربى وذى رَحِم   إنّ الغنىّ من استَغنى عن* الناس
والبس عَدوّك فى رِفق وفى دَعة   لباسَ ذى إربة للدهر لَبّاس
ولا تغرّنك أضــغان مزمَّلة   قد يضرب الدبِر الدامى بإحلاس

وقال سهل بن هارون :

إذا امرُؤ ضاق عنّى لم يضِق خُلقى   من أن يرانى غنياً عنه باليـاس
فلا يَرانى إذا لم يرْعَ آصِرتى   مُستمرياً دِرَراً منه بإبساس
لا أطلب المـال كى أغنَى بفضلته   ما كان مطلبه فقراً إلى النـاس

وقال أبو العتاهية :

أنتَ ما استَغْنَيتَ عن صا   حبك الدهرَ أخوهُ
فإذا احتجْتَ إليــه   ســاعة مجّك فُوه

وقال أحَيحة بن الجلاح :

فلو أنى أشاء نعمتُ بالًا   وباكَرنى صَبوح أو نَشيل
ولاعَبنى على الأنماط لُعس   على أنيابهن الزنجبيـل
ولكنى خلقت إذًا لمـال   فأبخلُ بعد ذلك أو أنيل

(٥) من ك .

(٣ – ٤) « استغن . . . المال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٠ – (٩ ، ١١) « إذا . . . باليأس» « لا أطلب . . . الناس » زهر الآداب للحصرى ٢ : ٢٥٩ ط مصطفى محمد – (١٣ – ١٤) « أنت . . فوه » الأغانى ٤ : ١١ ، نهاية الأرب ٣ : ٨٠ ط دار الكتب المصرية .

وقال آخر :

أبا مُصلحٍ* أصلح ولا تكُ مفسِداً . فإن صَلاح المال خَيْر من الفقر
ألم تر أن المرء يزدادُ عزّة على قَومه أن يَعلموا أنه مُثرِى

وقال عرْوة بن الوَرد :

ذَريني للغنى أسـعى فإنى رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقير
وأبعـدُهم وأهونهم عليهم وإن أمسَى له حَسَب* وخِير
ويقصيه* النـديُّ وتزدَريه حَليلته وينهره الصـغيرُ
وتلقَى ذا الغِنى وله جَـلال يكاد فؤاد صاحِبـه يطير
قليـلٌ ذنبُه والذنب جمٌّ ولـكن الغنى ربٌّ غفور

وقال سَعيدُ بن زَيد بن عَمرو بن نُفيل** :

تلك عِرسان تنطقان على عمْـ ـد لى اليومَ قولَ زور وهِتر
سالتانى الطلاقَ أنْ رأتا ما لى قليلا . قد جِئتمانى بنُـكر
فلعلِّى أن يكثر المالُ عندى ويُعرَّى من المغارِم ظهرى
ويرى أعبُدٌ لنـا وأواق ومناصيفُ من خَوادِم عشر
وتجرّا* الاذيالَ فى نعمة زو لٍ تقولان ضع عصاك لدهر
وَيْكأنْ من يكن له نَشَب يحـ ـبَبْ ومن يفتقِر يعشْ عيشَ ضرٍّ
ويجنّب سِرّ* النجيِّ ولـكـ ـنَّ أخا المال* مُحضَر كلَّ سِرٍّ

---

(٢) أيا مصلح (فان فلوتن » – (٦) نسب (فان فلوتن) – (٧) ويقصيه ك : ويقصى فى (فان فلوتن) – (١٥) وتجر ك – (١٧) شرك – المال (البيان والتبيين) : الفقر ك .

(٢ – ٣) «أبا مصلح . . . مثرى » عيون الأخبار ١ : ٢٤١ . (٥ – ٩) « ذرينى . . . غفور» عيون الأخبار ١ : ٢٤١ – ٢٤٢ . شعراء النصرانية ص ٨٨٨ – (١١ – ١٧) – « تلك . . . سر» البيان والتبيين ١ : ١٩٩ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م ، الأغانى ١٦ : ٦٢ ط بولاق .

وقال الآخر :

وللمال* منّى جانبٌ لا أضيعه ... وللّهو منى والبَطالة جانب

وقال الأخنَس بن شِهاب** :

وقدعشتُ دهراً والغواة صَحابتى ... أولئك إخوانى الذين أصاحبُ

فأدّيت عنّى ما استعرتُ من الصبى ... وللمال منّى اليومَ راعٍ وكاسِبُ

وقال ابنُ الذئبة*الثقفى** :

أطعتُ النفسَ فى الشَهَوات حتّى ... أعادتنى عَسيفاً عندَ* عبد

إذا ما جئتُها قد بِعتُ عذقاً* ... تعانِق أو تقبِّل أو تفدِّى

فمن وجَد الغنى فليصطنِعه ... ذخيرته ويجهد كل جهد

وقال :

من يجمَع المالَ ولا يثب به* ... ويترك العامَ لعـام جَدبه

يهن على الناس هَوان كَلبه

وقد قيل فى المَثل : « الـكدّ* قبل المدّ » . وقال لقيط : « * الغزو أدرّ للقاح وأحدّ* للسلاح » . وقال ابن*المَعافى :

---

(٢) كتب فوقها فى الأصل بخط مغاير : ولله – (٦) أذينه ك – (٧) عند ك : عبد (فان فلوتن) – (٨) عتقا ك – (١١) يثبه ك – (١٣) الكل (فان فلوتن) – القم ودار للفاح واحد للسلاح (فان فلوتن) – (١٤) أبو ك قارن النص فى ابن الفقيه (أحمد بن العاف) –

(٤ – ٥) « وقد . . . وكاسب » المفضليات ٤١٣ ، ٤١٤ ط أكسفورد ، ديوان الحماسة ١ : ٣٠٥ – ٣٠٦ – (٧ – ٨) « أطعت . . . تفدى» الأصمعيات ، ص ١٢٧ ، ط وأدر المعارف منسوبة إلى أحيحة بن الجلاح ؛ عيون الأخبار ١ : ٢٤٣ – (١١ – ١٢) « من . . . كلبه » الحيوان ١ : ٢٥٤ ط الحلبى ، عيون الأخبار ١ : ٢٤٣ .

إنّ التوانى أنـكحَ العجزَ بنتَه وساق إليها حينَ زوّجها مهرا
فِراشاً وطيئاً ، ثمّ قال لها اتّـكى فقصْرُكما لابدّ أن * تلدَا الفقرا

وقال عثمانُ بن أبى العاص : « ساعةٌ لدنياك ، وساعة لآخِرتك » . وقال رسُول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهاكم عن قِيلَ وقال ، وكثرة السُّؤال ، وإضاعة المال » ، وقال : « خيرُ الصَّدقة ما أبقت * غِنًى ، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفلى ، وابدأ بمن تعول » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلث والثلث كثير . إنّك إنْ تدَع وَلدك أغنياء خيرٌ من أن يتـكفّفوا الناس» ، وقال ابنُ عبّاس : « وددت أنّ الناس غضّوا من الثُّلُث شيئاً ، لقول النبىِّ عليه السلام : الثُّلث والثلث كثير » ، وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « كَفى بالمرء إثماً أن يُضيع من يَقوت » . وأنتُم ترَون أنّ المجد والـكرَم أن أفقِر نفسى بإغناء غَيْرى ، وأن أحوطَ عِيال غَيرى بإضاعة عِيالى . وقال فى ذلك ابنُ هَرمة :

كتارِكة بيضَهـا بالعَراء وملبسةٍ بيضَ أخرى جَناحا

وقال آخر :

كمُفسدٍ أدناه ومصلِح غيرِه ولم * يأتَمِر فى ذاك أمرَ صلاح

وقال الآخر :

كمُرضِعة أولادَ أخرى، وضيّعت بنيهـا ، ولم ترقَع بذلك مَرقعـا

---

(٢) لا تلد ك ، عندى لأن تلدا (فان فلوتن) . قارن النص فى عيون الأخبار – (٥) ما ابعث عنا ك ما أبقى غنى (فان فلوتن) – (١٣) [و] لم ك

(١٨٤ : ١٣ – ١٨٥ : ٢) « وقد قيل . . . الفقرا » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ ، والبيتان فى كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٤٨ – (٤) « أنهاكم . . . المال » . صحيح مسلم (كتاب الأقضية) ٥ : ١٣١ – (٥) « خير الصدقة . . . تعول » صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٢٠ : ٤ (٦ – ٧) « الثلث . . . الناس » صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٢٠ : ٣ – ٤ ، صحيح مسلم ٥ : ٧١ – (٨ – ٩) « كفى . . . يقوت » النهاية لابن الأثير ٣ : ٣١٧ – (١١) « كتاركة . . . جناحاً » حماسة البحترى ص ١٧٠ ، الاغانى ٩ : ٤٤ ، نهاية الأرب ٣ : ٧٩ – (١٥) « كرضعة . . . مرقعاً » حماسة البحترى ص ١٧٠ ط الرحمانية ١٩٢٩ م .

وقال الله تبارك وتعالى : « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينَ » ، وقال : « وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » ، فأذِنَ فى العفو ، ولم يأذَن فى الجهد ، وأذِن فى الفُضول ولم يأذَن فى الأصول . وأراد كعبُ بنُ مالك * أن يتصدّق بماله ، فقال له النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « أمسِك عليكَ مالكَ » ، فالنبىُّ صلّى الله عليه وسلم يمنَعه من إخراج مالِه فى الصَّدَقة ، وأنتم تأمرونه بإخراجه فى السرَف والتبذير . وخرج غَيلان بن سَلمة * * من جميع مالِه فأكرهه عمرُ على الرجوع فيه ، وقال : « لو مِتَّ لرجمتُ قبرك ، كما يُرجم قبرُ أبى رغال » . وقال الله جلّ وعز : « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ » . وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « يكفيك ما بلّغك المحَلّ » . وقال : « ما قلّ وكفَى خيرٌ ممّا كثُر وألهى » . وقال الله تبارك وتعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً » . وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وقال الله جل ذكره : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » . ولذلك قالوا : « خَيرُ مالك مانفعَك ، < وخير الأمور > * أوساطها ، وشرُّ السير الحقحقة . والحسَنة بين السيِّئتين » ، وقالوا : «دينُ الله بين المقصِّر والغالى» ، وقالوا فى المَثل : « بينَهُمَا يرمى الرامى » ، وقالوا : « عليكَ بالسداد والاقتصاد ولا وكْس * ولا شطَط » ، وقالوا : « بين المُمخَّة * والعجفاء » ، وقالوا : « لا تـكن حلواً فتبتلَع

(٣) ملك (فان فلوتن) – (١٣) < وخير الأمور > : ساقطة فى الأصل – (١٥) كثير ك – (١٦) المنحة ك .

(١ – ٢) « ولا تبذر . . . الشياطين » سورة الاسراء : ٢٦ – ٢٧ – (٢) « ويسألونك . . . العفو » سورة البقرة : ٢١٩ – (٣ – ٤) « وأراد . . . مالك » محاضرات الراغب ١ : ٢٣٩ – (٧ – ٨) « لينفق . . . . الله » سورة الطلاق : ٧ – (١٠) « والذين . . . قواما » سورة الفرقان : ٧٦ – (١١) « إن المنبت . . . أبقى » نهاية الأرب ٣ : ٣ – (١٢ – ١٣) « ولا تجعل . . . محسوراً » سورة الإسراء : ٢٩ – (١٣) « خير . . . ما نفعك » مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٢٥١ – « خير . . . أوساطها » مجمع الأمثال ١ : ٢٥٤ – (١٣ – ١٤) « شر السير الحقحقة » مجمع الأمثال ١ : ٣٧٢ – (١٦) « بين . . . والعجفاء » عيون الأخبار ١ : ٣٣١ .

ولا مرًّا فتلفَظ » وقالوا فى المثل : « ليسَ الرىّ عن التشافّ * » . وقالوا : «ياعاقِد اذكر حلاًّ » ، وقالوا : « الرشيف أنقَع للظمآن » . وقالوا : « القليل الدائم أكثر من الكثير المنقِطع » . وقال أبو الدرداء : « إنى لأستجمّ نفسى ببعض الباطل كراهةَ أن أحمل عليها من الحقّ ما يملّها » . وقال الشاعر :

وإنى لحلو تعـــــترينى مَرارة   وإنى لصعب الرأس غير جَموح

وقالوا فى عَذل المُصلح ، ولائِمة المقتَصِد : « الشحيح أعذر من الظالم » . وقالوا : « ليسَ من العَدل سُرعة العذل » ، وقالوا : « لعلّ له عذراً وأنتَ تلوم » ، وقالوا : « ربَّ لائم مُليم » ، وقال الأحنف : « ربَّ مَلوم لا ذنبَ له » . وقال : « إعطاء السائل تَضْرِية ، وإعطاء الملحِف مُشاركة » ، وقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « لا تصلح المسألةُ إلا فى ثلاث : فقرٌ مدقع ، وغُرْم مفظِع ، ودَم موجِـع » . وقال الشاعر :

الحرّ يُلحى والعصا للعبـد   وليسَ للملحِف غـيرُ الردّ

وقالوا : « إذا جدّ السؤال جَدّ المنع » ، وقالوا : « احذَر إعطاء المخدُوعين ، وبذلَ المغبُونين ، فإنّ المغبون لا محمود ولا مأجور » ، ولذلك قالوا : « لا تكن أدنى العَيرين إلى السهم » يقول : إذا أعطيتَ السائلين مالَك صارتْ مقاتِلُك أظهر لأعدائك من مقاتِلهم : وقالوا : « الفِرار بقراب أكيَس » ، وقال أبو الأسود : « ليس من العزِّ

(١) عز النشاف لك .

(١٨٦ : ١٦ — ١٨٧ : ١) « لاتكن . . . فتلفظ » عيون الأخبار ١ : ٣٢٨ — (١) « ليس . . . التشاف » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٣٩ ط القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ، تذكرة ابن حمدون ، ط النهضة ١٩٢٧ م (منسوباً إلى سهل بن هارون) — (٣—٤) « إنى لاستجم . . . ما يملها » الحيوان ٣ : ٧ ط الحلبى ، نثر الدرر ٢ : ١٧٠ — (٦) « الشحيح . . . الظالم » عيون الأخبار ٢ : ٣٤ — (٧—٨) « لعل . . . مليم » الحيوان ١ : ٢٣ ط الحلبى — (٨) « رب . . . له » نهاية الأرب ٣ : ٣٢ — (٩—١٠) « لاتصلح . . . موجع » النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٣٣ ط الخيرية — (١١) « الحر . . . الرد » الأغانى ٣ : ١٧٥ كتمان السر وحفظ اللسان (مجموع رسائل الجاحظ) ص ٤٨ ط لجنة التأليف ، نهاية الأرب ٣ : ٧٩ (لبشار) — (١٢) « إذا جد . . . المنع » كتمان السر (مجموع رسائل الجاحظ) ٤٨ — (١٥) « الفرار بقراب أكيس » مجمع الأمثال ٢ : ٢٢ .

أن تتعرّض للذل ، ولامن الـكرَم أن تستدعىاللؤمَ ». ومن أخرَج مالّه من يدِه افتقَر ، ومن افتقَر فلا بدّ له من أن يضرَع ، والضرَع لؤم . وإن كان الُجود شقيقَ الـكرم ، فالأنفَة أولى بالـكرَم . وقد قال الأوّل : « اللهم لا تثر لى ماء سَوء فأكونَ امرأ سَوء » . وقد قال الشاعر :

واخط مع الدهر إذا ما خطا　　　واجرِ مع الدهر كما يجرى

وقد قال الآخر :

يا ليتَ لى نعلين من جِلد الضَبُع *　　　كلّ الِحذاء يحتذى الحافى الوَقِـع

وقد صدق < قول القائل > * : « من احتاجَ اغتفرَ * ، ومن اقتَضَى تجوّز * » ، وقيل **لديسموس * : « تأكلُ فى السوق ؟ » قال : « إن جاع < ديسموس > * فى السُوق أكلفىالسوق » ، وقال : « من أجدبَ انتجَع ، ومن جَاع خشع * » ، وقال : « احذَروا نِفار النعمة فإنها نَوار * . وليس كلّ شارد بمردود ، ولا كل نادٍ بمصرود * » وقال علىٌّ بن أبى طالب : « قلّ ما أدبرَ شىء فأقبل » . وقالوا : « ربّ أكلة تمنَع أكلات . وربّ عَجَلَة تهب رَيْثا » ، وعابوا من قال : « أكلة ومَوتة » : وقالوا : « لاتطلب أثرا بعد عَين » . وقالوا : « لا تـكن كمن تغلِبه نفسُه على ما يظنّ ، ولا يغلِبهـــا على

---

(٧) < وشركا من استّها لا تنقطع > (فان فلوتن) عن البيان والتبيين — (٨) < قول القائل > (فان فلوتن) ساقطة بالأصل — اعمر ك — تجور ك — (٩) لديسموس ك : لريسموس (فانفلوتن) ، ديونيسيوس (دى جويه) — < ديسموس > : ساقطة بالأصل ، قارن نص الحيوان — (١٠) حشع ك ، جشع (فان فلوتن) — (١١) بوار ك — مصر وف ك .

---

(٥) « واخط. . . يجرى» البيان والتبيين ٤ : ٢١ ط لجنة التأليف ، الأمالى ٢ : ٢٠٥ ط دار الكتب الأغانى ٤ : ٨٨ (لأبى العتاهية) — (٧) « ياليت . . . الوقع » البيان والتبيين ٣ : ٧٤ ط ١٩٣٢ م ، الحيوان ٦ : ١٥٢ ط الساسى ، الأمالى ١ : ١١٥ ، العقد ، ٣ : ٢٧٠ ، ط ١٩١٣ م ، معانى الشعر للأشناندانى ص ١١١ ط الترق بدمشق ، ١٣٤٠هـ — (٨-٩) « وقيل . . . السوق » البيان والتبيين ٢ : ١٧٨ ط ١٩٣٢ ، الحيوان ١ : ٢٩٠ ط الحلبى — (١٠ — ١١) « احذروا . . . بمردود » نهج البلاغة ٢ : ١٩٨ ط ١٣٢١ هـ — (١٢) « قلما . . . فأقبل » نهج البلاغة ١ : ٥٤ ط ١٣٢١ هـ — (١٣ — ١٤) (لاتطلب . . . عين » نهاية الأرب ٣ : ٥٨ .

ما يَسْتَيْقِن » . فانظر كيف تخرجُ الدرهمَ ، ولِمَ تخرجُه . وقالوا : « شرٌّ* من المرزئة سوء الخلَف » . وقال الشاعر :

إن يكن ما به أصبت* جليلا ‏ ‏ ‏ فذهابُ العَزاء فيــه أجلُّ

ولأن تفتقِرَ بجائحة نازلة خيرٌ لك من أن تفتقر بجناية مكتَسَبة* . ومن كان سَبباً لذهَاب وَفره ، لم تعدَمه الحسرةُ مِن نَفْسه واللائمةُ مِن غَيْره ، وقلّة الرّحمة وكثرة الشماتة ، مع الإثم المو بِق والهوانِ على الصاحِب .

وذكر عُمر بن الخطّاب فِتيانَ قُرَيش وسَرَفهم في الإنفاق ، ومُسَابقتهم في التبذير . فقال: « لحِرفة* أحدِهم أشدُّ عليّ من عَيْلته » ، يقول : إن إغناء الفقير* أهوَن عليّ من إصلاح الفاسِد

ولا تكنْ على نَفسِك أشأمَ من خَوْتعة ، وعلى أهلِك أشأم من البَسوس ، وعلى قَوْمك أشأم من عِطر منشِم . ومن سلّط الشَهواتِ على ماله ، وحكم الهوى في ذاتِ يَدِه ، فبقِيَ حَسيراً ، فلا يلومنَّ إلا نفسَه . وطوبى لك يومَ تقدِر على قدم تنتفع به . وقال بعضُ الشعراء:

أرى كلَّ قوم يمنعونَ حريمهم ‏ ‏ ‏ وليسَ لأصحابِ النبيذ حريمُ

أخوهم إذا ما دارَت الكأسُ بينَهم ‏ ‏ ‏ وكلّهم رثٌّ الوِصــال سَؤوم

فهـــذا بيانى لم أقل بجَهالة ‏ ‏ ‏ ولـكنّنى بالفاسِـــقينَ عليم

وقد كان هذا المعنى في أصحاب النبيذ أوجد ، فأمّا اليوم فقد اسْتوى الناس . قال الأضبط بن قريع** ، لمّا انتقلَ في القبائل ، فأساؤا جِوارَه ، بعدَ أن تأذّى ببنى سَعد : « بكلٍّ واد بنو سَعد » .

---

(١) أشد (فان فلوتن) – (٣) أصيب (فان فلوتن) – (٤) مكسبة ك – (٨) لخرقه ك ، لحرافة (فان فلوتن) – الفقر ك .

---

(٣) « إن يكن . . . أجل » الحيوان ٦ : ١٧٢ ط الساسى ، نهاية الأرب ٣ : ٨٣ – (٨) « لحرفة . . . عيلته » النهاية لابن الأثير ١ : ٢٥١ ، القاموس المحيط مادة ح ر ف – (٩) « أشأم من خوتعة » القاموس المحيط مادة خ ت ع – « أشأم من البسوس » الأغانى ٥ : ٣٥ – (١٠) « أشأم من عطر منشم » شرح ديوان زهير للشنتمرى ، شرح المعلقات للتبريزى (١٢ – ١٤) – « أرى . . . . عليم » العقد الفريد ٤ : ٣٢٠ – ٣٢١ ط الأزهرية ١٩١٣ م – (١٥ – ١٧) « قال . . . سعد » الحيوان ١ : ٣٥٨ ط الحلبى.

خذ بقولى ، ودع قولَ أبى العاص . وخذ بقولِ من قال : « عشْ ولا تغترّ » و بقول من قال : « لا تطلب أثراً بعدَ عين » ، و بقول مَن قال : « املأ حُبّك من أول مَطرة » و « دَع ما يُريبك إلى مالا يُريبك » . أخوك من صَدقك ، ومن أتاك من جِهة عقلِك ، ولم يأتِك من جِهة شَهْوتِك . وأخوكَ مَن احتَمل ثِقَلَ نصيحتك فى حظّك ، ولم تأمن لأثمته إياك فى غَدِك * . وقال الآخر :

إنّ أخاكَ الصدْقَ من لم يخدَعك ‎ ‎ ‎ ومن يضير نفسَـــه لينفعك

وقد قال عَبيد بن الأبرص :

واعلَمَن عِلمـــاً يقيناً أنّه ‎ ‎ ‎ ليسَ يُرجى لكَ من ليسَ مَعَك

ولا تزالُ بخيرٍ ما كانَ لك واعِظ من نفسك ، وعَيْن من عقلِك على طِباعك ، أو ما كانَ لك أخٌ نَصيح ووزير شَفِيق ، والزَوْجة الصالِحة عَوْن صدق . والسعيدُ من وُعِظ بغَيْره . فإن أنتَ لم تُرزَق من هذه الخِصال خَصلة واحِدة ، فلا بدَّ لك من نَكبة موجعة يبقى أثرُها ويلوح * لك ذِكرها . ولذلكَ قالوا : « خيرُ مالِك ما نَفَعك » ، ولذلك قالوا : « لَمْ يَذْهب من مالِك ما وَعَظك » .

إنّ المال مَحْروص عليه ، ومطلوبٌ فى قَعْر البحار وفى رؤس الجِبال وفى دَغل الغِياض ، ومطلوبٌ فى الوعورة كما يُطلبُ فى السهولة ، وسواء فيها بطون الأودية وظهور الطرق ومشارق الأرض ومَغاربها . فطلبت بالعزّ وطلبت بالذلّ ، وطلبت بالوفاء وطلبت بالغدر ، وطُلبت بالنسك كما طلبت بالفتك ، وطلبت بالصِدق وطلبت * بالكذِب ، وطلبت بالبذاء وطلبت بالملَق . فلم تترك فيها حيلة ولا رقية ، حتى طُلبت بالكفر بالله كما طُلبت بالإيمان ، وطُلبت بالسُخف كما طلبت بالنُبل . فقد نصَبوا الفخاخ بكلّ موضع ،

(٥) خير ك (مرسيه) — (١٢) ويلزج (مرسيه) — (١٧) كما طلبت (فان فلوتن) .

(١) « عش ولا تغتر » النهاية لابن الأثير ٣ : ١١٢ ط الخيرية — (٣) « ودع . . . لا يريبك » النهاية لابن الأثير ٢ : ١٢٥ — (٦) « إن . . . لينفعك » عيون الأخبار ٣ : ٤ .

ونصَبوا الشركَ بكل ربع* . وقد طلبك من لا يقصِّر دون الظَفَر ، وحَسَدك من لا ينام دُونَ الشِفاء . وقد يهدأ الطالبُ الطَوائل ، والمطلوبُ بذاتِ نفسه ، ولا يهدأ الحَريص .

يقال إنه ليسَ فى الأرض بلدَة واسِطة ، ولا نائية*شاسعة* ، ولا طرَف من الأطراف ، إلا وانتَ واجِد بها المدينى والبصرى والحِيرى* وقد ترى شَنَف الفقراء للأغنياء ، وتسرُّع الرغبة إلى الملوك ، و بغضَ الماشى للراكِب ، وعمومَ الحسَد فى المتفاوتين . فإن* لم تستعمِل الحذَر ، وتأخذ بنصيبك من المداراة ، وتتعلم الحزم وتجالسَ أصحابَ* الاقتِصاد ، وتعرّف الدهور ودهرك خاصّة ، وتمثّل لنفسك الغيرَ حتى تتوهَّم نفسك فقيرًا ضائعاً ، وحتى تَتهم شمالك على يمينك ، وسمعَك على بَصرِك ، ولا يكون أحدٌ اتهم عند نفسك من ثقتك ، ولا أولى بأخذِ الحذَر منه من أمينك ، اختطفت اختطافاً* واستلبت استلاباً ، وذوّبوا* مالك وتحيّفوه ، وألزموه السل ولم يداوُوه .

وقد قالوا : تلّى * المالَ ربّه و إن كان أحمق ، فلا تكوننّ دون ذلك الأحمق. وقالوا : لاتعدم* امرأة صَناع *ثلة ، فلا تكوننّ دون تلك المرأة * . وقد قال الأول فى المال المضيَّع المسلط عليه شَهوات العِيال : ليس لها راع ولـكن خليّة . وليسَ مالك المال المعفى من الأضراس ، فيقال فيه : مرعًى ولا أ كولة ، وعُشب ولا بعيرَ * . فقصاراك مع الإصلاح أن يقوم بملء * بطنك و بحقائقك * ، و بما ينُوبك . ولا بقاء للمال على قلّة الرعى وكثرة الحَلْب ؛ فـكِس فى أمرك ، وتقدَّم فى حفظِ مالك ، فإن من حفِظ مالَه فقد حفِظ الأ كرمين . والأ كرمان الدين والعِرض . وقد قيل : « للرّمى يُراش السهم . وعِند النِطاح تغلِبُ القَرناء » . و إذا رأت العرب مستأ كِلا وافق غمرا * قالت : « ليسَ عليك

(١) ربع ك — (٣) بادية (فان فلوتن) — سعاسعه ك — (٤) والحيرى ك . قارن عبارة الهمذانى فى البلدان ص ٥١ : ٥ « ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى لابد أن يجد فيهما بصريا أو حميريا » — (٥) وإن ك — (٩) واحتفظت احتفاظاً (فان فلوتن) — (١٠) ذو بوا (فان فلوتن) — (١١) بلى ك ، أبلى (فان فلوتن) — (١٢) من ضياع ك ، [امرأة] صناع (فان فلوتن) — المراة ك ، الصناع (فان فلوتن) — (١٤) و [لا] بعير ك — (١٥) يقومك ك — وبحوائجك (فان فلوتن) — (١٨) عمداً (فان فلوتن)

(١ — ٢) « وقد . . . الشفاء » عيون الأخبار ٢ : ٢١٦ — (١٦ — ١٧) « فان . . . والعرض » عيون الأخبار ١ : ٢٤٤ .

نسجُه ، فاسحق وخرّق * » وقد قال رسول الله صلى الله وسلم : الناسُ كلّهم سَواء كأسنان المُشط ، والمرء كثير * بأخيه . ولا خير لك فى صُحبة من لا يرى لك مثلَ ما يرى لنفسه .

فتعرّف شأن أصحابك ، ومعنى جلسائك : فإن كانوا فى هذه الصِفة فاستعمل الحزم ، وإن كانوا فى خلاف ذلك عملتَ على حَسَب ذلك .

إنى لستُ آمُرك إلا بما أمرَك به القرآن : ولستُ أوصيك إلا بما أوصاك به الرسُول ، ولا أعظُك إلا بما وعَظ * به الصالحُون بعضهم بعضاً . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « اعقِلْها وتوكّل » ، وقال مطرّف بن الشخير** : « من نام تحت صَدَف مائل وهو ينوى التوكل ، فليرْمِ بنفسِه من طمار وهو ينوى التوكّل » . فأين التوقِّى الذى أمر الله به ؟ وأينَ التغريرُ الذى نهى عنه ؟ ومن طمِع فى السلامة من غير تسلّم فقد وَضع الطّمع فى موضِع الأمانىّ . وإنما ينجز * الله الطمعَ إذا كان فيما أمر به ، وإنما يحقّق من الأمل ما كان هو المسبِّب له . وفرَّ عُمر من الطاعون ، فقال له أبو عُبَيدة : « أتفرُّ من قَدَرِ الله ؟ » قال : « نعم إلى قدَر الله » ، وقيل له : « ينفعُ الحذَر من القدَر ! » ، فقال : « لو كان الحذَر لا ينفع لكان الأمرُ به لغواً » . فإبلاء العُذر هو * التوكّل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل قال فى خصومة : حسبى الله : « أبلِ اللهَ عُذراً ، فإذا أعْجَزَك أمر فقل : حَسْبى الله » . وقال الشاعر :

ومن يك مِثلى ذَا عِيال ومُقْتِراً من المال يطرَحْ نفسَه كلَّ مطرَح
ليُبلِيَ عذراً أو ليبلغَ حاجة ومُبلغُ نفس عذرَها مثل منجِح

(١) فاسحق وخرق (مرسيه) : فاسحب وحرق ك ، فاسحب وجر (الميدانى) — (٢) [كثير] (فان فلوتن) — (٧) وعظلك ك — (١١) ينجز (فان فلوتن) : سحد ك — (١٤) هو ك : من (فان فلوتن)

(١٩١ : ١٨ — ١٩٢ : ١) « ليس . . . وخرق » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٣٨ ط ١٣٥٢ هـ — (٨ — ٩) « من نام . . . التوكل » النهاية لابن الأثير ٣ : ٤٩ — (١٧ — ١٨) « من يك . . . منجح » عيون الأخبار ١ : ٢٣٨ (لاوس بن حجر) ، الأمالى ٢ : ٢٣٤ (لعروة بن الورد) .

وقال الآخر :

فإن يكن القاضى قَضَى غيرَ عادل　　فبعدَ أمور لا ألوم لهـا نَفْسى

وقال زُهَير البابىّ* : « إن كان التوكُّل أن أكونَ متى أخرجتُ* مالى أيقنتُ بالخلَف ، وجعلتُ الخلَف مالاً يرجِع فى كِيسى، ومتى مالم أحفظ أيقنتُ بأنه محفوظ ، فإنى أشهدكم أنى لم أتوكّل قط . إنما التوكّل أن تعلم أنك متى أخذتَ بأدَب الله أنك تتقلّب فى الخِيَرة مجزى* بذلك* إمّاعاجلا وإما آجِلا » ، ثم قال : « فلم تجَر* أبو بكر ؟ ولم تجَر عمر ؟ ولم تجَر عثمان ؟ ولم تجَر الزُّبَير ؟ ** ولمَ تجر عبد الرحمن ؟ ** ولمَ علّم عمرُ الناسَ يتّجرون ، وكيفَ يشتَرون ويبيعون ؟ ولم قال عمر : إذا اشتَريتَ حَملا فاجعله ضَخما ، فإن لم يبعه الُخبرُ باعه المنظر ؟ ولم قال عمر : " فرِّقوا بينَ المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين " ؟ ولم قال عُثمان ، حينَ سُئل عن كثرة أرباحه ، قال : " لم أردّ من ربح قطّ " ؟ ولم قيل : لاتشتَر عَيْباً ولا شَيباً* ؟ وهل حَجر علىّ بنُ أبى طالب على ابن أخيه عبد الله بن جعفر** إلا فى إخراج المال فى غير حقّه ، وإعطائه فى هواه ؟ وهل كان ذلك إلا فى طلب الذكر ، والتماس الشكر ؟ وهل قال أحدٌ إن إنفاقَه كان فى الخمور والقِمار ، وفى الفسولة والفُجور ؟ وهل كان إلا فيما تسمُّونه جوداً وتعدُّونه كرما ؟ ومن رأى أن يحجُر على الكرام لكرَمهم ، رأى أن يحجُر على الحلَماء لِحلمهم . وأىّ إمام بعدَ أبى بكر تريدون ؟ وبأىّ* سلف بعد علىٍّ تقتدون ؟ » .

وكيفَ نرجو الوفاء والقيامَ بالحقِّ ، والصبرَ على النائبة ، من عندِ لعموظ مُسْتَأكِل وملاّق مخادِع ومنهوم بالطعام شَرِه ، لا يُبالى بأىِّ شىء أخذ الدرهَم ، ومن أىِّ وجه

---

(٣) البابى (فان فلوتن) : التابى ك — خرجت ك — (٦) مجزى ، كذا (فان فلوتن) : محرى ك — نيتك (فان فلوتن) — تجرا ك (فى الجميع) — (١١) سيبا ك — (١٥) وأى ك .

(٨—٩) « إذا . . . المنظر » عيون الأخبار ١ : ٢٥٠ — (٩) « فرقوا . . . رأسين » البخلاء ص ١١ .

أصاب الدينار * ، ولا يكترثُ للمنة ولايبالى أن يكون أبداً منهوماً منقوماً * عليه، وليسَ يُبالى إذا أكل كيفَ كان ذلك الطعام ، وكيف كان سببه وماحكمُه . فإنْ كان مالُك قليلا فإنما هو قوام عِيالك ، وإن كان كثيرًا فاجعَل الفاضِل عدة لنوائبك * . ولا يأمنُ الأيّام إلا المضلّل ، ولا يغترُّ بالسلامة إلا المغفّل . فاحذر طوارِق البَلاء وخُدَعَ رجال الدهاء . سمنُك فى أديمك ، وغثّك خيرٌ من سَمين غيرك لو وجدتَه ، فكيفَ ودونَه * أسَل حِداد وأبواب شِداد .

قالت امرأةٌ لبعضِ العرَب : « إن تزوّجتَنى كفيتُك » ، فأنشأ يقول :

إذا لم يكن لى غيرُ مالك مسّنى	خَصاص و بانَ الحمدُ منى والأجر
وما خـــيرُ مال ليسَ نافعَ أهلِه	وليسَ لشيخِ الحىِّ فى أمرِه أمر

وقال الملُوط القريعى ** :

أبا هانئٍ لا تسأل الناسَ والتمسْ*	بكفّيك سترَ الله ، فالله واسِـع
فلو تسأل الناسَ التراب لأوشـكوا	إذا قلتَ : هاتوا ، أن يملّوا فيَمنعوا

(١) الدنيا ك — ميعوما ك ، منعوما (فان فلوتن) — (٣) لعدة نوائبك ك — (٥) ودونه (فان فلوتن) : ودونها ك .

(٥) «سمنك فى أديمك» انظر مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٣٥٠ — (١١ — ١٢) «أباهانئ ... فيمنعوا» عيون الأخبار ٣ : ١٨٨ .

طرف شتى

ثم رجع الحديثُ إلى أحاديثِ البُخلاء و إلى طُرَف معانيهم وكلامهم :

قال ابنُ حسّان : كان عندَنا رجلٌ مُقِلّ ، وكان له أخٌ مكثِر ، وكان مُفرِط البخل ، شديد النَفج . فقال له يوماً أخوه : « ويحك ؛ أنا فقيرٌ مُعِيل ، وأنتَ غنيٌّ خفيفُ الظهر ، لا تعينُنى على الزمان ، ولا تواسِينى ببعض مالك ، ولا تتفرَّج لى عَن شىء ؟ والله ما رأيت قطّ ، ولا سمعتُ ، بأبخلَ مِنك » . قال : « ويحك ! ليس الأمرُ كما تظنّ ، ولا المالُ كما تحسب ، ولا أنا كما تقولُ فى البُخل ولا فى اليُسر . والله لو ملكتُ ألفَ ألفِ دِرهم لوَهَبتُ لك منها خمسَ مِائة ألفِ درهم . يا هؤلاء ، فرجلٌ يهب ضَربَةً * واحِدة خمس مائة ألفٍ يقالُ له بخيل ؟ »

وأما صاحبُ الثريدة البَلقاء ، فليسَ عجَبى من بُلقة ثريدته وسائرِ ما كان يظهرُ على خِوانه ، كعجَبى من شىء واحد ، وكيفَ ضبطَه وحَصَره وقَوِىَ عليه . مَع كَثرة أحاديثه وصُنوف مذاهِبه . وذلك أنى فى كَثرة ما جالستُه ، وفى كَثرة ما كانَ يفتنّ فيه مِن الأحاديث ، لم أره خبَّر أن رجلا وَهَب لرجل دِرهماً واحداً . فقد كان يفتنّ فى الحزم والعَزم * ، وفى الحِلم والعِلم ، وفى جَميع المعانى ، إلا ذِكرَ الجود ، فإنى لم أسمع هذا الاسم مِنه قطّ . خرجَ هذا البابُ من لِسانه ، كما خَرَج من قلبِه .

ويؤكِّد ما قلتُ فيه ما حدَّثنى به طاهرٌ الأسِير ، فإنه قال : وممَّا يدلُّ على أن الروم أبخلُ الأمم أنك لاتجدُ للجُود فى لغتهم اسماً . يقول : إنما يُسمِّى * الناسُ ما يحتاجون إلى استعماله ، ومع الاستغناء يسقط التكلّف . وقد زَعَم ناس أنّ ممّا يدلّ على غشٍّ الفرس أنه ليس للنّصيحة فى لغتهم اسم واحِد يجمَع المعانىَ التى يقعُ عليها هذا الاسم .

---

(٨) < فى > ضربة (فان فلوتن) – (١٤) الحزم والعزم (فان فلوتن) : فى الحزم وفى الحلم والعلم ك – (١٧) سمى (فان فلوتن) .

(٣ – ٩) « كان عندنا ... بخيل » انظر محاضرات الراغب ١ : ٢٨٧ .

وقول القائل : « نصيحة » ليس يُراد به سَلامة القلب ، فقد يكونُ أن يكونَ الرجل سليمَ الصدر ، ولم يحدُث سببٌ من أجله يقصِد إلى المَشورة عليك بالذى هو أردُّ عليك — على حسب رأيه فيك — ووَجْه * لنفعك . ففى لُغتهم اسمٌ للسلامة ، واسمٌ لإرادة الخير ، وحُسن المشورة ، وحملِك بالرأى على الصواب . فللنصيحةِ * عندَهم أسماء مختلفة ، إذا اجتمعَت دلّت على ما يدلُّ عليه الاسم الواحد فى لغة العرَب . فمن قضَى عليهم بالغشِّ من هذا الوجه فقد ظَلَم .

وحدّثنى إبراهيم بنُ عبد العَزيز * * ، قال : تغدّيتُ مع راشِد الأعور ، فأتَونا بجامٍ فيه بياح سَبخى * * ، الذى * يقال له الدرّاج . فجعلتُ آخُذ الواحِدةَ فأقطَع رأسَها ، ثم أعزله. ثمّ أشقّها باثنين من قِبَل بطنها ، فآخذ شَوْكة الصُلب والأضلاع ، فأعزلها ، وأرمى بما * فى بَطنها ، و بطَرَف الذَنَب والجناح ثم أجمعُها فى لقمة واحِدة وآكلها . وكان راشد يأخُذ البيّاحة فيقطَعها قِطعتين ، فيجعل كل * قطعة فى لُقمة ، لا يُلقى رَأساً ولا ذَنباً . فصبر لى على لُقَم عدّة . فلما بلغتُ المجهودَ منه قال : « أى بنىّ إذا أكلتَ الطعام فَكل خَيْره بشرِّه » .

قال : وكان يقول : لم أنتفِع بأكل التّمر قطّ إلا مع الزنج وأهل أصبهان . فأمّا الزنجىُّ فإنه لا يتخيّر وأنا أتخيّر ، وأما الأصبهانى فإنّه يقبضُ القَبضةَ ولا يأكلُ من غيرها ، ولا ينظرُ إلى ما بينَ يديه حتى يفرَغ من القَبضة . وهذا عدل ، والتخيُّر قرفة وَجور . لا جَرَم أن الذى يبقَى من التمر لا ينتفِـعُ به العِيال إذا كان قدّام من يتخيّر . وكان يقول : ليسَ من الأدب أن تجُول يدُك فى الطّبق ، وإنما هو تمر وما أصاب * .

وزعم سَرىّ بن مكرم ، وهو ابن أخى مُوسى بن جَناح ، قال : كان موسى يأمرنا ألا نأكل مادام أحد منّا مشغُولا بشرب الماء وطَلَبه . فلمّا رآنا لا نطاوعُه دعا ليلةً

(٣) وجه ك ، وجها (فان فلوتن) — (٤) فالنصيحة (فان فلوتن) — (٨) لعله : من الذى أو وهو الذى أو نحو ذلك — (٩) بها ك — (١١) فيجعل [كل] ك ، فجعل [كل] (فان فلوتن) — (١٨) كذا فى ك ، وما أصابت يدك (دى جويه)

بالماء ، ثم خطّ بإصبَعه خطًّا فى أرُزّة كانت بين أيدينا ، فقال : هذا نصيبى ، لا تعرِضوا له ، حتى أنتفعَ بشرب الماء .

وأحاديثه فى صَدر الـكِتاب ، وهذا منها .

وقال المـكىّ * لبعضٍ من كان يتعشّى ويُفطِر عند الباسيانىّ : ويْحَـكم ! كيف تُسيغون طعامَه ، وأنتم تسمعونه يقول : « إنما نطعِمُـكم لوجه الله ، لانريدُ منكم جَزَاءً ولا شُـكُوراً » . ثم تَرونه لا يقرؤها إلا وأنتم على العَشاء ، ولا يقرأ غيرَ هذه الآية ؟ أنتم والله ضدُّ الذى قال :

ألبـانُ إبل تعِلّة بن مُساور ما دام يملـكُها علىّ حرام
وطعـام عِمران بنِ أوفى مثله ما دام يسلك فى البطونِ طعام
إن الذين يسُوغ ُفى أعناقهم زادٌ يمنُّ عَلَيهمُ للئـام

قال : فمتى تعجَب فاعجب *من خمسين رجُلا من العرَب فيهم أبو رافع الـكلابى ، وهو شاعر بَذىّ ، يفطِرون عند أبى عثمانَ الأعور . فإفطارى من طَعام نصرانى أشدّ من إفطارى من طعام مُسلم يقرأ القرآن و يقول الحق .

وحدّثنى أبو المنجوف السّدوسى * * ، قال : كنتُ مع أبى ومَعنا شيخٌ من موالى الحىّ فمررنا بناطور على نهر الأُبلّة ، ونحن تَعبون ، فجلسنا إليه . فلم يلبث أن جاءنا بطبَق عليه رطب سكر ** وجَيسران * أسود ، فوضعه نين أيدينا . فأكل الشيخُ الذى كان مَعنا . فلما رأيتُ أبى لا يأكل لم آكُل ، وبى * إلى ذلك حاجة . فأقبلَ الناطورُ على أبى ، فقال : « لم لا تأكل ؟ » ، قال:« والله * إنى لأشتَهيه ، ولـكن لا أظنّ صاحبَ الأرض أباح لكَ إطعامَ الناس من الغَريب . فلو جِئتَنا بشىء من السهريز والبرنىّ لأكلنا » ،

(٤) المكى < ذلك > ك — الباسيانى (فان فلوتن) — (١١) اعجب ك — (١٦) جيسوان ك ، انظر ادى أشير — (١٧) ولى (فان فلوتن)

(٥ — ٦) « إنما نطعمكم . . . شكورا » سورة الانسان : ٩ — (٨ — ١٠) « ألبان . . . لئام » الكامل للمبرد ١ : ٤٤ .

فقال مَولانا ، وهو شَيخ كبيرُ السنّ : « ولكنّى أنا لم أنظر فى شىء من هذا قطّ » .

قال المكىّ : دخل إسماعيلُ بنُ غَزوان إلى بعض المساجد يصلّى ، فوجد الصفّ تامًّا ، فلم يستطع أن يقومَ وحده ، فجذَب ثوبَ شيخ فى الصفّ ليتأخّر فيقوم معه . فلمّا تأخّر الشيخُ ، ورأى إسماعيل الفَرج ، تقدّم فقام فى مَوْضع الشيخ ، وترَك الشيخَ قائمًا خلفَه ينظر فى قَفاه ، ويدعو الله عليه .

كان * ثمامةُ يحتشِم أن يقعدَ على خِوانه من لا يأنَسُ به ، ومن رأيه أن يأكلَ بعضُ غِلمانه معه . فحبَس قاسمٌ التمّار ** يوماً على غَدائه بعضَ من يحتشِمُه فاحتمَل ذلك ثمامة فى نفسِه . ثم عاد بعد ذلك إلى مِثلها ، ففَعل ذلك مراراً حتّى ضجّ ثمامة ، واستفرغ صبره. فأقبلَ عليه فقال : « ما يدعُوك إلى هذا ؟ لو أردتُهم لكان لِسانى مطلقاً ، وكان رسولى يؤدِّى عنى . فلم تحبسُ على طعامى من لا آنس به ؟ » ، قال : « إنما أريد أن أسخّيَك ، فأنفى عنكَ التبخيل وسُوء الظنّ » . فلما أن كان بعد ذلك ، أراد بعضُهم الانصراف ، فقال له قاسم : « أين تريد ؟ » قال : « قد تحرّك بطنى ، فأريد * المنزل » قال : « فلِمَ لا تتوضّأ ها هنا ؟ فإن الكنيفَ خال نظيف ، والغلامَ فارغ نشيط ، وليسَ من أبى مَعن حِشمة ، ومنزله منزلُ إخوانه » ، فدخل الرجلُ يتوضّأ . فلما كان بعد أيّام حَبس آخر ، فلما كان بعدذلك حبسَ آخرَ ، فاغتاظ ثُمامة ، و بلغ فى الغَيظ مبلَغاً لم يكن على مثلِه قطّ ، ثم قال : « هذا يحبِسُهم على غَدائى لأن يسخّينى . يحبسُهم عَلى أن يخرأوا عندى لِمَهْ ؟ لأن من لم يخرأ الناسُ عندَه فهو بَخيل على الطعام ؟ وقد سمعتُهم يقولون : فلان يكرَه أن يؤكل عندَه ، ولمْ * أسمع أحداً قط قال : فلان يكرَه أن يُخرأ عندَه » .

وكان قاسم شديدَ الأكل ، شديد الخبط ، قذِر المؤاكلة * . وكان أسخَى الناس على طعام غَيْره ، وأبخلَ الناس على طعام نفسه . وكان يعملُ عَمل رجل لم يسمَع بالحِشمة ولا بالتجمل قط . فكان لا يرضَى بسُوء أدَبه على طَعام ثُمامة ، حتّى يجرّ معه ابنَه

(٦) وكان (فان فلوتن) — (١٢) بارد ك — (١٨) [و] لم ك — (١٩) مدر اولمواكله ك .

إبراهيم . وكان بينَه و بينَ إبراهيم ابنِه فى القَذَر* ، بقَدر ما بينَه و بينَ جميع العالمين . فكانا إذا تقابلا على خوان ثُمامة لم يكن لأحد — على أيْمانهما وشمائلهما — حظٌّ فى الطيِّبات .

فأتَوه يوماً بقَصعة ضَخْمة فيها ثَريدة كَهيئة الصَّوْمعة مكلَّلة بأكليل من عراق ، بأكثر ما يكونُ من العراق . فأخذَ قاسم الذى يستقبِلُه ، ثم أخذ يَمنة ، وأخذ ما بين يدَىْ من كان بينَه و بين ثُمامة ، حتّى لم يدَع إلّا عَرقاً قدّام ثمامة ، ثم مال على جانبِه الأيْسر فصَنَع مِثل ذلك الصنيع . وعارضه ابنُه وحكاه . فلمّا أن نَظر ثُمامة إلى الثريدة مكشوفةَ القناع ، مسلوبةً عارية ، واللحمُ كلّه بينَ يديه و بين يدَىْ ابنه ، إلاَّ قطعة واحدة بين يدَيه ، تَنَاولها فوَضَعها قدّام إبراهيم ابنه . فلم* يدفَعها . واحتسَب بها فى الكرامة والبِرّ .

فقال قاسِم لما فرَغ من غَدائه : « أما رأيتُم إكرامَ ثُمامة لابنى ، وكيف خصَّه ؟ » فلمّا حُكى هذا لى ، قلت : « ويلَك ما أظنّ أن فى الأرض عَرقاً أشأمَ على عِيالك منه . هذا أخرجه الغيظُ ، وهذا الغيظُ لا يترُكه حتى يتشفّى منك . فإن قدَر لك على ذَنب فقد والله هلَكتَ ، وإن لم يقدِر عليه أقدَره لك الغيْظ . وأبواب التجنِّى كثيرة ، وليس أحد إلا وفيه ما إن شئت تجعله ذنباً* جعلته ، فكيف وأنت ذُنوب من قَرْنك إلى قَدَمك ؟ » .

وكان ثُمامة يفطِر — أيّام كان فى أصحاب الفساطيط — ناساً ، فكثُروا عَليه ، وأتَوه بالرقاع* والشفاعات . وفى حُشوة المتكلمين أخلاق قَبيحة ، وفيهم على أهل الكلام ، وعلى أرباب الصِناعات ، مِحنة عظيمة . فلمّا رأى ثُمامة ما قَدْ دهِمه ، أقبل عَليهم — وهم يتعشّون — فقال : « إن الله عزّ وجلّ لا يستحيى مِن الحقّ ، كلكم واجبُ الحقّ ، ومن لم تجئنا شفاعته فالحرمة* كمن تقدّمت شَفاعته . كما أنا لو استطَعنا أن

---

(١) القذر ك — (٩) ولم ك — (١٥) تجعله ذنباً جعلته ك : جعلته ذنباً (فان فلوتن) —
(١٨) الرقاع (فان فلوتن) — (٢١) فالحرمة ك : فاكرمه (فان فلوتن) . ولعلها : فالحرمة له .

نعمتّكم بالبِرّ لم يكن بعضُكم أحقّ بذلك من بعض ، فكذلك أنتم إذا أعجزنا أو بدَا لنا ، فليسَ بعضُكم أحقّ بالحِرمان من بعض ، أو بالحمل عليه ، أو بالاعتذار إليه ، من بعض . ومتَى قرّبتكم وفتحْتُ بابى لكم ، وباعدتُ من هُو أكثرُ منكم عَدَداً ، وأغلقتُ بابى دُونَهم ، لم يكن إدخالى* إيَّاكم عُذراً لى ، ولا فى منعِ الآخَرين حجّة » . فانصَرفوا ولم يَعودوا * .

قال أبو محمّد العَروضى : وقعت بينَ قومٍ عَرْبدة ، فقام المغنِّى يحجز بينهم — وكان شيخاً معتلا* بخيلا — فمسك رجلٌ بحَلقه فعَصره ، فصاح : مَعيشتى معيشتى ، فتبسم وتركه .

وحدثنى ابن أبى كَريمة ، قال : وهَبوا للكِنانى المغنِّى خابِية فارغة : فلما كان عندَ انصِرافه وضَعوها له على الباب ، ولم* يكن عندَه كِراء حمَّالها ، وأدركه ما يُدرك المغنِّين من التّيه ، فلم يحملها ، فكان يركُلها رَكلة ، فتَدَحرَجُ وتَدُور بمبلغ حميّة الرّكله . ويقومُ من ناحِية كي لا يراه إنسان ، ويرى ما تَصنع ، ثمّ يدنو منها ثم يركُلها أخرى ، فتدَحرجُ وتدور ، ويقف من ناحِية . فلم يزَل يفعلُ ذلك إلى أن بلَغ بها المَنزل .

قالوا : كان عبدُ النور كاتبُ إبراهيمَ بنِ عبد الله بن الحسَن قد استَخفى بالبصرة ، فى عبد القيس ، مِن أمير المُؤمنين أبى جعفر وعمّاله . وكان فى غُرفة قدّامَها جَناح ، وكان لا يطلِع رأسَه منها . فلما سكن الطلبُ شيئًا ، وثبَت عندَه حُسن جِوار القوم ، صار يجلِس فى الجَناح ، يرضَى بأن يسمَع الصوتَ ولا يرى الشخص ، لما فى ذلك من الأنس عند طُول الوَحشة ، فلما طالتْ به الأيام ، ومرّت أيّام السلامة ، جعَل فى الجناح خرقًا بقَدر عينه . فلما طالت الأيام صار ينظُر من شقّ باب كان مَسْمُوراً . ثم ما زال يفتحُه الأوّل فالأوّل ، إلى أن صار يُخرج رأسَه ، ويبدى وجهَه . فلما لم يرَ شيئًا يُريبه ،

(٤) < فى > ادخالى (فان فلوتن) — (٥) ولا تعودوا (فان فلوتن) — (٧) معيلا (فان فلوتن) — (١٠) فلم (فان فلوتن) .

(١٩٩ : ١٧ — ٢٠٠ : ٥) « وكان ثمامة . . . يعودوا » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٤ .

قعدَ فى الدِّهليز ، فلمَّا ازداد * فى الأنس ، جَلس على باب الدار ، ثم صلَّى مَعَهم فى مُصلاهم ودَخل ، ثمّ صلَّى بعدَ ذلك وجلس . والقومُ عرَب ، فكانوا * يفُيضون فى الحديث ، ويذكرُون من الشِعر * الشاهدَ والمَثَل ، ومن الخبَر الأيّام * والمقامات . وهو فى ذلك ساكِت ، إذ أقبلَ عليه ذاتَ يوم فتى منهم ، خرَج عن أدبِهم ، وأغفلَ بعضَ ما راضوه به من سيرتهم * ، فقال له : « يا شيخُ إنا قومٌ نخُوض فى ضُروب ، فربّما تكلّمنا بالمثلَبة ، وأنشدنا الهِجاء ، فلو أعلَمتَنا ممن أنت تجنبنا كلَّ ما يسوءك . ولو اجتَنَبنا أشعارَ الهِجاء كلَّها ، وأخبار المثالِب بأسرِها ، لمْ * نأمَن أن يكونَ ثناؤنا ومديحُنا لبعض العرَب ممَّا يسوءك . فلو عرَّفتَنا نسَبك كَفَيناك سَماع ما يسوءك من هِجاء قوْمِك ، ومن مَدح * عدوّك » . فلطَمه شيخٌ منهم وقال : «لا أمَّ لك ! مِحنة كمِحنَة الخوارج ، وتنقيرٌ كتنقير العيّابين . ولِمَ لا تَدَع ما يُريبك إلى مالايُريبك ، فسكتَّ إلا عمَّا توقِن * بأنه يسرّه ؟ » .

قال : وقال عبدُ النور : ثم إن مَوضِعى نبا بى لبعض الأمر ، فتحوّلت إلى شقٍّ بنى تميم . فنزلتُ برجل ، فأخذَهُ * بالثِّقة ، وأكمنتُ نفسى إلى أن أعرفَ سبيل القوم . وكان للرجل كَنِيف إلى جانب داره ، يشرَع فى طَريق لا ينفُذ ، إلاَّ أنَّ من مرّ به فى ذلك الشارع رأى مَسقِط الغائط من خَلاء ذلك الجناح . وكان صاحبُ الدار ضيِّق العَيْش ، فاتّسع بنزولى عليه . فكان القوْم إذا مرُّوا به ، ينظُرون إلى موضِع الزبل والغائط ، فلا يذهبُ قلبى إلى شيء مما كانوا يذهبون إليه . فبينا أنا جالسٌ ذاتَ يوم ، إذ * أنا بأصوات ملتفَّة على الباب ، وإذا صاحبى ينتَفى ويعتَذِر ، وإذا الجيران قد اجتَمعوا إليه ، وقالوا : « ما هذا الثلْط الذى يسقط من جَناحك ، بعد أن كنا لا نَرى إلا شيئًا كالبَعْر من * يُبس الكعك . وهذا ثلْط يعبرُّ * عن أكل غَضّ . ولولا أنّك انتَجَعت على

---

(١) زاد (فان فلوتن) — (٢) وكانوا (فان فلوتن) - (٣) الشمراء (فان فلوتن) — والأيام ك — (٥) سترهم (فان فلوتن) — (٧) ولم (فان فلوتن) — (٩) مديح (فان فلوتن) — (١٠) يوقن ك — (١٣) فأخذه ، كذا فى ك : نأخذته (فان فلوتن) — (١٧) إذا (فان فلوتن) - (٢٠) من (فان فلوتن) فى ك نعمرك ، بعير (فان فلوتن) — انتجعت (فان فلوتن) : التحقت ك .

بعضٍ من تستّر وتوارى لأظهرتَه . وقد قال الأول :

السترُ دونَ الفاحِشات ولا يلقاكَ دونَ الخَير من سِتر

ولولا أن هذا طِلبة السلطان لما توارى . فلسنا نأمَنُ من أن يجرَّ على الحىِّ بليّة، ولستَ تبالى إذا حسُنت حالك فى عاجِل أيامك إلا مَ يفضى بك الحال ، وما تلقَى عَشِيرتك . فإمّا أن تُخْرِجَه إلينا ، وإمّا أن تُخرِجه عنّا » .

قال عبدُ النور : فقلتُ : هذه واللهِ القيافة ، ولا قِيافَةَ بنى مُدلج . إنّا لله ! خرجتُ من الجنة إلى النار . وقلت : هـــذا وَعيد وقد أعذَر من أنذَر . فلم أظنَّ أن اللؤمَ يبلُغ ما رأيتُ من هَؤلاء ، ولا ظننتُ أن الـكرَم يبلغُ ما رأيتُ من أولئك .

شهِدتُ الأصمَعىَّ يوماً ، وأقبلَ على جُلَسائه يسألهم عن عيْشهم ، وعمَّا يأ كُلون و يشرَبون . فأقبلَ على الذى عن يَمينه ، فقال : « أبا فلان ما إدامُك ؟ » ، قال : « اللحم » ، قال : « أ كلَّ يوم لحم ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « وفيه الصفراء البيضاء والحمراء والـكَدْراء والحامِضة والُحلوة والمرّة ؟ » . قال : « نعم » . قال : « بئسَ العيشُ ! هذا ليسَ عيشَ آل الخطّاب . كان عُمر بن الخطَّاب رحمةُ الله عليه ورضوانه يضربُ على هذا ، وكان يقول : مُدمِنُ اللحم كمدْمِن الخمر » .

ثم سأل الّذى يليه ، قال : « أبا فلان ما إدامُك ؟ » ، قال : « الآدام الـكثيرة والألوان الطيِّبة » ، قال : « أفى إدَامك سَمن ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فتجمَعُ السَّمن والسَّمِين على مائدة ؟ » ، قال : « نعم » . قال : « ليسَ هذا عيشَ آلِ الخطَّاب. كان ابنُ الخطَّاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا . وكان إذا وَجد القُدور المختلفة الطعوم * كدَّرها فى قِدر واحدة ، وقال إنّ العرَب لو أ كلت هذا لقتَل بعضُها بعضاً » .

---

(١٩) المطعوم ك .

---

(٢) « الستر . . . ستر » ديوان زهير (دواوين الشعراء الستة الجاهلين) ص ٨٢ ، عيون الأخبار ١ : ٢٩٥ ، أمالى القالى ١ : ٩١ الموازنة للآمدى ١٢٠ ط الجوائب ، ١٢٨٧ ، نهاية الأرب ٣ : ٦٢ .

ثم يُقبِلَ على الآخر، فيقول : « أبا فلان ما إدامك ؟ » ، قال : « اللحمُ السمين ، والجداءالرضَّع » ، قال : « فتأ كلُه بالحُوَّارى ؟ » ، قال : « نعم » . قال : « ليس هذا عيش آلِ الخطّاب . كان ابن الخطاب يضرِبُ على هذا . أو ما سمعتَه يقول : أترَونى لا أعرف الطعام الطيِّب ؟ لبابُ البرّ بصِغار المعزى . ألا تراه كيفَ ينتفى من أ كله ، وتنتَحِل* معرفته ؟ » .

ثم يقبلُ على الذى يَليه ، فيقول : « أبا فلان ما أدمك ؟ » ، فيقول : « أ كثرُ ما نأ كل لُحوم الجَزُور* ، ونتّخذ منها هذه القَلَايا ، ونجعلُ بعضَها شِواء » ، قال : « أفتأ كلُ من أ كبادها وأسنِمَتها ، وتتّخذ لك الصباغ ؟ » ، قال : « نعم » . قال : « ليسَ هــذا عيشَ آلِ الخطّاب . كان ابنُ الخطّاب يضرِب على هذا أو ما سمعتَه يقول : أترَونى لا أقدِرُ أن أتّخذ أ كباداً وأفلاذًا وصَلائِق وصنابا ؟ ألا تَراه كيفَ يُنكِر أ كله ، ويستَحسِن معرفته ؟ » .

ثم يقول للّذى يليه : « أبا فلان ما أدمك ؟ » ، فيقول : « الشَّبارقات والأخبصة والفالوذَجات** » . قال : « طعام العجَم ، وعِيش كِسرى ، ولُباب البرّ ، بلُعاب النَّحل ، بخالِص السمن » . حتّى أتى على آخرهم . كلٌّ ذلك يقول : « بئسَ العيشُ هذا . ليسَ هذا عيشَ آل الخطّاب . كان ابن الخطاب. يضرب على هذا » .

فلما انقضَى كلامُه أقبل عليه بعضهم ، فقال : « يا أبا سعيد ما أدمك ؟ » ، قال : « يَوْماً* لبن، ويوماً زيت ، ويوماً سَمن ، ويوماً تمر ، ويوماً جبن، ويوماً* قَفار ، ويوماً لحم . عيشُ آل خطاب » .

ثم قال : قال أبو الأشهب : كان الحسَن يشترى لأهله كلَّ يوم بنِصف درهم لحماً* . فإن غَلا فبدِرهم ، فلمّا حُبِس عطاؤه كانت مَرَقته بشحم .

---

(٢) الجدى (فان فلوتن) – (٥) أو ينتحل ك – (٧) الجزر (فان فلوتن) .
(١٧) [لبن . . . ويوماً جبن ويوماً] (فان فلوتن) – (١٩) لحم ك .

(١٣ – ١٤) « ولباب . . . السمن » عيون الأخبار ٣ : ٣٠٣ .

ونُبّئتُ عن رجل من قريش أنه كان يقول : « من لم يحسِن يمنعُ لم يحسِن يُعطى » . وأنه قال لابنه : « أىْ بُنىّ إنك إن أعطَيت فى غير موضِع الإعطاء أوشك أن تستعطِىَ الناسَ فلا تُعطى » . ثم أقبلَ علينا ، فقال : هل علمتم أن اليأس أقلُّ من القناعة وأعزّ ؟ إنّ الطمع لا يزال طمعاً ، وصاحب الطمع لا ينتظر الأسباب ، ولا يعرفُ الطمع الكاذب من الصادِق . والعِيال عيالان : شَهوة مفسِدة وضِرس طَحون ، وأكل الشهوة أثقلُ من أكل الضرس : وقد زعموا أن العيال سُوس المال ، وأنه لا مال لذِى عيال . وأنا أقول إنّ الشّهوة تبلغ مالا يبلغ السُّوس ، وتأتى على ما يقصِّر دونَه العِيال : وقد قال الحسن : « ما عال أحَد قطّ عن قَصْده » ، وقيل لشَيخ من أهل البصرة : « مالك لا ينمَى لك مال ؟ » ، قال : « لأنّى اتَّخذتُ العيال قبل المال ، واتخذ الناسُ المَال قبل العِيال » ، وقد رأيتُ من تقدّم عِيالُه مالَه فجبره الإصلاح ، ورفَده الاقتِصاد ، وأعانه حُسنُ التَّدبير ، ولم أر لشهواتى تدبيراً ، ولا لشرهى* صبراً . وقال إياس بنُ مُعاوية** : « إن الرجلَ يكون عليه ألفٌ فيُصلِح فتصلُح له الغلَّة ، ويكونُ عليه ألفان فينفِقُ ألفَين فيُصلِح فتصلُح له الغلَّة ، فيكون عليه ألفان فينفِقُ ثلاثةَ آلاف فيبيعُ العقَار فى فَضل النفقة » . وذكر الحديثَ عن أبى لينة ، قال : « كنتُ أرى زياداً وهو أميرٌ يمرّ بنا على بَغلة فى عنقها حبل من ليف مُدرَج على عنقها » . وكان سَلم بن قُتيبة يركَب بغلة وحدَه ، ومعه أربعة آلاف مرابطة* . ورآه الفضلُ بن عِيسى على حِمار ، وهو أمير ، فقال : « *قعود نبى وبذلة جبار* » ، ولو شاء أبو سيّارة أن يدفَع بالعرب على جمل مهرىّ ، أو فرَس عتيق لفعل ، ولكنه أراد هَدى الصالحين : وحُمل عُمر على برذَون فهملَج تحتَه ، فنزل عنه ، فقال لأصحابه : « جنِّبونى هذا الشَّيطان » ثم قال لأصحابه : « لا تطلبوا العزّ بغير ما أعزكم الله به » .

---

(١١) لشرهى (فان فلوتن) : لشره ك — (١٦) مرابطة؟ : رابطة ك — (١٦—١٧) بذلة نبى وقعود جبار ك.

---

(٦) « العيال سوس المال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ — (٨ — ٩) « وقيل ... العيال » عيون الأخبار ١ : ٢٤٥ .

قد كنتُ أعجب من بَعض السلَف حيث قال : « ما أعرف شيئاً مما كان الناسُ عليه إلا الأذان » ، وأنا أقول ذلك ، ولم يزل الناسُ فى هبوط ما ترفّعوا بالإسراف ، وما رفَعوا البُنيان للمُطَاولة . وإن من أعجَب ما رأيتُ فى هذا الزمان أو سمعتُ مفاخرةَ مُوَيس ابنِ عِمران لأبى عُبيد الله بن سلمان فى أيّهما كان أسبق إلى ركوب البَراذين . وما للتاجر وللبِرذون ؟ وما ركوبُ التجار* للبراذين إلا كركوب العرَب للبقَر .

لو كانوا إذا جَلسوا فى الُخيوش ، واتّخذوا الحمامات فى الدور ، وأقاموا وظائف الثَّلج والرَّيْحان ، واتَّخذوا القِيان والخصيان ، استردَّ الناسُ ودَائعهم ، واسترجَعت القضاة أموالَ الأيتام** والحشرية* منهم ، لعادوا إلى دِينهم وعَيْشهم واقتصادهم . وإذا رآهم أصحابُ الغلّات وأهلُ الشَّرف والبيوتات أنِفوا أن يكونوا دُونَهم فى البزَّة والهيئة ، فهلكوا وأهلكوا .

زعم أبو يعقوب الخرَيمى أنَّ جَعفر بن يحيى** أراد يوماً حاجة كان طريقُه إليها على باب الأصمَعىّ ، وأنه دفعَ إلى خادمٍ له كيساً فيه ألفُ دينار ، وقال له : « سأنزلُ فى رجْعتى إلى الأصمعىّ ، وسيحدِّثنى ويضحِكُنى . فإذا* رأيتنى قد ضحكت ، فضع الكيس بينَ يديه » . فلمَّا دَخل فرأى حُبًّا مقطوعَ الرأس ، وجرَّة مكسورَة العُروة . وقَصعة مُشَعَّبة ، وجفنة أعشاراً ، ورآه* على مصلًّى بالٍ ، وعلَيه برٌّ كان أجرد ، غمز غلامه بعيْنِه ألَّا يضَع الكيس بينَ يديه ، ولا يدفع إليه شَيئاً . فلم يدَع الأصمعىُّ شيئاً مما يُضحك الثكلان والغضْبان إلا أورده عليه ، فما تبسّم .

فقال له أنس* : « ما أدرى من أىِّ أمرَيك أعجب : أمِن صَبرك على الضَّحك ، وقد أورَد عليك ما لا يُصبر على مثلِه ، أم من تركك إعطاءه ، وقد كنتَ عزمتَ على

(٥) التاجر (فان فلوتن) – (٨) الحشوية ك – (١٣) وإذا (فان فلوتن) – (١٥) ورآه (عيون الأخبار) : وراءه ك ، وزاده (فان فلوتن) – (١٨) أنس (المسعودى) : إفسان ك .

إعطائه ، وهذا خلافُ ما أعرفُك به ؟ » ، قال : « ويلكَ ! من استَرْعى الذئبَ فقد ظَلَم ، ومن زَرع سَبِخة حَصَد الفقر . إنى والله لو* علمتُ أنه يكتُم المعروفَ بالفعل ، لما احتفلتُ* بنَشره لَه باللسان . وأينَ يقعُ مَديح اللسان من مَديح آثار الغنى على الإنسان . فاللسانُ قد يكذِب ، والحالُ لا تكذِب . لله درُّ نصَيب حيثُ يقول :

فعاجوا فأثنَوا بالذى أنتَ أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

أعلمتَ أن ناووس* ابرويز** أمدحُ له من شِعر زُهير لآل سِنان بن أبى حارثة . لأنَّ الشاعر يكذبُ ويصدُق ، وبنيانُ المراتِب لا يكذِبُ مرّة ويصدُق مرّة . فلست بعائدٍ إلى هذا بمعرُوف أبداً .

كان الأصمعىُّ يتعوّذ بالله من الاستِقراض والاستِفراض ، فأنعَم الله عليه ، حتّى صار هو المستقرَض منه ، والمستفْرَض ما عنده . فاتّفق أن أتاه فى يَوم واحد رَجُلان ، وكان أحدُهما يطلُب القَرض ، والآخَر يطلُب القرض ، هجما عليه معاً ، فأبعله* ذلك وملأ صَدْره ثمّ أقبلَ على صاحِب السَّلف ، فقال :

تتبدّل الأفعالُ بتبدّل الحال . ولكلِ زمان تدبير ولكل شىء مقدار ، والله فى كل يوم فى شَأن . كان الفقيهُ يمرّ باللُقَطَة فيتجاوَزُها ولا يتناوَلُها ، كى يُمتَحن بحفظِها سواه ، إذ كان جُلّ الناس فى ذلك الدَهر يؤدون* الأمانة ويَحوطون اللقَطة ، فلمَّا تبدَّلوا وفَسَدوا ، وجَب على الفقيه إحرازُها والحفظُ لها ، وأن يصبرَ على ما نابه من المِحنة واختُبِر* به من الكلفة .

وقد بلغنى أنّ رجلاً أتى صَديقاً له يستقرِض منه مالاً ، فتركه بالباب ، ثم خَرج إليه ،

---

(٢) < أن > لوك – (٣) احتفلت : اربعت ك ، ارتفقت (فان فلوتن) – (٦) ناروس باروبه ك ، ناووس باروبه (فان فلوتن) – (١١) انمله ك ، أثقله (فان فلوتن) – (١٥) يؤدون (مرسيه) : يريدون ك – (١٧) [و] اختبر ك

(١ – ٢) « من استرعى . . . ظلم » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٢٥٧ – (٥) « فعاجوا . . . الحقائب » الأغانى ١ : ٣٣٧ .

(٢٠٥ : ١١ – ٢٠٦ : ٦) « زعم . . . سنان » عيون الأخبار ١ : ٢٩٩ . الوزراء والكتاب للجهشيارى (بايجاز) ص ١٦٠ ط الصاوى ، ديوان المعانى (مروية عن القتبى) ١ : ١٢٩ – ١٣٠ ط القدسى .

مؤتزراً . فقال له : مالك ؟ قال جئتُ للقِتال واللطام والُخصومة والصخب . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنَّك فى أخذ مالى بين حَالَين : إمّا أن تذهَب به ، و إمّا أن تمطلُنى به . فلو أخذتَه ، على طريقِ البرِّ والصِلة ، لاعتدَدْتُ عليك بحقّ ، ولوجَبَ عليك به شكر . و إذا أخذتَه من طريق السَلَف ، كانت العادةُ فى الديون والسِيرةُ فى الإسلاف الردّ أو التقاضى . و إذا تقاضيتُك أغضَبتُك ، و إذا أغضبتك أسمعتنى ما أكره ، فتجمعُ علىّ المطلَ وسوءَ اللفظ والوحشةَ و إفسادَ اليد فى الإسلاف ، وأنتَ أظلم . فأغضبُ كما غضبتَ ، فإذا نقلتَنى إلى حالك فعلتُ فِعلك ، وصرتُ أنا وأنتَ كما قال العربىّ : « أنا تئق وصاحبِى مئق » . فما ظنُّك بتئق* من الغيظ مملوء من الغضَب ، لأنى متأق من الموق مملوء من الكفران* . ولكنّى أدخل إلى المنزل فأخرج إليكَ مؤتزِراً ، فأعجِّل لك اليومَ ما ادخرته إلى غد . وقد علمت أنّ ضَرب الموعِظة دونَ ضَرب الحِقد والسَخيمة ، فتربحُ صَرف ما بينَ الألمين ، وفضلَ ما بين الشتمين .

وبعد ، فأنا أضَنّ* بصداقتى لك ، وأشَحّ عَلى نصيبى* منك ، من أن أعرِّضه للفساد ، وأن أعينَك على القَطيعة ، فلا تلُمنى على أن كنتَ عندى واحداً من أهل عَصرك . فإن كنتَ عندَ نفسك فوقَهم و بعيداً من مَذهبهم ، فلا تكلّف الناسَ علم الغيب فتظلمَهم .

ثم قال : وما زالت العاريّة مؤدّاة ، والوَديعة محفوظة ، فلمّا قالوا : « أحقّ الخيل بالركْض المُعار » ، بعدَ أن كان يقال : « أحقّ الخيل بالصَون المعار » ، و بعد أن قيلَ لبعضِهم : ارفُق به ، فقال* : إنه عارية ، وقال الآخر : فاقتل ، فسَدت العارية ، واستدَّ هذا الباب .

---

(٨) بمتق ك — (٩) النكران (فان فلوتن) — (١٢) أظن ك — نصيبى (فان فلوتن) : نفسى ك
(١٨) قال ك .

(٧ — ٨) « أنا . . . مئق » الحيوان ١ : ٢٨٧ ، مجمع الأمثال ١ : ٤٨ .
(١٦ — ١٧) « أحق . . . المعار » عيون الأخبار ٣ : ١٤٢ .

ولما قالوا :

شمِّر قميصَك ، واستعدَّ لنائل واحكُك جبينَك للقضاء بثوم
واخفِضْ جَناحك إن مشيت تخشّعاً حتّى تصيبَ وَديعــة ليتيم

وحينَ أَكَلت الأماناتِ الأمناء والأوصياء ، ورتَع فيها المعدِّلون والصرّافون ، وجَب حفظُها ودفنُها ، وكان أكل الأرض لها خيرًا من أكل الخَؤون الفاجر واللئيم الغادِر . وهذا معَ قول أكثَم بن صَيْفى فى ذلك الدهر : « لو سُئلت العارِية أينَ تذهبين ، قالت : أكسب أهلى ذمّا » .

وأنا اليوم أنهَى عن العارِية والوديعة ، وعن القَرض والفَرض . وأكره أن يخالفَ قولى فعلى . أما القرضُ فلِما أنبأتك * ، وأما الفَرض فليسَ يسعُه إلا بيتُ المال . ولو وهبتُ لك دِرهمًا واحِدًا ، لفتحتُ على مالى باباً لا تسدُّه الجبالُ والرمال . ولو استطعتُ أن أجعلَ دونه ردماً كردمِ يأجوج ومأجوج < لفعلت > * . إن الناسَ فاغِرة أفواهُهم نحوَ من عندَه دراهِم ، فليسَ يمنعهُم من النَهس إلا اليأس . وإن طمِعوا لم تبقَ راغِية ولا ثاغِية ، ولا سَبَد ولا لَبَد ، ولا صَامِت ولا ناطق ، إلا ابتَلَعوه والتَهَموه . أتدرى ما تُريد بشَيخك ؟ إنما تريد أن تُفقِره . فإذا أفقرتَه فقد قَتَلته . وقد تعلَمُ ما جاء فى قتل النفسِ المؤمنة .

فلم أشبِّه قولَ الأصمعىِّ لهذا الرجل حين قال : « أضن بك ، وأشحّ على نصيبى منك ، من أن أعرِّضه للفساد » إلا بقول ثمامة حين قال لابن سافرى ** : « يا عاضَّ بظر أمه . بالنظر منِّى أقول لك ، و بالشفَقَة منِّى أسبّك » . وذلك أنه ندم حينَ أعضّه ، فرأى أن هذا القَول يجعَل ذلك مِنه يدًا ونعمة .

---

(٩) أنبأتكم (فان فلوتن) — (١١) < لفعلت > : ليست بالأصل .

(٢ — ٣) « شمر . . . ليتيم » البيان والتبين ٣ : ٨٨ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ ؛ الأغانى ١٦ : ١٦٩ لمساور الوراق .

وشهدتُ ثمامة، وأتاه رجلان * < قال أحدهما : « لى إليك حاجة » > *، فقال ثمامة : « ولى إليكَ أيضاً حاجة » ، قال : « وما حاجتُك ؟ » ، قال : « لستُ أذكرُها لكَ حتّى تضمنَ لى قضاءها » ، < قال : « قد فعلت * > » ، قال : « فحاجتى ألا تسألنى هذه الحاجَة » ، قال : « إنّك لا تدرى ما هى » ، قال : « بلى قد دَرَيت » ، قال : « فما هى ؟ » ، قال : «هى حاجة . وليسَ يكونُ الشىء حاجَة إلاوهى تحْوج * إلى شىء من الـكلفة » ، قال : « فقد رجعتُ عمّا أعطيتُك » ، قال : « لـكنّى لا أردّ ما أخذتُ » .

فأقبل عليه الآخر * ، فقال : « لى حاجَة إلى منصور بنِ النُّعمان » ، قال : « قل : لى حاجة إلى ثمامة بن أشرس . لأنى أنا الذى أقضى لكَ الحاجة ، ومنصور يقضِيها لى . فالحاجة أنا أقضيها لك وغيرى يقضيها لى » ، ثمقال : « فأنا لا أتكلم فىالولا يات ولا أتكلم فى الدراهم من قُلوب * الناس ولأن الحوائج تُقتَصّ ، فمن سألتَهُ اليومَ أن يعطيك ، سألنى غدًا أن أعطىَ غيرَكَ ، فتعجيلى تلك العطيّة لك أروح لى . ليسَ عندِى دراهم ، ولو كانَ عندى دراهم لـكانت نوائبى القائمةُ الساعةَ تستغرقُها . ولـكنّى أؤنّب لـكم من شِئتم . علىّ لـكمُ من التأنيب كلُّ ماتر يدون » . قلت له : « فإذا أنّبتَ * رجُلاً فى أمر لم تتقدم فيه بمسألة ، كَيفَ يكونُ جوابُه لك ؟ » . فضحك حتّى استنَد إلى الحائِط .

وجاء مرّة أبو همّام السَّنوط * ، يكلِّمه فى مرمّة داره التى تطوّع ببنائها فى رِباط عبَّادان ، فقال : « ذكَّرتنى الطعنَ وكنتُ ناسِياً . قد كنتُ عزمتُ على هَدمها حين

---

(١) رجل (فان فلوتن)— < قال أحدهما لى إليك حاجة > : ليست بالأصل ، قال [أحدهما] (فان فلوتن) — (٣) < قال قد فعلت > (عيون الأخبار) : ساقطة فى الأصل، قال نعم (فان فلوتن) — (٥) تحرج ك — (٨) آخر ك — (١١) كذا فى الأصل : فلوت الناس ، ويقترح دى جويه وضعها بعد كلمة « تنقص » . (١٤) أنيت ك ، اتيت (فان فلوتن) — (١٦) المسوط ك .

(١ — ٧) « وشهدت . . . ماأخذت » عيون الأخبار ٣ :١٣٧ — (١٧) « ذكرتنى. . .ناسياً » عيون الأخبار ١٨ : ١٧٥ ، الفاخر ص ١١٤ ، الأمالى ١ : ١٩٢ ، تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٨ (على لسان الحجاج) ، محاضرات الراغب ١ : ١٧ ط الشرفية .

بَلغنى أنّ الجبريّة قد نزلتها » ، قال : « سبحانَ الله تهدم مكرُمة وداراً قد وقفتَها للسبيل ؟ » ، قال : « فتعجَبُ من ذا ؟ قد أردتُ أن أهدمَ المسجدَ الذى كنتُ بنيتُه ليزيدَ بن هاشم حين تركَ أن يبنِيَه فى الشارع ، و بناه فى الرائغ * ، وحينَ بلَغنى أنّه يخلِط فى الـكلام ، و يعين الشَمرية * * على المعتزِلة . * فلو أراده أبو همّام وجَد من * ثمامة مر بدا جميعَ مِساحة الأرض * ». وكان حين يستوى له * اللفظ لا ينظر فى صلاح المعانى من فسادها.

وتمشّى رجُل إلى الغاضِرى * * < قال > * : « إن صديقَك القادِمى * قد قُطِـع عليه الطَريق » ، قال : « فأىّ شىء تريد ؟ » ، قال : « أن تُخلِف عَلَيه » ، قال : « فليس عليه قُطِـع الطريقُ ، بل علىّ قُطِـع » .

وأتى ابنَ اشـكاب * الصَيْرفىّ صديقٌ له ، يستلف منه مالا . فقال : « لو شئتُ أن أقولَ لقلتُ ، وأن أعتلّ اعتَللْتُ ، وأن أستعيرَ بعضَ كلام من يستلف منه إخوانه فعلتُ . وليس أرى شيئاً خيراً من التَصحيح * وقشْرِ العصا . ليس أفعل . فإن التمست لى عُذراً فهو أرْوَح لقلبك ، و إن لم تفعل فهو شرٌّ لك » .

وضاق القَيْضُ بن يَزيد ضيقاً شديدًا ، فقال : « والله ما عندَنا من شىء نعوِّل عليه ، وقد بلغ السكينُ العظم . والبيعُ لا يكون إلاّ مع طول المدّة . والرأىُ أن نُنزِل هذه النائبةَ بمحمّد بن عبّاد * * ، فإنه يعرِف الحال وصحّة المعاملة وحسنَ القضاء وما لنا من السَبَب المنتظَر . فلو كتبتُ إليه كتاباً لسرّهُ ذلك ولسدَّ منا هذه الخلة القائمةَ الساعة » .

فتناوَل القلمَ والقِرطاس ، ليـكتبَ إليه كتابَ الواثِق المُدِلّ ، لا يشكّ أنّه سيتلقّى حاجتَه بمِثل ما كان هو المتلقِّى لها منه . ومضَى بعضُ من كان فى المجلس إلى محمّد

(٣) الرائغ ؟ (فان فلوتن) : الرابغ ك – (٤ – ٥) « فلو . . . الأرض » كذا فى الأصل ، وجد من (فان فلوتن) : وحدم ك ، فلو أراده أبو همام وجد من ثمامة مزيداً جميع مساحة الأرض (دى جويه) – (٥) له : الك ك – (٦) < قال > : ساقطة فى الأصل – العادمى ك – (٩) بل سكاب ك ، ابن سكاب (فان فلوتن) – (١١) كذا ، ولعلها : التصريح .

ابن عبّاد ليبشّره بسُرعة ورود حاجة الفيض إليه . فأتاه أمر لا يقوم < له إلا بأن يتقدم با > * لـكتابة ، ليشغله بحاجته إليه عن حاجته إليه ، فـكتب إليه :

« مالى يضعف ، والدّخل قليل ، والعِيال كثير ، والسِعر غال ، وأرزاقُنا من الدِيوان قد احتُبِسَت ، وقد تفتّحت علينا من أبواب النوَائب فى هذه الأيام ما لم يكن لنا فى حساب . فإن رأيتَ أن تبعَثَ إلىَّ بما أمكنكَ فعجِّل به ، فإن بنا إليه أعظمَ الحاجة » .

فورد الـكتابُ على الفَيض قبلَ نفوذ كِتابه إليه ، فلمّا قرأه استرْجَع وكتبَ إليه : « يا أخى تضاعَفَت على المصِيبة ، حتّى جُمِعت خَلّة عيالِك إلى خلّة عِيالى . وقد كنتُ على الاحتِيال لهم ، وسأضْطرب فى وجوه الحِيل * غيرَ هذا الاضطراب ، وسأتحرّك فى بَيْع ماعِندى ، ولو ببَعض الطرح » .

فلما رجَع الـكِتاب إلى ابن عبّاد سكَن ، وألقى صاحبَه فى أشدّ الحركة وأتعب التعب

وكان رجل من أبناء الحربيّة له سَخاء وأريحية ، وكان يُـكثِر من استزارة ابن عبّاد ، ويتْلِف عليه من الأموال ، من طريق الرَغبة فى الأدباء وفى مَشايخ الظُرَفاء . وكان يظنُّ — بكرَمه — أن زيارَته ابنَ عبّاد فى منزِله زيادةٌ فى المؤانسة . وقد كان بلغَه إمساكُه ، ولـكنّه لم يظنَّ أنه لا حيلةَ فى سَبَبه .

فأتاه يوماً متطرِّئاً ، وقال : « جئتك من غير دُعاء ، وقد رضيتُ بما حَضَر » ، قال : « فليسَ يحضُر شىء . وقولك: "بما حضر" لا بدّ من أن يقع على شىء » . قال : « فقطعة مالح » ، قال : « وقطعةُ مالح ليس هى شىء؟ » ، قال : « بلى » ، < ثم > قال : « فنحن نشربُ على الريق » ، قال : « لو كان عندَنا نبيذ كنّا فى عُرس » ، قال : « فأنا أبعثُ إلى نبيذ » ، قال : « فإذا صرتَ إلى تحويل النبيذ ، فحوِّل أيضاً ما يصلح للنبيذ. » ، قال: « ليسَ يمنعنى من ذلك ، ومن إحضَار النقَل والرَيْحان إلا لأنى * أحتسب لك هذه الزَوْرة بدَعوة ، وليس يجوزُ ذلك إلا بأن يكونَ لك فيها أثر » . قال محمد : « فقد انفتَح لى

(١ — ٢) زيادة مفترضة لتقويم السياق — (٨) الجبل (فان فلوتن) — (١٧) قال فنحن ك ، فنحن (فان فلوتن) — (٢٠) لأن ك ، أن (فان فلوتن) .

بابٌ لكم فيه صَلاح ، وليسَ عليَّ فيه فساد . فى هذه النَّخلة زَوْج وِرشان** ، ولهما فَرْخان مُدرِكان . فإن* نحن وجدنا إنساناً يصعَدُها — فإنها سحيقة منجَردة — ولم يطيرا — فإنهما قد صارا ناهِضين — جعلنا الواحدَ طُباهِجة ، والآخر كردناجا ، فإنه يومُ كردناج** » .

فطلبوا فى الجيران إنساناً يصعَد تلك النخلة ، فلم يقدِروا عليه ؛ فدلّوهم على أكّار لبعض أهل الحربيّة . فما زَال الرسول يطلُبه ، حتّى وقع عليه . فلما جاء به* ونظر إلى النخلة ، قال : « هذه لا تصعد ولا يُرتَقَى عليها إلا بالتَبِليا والبَرْبند** ، فكيفَ أرومها أنا بلا سَبَب ؟ » ، فسألوه أن يلتَمِس لهم ذلك ، فذَهَب فغَبَر مليًّا ، ثم أتاهم به . فلمّا صار فى أعلاها طارَ أحدُهما وأنزل الآخر فكان هو الطُباهِج والكَرْدناج ، وهو الغدَاء وهو العَشاء .

وكتب إبراهيمُ بن سيّابة** إلى صديق له ، يُساويه فى الأدب ، ويرتَفِع عليه فى الحال — وكان كثير المال ، كثير الصامت — يستسلف منه بعضَ ما يرتفِق به ، إلى أن يأتيه بعضُ ما يؤمِّل . فكتبَ إليه صديقُه هذا يعتذِر ، ويقول : « إن المالَ مكذوبٌ له وعليه ، والناسُ يضيفون إلى الناس فى هذا الباب ما ليسَ عندهم . وأنا اليومَ مُضيق . وليسَت الحالُ كما تحبّ . وأحقٌّ من عَذَر الصديقُ العاقِل » ، فلما ورَد كتابُه على ابن سيَّابة < كتَب إليه > * : « إن كنتَ كاذِباً فجعلَك الله صادِقاً ، وإن كنتَ ملُوماً فجعَلك الله معذُوراً » .

---

(٢) وإن (فان فلوتن) — (٦) [به] (فان فلوتن) — (١٥) < كتب إليه > : ساقطة فى الأصل

(١٠ — ١٦) « وكتب . . . معذوراً » البيان والتبين ١ : ٣٠٨ ط ١٩٣٢ م ، المحاسن والمساوى ص ٢٧٩ ، المحاسن والأضداد ٦٠ ، الأغانى ١١ : ٦ .

أطراف من علم العرب فى الطعام

قال عمرو الجاحظ : احتجنا عند التطويل ، وحينَ صار الـكِتاب طويلا كبيراً ، إلى أن يكونَ قد دخلَ فيه من عِلم العرَب وطعامهم ، وما يتمادَحُون به وما يتهاجَون به شىء ، وإن قلّ ، ليكونَ الـكِتاب قد انتظَم جُمَل هذا الباب . ولولا أن يخرُجَ من مقدار شَهْوة الناس ، لـكان الخبرُ عن العرب والأعراب أكثر من جَميع هذا الـكِتاب .

الطعام ضُروب . والدَعوةاسمٌ جامع ، وكذلك الزلّة . ثم منه العُرس والُخرس والإعذار والوكِيرة والنقيعة . والمأدُبة اسمٌ لـكلّ طعام دُعِيت إليه الجماعات . قال الشاعر :

نحنُ فى المَشْتاة نَدْعو اَلجفلَى   لا ترَى الآدِب فينا يَنْتَقِر

وجاء فى الحديث : « القرآن مأدُبة الله » . وقد زعم ناسٌ أن العُرس هو الوَليمة لقَوْل النبىّ صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : « أولِم ولو بشاة » ، وكان ابنُ عَوْن** والأصمَعىُّ من بعدِه يذمّان عمرو بن عُبَيد** ، ويقولان : لا يجيبُ الولائِم . يجعلان طعامَ الإملاك والإعراس والسُبوع والِختان وليمة . والعُرس مَعروف ، إلا أن المفضّل الضبىّ زعم أن هذا الاسمَ مأخوذٌ من قَولهم : « لا عِطرَ بعدَ عَروس* » . وكان الأصمعى يجعل العروس رجلا بعينِه ، كان بَنَى على أهله فلم يتعطّر له ، فسمِّى بعدُ لذلك كلُّ بان على أهله بذلك الاسم . ومثلُ هذا لا يثبُت إلّا بأن يستَفِيض فى الشِعر ، ويظهرَ فى الخبر

وأما الُخرْس فالطعام الذى يتَّخذ صبيحة الوِلادة للرجال والنساء . وزعموا أن أصل ذلك مأخوذ من الُخرسة ، والُخرسة طعام النفَساء . قالت جارية وَلَدت حينَ لم يكنْ لها من يخدُمها ويمارس لها ما يمارس للنفساء : « تَخَرّسى لا مُخرِّسة لك » . وفى الخرسة يقول مُسَاور الوراق** :

(٨) « نحن . . . ينتقر » الكامل للمبرد ٣ : ٢٣ ، العقد الفريد ٤ : ٢٩٣ ط الأزهرية ١٩١٣م (لطرفه) — (١٣) « لا عطر بعد عروس » الفاخر ص ١٧٢ ، مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٦٢ .

(١٧ — ١٨) « قالت . . . . لك » المخصص ٤ : ١٢٠ ، نوادر أبى زيد ص ١٨٨ .

إذا أسديَّة ولدت غلاماً فبشِّرها بلؤم فى الغــلام
تخرِّسُها نساء بنى دُبَيْر بأخبثِ مايجِدْنَ من الطعام

وقال ابنُ القميئة** :

شرُّكم حاضِر وخيرُكم د رّ خَروس من الأرانب بِكر

فالخروس هى صاحبة الخُرسة .

والإعذار طعام الختان ، يقال : صبى مَعذُور وصبىّ مُعذَر جميعاً . وقال بعضُ أصحاب النبىِّ صلى الله عليه وسلم، وهو يُريد تقارُبَهم فى الأسنان : « كنا إعذارَ عام واحدٍ » . وقال النابغة :

فنكِحن أبــكاراً وهنّ بإمّة أعجلنهنّ مَظِنَّةَ الإعذار

فزعموا أنّهم سَمَّوا طعام الإعذار بالإعذار للملابسة والمجاوَرة .

كان الأصمَعىّ** يقول : قد كان للعرَب كلامٌ على مَعَان ، فإذا ابتدلت تلكَ المعانى لم* يتكلَّم بذلك الــكلام . فمن ذلك قولُ الناس اليومَ : ساقَ إليها صَدَاقها . و إنما كان هذا يُقال حينَ كان الصداقُ إبلا وغَنَمَا . وفى قياس قول الأصمَعى أن أصحاب التَمر ، الذين كانَ التمر دياتِهم ومهورَهم ، كانوا لا يقولون ساق فلانٌ صداقَه . قال : ومن ذلك قولُ الناس اليومَ : قد بنَى فلان البارحةَ على أهله . و إنّما كان هَذا القولُ لمن كانَ يضرِبُ على أهله فى تلك الليلةِ قبَّته وخَيْمته ، وذلك هو بِناؤه . ولذلك قال الأول :

لو نَزَل الغيثُ لأبنينَ* امرءاً كانتْ له قبَّة سَحْقُ بجاد

(١٢) لم < تزل > (مرسيه) – (١٧) ابنين (فان فلوتن) .

(٤) « شركم . . . بكر» الحيوان ٥ : ٧٤ ط الحلبى ، لسان العرب ٧ : ٣٦٤ – (٧) «كنا . .. واحد» النهايةلابن الأثير ٣ : ٨٤ (منسوباً لسعد بن أبى وقاص) – (٩) « فنكحن . . . الإعذار » الديوان ص ٤٥ ط بيروت – (١٧) « لونزل . . . بجاد » التنبيه لأبى عبيد ص ١٩ .

وكان الأصمعيُّ يعدّ من هذا أشياء ليس لذكرها ها هُنا وَجه

ومن طعامهم الوَكيرة ، وهو طعام البناء . كان الرجلُ يطعِم مَن يبني له ، وإذا فرغَ من بِنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودُعائهم . ولذلك قال قائلُهم :

خير طعـــام شَهِد العشيرة   العُرس والإعذار والوَكيرة

ويسمُّون ما ينحَرون من الإبل واُلجزُر من عُرض المغنَم النقيعة . قال الشاعر :

إنا لنضرِبُ بالسيوف رُؤوسهم   ضرب القُدار نَقيعة القُدّام

والعقيقة دَعوة على لحم الـكَبْش * الذى يُعَقّ عن الصبيّ . والعقيقةُ اسم للشَعر نفسِه ، والأشعارُ هى العَقائق. وقولهم : عقّوا عَنه أى احلِقوا عَقيقته . ويقولون : عقّ عنه ، وعقّ عليه . فسمّى الكبشُ لقُرب الجِوار وسبَبِ الملتبس عَقيقة . ثمّ سمّوا ذلك الطعام باسمِ الـكَبش .

وكان الأصمعيُّ يقول : لايقولنّ أحدُكم : أكلتُ مَلّة . بل يقولُ : أكلت خُبزة ، وإنما الملّة موضِـعُ الخبزة . وكذلك يقول فى الراوية والمزادة * . يقول: الراوِية هو الجمل ، وزعموا أنّهم اشتقوا الراوية للشِعر * من ذلك.

فأمّا الدعاء إلى هذه الأصناف فمنه المذموم ، ومنه المدوح . فالمذمُوم النَقَرى ، والممدوح الجفَلى . وذلك أنّ صاحبَ المأدُبة وولِيّ الدعوة إذا جاء رسولُه ، والقومُ فى أحوِيَتهم * وأنديتهم ، فقال : أجيبوا إلى طعام فلان ، فَجَعلهم جَفْلةً واحدة ، وهى الُجفالة ، فذلك هو المحمود . وإذا انتَقَر فقال : قُم أنتَ يا فلان ، وقُم أنت يا فلان ، فدَعا بعضاً وترك بَعضاً فقد انتَقَر . قال الهذَلى :

وليلةٍ يصْطَلى بالفَرث جازِرُها   يخصُّ بالنَقَرى المثرين دَاعِيها

---

(٧) كبش ك   (١٢) الزادة (فان فلوتن) – (١٣) الشمر ك – (١٥) اخويتهم (فان فلوتن)

---

(٦) « إنا . . القدام » الفاخر للمفضل ط الجوائب ، المخصص ٤ : ١٢٠ ، تهذيب الألفاظ ص ٦٢٥ (لمهلهل بن ربيعة) ، أمالى السيد المرتضى ٢ : ٢٨ ط السعادة ، القاهرة سنة ١٩٠٧ م – (١٩) « وليلة . . داعيها » الحيوان ٢ : ٧٢ ط الحلبى ، تهذيب الألفاظ ص ٦١٤ .

يقول : لا يدعُو فيها إلا أصحابَ الثروة وأهل المـكافأة ، وهذا قبيح . وقال فى ذلك بعضُ ظرفائنا :

آثَرَ بالجدى وبالمائدة   من كان يرجُو عندَه العائده
لو كانَ مكوكان فى كفِّه   من خردل ماسقَطت واحِده

وقال طَرَفَة بن العبد :

نحن فى المَشْتاة ندعو الجفلى   لا ترَى الآدِب فينا ينْتقِر

ولما غزا ** بسطامُ بن قَيْس الشَّيبانى مالِكَ بنَ المُنتَفِق الضبى ، وأثبتَه عاصم بن خليفة الضبىّ ** ، شدَّ عليه فطعنَه وهو يقول :

هذا وفى الحفلة لا يدعونى

ويروى : فى الجَفلة * لا يدعونى . كأنَّه حَقِد عليه حين كان يدعوأهلَ المجلِس ويدَعَه والطعامالمذموم عندَهم ضربان ؛ أحدُهما طعامُ المجاوِع والحطمات والضَّرائِك والسَّبار يت واللِئام والُجبناء والفقراء والضعفاء * . من ذلك الفثّ * والدُعاع والهبيد والقُرامة والقرّة والعُسُوم * ومُنقَع البَرَم والقَصِيد * والقِدّ والحيّات . فأما الفظّ فإنَّه وإن كان شَراباً كَريهاً فليسَ يدخلُ فى هذا الباب ، وكذلك المجدُوح . فأما الفظّ فإنّه عُصارة الفَرْث إذا أصابَهم العطَش فى المفاوِز ، وأما المجدُوح فإنهم إذا بلَغ العطَشُ منهم المجهود نَحروا الإبل وتلقوا ألبابَها * بالجفان كَيلا يضيع من دمائها شىء * . فإذا برَد الدم ضَربوه بأيديهم ، وجَدَحوه بالعيدان جَدْحاً حتَّى ينقطِـع ، فيعتزل ماؤه من ثفله * ، كما يخلُص الزبد بالمخض * والجُبن بالأنفحة * ، فيتصافنون ذلك الماء ويتبلّغون به ، حتى يخرجوا من المفازة . وقال الشاعر :

لم تأكل * الفثّ والدُّعاعَ ولم   تَجنِ هبيدا يجنيه مُهتبِده *

---

(١٠) الحقلة ك — (١٢) والضعفاء (فان فلوتن) — الفث ك — (١٣) العشوم ك — والمقصيد ك — (١٦) الباها (مرسيه) : البانها ك — شا ك — (١٧) ثفله (مرسيه) : ثقلة ك — (١٧) المخيض (فان فلوتن) — (١٨) الأنفجة (فان فلوتن) — (١٩) يأكل (فان فلوتن) — بحر هبيد محسه مهنيد ك

---

(١٩) « لم . . . مهتبده » الحيوان ٥ : ٤٤٣ (للطرماح) ، وانظر اللسان ٢ : ٤٨١ .

وقال أميَّة ابنُ أبى الصَّلت * * :

ولا يتنازَعون عِنان شِرك* ولا أقوات أهلِهم العُسُوم
ولا قَردَ* يقزز من طعـــام ولا نَصب ولا مَولًى عَديم

وقال مُعاوية بنُ أبى ر بيعة* الجَرمى، فى القرّة ، وهو يعيِّر بنى أسد وناساً من هوازِن، وهما ابنا القملية :

ألم تر جَرماً أنجدَت وأبوكم مع القَمل فى حَفر الأقيصر شارع
إذا . قُرّة جاءت يقول أصِب بهـا سوى القمل ، إنى من هَوازِنَ ضَارع

والقُرامة نُحاتة القرون والأظلاف والمناسِم و برادتها . والعَلهز القِردان ترضُّ وتعجَن بالدّم ، والقرّة الدقيق * المختلِطُ بالشَعر . كان الرجلُ منهم لا يحلق رأسَه إلا على رأسه قبضة * من دقيق ، ليكونَ صدَقة على الضرائِك ، وطُهوراً له . فمن أخذ ذلك الدقيقَ للأ كل فهو مَعيب .

وفى أ كل الحيّات يقول ابنُ مُناذِر * * :

فأياكم والريفَ لا تقربُنَّـه فإن لدَيه الحتفَ والموتَ قاضيا
وهم طرَدوكم من بِلاد أبيكم وأنتم حلول تشتَوُون الأفاعيا

وقال القطامى * * فى أ كلهم القِدّ :

تعمَّمت فى طَـلٍّ وريح تلفّنى وفى طِرْمِساء غيرِ ذات كوا كب
إلى حَيزَبون توقدُ النار بعد ما تلفَّعت الظلماء من كل جانِب

(٢) عناق شول ك — (٣) قرن ك — (٤) أبى ربيعة ك — أبى معاوية (فان فلوتن) ؛ عبد العزى (ياقوت) — (٩) والدقيق ك — (١٠) قيصة ك ، قبضه (فان فلوتن) .

(٢) «ولا يتنازعون . . . العسوم» مبادئ اللغة للاسكافى ص ٦٥ ط السعادة ، القاهرة ، اللسان ١٥ : ٢٩٥ — (٦ — ٧) «ألم تر . . . ضارع» الأصنام لابن الكلبى ص ٤٨ — ٤٩ مع قصة الأبيات ، الحيوان ٥ : ٣٧٨ ، معجم البلدان ١ : ٣١٥ مطبعة السعادة بالقاهرة .

فسلمت ، والتسليمُ ليسَ يسرّها   ولـكنّه حقّ على كلّ جانب
فلما تنازَعنـا الحديثَ سألتُها :   من الحيُّ ؟ قالت : معشرٌ من محاربِ
من المشتَوين القِدّ فى كل شَتوة   وإن كان ريفُ الناسِ ليسَ بناضب

وقال الراعى :

بكى معوزٌ من أن يضاف وطارق   يشدّ من الجوع الإزار على الحَشا
إلى ضَوء نار يشتَوى القدَّ أهلهـا   وقد يُـكرم الأضياف والقدّ يشتوى

وقد يُضيقون فى شراب غير المجدُوح والفظّ فى * المغازى والأسفار ، فيمدَحون من آثر صاحبَه ، ولا يذمُّون من أخذ حقّه منه . وهو ماء المصافَنة ، والمصافنة مقاسَمة هذا الماء بعينه . وذلك أن الماء إذا نقَص عن الرىّ اقتَسَموه بالسوَاء ، ولم يكن للرئيس ولصاحِب المِرباع والصّفىّ وفضول * المقاسم فضلٌ على أخسِّ القوم . وهذا خُلُق عامّ ومكرمة عامّة فى الرؤساء . قال الفرزدق :

فلمّا تصافنَّا الإداوة أجهشَت   إلىّ غُضون العنبرىِّ الجُراضِم
على ساعةٍ لو أنّ فى القوم حاتِماً   على جُوده ضنَّت به نفسُ حاتم

وبذلك المذهب من الأثرة مدَح الشاعر كعبَ بنَ مامة ، حين آثر بنصيبه رفيقَه النّمرى ، فقال :

ما كان من سُوقة أسقى على ظمأ   خمراً بماء إذا ناجُودها برَدا
مِن ابنِ مامَة كعبٍ ثمّ عىّ به   زوّ المنية * إلّا حرة وقـدا
أوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له   رِدْ كعبُ ، إنك ورّاد . فما ورَدا

---

(٥) معوز (الحماسة) : منذر ك - (٧) من ك - (١٠) [و] فضول ك - (١٧) عز به روايمنية ك .

(٢١٧ : ١٦ - ٢١٨ : ٣) « تعممت . . . بناضب » ديوان القطامى ٥١ - ٥٢ ط ليدن ١٩٠٢ ، العقد الفريد ٦ : ١٨٨ - ١٨٩ ط لجنة التأليف - (٥ - ٦) « بكى . . . يشتوى » حماسه أبى تمام ٢ : ٢١٠ ، طبقات ابن سلام ص ١٧٨ ط السعادة ، مصر - (١٢ - ١٣) « فلما . . . حاتم » ديوان الفرزدق ص ٨٤١ ، ٨٤٢ ط الصاوى - (١٦ - ١٨) « ما كان . . . وردا » مجمع الأمثال للميدانى ١ : ١٩٢ : الأمالى ٢ : ٢٢١ ، اللآلى ص ٨٤٠ ، الكامل للمبرد ١ : ١٦١ .

وفى المصافَنة يقول الأسدى :

كأن أطَيطًا يابنة القوم لم يُنِخ قلائصَ يحكيها الحَنىُّ المنقّح
ولم يسق قوماً مَا دُمِيٍّ* على الحصا صُبابَ الأداوَى والمطيّات جُنَّح

ويزعمون أنّ الحصاة التى إذا غمَرها الماء فى الإناء كانت نصيب أحدهم تُسمَّى المَقلة . وهذا الحرفُ سمعتُه من البَغداديين ، ولم أسمعه من أصحابِنا ، وقد برئتُ إليك منه .

وقال ابنُ جَحْوش فى المصافَنة :

ولمّا تعاوَرنا الإداوة أجهَشت إلى الماء نفسُ العنبرىِّ الجراضم
وآثرته لمّا رأيتُ الذى به على النفس أخشى لاحقاتِ الملاوِم*
فجاء بجُلمود له مثلُ رأسِــــه ليشربَ حظَّ القوم بين الصرائم

وقد يصيبُ القوم فى بادِيتهم ومواضِعهم من الجَهد ما لم يُسمع به فى أمة من الأمم ، ولا فى ناحية من النواحى . وإن أحدَهم ليجوعُ حتّى يشدَّ على بطنِه الحجارة ، وحتى يعتَصم بشِدَّة معاقِد الإزار ، وينزعَ عِمامته من رَأسه فيشدَّ بها بطنَه . وإنما عمامتُه تاجُه ، والأعرابىُّ يجد فى رأسه من البرد — إذا كان حاسِراً — مالا يجدُه أحد ، لطول ملازمته العمامة ، ولكثرة طيِّها وتضاعُف أثنائها . ولربَّما اعتمّ بعمامتين ، ولربَّما كانت على قلنسوة خدرية* . وقال مُصعَب بن عُمير الليثى :

سيروا فقد جنّ الظلامُ عليكم فبئسَ امرؤٌ يرجو القِرى عند عاصِم
دَفَعنا إليه وهو كالذيخ حاظياً* نشدّ على أكبادِنا بالعمائم

---

(٣) مادمى (؟) : فارسى ك — (٨) لاعقات اللاوم ك — (١٥) خدرية (فان فلوتن) : جدرية ك — (١٧) حاطبا ك — خاطياً (فان فلوتن) .

(٧ — ٩) « ولما . . . الصرائم » الكامل للمبرد ١ : ١٦٢ ، اللآلى ص ٨٤١ ، ديوان الفرزدق ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .

وقال الراعي ** في ذلك :

يشبّ لركبٍ منهم من ورائهم فكلّهم أمسى إلى ضوئها سرى
إلى ضوء نار يشتوى القِدَّ أهلُها وقد يُكرَم الأضياف والقدّ يشتوى
فلمّا أناخوا واشتكَيْنا إليهم بكَوا وكلا الخَصْمين* ممّا به بكى
بكى معوز* من أن يضافَ وطارقٌ يشدّ من الجوع الإزارَ على الحشا

ومما يدلّ على ماهم فيه من الجَهد ، وعلى امتداحهم بالأثرة ، قول الغَنَوى :

لقد علمتْ قيسُ بنُ عَيلان أننا نُضار ، وأنا حيثُ ركِّبَ عودُها
إذا الماء بعدَ اليوم يمذَق < بعضُه > * ببعض ، ويبلى شحُّ نفس وجُودها
وأنا مقبارٌ حين يبتكَر الغضا إذا الأرض أمسَت وهى جدب جنودها

وقال في ذلك العجير السلولى ** :

من المهدِيات الماء بالماء بعد ما رمى بالمقادى* كلّ قاد* ومُعْتَمِ

وقال آخرُ في مثل هذا :

لنا إبلٌ يروينَ يوما عِيالَنا ثلاثٌ فإن يكثَرنُ يوماً فأربعُ
نمدّهم بالماء لا من هَوانهم ولكن إذا ما قلَّ شيء يوسعُ*
على أنّها تغشى أولئك بيتَها على اللحم حتى يذهبَ الشرّ* أجمع

وقال أبو سَعيد الخُدرى ** : « أخذتُ حجرًا فعصَبتُه على بطنى من الجوع وأتيتُ

---

(٤) الحيين (الحماسة) – (٥) معوز (الحماسة) : منذر ك – (٨) < ببعضه > : ساقطة فى الأصل – (١١) بالمقارى ك – قار (فان فلوتن) ، نار ك – (١٤) يوسع (الحيوان) : ويمنع ك – (١٥) الشر (فان فلوتن) : الشرّ ك .

(٣ – ٥) « إلى ضوء . . . الحشا » ديوان الحماسة ٢ : ٢١٠ وانظر طبقات ابن سلام ص ١٢٠ ط ليدن ١٩١٣ – (١١) « من . . . ومعتم » الحيوان ٥ : ٥٩٧ ، ط الحلبى – (١٣ – ١٤) « لنا . . . يوسع » الحيوان ٥ : ٥٩٧ ، ط الحلبى .

النبي صلّى الله عليه وسلم اسأله . فلمّا سمعتُه وهو يخطب : من يستعفّ يعفّه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، رجعتُ ولم أسأله » .

قال أعرابيٌّ : « جعتُ حتى سمعتُ في * مسامعي دويًّا . فخرجتُ أريغ الصيد ، فإذا بمغارة ، وإذا هو جروُ ذئب . فذبحتُه وأكلتُه ، وادّهنتُ واحتذيت » .

ولما قدِم المغيرةُ ** القادسيّةَ على سَعد * بسبعينَ من الظَهر — وعندَ سعد ضيقٌ شديد من الحال — نحروها ، وأكلوا لحومَها ، وادّهنوا بشُحومها ، واحتذَوا جلودَها .

وذكر الأصمعيُّ عن عثمانَ الشحّام ** ، عن أبي رَجاء العطارديّ ، قال : « لما بلغَنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذَ في القتل هربنا فاشتوينا فَخِذ أرنب دفيناً وألقينا عليها جُمالتنا . فلا أنسى تلك الأكلة » . وكان الأصمعيُّ إذا حدث بهذا الحديث قال : « نعمَ الأدامُ الجُوع . ونعمَ شِعارُ المسلمين التخفيف » .

وذكروا عن عَبد الملك بن عُمير ** ، عن رَجُلٍ من بنى عُذرة ، قال : خرجتُ زائراً لأخوالٍ لى بهجَر ، فإذاهم فى بَرْث أحمر ، بأقصى حَجْر * ، فى طلوع القمر . فذكروا أن أتاناً تعتاد نخلة ، فترفع يدَيها ، وتعطو بفيها ، وتأخُذ الحُلقان والمُنْسبِتة والمنصِّفةوالمَعْوة . فتنكّبتُ قَوسي ، وتقلدتُ جَفيري * . فإذا هى قد أقبلت ، فرميتها فخرّت لفيها . فأدركتُ * فقوّرت سرّتَها ومَعرفتَها ، فقدحتُ ناري ، وجمعتُ حطَبي ، ثم دفنتُها . ثم أدركني ما يدركُ الشبابَ من النوم ، فما استيقظتُ إلاّ بحرِّ الشمس فى ظهرى . ثم كشفتُ عنها ، فإذا لها غَطيط من الوَدَك ، كتداعى طيء وغَطيف وغَطَفان . ثم قمت إلى الرُطب — وقد ضرّبه بردُ السَحَر * — فجنيتُ المَعْوة والحُلقان فجعلتُ أضع الشَحمة بين

(٣) من (فان فلوتن) — (١٢) هجر (فان فلوتن) — (١٤) حفيرى ك — (١٥) كذا ك ، ولعلها : فأدركت ذكاتها — (١٨) الشجر ك .

(١ — ٢) « من . . . يغنه الله » البخارى بشرح الكرمانى ٢٢ : ٢٢٨ ، الترغيب والترهيب ١ : ٢٥٣.

الرُطَبتين ، والرطبةَ بين الشَحْمتين ، فأظنّ الشحمةَ سَمْنة ، ثم سلاءة * . وأحسَبها من حَلاوتها شُهدة أحدرها من الطَود * .

وأنا أتّهم هذا الحديثَ لأن فيه مالا يجوز أن يتكلّم به عَربى يعرف مذاهِب العرَب . وهو من أحاديث الهَيْثم **

وقال مدينى لأعرابى : « أىّ شىء تَدَعون ، وأىّ شىء تأكلون ؟ » قال : نأكلُ ما دبَّ ودَرَج إلا أمّ حُبَين » ، فقال المدينى : « لتهنِ أمَّ حُبين العافيةُ » .

وقال الأصمعىّ : تعرّق أعرابىّ عظما ، فلما أراد أن يلقيه ، وله بنونَ ثلاثه ، قال له أحدُهم : « أعطنيه » ، قال ، « وما تصنعُ به ؟ » ، قال : « أتعرّقه ، حتّى لا تجدَ فيه ذرّة مَقيلا » ، قال : « ما قلتَ شيئاً » ، قال الثانى : « أعطنيه » ، قال : « وما تصنعُ به ؟ » ، قال : « أتعرّقه ، حتى لا يُدرَى ألِعامه ذلك هو أم للعام الذى قبله » ، قال . « ما قلتَ شيئاً » ، قال الثالث : « أعطنيه » ، قال : « وما تصنع به ؟ » ، قال : « أجعله مُخّهُ إدامه * » ، قال : « أنت له » .

وقال الآخر :

فإنّك لم تشبِه لقيطاً وفعلَه … وإن كنتَ أطعمت الأرزّ مع التمر

وقال الآخر :

إذا انقاصَ * منها بعضُها * لم تجد لها … رءوبا * لمــا قد كان منها مُدانيا
وإن حَاولوا أن يَشْعَبوها * رأيتَها … على الشعب * لا تزدادُ إلا تداعِيا

---

(١) سلاءه (فان فلوتن) : سلاءنى ك — (٢) كذا فى ك : الطور (فان فلوتن) — (١٢) ادام (فان فلوتن) — (١٦) انماض ك ، انقاض (فان فلوتن) — بعدها ك — رويا ك ، دويا (فان فلوتن) — (١٧) يشبعوها ك — الشبع (فان فلوتن) .

(٢٢١ : ١١ — ٢٢٢ : ٢) « وذكروا . . . الطود » انظر الأغانى ٨ : ٤٠ — ٤١ ط دار الكتب المصرية (٥ — ٦) « وقال مدينى . . . العافية » عيون الأخبار ٣ : ٢٠٩ — (٧ — ١٢) « تعرق . . . . أنت له » عيون الأخبار ٣ : ٢١٣ .

معوّذة* الأرحال ، لم ترق* مرقبا ، ولم تمتطِ الجُون الثلاثَ الأثافيا
ولا اجْتزعت* من نحو مكّة شقّة إلينا ، ولا جازَت بها العيسُ واديا
ولـكنّها فى أصلِهـــا مَوصِليّة مجاوِرَة فيضا* من البحر جاريا*
أتتنا تزجّيها المجاذيف نحوَنا ، وتعقبُ فيما بين ذَاكَ المرادِيا
فقلتُ : لمن هذى القدُور التى أرى تَهيلُ* عليها الريحُ تربا وسافيا ؟
فقالوا : وهـل يخفى على كلّ ناظر قدُور رَقاش إن تأمل رائيـا ؟
فقلتُ : متى باللّحم عهدُ قدورِكم ؟ فقـالوا : إذا ما لم يكنّ عَواريا
الاضحَى إلى الأضحى ، وإلا فإنها تكونُ كنسَج العنكبُوت كما هيا
فلما استَبان الجَهدُ لى فى وجُوههم وشكواهُمُ أدخلتهم فى عياليـــا
فـكنتُ إذا ما استشرَفونى مقبِلا أشاروا جميعاً لجـــة وتداعيا

وممّا قالوا فى صِفة قُدورهم وجفانهم وطَعامهم ما* أنا كاتبهُ لك . وهم وإن كانوا فى بلاد جَدب ، فإنهم أحسنُ الناس حالا فى الخصب . فلا تظنّن أنّ كلّ ما يصفون به قدورَهم وجِفانهم وثَريدهم وحَيْسهم باطل .

وحدّثنى الأصمعى ، قال : سألتُ المنتجِــع** بنَ نبهان عن خصب البادية ، فقال : « ربما رأيت الـكَلب يتخطى الخلاصَة ، وهى له معرِضة ، شِبَعاً » .

وقال الأفوَه الأودىّ** :

تَهنا* لثعلبةَ بنِ قيس جَفنة يأوى إليها فى الشّتاء الجوّعُ

---

(١) معودة ك – توف ك – (٢) اخترعت ك – (٣) مجاوزة (فان فلوتن) – فيها ك – حاديا ك – (٥) تهيل (عيون الأخبار) ، تحيل ك ، تجيل (فان فلوتن) – (١١) مما ك – (١٧) تهنا ك : فينا (الديوان) .

(٢٢٢ : ١٦ – ٢٢٣ : ١٠) « إذا . . . وتداعيا » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ ، والبيت الثانى فى الحيوان ٣ : ١٠٢ ط الحلبى (لمحمد بن يسير) .
(١٤ – ١٥) « وحدثنى . . . شبعاً » البيان والتبيين ٢ : ١٢٩ ط ١٩٣٢ م .

ومذانِبٌ لا تستعارُ* وخَيمةٌ سوداءُ عيب نسيجها لا يُرقع*
وكأنّما فيهـــا المذانبُ حلقةٌ وذَم* الدلاءِ على دلوج تنزع

وقال مَعْن بن أوس** ، وهو يذكُر قدرَ سعيدِ بن العاص ، فى بعض ما يمدَحُه :

أخو شتوات لا تزال قدوره يُحلّ* على أرجائها ثم يُرحَل*
إذا ما امتطَاها الموقِدُون رأيتَها لوَشْك قراها وهى بالجزل تشعل
سمعتَ لها لَغْطاً إذا ما تَغَطْمَطت كهدر الجِمال رزّما حين تجفل
ترى البازلَ الكَوْماء فيها بأسرها مقبّضة فى قَعرها ما تَحَلحل*
كأن الكهول الشمط* فى حَجَراتها تغطرش فى تيارها حين يحفل
إذا التطَمت أمواجُها فكأنهـا عوائذ* دُهمٍ فى المحلّة قيّـل
إذا احتدَمَت أمواجُها فكأنّما يزَعزعها من شدّة الغلى أفكل
تظلُّ رواسيها ركوداً مقيمةً لمن نابه* فيها معاش ومأكل

وضاف الفرزدق أبا السَّحماء ، سُحَيم بنَ عامر ، أحدَ بنى عَمْرو بن مَرْثد ، فأجمدَه وذكر فى إحماده قِدره ، فقال :

سألنـا عن أبى السَّحْماء حتّى أتَينْا خيرَ مطرُوق لسَارى
فقلنـــا : يا أبا السَّحماء إنَّا وجَدْنا الأزد أبعدَ من نِزار
فقام يجرُّ من عَجَل إلينـــا أسابِيَّ* النُّعـــاس مع الإزار
وقام إلى* سُلافَة مسلَحِبٍّ رثيم الأنف مربُوب بقـــار

---

(١) وجفنة سوداء عند نشيجها ما ترفع (الديوان) — (٢) وذم (الديوان) : ودم ك .
(٤) تحل . . . ترحل ك — (٧) ما تجلجل (فان فلوتن) — (٨) الشمط (الديوان) ، الشبه ك ، الشهب (فان فلوتن) — (٩) عواتب ك ، غوائب (فان فلوتن) — (١١) ناته ك
(١٦) اسانى ك — (١٧) وقام إلى (الديوان) : قصب له ك .

(٢٢٣ : ١٧ — ٢٢٤ : ٢) « تهنا . . . تنزع » ديوان الأفوه الأودى (الطرائف الأدبية) ص ١٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م .
(٤ — ١١) « أخو . . . ومأكل » ديوان معن بن أوس ١٥ — ١٧ ط مصر ، ١٩٢٧ .

تدُور عليهم والقِـــدْر تغلى　　　بأبيضَ من سَديف الكوم وَارى
كأن تطلّع الترعيبِ فيهـــا *　　　عذارَى يَطّلِعن إلى عَذارى

وقال الكُمَيت ** فى صِفة القِدر :

إوَزّ تغمّس فى لُجّـــة　　　تغيبُ مِرارا وتَطفُو مِرارا
كأنّ الغُطَامِط مِن غَليها　　　أراجيزُ أسلَمَ تهجُو غِفارا

وأمّا ما ذكروا من صِفات القدور ، من تعيير بعضهم بعضاً ، فهو ، كما أنشدنى محمّد ابن يَسير * : قال : لمّا قال الأوّل :

إنّ لنا قِدراً ذِراعين عرضُها　　　وللطُّول منها أذرُع وشِبار

قال الآخر : وما هذه ؟ أخزَى الله هذه قدرا . ولـكنّى أقول

بوّأت قِدرى موضعاً * فوضعتها　　　برابية من بين ميْت وأجرَع
جعلتُ لها هَضْبَ الرِّجام وطَخْفة　　　وغَوْلا * أثافى دونها لم تنزّع
بقدر كأنّ الليلَ سُحمَة * قعرها　　　ترى الفيلَ فيها طافياً * لم يقطع
يُعجّل للأضياف وارى سَديفها　　　ومن يأتِها من سائرِ الناس يشبَع

قال أبو عُبيدة : ولما قال الفرَزْدق :

وقِدر كحَيْزوم النعامة أُحمِشت　　　بأجذال خُشب زال عنها هَشِيمها

---

(٢) الترغيب منهم ك — (٧) بشير ك — (١٠) موضعاً (الحصرى) ؛ ساقطة فى الأصل .
(١١) الرخام وطفقه وعولا ك — (١٢) شجنه ، شحنه (فان فلوتن) ، سحنه (مرسيه) ، طاميا (فان فلوتن) .

(٢٢٤ : ١٤ — ٢٢٥ : ٢) « سألنا . . . عذارى » ديوان الفرزدق ص ٢٤٨ ط الصاوى ، مصر ، والبيت الأخير فى عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ .
(٥) « كأن . . . غفارا » الأغانى ١ : ٣٤٩ ط دار الكتب المصرية — (١٠ — ١٢) « بوأت . . . يقطع » جمع الجواهر للحصرى ص ٦٥ ط الرحمانية ، القاهرة .
(١٥) « وقدر . . . وهشيمها » حماسة أبى تمام ٢ : ٣٠٨ ، ط ١٣٣٥ هـ ، القاهرة .

قال مَيْسرة أبو الدرداء : وما حَيزوم النعامة ؟ والله ما تُشبعُ هذه الفرَزْدق ولكنّى أقول :

وقِدر كجَوْف الليل أحمشتُ غَليها ... ترى الفيلَ فيهـا طافياً لم يفصَّل

وقال عبدُ الله بن الزُّبَير** يمدَح أسماء بنَ خارجة** :

ألم تر أنّ المجدَ أرسلَ يبتَغى ... حليفَ صَفاء وَأْتَلى* لا يزايله

تخيّر أسماء بنَ حِصن فبطنت ... بفعل العُلَى أيمانُه وشمائله

< ترَى البازِلَ البُختىّ فوق خوانه ... مقطعة أعضاؤه ومفاصِله > *

< و > مما* يجوز فى هذا الباب ، وإن لم يكن فيه صفة قِدر ، قولُ الفرزدق فى العُذافر بنِ زيد ، أحدِ بنى تَيْم الّلات بنِ ثعلبة :

لعمرُك ما الأرزاق يوم اكتيالها ... بأكثر خيراً من خِوان العذافر

ولو ضَافه الدجّال يلتمسُ القِرى ... وحلّ على خَبّازه بالعساكر

بعدّة يأجوج ومأجوج جُوّعاً ... لأشبَعهم شهراً غداء العُذافر

وقال ابنُ عَبْدل** فى بِشر بنِ مرْوان بنِ الحَكَم** :

لو شاء بشرٌ كان من دُون بابه ... طَماطِم سُودٌ أو صَقَالبة حمرٌ

ولكنّ بشراً أسهلَ البابَ للّتى ... يكون لبِشرعندَها الحمدُ والأجر

بعيدُ مَرادِ العين ما ردّ طرفه ... حِذارَ الغَواشى بابُ دار ولا ستر

---

(٥) قابلا ك – (٧) < ترى . . . ومفاصلة > ساقطة فى الأصل ، وفيه موضع الشاهد – (٨) مما ك

---

(٣) « وقدر . . . يفصل » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ – (٥ – ٧) « ألم تر . . . ومفاصله » الأغانى ١٣ : ٣٥ ، والبيت الأخير فى عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ – (١٠ – ١٢) « لعمرك . . . العذافر » ديوان الفرزدق ص ٣٩٦ ط الصاوى ، جمع الجواهر للحصرى ص ٦٥ – (١٤ – ١٦) « لوشاء . . . ستر » كتاب الحجاب للجاحظ (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ط الرحمانية ١٩٣٣ م .

وقالوا فى مُناقضات أشعارهم فى القُدور . قال الرّقاشى ** :

لنا من عَطاء الله دَهْماء جَونة   تناولُ بعد الأقربين الأقاصيا
جعلنا ألَالَا * والرِّجام وطِخفة   لها فاستقلت فوقَهن أثافيا
مؤدِّية عنّا حُقوق محمــد   إذا ما أتانا بائسَ الحال طاويا
أتى ابن يسير * كى ينفِّس كربَها *   إذا لم يرُح وافى مع الصُّبح غاديا

فأجابه ابنُ يسير ، فقال :

وثرماء ثلماء النواحى ولا * يَرى   بها أحدٌ عيباً * سوى ذاك باديا
ينادى ببعض بعضُهم عند طلعتى: ألا أبشروا هذا اليسيرىّ جائيا

وقال ابنُ يسير فى ذلك :

قدر الرقَاشىّ لم تنقر بمِنقــار   مثلَ القدور ، ولم تغتصّ * من غار
لــكنّ قدرَ أبى حفص — إذا نُسبت *   يوماً — ربيبةُ آجام وأنهــار

فاعترض بينهما أبو نواس الحسَن بنُ هانئ الحكَمىّ ، يذكُر قِدر الرّقاشى بالهِجاء أيضاً ، فقال :

ودَهماء تُثفيها رَقاش إذا شتَت   مركَّبة الآذان أمّ عِيــال
يغَصّ بحَيْزوم البَعوضة صَدرُها   وتنزِلُها عَفواً بغــير جِعال
ولو جئتَها مَلآى عَبيطاً مجزّلا   لأخرجتَ ما فيها بعود خِلال
هى القِدرُ قِدرُ الشيخ بكرِ بن وائل   ربيع اليتـامى عامَ كلِّ هُزال

(٣) الالاء (فان فلوتن) — (٥) بشير ك—كربه (عيون الأخبار) — (٧) ترى احد عسا ك — (١٠) تغتص : تغتض ك — (١١) نشبت ك .

(٢—٥) « لنا . . . غاديا » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ — (٧ — ٨) « وثرماء . . . جائيا» عيون الأخبار ٣ : ٢٦٦ — (١٤ — ١٧) « ودهماء . . . هزال » ديوان أبى نواس ١٤٧ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وقال فيها أيضاً :

رأيتُ قدورَ الناس سُوداً على الصِلى ، وقدرُ الرَّقاشيِّين زَهراء كالبدر
ولو جئتَها ملآى عبيطاً مجزَّلا ، لأخرجتَ ما فيها على طَرَف الظفر
يبيِّنهـــا* للمُعتفى بفنائهـــم ثلاثٌ كحظِّ الثاء من نُقَط الحِبر
تَبَيَّنُ فى محرابهـــــا أن عودَه سليم صَحيح ، لم يُصبه أذَى الجمر
تروح على حيٍّ الرَّباب ودارِم وسَعد ، وتعرُوها قَراضبة الفِزر
وللحيِّ عَمرو نفحة من سِجالها وتغلبَ والبيضِ اللهاميم من بكر
إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها أمامهم الحوليُّ من ولد الذرّ

وقال بعضُ التميميِّين ، وهو يهجو ابن حبّار :

لو أنّ قِدراً بكَت من طول ماحُبِست من الحفوف* بكَت قدُر ابنِ حبّار
ما مسَّها دَسَم مذ فضّ معدِنُهـــا ولا رَأت بعدَ نار القَين من نار

والشُعوبية والآرادْمَردية** المبغِضون لآل النبيِّ صلَّى الله علَيه وسلَّم وأصحابه ، ممَّن فَتح الفتوح ، وقتل المجوس ، وجاء بالإسلام ، تَزيدُ فى جُشو بة عيشهم ، وخشونة ملبسهم ، وتنقُص من نعيمهم ورفاغة عَيْشهم . وهم من أحسنِ الأمَم حالا مع الغَيْث، وأسوئهم حالا إذا خفّت السحاب . حتّى ربّما طبَّق الغيثُ الأرض بالكلأ والماء فعندَ ذلك يقولُ المصرم والمقتر* : « مرعى ولا أكولة ، وعُشبٌ ولا بعير ، وكَلأٌ تَيْجَع له كَبِد* المصرِم » . ولذلك قال شاعرهم :

وجُنِّبتَ الجيوشَ* أبا زنَيب* وجاد على مسَارحِك السَحاب

(٤) يثبّها (فان فلوتن) – (١٠) الحفوف (عيون الأخبار) : الجفوف ك ، القفور (الخطيب) – (١٦) والمقتر (فان فلوتن) : والمقبل ك – بنحع كد ك – (١٨) الجيوس ك ، الحيوس ؟ – ربيت ك .

(٢ – ٨) « رأيت ... الذر » الديوان ص ١٤٧ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٦٨ ، العقد الفريد ٦ : ١٩٠ – ١٩١ ط لجنة التأليف – (١٠ – ١١) « لو أن ... نار » عيون الأخبار ٣ : ٢٦٥ ، البخلاء للخطيب ورقة ٢٤ – (١٦) « مرعى ولا أكوله » مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٢٣١ – « عشب ولا بعير » مجمع الأمثال ١ : ٤٧٨ – (١٦ – ١٧) « كلأ تيجع له كبد المصرم » البيان والتبين ٢ : ٨١ ط ١٣٣٢ هـ ، الميدانى ٢ : ١١٠ – (١٨) « وجنبت ... السحاب » البيان والتبيين ٢ : ٨١ ط ١٣٣٢ هـ ، معانى الشعر للأشناندانى ص ١٠٨ .

وإذا نظرتَ فى أشعارهم علمتَ أنهم قد أكلوا الطيِّبَ وعرَفوه ، لأنّ الناعِم من الطعام لا يكونَ إلّا عندَ أهل الثراء وأصحاب العيش . فقال زياد بنُ فيَّاض ، يذكرُ الدرمك ، وهو الحوّارَى :

ولاقت فتى قَيسِ بنِ عَيْلان ماجِداً　　إذا الحربُ هرّتها الكماةُ الفوارسُ
فقامَ إلى البَرْك الهِجان بسيفه　　وطارتْ حِذارَ السيف دُهمٌ قناعِس
فصادفَ حدُّ السيف قبّاء جَلْعداً　　فكاسَت وفيها ذو غِرارين نائسِ
فأطعمَها شَحماً ولَحماً ودَرمكا　　ولم تثننا عنه الليالى * الحنادس

وقال :

تظلُّ فى دَرْمك وفاكِهة　　وفى شِوَاءٍ — ما شئتَ — أو مرقه

وقال جَرير :

تكلِّفنى معيشَة آلِ زَيد　　ومن لى بالمرقّق والصناب ؟

وقال النَّمِر بن تَوْلب :

لها ما تشتهى : عَسَل مصفًّى　　وإن شاءتْ فحُوّارَى بسَمن

* ومن أشرف * ما عرَفوه من الطعام ، ولم يُطعِم الناسَ أحدٌ منهم ذلك الطعامَ إلا عبد الله بن جُدعان * * ، وهو * الفالوذَق . مدَحه بذلك أميّةُ بنُ أبى الصَّلت ، فقال :

إلى رُدُح من الشِيزَى علَيها　　لبابُ البرِّ يلبَك بالشِّهاد

---

(٧) السم ك — (١٤) هنا ، قبل : « ومن أشرف » ، سقط بقيت منه هذه الكلمة ، وهى شطر بيت : « وحديثها أشهى مّن التمر » . فيبدو أنه بعد أن تكلم عن الدرمك أخذ فى الكلام عن التمر ثم انتقل إلى الفالوذق — أشرف : أشراف ك — (١٥) لعلها مقحمة .

---

(١١) « تكلفنى . . . والصناب » ديوان جرير ص ٤٥ ط الصاوى ، القاهرة ، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٩١ ط ليدن — (١٦) « إلى ردح . . . الشهاد » ذيل الأمالى ص ٣٨ ، شعراء النصرانية ص ٢٢٢ .

ولهم الثريد ، وهو فى أشرافهم عامّ ، وغلبَ عليه هاشم ، حين هشَم الخبزَ لقومِه ، وقد مُدِح به فى شِعر مَشْهور ، وهو قوله :

عمرُو العلَا هَشَم الثريدَ لقومِه ورجال مكّة مُسْنِتون عِجَاف

ومن الطعامِ الممدوح الحَيْس . وتزعُم مخزوم أنّ أول من حاسَ الحَيْس سُوَيد بن هرَمِىّ . وقال الشاعر :

وإذا تكونُ شَديدة أدعَى لها وإذا يحاسُ الحَيْس يُدعَى جُندُب

والخبزُ عندَهم ممدوح وكان عبد الله بنُ حَبيب العنبرى ، أحدُ بنى سَمُرة ، يقال له: آكلُ الخبز ، لأنه كان لا يأكلُ التمر ، ولا يرغبُ فى اللبن . وكان سيِّد بنى العنبر فى زَمانه . وهم إذا فخَروا قالوا : منّا آكلُ الخبز ومنّا مجيرُ الطير ، يعنى ثوبَ ابن شَحمة العنبرى . وهم يقدِّمون اللحم على اللبن ، ولذلك قال شاعرهم :

ولو أنَّها لم تدفع الرِسْل دمَّها رأى بعضُها من بعض أنسابها دما

ويقدِّمون اللحمَ على التمر ، ألا تراه يقول:

قَرَتنى عُبيد تمرَها وقريتُها سَنَام مُصرَّاة قليلٍ ركوبُها
فهل يَستوِى شحمُ السَنام إذا شتَا وتمر جُواثا حين يُلقَى عَسيبُها

وليس يكون فوقَ عقر الإبل وإطعامِ السنام شىء . والعَقْر هو النَّجْدة ، واللبَنُ هو الرسْل . قال الهُذَلىّ :

لو أنّ عندىَ من قُرَيم رَجْلا لمنعُونى نجْدَةً أو رِسلا

(١٠ – ١١)[وهم يقدمون اللحم على اللبن . . . دما](فان فلوتن) .

(٣) « عمرو . . . عجاف » فضل هاشم على عبد شمس (رسائل الجاحظ) ص ٦٨ ، نوادر أبى زيد ١٦٧ ، الكامل للمبرد ١ : ١٧٦ ، صبح الأعشى ١ : ٣٥٨ – (٦) « وإذا . . . جندب » عيون الأخبار ٣ : ١٩ ، معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢١٥ ، خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٣٢ ط السلفية ، لسان العرب ٧ : ٣٦٢ – (١٧) « لو أن . . . أو رسلا » الأمالى ١ : ٢٠٧ ، اللآلى ص ٤٩٤ ، الإغاثة ٢٠ : ٢١ .

وقال الهُذَلى :

إلا إنَّ خيرَ الناس رِسْلا ونَجْدة

وقال المرَّار بن سعيد* الفَقْعَسى** :

لهم إبلٌ لا من دِيات ولم تكن   مُهوراً ولا من مَكْسَب غير طائل
ولـكن حَماها من شَماطيطِ غَارة   حِلال العَوالى فارسٌ غيرُ مائل
مخيَّسَة* فى كلِّ رِسل ونجدة   ومعرُوفة ألوانُهـا فى المعاقِل

وقد وصفوا الثَّريد ، قال الراعى :

فباتَ يَعدّ* النجم من مستَحِيرة   سريع على أيدى الرجال جمودُها

< وقال حسان بن ثابت > *

ثَريد كأنَّ السمنَ فى حَجَراته   نجوم الثريَّا أو عيونُ الضياوِن

وقال بن هَرمة :

إلى أن أتاهم بشيزيَّه   تعنُّ كواكبُهـا الشبَّك

وقال كامل بنُ عِكرمة** :

فقرَّب بينَهم خُبزاً وكُوما*   كساها الشحْمُ ينهمر انهمارا*
يدِفُّ بهـا غُلاماه جَميعاً   تردّهما إلى الأرض انهِصارا
فأصبَح سُورهم فيها — وعلى   لو ان العلم صنفها — إسارا

---

(٣) سعد ك — (٦) محبسة ك —(٨) فا من بعد ك —(٩) < وقال حسان بن ثابت > : ساقطة فى الأصل ، وقال آخر (فان فلوتن) — (١٤) وكوما : رِكودا ك — ينهمر انهمارا (مرسية) : ينهصر انهصار ك

---

(٨) « فبات . . . جمودها » الحماسة لأبى تمام ٢ : ٢١٥ ، الكامل للمبرد ٢ : ١٨٨ ، تهذيب الألفاظ ٦٤٠ — (١٠) « ثريد . . . الضياون » الحيوان ٥ : ٣٢٩ ط الحلبى ، لسان العرب ١٧ : ١٣٢.

فهذا فى صِفة الثّريد .

وقال بشرُ بنُ أبى خازم** :

ترى وَدَكَ السديف على لِحاهم   كلَوْن الرار* لبَّده الصَّقيع

وقال الآخر :

جلا الأذفَرَ الأحوى من المسك فَرْقه   وطِيبُ الدهان رأسَه ، فهو أنزع

إذا النفَر السُّود اليمانُون حاولوا   له حَوْكَ بردَيه* أرقّوا وأوسَعوا

وقال الزُّبير بن عبدِ المطّلب** :

فإنا قد خُلِقنا إذ خُلقنا   لنا الحِبرَاتُ والمِسك الفَتِيتُ

ولولا الحمس لم يلبَس رِجال   ثيـاب أعزة* حتى يموتوا

ثيـابُهم شِمال أو عَباء   بها دَنَس كما دَنِس الحَمِيت

فميّز كما ترى بين لِباس* الأشراف وأهل الثروة وغيرِهم .

وقال الأعشى :

للشرف* العَود فأكنافه   ما بين حُمران فينصُوب*

خيرٌ لها إن خَشِيَت جحرة   من ربِّها زيدِ بنِ أيوب

مُتَّكِئاً تُقرَع أبوابهُ   يسعَى عليه* العبدُ بالكُوب

وقال* *أبو الصَلت بنُ أبى ربيعة* :

اشرَب هَنيئاً عليك التاجُ مرتفِقاً   فى رَأس غُمدان داراً منك مِحلالا

---

(٣) الراد (فان فلوتن) – (٦) بْرد ك – (٩) ثياباغرة (فان فلوتن) – (١١) الناس (فان فلوتن) – (١٣) الشرف ك – فتنضوب ك – (١٥) عليها ك – (١٦) ابن ربيعة ك

(٥ – ٦) « جلا . . . واوسعوا » الكامل للمبرد ١ : ١٢٢ – ١٢٣ ط الأزهرية – (١٣ – ١٥) للشرف « . . . بالكوب » ديوان الأعشى ص ٢٣٧ ط ليدن ، معجم البلدان ٨ : ٥٢٨ ط السعادة – (١٧) « اشرب . . . محلالا » الشعر والشعراء ١ : ٤٣٣ ، ط الحلبى ، معجم البلدان ٦ : ٣٠٢ (فى سيف بن ذى يزن)

وليسَ هذا من باب الإفراط . و بابُ الإفراط كقول جِران العَوْد حين وصفَ نفسَه وعشيقتَه ، فقال :

فأصبحَ فى حيثُ التقَينا غُدَيَّةً *   سِوار وخَلخال ومِرط ومُطرَف
ومنقَطِعاتٌ من عُقود تركنها   كجَمْر الغضَا فى بعضِ ما تتخطرف

ومن ذلك قولُ عَدىٍّ بن زَيد ** :

يا لُبينى أوقدى النـارا   إن من تَهْوَين قد حارا
ربَّ نار بتُّ أرقُبها   تقضِمُ الهِندىَّ والغـارا

وقال الآخر :

أرى فى الهوى ناراً لظبيةَ أوقدَت   يُشَبُّ ويُذْكى بعدَهنَّ وُقودُها
تشبُّ بعيدان اليَلَنْجُوج مَوْهِنا   وبالرَنْد أحياناً فذاكَ وَقودها

قد ذكرنا الطعامَ الممدوح ماهو، وذكرنا أحدَ صِنفى الطعام المذموم والصنفُ الآخرُ كالخزيرة * التى تعابُ بها مُجاشِـع بنُ دارم ،وكنحو السَخِينة التى تعابُ بها قريش.

قال خِداش بن زُهير ** :

يا شَدّةً ما شدَدنا غير كاذبةٍ   على سَخِينةَ لولا الليلُ والحرمُ

وقال عبد الله بن همَّام ** :

إذًا لضربتهم حتى يعودوا   بمكَّة يلعقون بها السَخينا

---

(٣) غدية (الديوان) : غنيمة ك — (١٢) الخزيرة (فان فلوتن) .

(٣ — ٤) « فأصبح . . . تتخطرف » ديوان جران العودص ٢٤ ط دار الكتب المصرية — (٦ — ٧) « يالبينى . . . والغارا » الأغانى ٢ : ١٤٧ — (١٤) « ياشدة . . . والحرم » طبقات ابن سلام ص ٣٣ ط ليدن .

وقال جرير :

وُضِـع الخزيرُ ، فقيلَ : أين مجاشِـعٌ   فشحا* جحـــافلَه هِجفٌ هِبلَع
٣ والخزيرُ لم يكن من طَعامهم ، وله حديث . والسَخينةَ كانتْ من طَعام قريش .
وتهجىَ الأنصارُ وعبدُ القَيْس وعُذرة وكلٌ من كانَ بقُرْب النخل ، بأكل التَّمر ،
فقال الفرزدق :
٦ لستُ بسَعديٍّ على فيه حَبُرة*   ولستُ بعبدىّ حَقيبته التمرُ
وتهجى أسد بأكل الـكلاب ، وبأكل لُحوم الناس . والعربُ إذا وجدت رجلاً من
القَبيلة قد أتى قَبيحاً ألزمتْ ذلك القبيلةَ كلها ، كما تمدحُ القبيلة بفعل جميل ، وإن لم
٩ يكن ذلك إلا بواحد منها . فتهجو قُريشاً بالسَخينة ، وعبدَ القيس بالتَمر . وذلك عامٌ
فى الحيين جميعاً ، وهما من صالح الأغذية والأقوات . كما تهجُو بأكل الـكلابِ والناس
وإن كانذلك إنما كان < من > *رجلواحد، ولعلك*إذا أردتالتحصيلتجده معذوراً.
١٢ قال الشاعر :
يا فَقْعَسى لمأكلتَه لِمَه ؟   لو خافك الله علَيه حرَّمه
فما أكلتَ لحمَه ولا دَمه
١٥ وقال فى < ذلك > * مُساور بنُ هند :
إذا أسَـديَّةٌ ولدت غلاماً   فبشِّرها بلؤم فى الغلام
تخرَّسها نساء بنى دُبَير   بأخبثِ مايجدنَ من الطعام
١٨ ترى أظفار أعقدَ* مَلقَيات   براثِنُها* على وَضَم الثُمام

---

(٢) فحشا ك – (٦) خبزة ك – (١١) < من > : لست بالأصل – فلملك ك – (١٥) < ذلك > : ليست بالأصل – (١٨) اطفا غفار ك – ترابها ك .

---

(٢) «وضع ... هبلع» ديوان جرير ص ٣٤٥ ط الصاوى – (٦) «لست .. التمر» الكامل للمبرد ٢ : ٧٠ ط الأزهرية – (١٣ – ١٤) «يا فقعسى ... دمه» الحيوان ١ : ٢٦٧ ، ٢ : ١٥٩ – ١٦٠ ، ٤ : ٤١ ط الحلبى – (١٦ – ١٨) «إذا ... الثمام» الحيوان ١ : ٢٦٧ ط الحلبى.

وقال :

بنى أسد إن تمحل العامَ فقعسٌ   فهذا إذًا دهرُ الكلاب وعامُها

وقال الفرزدق :

إذا أسدىّ جاع يوماً ببلدة   وكان سَميناً كلبُه فهو آكله

وقال شُرَيح بن أوس ، وهو يَهجو أبا المهوّش الأسدى :

عَيّرتنا تمر العـراق وبرّه   وزادُك أيرُ الكلب حَشْحَسه* الجمر

وتُهجى أسد وهُذَيل والعَنْبر و باهِلة بأكل لحوم الناس . قال الشاعر فى هُذيل :

وأنتم* أكلتُم سَخْفة ابن محدَّم   زَباب* فلا يأمَنْكم أحدٌ بعدُ

تداعَوْا له من بين خمس وأربع   وقد نَصَل الأظفار وانسَبأ الجِلد

ورفّعتم* جُـردانه لرئيسكم   معاويةَ الفلحاء يا لك ما شَكد

وقال حسان فيهم :

إن سَرّك الغدرُ صِرفا لا مِزاجَ له   فائت الرجيعَ وسَل عن دار لحيانِ

قوم تواصَوا بأكل الجار بينهم   فالشاةُ والكلبُ والإنسانُ سِيّانِ

وهجا شاعرٌ بلعنبر ، وهو يُريد ثوبَ* بن شَحمة ، وفيه حديث :

عجلتُم ما صادكم علاج*   من العُنوق ومن النّعاج

حتى أكلتم طَفلة كالعاج

---

(٦) حشحشه (فان فلوتن) – (٨) وأنتم (الحيوان) : إن أنتم ك – رباب ك – (١٠) ونفعتم ك (١٤) بن أيوب ك ، انظر الحيوان ١ : ٢٦٩ – (١٥) علاجى (فان فلوتن) .

---

(٢) « بنى . . . وعامها » الحيوان ١ : ٢٦٧ – (٤) « إذا . . . آكله » الحيوان ١ : ٢٦٧ ط الحلبى – (٦) « عيرتنا . . . الجمر » الحيوان ١ : ٢٦٨ ، ٣١٩ – (٨ – ١٠) « وأنتم . . . شكد » الحيوان ١ : ٢٦٨ – ٢٦٩ – (١٢ – ١٣) « إن سرك . . . سيان » الحيوان ١ : ٢٦٨ ، ديوان حسان ص ١٠١ ط تونس – (١٥ – ١٦) « عجلتم . . . كالعاج » الحيوان ١ : ٢٦٩ .

ولما عُيِّرَ ثوبُ* بن شَحمة بأكل الفتى لحمَ المرأة ، إلى أن نزل هو من الجبل ، قال*:

يا بنت عمِّى ما أدراكِ ما حسَبِى   إذ لا* تجنّ خبيثَ الزاد أضلاعى
إنّى لذو مِرّة تُخشى بوادرُه   عند الصِياح بنَصل السَيف قرّاع

فهجا ثوبَ بن شَحمة بأكل لُحوم امرأة ، وكان ثوبٌ هذا أكرمَ نفسا عندَهم من أن يَطعَم طعاماً خبيثاً ، ولو مات عندهم جُوعا . وله قِصَص . ولقد أسرَ حاتمَ الطائىّ ، وظلّ عندَه زمانا .

وَقال الشاعرُ يهجُو باهلةَ بمثل ذلك :

إنّ غفاقا أكلته باهِله   تمشّشوا عِظامه وكاهِله
وأصبحَتْ أمّ غِفاق ثاكله

وهُجيت بذلك أسَد جميعاً ، بسبَب رملة بنتِ فائد بنِ حَبيب بنِ خالد بن نَضلة** ، حين أكلَها زوجُها وأخوها أبو أرب ، وقد زَعَموا أن ذاك إنّما كان منهما من طَريق الغَيْظ وَالغَيْرة ، فقال ابنُ دارةَ** ينعى ذلك عليهم :

أفى أنْ رويتم واختَلَبتم شُكَيّكم*   فَخَرتم ؟ وفيمَ الفقعَسىّ من الفَخر ؟
ورَملة كانت زَوْجةً لفريقكم*   وَأختَ فَريق ، وهى مُخزية الذِكر
أبا أرب كيف القرابة بينَكم   وإخوانكم من لَحم أكفالِها عُجر ؟

وقال :

عَدمَت نساء بعد رَملة فائدٍ   بنى فَقْعس تأتيكم بأمانِ
وباتَتْ عَروساً ثم أصبَحَ لحمُها   جلا* فى قُدورٍ بينكم وجِفان

(١) أيوب ك – فقال ك – (٢) إذ لا (الحيوان) : إلا ك – (١٣) شكوتكم ك – (١٤) لقربكم ك – (١٨) حلا ك .

(٢–٣) «يا بنت ... قراع» الحيوان ١ : ٢٦٩ – (٨–٩) «إن غفاقا ... ثاكله» الحيوان ١ : ٢٦٩ ط الحلبى .

وقال البراء بن ربعى * *، أخو مُضرِّس بن ربعى * *، يُعيِّر صلتا *، وهو أخوه، فقال :

يا صلتُ إنّ محلَّ بيتِك مُنْتِن   فارحَلْ فإنّ العُود غير صَليب
وإذا دَعاكَ إلى المعاقِل فائدٌ   فاذكرمَكان صِدارها المسلوبِ *
والآن فادعُ أبا رِجالٍ إنّها   شنعاءُ لا حِقة بأمٍّ حبيب

وأبو رجال هذا عمّها . وقال فى ذلك مَعْروفٌ الدُبَيرى :

إذا ما ضِفتَ ليلا فقعسيا   فلا تَطْعَم له أبداً طَعاما
فإنّ اللحم إنسانٌ فدَعه   وخيرُ الزاد ما مَنَع الحرَاما

وعُيِّرت كلبٌ وَالقين * بنُ جسر بأكل الخصى . وذلك بسبَب النساء ، وذلك أن واحدًا منهم لما أطعِم خصيَيه بسببَ العبَث بامرأة ، سار مع من رَكِبوا ذلك مِنه فيهم مثل < هذه > * السيِرة ، فقال بعضُ من ركب ذلك :

أبلغ لدَيك بنى كَلب وإخوتَهم   كلباً فلا تجترَوا بعدى على أحد
هذى الُخصى فكلُوها من نُفوسِكم   كما أكلتُم خُصاكم فى بنى أَسَد

وهذا الباب يكثُر ويطول ، وفيما ذكَرنا دليلٌ على ماقصَدْنا إليه مِن تَصْنيف الحالات . فإن أردتَه مجموعاً فاطلبه فى كِتاب الشعُوبية . فإنه هناك مُستقصًى .

والأعرابىّ إذا أراد القِرى ولم يرَ نارا نبَح ، فيجاوبُه الكلبُ ، فيتبعُ صوته . ولذلك قال الشاعر :

ومُسْتَنبحٍ أهل الثرى يطلبَ القِرى   إلينا ومُمساه من الأرض نازِح

---

(١) كلبا ك – (٣) المصلوب ك – (١٠) < هذه > : ليست بالأصل .

(٦–٧) « إذا ما . . . الحراما » الحيوان ١ : ٢٦٨ – (١٧) « ومستنبح . . . نازح » الحيوان ١ : ٣٧٩ ط الحلبى .

وقال الآخر :

عَوى حَدَس* والليلُ مستحِلس الندى لمستَنْبِح* بين الرُّمَيْثة والَحضْر

ويدلُّك على أنّه ينبحُ وهو على راحِلته لينبحَه الـكلبُ قول حُميد الأرقط :

وعاوٍ عَوَى والليل مستحِلس الندى وقد ضَجَعت للغَور تاليةُ النجم

فمنهم من يُبرِزُ كلبَه ليجيب ، ومنهم من يَمنعه ذلك . قال زيادُ الأعجم ، وهو يَهْجُو بنى عِجل :

وتـكعم* كلبَ الحيِّ من خَشية القِرى وقِدرُك كالعَذراء من دونِهـا سِتر

وقال آخر :

نزلنـا بعمار فأشلَى كلابَه علينا فـكدنا بينَ بيتَيْه نؤكل

فقلتُ لأصحابى ، أسِر إليهم : أذا اليومُ أم يومُ القِيامة أطول ؟

وقال آخر :

أعددتُ للضِيفان كَلباً ضاريا عندى وفَضْلَ هِراوة من أرزن

وقال أعشى بَنى تغلب** :

إذا حلت معاويةُ بنُ عَمرو على الأطواء خنَّقت الـكلابا

---

(٢) حدس (فان فلوتن) : حوس ك — بمستنبح ك — (٧) وتعلم ك .

---

(٤) « وعاو . . . النجم » الحيوان ١ : ٣٧٩ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٤ — (٧) « وتكم . . . ستر » الحيوان ١ : ٣٨٥ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٢ ، لسان العرب مادة ك ع م — (٩ — ١٠) « نزلنا . . . أطول » الحيوان ٢ : ٢١٠ — (١٢) « أعددت . . . أرزن » الحيوان ٢ : ٢١٠ ، البيان والتبيين ٣ : ٤١ — (١٤) « إذا . . . الكلابا » الحيوان ١ : ٣٨٥ ، عيون الأخبار ٣ : ٣٦٣ .

وأنشدنى ابنُ الأعرابىِّ ، وزعم أنه من قَول المجنون :

ونارٍ قد رفعتُ لغير خير   رجاء أن تأوَّبنى الرعاء
تأوّبنىَ طويلُ الشخص منهم   يجرُّ ثقالَه* يرجو العشاء
فـكان عشاءه عندى خَزِير   بتمر جَثِيثة* فيـه النواء

وقال فى خلاف ذلك حسّان بن ثابت :

أولادُ جَفنة حولَ قبر أبيهم   قبر ابنِ مارية الـكريم المُفضل
يُغشَون حتّى ما تهرُّ كلابُهم   لا يَسألون عن السَواد المقبِل

وقال المرّار الحمانى* فى كلبه :

ألفَ الناسَ فما ينبحُهم   من أسِيفٍ يبتَغِى الخيرَ* وحرّ

وقال عمران بن عصام** :

لعبـد العزيز على قَومه   وغيرِهم مِنَن غامِرَه
فبـابُك أليَن أبوابهـم   ودارُك مأهولة عامِره
وكلبُك آنَسُ بالمعتَفِين   من الأمّ بابنتِها الزائرة
وكفك حينَ ترى السائلـ   ين أندَى من الليلة الماطِره
فمنكَ العطاء ومنَّا الثنـاء   بـكلِّ محبَّرة سـائره

وفى أُنس الـكلاب بالناس ، لطُول الرؤية لهم ، شعرٌ كثير . وقال الشاعر :

يا أمّ عمـرو أنجِزى المَوْعودا   وارْعَىْ بذاك أمانَة وعهودا

---

(٣) محر ىماله ك ، يجر ثفاله (فان فلوتن) – (٤) مسه ك – (٨) الحمانى (فان فلوتن عن الحيوان مخطوطة كبريلى) : الحمل ك – (٩) الخمر ك .

(٦ – ٧) « أولاد . . . المقبل » الحيوان ١ : ٣٨١ ، ديوان حسان ص ٧٢ ط تونس – (٩) « الف . . وحر » الحيوان ١ : ٣٨٢ – (١١ – ١٥) « لعبد العزيز . . . سائره » الحيوان ١ : ٣٨٢ ، كتاب الحجاب (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ، الأغانى ١ : ٣٣٢ ، ديوان المعانى ١ : ٣٣ .

ولقد طرقتُ كلابَ أهلك بالضُحى　　حتّى تركتُ عَقـــورهن رَقودا
يضْرِبن بالأذنابِ من فَرَح بنا　　متوسِّـــدات أذْرُعًا وخدودا

وقال ذو الرُمّة ** :

رأتْنى كلابُ الحىِّ حتّى أَلِفْنَنى　　ومُدّت نَسوجُ العنـكبوت على رَحلى*

وقال الآخر :

بات الحوَيرثُ والـكلابُ تشمّه　　وسَرَت بأبيضَ كالهلال على الطَّوى

هذا البيتُ يدخُل فى هذا الباب . وقال الآخر :

لو كنتُ أحمِل خَمْراً يومَ زرتـكم　　لم ينكِرِ الـكلبُ أنى صاحبُ الدار
لـكن أتيتُ وريحُ المِسك ينفحنى*　　والعنبرُ الوردُ أذكيه على النار
فأنـكَرَ الـكلبُ ريحى حينَ أبصرنى　　وكان يَعرِفُ ريحَ الزقِّ والقار

وقال هلالُ بن خَثْعم * :

إنى لَعَفٌّ عن زيارة جارتى　　وإنى لمشنُوء إلىَّ اغتيابُها
إذا غابَ عنها بعلُها لم أكن لها　　زَوُوراً ولم تأنَسْ إلىَّ كلابها
وما أنا بالدارى أحاديثَ بيتها　　ولا عالمٌ من أىِّ حَوكٍ ثيابها

وقال ابنُ هَرمة فى فَرَح الـكلب بالضيف ، لعادة النَّحر :

وفَرحةٍ من كلابِ الحى يتبعُها　　مَحْض يزفُّ به الراعى وترعيبُ

---

(٤) رجلى (فان فلوتن) – (٩) ينفحنى ك : يفعمنى (فان فلوتن) – (١١) حكيم ك .

(٢٣٩ : ١٧ – ٢٤٠ : ٢) « يا أم عمرو . . . وخدودا » الحيوان ١ : ٣٨٠ – (٤) « رأتنى . . . رحلى » الحيوان ١ : ٣٨١ – (٦) « بات . . . الطوى » الحيوان ١ : ٣٨١ – (٨ – ١٠) « لوكنت . . . والقار » الحيوان ١ : ٣٨٠ ، حماسة أبى تمام ٢ : ٢٢٣ ، اللآلى ص ١٩١ ، معجم المرزبانى ٢٦٧ – (١٢ – ١٤) « إنى . . . ثيابها » الحيوان ١ : ٣٨٢ – ٣٨٣ ، عيون الأخبار ٣ : ١٨٣ – ١٨٤ – (١٦) « وفرحه . . . وترعيب » الحيوان ١ : ٣٨٥ ، اللآلى ص ٥٠٠ .

وقال ابن هَرمة :

ومستنبحٍ نبّهت كَلبي لصَوْته فقلتُ له : قُمْ باليَفاع فجَاوِب
فجاء خَفِيّ الشخص قد رامه الطوَى بضربة مفتُوق الغِرارَين قاضِب
فرحّبتُ واستبشرتُ حينَ رأيتُهُ وتلك التى ألقَى بهـا كلّ نائب

وفى معنى الـكلب من النباح يقول ابنُ أعيا** فى الحطيئة :

ألا قبّح اللهُ الحطيئـــة ! إنه على كلّ ضيفٍ ضافَه فهو سالِح
دفعتُ إليه وهو يخنُق كلبـــه ألا كلُّ كلب — لا أبالك — نابحُ
بكيتَ على مَذق خبيثٍ قريتَـه ألا كلُّ عبْسىّ على الزاد نائح

وقد قالوا فى صِفة أبواب أهل المقدِرة والثروة ، إذا كانوا يقومون بحقّ النعمة . قال الراجز :

إن الندَى حيثَ ترى الضِغاطا

وقال الآخر :

يزدَحِم الناسُ على بابه والمشرع* السَهل كثيرُ الزحام

وقال الآخر :

وإذا افتقرتَ رأيتَ بابك خالِيا وترى الغنَى يهدى لك الزوّارا

---

(٢) ومستنبح . . . لصوته : ساقط فى الأصل – (١٣) والشرع (فان فلوتن) .

(٢ – ٤) « ومستنبح . . . نائب » الحيوان ١ : ٣٦٧ – (٦ – ٨) « ألا قبح . . . نائح » الحيوان ١ : ٣٨٥ – ٣٨٦ ، الأغانى ٢ : ١٧٢ – ١٧٣ – (١١) « إن الندى . . . الضغاطا » البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ط ١٩٣٢ م (للتميمى) ، الحيوان ٥ : ٤٤٥ ، عيون الأخبار ١ : ٩١ ، الكامل للمبرد ١ : ١١٨ (لرؤبة ، وقال أبو الحسن الأخفش لابن أبى نخيلة) – (١٣) « يزدحم . . . الزحام » كتاب الحجاب (رسائل الجاحظ) ص ١٨٤ ، عيون الأخبار ١ : ٩٠ ، الكامل للمبرد ١ : ١١٨ – (١٥) « وإذا افتقرت . . . الزوارا » انظر البيان والتبيين ١ : ١٥٧ .

وليسَ هذا من الأوّل ، إنما هذا مثلُ قوله :

أَلم ترَ بيتَ الفقرِ يُهجر أهلُه … وبيتَ الغنى يُهدَى له ويزار

وهذا مثلُ قوله :

إذا ما قلّ مالك كنت فرداً … وأىُّ الناس زوّار المقـلِّ ؟

والعرَب تفضِّل الرجلَ الـكَسُوب والغر* الطلوب ، ويذمّون المقيمَ الفشِل والدثور الـكسلان* . ولذلك قال شاعِرُهم ، وهو يمدَح رجُلا :

شتّى مطالبُـه ، بعيدٌ همُّه … جوّاب أودِية ، بَرود المضجَع

ومدح آخرُ نفسه ، فقال :

فإن تأتيانى فى الشتاء وتلمسَا … مكانَ فِراشى فهو بالليل باردُ

وقال آخر :

إلى مَلِك لا ينقُض النأى عزمَه … خَروج تَروكٌ للفِراش الممهَّد

وقال الآخر :

فِداكَ قصيرُ الهمِّ يملأ عَينـه* … من النّوم ، إذ ملقى فِراشك باردُ

وقال آخر :

أبيضُ بسّام بَرُود مضجعُه … اللُّقمةُ الفردُ مراراً تشبعه

---

(٥) لعلها : والغرة — (٥ — ٦) والدثر والكسلان ك — (١٣) عزمه ك

---

(٢) « ألم تر . . . ويزار » عيون الأخبار ١ : ٢٤٢ — (٤) « إذا . . . المقل » عيون الأخبار ١ : ٢٤٢ .

وهم يمدَحون أصحابَ النِيران ، ويذمُّون أصحاب الإخماد . قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بكل ريح إذا الظلماء جَلَّلت اليفاعا
وما إن كان أكثرَهم سَواما ولكنْ كان أرحبَهم ذراعا

وقال مزرِّد بن ضِرار :

فأبصرَ نارى وهى شقراء أوقِدَت بعلياء نَشْزٍ ، للعيُون النواظِر

جعلها شقراء ليكونَ أضوأَ لها . وكذلك النارُ إذا كان حَطَبها يابساً كان أشدَّ لحمرة نارِه ، وإذا كثُر دخانُه قلَّ ضوءه . وقال الآخر :

ونار كسَحْر* العَود يرفعُ ضَوءها مع الليل هبَّاتُ الرِّياحِ الصواردُ

وكلّما كان موضعُ النار أشدَّ ارتفاعاً ، كان صاحبُها أجودَ وأمجدَ ، لكثْرة من يَراها من البُعد . ألا ترى النابغةَ الجَعْدى** حين يقول :

منعَ الغدرَ فلم أهمم به وأخو الغَدر إذا هَمَّ فعل
خَشيةُ الله وأنى رَجُل إنما ذِكرى كنَار بقَبَل*

وقالت خَنساء السُلَمية** :

وإن صَخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنه عَلَم فى رَأسه نار

وليسَ يمنعُنى من تفسير كلِّ ما يمرُّ إلا اتِّكالى على معرفتك . ولس هذا الكتابُ نفعُه إلا لمن رَوَى الشِعر والكَلام ، وذَهَب مذاهِب القوم ، أو يكون قد شدا منه شَدواً حسَناً .

---

(٨) كسجر (فان فلوتن) – (١٢) تقتيل ك .

(٢ – ٣) « له نار . . . ذراعا » حماسة أبى تمام ٢ : ٢٥٥ ط ١٣٣٥ هـ (لزياد الأعرابى الكلابى) – (٥) « فا بصر . . . النواظر » الحيوان ٥ : ٦٣ – (٨) « ونار . . . الصوارد » الحيوان ٥ : ٦٣ ، حماسة أبى تمام ٢ : ١٢٩ (١١ – ١٢) « منع . . . بقبل » اللسان ١٤ : ٥٩ .

ومما يدلّ على كرَم القوْم أيمانُهم الـكريمة وأقسامُهم الشّريفة . قال مَعْدَان بن جواس الـكِندى** :

٣ إن كان ما بلّغت عنى فلامَنى صَديقى وحُزَّت من يدىَّ الأناملُ
وكفَّنت وحدى مُنذِراً فى ردائه وصادَفَ حَوْطا من أعادىَّ قاتلُ

وقال الأشتر مالكُ بنُ الحارثِ ، فى مثل ذلك أيضاً :

٦ بقّيت وفرى* وانحرفتُ عن العلى ولقيتُ أضيـافى بوَجه عَبوس
إن لم أشنّ على ابن حَرب غارة لم تخلُ يوماً من نِهاب نفوس
خَيْلا كأمثال السَّعالى شُزَّباً* تعدو ببيض فى الـكَريهة شُوس
٩ حَمِى الحديدُ عليهـم فـكأنّه لمعانُ بَرق أو شُعاع شُموس

وقال ابنُ سَيحان**

حرامٌ كنّتى منى بسُوء وأذكُر صاحبى أبداً بذامِ
١٢ لقد أحْرمت ودّ بنى مُطيع حرامَ الدُّهن للرَّجُل الحرَام
وخزَّهم الذى لم يشتروه* ومجلسَهم بمعتلج الظـلام
وإن جنَف الزمانُ مددتُ حبلا متيناً من حِبال بنى هشام
١٥ وريقٌ عودُهم أبداً رطيب إذا ما اغبرَّ عِيدان اللئام

(٦) وفرى ك : وحدى (فان فلوتن) – (٨) شربا ك : سربا (فان فلوتن) – (١٣) لم يشتروه (البيان والتبيين) : قد يشتروه ك .

(٣ – ٤) « إن كان . . . قاتل » حماسة أبى تمام ١ : ٤٩ ، معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٠٧ ، أمالى القالى ١ : ١٨٧ ، وانظر التنبيه لأبى عبيد ص ٥٧ – (٦ – ٩) « بقيت . . . شموس » حماسة أبى تمام ١ : ٤٨ – ٤٩ ، أمالى القالى ١ : ٨٥ ، معجم المرزبانى ٣٦٢ – (١١ – ١٥) « حرام . . . اللئام » البيان والتبيين ٣ : ٢١٠ ط ١٣٣٢ هـ ، الأغانى ٢ : ٢٥٥ .



تعليقات وشروح

تعليقات وشروح

١ ــ كتاب اللصوص (١ : ٢)

كتاب من كتب الجاحظ التى ضاعت ، ولم يبق منها إلا جريدة أسمائها ، وإلا بعض الإشارات الخاطفة ــ فى بعض الأحيان ــ إلى موضوعاتها ، كما نرى هنا فى هذا الكتاب . وقد أشار إليه مرة أخرى فى مقدمة كتاب الحيوان ، وسماه كتاب « حيل اللصوص »(١) ، كما ذكره البغدادى فى الفصل الذى كتبه عن الجاحظية ، فقال فى لهجة متحاملة : « وأما كتبه المزخرفة فأصناف ، منها كتاب فى حيل اللصوص . وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة »(٢) . ومهما يكن من لهجة هذه العبارة ، فهى تشير إشارة ما إلى المنحى الذى انتحاه الجاحظ فى تأليفه .

وهو يصف هذا الكتاب هنا بأنه « فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سراق الليل . وأنه جمع فيه لطائف الخدع ، وغرائب الحيل »؛ وفى موضع آخر نجد إشارة إلى شىء من منهجه فى تأليفه ، وذلك فى سياق خبر رواه عن « بابويه صاحب الحمام » إذ يقول عنه : « ولو سمعت بقصصه فى كتاب اللصوص علمت أنه بعيد من الكذب والتزيد »(٣) وإذن فالجاحظ سلك فى هذا الكتاب مسلك الرواية ؛ أو وضع الأحاديث ونحلها هذا أو ذاك ، كبابويه هذا ، وعثمان الخياط ، كما سنرى بعد قليل .

على أنا ــ فوق هذا الوصف الذى أشار إلى منحى الجاحظ ومنهجه فى كتاب اللصوص ــ نستطيع أن نتلمس بعض الأثارات من هذا الكتاب تلمساً ، بفضل ما عرف به الجاحظ من الترداد والتكرار ، وهىَ عادة عرفها فيه معاصروه ــ ونلاحظها نحن كثيراً فيه ، على قلة ما بقى لنا من آثاره ــ كما يشهد بذلك بعض ما يتحدث به عن كتبه(٤) . وبذلك نستطيع أن نفترض أن هاتين القطعتين اللتين أوردهما فى موضعين مختلفين تمثلان بعض الشىء كتاب اللصوص ، ولنا أن نعتبرهما ــ إلى حد ما ــ أنموذجاً له .

---

(١) الحيوان ١ : ٣ ط الحلبى .
(٢) الفرق بين الفرق ص ١٦٢ .
(٣) الحيوان ٢ : ١٥٦ .
(٤) « ونسبتى إلى التكرار والترداد ، وإلى التكثير والجهل بما فى المعاد من الخطل » الحيوان ١ : ٥ .

أما إحدى هاتين القطعتين فإنها تتضمن وصفاً لبعض حيل اللصوص ، فهى بذلك أشبه بموضوع كتاب اللصوص ، على الصفة التى قدمناها ، وأجدر أن تكون صورة منه . وهى هذه القطعة :

« ونحن نرى كل من كان فى يده كيس أو درهم أو حبل أو عصا ، فإنه متى خالط عينيه النوم ، استرخت يده ، وانفتحت أصابعه . ولذلك يتثاءب المحتال للعبد الذى فى يده عنان دابة مولاه ، ويتناوم له وهو جالس ؛ لأن من عادة الإنسان ، إذا لم يكن بحضرته من يشغله ، ورأى إنساناً قبالته يتثاءب أوينعس ، أن يتثاءب وينعس مثله . فمتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العنان ، وقد خامره سكر النوم ، ومتى صار إلى هذه الحال ، ركب المحتال الدابة ، ومر بها »[1].

وأما القطعة الأخرى فهى جزء من وصية عثمان الخياط للشطار من اللصوص . قال :

« إياكم إياكم وحب النساء ، وسماع ضرب العود ، وشرب الزبيب المطبوخ . وعليكم باتخاذ الغلمان ، فإن غلامك هذا أنفع لك من أخيك ، وأعون لك من ابن عمك . وعليكم بنبيذ التمر ، وضرب الطنبور ، وما كان عليه السلف . واجعلوا النقل باقلاء ، وإن قدرتم على الفستق والريحان شاهسفرم . وإن قدرتم على الياسمين . ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقناع . والقلنسوة كفر ، والخف شرك . واجعل لهوك الحمام ، وهارش الكلاب . وإياك والكباش واللعب بالصقورة والشواهين . وإياكم والفهود » ، فلما انتهى إلى الديك قال : « والديك فإن له صبراً ونجدة وروغاناً وتدبيراً وإعمالا للسلاح . وهو يبهر بهر الشجاع . » ، ثم قال : « وعليكم بالنرد ودعوا الشطرنج لأهلها . ولا تلعبوا فى النرد إلا بالطويلتين . والودع رأس مال كبير ، وأول منافعه الحذق باللقف » . ثم حدثهم بحديث يزيد بن مسعود القيسى[2].

وهناك قطعة ثالثة أوردها صاحب المحاسن والمساوئ فى الباب الذى عقده للكلام عن مساوئ الجبن . ونستطيع أن نفترض أيضاً أن هذه القطعة مأخوذة كذلك من كتاب اللصوص ، وإن لم ينص على الكتاب ، بل اكتفى بالنص على أنها من كلام عمرو بن بحر الجاحظ . قال :

« سمعت بلالا يحكى عن أصحابه أن رئيسهم كان يسمى أبريقياء ، وأنهم خرجوا فى سفر ، فإذا بعشرة نفر من اللصوص قد تعرضوا لهم ، قال : وكان أشد أصحابنا والمنظور

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٠٩ .

(٢) الحيوان ٢ : ٣٦٦ .

إليه منا فتى يقال له : « دومانى » بطل شديد لا يهوله شىء، مطاعن مسابق . فحمل على رجل منهم ، فعطف عليه الرجل ، فقطع أنف دومانى ونزع حقبيه وكسر أسنانه ، رجع منهزماً . فغاظنى ذلك، فوثبت وأخذت كسائى وطويته بطاقين ولففته على يدى وأخذت عصاى ، وأخذ آخر ملحفة والدته فلفها على ذراعه ، وأخذ آخر طبقاً كبيراً من أطباق الفاكهة فستر به وجهه . وخرجنا وتقدم رئيسنا أبريقياء ، وقد لف على يده قطيفه وهو يقول :

إنْ تنكرونى فأنا ابن كلب

فقال له بعض اللصوص : ما ننكر ذلك عليك . فشد عليه أبريقياء بأسفل دن كان معه، فلم يحك فيه . فأخذ اللص أسفل الدن فرمى به أبريقياء، فهشم وجهه وكسر أسنانه، وتنحى أبريقياء . وأقبل منا آخر يسمى لقوة ، وأنشأ يقول :

إن عصاى — فاعلموا — مقسيرة أضرب بها وجه اللصوص الكفره

ثم شد على واحد منهم فضرب مفرق رأسه فلم يحك فيه . واستلب العصا منه وطلاه بها طلياً ، فإذا هو قد خلع منكبه وكسر أضلاعه وبقى لا يحلى ولا يمر . ثم أقبل فتى من أصحابنا وفى يده مجرفة وهو يقول :

أنا ابن كهل فى يدى مجرفه
والله لو كان بكفى مغرفه
وهى لعمرى قد كستنى ملحفه
والدتى كريمة منظفة
قتلتكم فكيف عندى مجرفه

فضرب بالمجرفة واحداً من اللصوص فأخطأه ، وعطف عليه اللص فأخذها من يده ، ثم ضربه بها ضربة، فدار سبع مرات وسقط ، وقد غشى عليه ، فلما رأيت ذلك عدت إلى الطعان وأنا أقول :

أنا فلان سيد الفتيان
أخو ابن حمران فتى الميدان

أحلف بالله وبالفرقان
لأضربن القوم بالمنيان
ضرب غلام ماجد كشجان
والعجز منسوب إلى الجبان

فأشد على واحد منهم فأضرب كتفيه ، فوثب قبل أن تصل إليه الضربة ، فضربنى فهشم أنفى وكسر أسنانى وخررت مغشياً على . ثم فتحت عينى فلم أر منهم أحداً ، ولا أدرى كيف أخذوا ، والحمد لله على الظفر[1] » .

ولعلنا نستطيع القول — بعد هذا الوصف وهذه النماذج — بأن كتاب اللصوص هذا كان من أهم كتب الجاحظ الفنية . ولعله لم يكن يقل خطراً عن كتاب البخلاء فى تصويره لبعض نواحى المجتمع الإسلامى المعقد فى تلك الفترة من الزمن ، وما كان يداخله من الشرور الاجتماعية الملازمة التى لا يخلو منها مثله ، تصويراً فنياً رائعاً يجمع إلى الدقة فى الوصف والاسترسال فى التفصيل روح الفكاهة والسخرية التى تستغل بعض نواحى الضعف ومظاهر الغفلة فتتخذها موضوعاً لها .

وإلى جانب هذه المعلومات القليلة التى نستطيع أن نتعلل بها يمكن أن نفترض فرضاً آخر يمدنا بشىء جديد نضيفه إلى ما سبق ، وهو أن هذا الكتاب كان من أهم المصادر التى اعتمد عليها أبو القاسم الراغب الأصبهانى ، من علماء القرن الخامس ، فى الفصل الذى كتبه عن : « التلصص وما يجرى مجراه »[2] وهو فصل قيم يصور كثيراً من النواحى فى هذا الموضوع ، ويذكر طوائف اللصوص المختلفة ، وقد أورد فيه فقرات أخرى من وصية عثمان الخياط . كما ذكر بعض الأخبار عنه وعن غيره من اللصوص المعاصرين للجاحظ كأبى معن الزنجى . وقد روى فى الحديث عنه وصف النظام له إذ يقول : « لو ادعى النبوة وأن معجزته الصبر على الضرب بالسياط ، لأدخل عليهم به شبهة عظيمة » . وما أشبه أن يكون هذا منقولا عن كتاب الجاحظ .

٢ — الحرامى (١ : ٨)

هكذا جاء بالراء فى مواضع ، وفى مواضع أخرى بالزاى ، وكلا الاثنين وارد متجه .

---

(١) المحاسن والمساوئ ٢ : ١٤٣ ، ط السعادة ١٩٠٦ .

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء . ٢ : ٨١ — ٨٤ ط الشرفية ١٣٢٦ .

وإذا صحت الأولى فالأكثر أنها نسبة إلى « بنى حرام » (سكة بالبصرة ، منها أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى ، مصنف المقامات المشهورة)[١].

وهو أبو محمد عبد الله بن كاسب ، أحد الذين بنى الجاحظ عليهم كتاب البخلاء ، وقد عقد له فصلا كبيراً أظهر فيه روحه الفكهة ، فيما يصوره به ، وفيما يحكى من نوادره وحججه. وقد قال فى صفته : إنه « كان أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله »[٢]، وكذلك وصفه فى موضع آخر بأنه كان أطيب الخلق[٣] . وكذلك وجد الجاحظ فى هذه الشخصية مادة طيبة لتصوير البخل وتفكير البخلاء وأحاسيسهم ، تصويراً فكهاً ساخراً طريفاً .

ومن تمام صفة الحرامى ما يشير إليه الجاحظ أنه كان حليما ، وأن لون بشرته كان إلى الحمرة . وذلك إذ يقول : « وكان إسماعيل (يعنى ابن غزوان) أحمر حليما ، وكذلك كان الحرامى . وكنت أظن بالحمر الألوان التسرع والحدة ، فوجدت الحلم فيهم أعم »[٤].

وفيما ذكره الجاحظ عنه ما يدل على أنه كان من أصحاب أبى نواس ، وأنه كان يتكلف الشعر على مذهبه ، ويحاول أن يسلك فيه سبيله ، وأنه كان يغطى تخلفه فيه بما كان يصطنع من فكاهة وعبث[٥] وقد أورد له أبو عبيد قطعة صغيرة من الشعر يظهر فيها هذا التأثر إلى جانب طبيعته العابثة[٦]. وكذلك أورد له الجاحظ بيتاً مفرداً يظهر فيه هذا الاتجاه[٧] .

وكان الحرامى يصطنع الكتابة للسراة والولاة . فقد كان كاتباً لمويس بن عمران ، كما كان كاتباً لأبى سليمان داود بن داود . ويظهر أن هذا كان فى أيام ولايته كسكر ، وكان مقيما بواسط .

---

(١) انظر اللباب فى تهذيب الأنساب ، لأبى الحسن على بن محمد بن الأثير ، ١ : ٢٨٨ ، ٢٦٩ ، ط مكتبة القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .
(٢) البخلاء ص ٥٩ .
(٣) الحيوان ٧ : ٦٩ ط التقدم ، ١٩٠٦ م . (٧ : ٢٢٤ ط الحلبى ، ١٩٤٥)
(٤) الحيوان ٥ : ١٠٤ ط مصطفى البابى الحلبى . ١٩٤٣ .
(٥) انظر صورة من ذلك ، مما كان بينه وبين أبى نواس ، فى الحيوان ٧ : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ط الحلبى .
(٦) اللآلى ٢ : ٢٧٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٧) الحيوان ٥ : ١٨٠ ط الحلبى .

٣ ــ الكندى (١ : ٩)

ذكره الجاحظ هنا فى قطعة يمكن القول بأنها من أحسن ما خلف الجاحظ من الآثار الفنية : دقة فى الوصف ، وروعة فى التحليل ، وجمالا فى العبارة . وقد جعل الكلام فيها على لسانه ، باعتباره من أصحاب البيوت » أو « المسكنين » ، على حد تعبيره . وقد قدم فى صفته أنه كان رجلا بخيلا شديد البخل ، صاحب تدبير عجيب ، ثم كان مع هذا طيباً ظريفاً خفيف الظل حسن الحديث . ويقول أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين فى التعليق على هذه القطعة : « فى هذه السهولة ، وهذا اليسر والجمال ، يصور لنا الجاحظ الخصومات ، لا كما كانت تقع بين الملاك والمستأجرين فى بغداد ، بل كما تقع هنا فى القاهرة »[1] وهذه العبارة وصف دقيق لهذة القصة فى أسلوبها وموضوعها ، وهى كافية فى التعبير عن الحيوية التى تتمتع بها ، وعن مقدار صدقها فى تحليل دخائل النفس الإنسانية فى إحدى صورها ، متمثلة فى شخص الكندى ، حتى لم تعد هذهالقطعة رهينة بعصرها وبيئتها ، بل تجاوزت هذه الحدود الضيقة ، إذ كانت قطعة فنيةخالصة ، أكسبها الفن نوعاً من الخلود ، وإذ كان ما تتضمنه من خصومات ومحاورات ليس إلا مظاهر للحركات النفسية التى يبعثها شعور الحرص فى تلك الظروف الخاصة .

وبعد ، فمن هو هذا الكندى الذى كان الجاحظ يعنيه بهذه القطعة ؟ أهو شخص من الأشخاص الذين عنى التاريخ بهم ، فحفظ أسماءهم وخلد شيئاً من آثارهم ؟

يقول الأستاذ فان فلوتن فى تحليله السريع لكتاب البخلاء إن من المحتمل أن يكون هو الفيلسوف المشهور[2] ، يعنى أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى . ثم يقول فى التعليق على هذا الرأى والاستئناس له إن من الممكن أن يستخلص من العبارة الواردة فى (ص ٩٠ س ٣) أن كندينا هذا كان كوفيًّا ، وكذلك كان الفيلسوف . والعبارة التى يشير إليها هى قول الكندى فى رسالته : « أنت تطالبنى ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة » ، وهذا ولا ريب استنتاج غريب ، فواضح أن هذه العبارة لا يمكن أن تفيد شيئاً يعين نسبته إلى بلده أو يشير إليه إشارة ، إلا على شىء من القسر والفهم المتكلف . فهذه واحدة . وأخرى إن أبا يوسف الكندى لم يكن كوفيًّا ، وكل

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٤ ط الصاوى .
(٢) مقدمة كتاب البخلاء لفان فلوتن ص IV .

ما يذكره المؤرخون هو أن أباه إسحاق بن الصباح كان أميراً على الكوفة للخليفة المهدى ، وليس معنى هذا أنه كوفى ، بل إنهم يجمعون على أنه بصرى المنشأ ، ثم انتقل إلى بغداد وتأدب فيها وأقام بها . وكل أخباره وتاريخه العلمى فى بغداد ، منذ لم يعد يربطه بالبصرة إلا ضيعة كانت له فيها . وهكذا نرى أن مقدمتى الاستنتاج باطلتان ، فلا يمكن أن يترتب عليهما شىء .

وكأن الذى يشبه القول بأن كندى كتاب البخلاء هو أبو يوسف الفيلسوف ما يأثرونه عنه من أنه كان معروفاً بالبخل ، محتجاً له . على النحو الذى نراه مثلا عند الحصرى[١] وابن أبى أصيبيعة[٢]. على أن شهرته بالبخل هذه — على فرض صحتها — لا يمكن أن تدل وحدها دلالة قاطعة ولا مقاربة على أنه هو . فإذا أردنا أن نلتمس شخصية الكندى الفيلسوف على ما تأدت إلينا فى ثنايا كلام الكندى الذى ساقه الجاحظ لم نكد نظفر بها ، إلا أن نتكلف أشد التكلف ، ونتعسر فى الاستنتاج والتطبيق ، مما لا يطمئن إليه الضمير العلمى .

وهكذا يبقى ذلك الفرض الذى افترضه العلامة فان فلوتن وتابعه عليه غيره فرضاً تحكمياً ليس له ما يرجحه إلا هذه الصدفة المحضة .

وإلى هنا نرى أننا على الأصل فى هذا الكندى ، وهو أنه شخص مستقل عن الكندى الفيلسوف ، حتى نجد ما يثبت أنه هو . وفوق هذا نجد لدينا أشياء تجعلنا نستأنس بها فى ترجيح هذا الاستقلال :

من ذلك ماقدمنا من أن أبا يوسف الكندى انتقل إلى بغداد وتأدب فيها ، وأقام بها ، حتى أصبح رجلا بغدادياً . ولكنا نجد فى قصة الكندى ما يشير إلى أنه بصرى لا بغدادى . وهذه الإشارة لا نزعم أنها قاطعة ولا قريبة من القطع ولكنا نسوقها على سبيل الاستئناس وحده حتى نجد ما يعززها ويشد منها . وذلك فى القصة التى رواها عمرو بن نهيوى أن الكندى سمع صوت انقلاب جرة من الدار الأخرى ، فصاح بالخادمة . فقالت مجيبة له ، إنه ماء بئر[٣] وظاهرة الحرص على الماء العذب والمغالاة به ظاهرة بصرية — كما سيجىء القول فى بعض هذه التعليقات — ويقل عندنا أن يكون شىء من ذلك فى بغداد ، حيث الماء العذب كثير موفور .

---

(١) زهر الآداب ٣ : ٢٤٦ .

(٢) طبقات الأطباء ١ : ٢٠٩ ط الوهبية ١٨٨٢ .

(٣) كتاب البخلاء ص ٨١ .

ومن ذلك أيضاً، مما يشير إلى التعارض بين الكنديين ، ونسوقه أيضاً من قبيل الاستئناس، أن كندى البخلاء لم يكن له إلا غلة دارة ، فلم يكن صاحب ضيعة ، إذ كان يقول لعياله : « أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع »(١) وأما أبو يوسف الكندى الفيلسوف فقد رأينا أنه كان يملك ضيعة بالبصرة .

وعلى هذا نرجح أن كنديينا هذا هو شخص آخر منسوب إلى كندة ، غير أبي يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى الفيلسوف .

٤ ـ ابن غزوان (١ : ٩)

هو إسماعيل بن غزوان . ذكره الجاحظ فى كتابه البخلاء فى عدة مواضع ، مذكوراً بالبخل ، مقروناً بالانتصار له ، وقد كان من أصحاب الكندى وأبى سعيد الثورى . والأخبار عنه بعد ذلك قليلة لا تعطينا صورة واضحة عنه . وقد أسند الجاحظ إليه فى البيان والتبيين عبارة جيدة الصنعة من قبيل احتجاج الأشحاء ، وهى : « لا تنفق درهماً حتى تراه ، ولا تثق بشكر من تعطيه حتى تمنعه ، فالصابر هو الذى يشكر ، والجازع هو الذى يكفر »(٢) .

ويظهر أنه كان ممن يلابس المتكلمين ويأخذ مأخذهم . وقد حكى عنه الجاحظ فى الحيوان ما يشير إلى هذا . قال : « ولإسماعيل بن غزوان فى هذا نادرة . وهو أن سائلا سألنا، من غير أهل الكلام، فقال : ما بال ورق الخيرى ينضم بالليل وينتشر بالنهار ؟ فانبرى له إسماعيل بن غزوان فقال : لأن برد الليل وثقله من طباعهما الضم والقبض والتنويم ، وحر شمس النهار من طباعه الإذابة والنشر والبسط والخفة والإيقاظ . قال السائل : فيما قلت دليل ، ولكنه . . . قال إسماعيل : وما عليك أن يكون هذا فى يدك إلى أن تصيب شيئاً هو خير منه » . قال الجاحظ بعد ذلك : « وكان إسماعيل أحمر حليما » (٣) وكذلك تدل بعض الأخبار التى يحكيها الجاحظ عند أنه كان على صلة بأبى إسحاق إبراهيم النظام(٤) ، وكذلك كان على صلة بأنس بن أبى شيخ ، كاتب جعفر بن يحيى ، وكان أنس ـ كما يصفه الجاحظ ـ زكناً فهماً ، نقى الألفاظ ، جيد المعانى ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٨١ .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٧ ، ط ١٩٣٢ م .
(٣) الحيوان ٥ : ١٠٤ ط الحلبى ، ١٩٤٣ م .
(٤) الحيوان ٥ : ١١٧ .

حسن البلاغة[١]، وقد شهد أنس له بأنه حسن الفهم حسن الاستماع[٢]، ويدلنا هذا الخبر الذى تضمن هذه الشهادة أن إسماعيل ابن غزوان كان رجلا مقدور الجانب قبل سنة ١٨٧ ، وهى السنة التى قتل فيها أنس مع جعفر بن يحيى .

وأما أخلاقه الشخصية ففى الحيوان خبران يدلان على أنه كان مستهتراً بالنساء ، غير متحرج فيهن[٣] .

ومن أقواله المأثورة : « الأصوات الحسنة ، والعقول الحسان كثيرة . والبيان الجيد والجمال البارع قليل »[٤].

٥ ــ الحارثى (١ : ٩)

أحد الذين عقد لهم الجاحظ الفصول المطولة فى كتابه البخلاء لتصوير البخل واحتجاجات البخلاء وتعلاتهم فى صور مختلفة ، كل واحدة منها تمثل وجهاً من وجوهه ، ولوناً من ألوانه .

وهو هنا رجل سرى متنبل ، وقد اتخذ بخله من هذا التنبل مادة للاحتجاج والمجادلة .

ولم يشر الجاحظ فى ذكره له إلى شىء يقرب إلى تعيين شخصه ، من اسم أوكنية أو غيرهما ، فليس لنا إلا أن نتلمسه تلمساً يقوم على الظن أو ما هو دونه .

غير أنا لا نشك ــ قبل كل شىء ــ فى أن الحارثى هذا هو شخص آخر غير زياد بن عبيد الله الحارثى والى مكة والمدينة والطائف واليمامة فى أيام أبى جعفر المنصور ، على الرغم من أنه يعد فى البخلاء أصحاب النوادر فى البخل ، مما قد يشبه أنه هو. ففضلا عن أن قصة الحارثى فى البخلاء يبعد أن تنتسب إلى مثل شخصية زياد الحارثى العربى الصريح ، فإن حكايته عن مويس بن عمران وعلى الأسوارى ومحمد بن يحيى البرمكى تدل على أنه من جيل غير جيل زياد ، متأخر زمنه عنه . وإذن فمن عسى أن يكون حارثينا هذا ؟

قد يكون ذلك الحارثى هو ذلك الذى هجاه على بن الجهم وأبو على البصير ، وذكره أبو الفرج[١] رواية عن ابن الجهم ، قال : « كان الحارثى يجىء إلى حلوان وأنا أتولاها

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى . ص ٢٣٩ ، ط الحلبى ، ١٩٣٨ م .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٠٧ ، ط ١٩٣٢ ، عيون الأخبار ٢ : ١٢٨ .
(٣) الحيوان ٢ : ٥٨ ــ ٥٩ ، ٥ : ١١٧ ــ ١١٨ ، وانظر أيضاً عيون الأخبار ٤ : ١٠٨ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٦٨ .
(٥) الأغانى ١٠ : ٢١٠ ــ ٢١١ ط دار الكتب المصرية .

ـ (وقد كان على بن الجهم على مظالمها) ـ فإذا وردها وقع الإرجاف ، فلم يزل متصلا حتى يخرج ، فإذا خرج سكن الإرجاف . فأتانى مرة وظهر كوكب الذنب فى تلك الليلة ، فقلت :

لما بـــدا أيقنت بالعطـــب فسألت ربى خـــير منقلب
لم يطلعـــا إلا لآبـــدة الحـــارثى وكوكب الذنب

ثم حكى أبو الفرج عن ابن المدبر قوله فى صفة الحارثى : « وكان الحارثى أعور مقبح الوجه ، وفيه يقول أبو على البصير :

يا معشر البصراء ! لا تتطرفوا جيشى ، ولا تتعرضوا لنكيرى
ردوا على الحارثى ، فـــإنه أعمى يدلس نفسه فى العور »

وكذلك يذكره المسعودى فى سياق خبر رواه عن المبرد أنه كان فى مجلس القاضى أبى إسحاق إسماعيل بن إسحاق ، وحضر جماعة سماهم ، منهم الحارثى . وأن الحارثى هذا أنشد لأبى تمام معاتبة أحسن فيها ، وأن المبرد استحى أن يستعيده[1].

أفيكون الحارثى هذا هو حارثينا المذكور فى البخلاء ؟

٦ ـ الأخلاط (٣ : ٦)

ذكر الجاحظ تقويم الأخلاط فى معنى تعديل الطباع ومعالجة الأخلاق . والأخلاط هى الأمزجة الأربعة ، وكانت أساس التشريح القديم ، ولكنهم كانوا ـ فوق ذلك ـ يصلون بينها وبين الأخلاق والحالات النفسية . فقد جاء ، مثلا ، فى رسائل إخوان الصفاء ، فى الرسالة التاسعة من الجسمانيات الطبيعيات أن الأخلاط الأربعة هى الصفراء والدم والبلغم والسوداء ، وأن هذه الأخلاط هى التى خلقت منها جواهر الجسم التسعة : العظام والمخ والعصب، والعروق والدم واللحم الجلد والظفر والشعر[2].

وجاء فى الرسالة التاسعة فى الأخلاق والآداب أن أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه : أحدها من جهة أخلاط أهم ودجسامزاج أخلاطها[3].

وقد أشار الجاحظ إلى شىء من هذا ، وإلى أن صاحب هذا القول هو المعلم ،

---

(١) مروج الذهب ٧ : ١٥٣ ـ ١٥٤ ط باريس .
(٢) رسائل إخوان الصفا ٢ : ٣٢٠ إلخ ، ط العربية بمصر ، ١٩٢٨ م .
(٣) رسائل إخوان الصفا ١ : ٢٢٩ .

(ولعله يعنى أرسطو) ، حين قال فى رسالة التربيع والتدوير : « ولم جعل (أى المعلم) الرعب للسوداء ، والحزن للبلغم ، والجرأة للصفراء ، والسرور للدم »[1].

وقد ذاعت هذه النظرية وترددت أصداؤها فى مختلف البيئات العلمية والأدبية والدينية ، منسوبة مرة إلى هذا أو ذلك من العلماء ، كما رأينا فى نص الجاحظ ، وأخرى إلى المصادر الدينية المختلفة ، كما يحكى عن وهب بن منبه أنه وجدها فى التوراة مفصلة [2] .

٧ ــ خباب (٤ : ٨)

هذا أحد ثلاثة من أصحاب المذاهب الغريبة التى ظهرت فى أيام الجاحظ ، وذكرهم فى مقدمة البخلاء ، لينوه بأن ذلك مما اشتمل عليه كتابه « المسائل » جلياً واضحاً .

وخباب هذا هو ــ فيما يؤخذ من كلام الجاحظ ــ كان الناطق برأى المزدكية ، المستحيي لمذهبهم ، فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية بين إطلاقها وتنظيمها . ولم أجد عنه فيما قرأت شيئاً ، إلا أن الأستاذ فان فلوتن ذكر فى الملاحظات والإيضاحات التى ألحقها بنشرته لكتاب البخلاء أن من المحتمل أن يكون اسمه « جناب » ، وأن يكون هو « جناب ابن الخشخاش القاضى » كما جاء فى المشتبه ص ١٣٨ ، وقد أسند إليه الجاحظ فى الحيوان بعض الملاحظات عن النساء .

٨ ــ الجهجاه (٤ : ١٥)

أما الجهجاه هذا فقد كان يذهب إلى نصرة الكذب والدفاع عنه ، والانتصاف له ممن كانوا يتجنون عليه بتناسى مناقبه وتذكر مثالبه ، « وأن ليس كل صدق حسناً ، ولا كل كذب قبيحاً » .

وكما كان مذهب خباب من أصداء المزدكية الفارسية كما رأينا ، فإن مذهب الجهجاة هذا كان ــ فيما نحسب ــ من أصداء السوفسطائية اليونانية التى جعلت المعارف والمبادئ الأخلاقية موضع الجدل والإنكار ، فليس هناك حق وباطل ، كما أنه ليس هناك خير وشر .

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٢٩ ، ط الرحمانية بمصر ، ١٩٣٣ م .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ٦٢ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ م .

وأما شخص الجهجاه فالأمر فيه غامض ، إذ كانت النصوص لم تواتنا بما يكشف عنه ويعينه . وقد ذكر الآبى رجلا بهذا الاسم وصفه بأنه كان مجنوناً ، وأنه كان يدعى الخلافة ، ثم ذكر عنه فى النص نفسه ما يؤخذ منه أنه كان متهماً بالزندقة ؛ « قال له الرشيد : لأضربنك بالسياط حتى تقر بالزندقة » ، كما روى عنه أيضاً نادرة نشهد له بحضور البديهة ، والتمرس بأساليب المتكلمين فى الجدل والمناظرة : « قال جعفر بن يحيى ، كالهازئ به : هذا أمير الضراطين يزعم أنه أمير المؤمنين . قال : لو كنت كذا كنت أوسع إمرة من صاحبك . إن الضراط عام والإيمان خاص »[١] فترى هذا الجهجاه هو صاحبنا ؟ أنا لا أبعد ذلك . وليس يبعده أن تكون به لوثة .

على أنا — مع هذا — لا ننسى اسماً آخر قريباً ، فربما كان هو صاحبنا ، هو أبو الجهجاه الذى لقبه الجاحظ فى موضع آخر من « البخلاء » بالنوشروانى ، وذكر فى موضع من الحيوان أن اسمه محمد بن مسعود[٢]. كما جاء ذكره فى مواضع أخرى مختلفة[٣] ويؤخذ من هذه النصوص، التى لم يذكر فيها إلا عرضاً، أنه كان من أصحاب أبى عمرو المكفوف ، وأنه كان يتعاطى الكلام ، ويرى فى الأعراض رأياً غريباً ، فإنه زعم أن القائم غير القاعد ، وأن العجين غير الدقيق .

٩ ـ صحصح (٤ : ٢٠)

وهذا ثالث الثلاثة . وهو صاحب مذهب من هذه المذاهب التى تدل على مقدار ما وصلت إليه فوضى الآراء فى ذلك العهد . فقد كان ينكر الحياة العقلية ، وينشد الكمال الجسدى ، ويفضل ما أدى إليه من النسيان والغباء والغفلة . ويظهر أن هذا الرأى كان من الآراء التى تقع عليها المناظرة . ولعل الجاحظ كان ينظر إليه حين قال فى الحيوان : « ومن الناس من يقول إن العيش كله فى كثرة المال ، وصحة البدن ، وخمول الذكر »، ثم ذهب يناقش هذا القول مناقشة كلامية[٤]

وقد كان صحصح هذا — كما يؤخذ من النص الوحيد الذى عثرنا به يذكره — متكلما ذكره الجاحظ مع طائفة من المتكلمين فى رد قول أبى إسحاق إن السباع والبهائم

(١) نثر الدرر ٣ : ٣٤٤ ، فتوغرافية دار الكتب المصرية .
(٢) الحيوان ٢ : ٣١١ ، ط الحلبى .
(٣) الحيوان ٣ : ٩ ، ٤ : ٢٠ ، ٥ : ١٤ ط الحلبى .
(٤) الحيوان ٢ : ٩٦ — ١٠٠ ط الحلبى ، ١٩٣٨ م .

لا تدخل الجنة ، ولكن الله ينقل تلك الأرواح خالصة من تلك الآفات فيركبها فى أى الصور الحسان أحب . قال : « وكان أبو كلدة ومعمر وأبو الهذيل وصحصح يكرهون هذا الجواب ، ويقولون : سواء عند خواصنا وعوامنا أقلنا إن أرواح كلابنا تصير إلى الجنة ، أم قلنا إن كلابنا تدخل الجنة إلخ »[١].

١٠ ـ كتاب المسائل (٤ : ٧)

ذكر الجاحظ هذا الكتاب هنا ليحيل عليه الراغب فى الاستزادة من مثل تلك الآراء الثلاثة التى ذكرها ، فهى إذن تعتبر أنموذجاً منه ، ومثلا مما تضمنه ، وقد ذكره فى مقدمة الحيوان إلى جانب كتاب الجوابات[٢] ، والكتابان يقترنان فى الفهرست التى أوردها ياقوت لكتب الجاحظ على هذه الصورة : « كتاب جوابات كتاب المعرفة ، كتاب مسائل كتاب المعرفة »[٣] . وربما كان هذان الكتابان قد أفردا من كتاب المسائل الذى يذكره الجاحظ هنا ، إذ كانت « المعرفة » باباً من أبوابه .

ويتبين لنا منهج هذا الكتاب ـ إلى جانب ما سبق ـ فى هذه العبارة التى يختم بها الجاحظ كتابه فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ، إذ يقول : « ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ويكون غايته إظهار فضل نفسه ، وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه وولده ، لكان كتاباً كبيراً كثير الورق عظيما إلخ »[٤].

وكذلك بقيت لنا قطعة من كتاب المسائل والجوابات ، وهى فى المعرفة ، فى مختارات رسائل الجاحظ المحفوظة بالمتحف البريطانى برقم ١١٢٩ ملحق ، وتقع ما بين ورقتى ١٧٥ ، ١٨٦ .

١١ ـ عامر بن عبد قيس (٦ : ١)

هكذا يسميه الجاحظ ، واسمه ـ عند أبى نعيم ـ عامر بن عبد الله بن عبد قيس[٥] ،

(١) الحيوان ٣ : ٣٩٥ ، ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٨ م .
(٢) الحيوان ١ : ٩ ، ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٨ م .
(٣) معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ ، ط دار المأمون .
(٤) مجموعة رسائل الجاحظ ص ٥٣ ، ط التقدم بالقاهرة .
(٥) حلية الأولياء ٢ : ٨٧ ، ط السعادة ، ١٩٣٢ م .

وهو أحد الرجال الذين يكثر الجاحظ من ذكرهم وترديد أسمائهم، من أهل الزهد والبيان من رجال البصرة .

وكان تميمياً من بنى العنبر ، تلقى عن أبى موسى الأشعرى ، وأظهر الزهد وإنكار المنكر ، ويذكر البلاذرى عن أبى مخنف لوط بن يحيى أنه كان ينكر على عثمان أمره وسيرته ، فكتب حمران بن أبان مولى عثمان إلى عثمان يخبره ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر بن كريز فى حمله فحمله ، فلما قدم عليه فرآه ، وقد أعظم الناس إشخاصه وإزعاجه عن بلده لعبادته وزهده ، ألطفه وأكرمه ورده إلى البصرة[1] . ويصف الجاحظ فى بعض خبره عنه شيئاً مما كان بينه وبين عثمان فى تلك اللقيا ، إذ يقول : « وخرج عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه من داره يوماً ، وقد جاء عامر بن عبد قيس ، فقعد فى دهليزه ، فلما رأى شيخاً دمياً أشغى ثطا فى عباءه ، فأنكره وأنكر مكانه ، فقال : يا أعرابى ! أين ربك ؟ قال : بالمرصاد . ويقال إن عثمان بن عفان لم يفحمه أحد قط غير عامر بن عبد قيس »[2].

ولم يطل به الأمر كثيراً فى البصرة بعد عودته إليها ، فوقع بينه وبين واليها ما أدى إلى إخراجه إلى الشام، وهنالك أنكر فى الشام ما أنكره فى العراق من مظاهر اللهو والبعد عن حقائق الدين .

والجاحظ يورد له فى ثنايا كتبه عبارات له تشهد برقة القلب وصفاء البصيرة وحضور البديهة ، كما تشهد له بالبيان وحسن الديباجة والقدرة على أن يصل ببيانه إلى أعماق القلوب ، وكذلك نجد طائفة من كلامه عند أبى نعيم فى الفصل الذى كتبه عنه فى حلية الأولياء ، وفى عيون الأخبار لابن قتيبة .

١٢ ــ صفوان بن محرز (٦ : ٢)

وهذا أيضاً ناسك زاهد من أهل البيان من الطبقة الأولى ، مات سنة ٧٤ ، كما ذكر ابن قتيبة[3] ، وهو كذلك بصرى تميمى ، من غسان تميم ، صحب أبا موسى الأشعرى ، وتثقف عليه أيام ولايته البصرة ، وظل فيها إلى أن مات بها فى ولاية بشر بن مروان .

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٥٧ ط الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ م .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٠٠ ط ١٩٣٢ م .

(٣) كتاب المعارف ص ٢٣٢ .

ويذكره الجاحظ دائماً فى باب الزهاد والنساك من أهل البيان .
وقد ترجم له أبو نعيم فى كتابه[١].

١٣ ـ أبو الحارث جمين (٧ : ١٦)

يذكر فى مواضع كذلك ، وفى مواضع أخرى بالزاى بدلا من النون ، ويذكره المحدثون بالصورة الأولى كما يقول الفيروزبادى ، وهو يخطئهم فى ذلك ، ويذكر أن صحة الاسم « جميز » بالزاى ، مستشهداً لذلك ببيت من الشعر لابن مقسم :

إن أبا الحارث جميزا   قد أوتى الحكمة والميزا

وقد ذكره الجاحظ فى عدة مواضع من « البخلاء » [٢] أشار فيها إلى طائفة من نوادره على الطعام فى خلال ما يورده من حديث من يتحدث بلسانهم .

وقد كان أبو الحارث من أولئك الذين كانوا يتجرون بالنادرة فى العراق ، كأبى دلامة وابن دراج ومن إليهما : يدعوهم السراة إلى مجالسهم ، ويحضرونهم طعامهم ، وربما أجزلوا الجائزة لهم . وقد كانوا يعتبرونهم أداة من أدوات الترف ، ومظهراً من مظاهر السراوة ، لا غناء لهم عنه .

وكان أبو الحارث مدنياً ، وكان ولاؤه لبيت حمزة بن عبد المطلب[٣] . وفى المدينة نشأ هذا النوع من الترف ، حتى لتعتبر نوادر المدنيين باباً على حدة فى كتب الأخبار والمحاضرات ، فهناك أشعب والدلال والغاضرى إلى كثير غيرهم . وكان الحجاز ينفرد بهذا حين كانت الدولة فى الشام ، وفى أهل الشام جفاء وغلظة . ثم صار أصحاب النوادر يفدون على العراق يلتمسون هذه التجارة فيه كصاحبنا أبى الحارث . وقد جعلت هذه التجارة تروج وتنتشر ويعظم أثرها بازدياد مظاهر الترف ، حتى صارت بعد ذلك تلتمس التماساً بالتلقى والتعلم ، كما ذكر الحصرى عن أبى العبر : « كنا نختلف ونحن أحداث إلى رجل يعلمنا الهزل » [٤] ومن هنا نرى كيف كثر أصحاب النوادر وعظم شأنهم فى أيام المتوكل .

---

(١) حلية الأولياء ٢ : ٢١٣ .
(٢) البخلاء ص ١٧ ، ٧٢ ، ٩٧ ، ١٩٧ .
(٣) الورقة ، ص ٣٨ ، ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
(٤) جمع الجواهر ص ٦٦ ط الرحمانية ، ١٣٥٣ هـ .

ويظهر أن أبا الحارث جمينا كان أكبر صلته — كما يؤخذ من أخباره — بمحمد ابن يحيى البرمكى وعيسى بن جعفر ، وكانا يصلانه بالرشيد أحياناً .
أما نوادره فكثيرة جداً أورد الحصرى طائفة غير قليلة منها [١] ، وكذلك نجد ابن قتيبة [٢] والثعالبى [٣] يؤديان إلينا بعض ما يؤثر عنه من تندره على طعام محمد بن يحيى على النحو الذى جاء هنا فى كتاب البخلاء [٤] ، كما أورد له الجاحظ فى البيان والتبيين فقرتين من كلامه [٥] وذكر له المبرد نادرة مع امرأة كان يحبها [٦] . وغير ذلك كثير فى الأغانى وغيره كنثر الدرر للآبى .

١٤ — الهيثم بن مطهر (٦ : ١٦)

وهذا أيضاً من أصحاب النوادر ، كما يؤخذ من كلام الجاحظ . ولكنه لم يرزق الحظوة التى رزقها أبو الحارث ، فلم يؤثر عنه — فيما وقفنا عليه — إلا خبر واحد أورده الجاحظ فى البيان والتبيين [٨] وأورده ابن قتيبة فى عيون الأخبار [٨] . ويؤخذ من هذا الخبر أنه كان أعرج كالحكم بن عبدل ، وأنه كان فى أيام المهدى ، حين كانت الخيزران منبسطة تروح المواكب وتغدو إلى بابها ، كما يقول ابن الطقطقى [٩] .

١٥ — مزبد (٧ : ١٧)

وأبو إسحاق مزبد هو — كأبى الحارث جمين — مدنى نشأ فى المدينة ، وتثقف بها تلك الثقافة العابثة اللاهية ، ثم انتقل منها إلى العراق ، وكان بها فى أيام المهدى . فقد

(١) جمع الجواهر ص ٦٣ ، ٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .
(٢) عيون الأخبار ٣ : ٣٦٢ . ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ م .
(٣) ثمار القلوب ص ٣٥ — ٣٦ ، ط الظاهر ، ١٩٠٨ م .
(٤) البخلاء ص ١٧٩ .
(٥) البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، ٢٥٢ ط ١٩٣٢ م .
(٦) الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٠ ط الأزهرية ، ١٣٣٩ هـ .
(٧) البيان والتبيين ٢ : ١٤١ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٢ : ٢١٢ — ٢١٣ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .
(٨) عيون الأخبار ١ : ١٦٠ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥ م .
(٩) الفخرى ص ١٤٢ ، ط الرحمانية ، ١٩٢٧ م .

روى الحصرى[١] أن أبا حبيب مضحك المهدى كان يحفظ نوادر مزبد ، ويحكيها له . فقال له مزبد : بأبى أنت ! أنا أزرع وأنت تحصد .

ولم تكن المتاجرة بالنادرة عمله الوحيد الذى كان يصطنعه ويعرف به ، حين كان بالمدينة ، وإنما كان — إلى جانب ذلك — يعين على وسائل اللهو الأخرى . فنجده مرة يضبط وهو يعمل النبيذ ويتجر به . ومرة أخرى يضبط وقد جمع فى بيته رجلا وامرأة ، ويظهر أن هذه الظاهرة كانت عامة شائعة فى أمثال مزبد من الملهين ، وممن كانوا يسمونهم بالمخنثين ، وهى طبقة كبيرة متميزة بالمدينة لذلك العهد وقبله ، منهم النفاشى وزرجون والدلال وهنب وطويس وفند ، وكانوا جميعاً يصطنعون هذه الحياة ، حتى ما نكاد نخطئ ذلك فى الأخبار المأثورة عن كل واحد منهم .

أما نوادر مزبد فقد أورد ابن شاكر الكتبى طائفة كبيرة منها[٢] وكذلك الحصرى فى جمع الجواهر[٣] ، وفى عيون الأخبار ثلاث نوادر صغيرة[٤] ، وأورد الثعالبى عنه خبرين طريفين[٥] وأما الجاحظ فقد روى له — غير ما رواه — نادرة أخرى فى البيان والتبيين[٦] .

١٦ — صالح بن حنين (٧ : ١٨)

يذكره هنا فى سياق يدل على البغض والثقل ، ويذكره مرة ثانية فى رسالة الجد والهزل ، التى وجهها إلى محمد عبد الملك الزيات[٧] ، مع جماعة نعرف الآن منهم « حاتم الريش » ، وكان نديماً من ندماء صالح بن الرشيد ، وسياق القول فيه يدل على أنه كان أدنى أن يكون مضحكاً من أن يكون نديماً[٨] ، وكذلك يبدو أن هذا كان شأن صالح بن حنين : أى أنه كان مضحكاً سخيفاً بارد النادرة .

---

(١) جمع الجواهر ص ٢٥٤ .

(٢) فوات الوفيات ٢ : ٣٠٣ — ٣٠٥ .

(٣) جمع الجواهر ص ١٤٤ ، ١٥٧ ، ٢٥٤ ، ٣٠٠ .

(٤) عيون الأخبار ١ : ٣٩ ، ٢٦٣ و ٣ : ٢٧٧ .

(٥) ثمار القلوب ٣٧٢ ، ٥٢٢ .

(٦) البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، ط الفتوح الأدبية ١٣٣٢ هـ (٢ : ٨٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .

(٧) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٦٥ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٣ م .

(٨) الأغانى ٧ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م .

١٧ ـ ابن النواء (٧ : ١٨)

لعله يقصد كثير بن إسماعيل النواء ، أحد زعماء الفرقة البترية من الرافضه . ولانعرف عنه أكثر من هذا . وقد ورد اسمه فى مقالات الإسلاميين للأشعرى[١]. ، وفى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى .

١٨ ـ بكر بن عبد الله المزنى (٨ : ١١)

صورة أخرى من صور الزهاد الأبيناء من أهل البصرة ، غير تلك الصورة التى رأيناها فى عامر ابى عبد قيس الذى ظل أعرابياً بدوياً ، أما هو فقد كان مدنياً حضرياً ، على زهده ورقة قلبه .

وهو من أهل القرن الأول ، من أصحاب الحسن البصرى، وقد كان الناس يقرنونهما فيقولون : شيخ البصرة الحسن وفتاها بكر[٣]. وقد جعله الزهد وطول التأمل نير البصيرة خبيراً بأدواء النفوس . فمضى يخطب الناس ويعظهم ، وقد كان يرى عمله فى تهذيب النفوس وقمع غرائز الشر هو العمل الذى تهيأت له نفسه . وكلامه فى عدم الحمل على النفس ، وأن خير الكلام ما كان عقب الجمام ، وأن طول الصمت حبسة ، وما إلى ذلك[٤] ، مما يدل على الغاية التى يراها لنفسه ، والتى كان يؤثرها بحبه ، ويراها خير ما يقرب إلى الله . وقد حكى أبو نعيم عن معاوية بن عبد الكريم قال : سمعت بكر بن عبد الله المزنى يقول يوم الجمعة ، وأهل المسجد أحفل ما كانوا قط : لو قيل لى خذ بيد خير أهل المسجد ، لقلت : دلونى على أنصحهم لعامتهم ، فإذا قيل : هذا ، أخذت بيده ، وإذا قيل لى : خذ بيد شرهم ، لقلت : دلونى على أغشهم لعامتهم . ولو أن منادياً ينادى من السماء ألا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد ، لكان ينبغى لكل إنسان أن يلتمس أن يكون ذلك الواحد، ولو أن منادياً ينادى من السماء ألا يدخل النار منكم إلا رجل واحد، لكان ينبغى لكل إنسان أن يفرق أن يكون ذلك الواحد[٥] .

---

(١) ص ٦٨ .
(٢) ص ٢٤ ، ط ١٩١٠ م .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ، ط ١٩٣٢ م .
(٤) انظر البيان والتبيين ١ : ١٥١ ط ١٣٣٢ هـ ، جنع الجواهر ص ١ .
(٥) حلية الأولياء ٢ : ٢٢٤ ، ط السعادة ١٩٣٣ م .

ولعل هذه الغاية التى وضع نفسه لها كانت من أول الأسباب التى جعلته يرفض ما عرضه عليه أمير البصرة فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وهو عدى بن أرطأة ، من ولاية القضاء ، ويقول فى ذلك قولته المشهورة : « والله ما أحسن القضاء ، فإن كنت صادقاً فما يحل لك أن توليني ، وإن كنت كاذباً إنها لأحراها »[١] وكأنما كان يرى فى ولاية القضاء إفساداً لما بينه وبين الناس ، وصداً عن عمله الذى اطمأنت إليه نفسه . وكان حريصاً على علاقته بالناس ، واسع الصدر لهم ، يرى ذلك أجدى عليه فى هدايتهم ، والوصول إلى قلوبهم . وكان يقول : « إياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم ، قيل : ما هو؟قال : سوء الظن بالناس، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا ، وإن أخطأتم أثمتم »[٢].

وقد كان ذلك أحد الأشياء التى يتميز بها عن غيره من الزهاد والخطباء . وقد يتميز ، أيضاً بعدم الحرص على الظهور بمظهر الفقراء ، فقد كان على زهده يتأنق فى لباسه ولا يعبأ أن ينفق عليه أربعة آلاف درهم[٣] . وذلك مما يدل — ولا ريب — على رحابة نفسه وسعة أفقه .

وقد ترجم له ترجمة صغيرة ابن قتيبة فى المعارف . وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار وحلية الأولياء شذرات من أخباره وكلامه تدل إلى أى حد كان الرجل جيد العبارة خبيراً بالدخائل النفسية .

١٩ — مؤرق العجلى (٨ : ١٢)

أبو معتمر بن مشمرج (أو ابن عبد الله) العجلى . وهو أيضاً أحد الزهاد الأبيناء من أهل البصرة ، فى القرن الأول ، كما يعده الجاحظ فى غير موضع فى البيان والتبيين . ويظهر أنه كان منكمشاً فى نفسه ، منطوياً على العبادة والنسك ، وعلى رواية الحديث الذى أخذه عن بعض الصحابة ، كعمر وسلمان وأبى ذر وأبى الدرداء وابن عباس .

وأخباره قليلة ، وكذلك كلماته المأثورة . وله ترجمة فى تهذيب التهذيب ، وأخرى فى حلية الأولياء . وقد مات فى أوائل القرن الثانى ، على خلاف فى تعيين سنة موته .

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ، ط ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٦٤ .
(٢) حلية الأولياء ٢ : ٢٢٦ .
(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٢٣٢ ، حلية الأولياء ٢ : ٢٢٧ .

٢٠ – يزيد بن أبان الرقاشي (٨ : ١٢)

وهذا أيضاً أحد الزهاد الخطباء من أهل البصرة ، ممن يعدهم الجاحظ مرة بعد مرة ، ولكنه يختلف عمن تقدم ذكره اختلافاً كبيراً . فعامر وصفوان وبكر ومؤرق كانوا عرباً خالصى العروبة ، فأما يزيد هذا ففارسى الدم ، عريق فى فارسيته . قال أبو عبيدة – وهو يتحدث عنه وعن أفراد أسرته – : « وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الإسلام وفى جزيرة العرب ، نزعهم ذلك العرق ، فقاموا فى أهل هذه اللغة كقامهم فى أهل تلك اللغة . وفيهم شعر وخطب . وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم ، ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور »[١].

فمن جهة آبائه وميراث البيان الذى ورثه عنهم صار يزيد خطيباً من خطباء المسلمين من الطراز الأول . وكذلك صار ابن أخيه الفضل بن عيسى ، وابنه عبد الصمد بن الفضل .

وهناك شىء آخر نحسب أنه أثر من آثار الوراثة الفارسية ، وهو القصص الذى عرف به ، فقد كان قاصاً مجيداً ، كما كان الفضل وعبد الصمد الرقاشيان . وما نحسب هذا الفن نشأ إلا حيث كان أمثال يزيد الرقاشى هذا ، من أبناء الفرس وورثة الروح الفارسية ، فكانت مجالسهم الدينية تتشقق عن أخبار الأمم الماضية ، وكان تأويلهم للقرآن يزخر بالأقاصيص المختلفة .

وكان يزيد – فيما يظهر – من أوائل الذين أدخلوا هذا النمط من الوعظ ، وهذه الوسيلة إلى تقوية العاطفة الدينية . فكان الناس يختلفون فى تقديره ، فقد كان هنالك – إلى جانب المعجبين به – من كان يرى فى أسلوبه هذا تكلفاً وتلفيقاً ، فكان يستثقل حديثه ويبغض مجلسه . ويتحدث ابن أبى أمية عنه فيقول :

شهدت الرقاشى فى مجلس ... وكان إلى بغيضاً مقيتاً
فقال : اقترح كل ما تشتهى ... فقلت : اقترحت عليك السكوتا[٢]

وقد كان المحدثون يعرضون عنه ويتهمونه . ذلك أن طبيعة القصص والرغبة فى التأثير

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٤٧ ، ط ١٩٣٢ م .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ ، ط ١٩٣٢م .

والقصد إليه لم تكن تتفق كثيراً مع التزمت فى الرواية ، فكانت تعدو به فى كثير من الأحيان عن الدقة وتحرى الصحة ، وبذلك كثرت فى رواية الحديث مآخذه ، كما كثر الطعن عليه . فكان شعبة يقول : « لأن أقطع الطريق أحب إلى من أن أروى عن عن يزيد » ؛ ويقول مرة أخرى : « لأن أزنى أحب إلى من أن أحدث عن يزيد الرقاشى » . ويقول ابن حبان : « غفل عن حفظ الحديث شغلا بالعبادة » [١].

وقد كان يزيد الرقاشى رقيق العاطفة ، حاد الشعور ، كما يؤخذ من أخباره وكلماته . وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار طائفة منها . وله فوق ذلك ترجمة فى تهذيب التهذيب ، وأخرى فى حلية الأولياء .

وقد مات فى العشرة الثانية من القرن الثانى ، كما نقل صاحب تهذيب التهذيب عن البخارى .

٢١ ــ أبو كعب الصوفى (٨ : ٣)

وهذا قاص آخر من طراز آخر ، فقد أورد الجاحظ يزيد الرقاشى فى معرض الكلام عن الزهد والموعظة ، وأورد أبا كعب هذا مع أبى نواس والحسين الخليع فى نسق واحد .

وهو يمثل طوراً آخر من أطوار القصص والقصاص ، حين صار هذا الفن صناعة من الصناعات الدنيا التى يلتمس بها العيش ، وصار القصاص من طبقة السؤال والمستجدين ، يمدون أعناقهم للجمعة ، انتظاراً للصلة والعائدة ، كما يصفهم الجاحظ[٢]. وأصبحوا يسلكون مع القرادين ومن إليهم فى نظام واحد ، كالذى نجده فيما يرويه الجاحظ عن إبراهيم الموصلى، فى حديثه عن زلزل المغنى ، أنه كان يكايده « مكايدة القصاص والقرادين » [٣].

وقد كانت لهم فى سبيلهم هذه أشياء يتندر الناس بها ، ويتضاحكون منها . كما كانوا يتخذون العبث وإضحاك الناس سبباً من أسبابهم ، ووسيلة يروجون بها لأنفسهم . ومن هذه الطبقة من القصاص كان ــ فيما يظهر ــ أبو كعب الصوفى هذا . وقد كان هو نفسه يحفظ نوادر هؤلاء القصاص ويتندر بها ويضحك منها . وقد حكى الجاحظ عنه

---

(١) تهذيب التهذيب ١١ : ٣٠٩ .

(٢) كتاب حجج النبوة ، من رسائل الجاحظ ، ص ١٢٩ ، ط الرحمانية ، ١٩٣٣ م .

(٣) كتاب التاج ص ٤٠ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ م .

نادرتين من هذا القبيل[١] . كما قص عنه قصة غاية فى الطرافة، لأنها تصوره وتصور هذه الطائفة تصويراً طريفًا ، وإن كان إلى الهزل والفكاهة [٢] ، وتبين إلى أى غاية من السخف صارت هذه الصناعة التى بدأت تتجه بمثل يزيد بن أبان الرقاشى اتجاهاً من أسمى الاتجاهات ، وتنزع إلى غاية من أكرم الغايات .

٢٢ ــ رسالة سهل بن هارون (٩ : ١)

هذه الرسالة موجهة من سهل بن هرون إلى محمد بن زياد وإلى بنى عمه من آل زياد ، حسبما جاء فى المخطوطة التى اعتمدنا عليها ، واعتمدت عليها النشرة الأولى من كتاب البخلاء ، وإن كانت تلك النشرة لم ترض هذه القراءة وأبت إلا أن تضع مكانها ما ظن الناشر أنه تصحيح لها ، اعتماداً على بعض النصوص أو المصادر غير المباشرة[٣] ولم نجد نحن فيها ما يحملنا على تخطئتها ، وإحلال غيرها محلها . ولا سيما إذ كان احتمال التحريف غير قريب ، وإذ كان محمد بن زياد رجلا معروف الصلة بسهل بن هرون ، وقد شاب هذه الصلة شيء ، ووقعت الجفوة وقتاً ما بين الرجلين ، ووقع محمد بن زياد فى سهل بن هرون بلسانه [٤] ، وليس يبعد أن يكون مما جعل يهجوه به ، ويشنع به عليه ، مذهبه ذلك فى البخل ، وأن فريقاً من قومه قد ظاهره ، فكتب سهل هذه الرسالة إليه و إليهم . وهكذا لا يكون هنالك ما يدعو إلى تغيير النص وقسره .

ونحن حين نقول إن سهلا كتب هذه الرسالة فإنما نتجوز فى العبارة ، ونجارى ظاهر القول ، وإلا فالأمر عندنا موضع نظر ، وإن جرى الناس على القطع بنسبتها إليه ، حتى اعتبرت الأثر الباقى له[٥] .

فمن هو واضع هذه الرسالة فى حقيقة الأمر ؟ أهو سهل بن هارون أو الجاحظ ؟

إن تحقيق هذا من أشد الأمور عسراً ، وأبعدها عن اليقين أو ما يقارب اليقين ، لأن وسائلنا إلى هذا التحقيق قاصرة ، إذ كان من أول هذه الوسائل توافر النصوص ، وليست كذلك .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٨٨ ، ٣ : ٢٥٠ ، ط ١٩٣٢ م .
(٢) الحيوان ٣ : ٢٤ — ٢٥ ، ط مصطفى البابى الحلبى .
(٣) معجم الأدباء لياقوت ١١ : ٢٦٧ ، ط دار المأمون ، القاهرة ، ١٩٣٦ م .
(٤) زهر الآداب ٢ : ٢٥٩ ، ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .
(٥) أمراء البيان لكرد على ١ : ٢٨١ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م .

إن لمن يذهب إلى صحة نسبتها إلى سهل بن هارون أن يحتج بأن هذا هو الأصل الذى لا ينبغى العدول عنه ، إلا أن يكون ثمة ما يمنع منه ، من دليل نصى لا جدال فيه ، أو فنى يؤنس إليه ، ويرجح به . والنصوص هنا مظاهرة لهذا الأصل ، لا مانعة منه . فهى تشهد أولا بأن لسهل بن هارون مذهباً اقتصادياً ارتضاه لنفسه ، ودعا إليه ، وكتب فى ترويجه والدفاع عنه . ذكر ذلك ياقوت[1] وابن النديم[2] وأشار إليه الحصرى[3] ، وقال الجاحظ فى البخلاء ، فى خلال كلامه عن أبى عبد الرحمن الثورى : « وكان يحتج للبخل ، ويوصى به ، ويدعو إليه . وما علمت أن أحداً جرد فى ذلك كتاباً إلا سهل بن هارون وأبو عبد الرحمن هذا » ، ثم هى تشهد ثانياً بأن لسهل رسالة فى مدح البخل . ذكر ذلك ياقوت ، وذكر أنها هى هذه التى جاءت فى « البخلاء » . هذا إلى أن هذه الرسالة قد استفاض القول أنها لسهل ، فكذلك نسبها إليه ابن عبد ربه وشهاب الدين النويرى .

أما أن الأصل فى هذه الرسالة أنها صحيحة النسبة فمسألة فيها نظر، فتقرير هذا موقوف على تقرير الأصل فى الجاحظ . الأصل فيه أنه راوية ثقة أمين ، أم الأصل فيه أنه أديب مبدع متفنن ؟ . وقد لا نصل فى هذا إلى جواب واحد ، فالجاحظ راوية ، لا شك فى ذلك ، والجاحظ أديب منشئ لا شك فى ذلك أيضاً . وقد يكون هذا كافياً لإسقاط الأصل المزعوم وتبقى المسألة بعد ذلك فى وضع متساوى الطرفين . فلنضيق من دائرة السؤال قليلا ، ولنحصر الجاحظ فى كتاب البخلاء : ما هو الأصل فيه ؟ أهو كتاب آثار تظهر فيه سعة رواية الجاحظ وقوة حفظه وقدرته على استحضار الأشباه والنظائر ككتاب البيان والتبيين ، أم هو كتاب فن وأدب ومظهر لعبقرية الجاحظ الفنية التى لا نكران لها ، والتى تأبى إلا أن تولد وتبدع وتبتكر ؟

لا نحسب أن أحداً يجادل فى أن كتاب البخلاء كتاب فن ، مرجع الأمر فيه إلى شخصية الجاحظ ، لا كتاب رواية يجمع شتى الشخصيات . وإذا كان لا يخلو من شىء من الرواية ، فهذا لا ينفى الأصل فيه ولا يبطله . على أن هذا القدر الروائى فيه قدر صغير نستطيع أن نضع أيدينا على معظمه فى يسر .

وبهذا يسقط القول بأصالة صحة النسبة ، ويقوم فى موضعه القول بأن الأصل فى

---

(١) معجم الأدباء ١١ : ٢٦٧ .

(٢) الفهرست ص ١٧٤ . ط الرحمانية ، القاهرة .

(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ .

هذه الرسالة أنها للجاحظ ، نحلها لسهل ، ووضعها عليه ، وتكلم فيها بلسانه ، كما يتكلم القصاص بلسان أبطالهم ، وأن موقفه فيها كموقفه من رسالة القيان مثلا ، أو بعض الأحاديث الأخرى فى كتاب البخلاء ، ودلائل نسبتها إليه قوية غالبة ظاهرة .

وفوق هذا فالنصوص التى يقع الاحتجاج بها لا تفيد شيئاً . وليس يجادل أحد فى أن لسهل بن هارون مذهباً اقتصادياً كتب فيه ، ودعا إليه ، ودعمه بالحجج والنصوص . وهل وضع الجاحظ هذه الرسالة إلا بهدى مما كتب سهل ، وعلى ما ينبغى أن تكون طريقته ؟

ومع هذا فإن هذه النصوص مضطربة ، فابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ يقول : « وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغبه فيه ، ويستمنحه فى خلال ذلك . فأجابه الحسن على ظهر رسالته : « وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك ، وقد جعلنا المكافأة عنها قبول القول منك ، والتصديق لك ، والسلام » . فهل يمكن القول بأن هذه الرسالة التى كتبها إلى الحسن بن سهل هى هذه الرسالة التى وردت فى كتاب البخلاء ؟ وأنى لنا هذا ولم يشر إلى رسالة « البخلاء » ، ولو كانت هى لكان فى أغلب الظن قد ذكر ذلك .

فإذا جاء ياقوت الرومى فى القرن السابع فقد نقل هذا وزاد عليه أن الجاحظ قد أورد هذه الرسالة فى كتاب البخلاء ، فلفق بين ما ذكره ابن النديم وما جاء عن الجاحظ .

وأما أن ابن عبد ربه والنويرى[١] قد أوردا هذه الرسالة منسوبة إلى سهل بن هرون ، فهل نحن إلا حيث كنا ؟ فقد نقلها ابن عبد ربه عن الجاحظ كما نقل غيرها ، ثم نقلها النويرى عن ابن عبد ربه . وابن عبد ربه حين نقلها اعتبر الجاحظ راوية صادقاً ، وبهذا الاعتبار جعلها فى كتابه .

وهناك فرض آخر غير بعيد ، وهو أن يكون الوراقون قد اقتطعوا هذه الرسالة وكتبوها على حدة ، منسوبة — بطبيعة الأمر — إلى سهل بن هارون . وكانوا كثيراً ما يلجأون إلى هذا الأسلوب احتيالا على الكسب ، كما صنعوا بحديث خالد بن يريد ، كما سنذكر ذلك بعد فى موضعه . ومن هذه النسخة نقل ابن عبد ربه الرسالة فى العقد الفريد .

هذا ما نقوله فى تحقيق نسبة الرسالة من ناحية النصوص ، ومن الممكن أن يقال عن أسلوبها ، وطريقة سوق الآثار والاستدلال بها والإسراف فى إيرادها ، وما إلى ذلك

---

(١) انظر العقد الفريد ٦ : ٢٠٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٤٩ م . ونهاية الأرب فى فنون الأدب ٣ : ٣٢٦ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ م .

من لمحات ساخرة فى بعض الأحيان ، إن هذا كله أشبه بأسلوب الجاحظ وطريقته .

أما حياة سهل بن هارون فلعل فيما كتبه عنه الأستاذ محمد كرد على فى مجلة المقتطف[١] ثم نشره فى كتابه أمراء البيان ما يكفينا الكلام عنه ، وإن كنا نرى مع ذلك أن نشير إلى بعض المصادر التى يمكن الرجوع فى ترجمته إليها ، وتحقيق بعض المسائل فى حياته العقلية والفنية ، ولا سيما المصادر التى لم تقصد إلى ترجمته قصداً ، وإنما ذكرته عرضاً .

فأما من ترجم له فابن النديم فى الفهرست ، وياقوت فى طبقاته ، وابن خلكان فى وفياته ، وكلها تراجم قصيرة لا تفيد كثيراً من تفاصيل حياته . وقد ذكر ابن بدرون فى أثناء حديثه عن نكبة البرامكة أنه كان عاملا ليحيى البرمكى ، ثم كان صاحب دواوين الرشيد بعده [٢]. وكذلك ذكر الحصرى خبراً عنه مع الرشيد [٣]. وفى البيان والتبيين[٤] والصداقة والصديق [٥] وزهر الآداب [٦] والعقد الفريد [٧] وثمار القلوب للثعالبى [٨] نبذ كثيرة من كلامه والكلام عنه ، كما ذكر الجاحظ فى الحيوان[٩] قصة دعبل بن على عن ديكه ، وبيتين من الشعر له عن الفيل[١٠] وبيتاً آخر فى مداعبة صديق له[١١]. وذكر حاجى خليفة كتابه ثعلة وعفرة وترجمته إلى الفارسية فى عهد أبى الحسن ناصر بن أحمد السامانى[١٢].

---

(١) المقتطف سنة ١٩٢٧ (٧٠ : ١٩٠ ، ٢٩٣ ، ٤٣٥) .

(٢) ابن بدرون ، نور العيون . شرح رسالة ابن زيدون .

(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ .

(٤) انظر مثلا ١ : ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٩ — ٥٠ ، ١١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ و ٢ : ٢١ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ١٠٠ و ٣ : ١٨٥ ط ١٣٣٢ ﻫ .

(٥) انظر ص ١٢١ .

(٦) انظر ٢ : ٢٥٨ — ٢٥٩ و ٣ : ٢٤٥ .

(٧) انظر مثلا : ٢ : ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٠٧—٢٠٨ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر و ٣ : ٢٦ ، ط ١٢٩٧ .

(٨) انظر ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٩) انظر ٢ : ٣٧٤ — ٣٧٥ ط مصطفى البابى الحلبى .

(١٠) انظر ٧ : ٦١ ، ط التقدم . (٧ : ٢٠٢ ط الحلبى)

(١١) انظر ٣ : ٦٦ .

(١٢) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ص ١٥٠٨ ، ط وكالة المعارف ، استنبول .

٢٣ ـ الحسن البصرى (١٠ : ١٣)

أبو سعيد ، الحسن بن أبى الحسن ، من أخطر الشخصيات الإسلامية فى القرن الأول ، وأبعدها أثراً فى نواحى الحياة المختلفة .

وهو عراقى الأصل ، فقد كان أبوه من ميسان ، وميسان إقليم البصرة كما كان يسمى قبل الإسلام ؛ فلما غزا العرب ذلك الإقليم فى عهد أمير المؤمنين عمر ، وقع فى الأسر ، كما وقعت زوجه فى السباء . ثم كان الرجل من نصيب أحد الأنصار بالمدينة ، وكانت المرأة من نصيب أم سلمة إحدى زوجات الرسول ، صلى الله عليه وسلم [١]. وما ندرى شيئاً عن ذلك الرجل الذى يسمونه يسارا ، ولعله كان اسما يطلقونه على هؤلاء الأسرى تيمناً ، فأطلق على أبى الحسن البصرى ، كما أطلق على أبى مسلم بن يسار ، وكان مولى ميمونة الهلالية وزوج الرسول أيضاً .

وفى بيت أم سلمة ولد الحسن سنة ٢٢ ، وفى تلك البيئة العربية الإسلامية نشأ وترعرع ، يتكلم لغتها ، ويحس أحاسيسها ، وتتلون طبائعه بألوانها ، وما يعلم أنه ابن الميسانى قدر ما يعلم أنه ابن هذه البيئة التى احتضنته طفلا ، ورعته صبياً .

ونحن نعلم أنه ظل هنالك فى المدينة حتى كانت سنه أربعة عشر عاماً ، حين قتل عثمان ، كما يحكى هو ذلك عن نفسه ، إذ يقول : « كنت فى المدينة يوم قتل عثمان ، وكنت ابن أربع عشرة سنة » .

وكان يخرج إلى وادى القرى يأخذ عن الأعراب ، ولعله كان يأخذ نفسه بالحياة البدوية الخشنة ، وقد تركت أثرها فى بنائه الجسمى ، فكان قوى البنية عظيم الأركان .

ويظهر أنه خرج بعد ذلك فيمن كان يخرج من الحجاز إلى العراق ، فكان فى البصرة ، وكان يجلس إلى ابن عباس فى مجلسه بالمسجد ، وهو يصفه فى ذلك المجلس بقوله : « كان والله مثجاً يسيل غرباً »[٢] ولا ريب أن الحسن إذ ذاك كان لا يزال شاباً فى مطالع شبابه ، وكانت صورة ابن عباس فى مسجد البصرة من أول الصور التى طبعت خياله بطابعها ، ولعله كان يتطلع إلى أن يأخذ ذلك المكان ، وأن يكون فيه كما كان ابن عباس « مثجاً يسيل غرباً » .

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٢ ، ط الهند .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٦٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

وفى سنة ٥١ اختار زياد بن أبيه الربيع بن زياد الحارثى لولاية خراسان ، فاختار الحسن كاتباً له ، فمضى معه . وقضى هنالك سنتين ، حتى قضى الربيع نحبه . ولعل الحسن عاد من بعد ذلك إلى البصرة ، وقد أصبح رجلا ناضجاً جاوز الثلاثين ، بعد أن تقلبت عليه المشاهد المختلفة ، فى هذه الفترة المضطربة ، فى الحجاز والعراق وخراسان . وكأنما أحس بأنه عاد إلى وطنه ، فمن هذا الإقليم خرجت أسرته ، وفيه جعلت خيالات الشباب تراوده ، بمن شهد فيه من الأعلام كابن عباس ومن إليه .

ولا ندرى ماذا كان عمل الحسن حينئذ . ولعله كان يتولى بعض الأعمال إلى جانب تنقله بين حلقات المسجد . وكان يشهد ذلك المجتمع البصرى الزاخر المضطرب ، وعوامل الفساد تعمل فيه ، وكان يشهد إلى جانب ذلك مجالس الجدل حول حرية الإرادة ، وهى مسألة فلسفية قديمة كان لها فى ذلك الإقليم قبل الإسلام شأن عظيم ، وكان الجدل يدور حولها ، وكانت الكتب تؤلف فيها . وقد أيقظتها هذه الحالة الاجتماعية التى صار المسلمون إليها ، ودارت حولها المذاهب الإسلامية المختلفة .

ويظهر أن الدولة إذ ذاك كانت تجد فى القول بحرية الإرادة ما يعرضها لانتقاض الناس عليها ، كما كانت تجد فى الجبر ، على ما يشيعه من الفساد ، عاصما يعصمها من الاعتراض عليها والانتقاد لأعمالها . وقد كان من أشد الناس إنكاراً عليها زعماء القدرية كغيلان الدمشقى الذى انتهى أمره بأن قتلته الدولة فى أيام هشام . على أن الدولة لم تكن تخشى جانب الشام كما كانت تخشى جانب العراق ، فالقول بالقدر كان جديراً أن يقلقها ويشغل بالها ، ولذلك كانت الدولة مناصبة للحسن شيئاً من العداوة . على أنه كان يصطنع شيئاً من التقية فيما كان يدعو إليه ، ونحن نستطيع أن نتبين هذا فى أسلوب كتابه الذى كتبه إلى الحجاج يحتج فيه لمذهبه ، ولا سيما إذا نحن قارناه بكتاب غيلان الدمشقى إلى عمر بن عبد العزيز . وقد أورد ابن المرتضى فقرات من الكتابين .

وقد كان عهد الحجاج من أسوإ العهود عند الحسن ، فقد عانى فيه كثيراً من الضر. وقد حفظ لنا الجاحظ فقرات مما قاله الحسن عندما بلغه خبر موته . قال : « اللهم أنت قتلته فاقطع عنا سنته ، فإنه أتانا أخيفش أعيمش مقيتاً ، له جميمة يرجلها ، صعد المنبر ، فأخرج إلينا كفاً قصيرة البنان ، ما عرف فيها عنان فى سبيل الله ، فقال : بايعونا ، فبايعناه . يصعد إلى هذه الأعواد ، فينظر إلينا بالتصغير ، وننظر إليه بالتعظيم ، يأمرنا بالمعروف ويتجنبه ، وينهانا عن المنكر ويرتكبه » .

ثم لم يلبث الحسن أن استقام أمره عند الدولة شيئاً ما ، فى عهد عمر بن عبد العزيز ،

فولاه قضاء البصرة ، وكان يصفه بأنه سيد التابعين ، كما يذكر ذلك ابن عبد ربه .

وقد ظل الحسن يحتل أرفع مكان فى البصرة ، يرونه إمامهم وغاية مثلهم ، وقد كان عندهم — كما يقول الجاحظ — « فى مستثنى الغاية . كان يقال : هو أزهد الناس إلا الحسن ، وأبين الناس إلا الحسن ، وأفقه الناس إلا الحسن . وقال أبو شعيب : الحسن خير لأهل البصرة من الجزر والمد ، والمد هو حياتهم : يأتيهم فيقف على أبوابهم ، فإن شاءوا حجبوه ، وإن شاءوا أذنوا له » [1].

ويعتبر الحسن — إلى جانب ذلك — من الأعلام البارزة فى تاريخ النثر الغربى ، إذ كان رأس الخطابة الدينية فى القرن الأول ، يحتذى مثاله كل خطيب فى عصره ، وكل خطيب جاء بعده . ولقد كانت خطبه من أول ما دون فى الإسلام . وهذا يبين لنا مبلغ ما كان لهذه الخطب من الأثر فى نفوس معاصريه ، حتى كان الحرص عليها ، يحملهم على تدوينها . وقد بقيت هذه المجموعة من خطبه يتدارسها المتأدبون ، ويحتذيها القائلون . ونرى مثالا من ذلك بعد وفاة الحسن بنصف قرن ، أى فى سنة ١٥٨ ، حين مات المنصور وولى المهدى الخلافة ، ودخل الناس عليه يعزونه ، وكان من بينهم عبد الله بن الحسن العنبرى ، قاضى البصرة وفقيهها ، وكان — كما يقول أبو الحسن المدائنى — أعد له كلاماً ، « فبلغه أن الناس أعجبهم كلامه . فقال لشبيب بن شيبة : إنى والله ما التفت إلى هؤلاء ، ولكن سل لى عنها أبا عبيد الله الكاتب ، فسأله ، فقال : ما أحسن ما تكلم به ! على أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان ، فلقح بينهما كلاماً . فأخبره بذلك شبيب ، فقال لا والله ! إن أخطأ حرفاً واحداً »[2] وهكذا نرى أن أبا سعيد بقى مؤثراً بخطابته ، لا فى حركة الخطابة فحسب ، بل فى الكتابة أيضاً ، فإذا كان عبيد الله ابن الحسن قد صدر عنها فى خطبته ، فإن أبا عبيد الله الكاتب كان قد أخذ نفسه — ولا ريب — بمدارستها ، والاستعانة فى صناعته بها .

فأما فى عصره فقد رأينا كيف كانت منزلته عند أهل البصرة ، وكان ذلك مما مكن له أشد التمكين أن يكون صاحب مدرسة خطيرة الأثر تخرج فيها كثير ممن عاصره وجاء بعده من رؤساء الطوائف المختلفة ، من أصحاب الكلام ورجال القصص وغيرهم ، كواصل بن عطاء ويزيد بن أبان ومن إليهما ، وكان مجلسه فى مسجد البصرة يزخر بالثقافات المختلفة على نحو ما يصور لنا ذلك أبو حيان التوحيدى

---

(١) من مجموعة مختارات للجاحظ ، محفوظة فى مكتبة برلين ، ورقة ٧٧ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٣٨ — ٢٣٩ ط ١٩٣٢ م .

فى كتابه « تقريظ الجاحظ » فى عبارته التى نحلها ثابت بن قرة ، وزعم أن أبا سعيد السيرافى حدثه بها . وذلك إذ يقول : « يجمع مجلسه ضروب الناس وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ويفيض عليهم من افتنانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل . وهذا يسمع الحلال والحرام ، وهذا يتتبع فى كلامه العربية ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة » ، ثم يقول : « يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق »(١) .

وهكذا نرى إلى أى حد كان أبو سعيد بعيد الأثر فى البصرة ، وفى إثارة الحركات العقلية بها ، وفى تهيئة الجو الدينى والأدبى فيها ، وإذا كان مرجع ذلك فى بعض الأمر إلى شخصيته القوية الممتازة ، وعقلة الكبير ، وأفقه الواسع الرحب ، فإنها ترجع ولا ريب أيضاً إلى قدرته الخطابية التى جمعت الناس حوله ، والتى انتزعت الشهادة له من ألد خصومه : الحجاج بن يوسف الثقفى ، وذلك حين يقول ، فيما يحكى الجاحظ : « أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة »(٢). هذا والحسن ليس عربى الأصل كما ذكرنا ، ولكنه كان فصيح اللهجة قوى العبارة ، لا يشك من يسمعه أنه عربى أصيل . وقد حكى الجاحظ أن أعرابيين شهداً مجلس الحسن ، وسمعا يزيد ابن أبان الرقاشى يتكلم ، ثم الحسن ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين ؟ . قال أما الأول فقاص مجيد ، وأما الآخر فعربى محكك(٣) .

هذا وآثار الحسن مفرقة بين الكتب المختلفة كالبيان والتبيين والكامل وعيون الأخبار ، والعقد الفريد وزهر الآداب ، وما إلى ذلك من كتب المحاضرات . وقد عنى أبو الفرج ابن الجوزى بجمع طائفه من كلامه فى كتاب صغير بوبه أبواباً (٤) . ولكن آثاره لا تزال تنتظرمن يعنى بجمع شتاتها لتكون أساساً لدرس الرجل وتبين أثره فى تطور العقل الإسلامى .

٢٤ ــ طلحة الفياض (١١ : ١٦)

أبو محمد ، طلحة بن عبيد الله التيمى ، من تيم قريش . وكان يلقب بابن الحضرمية أو ابن بنت الحضرمى (٥) . كان فيمن سبق إلى الاسلام ، وشهد المشاهد مع رسول الله

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٩٧ ، ط دار المأمون .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٢١٢ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ١٧٦ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .
(٤) كتاب الحسن البصرى . ط الرحمانية بمصر . ١٩٣١ م .
(٥) عيون الأخبار ٤ : ١٧ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ م .

صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن ثبت معه يوم أحد ، ودافع عنه . وكان رجلا سريًّا نبيلا واسع الثروة ، ومما يذكر عنه أنه افتدى عشرة من أسارى بدر[١] ، كما كان رجلا مزهوًّا شديد الاعتداد بنفسه . وقد وصفه بذلك عمر ، حين كان يعرض عليه من يستخلف[٢] ، كما وصفه بذلك علىّ حين قدم البصرة ، فأرسل عبد الله بن عباس وقال له : « إيت الزبير ولا تأت طلحة ، فإن الزبير ألين ، وإنك تجد طلحة كالثور عاقصاً قرنه ، يركب الصعوبة ويقول : هى أسهل »[٣] .

وقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين سماهم عمر قبل موته ، ولعله كان يرجو أن يكون له الأمر بعده . وقد قالوا إنه كان غائباً فى ماله بالسراة ، فلما قدم كان الأمر قد أمضى ، فأخذ يتوثب ويقول : « أعلى مثلى يفتات » ، ولكنه هدأ وآثر الرضا والبقيا[٤] وقد عرف له عثمان ذلك فلم يزل يكرمه ويتحفى به ، حتى قيل إنه أعطاه مائتى ألف دينار[٥] . ولكن طبيعته المزهوة الشديدة الشكيمة جعلته يقف فى صف المنكرين على عثمان ، حين أخذت الثورة سبيلها ، حتى لقد كان عثمان يتهمه بأنه أحد الثلاثة الذين كانوا يؤلبون الناس عليه . وربما كان من أشدهم عنفاً ، إن صح ما يروى عنه فى ذلك[٦]

ولما قتل عثمان كان فى الذين خرجوا على على مع عائشة إلى البصرة ، وشارك فى معركة الجمل ، وقتل فى هذه المعركة سنة ٣٦ . وكان الذى رماه فقتله — فيما يقولون — مروان ابن محمد . وقد قالوا : إنه قتله انتقاماً لعثمان[٧] .

وكان طلحة يلقب بطلحة الفياض ، كما هنا ، وطلحة الخير ، وطلحة الطلحات ، لما عرف به من الكرم ، فلم يكن يدع عائلا من بنى تيم إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله .

وقد ترجم له ابن سعد فى الطبقات الكبرى[٨] وابن قتيبة فى المعارف[٩] وصاحب تهذيب التهذيب[١٠] .

---

(١) عيون الأخبار ١ : ٣٣٢ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥ م .
(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٦ ، ١٧ ، ط الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ م .
(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٤٣ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .
(٤) أنساب الأشراف ٥ : ١٨ وما بعدها .
(٥) أنساب الأشراف ٥ : ٧ .
(٦) أنساب الأشراف ٥ : ٤٦ ، ٩٠ .
(٧) أنساب الأشراف ٥ : ١٢٦ ، ١٣٥ .
(٨) ٣ : ١٥٢ .
(٩) ص ١٧٧ .
(١٠) ٥ : ٢٠ .

٢٥ ـ أبو الدرداء (١٢ : ١٣)

هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى ، خزرجى من بلحارث ، وكان قبل إسلامه يصطنع التجارة . ويروى عنه أنه قال : « كنت تاجراً قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد زاولت التجارة والعبادة ، فلم يجتمعا ، فأخذت فى العبادة وتركت التجارة »[١] .

ومن هنا نرى أن الرجل كان ينتزع نزعة صوفية منذ أول أمره ، وقد لازمته هذه النزعة ، وكان لها مظهر بيانى ، ولا سيما بعد أن مضى إلى الشام ، وولى القضاء فى ولاية معاوية ، أيام خلافة عمر بن الخطاب ، إذ كان على قضاء دمشق . وقد قوى من هذه النزعة ما رآه هنالك من مظاهر التّرف الذى كاد يودى بالنزعة الدينية عند الناس ، فاشتد على الدنيا كلبهم ، كما يقول فيما يحكى الجاحظ عنه : « كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه »[٢] .

والرجل يعتبر بذلك من الخطباء الأولين الذين وضعوا أصول الخطابة الدينية فى الأمصار الإسلامية ، وإن لم تصلنا ــ بطبيعة الأمر ــ خطبة من خطبه ، وإنما هى فقرات تدل على نزعته فى الخطابة وعظة الناس . وقد عنى الجاحظ فى البيان والتبيين بإبراز طائفة من هذه الفقرات . وأول ما يستبين لنا منها هى هذه النغمة الأسيفة التى يحاول أن ينفذ بها إلى قلوب الناس ليصرفهم عن هذا التعلق الشديد بالدنيا ، كقوله : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه : لا يدرى أساخط ربه أم راض . وأبكانى هول المطلع ، وانقطاع العمل ، وموقفى بين يدى الله : ولا يدرى أيؤمر بى إلى الجنة أم إلى النار »[٣]. ومما يدل على هذه النزعة وتأثرها بما كان يشهد فى هذه الدنيا الجديدة ما يروى له الجاحظ أيضاً : « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره وفرجه . وإياكم والجلوس فى هذه الأسواق فإنها تلغى وتلهى »[٤].

---

(١) حلية الأولياء ١ : ٢٠٩ ، ط السعادة ١٩٣٢ م .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٦٦ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ٨٦ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ١٠٠ ــ ١٠١ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٦٨ ، ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ (٣ : ٨٨ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م) .

ولقد كان أبو الدرداء يحس هذا المعنى الذى أشرنا إليه من أثر هذه الفتوح التى فتحت على المسلمين ، فى إبعادهم عن حقائق الدين ، وإقبالهم على الدنيا إقبال النهم ، إحساساً قوياً ، حتى لم يكن يتحرج من التصريح بشؤم هذه الفتوح على الناس ، فكان يقول — فيما يحكى عنه أبو نعيم — : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم ، وأنماها فى درجاتكم ، خير من أن تغزوا عدوكم ، فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم ، خير من إعطاء الدراهم والدنانير ؟ » ، قالوا : « وما هو يا أبا الدرداء ؟ » قال : « ذكر الله ، وذكر الله أكبر »[٣]. وهذا النص صريح فيما أحدثت هذه الفتوح من رد فعل شديد ، ثم ما كان لرد الفعل هذا من أثر فى نفوس أئمة الدين ، ثم ما كان لذلك من أثر فى توجيه الخطابة الدينية .

ولقد كان فتح قبرص كافياً لإثارة أحزان أبى الدرداء ، فجلس وحده يبكى . فقال له أحد أصحابه واسمه جبير : « يا أبا الدرداء ! ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ » ، قال : ! ويحك يا جبير » ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره ! بينا هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى »[٤].

٢٦ — زيد بن جبله (١٤ : ٨)

أحد الشخصيات الكبيرة فى البصرة فى وقت تمصيرها . وهو يذكر فى الوفود التى كانت تفد على عمر ، فيذكر مرة مع هلال بن وكيع والأحنف بن قيس ، وتذكر له فى ذلك الموقف كلمة بليغة العبارة يقول فيها :

« يا أمير المؤمنين ! سود الشريف ، وأكرم الحسيب ، وازرع عندنا من أياديك ما نسد به الخصاصة ، ونطرد به الفاقة ، فإنا بقف من الأرض ، يابس الأكناف ، مقشعر الذروة ، لا شجر فيه ولا زرع . وإنا من العرب اليوم — إذ أتيناك — بمرأى ومسمع »[١].

ويذكر مرة أخرى فى وفد من أهل البصرة وأهل الكوفة ، كما يذكر فى الوفد القادم على علىّ فى الكوفة[٢].

ويلاحظ فى أخباره ما كان بينه وبين الأحنف بن قيس من منافسة ، فهو فى ذلك

---

(١) حلية الأولياء ١ : ٢١٩ .

(٢) حلية الأولياء ١ : ٢١٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ١١٦ — ١١٧ ، ط ١٩٣٢ .

(٤) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٦ م .

الوفد ينفس على الأحنف كلمة إطراء وجهها عمر إليه ، فلم يملك لسانه من الوقوع فيه[٣] يحاول أن يضع منه بأن أمه باهلية ، وفى موقف آخر نراهما يتواثبان ويتناصيان . فإذا قيل للأحنف : أين الحلم اليوم ، قال : لو كان مثلى أو دونى لم أفعل هذا به[٤] .

٢٧ ـ محمد بن زياد (١٤ : ١٣)

هو يعنى ـ فى أكبر الظن ـ محمد بن زياد الزيادى الذى يحكى عنه الحصرى هذا الخبر :

« وجدت على سهل بن هرون فى بعض الأمر ، فهجوته ، فكتب إلى : « أما بعد ، فالسلام على عهدك ، وداع ذى ظن بك ، فى غير مقلية لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى فى أمرك ، وإقرار بالمعجزة عن استعطافك ، إلى أوان بينك ، أو يجعل الله دولة من رجعتك ، والسلام » . وكتب فى أسفل الكتاب :

إن تعف عن عبدك المسىء ففى ... عفوك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما أستحق من خطأ ... فجد بما تستحق من حسن »[١]

ويمكن أن يؤخذ من هذا أنه كان سريًّا أديباً ، وكان صديقاً لسهل .

ولعله مما يؤدى إلينا فكرة عنه هذه الأبيات التى يهجوه بها أبو نواس :

جمحت ، أبا مسلم ، فاحبس ... وقصر من النظر الأشوس
ولا تغترر بركوب الكميت ... وما تستجيد من الملبس
ومشيك بالنخو وسط الرحاب ... وإن قيل ذا صاحب المجلس
وقول الفيوج : كتاب الأمير ... وختم القراطيس بالجرجس
فكم قد رأينا مطاعاً هنا ... ك صار المذلل فى المجلس[٢]

ويذكر ابن حجر محدثاً اسمه « محمد بن زياد الزيادى » ، وهو بصرى يلقب

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٦٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .
(٢) عيون الأخبار ١ : ٢٨٥ .
(٣) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨ — ٢٥٩ ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .
(٤) ديوان أبى نواس ، ص ١٤٤ ط الحميدية ، ١٣٢٢ ه .

بيؤيؤ ، وليس به قطعاً . وقد ذكر أنه توفى فى حدود الخمسين ومائتين (١).

٢٨ ـ الحضين بن المنذر (١٥ : ٨)

أبو ساسان ، الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي ، نسبة إلى رقاش ، وهى بطن من شيبان ، من بكر ، من ربيعة ، شاعر فارس سيد ، من رؤساء أهل البصرة ، فى القرن الأول . وتعد أسرته من أشرف الأسر الربعية منذ الجاهلية . كان جده « الحارث بن وعلة »(٢) رئيساً من رؤساء بكر ، انتجعه الأعشى ، وإن لم يحمده . وكذلك كان جده الثانى والثالث : وعلة ومجالد، وقد ذكرهما الأعشى فى سياق تعريضه بالحارث ، إذ يقول :

لعمرك ما أشبهت وعلة فى النـــدى شمائله ، ولا أباه مجالدا(٣)

وقد ورث الحضين مجد أسرته ، كما ورث ـ فيما يبدو ـ البخل عن جده الحارث ، فكان مبخلا كما يظهر من قصته مع أبى كلدة اليشكرى الشاعر ، وهجاء أبى كلدة له ؛ ومما يرويه الجاحظ أن امرأة تعرضت له فسألته : كيف سدت قومك وأنت بخيل وأنت لئيم ؟ قال : لأنى سديد الرأى شديد الإقدام (٤). ومن ذلك مجاء ذكره هنا ، واستشهد بأقواله فى رسالة سهل .

وكذلك كان الحضين من أكبر رؤساء بكر وأظهر رجالها فى البصرة فى إبان الفتن الأولى ، إلى جانب خالد بن المعمر وشقيق بن ثور الدوسيين ، حتى كان يوم صفين حامل لواء ربيعة فى جيش على . وقد أبلى فيه بلاءاً حسناً . وكان له موقف مشهود حين جعل التخاذل يدب فى صفوف أصحاب على ، وارتفع صوت « دعاة الهزيمة » بعد خدعة الدعوة إلى التحكيم (٥).

ولكنا بعد ذلك لا نكاد نصيب الحضين ، فقد صارت زعامة بكر إلى مالك بن مسمع وأشيم بن شقيق بن ثور ، فى تلك الفتن التى اضطرمت بها البصرة بين ربيعة

---

(١) تهذيب التهذيب ٩ : ١٦٨ .
(٢) هو غير الحارث بن وعلة الجرمى ، أحد شعراء الحماسة .
(٣) الكامل للمبرد ، ص ٤٣٦ ، ط ليبتسج ١٨٦٤ م (٢ : ٢٤٨ ط الأزهرية ١٣٣٩ هـ) .
(٤) البيان والتبيين ، ٢ : ١٣٦ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .
(٥) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ص ٥٥٥ ، ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥ هـ .

ومضر . وكأنما اكتفى بأن يكون شاعراً يزجى المدح إلى رئيس قومه مالك بن مسمع[١] ، وجعل يصطنع نوعاً من الحياة الأدبية التى كانت تتمثل فى قول الشعر ، ورواية الأخبار ، والاستطراف من الآثار الأجنبية . وقد وضع نفسه بإزاء الشعراء يهاجيهم كالذى كان بينه وبين أبى كلدة اليشكرى. ولعلنا نستطيع أن نتمثل شعره فى القطعة التى أوردها أبو على القالى له فى ابنه غياظ[٢] ، كما نستطيع أن نتمثل شخصيته الأدبية فيما كان بينه وبين عبد الله بن مسلم — فى مجلس أخيه قتيبة — من حوار ومناقضة[٣] فيما يورده أبو العباس المبرد . فأما استطرافه من الآثار الأجنبية فشاهده ما يرويه عند مسلم العقيلى من بعض الخبر عن سابور الأكبر[٤] ، ولعل كنيته « أبا ساسان » تشير إلى شىء من الصلة بين أسرته وبين الفرس .

٢٩ — مرو (٧ : ١)

هى كبرى مدن خراسان ، حتى لتعد قصبتها . ومن ذلك كان يطلق عليها مرو الشاهجان ، نسبة إلى « الشاه » . وهى تقع على نهير صغير يقال له المرغاب ، كما تقع على طريق خراسان الذى يربطها ببغداد ، بعد أن يخترق بلاد الجبل ويسير شمال الصحراء الكبرى فى قومس ، حتى يمر بنيسابور ومشهد وطوس ، إلى أن يصل إلى مرو ، كما يصلها شرقاً — إلى الشمال — ببخارى وبلاد الشاش (على نهر سيحون أو سرداريا) ، وإلى الجنوب ببلخ ثم كابل وغزنة وبلاد الهند . وهكذا نرى أن موقعها أتاح لها أن تكون إحدى المدن التجارية الكبرى فى خراسان . وهذا إلى ازدهار صناعة النسيج بها ، فالثياب المروية كانت تعد من أجود أنواع الثياب .

ولعله من أجل هذا كان المراوزة موصوفين بدقة النظر ، ثم جاءهم من ذلك الحرص ، حتى وصفوا بالبخل ، كما نرى هنا فى كلام الجاحظ ، وفى قطعة من الشعر أوردها الهمذانى ، وهى :

مياسير مرو من يجود لضيفه ... بكرش فقد أمسى نظيراً لحاتم

---

(١) الاصابة ٣ : ٤٨٥ .
(٢) الأمالى ٢ : ١٩٨ ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .
(٣) الكامل للمبرد ، ص ٤٣٥ — ٤٣٦ ، ط ليبتسج ١٨٦٤ م .
(٤) البيان والتبيين ، ٣ : ٢١٨ ، ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .

ومن رش باب الدار منهم بغرفة ... فقد كملت فيه خصـــال المكارم
يسمون بطن الشاة طاوس عرسهم ... وعند طبيخ اللحم ضرب الجماجم
فلا قدس الرحمن أرضـــاً وبلدة ... طواويسهم فيها بطـــون البهـــائم

ومع ذلك فالهمذانى وياقوت يدفعان عن المراوزة تهمة البخل فى حماسة وقوة[١].

٣٠ – ابن أبى كريمة (١٧ : ٦)

النصوص عنه قليلة لا تكفى للتعريف به تعريفاً كافياً ، وكل ما يؤخذ منها أن اسمه أسود[٢]، وأنه مروزى الأصل [٣]. ويذكر أبو على القالى رجلا بصريًّا اسمه أبو كريمة ، يروى له بيتاً من الشعر فى صفة الخمر متأثراً بمعانى المتكلمين [٤] ،وهو يصفه بأنه بصرى ، ولا ندرى لعله أبوه أو لعله هو ، وصحة العبارة « لابن أبى كريمة »، إذ كان هذا تحريفاً سهل الوقوع .

وابن أبى كريمة شاعر يقول الشعر ويرويه [١]، ولكنى شعره متفاوت مختلف ، ويبدو أنه يصنع شعره صناعة على أساليب مختلفة ، فمنها ما يظهر فيه الطابع الفارسى ، كتلك القطعة التى أوردها الجاحظ فى موقف له مع غرمائه ، وقد ضمنها كلمات وعبارات فارسية ، أخرجتها عن أن تكون مفهومة . وربما كان قصد فى وضعها هذا الوضع إلى نوع من المفاكهة [٢].

ومنها ما يظهر فيه الطابع البدوى الأعرابى . وقد كان ابن أبى كريمة متصلا بأبى مالك عمرو بن كركرة وبمن كان ينزل عليه من الأعراب ، ولعله من هنا جاءته هذه النزعة البدوية[٣]. وقد كان من إعجابه بما يصنع من ذلك ينحله بعض شعراء البادية ، كما صنع فى قصيدة له فى وصف الفأر ، نحلها يزيد بن ناجية السعدى ، « وكان لقى

(١) انظر الهمذانى واليعقوبى وياقوت و Le Strange .
(٢) البيان والتبيين ١ : ١٣٢ ، ١ : ١٤٩ ط ١٩٣٢ . وفى الحيوان ٢ : ٣٦٢ أن اسمه أحمد . وأكبر الظن انه تصحيف .
(٣) البخلاء ص ١٣ .
(٤) ذيل الأمالى ص ٧٢ ، ط دار الكتب المصرية .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٤٩ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٣٢ .
(٧) الحيوان ٣ : ٥٢٥ – ٥٢٦ ط مصطفى البابى الحلبى .

من الفأر جهداً ، فدعاً عليهن بالسنانير » . وقد أورد الجاحظ هذه القصيدة ، ثم قال : « ونحن نظن أن هذه القصيدة من توليد ابن أبى كريمة »(١).

ومن هذا الشعر قصيدة طويلة بدأها بوصف كلب الصيد ثم وصف الفهود(٢).

ونمط آخر من الشعر يصطنع فيه الفكاهة ، ويحاكى فيه الحكم بن عبدل الأسدى ، وله من هذا النمط فيما بين أيدينا قطعة يصف فيها « حشا له ، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه »(٣).

ثم نمط رابع ينزع فيه إلى استنباط المعانى ، ومحاولة الإلغاز فى الوصف ، كما نرى فى بيتين له قالهما فى وصف القلم ، وأوردهما ابن قتيبة (٤).

ويؤخذ من أخباره أنه كان من أصحاب الجاحظ الذين يزورهم ويروى بعض تجاربهم(٥). وهو معدود فى البخلاء الذين يستشهد بأسمائهم ، كما فى رسالة ابن التوأم .

وقد أورد له الطبرى بيتين يدلان على صلته بالبرامكة ، قالهما بعد نكبة البرامكة(٦).

٣١ ــ ماء البصرة (١٧ : ٦ ــ ٨)

قصة ابن أبى كريمة هذه ، وقصة أحد شيوخ المسجديين الذى كان يحتال الحيل فى تدبير الماء العذب(٧)، وغيرهما فى كتاب البخلاء ، تشير إلى أن البصرة كانت تعانى حالة خاصة من أجل ماء الشرب .

والواقع أن مسألة ماء الشرب فى البصرة كانت منذ الفتح من المسائل المهمة التى عنى الولاة عناية خاصة بتدبيرها . ونجد صدى هذه الأزمة فى خطبة الأحنف بن قيس التى خطبها بين يدى عمر بن الخطاب ، ويقول فيها :

« يا أمير المؤمنين ! إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازل

(١) الحيوان ٥ : ٣٣٤ – ٣٣٥ ط مصطفى البابى الحلبى .

(٢) الحيوان ٢ : ٣٦٨ – ٣٧٣ ، ٦ : ١٦٢ ، نهاية الأدب ٩ : ٢٦٦ – ٢٧٠ ط دار الكتب المصرية .

(٣) الحيوان ١ : ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٤) عيون الأخبار ١ : ٤٩ .

(٥) الحيوان ٣ : ٣٤٩ – ٣٥٠ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٨٨ ط الحسينية المصرية .

(٧) البخلاء ص ٢٩ .

كسرى وقيصر وبنى الأصفر . فهم من المياه العذبة والجنان المخصبة ، فى مثل حُولاء السلى وحدقة البعير ، تأتيهم ثمارهم غضة لم تتغير ، وإنا نزلنا أرضاً نشاشة ، طرف فى فلاة ، وطرف فى ملح أجاج ، جانب منها منابت القصب ، وجانب سبخة نشاشة ، لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها . تأتينا منافعنا فى مثل مرئ النعامة . يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، تربق ولدها تربيق العنز ، تخاف عليه العدو والسبع ، فإلا ترفع خسيستنا . . . وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا »[١].

فكتب عمر إلى أبى موسى يأمره أن يحفر لهم نهراً ، فصنع من ذلك شيئاً لم يتمه ، إلى أن جاء عبد الله بن عامر فى عهد عثمان ، واستخلف زياداً حين شخص إلى خراسان ، فأتم حفر النهر [٢] .

ولكن يظهر أن هذا التدبير لم يفلح طويلا ، إذ يقول البلاذرى إنه « لما قدم عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز عاملا على العراق من قبل يزيد بن الوليد ، أتاه أهل البصرة ، فشكوا إليه ملوحة مائهم . وحملوا إليه قارورتين : فى إحداهما ماء من ماء البصرة ، وفى الأخرى ماء من ماء البطيحة (والبطيحة أرض واسعة بين واسط والبصرة) ، فرأى بينهما فضلا . فقالوا : إنك إن حفرت لنا نهراً شربنا من هذا العذب . فكتب بذلك إلى يزيد ، فكتب إليه يزيد : إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق — ما كان فى أيدينا — فأنفقه عليه . فحفر النهر الذى يعرف بنهر ابن عمر »[٣].

ومع هذا فإن الناس لم ينتفعوا كثيراً بهذا الصنيع ، وظلوا يستعذبون من الأبلة ، على بعد الشقة ، إذ كان عملا ناقصاً من بعض وجوهه . ذلك أن الماء الذى كان يجىء به نهر ابن عمر كان نزراً قليلا ، لأن معظم ماء البطيحة كان يذهب فى نهر آخر اسمه نهر الدير . وظل أهل البصرة كذلك حتى قدم سليمان بن على البصرة ، واتخذ المغيثة وعمل مسنياتها على البطيحة ، فحجز الماء عن نهر الدير ، وصرفه إلى نهر ابن عمر . وأنفق على المغيثة ألف ألف درهم[٤].

وما زال أهل البصرة يشفقون على مائهم أن يجتاح أو ينتقص ، فإذا أراد المنصور أن يتخذ ضيعة بالبطيحة فزعوا وثاروا وهددوا بخلع طاعته . ومن هذا نفهم ما جاء فى البخلاء من إشارات إلى المبالغة فى تقدير الماء العذب ، والشح به ، والتدبير له .

(١) العقد الفريد ٢ : ٦٢ — ٦٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .
(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٣٤ ط السعادة ١٩٠٦ م .
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦٣ ط المصرية ، ١٩٣٢ م .
(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦٤ .

٣٢ – عمرو بن نهيوى (١٧ : ٩)

ذكره الجاحظ هنا وفى صفحة ٧٠ راوياً عنه بعض الحديث عن الكندى ، وكان عمرو من جلسائه وذكره فى ص ٣٨ فى سياق يؤخذ منه أنه كان مشتغلا بالكلام ، وأنه كان من أصحاب النظام ، ولم أعثر عنه بشىء غير ذلك إلا فى كتاب « نشوار المحاضرة » للتنوخى ، إذ ذكره فى قصة يستفاد منها أنه كان من أهل السواد ، وأنه كان عاملا للمأمون ، وأن المأمون نكبه[١].

٣٣ – ثمامة بن أشرس (١٨ : ١)

شخصية من الشخصيات الخطيرة ، ذات الأثر الخالد فى الحياة العقلية الإسلامية . وقد كان زعيماً من زعماء المعتزلة ، أوذى فى أيام الرشيد ، ولكنه استطاع فى عهد المأمون أن يدير سياسة الدولة ، وأن يصبغها بصبغة اعتزالية ، وأن يكون صاحب الكلمة الأولى فى القصر وسياسته.

وأولية ثمامة غامضة ، ولكنا نستطيع القول بأنه نشأ فى البصرة تلميذاً لأبى الهذيل العلاف ، كما يتبين ذلك من هذا النص : « وبلغ المأمون أنه لا يقوم لطاهر ابن الحسين ، ويقوم لأبى الهذيل ويأخذ ركابه حتى ينزل ، فسأله عن ذلك ، فقال : أبو الهذيل أستاذى منذ ثلاثين سنه »[٢] أى أنه كان متلمذاً له منذ سنة ١٧٠ أو نحوها . وإلى جانب هذا نعرف أنه كان متصلا بالبرامكة ، أو بجعفر بن يحيى بصفة خاصة ، وكان يصاحبه إلى بيت الحكمة [٣]، وكلمته التى يحكيها الجاحظ ، فى وصف جعفر ابن يحيى مشهورة ، وهى تدلنا إلى أى حد كان معجباً به [٤]. وكذلك كان متصلا بالفضل بن سهل[٥].

ثم نراه بعد ذلك متصلا بالمأمون فى خلافته ، وكان المأمون يجله ويرفع قدره ، وقد أراده على أن يلى الوزارة فرفضها ، ولكنه كان هو الذى يشير عليه بمن يراه أهلا لها ، فهو الذى أشار عليه بأحمد بن أبى خالد [٦]، كما أشار عليه بعد بيحيى بن أكثم .

---

(١) ١ : ٦٧ .
(٢) الفهرست لابن النديم ، ص ٣ ، ط الرحمانية ، ١٣٤٨ هـ .
(٣) العقد الفريد ٢ : ١٢٧ ط لجنة التأليف ، الفهرست ص ٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٦١ ط ١٣٣٢ هـ .
(٥) الوزراء والكتاب ص ٣١٤ – ٣١٥ ط مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٨ م .
(٦) الفهرست ص ٢ .

فكيف نشأت هذه الصلة ؟ أكبر الظن أنها نشأت بواسطة الفضل بن سهل . ونحن نرجح أنه كان مع المأمون فى بطانته وحاشيته فى مرو ، وكأن حكايته عن ديكة مرو[١] إنما هى مما لفت نظره هنالك فى تلك الفترة .

ونحن نعرف بعد الدور الخطير الذى أداه فى توجيه السياسة الدينية للدولة . وهو الذى أتاح الفرصة لبغداد أن تتمثل العقل البصرى إلى جانب العقل الكوفى . وقد أثار عليه خصومة رجال الحديث ، فذهبوا إلى أقصى حد فى التشنيع به ، ومحاولة النيل منه ، ونرى مثلا من ذلك عند ابن قتيبة [٢]. ولا ريب أن كثيراً من الروايات التى تحكى عنه تصدر هذا المصدر .

٣٤ ـ قرية الأعراب (١٨ : ١٦)

يصفها الجاحظ هنا بأنها فى طريق الكوفة . ويذكرها ابن رسته فى الطريق من واسط إلى سوق الأهواز ، بين سماوة ونهر تيرين[٣].

٣٥ ـ مويس بن عمران (١٨ : ١٩)

هكذا جاء اسمه هنا ، وفى بعض النصوص « موسى بن عمران » . معتزلى من أصحاب النظام . ذكره المرتضى فى الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة [٤]، وقال إنه كان واسع العلم فى الكلام ، والفتيا . ولكنه مع ذلك لم يكن معتزليًّا خالصاً ، فقد أشار الخياط[٥] إلى خلافه فى القول بالمنزلة بين المنزلتين . وكذلك ذكر الشهرستانى ذلك الخلاف ، كما ذكر خلافه فى الوعد والوعيد [٦] . وفى موضع آخر أشار إلى أنه من القائلين بمقالة أبى ثوبان المرجئ[٧] . وكذلك ذكر المرتضى أنه كان يقول بالإرجاء .

وإذن فهذا الإرجاء الذى ينسب إليه هو من خلافه فى الوعد والوعيد ، وفى المنزلة بين المنزلتين . وإنكارهما أساس مذهب المرجئة . فليس مويس أحق بأن ينسب إلى

(١) البخلاء ص ١٨ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ، ص ٦٠ ، ط كردستان العلمية ، ١٣٢٦.
(٣) الأعلاق النفسية ص ١٨٧ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .
(٤) المنية والأمل ص ٣٩ .
(٥) الانتصار ص ١٢٧ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ .
(٦) الملل والنحل ص ٤١ .
(٧) الملل والنحل ص ١٠٥ .

المعتزلة منه بأن ينسب إلى المرجئة . بل لعله بانكاره هذين الأصلين ، وذهابه إلى أن وعيد الله على المعاصى قد يتخلف بخلاف وعده ، وأن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بمجرد ارتكاب الكبيرة ، قد أصبح من صميم المرجئة ، فهذا هو الإرجاء جميعه .

ولكنه مع ذلك كان يعتبر من المعتزلة ، وكان المعتزلة يعتبرونه منهم . فلما جاء ابن الراوندى ينكر نسبته إليهم ، مع طائفة منهم ، رد عليه أبو الحسين الخياط بأنه « ليس تفتقر المعتزلة إلى إضافتهم إلى أنفسهم ، ولا إلى إدخالهم فى جملتهم » [١] فالظاهر أن هذه النسبة جاءته من أنه كان يخالط المعتزلة من أمثال النظام وأبى الهذيل والجاحظ ، ويكرمهم ويتحفى بهم ، لأن هذا كان مظهراً من مظاهر الترف . وكان — كما يؤخذ من أخباره القليلة — رجلا مترفًا سمح النفس ، سهل الجانب ، كريمًا ، فمن الطبيعى ألا يكون من أصحاب اللدد فى الخصومة ، والتعصب فى المذهب .

وكما كان هذا أمره مع المعتزلة كان مع الشعراء من أمثال أبى نواس والحسين بن الضحاك ، فحين كان أبو نواس فى السجن كان مويس يزوره لسؤاله عن أمره ، والتسليم عليه ، وقضاء بعض الحوائج له[٢] ؛ ويحكى الحسين بن الضحاك أنه استوهبه — وهو بالبصرة — جبة خز كان يلبسها ، فنزعها عنه وأعطاه إياها[٣].

وأما صلته بالجاحظ فقديمة ، بل لعلها من أخطر صلات الجاحظ ، ولعله كان صاحب الفضل فى تسديده فى تلك السبيل التى هيأت له أن يكون ذلك الرجل [٤] . وهو يردد اسمه كثيراً فى كتاب الحيوان ، ومما وصفه به أنه « كان هو والكذب لا يأخذان فى طريق ، ولم يكن عليه فى الصدق مؤونة ، لإيثاره له ، حتى كان يستوى عنده ما يضر وما ينفع »[٥].

وجملة القول فى مويس بن عمران أنه كان رجلا سريًّا نبيلا ، بكل معانى السراوة والنبل.

٣٦ — خاقان بن صبيح (١٩ : ١)

من أصحاب الجاحظ الذين يروى عنهم بعض المشاهدات [٦] وينقل عنهم بعض

---

(١) الانتصار ص ١٢٧ .
(٢) أخبار أبى نواس لابن منظور ١ : ٢٢٧ ، ط الاعتماد ، ١٩٢٤ م .
(٣) الأغانى ٧ : ١٨٣ — ١٨٤ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م .
(٤) المنية والأمل ص ٣٨ .
(٥) الحيوان ٥ : ٤٦٨ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٣ .
(٦) الحيوان ٤ : ٣١٧ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٠ .

العبارات[١] والعبارة التى نقلها عنه الجاحظ هى فى ذكر نبل الشتاء وفضله على الصيف . وقد وصفه فى سياق رواية مشاهدته ، بأنه صادق لا يحتاج خبره إلى شاهد .

ولم أعثر عن شخصه بشىء سوى ذلك .

وينقل الحصرى عنه عبارة تدل على أن الرجل كان من المشتغلين بالمسائل النظرية ، إذ يقول : « لوحشة الشك التمسنا أنس اليقين . ومن ذل الجهل هربنا إلى عز المعرفة ، ولخوف الضلالة لزمنا الجادة »[٢] وقد ورد اسمه فى هذا النص « صبح » بدون ياء .

ويؤخذ من نص البخلاء [٣] أنه كان يعد من البخلاء مع سهل بن هارون وغيره .

٣٧ ـ مثنى بن بشير (٢٠ : ٤)

هكذا جاء اسمه هنا مجرداً من الألف واللام ، وفى موضع آخر محلى بهما .

والنصوص عنه قليلة نزرة لا تكاد تفيدنا شيئاً عنه . وقد كان من أصحاب خاقان بن صبيح المتقدم ذكره ، إذ يستشهد به فى خبره الذى يذكره وأشرنا إليه .

وقد روى عنه الجاحظ فى صدد الكلام عن فضل الشمس قوله: « والحركة خير من الظل والسكون » [٤] كما روى عنه نادرة لشيخ سندى أتى به ليشتر يه على أنه طباخ ، فاقتحمته عين السندى وازدراه[٥].

ويظهر أن مثل المثنى هذا ــ ممن يذكر الجاحظ ــ كان من طبقة التجار الملابسين للعلماء.

٣٨ ـ السكباج (٢٣ : ٩)

ذكر أدى شير فى كتابه « الكلمات الفارسية المعربة » أن السكباج مرق يعمل من اللحم والخل ، معرب « سكبا » وهو مركب من « سك » أى خل ، ومن « با » أى طعام . وقد جاء ذكره ووصف طريقة طهيه فى كتاب عن الأطعمة مجهول المؤلف[٦] ، وقد ذكره فى باب الحوامض .

---

(١) الحيوان ٥ : ١٠٦ .
(٢) زهر الآداب ٣ : ٢٢٠ ط الرحمانية ، ١٩٢٥ م .
(٣) البخلاء ص ١٣٠ .
(٤) الحيوان ٥ : ١٥٠ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٣ م .
(٥) الحيوان ٦ : ١٦٦ ط التقدم ، القاهرة ، ١٩٠٧ م . (٦ : ٤٨٩ ، ط الحلبى ١٩٤٤) .
(٦) ص ٩ــ١٠ من هذا الكتاب ، ومنه نسخة فتوغرافية فى دار الكتب المصرية ، برقم (٥١ علوم معاشية)

ولعله من أجل ذلك كان يسمى — كما يقول الراغب — الخلية والمخللة . ويؤخذ من بعض ما أورده عنها أن السذاب كان يدخل فى أفاويهها ، كما أنها كانت تصبغ بالزعفران[١]

٣٩ — الطباهج (٢٣ : ١٤)

ذكر أدى شير فى كتابه أن فارسيته « تباهه » وأنه « طعام من بيض وبصل ولحم » وقد جاءت صفة طهيه فى كتاب الأطعمة المتقدم ذكره ، فى صفحتى ٢١ ، ٢٢٤ .

وذكر الشهاب الخفاجى فى تفسيره أنه « الكباب » ثم قال : « والعرب تسميه الصفيف »[٢] .

٤٠ — إبراهيم بن السندى (٢٤ : ٩)

من رجال الجاحظ الذين يكثر من ذكرهم والرواية عنهم فى كثير من كتبه ، كالبخلاء والحيوان والبيان والتبيين والتاج . وهو من أسرة سندية خدمت الدولة منذ أول عهدها . وأبوه السندى بن شاهك السندى ، تولى القضاء[٣] ، وكان واليا على الشام[٤] ، وكان ممن غلب على الأمين مع محمد بن عيسى بن نهيك وسليمان بن أبى جعفر المنصور[٥] ومن هذه الأسره إبراهيم بن عبد السلام ابن أخى السندى هذا ، ويذكره الطبرى فى أخبار المنصور[٦].

وقد وصف الجاحظ إبراهيم بن السندى بقوله : « وأما إبراهيم فإنه كان رجلا لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان نحويًّا عروضيًّا ، وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً . وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى . وكان كاتب القلم كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل فى الخراج يعمل زادان فروخ

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ٢ : ٢٩٢ ، ط الشرقية ، ١٣٢٦ هـ . وانظر أيضاً المضاف والمنسوب للثعالبى ، ص ٤٩٠ ، ط الظاهر ، ١٩٠٨ م ، فى الفصل الذى عقده عن « مخ الأطعمة » .

(٢) شفاء الغليل ص ١٢٩ ، ط السعادة . مصر ، ١٣٢٥ هـ .

(٣) عيون الأخبار ١ : ٧٠ ، ط دار الكتب المصرية .

(٤) الحيوان ٥ : ٣٩٣ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

(٥) التنبيه والإشراف ص ٣٠٢ ، ط الصاوى ، ١٩٣٨ م .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٣٠٥ ، ط الحسينية المصرية .

الأعور ، وكان منجماً طبيباً . وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة ، وبرجال الدعوة . وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر »(١).

وذكره كذلك فى رسالته التى كتبها فى مناقب الترك ، فقال : « وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة . وكان يحوط مواليه ، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم . وكان فخم المعانى ، فخم الألفاظ ، لو قلت : لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان طرير ، لكان ذلك قولا ومذهباً »(٢) .

وفى موضع آخر ذكره فقال : إنه كان من فلاسفة المتكلمين ، باعتباره من الأطباء ، إذ الأطباء ، فلاسفة المتكلمين ، كما يقول الجاحظ(٣).

ومن مواقفه الكلامية ما ذكره الشهرستانى : « سأل أبا موسى عيسى بن صبيح المردار عن أهل الأرض ، فكفرهم ، فأقبل عليه إبراهيم ، فقال : الجنة التى عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك ؟ فخزى ولم يحر جواباً »(٤) .

ويؤخذ من خبر عنه ذكره ابن قتيبة والثعالبى أنه كان والياً على الكوفة وقتاً ما (٥) .

٤١ — ربض الشاذروان (٢٤ : ٩)

هو — كما يؤخذ من السياق — موضع من مواضع بغداد . فأما الشاذوران فكلمة فارسية أوردها الخفاجى وفسرها بأنها جزء « من جدار البيت الحرام ، وهو الذى ترك من عرض الأساس خارجاً . ويسمى تأزيراً ، لأنه كالإزار للبيت » (٦) ولم يفسرها بأكثر من هذا . وظاهر أنه غير المقصود بهذه الكلمة هنا .

وهناك معنى آخر أدنى إلى أن يكون المراد هنا ، وقد أغفلته كتب اللغة إغفالا تاماً . وإنما يمكن استخلاصه من كتب البلدان ، فى خلال ما يذكرونه من عجائب الأمصار ، وفى أثناء كلامهم عن إقليم الأهواز ومدينة تستر . وذلك كما فى قول ابن خرداذبه : « ما بناء بالجص والآجر أبهى من إيوان كسرى . . . ولا بناء بالحجارة أحكم ولا أبهى

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٦٦ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .
(٢) مجموعة رسائل للجاحظ ص ٤٧ ، ط التقدم ، ١٣٢٤ هـ .
(٣) الحيوان ٢ : ١٤٠ .
(٤) الملل والنحل ١ : ٨٨ (هامش الفصل) .
(٥) عيون الأخبار ٣ : ١٢١ ، ثمار القلوب ص ٣٥٥ .
(٦) شفاء الغليل ص ١١٨ ، ط السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

من « شاذروان » تستر ، لأنه بالصخر وأعمدة الحديد وملاط الرصاص »[١]. وكقول الاصطخرى فى كلامه عن الأهواز : « وأما الخاصيات بها فإن عندهم بتستر " الشاذروان " الذى بناه سابور ، وهو من أعجب البناء وأحكمه . بلغنى أن امتداده يقرب من ميل . قد بنى بالحجارة كله ، حتى تراجع الماء وارتفع إلى باب تستر » [٢]. ومثل هذا ما نراه عند ياقوت فى الفصل الذى كتبه عن تستر[٣] . ثم نجد عند البشارى بيان هذا الإجمال ، إذ يصف « الشاذروان » وصفاً أدق ، ويبين الغرض منه فى صورة أوضح . فيقول فى صفته إن الماء يتبحر عنده ، وإنه يرد « الماء ويفرقه ثلاثة أنهار ، تمد إلى ضياعهم ، وتسقى مزارعهم . وهم يقولون : لولا " الشاذروان " ما عمرت الأهواز ، ولا انتفع بأنهارها . وفى « الشاذروان » أبواب تفتح إذا كثر الماء لولاها لغرقت الأهواز . وتسمع للماء المنحدر صوتاً يمنع النوم أكثر السنة . وزيادته تكون فى الشتاء ، لأنه من الأمطار لا من الثلوج »[٤]

ومن ذلك يتبين لنا أن هذه الكلمة تعنى عملا من الأعمال الهندسية التى كان يقصد بها إلى تنظيم الرى فى هذا الإقليم ، فهو نوع من القناطر أو الخزانات يتيح للماء أن يجتمع وراءه ويرتفع ، حتى يمكن توزيعه على النحو المطلوب من ناحية : وحتى يمكن إيصاله إلى الأمكنة المرتفعة ، من ناحية أخرى .

وإذا كان الشاذروان أكثر ما يطلق على شاذروان تستر ، فليس هناك ما يمنع أنه كان يطلق على كل عمل هندسى من هذا القبيل . وبسياق الكلام يدل على أن الشاذروان المقصود هنا إنما كان فى بغداد . وأكبر الظن أن توزيع المياه فيها كان يحتاج إلى مثل هذا النوع من التدبير . فإذا صح هذا كان لنا أن نذهب إلى القول بأن « ربض الشاذروان » المذكور هنا هو أحد الأرباض الكثيرة التى يذكر اليعقوبى طائفة منها فى الفصل القيم الذى كتبه عن بغداد [٥]، وإن لم يذكره بينها . وأنه كان يقع إلى جانب شاذروان هناك ، فنسب إليه .

---

(١) المسالك والممالك ، ص ١٦٢ ، ط بريل ، ١٨٨٩ م .

(٢) مسالك الممالك ، ص ٩٢ ، ط بريل ، ١٨٧٠ م ، وانظر أيضاً ص ١٩ .

(٣) معجم البلدان ٢ : ٣٨٧ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م .

(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٤١١ ، ط بريل ، ١٩٠٦ م .

(٥) كتاب البلدان ، المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية : ص ٢٣٣ — ٢٥٤ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .

٤٢ ـ الجرذقة (٢٤ : ١٣)

قال أدى شير : « ومن كرده معرب أيضاً الجردق والجرذقة والجرذق ، وهو الرغيف» ، وقد قيده الخفاجى بأنه الرغيف الغليظ[١] ، وكذلك ذكر الجواليقى أنه الخبز الغليظ[٢] . وقد وردت فى شعر أبى النجم ، فى قوله :

* كان بصيراً بالرغيف الجردق *

٤٣ ـ « المغبون لا محمود ولا مأجور » (٢٥ : ٣)

هذا مثل من الأمثال التى كانت تجرى على لسان العامة ، وتصور نتيجة من نتائج التعقد الاقتصادى فى ذلك العهد . وقد عرض له الجاحظ فى موضع آخر فقال : « والعامة تضع هذا وما أشبهه فى غير موضعه . وإنما هو شىء ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه على ألسنتهم . حتى قالوا فى نحو من هذا فى البائع والمشترى : " المغبون لا محمود ولا مأجور " فحملوا الجهلة على المنازعة للباعة ، والمشاتمة للسفلة والسوقة ، والمقاذفة للرعاع والوضعاء ، والنظر فى قيمة جبة ، والاطلاع فى لسان الميزان ، وأخذ المعايير بالأيدى ، وبالحرى أن يكون المغبون محموداً ومأجوراً ، إلا أن يكون قال : اغبنى . بل لو قالها كانت أكرومة وفضيلة ، وفعلة جميلة ، تدل على كرم عنصر القائل وطيب مركبه »[٣].

وقد جاء هذا المثل مرة ثالثة فى كتاب البخلاء ، فى رسالة ابن التوأم[٤].

٤٤ ـ محمد بن يسير (٢٦ : ٣)

هو أبو جعفر محمد بن يسير الرياشى ، مولى بنى رياش [٥]، شاعر من شعراء البصرة المعاصرين للجاحظ ، يكثر من ذكره ورواية شعره ، على أنه ليس من شعراء الطبقة الأولى ، ولكنه كان فى شعره يصور النوازع الاجتماعية المختلفة إلى حد ما ، فمرة

---

(١) شفاء الغليل ص ٥٨ ط السعادة .
(٢) المعرب ص ٩٥ ، ١١٥ ط دار الكتب المصرية .
(٣) التاج ص ١٠٢ ، ط الأميرية ، ١٩١٤ م .
(٤) البخلاء ص ١٨٧ .
(٥) اللآلى ، ص ١٠٤ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .

هو ماجن فى شعره [١]، ومرة زاهد متنسك [٢] وقد أورد له الجاحظ قطعتين من الشعر ، يتحدث فيهما عن العلم وقراءة الكتب[٣] ، وهما يدلان على أنه كان مأخوذاً بالنزعة العلمية فى البصرة ، نزاعاً إلى أنواع المعرفة وصنوف الكتب ، وأنه كان يجد فى ذلك حظا من اللذة ، وأنه اتخذ من الكتب مفزعاً يفزع إليه حين يضيق بالناس والحياة ، وإحدى هاتين القطعتين ، وهى التى يبدؤها بقوله :

أقبلت أهرب لا آلو مباعدة ... فى الأرض منهم فلم يحصنى الهرب

من أحسن ما قيل فى وصف الكتب ، وما تحدثه للنفس الضيقة من أنس .

وقد كان ابن يسير من الشعراء الدارسين المتعطشين للمعرفة ، استجابة لروح العصر ، والتماساً للروح النفسى . وفى بعض آثاره الأدبية التى وصلت إلينا ما يشير إلى هذه الدراسة ؛ إذ أصيب فى ألواحه الأبنوس التى كان يستخدمها فى دراسته ، فبكاها ببعض الشعر [٤] ، كما أن فى قصيدته التى أشرنا إليها ما يدل على الأصل الذى كانت تصدر عنه هذه النزعة ، وهو التماس الروح النفسى لقاء متاعب الحياة ، فلم يكن يتخذ هذه المعرفة وسيلة إلى غاية دنيوية ، أو سبباً إلى الجدل والمساماة وإرضاء هذه النزعة التى كانت شائعة فى البصرة .فقد كان يبغض هذا الأسلوب ، ويبغض من أجله المتكلمين ، كما عبر عن ذلك فى قطعة من الشعر يقول فيها[٥].

يا سائلى عن مقالة الشيع ... وعن صنوف الأهواء والبدع
دع عنك ذكر الأهواء ناحية ... فليس فيمن شهدت ذو ورع
كل أناس بديهم حسن ... ثم يصيرون بعد للشنع
أكثر ما فيه أن يقال له ... لم يك فى قوله بمنقطع

فقد كان ابن يسير إذن رجلا وادع النفس ، لا يذهب به الطموح ، ولا يستبد

(١) البيان والتبيين ٣ : ١٢٧ — ١٢٨ ، ط الفتوح العربية ، ١٣٣٢ هـ ، الأغانى ١٢ : ١٢٨ ط التقدم .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٨٧ ، الكامل للمبرد ، ٢ : ١٣ — ١٤ ، ط الأزهرية ، الأغانى ١٢ : ١٣١ .

(٣) الحيوان ١ : ٥٩ ، ٩٤ — ٩٦ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

(٤) الأغانى ١٢ : ١٣٣ — ١٣٤ . ط التقدم .

(٥) تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٤ — ٧٥ ، ط كردستان العلمية ، ١٣٢٦ هـ ، الأغانى ١٢ : ١٣٢ — ١٣٣ .

به القلق . وتلك إحدى ظواهر هذا الخلق . وأخرى نجدها فى شعره الذى يعبر عن روح الرضا ويوصى بالصبر ، كقوله[١] :

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر طوراً وطوراً تركب اللججا
كم من فتى قصرت فى الرزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فلجا

وكقوله فى هذين البيتين اللذين يعبران عن فلسفة النفس الوادعة المطمئنة[٢] :

تخطى النفوس مع العيا ن وقد تصيب مع المظنة
كم من مضيق فى الفضا ء ومخرج بين الأسنة

ويظهر أن خلقه هذا قد أخمله نوعاً ما . فيقال إنه بقى فى البصرة طيلة حياته لم يغادرها ، وقد اكتفى من هذه الحياة بالقراءة والسماع ، وبقول الشعر ، يجد به حيناً ويهزل أحياناً ، وبشرب النبيذ ، « يشربه عند إخوانه ويستسقيه منهم » ، دون أن يعنى نفسه بنبذه وعلاجه . ولعله من هذا جاءت شهرته بالبخل ، وذكره بين البخلاء ، كما تجىء الإشارة إلى ذلك فى رسالة ابن التوأم[٣] . ولم يكد يتصل فى البصرة إلا بآل جعفر بن سليمان ، ثم لا نكاد نجد له شعراً فى المديح ، فقد كان إنما يقول الشعر لنفسه الوادعة .

٤٥ ـ أحمد بن هشام (٢٧ : ٧)

سرى من سراة بغداد ، عرف بالترف والأريحية ، من أسرة الهشاميين التى نعرف منها على بن هشام والخليل وشيبة . وقد كان من أبرز مظاهر الترف عنده مخالطته لرجال الفن فى ذلك العهد . ومن ذلك كانت بينه وبين إسحاق بن إبراهيم الموصلى صداقة يشيد كل منهما بها ، وقد ارتفعت معها الكلفة ، حتى كان إسحاق يعابثه أحياناً[٤] . ولعل من مظاهر ترفه أيضاً أنه كان يصنع الشعر فى بعض الأحيان ، فقد روى له أبو الفرج بيتين بعث بهما إلى إسحاق مع زعفران رطب أهداه إليه[٥] .

(١) الأغانى ١٢ : ١٣٢ ، ط التقدم .
(٢) الأغانى ١٢ : ١٣٣ .
(٣) كتاب البخلاء ص ١٨١ .
(٤) الكامل للمبرد ٣ : ١٦ ، ط الأزهرية .
(٥) الأغانى ٥ : ٣٠١ ، ط دار الكتب المصرية .

٤٦ ــ أبو سعيد سجادة (٢٨ : ٥)

لم يتح لنا أن نعرف على وجه التحقيق من هو المقصود بأبى سعيد هذا ، على أنا نذكر أن من بين الذين امتحنوا فى خلق القرآن رجلا يدعى بسجادة ، وفيه يقول المأمون فى كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم : « وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه فى شغله بإعداد النوى ، وحكه ؛ لإصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ؛ ما أذهله عن التوحيد وألهاه »[١].

ومن هذا نرى كيف جاء هذا اللقب « سجادة » ، من هذا الأثر الذى كان يسمى « سجادة » . وفى هذه الفقرة ما يدلنا كيف كان المراءون يصنعون هذا الأثر . وكذلك يذكر الحصرى أنهم كانوا يصنعونه بدلك ما بين أعينهم بنواة وثوم ، ثم يعصبون الثوم وينامون[٢] وقد أورد فى هذا الموضع نادرتين طريفتين تتصلان بذلك .

وقد وردت هذه الكلمة « سجادة » فى شعر أبى نواس فى أبياته التى كتب بها إلى الفضل بن الربيع ، وقال فيها :

فادع بى ، لا عدمت تقويم مثلى ... فتــأمل بعينك الســجادة
لو رآها بعض المرائين يومــاً ... لاشتراها يعــدها للشهادة[٣]

٤٧ ــ المسجديون (٢٩ : ١)

هم ــ فيما نحسب ، وفيما تفيدنا إياه النصوص القليلة ــ قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم ، وطال غشيانهم له ، فعرفوا به ، ونسبوا إليه . ولم يكونوا ــ فيما يبدو ــ من صنف واحد ، بل كانوا خليطاً من الناس ، منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة ، وقد كانوا يستطرفون من هذه الثقافات التى يزخر بها مسجد البصرة ، فكانوا لا يغرقون فى فن ، ولا يتقيدون بنوع من العلم ، وإنما يصيبون من هذا وذاك ، ثم يجلس بعضهم إلى بعض ، يتحدثون شتى الأحاديث ، ويتجاذبون أطراف الرأى فى مختلف المسائل .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٢٩١ ، ط الحسينية المصرية .
(٢) جمع الجواهر ص ١٣٢ ، ط الرحمانية ، ١٣٥٣ هـ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ٨٧ ط الحميدية ، تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٢٦ .

ويظهر أن هؤلاء المسجديين كان لهم أثر غير قليل فى التوجيه الأدبى لكثير من أدباء ذلك العهد ، فنى أخبار أبى نواس أنه لما شب وكبر صحب أهل المسجد والمجان[١] ، وأكبر الظن أن المقصود بأهل المسجد هم المسجديون . وكذلك الجاحظ كان مجلسه فى أول أمره إلى هؤلاء المسجديين[٢].

وقد كان بعض الشعراء يوصف بأنه مسجدى ، كما يقول المرزبانى عن أبى عمران موسى بن محمد السلمى أنه « بصرى مسجدى متوكلى »[٣] وهذا يدلنا على طابع خاص كان يعرف به الشعراء المسجديون . ومثل هذا نجده فى الرواية ، فقد ذكر الآمدى فيما يستنكره من أشعار العرب هذا الشطر :

وسنا كسنيق سناءً وسنما

ثم قال : « ولم يعرف الأصمعى هذا . وقال أبو عمرو : وهو بيت مسجدى ، أى من عمل أهل المسجد »[٤] ومن هذا نرى بعض الاتجاه الذى كان يتجهه المسجديون .

٤٨ ـ المكوك والدرهم والقيراط والحبة (٣٠ : ١٢ ـ ٣١ : ٧)

المكوك معيار يكال به ، وهو ـ كما يقول صاحب القاموس ـ مكيال يسع صاعاً ونصفاً ، أو نصف رطل إلى ثمان أواق ، أو نصف الويبة ، إلخ التقديرات التى ترجع فى اختلافها إلى اختلاف الزمان والمكان . والأصل فى كلمة المكوك أنها طاش يشرب به .

وأما الدرهم فمعرب كما يقول الجواليقى . وقد تكلمت به العرب قديماً ، إذ لم يعرفوا غيره . قال الشاعر :

وفى كل أسواق العراق إتاوة ... وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم[٥]

وقد ذهب الأب أنستاس مارى الكرملى إلى أنه معرب عن « دراخمى » اليونانية[٦] وقد ذكر المقريزى أن الدرهم كان أول أمره نوعين : كبير وصغير ، وقد كان

---

(١) أخبار أبى نواس لابن منظور ١ : ٦ ، ط الاعتماد ، ١٩٢٤ م .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ١١٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ .
(٣) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٧٩ ، ط القدسى ، ١٣٥٤ هـ .
(٤) الموازنة بين الطائيين ص ١١٦ .
(٥) المعرب ص١٤٨ ط دار الكتب المصرية . والشاعر هو جابر بن حنى الثعلبى ، أحد شعراء المفضليات.
(٦) النقود العربية وعلم النميات ، ص ٢٤ ، المطبعة العصرية ، ١٩٣٩ .

الكبير يسمى الدرهم البغلى ، وهو فارسى ، والصغير هو الدرهم الطبرى . وقال إن الناس كانوا قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار ، فعمد إلى إصلاح هذه الحال ، فوزن الكبير فإذا هو ثمانية دوانق ، ووزن الصغير فإذا هو أربعة ، فوحدهما ، وجعل الدرهم ستة دوانيق[1] . وذلك الوضع الأخير للدرهم هو الذى ذكره صاحب القاموس فى مادة (م ك ك) .

وأما القيراط فهو نصف الدانق ، أو هو جزء من اثنى عشر جزءاً من الدرهم .

وأما الحبة فهى ربع قيراط ، أو هى جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم .

وقد ذكر المقريزى أن الدانق ثمان حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التى لم تقشر ، وقد قطع من طرفيها ما امتد ، ثم ذكر مرة ثانية أن زنة الحبة مائة من حب الخردل البرى المعتدل .

٤٩ ــ الفانيذ (٣١ : ٩)

الفانيذ ــ كما فى القاموس ــ ضرب من الحلواء معروف ، معرب بانيد . ولم يذكره الجواليقى ولا الخفاجى ، وذكره أدى شير فقال : « الفانيذ معرب بانيد ، وهو نوع من الحلواء ، يصنع من السكر ودقيق الشعير والترنجبين » ؛ ثم قال عن الترنجبين إنه تعريب ترنكبين « طل حلو أكثر ما يسقط بخراسان وما وراء النهر ، ويجمع كالمن » . ويقول العلامة لسترنج فى فصله عن مكران إن أهم غلاتها هو قصب السكر ونوع خاص من السكر الأبيض يعرف عند العرب بالفانيذ (من الكلمة الفارسية : بانيد) [3] .

٥٠ ــ النشاستج (٣١ : ١٠)

النشاستج هو النشا ، كما قال الجوهرى ، « فارسى معرب حذف شطره تخفيفاً ، كما قالوا للمنازل منا » [4] وقال أدى شير فى تفسير هذه الكلمة : « ما يستخرج من الحنطة إذا نقعت حتى تلين ومرست حتى تخالط الماء وصفيت فى مناخل وجففت .

---

(١) النقود الإسلامية ص ٣ ، ٩ ، ١٠ ط الجوائب .

(٢) انظر ــ فوق هذا ــ البحث الذى كتبه M.H. Sauvaire فى المجلة الأسيوية *Journal Asiatique* (سنة ١٨٨٤ جزء ٣) تحت عنوان : Numismatique et Métralogie Musulmanes

(٣) *The Lands of the Eastern Caliphate*, P. 329. Cambridge, 1905.

(٤) شفاء الغليل ص ١٩٩ .

فارسيته " نشاسته" . والكردى " نشا " ولعل الكلمة آرامية الأصل . »

وقد ذكر الجاحظ كلمة النشاستج فى سياق الكلام عن فضل الكتب ومآثر المتقدمين فقال : « ولهم صب الزردج ، واستخراج النشاستج »[١].

٥١ ـ المرقشيثا (٣٢ : ٩)

هو الاسم الذى كان يطلقه علماء الكيمياء فى القرون الوسطى على بعض المعادن الكبريتية التى تقدح النار . ويقابله فى اليونانية كلمة (بوريطس pyrites) وهى تعنى حجر النار .

وقد ذكر الأب أنستاس مارى الكرملى أنها « أرمية الأصل (كيماقا شيثا) أى الحجر القاسى أو الصلب أو الصلد ثم أقحمت الراء بين الميم والقاف لتسهيل النطق بها (والراء من حروف الذلاقة) فصارت إلى ما ترى » [٢] .

وقد جاء ذكره فى كتاب الأحجار لأرسطاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون بما يلى :

« حجر مرقشيثا : المرقشيثا ألوان كثيرة ، منها الذهبية ، والفضية ، والنحاسية . هذه ألوانه . فإذا كلس وحرق حتى يصير مثل الدقيق دخل فى الصنعة ، وإن ألقى مع يسير من الكبريت فى البوطقة خلص الذهب . وإذا حك الحديد المسقى بالمرقشيثا قدح النار »[٣]

٥٢ ـ زبيدة حميد (٣٥ : ١)

صيرفى بصرى كبير ، يملك مائة ألف دينار ، ويستخدم العديد من الغلمان ، كما يؤخذ من حديث الجاحظ عنه هنا . وقد عرض له مرة أخرى فى سياق الحديث عن تفاوت الناس فى التأثر بالخمر فقال : « وكان عقل زبيدة بن حميد إذا شرب عشرة أرطال ، وبين عقله إذا ابتدأ الشرب مقدار صالح »[٤].

ولعله ابن « حميد بن القاسم الصيرفى » ، وكان صيرفياً تاجر رقيق فى أيام المنصور .

(١) الحيوان ١ : ٨٢ .

(٢) مجلة لغة العرب ٥ : ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) كتاب الأحجار لأرسطاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون ص ١١٢ ط هيدلبرج ١٩١٢ م . وانظر كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٤ : ١٥٢ ط مصر ١٢٩١ هـ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢٢٧ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

كما يؤخذ مما ذكره الجهشيارى[1] ، وكذلك كان زبيدة — فيما يبدو — صيرفياً تاجر رقيق . وقد جاء ذكره أيضاً فى حوادث سنة ١٥٧ ، فيما يقول الطبرى : « وفيها عقد المنصور الجسر على باب الشعير ، وجرى ذلك على يد حميد بن القاسم الصيرفى »[2].

٥٣ — أبو الأصبغ بن ربعى (٣٥ : ١٠)

هكذا جاء هنا بالغين المعجبة ، وفى النصوص الأخرى التى بين أيدينا بالعين المهملة[3] وقد سمى بهذا وذلك .

كان من أصحاب الجاحظ الذين يروى عنهم ، وأحسب أنه من بنى ربعى الذين يذكرهم الجاحظ فى سياق يدل على أنه كان يعتاد منزلهم[4] . واسمه « ذؤيب » على ما جاء فى أخبار أبى نواس . وهو هذلى بصرى . وقد كان — فيما يظهر من أخباره القليلة — من فتيان البصرة الظرفاء الخلعاء . وفى الخبر الذى أورده ابن منظور عنه وعن أصحابه ما يدل على ذلك . ومن أصحابه صباح بن خاقان المنقرى ، ويحيى الأرقط ، وعيسى ابن غصين ، وابن الكهل مولى بنى تميم ، وعبيد العاشقين . وقد ذكره أبو نواس فى قصيدة مدح بها هؤلاء فقال :

وابن ربعى الفتى السمح الجواد الراحتين[5]

٥٤ — الجوارشن (٣٥ : ١٣)

تجىء هذه الكلمة بالنون كما هنا ، وخالية منها ، كما ذكرها أدى شير فى كتابه ، وقال إنها عند الأطباء نوع من الأدوية ، تعريب كَوارش ومعناه الهضام . وهذا الذى ذكره أدى شير يوافق ما ذكره التهانوى فى كشاف اصطلاحات الفنون[6] ، كما يساير سياق الحديث فى هذا الموضع من البخلاء[6]

---

(١) الكتاب والوزراء ص ٦٨ ط الصاوى .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٢٨٨ ، ط الحسينية المصرية .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٩٣ ط ١٣٣٢ هـ ، الحيوان ٣ : ١٠٩ ، ٢٥٦ ، أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٤٩ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢١ .

(٥) ديوان أبى نواس ص ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ .

(٦) ١ : ٣٢٠ ط كلكتا . الهند .

ولكن هذه الكلمة تعرضت ، فيما بعد ، لنوع من التوسع اللغوى . فنسى فيها هذا المعنى ، ولم يلحظ فيها إلا بعض الصفات الظاهرة لما تطلق عليه . فأصبحت تطلق فى القرون المتأخرة على ما عبر عنه داود الأنطاكى ، فى القرن العاشر ، بقوله : « والجوارشات هنا عبارة عن الدواء الذى لم يحكم سحقه ، ولم يطرح على النار ، بشرط تقطيعه رقاقاً »(١)

وبذلك صرنا نرى هذه الكلمة تطلق على أنواع من الأدوية ، منها الهاضوم وغيره .

٥٥ ـ البرنكان (٣٦ : ٨)

فسره صاحب القاموس بأنه الكساء الأسود ، ونقل الجواليقى عن ابن دريد أنه الكساء مطلقاً ، وأنه بالفارسية (٢) . وقد جاءت الكلمة فى الشعر ، فيما أنشد الجاحظ (٣) .

إنى ، وإن كان إزارى خلقـاً   وبرنـكانى سملا قد أخلقـا ،
قد جعل الله لسانى مطلقاً

وقد كتب عنه العلامة دوزى Dozy فصلا فى كتابه « معجم الملابس » (٤) . ولكن معظم كلامه عنه كما كان مستعملا فى العصور المتأخرة ، فى بلاد المغرب ، اعتمادا على كلام الرحالين ، أمثال Diego de Haedo، وهو يصفه بأنه كساء كبير ، يلف الجسم كله ، يستعمله الرجال والنساء . وغالب الظن أن شكله العام لم يتغير كثيراً عن هذه الصورة البدوية ، إلا أن تكون الحياة المتحضرة فى البصرة حورته قليلا .

٥٦ ـ ليلى الناعطية (٣٧ : ١)

ذكرها الجاحظ فى البيان على أنها من نساء الغالية(٥) ، كما جاء ذكرها فى قصيدة صفوان الأنصارى فى الرد على بشار ، فيقول (٦) :

أتجعل ليلى الناعطية نحـلة   وكل عريق فى التنـاسخ والرد

(١) تذكرة ذوى الألباب ١ : ١٦٠ ط بولاق .
(٢) المعرب من الكلام الأعجمى ص ٥٦ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .
(٤) *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 68-71.
(٥) ١ : ١٩٥ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٧ .

وأما « ناعط » التى تنسب أليها ، فهى — كما ذكر ياقوت[1] — حصن فى رأس جبل بناحية اليمن ، قديم ، كان لبعض الأذواء . وقد ورد فى شعر امرئ القيس وأبى نواس . وقد ذكره الهمدانى بين ما ذكر من بقايا مآثر اليمن وقصورها ، وقال إنه أفضلها ، ووصفه بأنه مصنعة بيضاء مدورة منقطعة فى رأس جبل تلين ، وهو أحد جبال البون ، ثم مضى فى صفته وفى ذكر قصور ناعط وما جاء فيها[2].

ولست أدرى — على التحقيق — وجه هذه النسبة . وليس يبعد أن تكون يمنيه الأصل ؛ فالتشيع غالب على اليمانية ، وقد كان الناعطيون من أصحاب على فى الكوفة ، وطائفة من طوائف جيشه بصفين .

٥٧ ــ جبل العمى (٣٨ : ١٦)

يقول فان فلوتن فى التعليق على هذا الموضع إنه ربما كان الشخص الذى ذكره أبو نواس فى شعره، على ما جاء فى الديوان (ط القاهرة ، ١٨٩٨) ص ١٨٤ : « ثقيل يقال له روح العمى (الغمر) ويلقب بالجبل . بصرى »[3].

وليس يبعد هذا عندى . والديوان يثبت لأبى نواس فى هجاء « الجبل » هذا ، خمس قطع . ومن بين هذه القطع ما يدل على أنه كان يتعاطى صناعة الغناء ، وأنه كان يغنى لأبى نواس وصحبه فى لهوهم ومجالس أنسهم .

٥٨ ــ حكاية الكلام الملحون (٤٠ : ١ ــ ٤)

يقول الجاحظ هنا : « وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه » . وهذا مذهب للجاحظ لعله كان أول من اصطنعه واجترأ

---

(١) معجم البلدان ٨ : ٢٣٩ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م . وانظر الفصل القيم الذى كتبه أبو محمد الحسن بن احمد الهمدانى فى كتابه الإكليل عن ناعط (٨ : ٤١ — ٤٦ ، ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ م) .

(٢) الإكليل لأبى محمد الهمدانى ٨ : ٤١ — ٥٢ ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ .

(٣) البخلاء (ط ليدن ص IX) Notes et éclaircissements,

(٤) ديوان أبى نواس، ص ١٥٥ — ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٢ ﻫ .

عليه فى كتبه ، دون أن يبالى فى ذلك لائمة المتحرجين وتنطس المتنطسين ، فقد كانت تحمله عليه نزعته الأدبية القوية التى اتخذت من حياة الشعب مادة لها ، تصور ألوانها المختلفة ، وتعبر عن اتجاهاتها ومناحيها ، والتى لم تكن تعبأ فى سبيل دقة التصوير وبلاغة التعبير بتلك القيود الشكلية إذا كان فيها ما يمنع من ذلك .

وقد عبر عن هذا المذهب فى غير موضع ، فيقول مثلا : « . . . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أردت له ، ويذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها »[1] . ويقول فى موضع آخر : « إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب . لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فإذا أدخلت على هذا الأمر — الذى إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التى فيه — حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته »[2]. ويتحدث فى موضع ثالث عن التجاوب الضرورى بين اللفظ والمعنى ، وما يتصل منه بهذا الباب ، فيقول : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال ، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله ، وداخل فى باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان فى لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكربها ويأخذ بأكظامها »[3].

فالجاحظ كان يرى إذن أن الكلام هو الصورة النفسية المسموعة بكل ما فيها من ألفاظ معينة ، وهيئة فى الأداء خاصة . فالتحريف فيها إنما هو مسخ لهذه الصورة ، وإخراج لها عن أصل وضعها . ويظهر هذا فى النادرة أكثر ، ولهذا كان أكثر كلامه عنها . لأن النادرة غايتها الاضحاك ، وهو يعتمد على الشكل والهيئة إلى حد كبير .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٨١ .

(٢) الحيوان ١ : ٢٨٢ .

(٣) الحيوان ٣ : ٣٩ .

وقد تبع ابن قتيبة الجاحظ فى هذا المذهب فقال فى مقدمة عيون الأخبار : « وكذلك اللحن إن مر بك فى حديث من النوادر ، فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها » . وشتان ما بين الجاحظ وابن قتيبة فى التقرير والتعليل .

٥٩ ـ أحمد بن خلف (٤١ : ١)

هو ـ كما يبدو من سياق الكلام فى هذا الفصل ـ أحد أصدقاء الجاحظ . وإذا كانت هذه الصداقة لم تجعله يتحرج فى وصفه بما وصفه به ، بعد أن عينه وسماه ، فلعله كان هو الذى يعنيه ، فى مقدمة هذا الكتاب : البخلاء ، بقوله : « ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف به . ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه » .

وقد ورد هذا الاسم فى رسالة التربيع والتدوير ، إذ يقول الجاحظ ، مخاطباً أحمد ابن عبد الوهاب : « والله لئن رميتنى ببجيلة ، لأرمينك بكنانة ، ولئن نهضت بصالح بن على ، لأنهضن بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على »[1] ، فأكبر الظن أنه هو المعنى هنا .

٦٠ ـ المثلثة (٤١ : ٣)

ليس فى قواميس اللغة تفسير لمعنى هذه الكلمة يتفق مع السياق الذى جاءت فيه هنا . وهذا السياق يدل على أنها كانت تطلق على نوع من الحساء ، والحساء ـ كما يعرف به صاحب اللسان ـ طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن ، وقد يحلى ، ويكون رقيقاً يحسى . ويقول الأستاذ داود الحلبى فى التعليق على هذا الموضع من مقالاته : « تصحيح أغلاط كتاب البخلاء» إن كلمة « المثلثة » تطلق الآن فى العراق على الحنطة بعد أن تدق ثلثى الدق الكامل بدون أن تسلق . وقد أورد بعض الأطعمة التى تتخذ منها كالكشكا ووصف طرائق صنعها[2] . ولكن ما هنا شىء آخر ، فلعل المراد حساء هذه المثلثة .

---

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٢٦ ط التقدم .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى الجزء الثالث والرابع من المجلد العشرين (آذارونيسان ١٩٤٥) ص ١٥٨ .

٦١ ـ الجرار المدارية (٤٥ : ١)

نوع من الجرار وصفه هنا بأنه يرشح الماء ، وجاء فى قطعة من شعر البحترى ما يدل على أن الجرار المدارية هى من الجرار الخضر ، وذلك حيث يقول فى رجل يكنيه بأبى الحسن، يعيره بها وبولايته على المدار :

ليس المدار بجالب لك سؤددا   غير الجرار الخضر والكيزان
ولئن وليت فبالمصانعة التى   قدمتها ، وشفيعك العريان[١]

وأما المدار التى تنسب إليها هذه الجرار فهى ـ كما يقول ياقوت ـ قصبة ميسان ، بين واسط والبصرة ، وبينها وبين البصرة أربعة أيام . وكانت معروفة بجرارها[٢].

٦٢ ـ حديث خالد بن يزيد (٤٦ : ١)

خالد بن يزيد هذا هو أحد المكدين الذين مارسوا التكدية حياتهم ، ثم نزل البصرة ، فأجرى الجاحظ هذا الحديث على لسانه ، ليرسم به صورة عجيبة من حياة هذه الطائفة .

وليست التكدية عندهم مجرد السؤال والاستجداء ، كما قد تفيده هذه الكلمة بمعناها اللغوى الساذج[٣] ، فقد أخذت معنى اصطلاحيًّا معقداً متعدد الوجوه ، كثير الدلالة . فأصبحت تتضمن معنى الاحتيال للمال بمختلف الوسائل والأساليب غير المشروعة ، من استخدام القوة والاستلاب بالعنف والغلبة ، إلى استغلال غفلة الجماهير وغرائز الرحمة والرقة .

وقد وجد الجاحظ فى هذا النوع فى الحياة العجيبة موضوعاً أدبيًّا طريفاً ، يثير دهشة القارئ ، فأجلس هذا الرجل ، خالد بن يزيد ، فى أحد مجالس البصرة ، وأمر عليه سائلا يسأله ، فغلط بدرهم أعطاه له ، ثم فطن فاسترده ، وأعطاه فلساً بدله . فأنكر جلساؤه عليه ذلك .

وهنا أوجد الجاحظ المناسبة التى جعلته يتكلم عن نفسه ، وساق المقدمة التى تمهد

---

(١) ديوان البحترى ٢ : ٣١٦ ، ط هندية ، القاهرة ١٩١١ م .
(٢) معجم البلدان ٧ : ٤٣٣ ط السعادة ، القاهرة ١٩٠٦ م .
(٣) انظر شفاء الغليل للخفاجى ص ١٨٠ ــ ١٨١ .

لوصف حياة هذه الجماعة ، فجعل الرجل يتكلم ويقول : إن هذا السائل من مساكين الفلوس لا مساكين الدراهم ، وأنه يعرفه حق المعرفة بالفراسة ، وكيف لا يعرفه وقد كان وكان . . . وهكذا يأخذ فى الحديث عن نفسه وعن صور حياته ، وما كان له من الزعامة فى طائفته .

فإذا انتهى الجاحظ من التعريف به هذا التعريف الأولى ، انتقل بالحديث ناحية أخرى ، فأورد وصيته لابنه ، يوصيه فيها بحفظ المال والقيام عليه ، ويقص عليه ما قاساه فى جمعه من السفر الطويل ، ومعاناة المحن ، وملابسة الخدع ، وتعاطى أنواع الثقافة المختلفة ، والبطش ساعة البطش ، والحيلة ساعة الحيلة ، والصبر على ضروب التنكيل والتعذيب ، من الجلد والحبس والقيد . ويذكر له مشاركته للعصابات المختلفة من الثوار وقطاع الطرق ، ويمضى فى هذا الحديث الذى يصور حياة هذه الطائفة تصويراً دقيقاً جميلا ، كما يصور من ناحية أخرى صورة من الفساد الاجتماعى الذى أصاب كل شىء ، حتى أصاب ذمم الوكلاء وضمائر القضاة .

فإذا فرغ من إيراد هذه الوصية أخذ فى منحى آخر يزيد الصورة تفصيلا وتجلية ، فأخذ يفسر ما جاء فى هذا الحديث من كلمات اصطلاحية أطلقت على بعض أنواع الاحتيال التى تجيدها هذه الطائفة .

ويجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن الجاحظ لم يقتصر على هذا الحديث فى تصوير هذه الطائفة ، بل قد تناوله فى موضع آخر ، فى فصل نقله عنه البيهقى[1]، يذكر فيه محاسن التكدية ، وقد ساقه على لسان أحد المكدين ، كما أورد فصلا آخر عدد فيه أصناف المكدين ، مشتملا على بعض ما جاء فى البخلاء[2].

ويتبين من حديث الجاحظ هذا أنه يتحدث عن طائفة متحدة فى روحها ، وفى نزعتها ، وفى أساليب حياتها ، وفى أنها رحالة دائمة الرحلة والمهاجرة ، حتى ما يكاد القارئ يملك نفسه من تذكر تلك الطائفة التى يسميها البعض « النور » ، كما تسمى بالغجر والبوهيميين والجيتان[3] ، وغير ذلك من الأسماء التى تختلف باختلاف منازلهم التى ينزلونها . وكذلك نجد هذه الطائفة التى عقد لها الجاحظ هذا الحديث ، وسماها بالمكدين ، تختلف أسماؤها . فتسمى هنا بالزط ، وهناك بالزواقيل ، إلى غير ذلك من

---

(١) المحاسن والمساوى ص ٦٢٢ — ٦٢٤ . (٢) المحاسن والمساوى ص ٦٢٤ — ٦٢٧ .

(٣) gitane أو gitano تطلق فى الإسبانية على البوهيميين ، ويلاحظ كأن هناك صلة بين هذه الكلمة وبين كلمة زط التى هى كلمة جت الهندية .

الأسماء ، كما أطلق عليها بعد ذلك اسم الساسانيين أو بنى ساسان .

فإذا افترضنا أن هذه الفرقة هى طائفة من النور المنتشرين فى أنحاء الأرض ، وجدنا هذا الفرض قريباً ، ووجدنا الأدلة والقرائن متظاهرة على تأييده . فأول ما يعرف به النور هو الرحلة الدائمة ، والسعى المستمر فى مناكب الأرض ، وهؤلاء كذلك كما يؤخذ من كلام الجاحظ هنا ، وفيما نقله البيهقى ، ومن صفات الساسانيين فى الآثار الأدبية الأخرى ، وسنشير إليها بعد . كما أن وسائلهم فى الحياة هى وسائل النور من المخادعة ، والحيلة فى اجتلاب المال واستلابه ، غير متحرجين .

ويصفهم الجاحظ بأنهم عرفوا « خدع الكاهن ، وتدسيس العراف ، وإلى ما يذهب الخطاط والعياف ، وما يقول أصحاب الأكتاف ، وعرفوا التنجيم والزجر والطرق والفكر » وكذلك نعرف عن النور أن هذا أمر شائع بينهم ، وأن هذه الثقافة الخاصة بالغيبيات من التنجيم والزجر وما إليه من أخص ثقافاتهم .

وبعد هذا كله لا يكاد الجاحظ يذكر شيئاً عن هؤلاء المكدين ثم لا نجده فيما نعرف من أخلاق الغجر أو البوهيميين ومذاهبهم فى الحياة ، مع مراعاة اختلاف الزمان والمكان ، وما توحى به الظروف المختلفة والملابسات المتفاوته .

على أن هناك شاهداً آخر يؤيد هذا الفرض الذى نفترضه ، وهو يرجع إلى الموطن الأصلى للنور ، فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أنهم أخلاط من القبائل الآرية المنتشرة بين الهند وإيران، وقد لاحظ بلاس pallas —كما ذكر الأب أنستاس مارى الكرملى فيما كتب عن النور[١] — أن اللغة التى يتكلمها النور تضاهى كل المضاهاة لغة هنود المولتان ، وقد اتفق له أن يتصل بجماعة منهم فى استراخان ، ويتعرف إليهم . ونحن من جانبنا نرجح إلى حد كبير أن هذا الأصل هو أصل طائفة المكدين التى ذكرها الجاحظ . فقد ذكر منهم الزط ، وهى —كما نعرف — تحريف كلمة « چت » اسم لاحدى القبائل النازلة على حدود الهند ، كما ذكر منهم القفص ، وهم من جبال كرمان ، كما ذكر البشارى[٢] . وكثير من البلاد التى ذكرت فى سياق حديث الجاحظ على أنها من مجالاتهم من هذه المنطقة التى قالوا إنها موطن النور ، كالمولتان التى أشار إليها بلاس ، وقيقان ، وهى على حدود الهند ، وقطر ، وهى بين شيراز وكرمان .

وعبارة أخرى جاءت فى حديث خالد بن يزيد تشير إلى هذا الأصل الهندى ، وهى

(١) مجلة المشرق ، سنة ١٩٠٢ ص ٩٦٩ .
(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٧٠ — ٤٧١ ط بريل ، ١٩٠٦ م .

قوله : « ولو كنت عندى مأموناً على نفسك لأجريت الأرواح فى الأجساد وأنت تبصر ... » فهذه عبارة أشبه بالعقلية الهندية المتعلقة بأسرار الحياة ، وغوامض الأرواح ، ومساتير الوجود .

ننتقل بعد هذا إلى دليل آخر أقطع فى الدلالة على الصلة بين هؤلاء المكدين ، وبين طائفة النور ، وهو دليل يقدمه إلينا الأصل المخطوط الذى اعتمدنا عليه فى هذه النشرة ، فى هذه العبارة : « قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت كاجار فى حداثة سنى ؟ » ؛ والدليل هو فى كلمة «كاجار » التى جاءت هكذا فى الأصل فجعلها « فان فلوتن » فى نشرته « كاخان » على غير هدى . وما كلمة « كاجار » هنا إلا صورة من كلمة « غجر » التى تطلق الآن على النور كاسم من أسمائهم الكثيرة ، كما ذكر ذلك عرضاً الأب أنستاس مارى الكرملى فى بحثه الذى تقدمت الاشارة إليه ، وكما نعرض لذلك فى هذه التعليقات بعد قليل .

وإذن فنحن بهذه الشواهد المتعددة نستطيع أن نصحح هذا الفرض الذى افترضناه عن طائفة المكدين ، ونستطيع أن ندرسها على هذا الأساس درساً يمكن أن يكشف لنا عن كثير منها .

وقد ذكر ياقوت فى معجمة خالد بن يزيد هذا ، كأنه شخصية تاريخية ، وترجم له ترجمة أخذها عن هذا الفصل الذى كتبه الجاحظ فى البخلاء ، ولم يزد شيئاً ، ولم يغير فى العبارة تغييراً كبيراً . ثم قال : « ومن لطائفه وصيته لابنه عند موته ، وفيها لطائف وغرائب » . ثم أورد طرفاً من هذه الوصية ، كما جاءت فى البخلاء ، وقال إنها مجتمعة فى كراسة[1] .

وعندى أن هذا من صنيع الوراقين ، تحايلا على الكسب . فاقتطعوا هذا الحديث من كتاب البخلاء ، ونسخوه على حدة فى كراسة لطيفة الحجم ، ليكون أروج لها . وقد رآها ياقوت ، فاعتبرها بهذا الاعتبار ، ولم يعرف أنها قطعة من آثار الجاحظ الأدبية التى مثل فيها هذه الناحية الغريبة من الحياة تمثيلا دقيقاً ، فافتتن بها الناس . واستغل الوارقون ذلك ، فأخذوا فى انتساخها وتقديمها على أنها من حديث شيخ المكدين نفسه ، زعماً منهم أن ذلك يكون أروج لها ، وأشد فى افتتان الجمهور بها ، وإقباله عليها .

على أنه يظهر أن تعقد الحياة فى القرن الرابع ، وشيوع المذاهب المختلفة فيه ، والغفلة التى أطبقت على العامة من ناحية الدين فى ذلك العهد ، كما يصورها كتاب ككتاب

---

(١) معجم الأدباء ١ : ٤٢ — ٤٧ .

نشوار المحاضرة للتنوخى ، قد مكن لهذه الطائفة أن يمتد نفوذها ، ويقوى سلطانها ، وتتسع ميادينها . وقد سميت فى ذلك العهد اسما اصطلاحيًّا جديداً ، هو « الساسانيون » . وقد ظهر ذلك فى الآثار الأدبية فى القرن الرابع وما بعده ظهوراً بيناً ،وحسبنا ما نراه فى مقامات بديع الزمان والحريرى .

وقد كتبت مؤلفات أخرى تناولت هذه الناحية . بل لقد أصبحت حيل الساسانيين من موضوعات العلم ، وقد كتب حاجى خليفة فصلا تحت عنوان : « علم الحيل الساسانية » قال فيه :

« ذكره أبو الخير من فروع علم السحر ، وقال : علم يعرف به طريق الاحتيال فى جلب المنافع ، وتحصيل الأموال . والذى يباشره يتزيا فى كل بلدة بزى يناسب تلك البلدة . بأن يعتقد أهلها فى أصحاب ذلك الزى . فتارة يختارون زى الفقهاء وتارة يختارون زى الوعاظ ، إلى غير ذلك . ثم إنهم يحتالون فى خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها »[1] .

ثم ذكر بعد ذلك حيلة من حيلهم فى هذا .

وهناك غير هذه الآثار النثرية آثار شعرية . وقد ذكر بعضها الثعالبى ، منها القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزاعى[2] ، وقد جاء فى هذه القصيدة كثير من الكلمات الاصطلاحية التى ذكرها الجاحظ .

وقد نهج على هذا النمط بعض الشعراء المتأخرين الذين جعلوا المعارضة باباً من أبواب الفن كصفى الدين الحلى ، فإن له أيضاً قصيدة سماها « القصيدة الساسانية » . وهى محفوظة فى دار الكتب المصرية[3].

٦٣ ــ كاجار (٤٦ : ٨)

هكذا اقترحنا هذه الكلمة تصحيحاً لكلمة « كاحار » التى جاءت فى المخطوطة ، وافترض فان فلوتن فى نشرته أنها محرفة عن كلمة « كاخان » التى وضعها موضعها ، وقد طرد هذا الفرض ، فحول كلمة «كاغان » فى ص ٥٢ س ١٩ فجعلها «كاخان » ،

---

(١) كشف الظنون ١ : ٤٥٥ ــ ٤٥٦ ، ط إستنبول ١٣١١ هـ .
(٢) اليتيمة ٣ : ٣٢٣ إلخ ، ط الصاوى .
(٣) ٣٢٨٧ أدب ، ٦٦٨ مجاميع .

إذ لم يستقيم له أن تكون محرفة عن « كاغانى » القريبة منها ، لما ساق الجاحظ فى تفسيرها ، مما يخالف تفسير كلمة « كاغان »[١].

وأساس هذا الفرض هو مجرد الاستحسان الصادر عن شكل الحروف ، والجمع بين الكلمتين : « كاحار » و « كاغان » فى صورة واحدة . وإن كنا لا نجد معنى لكلمة « كاخان » التى افترضها ، يدل على هذا الفرض أو يرجحه . والمعنى الذى ذكره الجاحظ لكلمة « كاغان » التى جعلت « كاخان » غير متعين .

فأما الصورة التى اقترحناها فهى أقرب صورة ممكنة من الصورة الخطية ، إذ ليس بين الصورتين إلا الإعجام الذى كثيراً ما يغفله النساخ . وهذا إلى أن كلمة « كاجار » هى الكلمة التى تلائم موضعها فى سياق الكلام كل الملاءمة . فهى كلمة كانت تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة الضاربة فى الأرض ، من المصدر التركى « قاچمق » بمعنى الهرب ، وقد دخلت هذه الكلمة فى اللغة الفارسية ، وصنع منها المصدر الفارسى « قچانيدن » . وقد سبق أن قلنا إن كلمة « غجر » ليست إلا صورة منها .

٦٤ ــ المستعرض (٤٦ : ١١)

كلمة من الكلمات الاصطلاحية لطائفة المكدين . وهذه الكلمات لا تنسب إلى لغة واحدة أو لهجة معينة ، بطبيعة الحياة المتنقلة التى تحياها هذه الطائفة . والذى يبدو من وضع هذه الكلمة وبنائها أنها عربية بل هى عربية بدوية ، ففيما نعرف من استعمالاتها ، نجد أنها مستعملة عند طائفتين : الخوارج واللصوص ، وكلتا الطائفتين خرجت من البادية .

فمن استعمالاتها عند الخوارج ما جاء فى ذكر قطرى بن الفجاءة ، أحد خطباء الأزارقة وفرسانهم ورؤسائهم أنه « كان يدين بالاستعراض والسباء وقتل الأطفال »[٢] وكذلك أورد المبرد مثل هذا فى حكاية مذهب نافع بن الأزرق « فى البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال » ، وفى قول أبى بيهس : « الدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز . وإن أصيب من الأطفال فلا حرج »[٣] . وقد عرض أبو على القالى لتأويل هذه الكلمة بقوله : « ويقال خرجوا يضربون الناس عن عرض ، يريدون عن شق وناحية .

(١) البخلاء ص ٥٢ .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٤ .
(٣) الكامل للمبرد ٣ ، ١٧٣ .

لا يبالون من ضربوا ، ومنه استعراض الخوارج الناس ، إذا لم يبالوا من قتلوا »[١].

فذلك هو الاستعراض فى لغة الخوارج ، وأما فى لغة اللصوص فيختلف قليلا عن هذا ، كما نرى فى قصة السمهرى ، أنه خرج مع بعض أصحابه من اللصوص ، فلقوا عون بن جعدة بين نخل والمدينة ، فقالوا له : العراضة . أى : مر لنا بشىء . فقال : يا غلام ! جفن لهم ؛ فقالوا : لا والله ! ما الطعام نريد . فقال : عرضهم[٢].

فلعل هذا هو الأصل القريب فى كلمة « المستعرض » أى « طالب العراضة » ، ولا سيما إذ كانت من لغة اللصوص ، ومن هذه السبيل دخلت فى لغة المكدين ، وليس يمنع من هذا أن يتغير مدلول الكلمة شيئاً ما ، لأن هذا هو شأن الكلمات . وقد قال الجاحظ فى تفسير المستعرض إنه « الذى يعارضك وهو ذو هيئة ، وفى ثياب صالحة ، وكأنه قد هاب من الحياء ، ويخاف أن يراه معرفة . ثم يعترضك اعتراضاً ، ويكلمك خفياً »[٣] .

وقد ذكر المستعرض فى قصيدة أبى دلف ، فى قوله :

ومن يكحل من مستعرض دمعته تجرى

وقال الثعالبى فى تفسيره : « ومن يكحل : هو الذى معه قطنة مغموسة فى الزيت يمرها على عينيه لتدمع ، ويأخذ فى شكاية حاله ، واستعراض الناس فى مسألته وذكر قصته ، وأنه قطع عليه الطريق ، أو غصب على ماله . والمستعرضون أمهر القوم » .

فإذا صح الأصل الذى رأيناه لكلمة المستعرض ، فإنه يكون قد غاب عن الجاحظ والثعالبى ، فذكروا هذا الاشتقاق ، والتكلف ظاهر عليه[٤].

٦٥ ــ الكاغانى (٤٦ : ١٢)

ذكره الجاحظ فى الحيوان بقوله : « والكاغانى ، وهو الذى يتجنن ويتفالج فالج الرعدة والارتعاش ، فإنه يحكى من صرع الشيطان ، ومن الإزدباد والنفضة ، ما ليس عندهما ،

(١) الأمالى ١ : ١١٩ .
(٢) الأغانى ٢١ : ٧٥ .
(٣) البخلاء ص ٥٣ .
(٤) ومما يستطرف هنا مما لا بأس بذكره ما ذهب إليه الأستاذان الناشران للبخلاء بوزارة المعارف ، حين أخطأ القراءة ، فذهبا فى تأويل المستعرض مذهباً جديداً ، « وهو الذى ينظر إلى أقفية الناس » ، وبذلك جعلا استعراض الأقفية نوعاً من القيافة يلجأ إليه هذا الرجل ليتعرف حال الناس .

وربما جمعهما فى نقاب واحد ، فأراك الله تعالى مجنوناً مفلوجاً يجمع الحركتين جميعاً ، بما لا يجيء من طباع المجنون والإنسان العاقل »[١] وتفسيره له فى البخلاء قريب من هذا .

وكذلك جاء ذكره فى القصيدة الساسانية مخففاً « الكاغ » ، وقد فسره الثعالبى بالمتجانن[٢] .

٦٦ ـ الأسطيل (٤٦ : ١٣)

فسر الجاحظ الأسطيل بالمتعامى ، وقد وردت هذه الكلمة فى بعض ما ذكره ياقوت فى ترجمة أبى العلاء المعرى ، مع بيان أنها تدل على الأعمى فى لغة أهل الشام ، إذ يقول : « ونقلت من بعض الكتب أن ابا العلاء لما ورد إلى بغداد قصد أبا الحسن على بن عيسى الربعى ليقرأ عليه ، فلما دخل إليه قال على بن عيسى : ليصعد الأصطيل (وقد جاءت مصحفة : الاصطبل) ، فخرج مغضباً ولم يعد إليه . والأصطيل فى لغة أهل الشام الأعمى ، ولعلها معربة »[٣].

٦٧ ـ الزكورى (٤٦ : ١٣)

فسر الجاحظ هذه الكلمة بأن المراد بها خبز الصدقة [٤] وقد جاءت فى القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزرجى على هذا الوجه :

ومن زكر ، والقوم ال زكوريون فى الصدر

ثم قال الثعالبى فى شرح هذا البيت : « زكر : كدى على الأبواب ، وهو من أجلائهم »[٥] والأصل فى هذا كله هو كلمة « زكور » الفارسية ، وهى تعنى معنيين : الشحيح واللص[٦].

---

(١) ٦ : ١٥٨ – ١٥٩ ط التقدم ، القاهرة .
(٢) يتيمة الدهر ٣ : ٣٢٥ ط الصاوى .
(٣) معجم الأدباء ٣ : ١٢٣ ط دار المأمون .
(٤) انظر صفحة ٤٦ فى هذه النشرة لكتاب البخلاء .
(٥) يتيمة الدهر ٣ : ٣٣٢ ط الصاوى ١٩٣٤ م .
(٦) انظر مثلا معجم استنجاس Steingass, *Persian-English Dictionary*

٦٨ ـ إسحاق (٣٩ : ١٥)

أحد زعماء المكدين ، ولعله محرف عن سماق[١] أو سملق[٢] على فرض أنه هو الذى كان قائماً بأمر الزط الذين غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها .

٦٩ ـ عبيد بن شرية الجرهمى (٤٠ : ١٠)

ذكره الجاحظ فى الرواة والنسابين والعلماء من أهل الجاهلية[٣] ، ثم ذكره مرة أخرى من القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسة[٤] ، وقد ترجم له ابن النديم ، وذكر أنه أدرك النبي ولم يسمع منه ، وأنه وفد على معاوية « فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة ، وأمر افتراق الناس فى البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن ، فأجابه إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية »[٥] وحكى ياقوت قولا ينكر وفوده عليه ، ويذكر أنه إنما لقيه بالحيره ، لما توجه معاوية إلى العراق[٦] ، ثم يورد حديثاً طويلا جرى بينه وبينه ، يسأله فيه معاوية فيجيبه ، وفى آخر هذا الحديث قصة فيها أبيات من الشعر نجدها فى عيون الأخبار كذلك[٧] . ويبدو على هذا الحديث وتلك القصة أمارات الصنعة ، وسمات الوضع . ويظهر أن شخصية عبيد بن شرية هذا قد تعرضت لكثير من مهارة أخيلة الرواة وصناع الأحاديث ، سواء فى ذلك ما يلصق به من الأخبار ، وما يسند إليه من الآثار .

٧٠ ـ تميم الدارى (٤٧ : ١٢)

هو تميم بن أوس بن خارجة ، من بنى عبد الدار ، بطن من بطون لخم . وكان مقامه

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ٣ : ٢٥٧ ، ط بولاق .
(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٣٠٦ حوادث سنة ٢١٩ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٨١ ط ١٩٣٢ م ، وانظر الحيوان ٣ : ٢١٠ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٨٢ .
(٥) الفهرست ص ١٣٢ ط الرحمانية ، القاهرة .
(٦) معجم الأدباء ١٢ : ٧٢ – ٧٨ .
(٧) عيون الأخبار ٢ : ٣٠٥ .

مع قبيلته فى الشام ، فى ناحية فلسطين ، ثم وفد على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بعد منصرفه من غزوة تبوك ، سنة ٩ ، وأسلم وسكن المدينة ، وقد ظل بها مدة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وبعد مقتل عثمان عاد إلى وطنه ، ولم يلبث أن مات فى آخر خلافة على ، سنة ٤٠ ، وقد بقيت أسرته هنالك ، باسم « الداريين » مدة طويلة . وقد رأى بقية هذه الأسرة هناك ابن فضل الله العمرى ، كما ذكر فى كتابه[١].

وتتصل بتميم الدارى قصة من القصص الشعبية تنسب إليه ، وقد شاعت هذه القصة شيوعاً كبيراً . وزمن هذه الأسطورة هو خلافة عمر بن الخطاب ، وأما مكانها فالعوالم المجهولة التى حمله إليها أحد الجن فطوف به ما طوف ، وأراه الدجال والجساسة فى أثناء هذه الرحلة ، إلى أن عاد إلى المدينة ، وكانت امرأته أنكرت غيبته ، وظنت موته ، فاستبدلت به . وهنا تبرز شخصية على بن أبى طالب ، فيحل هذه العقدة .

ويظهر أن هذه الأسطورة ليست إلا تطوراً لأسطورة أخرى ، جاءت فى صورة حديث ، يسند إلى فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس ، وفيه أن تميما « ركب البحر فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً ، ثم أرفوا إلى جزيرة فى البحر ، فلما دخلوها رأوا الجساسة فى صورة دابة أهلب كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر . ثم دلتهم على الدجال ، فرأوه وحدثوه » ، إلى آخر هذه القصة التى تذكر فى كتب الحديث[٢].

وهكذا اتخذ القصاص من تميم الدارى شخصية يديرون حولها ما ينسجونه من أساطير .

٧١ — دعيميص (٤٧ : ١٢)

ذكره الميدانى فى شرح المثل : « أدل من دعيميص الرمل » فقال : « هو اسم رجل كان دليلا خريتا داهياً يضرب به المثل ، فيقال : هو دعيميص هذا الأمر ، أى عالم به »[٣].

---

(١) مسالك الأبصار ١ : ١٧٢ ، وانظر : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى ، ص ٤٣ — ٤٧ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ م . وانظر أيضاً : رسالة تقى الدين المقريزى المسماة (ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى) ، وهى منشورة فى : *The Journal of the Palestine Oriental Society*, vol XIX, No. 3-4 (1941)

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووى ٥ : ٤٢٠ — ٤٢٢ ط الكستلية ١٢٨٣ .

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٢٨٤ . ط ١٣٥٢ هـ .

٧٢ ــ رافع المخش (٤٧ : ١٣)

هو رافع بن عمير الطائى ، وكان دليلا خريتاً فى زمان عمر بن الخطاب ، ومن أشهر ما يعرف به أنه دل خالد بن الوليد حين خرج إلى الشام والياً عليها مكان أبى عبيدة بن الجراح ، ففوز به بين قراقر وسوى . ولعل هذا الحادث كان من أكبر ما خلد ذكر هذا الرجل ، وقد قال فيه راجز المسلمين كما يقول ابن قتيبة[1] :

لله در رافع ! أنى اهتدى　　فوز من قراقر إلى سوى
أرضاً إذا سار بها الجيش بكى　　ما سارها قبلك من إنس أرى

٧٣ ــ الغول والسعلاة (٤٧ : ١٣)

نكتفى هنا بإحالة القارئ إلى بعض المراجع التى يمكنه بالرجوع إليها تحقيق مدركات العرب والمسلمين عن هذه الكائنات . ومراجع هذه المسائل كثيرة ، ولكنا نكتفى بالقريب منها .

يمكن أن يراجع عن الغول ما كتب المسعودى فى مروج الذهب[2] ، وعن السعلاة ما كتب الجاحظ فى الحيوان[3] ، وعن الهاتف ما كتبه المسعودى أيضاً فى الباب الخمسين من كتابه ذلك[4] ، تحت عنوان : « ذكر قول العرب فى الهواتف والجان » ، وكذلك يمكن أن يراجع عن الجن والجان ، وعن الشق والنسناس ، ما كتبه الجاحظ فى الحيوان[5] وما جاء أيضاً فى مروج الذهب[6] . وأما الكهانة والعرافة ففى الباب الثانى والخمسين من المروج قدر كاف[7] .

ومن المراجع التى لا بد من مراجعتها فى مثل هذه المعارف شرح الجاحظ لقصيدة

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١٤٢ – ١٤٣ .
(٢) ٣ : ٣١٤ ط أوربا .
(٣) ١ : ١٨٥ – ١٨٧ ط مصطفى البابى الحلبى .
(٤) ٣ : ٣٢٣ .
(٥) ١ : ٢٩١ – ٢٩٢ ، ١٨٩ .
(٦) ٣ : ٣٢٤ – ٣٢٥ .
(٧) ٣ : ٣٤٧ .

الحكم بن عمرو البهرانى ، ثم ما استطرد إليه بعد ذلك[١].

٧٤ ـ أصحاب الأكتاف (٤٧ : ١٦)

طائفة من أهل الفراسة ، يصطنعون فى ذلك النظر فى الأكتاف ، كما يصطنع غيرهم النظر فى أسرار الكف وهى خطوطها ، إلى غير ذلك . وقد أشار الجاحظ فى غير موضع إلى هذا الفن من فنون الفراسة ، كقوله فى رسالة التربيع والتدوير : « وما تقول فى أسرار الكف ؟ وما تقول فى النظر فى الأكتاف ؟ »[٢] ، وكقوله فى الحيوان ، وقد ذكر طائفة أخرى من فنون الفراسة : « . . .وباب آخر يدعونه للفأر ، وهو الذى ينظر فيه أصحاب الفراسة ، فى قرض الفأر ، كما ينظر بعضهم فى الخيلان ، وفى الأكتاف ، وفى أسرار الكف »[٣] وقد جاء مثل هذا فى موضع آخر منه ، إذ يقول : « وليس الباب الذى يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط ، والنظر فى أسرار الكف ، وفى مواضع قرض الفأر ، وفى الخيلان فى الجسد ، وفى النظر فى الأكتاف ، والقضاء بالنجوم »[٤]

وكذلك أشار المسعودى إلى هذا الفن فى سياق كلامه عن معارف العرب فى القيافة والزجر والعيافة ، إذ يقول : « . . . فيكون الزجر والفأل شاملا لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم ، كوجود النقط للبربر ، وكالنظر فى الكتف وغير ذلك ، مما خص به كل جنس من الناس »[٥] ويؤخذ من هذا أن النظر فى الأكتاف ليس من المعارف العربية ، وإذا كان لم ينص على نسبته ، فقد ذكر محمد بن أبى طالب المعروف بشيخ الربوة ، من علماء القرن السابع والثامن ، أنه من المعارف الخاصة بالترك .

وقد تحدث شيخ الربوة عن هذا الفن بما يزيل شيئاً من الغموض حوله ، فأشار إليه فى مقدمة كتابه عن الفراسة بقوله : « ومنها النظر فى أكتاف الضأن . والمعرفة به قد توجد إذا قوبلت بشعاع الشمس خطوط مخصوصة وأشكال مخصوصة يستدل بها المتفرسون على احوال كثيرة من أحوال العالم ، وهى الحروب الواقعة بين الملوك ، وأحوال الخصب والجدب.

(١) الحيوان ٦ : ٢٤ – ٩١ ط التقدم ، القاهرة . (٦ : ٨٠ – ٢٨٢ ط الحلبى)
(٢) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٠٥ ط التقدم ، القاهرة .
(٣) الحيوان ٥ : ٣٠٣ ، ط الحلبى .
(٤) الحيوان ٦ : ٦٣ ، ط الحلبى .
(٥) مروج الذهب ٣ : ٣٣٦ ، ط باريس .

وقل أن يستدلوا به على الأحوال الجزئية للإنسان المعين»[١].

٧٥ ــ « وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر » (٤٧ : ١٦)

وردت كلمة « الفكر » فى مثل هذا السياق ، فى موضع آخر من كلام الجاحظ ، إذ يقول بعد إيراده طرفاً مما يتعلق بكهان العرب وعرافيهم : « وليس الباب الذى يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط والنظر فى أسرار الكف ، وفى مواضع قرض الفأر ، وفى الخيلان فى الجسد ، وفى النظر فى الأكتاف ، والقضاء بالنجوم ، والعلاج بالفكر»[٢] ولعل المقارنة بين كلمة«الفكر»هنا وهنا مما عسى أن يشير ــ بعض الشىء ــ إلى المراد بها.

٧٦ ــ الرأس والأكسير (٤٧ : ١٩)

الإكسير فى الاصطلاح الكميائى القديم هو المادة الفعالة فى الصناعة ، أى تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب والفضة ، وهم يعتبرون أن « حد علم الصنعة هو العلم بالإكسير »[٣] وليس بنا الآن أن نتكلف شرح نظرية الإكسير ، فقد أدى ذلك خير أداء العلامة المرحوم باول كروسpaul Kraus فى الفصل القيم الذى كتبه عن الاكسير[٤] وهو يعطينا فكرة واضحة شاملة مستقيمة عنه . والميراث العربى عن الصنعة والاكسير ميراث كبير ، وقد بقيت منه طائفة غير قليلة ، ومن الكتب التى تعرضت للإكسير من غير كتب الصنعة كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى[٥] ومقدمة ابن خلدون[٦] .

وأما الرأس فلست على يقين من معناها ، ولعلها من باب الإكسير ، فقد جاءا فى ابن النديم مقترنين بعد ذكر جماعة من الذين كتبوا فى الصنعة ، قال : « هؤلاء المذكورون بعمل الرأس والإكسير التام »[٧].

---

(١) كتاب السياسة فى علم الفراسة ، ص ٥ ، ط الوطن ، القاهرة ، ١٨٨٢ . وانظر بعض التفصيلات الأخرى فى الكتاب نفسه ص ٤٧ .

(٢) الحيوان ٦ : ٢٠٥ ط الحلبى .

(٣) مختار رسائل جابر بن حيان ، ص ١٠٦ ط الخانجى ، ١٣٥٤ هـ .

(٤) Jâbir ibn Hayyan, II, 1-8, *Mémoires de l'Institut d' Egypte*, t. XLV.

(٥) ص ١٥٠ ، ط ١٣٤٢ هـ ، القاهرة .

(٦) ٥٩٢ ــ ٦٠٣ ط الشرفية ١٣٢٧ هـ .

(٧) الفهرست ص ٤٩٧ ط الرحمانية .

على أنا نجد فى ابن النديم فى الفصل الذى عقده لوصف « مذاهب الحرنانية الكلدانيين» قصة عجيبة وضعها تحت هذا العنوان : « حكاية فى الرأس » حكاها عن أبى يوسف إيشع القطيعى النصرانى فى كتابه فى الكشف من مذاهب الحرنانيين . ولعل هذه القصة تهدينا بعض الشىء إلى المقصود من كلمة الرأس هنا قال :

« إنه رأس إنسان صورته عطاردية ، على ما يعتقدونه فى صور الكواكب . يؤخذ ذلك الإنسان ، إذا وجد على الصورة التى يزعمون أنها عطاردية ، بحيلة وغيلة ، فيفعل به أشياء كثيرة ، منها : يقعد فى الزيت والبورق ، مدة طويلة ، حتى تسترخى مفاصله ، وتصير فى حال إذا جذب رأسه انجذب من غير ذبح فيما أرى (ولذلك يقال : فلان فى الزيت ، مثل قديم . هذا إذا كان فى شدة) . يفعلون ذلك فى كل سنة إذا كان عطارد فى شرفه ، ويزعمون أن نفس ذلك الإنسان تتردد من عطارد إلى هذا الرأس ، وينطق على لسانه ، ويخبر بما حدث ، ويجيب عما يسأل عنه ، لأنهم يزعمون أن طبيعة الإنسان أليق وأشبه بطبيعة عطارد من سائر الحيوان ، وأقرب إليه بالنطق والتمييز ، وغير ذلك مما يعتقدونه فيه »[1].

٧٧ ـ خاتون (٤٨ : ٢)

غالب الظن أنه يقصد « خاتون » ملكة بخارى حتى سنة ثلاث وخمسين ، ويذكرها البلاذرى فى فتوح البلدان[2] .

٧٨ ـ السيوف القلعية (٤٨ : ٧)

جاء ذكر هذه السيوف فى كتاب أبى دلف ، مسعر بن مهلهل ، فيما ينقل عنه ياقوت ، قال : « ثم رجعت من الصين إلى كله ، وهى أول بلاد الهند من جهة الصين ، وإليها تنتهى المراكب ، ثم لا تتجاوزها ، وفيها قلعة عظيمة فيها معدن الرصاص القلعى ، لا يكون إلا فى قلعتها ، وفى هذه القلعة تضرب السيوف القلعية ، وهى الهندية العتيقة »[3].

(١) الفهرست ص ٤٤٦ – ٤٤٧ .

(٢) ص ٤٠١ ، وقد نقل ياقوت فى معجم البلدان كلام البلاذرى فى هذا الموضع (٢ : ٨٤) ، ويلاحظ من مقارنة النصين أن فى عبارة النسخة المطبوعة من البلاذرى فى مصر سقطا .

(٣) معجم البلدان ٧ : ١٤٨ .

وقد عد الجاحظ السيوف القلعية من مآثر الهند ومفاخرهم فى رسالته « فخر السودان » فقال: « ولهم (أى الهند) السيوف القلعية ، وهم ألعب الناس بها ، وأحذقهم ضرباً بها »(١) كما جاء ذكرها فى شعر الفرزدق ، فى قوله (٢):

متقلدى قلعيــة وصوارم هنــدية وقديمــة الآثار

وإذن فالسيوف القلعية سيوف هندية قديمة ، وكانت صناعتها — فيما يظهر — سراً من الأسرار التى يفخر خالد بن يزيد بمعرفتها . وليس يبعد عندنا أن تكون هذه الأسرار قد اتخذت صورة أسرار الصنعة والإكسير ، ولا سيما إذ كان علماء الصنعة قد تناولوا بكلامهم الرصاص القلعى الذى هو عندهم رخو الظاهر يابس الباطن ، وكيف يمكن أن يبطن ظاهره ويظهر باطنه(٣) .

٧٩ — الفرعونى (٤٨ : ٧)

لم نستطيع أن نتبين على وجه الدقة المراد بهذه الكلمة هنا . إلا أنا نلاحظ من سياق الكلام أن « الفرعونى » شىء يصنع صناعة ، وأن صناعته تنطوى على طائفة من الأسرار ثم نلاحظ من ناحية أخرى أن نوعاً من الزجاج أو البلور كان يوصف فى عصر الجاحظ بالفرعونى ، إذ نجد فى رسالة « التبصر بالتجارة » للجاحظ هذه العبارة : « وخير الزجاج البلورى الصافى الأبيض النقى ، والفرعونى الفائق » (٤) وكذلك نجد هذا الوصف فى الحيوان ، إذ يقول : « والزئبق أشبه بالفضة المائعة من الرمل بالزجاج الفرعونى »(٥).

فأكبر الظن أن المراد بالفرعونى فى هذا الموضع من البخلاء هو ذلك النوع من الزجاج، وهو نوع خاص يحتاج فى صنعه إلى معرفة خاصة ، أشار إليها الشيخ داود الأنطاكى ، ثم قال : « فيأتى فصوصاً بيضاء شفافة ، وهو من أسرار الأحجار القديمة »(٦).

---

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ٨٠ ط التقدم .

(٢) ديوان الفرزدق ص ٢٧٩ ط الصاوى .

(٣) مختار رسائل جابر بن حيان ص ٤٦٧ . وانظر فى الكلام عن الرصاص القلعى ووصفه كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ، ص ٢٩ ط المؤيد ، ١٣١٨ هـ .

(٤) ص ١٥ — ١٦ ط الخانجى ، القاهرة .

(٥) ٣ : ٣٧٤ ط مصطفى البابى الحلبى .

(٦) تذكرة ذوى الألباب ١ : ٢٤٧ ط الوهبية . (٣) الحيوان ١ : ٦ .

ويظهر أن مثل هذا النوع من الزجاج كان مغشى بطائفة من الأسرار التى تكاد تلتحق بأسرار الكيمياء وغوامض الصناعة ، كما يظهر من سياق الفصل الذى كتبه داود عن الزجاج ، وقد ذكر فيه من الأنواع ما وصفه بقوله : « واعلم أن فيه سراً عجيباً ومعنى غريباً ، وقد أشاروا إليه بالرموز ، ويعرف عندهم بالملوح به والمطوى » .

٨٠ ــ صنعة التلطيف (٤٨ : ٧)

يظهر أنه اصطلاح كيميائى ، كما يؤخذ من سياق ذكره فى هذا النص الجاحظى : « وعبتنى بكتاب المعادن ، والقول فى جواهر الأرض ، وفى اختلاف أجناس الفلز . .. وما القول فى الأكسير والتلطيف »(١) وربما كان فى مثل هذا النص الصنعوى ما يشير إلى معنى التلطيف : « فأما ما فى الأجساد من التدابير فإن العلماء رحمهم الله انقسموا فى الأجساد قسمين : وذلك أن منهم من قال : يكلس الجسد حتى يلطف ويصير هباء لا يحيى ولا يرجع إلى سنخه الذى بدأ منه وعنه ، والطائفة الثانية قالت : بلى يلطف ويحيى ويكون فيه بقية ، فيكون الجسد بمعنى المنحل لا الهالك »(٢).

٨١ ــ صعاليك الجبل (٤٩ : ٢٠)

يطلق اسم الجبل أو الجبال على المنطقة الجبلية التى كان اليونان القدماء يطلقون عليها اسم ميديا Medie والتى كانت قصبتها « إكباتانا Ecbatane » كما كان يكتبها اليونان ، أو « هجماتانا » كما كان يكتبها الفرس القدماء ، أو « همدان » كما ينطقها العرب(٣). وهى المنطقة الواقعة بين العراق غرباً وصحراء إيران الكبرى شرقا ، وبين أذربيجان فى الشمال والأهواز وفارس فى الجنوب .

وهو إقليم عريق واسع ، وقد خصه الهمذانى بقسم كبير من كتابه عرض فيه لوصف أجزائه المختلفة كقرماسين (وهى ما يسمى الآن كرمانشاه) وهمذان وأصبهان والرى(٤) . ولعل من خير ما عنى بإبرازه وصف الآثار المنحوته فيه ، كتمثال شبديز

(١) الحيوان ١ : ٦ .

(٢) مختار رسائل جابر بن حيان ص ٦٨ ، ط الخانجى ، ١٣٥٤ هـ .

(٣) G. Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 194. The University Press, Cambridge, 1905.

(٤) مختصر كتاب البلدان ص ٢٠٩ – ٢٧٩ ، ط بريل ، ١٨٨٥ م .

وأسد همذان ، وما جاء فى ذلك من الشعر .

أما الصعاليك الذين يشير إليهم الجاحظ هنا فلعله يقصد بهم هؤلاء الذين يذكرهم الهمذانى فى حديثه عن « سيسر » (أحد رساتيق همذان الذى يقوم مكانه الآن قصبة كردستان الفارسية ، كما يقول لوسترنج) ، وذلك حيث يقول [١] :

« ولم تزل سيسر وما والاها مراعى لمواشى الأكراد وغيرهم ، وإن المهدى أمير المؤمنين بعث إليها مولى له يقال له سليمان بن قيراط ، صاحب صحراء قيراط ، بمدينة السلام ، وشريك معه يقال له : سلام الطيفورى . (وكان طيفور مولى المنصور) . فلما كثر الصعاليك والدعار وانتشروا فى الجبل ، فى خلافة المهدى ، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم ، فكانوا يقطعون ويأوون إليها ، فلا يطلبون ، لأنها من حد همذان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان وشريكه إلى المهدى بذلك ، فوجه إليهما جيشاً عظيما . وكتب إليهما يأمرهما ببناء مدينة يأويان إليها مع أغنامهما ورعاتهما ، ويحصنان فيها الدواب والأغنام ممن خافاه عليها . فبنيا مدينة « سيسر » وحصناها وأسكناها الناس . . . ثم إن الصعاليك كثروا فى خلافة الرشيد ، وشعثوا سيسر ، فأمر ببنائها وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب خاقان الحارثى الصغدى (وفيها اليوم قوم من أولادهم) » .

٨٢ ــ الزواقيل (٤٩ : ٢٠)

فسر الفيروزبادى الزواقيل باللصوص ، ويبدو أنه الاسم الذى كان يطلق على هذه الطائفة فى الشام ، كما كان يطلق عليهم اسم « الزط » فى البصرة وما حولها ، إلى غير ذلك من الأسماء .

وكذلك نجد الطبرى يذكر « الزواقيل » فى حوادث سنة ١٩٦ ، إذ يقول : « فقدم عليه (أى على عبد الملك بن صالح فى الرقة) أهل الشام : الزواقيل والأعراب من كل فج » ، ثم يذكر بعد ذلك ما كان من معركة بين الأبناء والزواقيل ، كما يذكر أنه كان على الزواقيل مضر بن شيث وعمر السلمى والعباس بن زفر [٢] .

---

(١) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٦١ ، ط الحسينية المصرية .

٨٣ ـ الزط (٤٩ : ٢٠)

أشرنا فيما سبق إلى أن كلمة « زط » تحريف كلمة « چت » الهندية ، وأن الزط يرجعون إلى أصل هندى . وذلك هو ما كان متعارفاً عنهم ، وقد ذكر ذلك البلاذرى ، وهو أقرب المؤرخين عهداً بهم ، وقد تحدث عنهم فى كتابه ، فذكر أولية أمرهم ، وشيئاً من تاريخهم ، فقال : « إنهم كانوا فى جند الفرس ، ممن سبوه وفرضوا له ، من أهل السند ، ومن كان سبياً من أولى الغزاة ، فلما سمعوا بما كان من أمر الأساورة أسلموا وأتوا أبا موسى ، فأنزلهم البصرة ، كما أنزل الأساورة[١] » .

وقال فى موضع آخر يذكر نزولهم البصرة فقال ، رواية عن أبى الحسن المدائنى : « أراد شيرويه الأسوارى أن ينزل فى بكر بن وائل ، مع خالد بن المعمر وبنى سدوس ، فأبى سياه ذلك ، فنزلوا فى بنى تميم ، ولم يكن يومئذ الأزد بالبصرة ولا عبد شمس . قال : فانضم إلى الأساورة السيابجة . وكانوا قبل الإسلام بالسواحل ، وكذلك الزط ، وكانوا بالطفوف ، يتتبعون الكلأ . فلما اجتمعت الأساورة والزط والسيابجة تنازعتهم تميم ، فرغبوا فيهم ، فصارت الأساورة فى بنى سعد ، والزط والسيابجة فى بنى حنظلة . فأقاموا معهم يقاتلون المشركين ، وخرجوا مع ابن عامر إلى خراسان ، ولم يشهدوا معهم الجمل ولا صفين ولا شيئاً من حروبهم ، حتى كان يوم مسعود . ثم شهدوا بعد يوم مسعود الربذة ، وشهدوا أمراً من الأشعث معه . فأضربهم الحجاج ، فهدم دورهم ، وحط أعطياتهم ، وأجلى بعضهم ، وقال : كان فى شرطكم ألا تعينوا بعضنا على بعض[٢] » .

وهكذا نرى أن الزط لم يلبثوا أن أحسوا فى هذه البلاد بشخصيتهم ، وأخذوا يشاركون فى الحياة السياسة ، مراغمة للدولة ، وما كان بهم أن يشاركوا فى الحياة السياسية ، ولكنهم وجدوا فيها مجالا يظهرون فيه غرائزهم التى جبلوا عليها ، والتى لم تلبث أن ظهرت ، فيما بعد ذلك ، ظهوراً اضحاً ، على نحو ما نرى فى موضع آخر من هذا الفصل الذى عقده البلاذرى لهم ، إذ يقول :

« وحدثنى روح بن عبد المؤمن ، قال : حدثنى يعقوب بن الحضرمى ، عن سلام .

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٦٨ .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

قال : أتى الحجاج بخلق من زط السند ، وأصناف ممن بها من الأمم ، معهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم ، فأسكنهم بأسافل كسكر . قال روح : فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها . ثم إنه ضوى إليهم قوم من أباق العبيد ، وموالى باهله ، وخولة محمد بن سليمان بن على ، وغيرهم . فشجعوهم على قطع الطريق ، ومبارزة السلطان بالمعصية . وإنما كانت غايتهم قبل ذلك أن يسألوا الشيء الطفيف ، ويصيبوا غرة من أهل السفينة ، فيتناولوا منها ما أمكنهم اختلاسه » .

وكان الناس فى بعض أيام المأمون قد تحاموا الاجتياز بهم ، وانقطع عن بغداد جميع ما كان يحمل إليها من البصرة فى السفن . فلما استخلف المعتصم بالله تجرد لهم ، وولى محاربتهم رجلا من أهل خراسان يقال له عجيف بن عنبسة ، وضم إليه من القواد والجند خلقاً ، ولم يمنعه شيئاً طلبه من الأموال . فرتب بين البطائح ومدينة السلام خيلا مضمرة مهلوبة الأذناب . وكانت أخبار الزط تأتيه بمدينة السلام فى ساعات من النهار أو أول الليل ، وأمر عجيفاً فسكر عنهم الماء بالمؤن العظام ، حتى أخذوا فلم يشذ منهم أحد . وقدم بهم إلى مدينة السلام فى الزواريق ، فجعل بعضهم بخانقين ، وفرق سائرهم فى عين زربة والثغور »[١].

وبذلك نرى أن الزط استطاعوا أن يكونوا وحدة مستقلة ، وأن يجدوا فى البطيحة موطناً خاصاً بهم ، ومكاناً ملائماً كل الملاءمة لوجوه نشاطهم . وقد كانت البطيحة هذه أرضاً واسعة بين البصرة وواسط ، وقد طغى عليها ماء دجلة ، فصارت منطقة من المستنقعات الواسعة ، وكثرت بها الأدغال ، واشتبكت فيها ، فأصبحت من أصلح الأماكن لأمثال هؤلاء الزط الذين كلفوا الدولة كثيراً على ما رأينا .

وقد ذكرهم ابن خلدون فقال : « الزط قوم من أخلاط الناس ، غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، وولوا عليهم رجلا منهم اسمه محمد بن عثمان ، وقام بأمره آخر منهم اسمه سماق »[٢] .

وذكر ابن الأثير أنهم كانوا أيضاً بالبحرين . قال : « إن الزط والسيابجة كانوا بالخط من أرض البحرين . وفى سنة ٢٥٠ ولى المأمون محاربتهم عيسى بن يزيد الجلودى ،

---

(١) البلدان فتوح ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٢) العبر و ديوان المبتدأ والخبر ٣ : ٢٥٧ . ط بولاق ، ١٢٨٤ هـ .

ثم داود بن ماسحور سنة ٢٠٦ »؛ ثم ذكر محاربة عجيف بن عنبسة لهم سنة ٢١٩[١].

٨٤ ـ نهر بط (٥٠ : ١)

ذكر ياقوت أنه نهر بالأهواز ، ولم يزد على ذلك إلا الاستشهاد بهذين البيتين :

لا ترجعن إلى الأخواز ثانيــة قعيقعان الذى فى جانب السوق
ونهر بط الذى أمسى يؤرقنى فيه البعوض بلسب غير تشفيق[٢]

والأهواز هى خوزستان ، بين البصرة وفارس .

٨٥ ـ القفص (٥٠ : ١)

تطلق هذه الكلمة على جبل فى كرمان ، ثم أطلقت على أهل ذلك الجبل ، وهم طائفة من الناس يسلكون مع الزط ومن إليهم فى نظام واحد ، وكذلك قال الراجز ، كما يروى ياقوت :

وكم قطعنا من عــدو شرس زط وأكراد وقفس قفس

وقد كتب ياقوت فى معجمه فصلا عنهم[٣] ، اعتمد فيه على مصدرين : الرهنى والبشارى ، فأما الرهنى فأحسب أنه أبو الحسن محمد بن بحر الرهنى ، من أهل القرن الثالث . وكان من قرية « رهنة » إحدى قرى كرمان[٤] ، فلا جرم كان وصفه لهم عن خبرة ومعرفة ، وأما البشارى فقد كتب ما كتبه أيضاً عن مشاهدة .

وقد اتفق المصدران فى ذكر ما يزعمه هؤلاء القوم من أنهم من العرب اليمانية ، وقد فصل الرهنى هذا الزعم ، فذكر أنهم من ولد سليمة بن مالك بن فهم الأزدى الذى فر بولده ، من إخوته ، من ساحل العرب إلى ساحل العجم ، مما يلى مكران ، منذ قتل أباه مالكاً . وهكذا نجد العروبة لم تضل عن هؤلاء أيضاً . وكذلك يتفق المصدران فى التنويه بشراستهم وقسوة طباعهم ، وإن كانا يسلكان مسلكين مختلفين ، فالبشارى

---

(١) الكامل لابن الأثير ١ : ١٤٢ .
(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٣٨ .
(٣) معجم البلدان ٧ : ١٣٤ — ١٣٧ .
(٤) معجم البلدان ٤ : ٣٤٣ .

يصف ، والرهنى يتفلسف . يقول البشارى فى وصف الطرق من " طبس " إلى " فارس " : « وكلها مخيفة من قوم يقال لهم القفص ، يسيرون إليها من جبال لهم بكرمان . وهم قوم لاخلاق لهم . وجوههم وحشة ، وقلوبهم قاسية ، وفيهم بأس وجلادة . لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بأخذ المال حتى يقتلوا صاحبه . وكل من ظفروا به يقتلونه بالأحجار ، كما تقتل الحيات . يمسكون رأس الرجل ويضعونه على بلاطة ، ويضربونه بالحجارة حتى يتفدغ . وسألتهم : لم تفعلون ذلك ، فقالوا : حتى لا تفسد سيوفنا ، فلا يفلت منهم أحد إلا نادراً . ولهم مكامن وجبال يمتنعون بها . وقتالهم بالنشاب ، ومعهم سيوف » . وأما الرهنى فيتحدث عن الرحمة وشيوعها ، وحتى « كأنها فى الإنسان صفة لازمة » ثم يقول : « فلم أجد فى القفص منها قليلا ولا كثيراً ، فلو أخرجناهم بذلك من حد من حدود الإنسان لكان جائزاً . . إلخ » وهو ينكر عليهم اتخاذ ديانة من الديانات. وإن كان يذكر أنهم يعظمون من بين جميع الناس على بن أبى طالب « لا لعقد ديانة ، ولكن لأمر غلب على فطرتهم تعظيم قدره ، واستبشارهم عند وصفه » .

٨٦ ـ القيقانية والقطرية (٥٠ : ٢)

لعل المراد بالقيقانية هنا لصوص « قيقان » ، وهى من بلاد السند مما يلى خراسان ، كما يقول ياقوت[(١)] ووقعت بين أهلها وبين المسلمين وقائع عدة منذ زمن على ، وقد فصلها البلاذرى[(٢)] ، ومما يعنينا ذكره فى هذا الموضع عنها ما وصفها به حكيم بن جبلة العبدى ، فنوه فى وصفه بلصوصها ، إذ يقول : « ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل » .

وأما القطرية فنسبة إلى قطر ، « فى أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير» ، كما يقول ياقوت ، نقلا عن أبى منصور[(٣)] ، ومن المحتمل عند فان فلوتن أن يكون هؤلاء القطرية قراصنة[(٤)].

٨٧ ـ الديماس (٥٠ : ٦)

« فكم من ديماس قد نقبته ، وكم من مطبق قد أفضيته ، وكم من سجن قد كابدته » .

---

(١) معجم البلدان ٧ : ١٩٨ .
(٢) فتوح البلدان ص ٤٢٠ وما بعدها .
(٣) معجم البلدان ٧ : ١٢٣ .
(٤) البخلاء (ط ليدن) ص Notes et éclaircissements IX.

هكذا جاءت العبارة ، فهل هى صناعة لفظية لا أكثر ، وإنما يريد أنه خرج من كل سجن . أم أن كل كلمة من هذه الكلمات كانت تدل على نوع من السجن معين ؟ والديماس هو سجن الحجاج بواسط ، والمطبق هو سجن العباسيين ببغداد . فهل يمكن القول بأنه يريد أنه كابد السجن فى واسط وفى بغداد وفى غيرهما ؟

٨٨ ـ سندان (٥٠ : ٧)

يقول ياقوت إنها « مدينة فى ملاصقة السند ، بينها وبين الديبل والمنصورة نحو عشر مراحل ، وبينها وبين البحر نحو نصف فرسخ (والفرسخ ثلاثة أميال) وبينها وبين صيمور نحو خمس عشرة مرحلة »[١].

والديبل التى يشير إليها هذا النص هى فرضة على بحر فارس، عند مصب نهر مهران أو نهر السند أو ما يسمى الآن نهر الأندس[٢]، وأما المنصورة فهى ما يسميه الهنود «برهمن أباد»، وهى تقع على دلتا ذلك النهر على نحو ٤٠ ميلا إلى الشمال الشرقى من حيدر آباد[٣] .

٨٩ ـ المولتان (٥٠ : ٨)

ذكرها ياقوت فى معجمه ، فقال : « بلد فى بلاد الهند على سمت غزنة . قال الاصطخرى : وأما الملتان فهى مدينة نحو نصف المنصورة ، وتسمى فرج بيت الذهب ، وبها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها . وقد فتحها ابن القاسم ابن أبى عقيل فى أيام الوليد بن عبد الملك »[٤]. وقد وصف المسعودى موقعها فى أثناء كلامه عن الأنهار التى تصب فى البحر الحبشى ، إذ يقول : «ومنها نهر مهران السند ، ومخرجه من الاقليم الخامس ، من عيون فى أعالى السند وجبالها من أرض قنوج ، من مملكة بووره ، وأرض قشمير والقندهار والطافن ، حتى ينتهى إلى مدينة المولتان . وتفسير " المولتان " فرج الذهب »[٥].

---

(١) معجم انبلدان ٥ : ١٥١ ط السعادة .

(٢) معجم البلدان ٣ : ١١٨ ، ٨ : ٢٠٩ .

(٣) *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 331, Cambrdge, The University Press, 1905.

(٤) معجم البلدان ٨ : ٢١٠ ، ط السعادة ، وانظر وصف طقوسها الدينية فى الأعلاق النفيسة ص ١٣٥ – ١٣٧ ، ط بريل .

(٥) التنبيه والأشراف ص ٥٥ .

وأما حرب المولتان فلعله يعنى ثورة قامت بها ، لم نر التاريخ ذكرها .

٩٠ ـ الكتيفية والخليدية والحربية والبلالية (٥٠ : ٨ ــ ٩)

ذكر الجاحظ هذه الطوائف الأربعة فى رسالته التى كتبها للفتح بن خاقان ، فى فضائل الأتراك ، على لسان أحد الأبناء ، فقال : « ولنا المواجأة فى الأزقة ، والصبر على قتال أهل السجون ، فسل عن ذلك الخليدية والكتيفية والبلالية والحربية »[١] فيظهر من هذا أنهم جماعات من الغوغاء الذين يبرزون فى المدن وقت الفتن ، على نحو ما حدث فى فتنة الأمين والمأمون ، فى بغداد ، مما وصفه الطبرى وصفاً ممتعاً .

وقد كتب فان فلوتن فى ملاحظاته تعليقات صغيرة عن هذه الطوائف الأربعة [٢]، فقال عن الخليدية إنما يحتمل أن يكون المراد بهم جماعة المسجونين الذين حكم عليهم بالسجن « المؤبد »، كما تشير إلى ذلك كلمة الخلد، بمعنى التخليد فى السجن، وفى بعض النصوص« الخلدية » ، بدلا من الخليدية . وعلى هذا تكون « الكتيفية » الذين شد كتافهم .

ويبدو على هذا التفسير عندنا شىء من التكلف . ولدينا نص عن الثعالبى [٣] يشير إلى أن الخلدية جماعة من « المكدين » والساسانيين . فهو يقول عن ابن حجاج : « ولم ير كاقتدارة على ما يريده من المعانى التى تقع فى طرزه ، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها ، وانتظامها فى سلك الملاحة والبلاغة ، وإن كانت مفصحة عن السخافة، مشوبة بلغة الخلديين والمكدين وأهل الشطارة » .

أما تأويل هذه التسمية فلا سبيل إلى القطع به ، وإن كان يحتمل لدينا ــ احتمالا أقرب من احتمال فان فلوتن ــ أنها نسبة إلى « محلة الخلد » فى بغداد ، وهى التى حول قصر الخلد ، الذى بناه المنصور سنة ١٤٥[٤] ، كما نسبت الحربية إلى ذلك الحى فيها .

وأما البلالية فقد أشار فان فلوتن إلى أنها طائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج فيها، كما يؤخذ من الطبرى والمسعودى .

وأما الحربية فقد قال عنها إنها طائفة من الشيعة كانت تشتهر بأنها لا تحقر السرقة

---

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٦ (رسالة فضائل الترك) .

(٢) البخلاء (ط ليدن) ص Notes et éclaircissements IX-X.

(٣) يتيمة الدهر ٣ : ٢٥ ، ط الصاوى ، ١٩٤٣ م .

(٤) معجم البلدان ٣ : ٤٥٤ .

والنهب . وقد أحال فى ذلك إلى مقالة له بعنوان : "Worgeıs in Irak" » وقد نشرت فى :
Feestbundel angeboden aan prof .Veth .p.61.

٩١ ـ مقلاس (٥٠ : ١٠)

ذكر هذا الاسم فى سياق يدل على أنه زعيم من زعماء العصابات . والذى نلاحظه أن هذا الاسم يذكر فى قصة إنشاء بغداد ، حيث تقول الأسطورة إن الذى يبنيها ملك يقال له « مقلاس » ، فقال المنصور : « إن أمه كانت تلقبه مقلاساً »[١].

ويذكر دى جويه أن أحد اللصوص فى عهد الأمويين كان يسمى مقلاصاً [٢].

وذكر الجاحظ فى الحيوان هذا الاسم على أنه مما يطلقه القرادون والمتكسبون الطوافون على بعض السباع المتولدة بين السباع المختلفة الأعضاء ، المتشابهة الأرحام [٣].

والذى نستطيع أن نستنتجه من هذا كله أن هذا الاسم يمكن اعتباره من الأسماء القومية القديمة فى العراق .

٩٢ ـ الشاهسبرم (٥٠ : ١٣)

نوع من الرياحين ، وقد يسمى شاهسفرم وشاهسبرغم ، يقال له الريحان السلطانى [٤]. أو سلطان الرياحين[٥] ، أو ريحان الملك[٦] . وقد وصفه داود الأنطاكى بأنه « الأخضر الضارب إلى الصفرة ، الدقيق الورق . يغرس فى البيوت ... إذا رش عليه الماء اشتدت رائحته» .

وقد ذكر الخفاجى أنه مما عرب قديماً ، لوقوعه فى شعر الأعشى . ومما جاء فيه قوله :

وشاهسبرم والياسمين ونرجس   يصبحنا فى كل دجن تغيما

٩٣ ـ دم الأخوين (٥٢ : ٨)

نوع من العقاقير . وقد يسمى القاطر ، والأيدع ، ودم التنين ، ودم الثعبان[٧] ، وقد ذكره ابن البيطار ناقلا عن أبى حنيفة الدينورى أنه «صمغ شجرة يؤتى به من سقطرى ،

(١) تاريخ بغداد ١ : ٦٦ .
(٢) البخلاء (ط ليدن) ص .XI (فى الهامش) .
(٣) ٦ : ٩ ط التقدم . (٦ : ٢٨ ؛ ط الحبى)
(٤) شفاء الغليل ص ١١٩ .
(٥) تذكرة ذوى الألباب لداود الأنطاكى ١ : ٢٩٠ ط الوهبية . وانظر وصف ابن البيطار ٣ : ٥٠ .
(٦) لسان العرب ١٥ : ٢٢١ .
(٧) نهاية الأرب للنورى ١٠ : ٣١٧ .

تداوى به الجراحات[١] كما ذكره أيضاً الأنطاكى والرشيدى[٢] .

وقد جاء فى شعر أبى نواس فى قطعة يهجو فيها جعفر بن يحيى ، ويصفه فيها بالعربدة على الشراب ، ويقول :

لا تشربن وجعفراً فى مجلس أبداً ولا تحمل دم الأخوين[٣]

٩٤ – ريح السبل (٥٣ : ٤)

ذكره صاحب اللسان بأنه داء يصيب فى العين ، ثم نقل عن الجوهرى أن « السبل داء فى العين شبه غشاوة كأنها نسيج العنكبوت بعروق حمر »[٤] . على أنه يؤخذ مما جاء فى كتاب العشر مقالات فى العين المنسوب لحنين بن إسحاق أن « ريح السبل » هو ضرب من ضروب « السبل » وأنه أخف هذه الضروب وطأة . وقد عرض له فى الفصل الذى عقده للأمراض التى تصيب الملتحم ، فقال[٥] : « وأما السبل فإنه عروق تمتلىء دماً غليظاً وتنتو وتحمار ، وأكثر ذلك يكون معها سيلان وحمرة وحكة وحرقة ، ويقال له باليونانية (قيرسوفثالميا) [٦]. ولايكاد صاحبه يبرأ إلا بلقطه ، ولقطة عسر . . . والسبل مركب من ثلاث طبقات إذا كثر انتفاخه وأزمن . وما كان منها على ثلاث طبقات فهو أشدها وأبطؤها برءاً ، وما كان من السبل على طبقتين ، فهو أسرع برءاً مما كان على ثلاثة وأما السبل الذى إنما هو طبقة واحدة ، فإنه يبرأ بالأدوية ، ولا ينبغى أن يمسه حديد . ويقال لذلك ريح السبل » .

وقد ذكر الجاحظ فى سياق الكلام عن العقارب شيئاً مما كان يستعمل فى علاج ريح السبل ، وذلك إذ يقول : « والعقارب يأكلها مشوية من بعينه ريح السبل ، فيجدها صالحة. ويرمى بها فى الزيت ، حتى إذا تفسخت وامتص ما فيها من قواها ، فطلوا بذلك الدهن الجفن الذى فيه النفخ ، فرق تلك الريح ، حتى تخمص الجلدة ويذهب الوجع . فإذا

---

(١) مفردات ابن البيطار ٢ : ٩٦ – ٩٧ .

(٢) تذكرة داود ١ : ٢١٧ ط الوهبية ، المادة الطبية للرشيدى ١ : ٣٩٧ .

(٣) ديوان أبى نواس ص ١٦٠ ط الحميدية . ولابن يسير بيت يتفق مع هذا البيت فى الشطرة الأخيرة قاله فى يوسف بن جعفر بن سليمان (الأغانى ١٢ : ١٢٨ ، ط التقدم) .

(٤) لسان العرب ١٣ : ٣٤٣ .

(٥) كتاب العشر مقالات فى العين المنسوب لحنين بن إسحاق ، ص ١٣٠ ط الأميرية ١٩٢٨ .

(٦) Kirsophthalmia كما يرى ذلك الأستاذ ماير هوف ، وهى تقابل ما يطلق عليه الآن : Pannus

سمعت بدهن العقارب فإنما يعنون هذا الدهن »[١].

٩٥ ـ قطرب (٥٤ : ٥)

أبو على ، محمد بن المستنير ، نحوى لغوى ، من أهل البصرة ، فى القرن الثانى ، وقد عاش إلى سنة ٢٠٦ . أخذ النحو عن سيبويه ، واتصل برجال عصره ، وتأثر بالروح الاعتزالية الشائعة فى البصرة ، وكان لصلته بالنظام أثر كبير فى تلون عقليته بهذا اللون ، وقد ظهر ـ كما يقال ـ فى تفسيره للقرآن .

ويذكره الجاحظ فى المعلمين[٢] . فقد كان معلماً لولد أبى دلف .

وقد ترجم له ياقوت فى معجمه ، وابن النديم فى فهرسته ، والسيوطى فى بغية الوعاة .

ونشرت له مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق كتاب الأزمنة[٣] .

٩٦ ـ خلنجية كيماكية (٥٤ : ٧)

جاءت هذه الكلمات فى وصف الغضار ، أى آنية الطعام ، يعنى أنها مصنوعة من الخلنج ، « وهو شجر تتخذ من خشبه الأوانى » كما يقول صاحب اللسان . وقد جاء ذلك فى شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، فى قصيدته الجيمية التى يمدح بها مصعب بن الزبير ، إذ يقول :

ملك يطعم الطعـــام ويسقى   لبن البخت فى عساس الخلنج[٤]

أما صفة هذا الخشب فيشير إليها البيرونى فى كلامه عن « الجزع » المسمى بالخلنج ، إذ يقول : « ولفظة خلنج لا يختص بها الجزع ، بل يقع على كل مخطوط بألوان وأشكال ، فيوصف به السنانير والثعالب والزباد والزرافات وأمثالها ، بل هو بالخشب التى تكون كذلك أخص ، ومنها تنحت الموائد والقعاب والمشارب وأمثالها بأرض الترك »[٥] . وهذا الذى ذكره البيرونى يتفق مع ما ذكره الأب أدى شير فى كلمة الخلنج ، وأن أصل معناها : « المتنوع الألوان » .

---

(١) الحيوان ٥ : ٤٠٠ ـ ٤٠١ ط الحلبى . وكلمة « الجفن » فى هذا النص هى ما نقترحه تصحيحاً لكلمة « الحصى » ولا موضع لها .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٠٩ ط ١٩٣٢ .

(٣) سنة ١٩٢٢ ، المجلد الثانى .

(٤) الأغانى ١٧ : ١٦٧ ط ١٣٢٣ هـ .

(٥) الجماهر فى معرفة الجواهر ، ص ١٧٥ ط حيدر آباد .

وكلام البيرونى يدل على أن هذه الصناعة صناعة تركية ، وكذلك تدلنا على ذلك هذه النسبة « كيماكية » ، إذ هى نسبة إلى « كيماك » ، وهى — كما يقول ياقوت — « ولاية واسعة فى حدود الصين ، وأهلها ترك » [١].

٩٧ ـ المكى (٥٤ : ١٦)

يكثر الجاحظ من ذكره فى البخلاء والحيوان والبيان والتبيين . وعلى ما جاء فيها تعتمد فى تصويره والتعريف به . وقد جاء فى الحيوان أن كنيته أبو إسحاق[٢] . نشأ فى مكة . ويظهر أنه أخذ فيها برواية الشعر ، ثم هاجر إلى العراق ، وهو يحكى عن نفسه أمر هجرته فى خبر طريف رواه الجاحظ[٣]. ويظهر أنه اتخذ البصرة موطناً ، واتصل فيها بالبيئات المختلفة ، ولا سيما المعتزلة ومن كان يداخلهم ، كالنظام وأبى الهذيل والجاحظ ومحمد بن الجهم واسماعيل بن غزوان ، وقد سلك مسلكهم من الاتساع فى المعرفة . وقد ولاه محمد بن الجهم موضعاً من مواضع كسكر : ويقول الجاحظ فى سياق ذلك : « وكان المكى لا يحسن أن يسمى ذلك المكان ، ولا يتهجاه ولا يكتبه ، وكان اسم ذلك المكان شانمثنا »[٤] ويظهر أن ذلك كان لنشأته العربية بعيداً عن العراق . وقد روى الجاحظ طرفاً مما كان يجرى بينه وبين محمد بن الجهم ، مما يدل على نزعته الكلامية[٥].

وقد حكى عنه الجاحظ فى مواضع مختلفة ما يدل على أنه كان رجلا ظريفاً حلو النادرة حاضر البديهة[٦] ، ومما قال فى وصفه : « وكان المكى طيباً طيب الحجج ، ظريف الحيل ، عجيب العلل . وكان يدعى كل شىء على غاية الاحكام ، ولم يحكم شيئاً قط لا من الجليل ولا من الدقيق ، وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه ، وأخبرك عن بعض علله ، لتلهى بها ساعة » ، ثم ذكر طائفة من أحاديثه الظريفة[٧].

---

(١) معجم البلدان ٧ : ٣٠٧ .
(٢) ٤ : ٢١٧ .
(٣) البخلاء ص ١١٠ — ١١١ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٦٨ ط ١٩٣٢ .
(٥) انظر مثلا البيان والتبيين ٢ : ١٨٣ ، الحيوان ٦ : ١٠ — ١١ .
(٦) انظر مثلا : الحيوان ٥ : ٣١٣ ، ٤٦٧ — ٤٦٨ .
(٧) الحيوان ٣ : ٣٢٥ — ٣٢٧ .

٩٨ ــ عبد الله العروضى (٥٦ : ٥)

الأخبار عنه قليلة . وما جاء عنه فى « البخلاء » يدل على أنه كان من أصحاب الجاحظ الذين يتحدث إليهم ، ويروى عنهم ، كما كان معدوداً فى البخلاء ، وكذلك كان من أصحاب أبى عبد الرحمن الثورى ، أحد من عقد الجاحظ لهم الفصول المطولة .

وقد تحدث الجاحظ عن جفاء كان بينه وبين أبى إسحاق النظام ، فقال : « وكان سبب عداوة العروضى لإبراهيم النظام أنه كان يسميه : الأخضر البطن ، والأسود البطن . فكان يكشف بطنه للناس ، يريد تكذيب أبى اسحاق ، حتى قال له إسماعيل بن غزوان : إنما يريد أنك من أبناء الحاكة ؛ فعاداه لذلك »[١].

٩٩ ــ أحمد بن المثنى (٥٦ : ١٢)

الأخبار عنه قليلة أيضاً لا تكاد تضور منه شيئاً . وقد حكى الجاحظ عنه مرتين فى كتاب الحيوان[٢] ويستفاد من هذين الخبرين أنه كان على شىء من المعرفة بالحيوان ، وأنه كان يرجع فى معرفته هذه إلى الكتب .

١٠٠ ــ على الأسوارى (٥٦ : ٢٠)

هو على بن خالد الأسوارى ، كما جاء اسمه فى رسالة التربيع والتدوير[٣] . وقد يذكر فى بعض النصوص باسم « أبى على الأسوارى » ، كما جاء فى طبقات المعتزلة من كتاب المنية والأمل[٤]. وهذا عندنا خلط ينبغى أن ننبه عليه .

فأبو على هذا شخص آخر ، كان يصطنع القصص ، وكان من كبا القصاص ، واسمه كما ذكر الجاحظ عمرو بن فائد[٥] لا على بن خالد ، وإذن فالشخصان مختلفان اسما وعملا .

فأبو على ــ كما رأينا ــ كان قاصًّا ، وأما على ــ صاحبنا ــ فكان متكلماً من

---

(١) الحيوان ٣ : ٢٤٨ .
(٢) ٢ : ٢٢٧ ــ ٢١٨ ، ٤ : ١١٦ .
(٣) مجموعة رسائل الجاحظ . ص ١٣٧ ط التقدم .
(٤) ص ٤٠ .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٩٦ ط ١٣٣٢ هـ .

متكلمى المعتزلة . وقد عده المرتضى فى الطبقة السابعة منهم ، وقال فى ترجمته : « كان من أصحاب أبى الهذيل وأعلمهم ، فانتقل إلى النظام . وروى أنه صعد بغداد لفاقة لحقته ، فقال النظام : ما جاء بك ؟ فقال : الحاجة ، فأعطاه ألف دينار ، وقال له : ارجع من ساعتك ، فقيل : إنه خاف أن يراه الناس فيفضل عليه »(١) .

وقد أكثر الحسين الخياط من ترديد اسمه فى كتابه ، فى أئمة المعتزلة ، كأن يقول : « وهل على الأرض أحد رد على أهل الدهر الزاعمين بأن الجسم لم يزل متحركاً ، وحركاته محدثة ، سوى المعتزلة ، كإبراهيم وأبى الهذيل ومعمر والأسوارى وأشباههم »(٢) . كما ذكر أنه كان بينه وبين على بن ميثم الرافضى مجالس دارت المناظرة فيها فى الأمامة . « فأخزاه الأسوارى فيها ، وقطعه أوحش قطع »(٣)

وقد روى عنه الجاحظ فى البيان والتبيين عبارة تدل على روح المعتزلة فى عدم التحرج من نقد الصحابة . قال : « عمر بن الخطاب معلق بشعره . قلت : وما صيره إلى ذلك ؟ قال : لما صنع بنصر بن سيار . يريد نصر بن الحجاج بن علاط » . وقد أورد الجاحظ هذا الخبر فى سياق الكلام عن الخلط بين الأسماء(٤).

هذه صورة من حياة على الأسوارى العلمية . وهى — كما نرى — صورة متزنة وقور . أما حياته الخاصة فشىء آخر مختلف كل الاختلاف . وقد رسم الجاحظ صورة منها فى كتاب البخلاء ، فصوره أكولاً شرها نهما « إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر ، وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب ، ولم يسمع ولم يبصر » . ولا تناقض عندى بين الصورتين ، فلكل مجال . ولا بأس أن يكون الرجل عالماً جيد النظر حسن المجادلة ، فإذا كان على الطعام كان شرهاً سىء المؤاكلة .

١٠١ — أبو الحسن المدائنى (٥٧ : ١٥).

هو على بن محمد بن عبد الله ، نسب إلى المدائن ، وإن كان بصرى المولد والمنشأ ، إلا أنه سار إلى المدائن ، ثم انتقل من المدائن إلى بغداد ، فعرف فيها بالمدائنى ، وهو عالم أخبارى ، عنى بتصوير الحياة الاسلامية وتسجيل أخبارها ، وقد أورد ابن النديم

(١) المنية والأمل ص ٤٠ .
(٢) الانتصار ص ١٧ .
(٣) الانتصار ص ٩٩ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٠٥ ط ١٩٣٢ م .

فهرست كتبه مصنفة أصنافاً . وقد وقعت فى نحو خمس صفحات ، تشهد له بسعة العلم والاحاطة . وقد كانوا يضعونه بإزاء أبى عبيدة ، على نحو ما كان يقول أحمد بن يحيى النحوى : « من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبى عبيدة ، ومن أراد أخبار الاسلام فعليه بكتب المدائنى » .

وإلى جانب هذه الصفة الأخبارية ذكر أبو بكر بن الإخشيد أنه كان متكلماً من غلمان معمر بن الأشعث ، وإن كنا لا نجد أثر هذا فى فهرست كتبه ، ولا فيما وقع تحت أيدينا من أقواله المأثورة .

وكان أكبر اتصاله ، وهو فى بغداد ، بأبى محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وكان يكرمه ويتحفى به ويحسن تقديره ، وقد مات فى بيته ، سنة ٢٢٤ أو ٢٢٥ على ما يحكى ابن النديم والخطيب البغدادى ، فى ترجمتهما له[١] ، وذكر الطبرى موته فى حوادث سنة ٢٢٨[٢].

١٠٢ ــ مالك بن المنذر (٥٧ : ١٥)

هو مالك بن المنذر بن الجارود العبدى ، وكان أبوه صحابياً جليلا ، ممن شهد الجمل مع على ، وقد نشأ مالك بالبصرة ، وولى أحداثها فى أيام خالد بن عبد الله القسرى . وقد كان فيما يبدو معتزاً بمكانه فهو ابن المنذر بن الجارود ، وأمه بحرية بنت مالك بن مسمع .

وقد حدث شر بينه وبين عمر بن يزيد الأسدى فضربه ــ متجنياً عليه ، مستشهداً عليه ناساً من تميم ــ كما يقول ابن سلام[٣] ، حتى قتله تحت السياط . وللفرزدق شعر فى هذا الحادث ، فيقول فى مالك :

لعمرى لئن كان ابن عمرة مالك تنهك ظلماً سادراً غير مقصر
لتنكشفن عنه ضبابة فسوه لضغمة رئبال من الأسد مخدر
إذا علقت أسبابه القرن غادرت به أثراً كالجدول المتفجر[٤]

إلى غير ذلك فى التحريض عليه ، والتشنيع به مما أعان على قتله[٥].

---

(١) الفهرست ص ١٤٧ — ١٥٢ ط الرحمانية ، تاريخ بغداد ١٢ : ٥٤ — ٥٥ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ٩ .
(٣) طبقات الشعراء ، ص ١٢٣ — ١٢٥ ، ط السعادة (طبقات فحول الشعراء ، ٢٩٩ ، ط دار المعارف ، ١٩٥٢).
(٤) ديوان الفرزدق ، ص ٢٨١ ط الصاوى .
(٥) ديوان الفرزدق ، ص ١٢٦ ، ١٣٨ .

وقد ثأر الخليفة لعمر بن يزيد من مالك ، فألقى فى السجن ، وقد مرض وبه بطن ، فمات فيه .

١٠٣ ـ الكساء القومسى (٥٩ : ٥)

لم تفسر القواميس العربية كلمة « الكساء » إلا بأنه ثوب معروف ، فلم تبين شكله ، ولم تعرفه بما يميزه عن غيره . وقد حاول العلامة دوزى أن يستكمل هذا النقص ، فذهب يصف الكساء الأسبانى باعتبار أن كلمة : alquicel هى كلمة « الكساء » العربية . ولعل ما يصف هذه يصف تلك . وجملة ما يستخلص من النصوص التى نقلها هو أن هذه الكلمة تقع على رداء كبير من الصوف ، يلف به الجسم ، أشبه بملاءة السرير [١] وأحسب أنه ليس علينا من بأس فى أن نفهم كلمة « الكساء » هنا على هذه الصورة . وقد جاء فى سياق الكلام ما يدل على أنه من الصوف .

على أنه قد وقفتنا كلمة « المبطنة » التى استعملها الحرامى موضع كلمة « الكساء » ، إذ يقول للجاحظ فى إنكاره عليه لبس الكساء فى ذلك الفصل : « إن كان ذلك كذلك فاجعل بدل هذه المبطنة جبة محشوة ، فإنها تقوم هذا المقام » . فهل كلمة « المبطنة » هذه وصف للكساء ، فيدل ذلك على أنه كان يصنع بحيث تكون له بطانة ، أو أنه اسم آخر له ؟ وهنا لا نملك أنفسنا من ذكر ما علق به العلامة دوزى ، حين أورد نصًّا أسبانياً عن مرمول Marmol جاء فيه ذلك الفعل الإسبانى batanar ، إذ يقول : « إن هذا الفعل الذى لم تفسره المعاجم الاسبانية التى رجعت إليها ـ قديمة وحديثة ـ تفسيراً يتفق مع ماهنا ، يعنى ارتدى s'envelopper ، وقد جاء من « بطن » العربية التى يبدو أن عرب إسبانيا استعملوها فى هذا المعنى » .

فهل هناك صلة بين كلمة « المبطنة » هنا ، وبين هذا الذى يذكره العلامة دوزى ؟

أما وصف الكساء بأنه قومسى فذلك نسبة إلى قومس ، وهى ـ كما يقول ياقوت ـ « كورة كبيرة واسعه ، تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهى فى ذيل جبال طبرستان » [٢].

وقد ذكر الجاحظ الرداء القومسى فى موضع آخر [٣] بما يدل على أنه رداء عادى ،

---

(١) *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 383-385.

(٢) معجم البلدان ٧ : ١٨٥ .

(٣) الحيوان ٣ : ٢٧ .

من صنف غير جيد ، وذلك فى حكاية لقول المروزى : « قلت لأحمد بن رباح الجوهرى اشتريت كساء أبيض طبريًا بأربعمائة درهم ، وهو عند الناس — فيما ترى عيونهم — قومسى يساوى مائة درهم » . ولعل هذا يعيننا على فهم الصورة التى أراد الجاحظ أداءها هنا في البخلاء فهماً أدق .

١٠٤ — خوامزكه (٦٢ : ٤)

لم أستطع أن أجد من المعانى المحتملة لهذه الكلمة — فيما أتيح لى من المعاجم الفارسية — ما يتفق مع سياقها . غير أنه يبدو أن هناك صلة بين هذه الكلمة وبين كلمة « خاميز » التى نص صاحب العين — كما ينقل عنه ابن منظور فى مادة « أمص » — أنها فارسية الأصل . ومعناها — كما جاء فى سياق مادة « عمص » — هو : « أن يشرح اللحم رقيقاً ، ويؤكل غير مطبوخ ولا مشوى ، يفعله السكارى » ، وزاد فى مادة « أمص » أنه ربما يلفح لفحة النار .

أما المعنى الذى أورده صاحب القاموس فى تفسير « الخاميز » من أنه « مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن » فأحسبه بعيداً مما نحن فيه .

١٠٥ — البستندود (٦٣ : ٦)

شرحها فان فلوتن فى « الملاحظات والإيضاحات » بأنها تدل فى الفارسية على ذلك النوع من الفطائر المحشوة : [Pâté] emduit de farine [١].

١٠٦ — جداء كسكر (٦٣ : ١٧)

أكثر ما تعرف به كسكر ، من هذا القبيل ، هو دجاجها . وقد ذكر الجاحظ الدجاج الكسكرى غير مرة[٢] ، وكذلك يذكره المسعودى فى المضاف والمنسوب ، ويقول : إنه « موصوف بالجودة والسمن ، ومذكور فى أطايب الأطعمة . وربما بلغت الواحدة منها وزن الجدى أو الحمل »[٣]. ويقول ياقوت فى الكلام عن كسكر : إنها « كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية ، لأنها تكثر بها جداً » [٤] وأما أبو المطهر

---

(١) البخلاء (ط ليدن) ص XII .

(١) انظر مثلا الحيوان ٢ : ٢٤٨ ، ٣٤٠ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

(٢) ثمار القلوب ص ٤٢٦ ط الظاهر ، ١٩٠٨ م .

(٣) معجم البلدان ٧ : ٢٥١ ط السعادة . وانظر مثلا الأغانى ١١ : ٣٣٦ ، ط دار الكتب المصرية .

الأزدى فينسب إليها ، على لسان أبى القاسم البغدادى ، البط[١] . وإن كان ياقوت يقول إنه يجلب إليها من بعض أعمالها .

فأما نسبة الجداء إليها فلا نكاد نجدها إلا عند الجاحظ ، كما نرى هنا ، وكما تجىء فى سياق كلامه عن فضل الماعز ، إذ يقول : « ويقولون جداء البصرة وجداء كسكر »[٢]. وكما فى العبارة التى يحكيها المسعودى ، فى الموضع الذى أشرنا إليه ، وينسبها إليه ، إذ يقول : « ومما ينسب إلى كسكر الجداء والسمك والصحناء » .

وقد كان للجدى مكان ممتاز فى نظام المائدة فى عهد الجاحظ . وقد أشار إلى ذلك فى بعض كلامه على لسان محمد بن أبى المؤمل ، إذ يقول : « . . . وكانوا يعلمون أن إحضار الجدى إنما هو شىء من آيين الموائد الرفيعة ، وإنما جعل كالعاقبة والخاتمة ، وكالعلامة لليسر وللفراغ »[٣] . كما عرض لهذه الناحية فى جملة كلامه فى « باب الماعز » فقال : « والجدى أطيب من الحمل وأكرم . وربما قدموا على المائدة الحمل المقطوع الألية من أصل الذنب ليوهموا أنه جدى . . . وملوكنا تحمل معهم فى أسفارهم البعيدة الصفايا الحوامل المعروفات أزمان الحمل والوضع ليكون لهم فى كل منزلة جداء معدة » .

وأما كسكر فهى تطلق على الاقليم وعلى المدينة ، فأما الإقليم فهو الواقع بين دجلة والفرات وبين البصرة وبغداد ، ويذكر ياقوت أن قصبته واسط منذ بناها الحجاج ، وكانت قبل ذلك « خسرو سابور » ، وهو إقليم غنى ينقل ياقوت عن الهيثم ابن عدى أن خراجه كان يبلغ اثنى عشر ألف ألف مثقال ، وإن كانت البطائح تقع فى أسفله ، منذ أيام كسرى أبرويز .

وأما المدينة فيؤخذ من كلام ابن رستة عن نهر الفرات أنها تقع عند مصبه فى البطائح[٤]

١٠٧ ـ فاكهة الجبل (٦٣ : ١٧)

قدمنا فى موضع آخر التعريف بإقليم الجبل[٥] . وقد كان هذا الإقليم مشهوراً بفاكهته الممتازة أو السرية على حد تعبير ابن الفقيه الهمذانى . وقد أورد فى غير

---

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى ، ص ٣٩ ، ط. كرل ونتر ، هيدلبرج ، ١٩٠٢ م .
(٢) الحيوان ٥ : ٤٨٢ .
(٣) البخلاء ، ص ٩٧ .
(٤) الاعلاق النفيسة ، ص ٩٤ ، ط بريل ، ١٨٩١ م .
(٥) انظر التعليق رقم ٨١ : « صعاليك الجبل » ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

موضع من الفصل القيم الذى كتبه عن هذا الإقليم ما يدل على هذه الشهرة ويؤكدها . ففى تصنيف البلاد الإيرانية المنسوب إلى قباذ بن فيروز أن « أسرى فواكه إقليمه سبعة مواضع : المدائن وسابور وأرجان والرى ونهاوند وماسبذان وحلوان الجبل »[(١)] ومن هذه المدن السبعة واحدة فى العراق وهى المدائن ، واثنتان فى فارس وهما سابور وأرجان ، والأربعة الباقية فى الجبل .

أما أنواع الفاكهة التى يشتهر بها الجبل فقد أشار فى غير هذا الموضع إلى بعضها ، وهى : الكمثرى النهاوندى والصينى ، والتفاح الشيرى ، والعنب ، والرمان ، والجوز ، واللوز [(٢)] ،

١٠٨ ــ خالد القسرى (٦٦ : ١)

هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلى القسرى ، أحد سادة العصر الأموى . ولى العراق فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ، وظل عليه إلى أن عزل عنه سنة ١٢٠ ، وقد ولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى . وقد ذكر الجهشيارى بعض الأقاصيص التى كانت تقص عن الكيد لخالد وملابسات عزله وتولية يوسف بن عمر[(٣)] ، وقد أخذه يوسف بضروب من التنكيل ، وحبسه ، وظل فى حبسه إلى أن قتله فى الحيرة سنة ١٢٦.

وقد كان خالد سيداً شريفاً جواداً ، كما تشهد بذلك بعض أخباره وآثاره[(٤)]. وقد عده ابن عبد ربه فى الأجواد . ولكن الجاحظ يروى هنا عن أبى عبيدة خبراً يرميه فيه بالبخل على الطعام ، وبأن ذلك كان متعارفاً بين الناس عنه ، ولنا أن نتشكك فى هذا الخبر المروى عن أبى عبيدة .

لقد كان خالد القسرى ، فى ولايته على العراق ، عرضة لكثير من الأعاصير السياسية والقبلية وغيرها ، عرضته لألسنة الشعراء والمتقولين ، فوجد فى ذلك دعاة الشعوبية ومن إليهم من دعاة الدولة ، مادة يصوغون منها حملتهم الشديدة على سادة ذلك العصر وأشرافه . وبذلك كان خالد ــ فيما نحسب ــ موضع حملة منكرة من هؤلاء وأولئك ، فتعقبوه فى كل شىء ، حتى لم يسلم له نسبه . فقال أبو عبيدة إن جده كرز بن عامر

(١) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢١١ ، ط بريل ، ليدن ، ١٨٨٥ م .
(٢) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٦١ وما بعدها .
(٤) انظر مثلا الكامل للمبرد ٢ : ١٣٢ ، زهر الآداب ٣ : ٢٥٩ ، العقد الفريد ١ : ٢٦٤ ، ٣٥٧ ، ٢ : ١٣٥ .

كان مولى من موالى عبد القيس فى هجر ، وأصله من يهود تيماء ، فأبق ، فتلقفته عبد شمس ، ثم وهبوه لقوم من طهية ، فأصاب فيهم امرأة بغيا ، فولدت له أسداً . فأما أسد هذا فالتحق ببجيله ، وفيها نشأ ابنه يزيد ، من غير أن ينال شرف الاستلحاق .

ويزيد هذا — وهو الجد الأول لخالد — يقول عنه أبو عبيدة إنه كان يلقب بخطيب الشيطان ، وكان أكذب الناس فى كل شىء ، معروفاً بذلك . ثم نشأ ابنه عبد الله فسلك مناهجه فى الكذب ، ثم نشأ خالد ، ففاق الجماعة ، إلا أن رياسة وسخاء فيه سترا ذلك من أمره .

وأما أم خالد فكانت رومية نصرانية[١] ، وليس فى هذا بأس ، ولا عليه فى ذلك ، ولكنه بنى لها كنيسة فى ظهر قبلة الجامع ، كما يقول المدائنى .

وأما خالد نفسه فإلى أنه كان أكذب الناس وأجبنهم وأبخلهم على الطعام كان قد نشأ نشأة سافلة عاهرة ، لا تتفق مع هذه السيادة التى يدعيها ، ولا تلك الولاية التى وليها . فيقول الهيثم بن عدى إنه كان غلاماً مؤنثاً ، يصحب المغنين ، ويترسل بين عمر بن أبى ربيعة والنساء . ثم يأخذ الهيثم فى وضع الأخبار فى تفسير شعر لعمر ، ليضع فيها خالداً الموضع الذى وصفه[٢] .

وهكذا يصورون ذلك الرجل الذى كان من سادات عصره ، ويبالغون فى تشويهه وإلحاق كل مثلبة به ، وذلك وحده كاف ليشككنا فى ذلك كله ، ويجعلنا نفكر فى الملابسات المختلفة التى لابسته فى عصره ، ثم لابست ذكراه فى نشوء الدولة العباسية . وما نكاد نشك فى أن هذا الخبر الذى رواه الجاحظ إنما جاء من هذه السبيل .

١٠٩ — خالد بن نضلة الفقعسى (٦٦ : ١٣)

سيد بنى أسد فى عصر المنذر بن ماء السماء . وقد ذكره أبو الفرج فقال : إنه أحد رجلين من بنى أسد كانا ينادمان المنذر ، فأغضباه فى بعض الحديث ، على الشراب ، فأمر بقتلهما[٣] .

وفى ترجمة عبيد بن الأبرص ذكر هذه القصة عن خالد بن المضلل ، فوضعه موضع خالد بن نضلة[٤] ، وإذن يكون خالد بن المضلل الذى جاء فى بيت الأسود بن يعفر هو خالد بن نضلة ، ويكون خالد المهزول ، هو خالد الآخر ، عميد بنى بجحوان .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ٣ : ٤٠ .
(٢) الأغانى ١٩ : ٥٢ وما بعدها .
(٣) الأغانى ٥ : ٢٩ ط بولاق .
(٤) الأغانى ١٩ : ٨٦ .

أما قصة مقتله فهى مذكورة أيضاً فى النوادر لأبى على القالى[١] .

وكان خالد بن نضلة يقول الشعر ، إلى جانب كونه فارساً من فرسان عصره . وقد روى له الجاحظ فى الحيوان الأبيات المشهورة التى أولها :

لعمرى لرهط المرء خير بقيـــة   عليه ولو عالوا به كل مركب[٢]

١١٠ ــ الأسود بن يعفر (٦٦ : ١٤)

شاعر من شعراء الجاهلية ، تميمى دارمى ، جيد العبارة . ينزع فى شعره إلى الحكمة ، ليس بالمكثر ، كما يقول أبو الفرج فى ترجمته له[٣]. وقد ذكر فى هذه الترجمة أن ابن سلام جعله فى الطبقة الثامنة ، وليس كذلك فى نسخة الطبقات التى بين أيدينا ، فهو معدود فيها فى الطبقة الخامسة ، وقال : إنه كان شاعراً فحلا ، يكثر التنقل فى العرب ، يجاورهم فيذم ويحمد .

وقد كان شاعراً من شعراء المناذرة ، كما يؤخذ من شعره . وقد عمى فى آخر حياته ، وهو أحد الأعشين : أعشى بنى نهشل ، وقد جمع ناشر ديوان الأعشى شعره فى ذيل هذا الديوان [٤] ، كما نجد مجموعة شعره فى شعراء النصرانية [٥] ، وقد ترجم له غير أبى الفرج ابن قتيبة والآمدى [٦] .

١١١ ــ البارجين (٦٨ : ٢)

يظهر أن هذه الكلمة مأخوذة من المصدر الفارسى « برچنيدن » ومعناه الالتقاط ، ويلاحظ أن مادة الفعل « برچين » . ويؤخذ من سياق ذكرها هنا أنها أداة من أدوات الأكل ، ولعلها كانت شيئاً قريباً من الشوكة المستعملة الآن .

١١٢ ــ الزمزمة (٦٨ : ٣)

الزمزمة ، فى القاموس ، « تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت ، لا يستعملون

---

(١) ص ١٩٥ .   (٢) ٣ : ١٠٣ ط الحلبى .
(٣) الأغانى ١١ : ١٣٤ .
(٤) ص ٢٩٣ — ٣١٠ .   (٥) ٢ : ٤٧٥ — ٤٨٥ .
(٦) الشعر والشعراء ص ١٣٤ ، المؤتلف والمختلف ص ١٦ — ١٧ .

لساناً ولا شفة . لكنه صوت تديره فى خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض » .

وقد ذكرها الجاحظ فى سياق الكلام عن المخارج وأنها لا تحصى ، ولا يوقف عليها ، ولا يستطاع تصويرها ، إذ يقول : « فمن يستطيع أن يصور كثيراً من حروف الزمزمة ، والحروف التى تظهر من فم المجوس إذا ترك الافصاح عن معانيه ، وأخذ فى باب الكناية ، وهو على الطعام »(١) .

كما ذكرها فى موضع آخر فى سياق الحديث عن مطاعمة الملوك ، وأنه لا ينبغى أن يحدث على طعامهم ، فقال : « ولأمر ما كانت ملوك آل ساسان إذا قدموا موائدهم زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع . فإن اضطروا إلى كلام كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذى أرادوا ، والمعنى الذى قصدوا . وكانوا يقولون : إن هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغى للإنسان أن يجعل ذهنه فى مطعمه ، ويشغل روحه وبجوارحه فيه ، لأن تأخذ كل جارحة قسطها من الطعام ، فيتغذى بها البدن والروح الحيوانية التى فى القلب ، والطبيعة التى فى الكبد ، اغتذاء تاماً ، وتقبله الطبيعة قبولا جامعاً »(٢).

١١٣ ــ الجردبيل (٦٨ : ٤)

لقب من الألقاب المطلقة على سيء المؤاكلة . وهى فارسية الأصل ، ولكن التحريف لعب بها ، فأصلها : « كردبان » أى حافظ الرغيف . ثم أطلق الجردبان والجردبيل على الذى يضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره ، أو الذى يأكل بيمنيه ويمنع بشماله .

وقد أخذت هذه الكلمة سبيل العربية ، فاشتق منها الفعل والفاعل ، فقد ذكر ابن سيده عن أبى عبيده أنه يقال : « جردبت على الطعام وجرذمت » ، وعن ابن دريد : « رجل مجردب نهم »(٣).

١١٤ ــ عيسى بن سليمان بن على (٦٩ : ٩)

أحد أبناء سليمان بن على ، عم أبى العباس السفاح . وكان أبو العباس قد ولاه على البصرة وأعمالها ، فأقام فيها هو وأولاده ، وبنوا فيها دورهم ، وقد كان لهذه الدور ــ فيما

(١) البيان والتبيين ١ : ٤٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٢) التاج ص ١٨ ــ ١٩ ، وانظر مروج الذهب ٢ : ١٠٨ ــ ١٠٩ ط باريس .
(٣) المخصص ٥ : ٣٠ .

يبدو — أثر غير قليل فى نشاط الحياة العقلية والأدبية بالبصرة .

والأخبار قليلة عن عيسى هذا . ومما نعرف عنه أنه تعرض لهجاء أبى عبد الله بن أبى عيينه المهلبى ، لتزوجه امرأة من آله ، يقال لها فاطمة بنت عمرو بن حفص . وقد أورد المبرد هذه القصيدة ، على أنها من شعر ابن أبى عيينة المستحسن[1]. ولا بأس فى أن نورد من هذه القصيدة ما لعله يصور لنا شيئاً ما بعض ما كان يقال عن عيسى بن سليمان هذا :

إذا ما بنــو العباس يوماً تبادروا   عرا المجد وابتاعوا كرام الفضائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه   إلى بيع بياحاته والمبــاقل
يرخم بيض العــام تحت دجاجة   ليخرج بيضاً من فراريج قابل

١١٥ — الجارود بن أبى سبرة (٧١ : ٧)

شخصية من الشخصيات الكبيرة فى العراق ، فى القرن الأول ، وأوائل الثانى . ذكره الجاحظ فأجمل صفته فى قوله : « الجارود بن أبى سبرة — ويكنى أبا نوفل — من أبين الناس وأحسنهم حديثاً . وكان راوية علامة شاعراً مفلقاً ، وكان من رجال الشيعة . ولما استنطقه الحجاج قال : ما ظننت أن بالعراق مثل هذا . وكان يقول : ما أمكننى وال قط من أذنه إلا غلبت عليه ، ما خلا هذا اليهودى، يعنى : بلال بن أبى بردة . وكان عليه متحاملا . فلما بلغه أنه دهق ، حتى دقت ساقه ، وجعل الوتر فى خصييه ، أنشأ يقول :

لقد قر عينى أن ساقيه دقتــا   وأن قوى الأوتار فى الخصية اليسرى
بخلت وراجعت الخيــانه والخنا   فيسرك الله المقــدس للعسرى
فما جذع سوء خرب السوس جوفه   يعالجه النجار يبرى كما تبرى[2]

وذكر الجاحظ فى موضع آخر أنه كان من جلساء عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وهو من يصفه الجاحظ بأنه من أبين الناس وأفصحهم ، حتى كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إنى لأنحى كور العمامة عن أذنى لأسمع كلام عبد الأعلى بن عبد الله . وقد أورد فى هذا الموضع فقرات من كلام الجارود : « سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخل

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٢٩ — ٣٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٧٩ ط ١٣٣٢ هـ .

العسل » ، وقال : « عليكم بالمربد ، فإنه يطرد الفكر ، ويجلو البصر ، ويجلب الخبر ، ويجمع بين ربيعة ومضر »[١].

أما شعره فقد روى الجاحظ قطعة أخرى له ، يظهر فيها الشماتة بموت مالك بن عمرة[٢]

١١٦ — سلم بن قتيبة (٧١ : ١٤)

هو سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلى . كان أبوه من أمراء الدولة المروانية وكبار الفاتحين فيها ، وتولى هو البصرة فى أواخر عهدها . وفى عهد العباسيين ولاه أبو جعفر المنصور عليها فترة من الزمن ثم عزله عنها ، وجعلها لمحمد بن سليمان بن على .

وكان سلم — فيما يظهر — نشأ فى بادية الكوفة ، نشأة أقرب إلى النشأة البدوية[٣] ، وقد كان لهذا أثره فى لغته ، فلم يكن فى لغته فضول ، حتى كان يزيد بن عمر بن هبيرة يقول : « احذفوا الكلام كما يحذفه سلم بن قتيبة[٤] » ، وكان يعرف الغريب أو يتباصر به ، كما قال بشار عنه ، حين مدحه بقصيدة أكثر فيها من الغريب فسئل عنها ، فقال : « بلغنى أن سلما يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه[٥] »

١١٧ — تسنيم بن الحوارى (٧١ : ١٥)

هو تسنيم بن الحوارى بن زياد بن عمرو بن الأشرف ، كما نسبه الطبرى فى روايته عن حفيده سعيد بن الحسن بن تسنيم[٦] وكان من أهل البصرة ، ويبدو من كلام الجاحظ أنه كان من سراتها . ولا نعرف من أخباره إلا أنه كان صديقاً لبشار[٧] وإلا أن ابنه الحسن بن تسنيم كان والياً على عمان سنة ١٦٩[٨].

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٨٦ .
(٢) الحيوان ١ : ٢٢٤ ط الحلبى .
(٣) انظر عيون الأخبار ١ : ١٤٥ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ١٥٥ ط ١٩٣٢ .
(٥) الأغانى ٣ : ١٩٠ ط دار الكتب المصرية .
(٦) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٤٨ .
(٧) الأغانى ٣ : ١٧٣ .
(٨) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٣٢ .

١١٨ ـ أبو شعيب القلال (٧١ : ١٩)

هكذا جاء اسمه هنا ، وفى جميع المواضع التى ذكر فيها ، فى الحيوان ، والبيان والتبيين ، وأخبار أبى نواس لابن منظور . وقد جاء فى جمع الجواهر للحصرى على هذه الصورة : « شعيب القلال » . وأكبر الظن أنه تحريف .

وهو صغدى الأصل [١] ، وقد جاءه هذا الوصف « القلال » من أنه كان يعمل الجرار ، وقد حكى الجاحظ نادرة لطيفة له ، حين دعى إلى القصر ليراه الرشيد وهو يعمل القلال . وهذه النادرة تدل على عقل وبديهة حاضرة[٢] . والواقع أنه كان يصحب العلماء والشعراء ويجالسهم ، حتى جاز للجاحظ أن يقول عنه فى صدد أبيات أبى نواس : « ودار ندامى عطلوها وأدلجوا » : « أنشدت هذه الأبيات أبا شعيب القلال ، وكان عالماً شاعراً ، فقال : هذا شعر لو نقر لطن . فقلت له ويلك ! ما تفارق الجرار والخزف حيث كنت »[٣] ، وحتى ليحكى بعض المعارف عن رهبان الزنادقة ، وما يصنعونه ويتميزون به[٤] .

١١٩ ـ محمد بن يحيى (٧٢ : ٦)

هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكى : الفضل وجعفر وموسى ومحمد ، وقد كان ـ فيما يبدو ـ أقلهم شهرة وأضعفهم نفوذاً ، فلم يل ـ فيما نعلم ـ شيئاً من الولايات ، إلا ما كان من توليه الكتابة لمحمد بن الرشيد[٥] . ولما وقعت النكبة بالبرامكة ، وقتل جعفر بن يحيى ، كان محمد فيمن أصابه الحبس ، وكان محبسه بالرقة . وقد ظل سجيناً إلى أن ولى الأمين الخلافة ، فأطلقه هو وأخاه موسى[٦] . ولكنه لم يلبث عند ما حوصر الأمين أن مضى نحو المأمون [٧] ، ثم لا ندرى ماذا كان من أمره بعد .

وكان محمد بن يحيى مبخلا . وقد ذكر الجهشيارى قصته مع المختم الراسبى الشاعر

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٥٧ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ١٣٧ ط ١٣٣٢ هـ ، جمع الجواهر للحصرى ص ٧ ـ ٨ .
(٣) أخبار أبى نواس ١ : ٤١ .
(٤) الحيوان ٤ : ٤٥٧ وما بعدها .
(٥) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٩٣ ط مصطفى البابى الحلبى .
(٦) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٧ .
(٧) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٨ .

وشعره فيه ، ثم أورد قول أبي الحارث جمين ووصفه له[١] . وقد حكى أيضاً أنه وجد لديه بعد نكبة البرامكة سبعمائه ألف درهم . ويظهر أن محمد بن يحيي كان — على العكس من إخوته — يحيا حياة مقصورة نوعاً ما ، فلم يكن يعبأ بالناس ، أو يلتمس حسن رأيهم . ولعل من خير ما يمثله وإخوته ما قاله إبراهيم الموصلي ، حين طلب إليه أبو النجم القائد ، أجد الدعاة ، أن يصف له ولد يحيي بن خالد ، فقال : « أما الفضل فيرضيك بفعله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل مالا يجد »[٢].

١٢٠ : إسماعيل بن نيبخت (٧٢ : ١١)

هو إسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت ، كما يذكر اسمه ابن منظور[٣] وابن أبي أصيبعة[٤]. وقد كان آل نوبخت من سراة البصرة ، ومن أكبر الأسر التي كانت مألفاً للشعراء والأدباء فيها . ولعل أول ما رفع من شأن هذه الأسرة هو التحاق أبي سهل ابن نوبخت بخدمة المنصور ، وكان رجلا مثقفاً بثقافة قومه من التطبب والتنجيم ، وقد كان صديقاً لأبي اللجلاج متطبب المنصور ، فأفاد من ذلك مالا ومكاناً ، فنشأ أبناؤه في البصرة نشأة مترفة ، ونعرف منهم إسماعيل هذا ، وإسحاق بن أبي سهل[٥]، وسليمان[٦] ، وعبيد الله[٧] ، ثم الحسين بن إسماعيل[٨].

ومن أشهر الشعراء الذين كانوا يألفون آل نوبخت أبو نواس[٩] ، وقد احتفظ لنا ديوانه بقدر من شعره فيهم ، وأكثره هجاء لهم ، ومساجلات بينه وبينهم . وما ندرى لعل ذلك كان من قبيل المعابثة .

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٩٨ .
(٣) أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .
(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ : ١٥٢ .
(٥) لسان الميزان ١ : ٤٢٤ .
(٦) ديوان أبي نواس ص ١٤٢ ، أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .
(٧) أخبار أبي نواس ص ١٩٩ .
(٨) ديوان أبي نواس ص ١٠٥ .
(٩) أخبار أبي نواس ص ١٤٢ .

وكان إسماعيل بن نوبخت هذا من جلساء المأمون ، كما يؤخذ من كلام طيفور[١].

وينبغي أن نشير هنا إلى أن إسماعيل بن نيبخت هذا ليس هو إسماعيل بن نيبخت المتكلم المعتزلى الشيعى الذى ذكره صاحب لسان الميزان ، فهو متأخر من أبناء إسحاق المتقدم ذكره[٢] .

وفى كتاب أعيان الشيعة للعاملى فصل كبير قيم عن آل نوبخت[٣].

١٢١ ــ أبو الشمقمق (٧٢ : ١٦)

لقب الشاعر المغمور « مروان بن محمد » ، من أعظم شعراء عصره تعبيراً عن الفقر وتسجيلا لصور الجماعات الدنيا ، وخروجاً على التقاليد الشعرية التى ظلت باسطة سلطانها فى العصر الأموى ، فى المعنى والأسلوب .

وهو من موالى مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين . وقد نشأ فى البصرة، بالبخارية رهى ــ كما يقول ياقوت ــ سكة فيها ، أسكنها عبيد الله بن زياد أهل بخارى الذين نقلهم من بخارى إلى البصرة ، وبنى لهم فيها هذه السكة فعرفت بهم . ونقل المبرد عن أبى عبيدة أنه ــ هو ومنصور بن زياد ويحيى بن سليم الكاتب ــ من أهل خراسان ، من بخارية عبيد الله بن زياد[٤] ، فيكون خراسانى الأصل .

وكان قبيح الشكل ، وصف المرزبانى خلقه فقال : «إنه كان عظيم الأنف ، أهرت الشدقين ، منكر المنظر»[٥]. ووصف ابن عبد ربه شيئاً من خلقه فقال : « وكان أديباً ظريفاً محارفاً . وكان صعلوكاً متبرماً بالناس ، وقد لزم بيته فى أطمار مسحوقة . وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج ، فينظر من فروج الباب ، فإن أعجبه الواقف فتح ، وإلا سكت عنه »[٦].

وشعره ــ بالقدر الذى وصل إلينا ــ صورة صادقة من هذا الخلق ، ومن إحساسه بالفقر . وقد وصف مظاهر فقره وصفاً رائعاً ، منه الساخر ومنه الحزين . فن الأول تلك

---

(١) تاريخ بغداد لطيفور ص ٢٩٩ .
(٢) لسان الميزان ١ : ٤٢٤ .
(٣) ٥ : ٣٩ ــ ٤٩ .
(٤) الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٢ ط الأزهرية .
(٥) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٧ .
(٦) العقد الفريد ٣ : ٣٤٣ ط ١٢٩٣ هـ ، ٦ : ٢١٥ ط لجنة التأليف ، ١٩٤٩ م .

القطع الأربعة الجميلة التى أوردها الجاحظ ، وقد وصف فيها بيته . وأخذ يواسى سنوره مواساة ظريفة لخلوه من الفيران ، إلى غير ذلك من الصور الطريفة التى أداها تأدية لطيفة[١] ومن ذلك أيضاً ما أورده ابن عبد ربه بعد ذلك الحديث الذى قدمنا طرفاً منه فى وصف خلقه . ومن شعره الحزين قطعة صغيرة أوردها الجاحظ ، ويظهر أنه نفث بها وهو بالأهواز ، ملتمساً سبباً من أسباب العيش ، ولعله قالها فى تلك المرة التى قصد فيها الأهواز ، حين كان بها عمر بن مساور الكاتب متقلداً بعض أعمالها ، فرده — فيما يظهر — خائباً ، وقد هجاه بأبيات أوردها الجهشيارى[٢].

وأما تبرمه بالناس فيظهر فى كثرة أهاجيه للأمراء والشعراء . وقد أورد الجاحظ وغيره قدراً صالحاً من هذا فى مواضع مختلفة[٣].

والميزة الواضحة التى يمتاز بها شعر أبى الشمقمق هى شعبيته ، وقد كان ينافس بشاراً فى هذا . بل إن فى القصة التى يوردها أبو الفرج ، من مطالبته بشاراً بالعطاء ، وتهديده بالهجاء ، على ذلك النحو الخاص الذى ورد فى تلك القصة ، ما يدل على تقدير بشار للناحية « الشعبية » فى شعره[٤].

وإذ كان هذا الشعر قوى التجاوب مع أحاسيس الشعب ، فقد تحفى الشعب به ، ولعل فيما يذكره الجاحظ عن ديوانه ، واحتفال بعض الناس به ، ما يدل على هذا الاتجاه[٥]

أما شعر أبى الشمقمق الذى أورده الجاحظ هنا فى « البخلاء » فقد ورد فيه نص عن الجاحظ ، فى كتاب البخلاء للخطيب البغدادى : « قال أحمد بن منصور المروروذى : قال لى الجاحظ — وأنا أقرأ عليه كتابه فى البخلاء ، وتذاكرنا ما دقق الشعراء فيه من ذم البخلاء — : لا أعرف شيئاً أبلغ فى الهجاء بالبخل من قول أبى الشمقمق . وذكر البيت : « وما روحتنا . . . إلخ» ، وبيتاً آخر له » ، ثم قال الخطيب : « وقد روى هذا الشعر لغير أبى الشمقمق »[٦].

(١) الحيوان ٥ : ٢٦٤ — ٢٦٩ ط الحلبى .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٣٢ ط الحلبى .
(٣) انظر مثلا : الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٢ — ٢٤٤ ، الحيوان ١ : ٢٦٣ — ٢٦٤ ، ٣٥٥ ، ٤ : ٤٥٤ ، ثمار القلوب ص ٤٣٥ .
(٤) الأغانى ٣ : ١٩٤ .
(٥) الحيوان ١ : ٦١ .
(٦) انظر المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٧٧ .

١٢٢ ـ الجماز (٧٣ : ٣)

هو أبو عبد الله محمد بن عمرو ، ما جن من أصحاب النادرة بالبصرة ، من أسرة سلم بن عمرو الخاسر ، وهم تيميون بالولاء ، وإن « كانوا يزعمون أنهم من حمير صليبة ، نالهم سباء فى خلافة أبى بكر ، فهم مواليه »[١] وقد نشأ فى البصرة رفيقاً لأبى نواس ، وإن كان أكبر سناً منه [٢] ،وكانا يجلسان معاً إلى أبى عبيدة ،وقد دخل بغداد فى أيام الرشيد ولم يستوطنها ولم يعد إليها إلا فى أيام المتوكل ، وقدكانت سوق النادرة ائجة عنده ، ولكن الجماز كان قد أسن ، فلم يعش بعد ذلك إلا قليلا .

ويصفه المرزبانى بأنه صاحب مقطعات ، ولم يكن له إطالة ، وكان ماجناً خبيث اللسان[٣] . ومن مقطعاته القصيرة هذه قطعة فى أبى العتاهية يعرض فيها بزهدياته ، وأخرى فى هجاء إبراهيم الزيادى ، وثالثة فى هجاء الجاحظ ومعابثته ، وله مقطوعات ماجنة أوردها الجاحظ فى الحيوان ،وابن الشجرى فى حماسته [٤].

أما نوادره فقد عنى الحصرى بجمع طائفة غير قليلة منها[٥].

١٢٣ ـ يوسف بن عمر (٧٤ : ٤)

أحد ولاة بنى أمية الذين عرفوا بالعنف والعتو والقسوة . وهو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ، ابن ابن عم الحجاج بن يوسف ، يجتمعان فى الحكم ، كما كانا يجتمعان فى أسلوب الحكم . فكانت أيام ولايته الكوفة تذكر الناس بأيام الحجاج . وكان من الأقوال السائرة قولهم : « ما أشبه زمان يوسف بن عمر بزمان الحجاج »[٦] . ويقول ابن خلكان : « وكان يوسف يسلك طرائق ابن عم أبيه الحجاج ابن يوسف فى الصرامة والشدة فى الأمور ، وأخذ الناس بالمشاق . ولم يزل على ذلك إلى حين عزله »[٧] ومن أجل ذلك « كان يضرب به المثل فى التيه والحمق . ذكر ذلك حمزة

---

(١) جمع الجواهر للحصرى ص ٩٤ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٣ : ١٢٥ .

(٣) معجم الشعراء ص ٤٣١ .

(٤) الأغانى ٤ : ٧٦ ، معجم الأدباء ١ : ١٦٠ ، ثمار القلوب ٣٢٢ ، الحيوان ١ : ١٧٥ ، حماسة ابن الشجرى ص ٢٧٥ .

(٥) انظر مثلا الصفحات : ٧ ، ٢٢ ، ٩٣ ــ ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٢٠٢ .

(٦) البيان والتبيين ٣ : ١٨٠ .

(٧) وفيات الأعيان ٢ : ٤٧٨ ط بولاق ١٢٩٩ .

الأصبهانى فى كتاب الأمثال ، فقال : قولهم أتيه من أحمق ثقيف، هو يوسف بن عمر . كان أتيه وأحمق عربى أمر ونهى فى دولة الإسلام »(١).

وكان قبل ولايته العراق والياً على اليمن فى أيام هشام بن عبد الملك ، وأبلى بلاء حسناً فى حرب عباد الرعينى الخارجى(٢). فكان ذلك مما رفع من شأنه عند الخليفة ، فما إن غضب على خالد القسرى ، وعزله عن العراق سنة ١٢٠ ، حتى كتب إليه بتوليته عليها ، فمضى إليها واصطنع العنف فيها . وجعل يتعقب أسرة سلفه ، فحبس خالد بن عبد الله مع أخيه إسماعيل بن عبد الله ، وابنه يزيد بن خالد ، وابن أخيه المنذر بن أسد بن خالد ، كما أودع السجن بعض عمال خالد كبلال بن أبى بردة ، وقد مات فى سجنه ، كما مات خالد . « وبقى يوسف والياً على العراق إلى أن بويع يزيد بن الوليد سنة ست وعشرين ومائة ، فاستعمل منصور بن جمهور على العراق . فلما سمع ذلك يوسف هرب إلى الشام ، فظفر به هناك فسجن . فلما مات يزيد واضطرب أمر المروانية بطش يزيد بن خالد القسرى بيوسف بن عمر ، فقتله فى السجن ، وأدرك بثأر أبيه منه »(٣).

١٢٤ ــ عوف بن القعقاع (٧٤ : ١١)

هو عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس ، تميمى دارمى ، عداده فى أعراب البصرة ، ويعد فى الصحابة ، لأنه وفد مع أبيه على النبى صلى الله عليه وسلم(٤)

١٢٥ ــ طفيل (٧٨ : ١٤)

ذكره الثعالبى فقال : « طفيل العرائس ، ويقال له طفيل الأعراس . وهو من غطفان، ويقال إنه من موالى عثمان بن عفان ، رضى الله تعالى عنه . وكان يتبع الأعراس فيأتيها من غير أن يدعى إليها . وهو أول من فعل ذلك ، وإليه ينسب الطفيليون . وكان يقول : وددت أن الكوفة بركة مصهرجة ، فلا يخفى على من أعراسها شىء »(٥).

---

(١) المصدر نفسه ٢ : ٤٧٩ .

(٢) تاريخ الطبرى حوادث سنة ١٠٧ .

(٣) التنبيه لأبى عبيد البكرى ص ١٠٣ ط دار الكتب المصرية .

(٤) أسد الغابة ٤ : ١٥٦ ط جمعية المعارف المصرية ، ١٢٨٦ هـ .

(٥) ثمار القلوب ص ٨٤ . وقارن هذا النص بما ذكره ابن السكيت فى إصلاح المنطق ٣٥٥ ــ ٣٥٦ ط دار المعارف .

وقد أورد ابن قتيبة وصيته التى يوصى بها أصحابه ، وهى : « إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وأجد ثيابك ، واعمل على أنها العقدة التى تستغل . وإن كان العرس كثير الزحام فمر وانه ، ولا تنظر فى عيون أهل المرأة ، ولا عيون أهل الرجل ، فيظن هؤلاء أنك من هؤلاء ، وهؤلاء أنك من هؤلاء . وإن كان البواب غليظاً وقاحاً ، فابدأ به ، ومره وانهه ، من غير أن تعنف عليه . وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال »[١].

وقد كتب الجاحظ فى « الطفيليين » كتاباً ذكره ياقوت فى فهرست كتبه ، ولم يصل إلينا . ومن بعده صنف الخطيب البغدادى كتاباً فى « التطفل وحكايات الطفيليين وأخبارهم » ، وقد أورد فيه تاريخ هذا النوع من الحياة ، كما سرد طائفة مما قيل فيه من الطرائف . وقد ذكر فيه طفيلاً هذا . وروى عن أبى عبيدة أنه كان من بنى هلال ، وأنه كان ينزل حفر أبى موسى (وهى على جادة البصرة إلى مكة ، كما يقول ياقوت) ، واسمه طفيل بن زلال ، فكان هو أول من طفل ، وأبوه أول من زل .

١٢٦ ــ أبو اليقظان (٧٨ : ١٧)

هو سحيم بن حفص ، راوية أخبارى ، عالم بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه ، كما يقول ابن النديم ، وقد عاش إلى سنة ١٩٠ ، وهو أستاذ المدائنى . وكان يطلق عليه ، فيما يحكى هو عن نفسه ، عدة أسماء ، فيسميه أبا اليقظان ، وسحيم ابن حفص ، وعامر بن حفص ، وعامر بن أبى محمد ، وعامر بن الأسود ، وسحيم بن الأسود ، وعبيد الله بن حفص ، وأبا إسحاق[٢] . وقد روى عنه الجاحظ قطعة من الرجز ، فى وصف الخطيب الذى تعرض له النحنحة والسعلة[٣] .

١٢٧ ــ معبد (٨٢ : ١)

لعل معبدا هذا الذى كان ينزل دار الكندى ، والذى يحكى عنه الجاحظ قصته هنا ، هو معبد المتكلم الذى يشير إليه فى سياق المناظرة بين صاحب الديك وصاحب

(١) عيون الأخبار ٣ : ٢٣٢ .

(٢) الفهرست ص ١٣٨ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٤٨ ط ١٩٣٢ م .

الكلب ، ويصفه هو والنظام بأنهما من عليه المتكلمين ، ومن الجلة المتقدمين ، وأنهما من جلة المعتزلة ، وهم أشراف أهل الحكمة[1] .

١٢٨ ـ « وكان فى ذلك يتنزل عليهم » (٨٢ : ٥)

التنزل بالمعنى الذى يمكن أن يفيده السياق هنا ـ وهو قول الجاحظ عن الكندى إنه كان يتنزل على السكان فيما يأخذ منهم ـ لم يقع لى فى المعاجم . على أن هذه الكلمة وردت فى كلام البلاذرى ، فى أثناء كلامه عن يوم الربذة ، مقرونة بما يعين المعنى ، إذ يقول : « وكانوا يتنزلون على الناس ، ولا يعطون لشىء ثمناً »[2].

١٢٩ ـ آبار الزدو (٨٣ : ٢)

المقصود بها هنا الحفائر التى يحفرها الصبيان فى لعبة « الزدو » ، وتسمى الحفيرة التى تحفر لذلك « المزداة » ، وهى التى يلقى فيها بالجوز الذى يلعب به .

وتسمى هذه اللعبة أيضاً « خسا زكا » ، إذ كان هذان اللفظان هما الكلمتان الاصطلاحيتان فى هذه اللعبة ، ومعناهما فرد وزوج . وأساس اللعبة هو إخفاء الجوز أو الحصا والسؤال عنه : خسا أم زكا ، كأنما هى نوع من لعب المقامرة عند الصبيان . وبهذا الاسم ذكرها الشاعر فى قوله :

وشر أصناف الشيوخ ذو الريا ... أخنس يحنو ظهره إذا مشى
الزور أو مال اليتيم عنـــده ... لعب الصبى بالحصى « خسازكا »

كما اشتق منه فقيل: هو يخسى ويزكى ، أى يلعب هذه اللعبة ، وخاساه أى لاعبه إياها[3] .

١٣٠ ـ المنحاز (٨٤ : ١٠)

هكذا جاءت الكلمة فى الأصل ، مع نقطة تحت الحاء ، فجعلها « فان فلوتن »

---

(١) انظر الحيوان ١ : ٣٥٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ط الحلبى .

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٥١ .

(٣) انظر فى هذا مثلا لسان العرب فى مادة زدا وسدا وزكا وخسا . وانظر أيضاً ما كتبه الدكتور داود الجلبى عن هذه اللعبة فى مجلة المجمع العلمى العربى ، ٢٠ : ٥ ـ ٦ (ايار وحزيران ١٩٤٥) ص ٢٥٦ .

المنجان ، تحكما ، ولا معنى لها ، وجعلتها طبعة وزارة المعارف « الميجان » ، وتكلفت لها . وهذا كله إغراب ، والقريب الصحيح هو المنحاز ، كما أثبتنا . وقد قال أبو على : « والهرس والوهس دقك الشيء وبينه وبين الأرض وقاية ، ومثله نحزت أنحز نحزاً ، ومنه المنحاز ، وهو الهاون »[١] وكذلك نقل السيوطى عن الجمهرة أن الهاوون يسمى المنحاز والمهراس[٢] .

١٣١ ـ الخشكار (٩٦ : ٦)

يقول أدى شير فى كتابه « الألفاظ الفارسية المعربة » : « الخشكر ما خشن من الدقيق ، فارسيته خشكار وهو القصرى » . والقصرى ، كبشرى ، ما بقى فى المنخل بعد الانتخال ، أى ما نسميه بالنخالة .

١٣٢ ـ النفاطات والقيارات (٩٨ : ٨ ـ ٩)

هى الأمكنة التى يكون فيها النفط والقير ، كما يقال ملاحة لموضع الملح ، وزراعة لموضع الزرع . والنفط والقير معدنان كثيرا الوجود بالعراق ، كما هو معروف ، وهما معروفان هنالك منذ القدم . حتى إنه ليقال إن كلمة « نفط » سامية قديمة ، ولفظها قريب فى العبرية والسريانية والعربية ، ومن هذا الأصل جاءت الكلمة اليونانية

وقد جاءت كلمة « النفط » فى شعر بشار ، إذ يقول :

وما كلمتنى دارهـــا ، إذ سألتها وفى كبدى كالنفط شبت به النار[٣]

وقد أشار ابن جبير فى رحلته إلى قيارة بين البصرة والكوفة . ولعل هناك صلة بين ذلك المكان وبين المكان الذى كان يسمى بذى قار .

ويظهر أن ولاية النفاطات كان عملا من أعمال الدولة . فقد روى البيهقى أن عبد الصمد بن المعذل كتب إلى صديق له ولى النفاطات ، فأظهر تيها :

لعمرى لقد أظهرت تيهـــاً كأنما توليت للفضل بن مروان منـــبرا

---

(١) الأمالى ٢ : ٢٧ .

(٢) المزهر ص ١٦٦ .

(٣) الأغانى ٦ : ٢٤٦ .

وما كنت أخشى لو وليت مكانه ... على — أبا العباس — أن تتغيرا
بحفظ عيون النفط أظهرت نخوة ... فكيف به لو كان مسكاً وعنبراً
دع الكبر واستبق التواضع ، إنه ... قبيح بوالى النفط أن يتكبرا(١)

ونستطيع أن نعرف وصف هذه القيارات ، والوجوه التى كانت تستعمل فيها ، من مراجعة مثل ما كتبه ابن فضل الله العمرى عن دير القيارة مثلا ، وما كتبه ياقوت عن هذا المكان(٢).

١٣٣ — قيس بن زهير (٩٩ : ٣)

شخصية من شخصيات الجاهلية التى تمثل أخبارها صفات البطولة العربية ، وكان كأكثر أبطال ذلك العهد يعيش فى الفترة التى انتهت بظهور الإسلام ، وأبوه زهير بن جذيمة العبسى ، أمير عبس ، وسيد العرب وهوازن خاصة ، وكانت « هوازن بن منصور لا ترى زهير بن جذيمة إلا ربا » ، كما يقول أبو عبيدة(٣) . ولكنه لم يلبث أن قتله خالد ابن جعفر بن كلاب . وكثير من أخبار قيس بن زهير تدور حول الثأر لأبيه ، وهو بطل يوم داحس والغبراء(٤) . وينهى ابن الأثير حياته بأنه « تاب إلى ربه ، فتنصر وساح فى الأرض حتى انتهى إلى عمان ، فترهب بها زماناً ، فلقيه حوج بن مالك العبدى ، وقال : لا رحمنى الله إن رحمتك » .

وقد حكى الميدانى طرفاً مما يؤثر عنه من العبارات الحكيمة(٥) .

١٣٤ — خازم بن خزيمة (٩٩ : ٣)

يذكره الخطيب فى الكلام عن دار خازم ، إذ يقول : « وأما دار خازم ، فهو خازم بن خزيمة النهشلى . وهو أحد الجبابرة ، قتل فى وقعة سبعين ألفا ، وأسر بضعة

(١) المحاسن والمساوى ص ١٨٢ .
(٢) مسالك الأبصار ١ : ٣٠١ ، معجم البلدان ٤ : ١٦٦ .
(٣) الأغانى ١١ : ٨٢ .
(٤) النقائض بين جرير والفرزدق ١ : ٧٦ ، الكامل لابن الأثير ١ : ٣٤٣ .
(٥) مجمع الأمثال ١ : ٢٨٤ — ٢٨٥ .

عشر ألفاً ، فضرب أعناقهم وذلك بخراسان »[١] .

أما قسوته هذه فتتفق مع العصر الذى كان فيه ، وهو عصر تأسيس الدولة العباسية وتوطيدها ، وكان ذلك محتاجاً لهذه القسوة التى غمرت مظاهرها تلك الفترة كلها . ويعتبر خازم بن خزيمة من القواد الذين شاركوا مشاركة قوية فعالة فى إخماد الثورات التى كانت تثور ضد الدولة هنا وهنا . فهذه ثورة بالمدائن يقوم بها بسام بن إبراهيم بن بسام ، وهذه أخرى بعمان يثيرها شيبان الخارجى ، وهذه ثالثة بالجزيرة عند الموصل يثيرها خارجى آخر يقال له الملبد ، وها هم أولاء الراوندية يحاولون أن يثأروا لأبى مسلم الخراسانى فى مقر الخلافة نفسه ، وها هى ذى خراسان تضطرب ويكاد أمر الدولة يفسد فيها ، منذ ثار عبد الجبار بن عبد الرحمن . ثم ها هو ذا الأصبهبذ بطبرستان يرى الفرصة سانحة لينقض عهد المسلمين ، فيأخذ فى حرب الدولة . كل هذه الثورات التى جعلت تثور متوالية كان خزيمة بن خازم صاحب الفضل الأكبر فى إخمادها [٢].

وقد خلف خازم بن خزيمة أبناء له ، سلكوا مسلكه ، فكانوا من قواد الرشيد ، منهم خزيمة ، وقد عاش — كما يقول الخطيب — إلى أيام الأمين[٣]؛ ومنهم إبراهيم ، وقد فتك به الوليد الشارى بنصيبين[٤] .

١٣٥ — هرثمة بن أعين (٩٩ : ٤)

قائد من قواد الرشيد والأمين ، وهو خراسانى ، وقد كان فى أيام أبى جعفر من أنصار عيسى بن موسى ، فحمل من خراسان إلى بغداد فى السلاسل ، من أجل ذلك[٥] وقد بقى — فيما يظهر — مغموراً مدة المنصور والمهدى والهادى ، فما يكاد يذكر . فإذا كانت أيام الرشيد وجدناه عاملا له على فلسطين ، ثم رأيناه متجهاً إلى مصر ، يقمع فتنة قام بها أهل الحوف من قيس وقضاعة ، وقد نجح فى قمعها ، فولى مصر نحواً من شهر ، ثم تحول عنها ليطفىء فتنة قامت فى أفريقية ، وكذلك وليها ، ثم عزل عنها ، وتولى حرس جعفر بن يحيى .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٨٩ .
(٢) انظر تاريخ الطبرى وخاصة الجزء التاسع ، فى عهد السفاح وأبى جعفر .
(٣) تاريخ بغداد ١ : ٩٢ .
(٤) تاريخ الطبرى ١٠ : ٦٢ .
(٥) تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٤ .

ولعل المهمة الكبرى التى قام بها هرثمة هى انضمامه إلى المأمون ، وقيادته الجيوش له فى الزحف إلى بغداد ، وحصارها ، وقد أبلى فى ذلك بلاء مذكوراً ، كما أبلى بعد ذلك فى حرب أبى السرايا ، وتصفية الجو للمأمون .

وقد حدث بينه وبين الفضل بن سهل شىء فدبر له حتى حبسه ، ثم دس عليه فقتل فى محبسة سنة ٢٠٠ [١] .

١٣٦ ــ الشبوط (١٠٠ : ١٥)

نوع من السمك وصفه صاحب القاموس بأنه « دقيق الذنب ، عريض الوسط ، لين المس ، صغير الرأس ، كأنه بربط »، كما ذكره الفريق أمين المعلوف بهذه الصفة تقريباً ، وقال إنه كثير فى دجلة . وقد وضع بإزاء كلمة شبوط وسبوط هاتين الكلمتين Carpi, Cyprimus [٢] :

وقد ذكو الجاحظ غير مرة . فذكره فى سياق القول بالخلق المركب ، وفى الرد على من زعم أنه ولد الزجر من البنى ، وذكر بعض خواصه فقال : إنه جنس كثير الذكور قليل الإناث ، وإنه أكثر سمك نهر « رامهرمز » ، وإنه لا يتربى فى البحار ، ولا يسكن إلا فى الأودية والأنهار ، ويكره الماء الملح ، ويطلب الأعذب فالأعذب ، ويكون فى الماء الجارى ، ولا يكون فى الساكن [٣] .

ووصفه مرة أخرى فقال : « وأطيب ما فى الأنهار من السمك ، وأحسنها قدوداً وخرطا ، وأسبطها سبوطاً ، وأرفعها ثمناً ، وأكثرها تصرفاً فى المالح والطرى ، وفى القريس والنشوط الشبوط » [٤]

١٣٧ ــ السدرى (١٠٠ : ١٩)

أحد الشعراء المغمورين فى عصر الجاحظ . وقد ترجم له المرزبانى ترجمة قصيرة فقال : « السدرى ، أبو نبقة ، محمد بن هشام بن أبى خميصة . مولى لبنى عوال . فاشترى المتوكل ولاءه بثلاثين ألف درهم . وكان يصحب الجماز وعبد الصمد بن المعذل والجاحظ وأدباء

(١) راجع الطبرى فى حوادث خلافة الرشيد ثم الفتنة ثم سنة ٢٠٠ .
(٢) معجم الحيوان ، ص ٥٢ ، ط المقتطف ١٩٣٢ .
(٣) الحيوان ١ : ١٥١ .
(٤) الحيوان ١ : ٢٣٣ — ٢٣٤ .

البصرة » ، ثم ذكر له مقطوعتين قصيرتين من الشعر الساخط : إحداهما فى رجل من الوجوه قصده ، فأبطأ إذنه ، والأخرى فى هجاء الزياديين [١] .

وذكره القالى فى أثناء الحديث عن المفضليات ، فوصفه بأنه بصرى من أصحاب الأصمعى ، مع أبى العالية الأنطاكى ، وعافية بن شبيب [٢] . وكذلك نجد أبا الفرج يسند إليه حديثاً عن الأصمعى فى شعر أبى العتاهية[٣] .

أما الجاحظ فيروى عنه بيتاً من الشعر يقول إنه أنشده إياه[٤] .

١٣٨ ــ الخيش (١٠٢ : ٧)

يقول الجاحظ فى حديث أسد بن جانى : إنه كان إذا جاء الصيف ، وحر عليه البيت ، أثار الأرض بالمسحاة ، ثم غمره بالماء ووطأه . فلا يزال البيت بارداً ما دام نديًّا . ثم يحكى عنه أنه كان يقول عن ذلك : « خيشتى أرض وماء خيشتى من بئرى » . والعبارة غامضة غير مفهومة ، حتى يعرف المراد بالخيشة هنا .

وقد وردت كلمة الخيش فى بعض النصوص مشيرة إلى أن المراد بها نوع من الجواسق يجلس فيه صيفاً . فقد حكى الصولى أن العباس بن رستم قال : « دخلت مع أبان بن عبد الحميد على عنان جارية الناطفى ، وهى فى خيش ، فقال لها : « العيش فى الصيف خيش » ، فقالت بسرعة : « إذ لاقتال وجيش »[٥].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الجاحظ فى البخلاء[٦] : « لو كانوا إذ جلسوا فى الخيوش ، واتخذوا الحمامات فى الدور ، وأقاموا وظائف الثلج والريحان إلخ » ، وكذلك ما ذكره فى رسالته « صناعات القواد » بين الأبيات التى أوردها على لسان محمد بن داود الطوسى الفراش ، إذ يقول :

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٣١ .
(٢) ذيل النوادر ص ١٣٠ .
(٣) الأغانى ٤ : ٣٩ — ٤٠ .
(٤) الحيوان ٣ : ١١١ .
وانظر فوق هذا قصته مع عبد الصمد بن المعذل فى الأغانى ١٢ : ٦٥ — ٦٦ ، وبعض أخباره مع أبى شراعة الشاعر فى الأغانى أيضاً ٢٠ : ٣٦ — ٣٧ .
(٥) الأوراق للصولى قسم أخبار الشعراء ، ص ٢٣ ، ط الصاوى .
(٦) البخلاء ص ٢٠٥ .

حين هيأت بيت خيش من الوصـ   ـل لأبوابه ستور البهـاء[١]

فكلمة « الخيش » فى مثل هذه النصوص لا تدل إلا على ذلك النوع من الجواسق[٢] ولكن هذا المعنى لا نحسب أنه مراد هنا فى كلام أسد بن جانى ، إذ لا يستقيم الكلام به . ويغلب على الظن أن تكون كلمة « خيش » مأخوذة من كلمة «كاشان » الفارسية ، ومعناها « بيت الصيف »، كما ذكر ادى شير [٣] لا من الخيش بمعنى القماش الغليظ المتخلخل .

على أنا نحسب أن لكلمة « خيش » استعمالاً آخر غير هذا الاستعمال هو المقصود هنا، وهو الذى يعنيه الجاحظ فى قوله : « ولهم صب الزردج ، واستخراج النشاستج ، وتعليق الخيش »[٤] كما جاءت فى بعض شعر الشعراء فى القرن الرابع ، كذلك الشاعر الذى يسخر من شعر الصولى بقوله :

داری بلا خيش ، ولكننى   عقدت من خيشى طـاقين
دار متى ما اشتد بى حرها   أنشـدت للصـولى بيتين

وكما يقول الشاعر البغدادى ابن سكره ، محمد بن عبد الله الهاشمى[٥] :

يا سائلى عن ليلة لى مضت   وطيبهـا عند أبى الخيش
وكيف غنت « خمرة » ، لا تسل   غنت فأغنتنا عن الخيش

فالمقصود بالخيش هنا، وفى مثل ما دار بين ابن فارس وأبى الفتح ابن العميد ، مما ذكره ياقوت فى معجمه[٦] ، إنما هو مروحة الخيش التى قال الشريشى فى شرحها : « هذه المروحة تستعمل ببلاد العراق ، تكون شبه الشراع للسفينة ، وتعلق من سقف البيت ، ويشد بها حبل ، ويدار بها ، وتبل بالماء وترش بماء الورد . فإذا أراد الرجل فى القائلة أو الليل أن ينام جذبها بحبلها ، فتذهب بطول البيت وتجىء . فيهب على الرجل منها نسيم طيب الريح بارد »[٧].

---

(١) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ٢٦٥ .
(٢) انظر ما ذكره الطبرى فى أخبار المنصور (٩ : ٣٠٦) من اتخاذه الخيش ينصب له على قبة .
(٣) الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٣٦ .
(٤) الحيوان ١ : ٨٢ .
(٥) اليتيمة ٣ : ١٢ .
(٦) معجم الأدباء ١٤ : ٢٠١ .
(٧) شرح مقامات الحريرى ٢ : ٢٨٨ .

وبهذا المعنى يستقيم كلام أسد بن جانى ، فهو يشبه أرضه المنداة بماء البئر ، بتلك المروحة ، دون أن يتكلف فى ذلك ما تكلفه هذه المروحة .

١٣٩ – أبو عبد الرحمن الثورى (١٠٣ : ٢)

لم أجد أبا عبد الرحمن الثورى هذا فى غير كتاب البخلاء ، على كثرة ما التمسته . على أنا ينبغى أن نشير هنا إلى شخصية أخرى بهذا الاسم ، وهى شخصية المبارك الثورى ، أبى عبد الرحمن ، أخى أبى عبد الله سفيان الثورى[١] . وليس به قطعاً .

ومما يجب أن نشير إليه ما ارتكبته دار الكتب من خطأ شنيع ، فى الفهرست الذى وضعته لكتاب عيون الأخبار ، إذ خلطت بين أبى عبد الله الثورى . وأبى عبد الرحمن المذكور فى كتاب البخلاء .

وبعد ، فإن أبا عبد الرحمن هذا كان – كما يؤخذ من كلام الجاحظ عنه – سريًّا من سراة البصرة ، يملك خمسمائة جريب من أكرم الأرض ، وكان يصطنع التجارة ، وكان ينزل بغداد عند مسجد ابن رغبان ، وكان رجلا شديد العارضة عضب اللسان ، وقد جرد فى الانتصار للبخل والمدافعة عنه كتاباً ، كما صنع سهل بن هارون ، وكان – فيما يظهر – رجلا متأدباً يروى الآثار المختلفة مثقفاً بثقافة عصره[٢].

١٤٠ – نهر مرة (١٠٣ : ٣)

هو نهر بالبصرة إلى ناحية نهر الأبلة ، منسوب إلى مرة بن أبى عثمان ، مولى عبد الرحمن بن أبى بكر ، إما لأنه ولى حفره ، فنسب إليه ، وإما لأن الأراضى التى كانت عليه ، كانت قطيعة له[٣].

١٤١ – « فان النوى تعقد الشحم فى البطن » (١٠٣ : ٩)

لعل هذا متأثر بعادة كلدانية قديمة ذكرها لنورمان Lenorment فى كتابه « التاريخ

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ٢١٨ .

(٢) يحسن أن نشير هنا إلى أن القول الذى ينسبه الجاحظ إليه فى إيثار الرءوس ، نرى نظيراً له فى كتاب البخلاء للخطيب البغدادى (ورقة ٢٢) ، منسوباً إلى مروان بن أبى حفصة .

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، معجم البلدان ٨ : ٣٤٥ .

القديم للشرق » ، إذ ينتقل بعض ما حكاه بلين pline وتيوفرست Théophraste وستّر بون Strabon عن وجوه الانتفاع بالنخيل عند الشعب الكلدانى ، ومنها أن نوى التمر كان يدق وينقع ، ويتخذ طعاماً للأبقار والخراف فيسمنها(١) .

١٤٢ ــ النعال السندية (١٠٤ : ٥)

صنف خاص من النعال ذكره الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير ، بما يؤخذ منه أنها نعال ثخينة ، لها صرير عند المشى بها . قال : « وقد اختلفوا علينا فى النعال السندية ، فزعم قوم أن صاحب كتاب الباه كان قصيراً منكراً ، وكان بالنساء مستهتراً ، وأنه احتال بها لجسمه ، حتى وصلها برجله ، ليكون ثخنها زائداً فى طوله . فلما طالت الأيام ومضت الدهور ، ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة ، أو لضرب من المرفق . وقال آخرون : بل اتخذت للعقارب ليلاً وللطين نهاراً ، فلما طال عليها الدهر نسى السبب ، وذلك أن أكثر الرداغ لا تستغرق ثخنها ، وإبرة العقرب لا تكاد تجاوزها . وقال آخرون : بل إنما اتخذتها ملوكها لمكان أصواتها وصريرها ، استئذاناً على أزواجها وأمهات أولادها ، وعلى جميع محارمها ، لحالات تكن عليها ، وأمور تكن فيها . فصار صريرها تدنياً واستئذاناً »(٢) .

وكذلك نرى هذه النعال وصفت بأنها صرارة فى قصيدة لأبان اللاحق ، إذ يقول :

ونعال سندية صرارة(٣)

كما يؤخذ من نص « البخلاء » أن هذه النعال كانت ــ فوق هذا ــ غير مشركة .

١٤٣ ــ سوق الأهواز (١٠٤ : ١٦) .

هو أحد المواضع الوبئة التى كان يضرب بها المثل فى فساد الهواء واعتلال الصحة . وهو قصبة بلاد الأهواز أو « خوزستان » أو ما يسمى الآن « عربستان »(٤) . وقد يجتزأ

---

(١) *Histoire ancienne de l'Orient*, vol. 4, p. 7.

(٢) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ٢٣٠ .

(٣) كتاب الأوراق للصولى ، قسم أخبار الشعراء ، ص ٢٧ .

(٤) Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, p. 232, Cambridge, 1905.

عن « سوق الأهواز » فيقال « الأهواز » ، كما كان يكتفى بإطلاق كلمة «السوق » وحدها عليه ، كما فى شعر عبد الله بن الزبير الأسدى :

فأضحى ولو كانت خراسان دونه   رآها مكان السوق أو هى أقربا[1]

وهى تقع على نهر دجيل الأهواز ، أو ما يسمى الآن نهر قارون ، وبينها وبين البصرة ٣٦ فرسخاً [2] وقد عرض لها الجاحظ فى باب (القول فى الحيات) ،عند كلامه عن تأثير البيئة فى الطباع . قال :

« فأما قصبة الأهواز فإنها قلبت كل من نزلها من بنى هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم . ولا بد للهاشمى ، قبيح الوجه كان أم حسناً ، أو دميما كان أو بارعاً رائعاً ، من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب . فقد كادت البلدة أن تنقل ذلك فتبدله ، ولقد تحيفته وأدخلت الضيم عليه ، وبينت أثرها فيه . فما ظنك بصنيعها فى سائر الأجناس .

ولفساد عقولهم ولؤم طبع بلادهم لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة والضياع الفاشية يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، وإن طال ذلك . والمال منبهة كما يقولون . وقد يكتسب الرجل ، من غيرهم ، المويل اليسير ، فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ، ولا يرضى لنسائه مثل الذى كان يرضاه قبل ذلك .

وليس فى الأرض صناعة مذكورة ، ولا أدب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم فى شيء منه نصيب وإن خس . ولم أر بها وجنة حمراء لصبى ولا صبية ، ولا دماً طاهراً ولا قريباً من ذلك . وهى قتالة للغرباء . وعلى أن حماها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب . ووباؤها وحماها فى وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان .

وكل محموم فى الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه وفى بدنه منها بقية ، فإذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة ، إلى أن يعود إلى الخلط وأن يجمع فى جوفه الفساد . وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث كما تعاود أصحاب الحدث ، لأنهم ليسوا يؤتون من قبل النهم ومن قبل الخلط والإكثار ، وإنما يؤتون من عين البلدة .

---

(١) من قطعة أوردها المبرد فى الكامل ص ٦٦٦ ، ليبتسج ١٨٦٤ م .

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ص ١٩٤ ، ط بريل ١٨٨١ م ، وانظر أيضاً فى تعيين موقعها مما حولها : الأعلاق النفيسة لابن رسته ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ط بريل ١٨٩٢ م .

وكذلك جمعت سوق الأهواز الأفاعي فى جبلها الطاعن فى منازلها ، المطل عليها ، والجرارات فى بيوتها ومقابرها ومنابرها . ولو كان فى العالم شيء هو شر من الأفعى والجرارة لما قصرت قصبة الأهواز عن توليده وتلقيحه . وبليتها أنها من ورائها سباخ ومناقع مياه غليظة ، وفيها أنهار تشقها مسايل كنفهم ومياه أمطارهم ومتوضآتهم ، فإذا طلعت الشمس فطال مقامها وطالت مقابلتها لذلك الجبل، قبل — بالصخرية التى فيه — تلك الجرارات، فإذا امتلأت يبساً وحرارة ، وعادت جمرة واحدة ، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم .

وقد تحدث تلك السباخ وتلك الأنهار بخاراً فاسداً ، فإذا التقى عليهم ما تحدث السباخ، وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء. وبفساد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء.

وحدثنى إبرهيم بن عباس بن محمد بن منصور عن مشيخة من أهل الأهواز عن القوابل ، أنهن ربما قبلن الطفل المولود فيجدنه فى تلك الساعة محموماً . يعرفن ذلك ويتحدثن به » [1].

١٤٤ — نطاة خيبر (١٠٤ : ١٧)

وهذا موضع آخر من المواضع الوبئة . وهو قسم من أقسام خيبر ، كل منها يتسمى باسم الحصن القائم فيه ، وقد عد ياقوت أسماء هذه الحصون ، ومنها حصن النطاة . ولعل هذا القسم كان أشهر أقسام خيبر بالوباء . وقد كانت خيبر مشهورة بالحمى ، كما نرى شواهد هذا كثيرة فى الشعر والأمثال . وقد أورد ياقوت طائفة من هذا الشعر [2] وقال الهمذانى : « والناس يقولون : حمى خيبر ، وطواعين الشام ، ودماميل الجزيرة وجرب الزنج ، وطحال البحرين » [3].

١٤٥ — وادى الجحفة (١٠٤ : ١٧)

هو كذلك موضع من المواضع المشهورة بالوباء ، نظراً لموقعه . فهو يقع فى غور تهامة قريباً من البحر ، على الطريق بين مكة والمدينة . وهو ، كما يقول ياقوت ، خراب

---

(١) الحيوان ٤ : ١٤٠ — ١٤٣ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٤٠ م ، وانظر أيضاً : المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٧٠ ، ومعجم البلدان لياقوت ١ : ٣٨٢ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ ، ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذانى ، ص ٧٥-، ١١٦ ، ط بريل ١٨٨٥ م .

(٢) معجم البلدان ٣ : ٤٩٥ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م .

(٣) مختصر كتاب البلدان ، ص ١١٨ ، وانظر لسان العرب : فى كلمة « نطاة » .

لا ساكن به[١] وإن كان اليعقوبى يقول إن به قوماً من سليم [٢] . وقد جاءت الإشارة إلى وبائه فى بعض ما يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مقدمه إلى المدينة ، إذ يقول : « اللهم حبب إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى صاعها ومدها ، وانقل حماها إلى الجحفة » .

١٤٦ ــ الصينيات والصلاحيات (١٠٥ : ١٤)

فسر فان فلوتن الصينيات هنا بالمعنى المتبادر الذى نفهمه منها ، ونطلقها الآن عليه . وفسر الصلاحيات بأنها نوع منها ، وقد تكررت هذه العبارة مرة أخرى فى البخلاء فى سياق كهذا السياق . ويرى فان فلوتن أن حاجة أصحاب الصينيات لهذه الخرق إنما هى من أجل دعكها ، كما هو واضح[٣] . واستعمال الصينيات بهذا المعنى ، فى ذلك الوقت ، صحيح ، فإننا نجدها ، متعينة له فى الأغانى فى أخبار متيم الهاشمية ، فى حديث الهشامى إذ أرسلت إليه مع خادمها « صينية فيها نبق » [٤] .

كما جاءت بصيغة الجمع (الصوانى) فى شعر مسلم بن الوليد ، كما يروى ابن المعتز :

ولا ترى ضاحــكاً بشىء　　أحسن من ضحكة القنانى
إذا تبسمن عن مــدام　　كأنــه مــاء زعفــران
فيحسر الليــل عن دجــاه　　وتطلع الشمس فى الصوانى[٥]

١٤٧ ــ مسجد ابن رغبان (١٠٥ : ١٨)

أحد مساجد بغداد ، وقد ذكره الخطيب فى ذكر نواحى الجانب الغربى من بغداد ، وقال : إنه منسوب إلى عبد الرحمن بن رغبان ، مولى حبيب بن مسلمة[٦] . وأما الجهشيارى فيسميه : حبيب بن عبد الله بن رغبان ، وذكر عنه أنه كاتب شاعر ، وأنه كان يتقلد ديوان العطاء لأبى جعفر المنصور[٧] . كما ذكره العلامة Lestrangs فى الفصل الذى كتبه عن حى باب البصرة[٨] .

---

(١) معجم البلدان ٣ : ٦٢ ، ط السعادة ١٩٠٦ م . (٢) البلدان ، ص ٣١٤ (المجلد السابع من المكتبة الجغرافية) ، طبريل ١٨٩٢م . (٣) البخلاء (طليدن) ص Notes et éclaircissements XV.

(٤) الأغانى ٧ : ٢٩٩ ط دار الكتب المصرية . وانظر معنى كلمة « صلاحية » عند دوزى ، إذ يقول إنها صحن كبير واسع من أعلاه ضيق من أسفله (842 : I) (٥) فصول التماثيل ، ص ٥٣ ، المطبعة العربية ، القاهرة ، ١٩٢٥م. (٦) تاريخ بغداد ١ : ٩١ . (٧) الوزراء والكتاب ص ١٠٢ . وجاء فى الحيوان (٢ : ١٥٦) « مسجد محمد بن رغبان » واكبر الظن أن كلمة محمد هنا مقحمة ، ولا سيما إذ كانت ساقطة فى بعض المخطوطات . (٨) Bagdad, p. 95.

وقد وصف ياقوت مسجد ابن رغبان بقوله : « وكان مشهوراً باجتماع أهل العلم والفضل فيه »[١] .

ويظهر أن أهل البصرة كانوا يفضلون النزول بجوار ذلك المسجد : يستنتج هذا من ذلك النص الذى جاء فى البخلاء[٢] عن الثورى ، وهو : « ... وأما زهده فى رءوس مسجد ابن رغبان فإن البصريين يختارون لحم الماعز الخصى على الضأن كله . ورءوس الضأن أشحم وألحم ، وأرخص رخصاً ، وأطيب . ورأس التيس أكثر لحماً من رأس الخصى » ، فهذا الاحتجاج لرغبته عن رءوس مسجد ابن رغبان برغبته عن رأس الماعز الخصى ، وأن البصريين يفضلون لحم الماعز الخصى ، يدل على أن ناحيه مسجد ابن رغبان كانت حى البصريين ، ومن أجل ذلك كانت ذبائح هذا الحى من الماعز الخصى[٣] .

١٤٨ ــ جعفر بن سعيد (١٠٥ : ١٩)

أحد الذين يحكى الجاحظ عنهم ، كما أنه أحد البخلاء أصحاب أبى عبد الرحمن الثورى . ويؤخذ مما ذكر الجاحظ عنه أنه كان رضيع أيوب بن جعفر ، كما كان حاجباً له ، وأنه كان متصلا بعمرو بن مسعدة وزير المأمون[٤] . وهكذا نرى مبلغ صلته ببيت الخلافة .

وقد حكى الجاحظ عنه حديثاً طويلا ، يطرى فيه الديك إطراء عجيباً ، ويوازن فيه بينه وبين الطاوس ، فى أسلوب يبين لنا مبلغ ما كان لهؤلاء القوم من براعة فى توليد المعانى[٥] . كما حكى عنه فى موضع آخر خبراً عن كسرى ، ساقه ــ كما يقول الجاحظ ــ على سبيل التمليح[٦] . ويظهر أن جعفر بن سعيد كان فكه الروح إلى حد ما . يدل على ذلك هذا الخبر الذى رواه عن كسرى ، كما يدل عليه ملاحظة طريفة أوردها له الجاحظ يقول فيها : إن « الخلاف موكل بكل شىء ، حتى القذاة فى الماء فى رأس

---

(١) معجم البلدان ٤ : ٢٦٥ .
(٢) البخلاء ص ١١١ .
(٣) انظر أيضاً ، من قبيل الاستئناس ، الحيوان ٢ : ١٥٦ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ١٠٠ ــ ١٠١ ط ١٩٣٢ م . (١ : ١٠٦ ط الحلبى) .
(٥) الحيوان ٢ : ٢٤٣ ــ ٢٤٧ .
(٦) الحيوان ٤ : ١٩٤ .

الكوز ، فإن أردت أن تشرب الماء جاءت إلى فيك ، وإن أردت أن تصب من رأس الكوز لتخرج رجعت »[١].

ومن هذا القبيل أبيات له — رواها الجاحظ — يشكو فيها براغيث البصرة[٢].

١٤٩ — أبو يعقوب الأعور (١٠٥ : ٢٠)

هو أبو يعقوب ، إسحاق بن حسان بن قوهى الخريمى ، كما نسبه محمد بن داود بن الجراح وشارح القاموس . وروى الحصرى عن المبرد أنه قال : « كان يعقوب جيد الشعر مقبولاً عند الكتاب ، وله كلام قوى ومذهب متوسط . وكان يرجع إلى نسب كريم فى الصغد . وكان له ولاء فى غطفان . وكان اتصاله بمولاه أبى عثمان المرى الذى يقال له خريم الناعم . وكان أبو عثمان هذا قائداً جليلا وسيداً جليلا »[٣] وبنو خريم هؤلاء هم من آل سنان بن أبى حارثة ، كما يقول الجاحظ ، وقد أورد له بيتين فى مدحهم[٤] وقد لقبه الجاحظ هنا بالأعور ، كما كان يلقب بالأعمى . وقد ذكر عماه فى أبيات صادقة رواها الجاحظ[٥] . وقد عمى — كما يقول محمد بن داود الجراح — فى آخر عمره.

وقد نشأ الخريمى فى مجلس حماد الراوية وحماد عجرد . واتصل فى أول نشأته بهذه الجماعة من الشعراء التى كانت تضم مطيع بن إياس ويحيى بن زياد[٦] . ولعل هذه الصلة كان لها أثرها فى الوجهة الشعرية التى توجهها .

كما اتصل بعد ذلك بكثير من سادة عصره كالفضل وجعفر البرمكيين[٧] ، ولكن لعل أصدق صلاته كان بالحسن بن بجباح البلخى ، وهو كاتب الفضل بن يحيى ، وكان شاعراً أديباً كما يقول الجهشيارى[٨] ، ومما يدلنا على نوع هذه الصلة قصيدة

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٦٩ .
(٢) الحيوان ٥ : ٤٠٨ .
(٣) زهر الآداب ٤ : ٢٠١ . واسم مولاه لعثمان بن عمارة بن خريم لا أبو عثمان ، فما هنا تحريف . انظر : الورقة ، ص ١٠٣ .
(٤) الحيوان ٣ : ٩٤ .
(٥) الحيوان ٣ : ١١٣ .
(٦) الأغانى ٦ : ٨٤ .
(٧) الوزراء والكتاب ص ٢٣٩ ط الحلبى .
(٨) الوزراء والكتاب ص ١٩٤ .

رواها الحصرى ، وكان قد بعثها إليه ، حين تقلد مصر فى أيام موسى الهادى[١] . فأما الصلة التى بقيت عالقة به ، وهى صلته بعثمان بن خريم الناعم ، فيشير إليها ياقوت بقوله : « وكان صحب عثمان بن خريم القائد ، وكان يلى أرمينية ، فسار خاقان الخزر إلى حربه ، وعسكر ابن خريم إزاءه ، وعقد لأبى يعقوب على الصحابة وأشراف من معه ، فكرهوا ذلك » ، وفى هذه المناسبة قال الخريمى شعره الذى يفخر فيه بالصغد[٢] ، والذى نسب من أجله إلى الشعوبية . وقد ظل الخريمى وفياً لعثمان بن خريم ، وظل يذكر عهده ويتحسر عليه ، كما نرى فى تلك الأبيات المبتئسة التى قالها فيه ، فى القصيدة التى قالها يعاتب بها الوليد بن أبان[٣].

وإلى جانب هذه الصداقات التى كان صداها يتردد فى شعره ، كان الخريمى يكابد بعض الخصومات ، فكان يخاصم أبا دلف ويهجوه ، وقد حكى الجاحظ طرفاً من هجائه له[٤] . كما كان يخاصم على بن الهيثم المعروف بجونقا ، وقد أغرى بهجائه — كما يقول ياقوت فى ترجمته له — وهجاؤه له ساخر سخرية لاذعة ، ونجد شيئاً منه فى البيان والتبيين ، والأغانى ، ومعجم الأدباء ، وكتاب الورقة[٥] .

وقد عاش الخريمى إلى أن شهد الفتنة التى كانت بين المأمون والأمين ، وتعرضت بغداد فيها لكثير من ضروب الاضطراب والفساد ، وله فى وصف ذلك قصيدة طويلة من أروع الشعر التصويرى[٦] وكذلك أورد الطبرى بيتين له فيما كان بين محمد بن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربرى ، من قواد الأمين ، وبين أصحاب طاهر بن الحسين ، ولعلهما من قصيدة ضاعت[٧] .

هذا وفى مختصر تاريخ ابن عساكر ترجمة له[٨].

---

(١) زهر الآداب ٤ : ٢٠٢ .
(٢) معجم البلدان ٥ : ٣٦٣ .
(٣) زهر الآداب ٤ : ٢٠٠ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٩٠ .
(٥) البيان ١ : ٧٣ ، الأغانى ١١ : ٣٤٤ ، معجم الأدباء ١٥ : ١٤٠ ، الورقة ، ص ١٠٥ .
(٦) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٨٦ — ١٨١ ، ط الحسينية المصرية . (٧ : ٥٢ — ٥٧ ط الاستقامة ١٩٣٩)
(٧) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٦٩ .
(٨) ٢ : ٤٣٤ .

١٥٠ ـ عبد الأعلى القاص (١٠٦ : ١٤)

أحد القصاص الذين كانوا يحترفون القصص فى عهد الجاحظ ، وقد وصفه بقوله : إنه « كان لغلبة السلامة عليه يتوهم عليه الغفلة »[١] ثم أورد بعد ذلك طرفاً من طرائفه

١٥١ ـ السلوقى (١٠٦ : ١٥)

الكلب السلوقى هو نوع خاص من الكلاب ، معروف بذلك الاسم من قبل هذا العهد بكثير . وقد ورد فى شعر القطامى ، إذ يقول :

معهم ضوار من سلوق كأنها حصن تجول تجرر الأرسانا

ويقول ياقوت إن سلوق هذه قرية بأرض اليمن ، ثم ينقل عن ابن الفقيه أنها مدينة اللان (وهى بأطراف أرمينية) . وفى كلامه عن « سلوقية » التى على الساحل عند أنطاكية يقول : « قلت أنا : ولعل السيوف السلوقية والكلاب السلوقية منسوبة إليها »[٢].

وذكر القزوينى فى كلامه عن الحيوانات المركبة ما يتولد بين الذئب والكلب ، ويقال له : الديسم ، ثم قال : « قيل إن الكلاب تسفدها الذئاب فى أرض سلوق باليمن ، فيتولد منها الكلاب السلوقية »[٣] .

وقد عرض الجاحظ للكلاب السلوقية حين أخذ فى الكلام عن أصناف الكلاب ، فقال : « والكلاب أصناف لا يحيط بها إلا من أطال الكلام ، وجملة ذلك أن ما كان منها للصيد فهى الضراء ، وواحدها ضروة ، وهى الجوارح والكواسب ، ونحن لا نعرفها إلا السلوقية ، وهى من أحرار الكلاب وعتاقها . . . وقد تصيد الكلاب غير السلوقية ، ولكنها تقصر عن السلوقية بعيداً »[٤].

وإذا كانت السلوقية عند الجاحظ هى خير كلاب الصيد ، فإننا نستطيع أن نعتبر فيها الصفات التى ذكرها فى الفصل الذى عقده ، فى « صفة ما يستدل به على

---

(١) الحيوان ١ : ١٠٧ ، وانظر طرفاً آخر من طرائفه فى ٥ : ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) معجم البلدان ٥ : ١١٥ .

(٣) عجائب المخلوقات (هامش حياة الحيوان للدميرى) ٢ : ٣٢٧ .

(٤) الحيوان ١ : ٣١١ — ٣١٢ .

فراهية الكلاب وشياتها »[١].

وقد جاء ذكر الكلاب السلوقية في الحيوان ، في موضع آخر ، في سياق الحديث عن أعاجيب بعض الحيوان : « وزعم صاحب المنطق أن الكلاب السلوقية كلما دخلت في السن كان أقوى لها على المعاظلة ، وهذا غريب جداً »[٢].

فإذا صح هذا النص كان ذلك خاصة فريدة من خواص الكلاب السلوقية . ولكن صاحب المنطق لم يقل شيئاً عن الكلاب السلوقية ، وإنما قال هذا أو قريباً منه عن كلاب لقونة Laconie في بلاد البلوبونيز ونص عبارته كما جاء في ترجمة سنتلير Siant-Hilaire : « ولكلاب لقونة صفة خاصة ، وهي أنها حين يرهقها التعب تكون أقوى على المعاظلة من تلك التي لم تعمل شيئاً »[٣]. فهناك إذن شيء من الخلاف ، ولكن الذي يعنينا هنا هو أن « لقونة » عند أرسطو صارت في الحيوان الذي بين أيدينا « السلوقية » ، ولا ندري أهو تحريف النساخ أم خطأ المترجمين .

١٥٢ ــ المزملة (١١٣ : ٤)

المزملة كمعظمة هي ــ كما جاء في القاموس ــ التي يبرد فيها الماء . وقد جاء ذكرها في مقامات الحريري ، في المقامة النجرانية ، وتعرض الشريشي لها ، فوصفها بقوله : « آنية يبرد فيها الماء شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق ، وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتغشى بجلد أو ثوب مزين حسن لنظر العين . . . وهم يجعلون تحتها مرفعاً من عود أو حديد ترتفع به عن الأرض »[٤].

وكذلك وصفها أبو الفتح المطرزي وصفاً يختلف في بعض التفصيلات ، فقال : « المزملة عند البغداديين جرة أو خابية خضراء ، في وسطها ثقب مركب فيه قصبة فضة أو رصاص يشرب منها ، سميت بذلك لأنها تزمل ، أي تلف بشيء من الخيش أو غيره ، ويجعل فيما بينه وبين خزفها التبن ، تكون في دورهم أيام الصيف ، يبرد الماء

---

(١) الحيوان ٢ : ٤٥ – ٤٨ .

(٢) الحيوان ٣ : ٥٣٣ .

(٣) 2 : 360.

ويمكن أن يراجع عن الكلاب السلوقية عند علماء الحيوان اليوم ما عرض له من ذلك أحمد تيمور باشا في كتابه « أبو العلاء المعري » ص ٣٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.

(٤) شرح مقامات الحريري ٢ : ٢٩١ .

ليلا بالبرادات ، ثم يصب فى هذه المزملة فيبقى بارداً »[١].

١٥٣ ـ عتاب بن أسيد (١١٤ : ١٢)

هو عتاب بن أبى العيص بن أمية . صحابى أموى ، أسلم يوم فتح مكة ، فاستعمله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على مكة ، وظل والياً عليها ، إلى خلافة أبى بكر ، فأقره « فماتا جميعاً لم يعلم واحد منهما بموت صاحبه » . وقد كان فى ولايته متحرجاً ، روى عنه أنه قال : « ما أصبت من عملى إلا ثوبين معقدين كسوتها غلامى كيسان »[٢].

١٥٤ ـ المحلول (١١٩ : ١٢)

يذكر هنا أنه مولى تمام بن جعفر ، وقد جاء ذكره فى الحيوان وفى البيان والتبيين[٣] بما لا طائل فيه . ولعله ــ كما قد يؤخذ من خبر البيان والتبيين ــ كان صيرفياً .

١٥٥ ـ الجواف (١٢٠ : ١٣)

نوع من السمك ، ذكره الجاحظ فى الحيوان فى عداد قواطع السمك ، كالاسبور والترستوج : « فإن هذه الأنواع تجئ دجلة البصرة من أقصى البحار ، تستعذب الماء فى ذلك الإبان ، كأنما تتحمض بحلاوة الماء وعذوبته ، بعد ملوحة البحر » . وهى تقبل مرتين فى السنة فى أشهر معروفة ، لكل صنف منها إبانه[٤].

١٥٦ ـ الخريبه والباطنة (١٢١ : ٨)

حيان من أحياء البصرة . أما الخريبة فكانت قبل تمصير البصرة مسلحة للأعاجم ، فكان سويد ابن قطبة (أو قطبة بن قتادة) يغير فى ناحيتها ، إلى أن فتحها خالد بن

---

(١) الإيضاح فى شرح مقامات الحريرى ، مخطوط فى مكتبة بلدية الإسكندرية ، برقم ٤٧٥ ج .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ، القسم الثانى من الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، ط الجامعة العبرية ، القدس .

(٣) البيان ٣ : ١٩٦-١٩٧ ط ١٣٣٢هـ (٤ : ٢٥ - ٢٦ ط لجنة التأليف) ، الحيوان ١ : ٢٤٣ .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٩٥ ، ٤ : ١٠١ .

الوليد ، وأخلاها من الأعاجم الذين كانوا فيها ، ثم نزل المسلمون بعد ذلك موضع البصرة [١] . وهى جزء كبير من البصرة ، فقد ذكر البلاذرى أنها كانت تكون دسكرتين من السبع الدساكر التى كانت البصرة مؤلفة منها . وقال حمزة : إن موضع الخريبة كان مدينة عتيقة من مدن الفرس ، وكانت تسمى وهشتاباذأردشير فخربها المثنى بن حارثة الشيبانى بشن الغارات عليها ، فلما قدمت العرب البصرة سموها « الخريبة »[٢] .

وقد جاءت كلمة « الخريبة » فى نشرة فان فلوتن وما تابعها من الطبعات مصحفة إلى « الحربية » ، وهذا تصحيف قريب، ولكنه من أشد التصحيفات إيغالاً فى الخطأ . فالخريبة فى البصرة ، والحربية فى بغداد ، ولم تكن بغداد أسست بعد فى زمن هذه القصة التى حدثت لابن المقفع ، وقد قتل سنة ١٤٢ .

وأما الباطنة فلم يذكرها ياقوت ولا غيره من كتب البلدان التى وقعت لنا . ولكن جاء فى لسان العرب قوله : « والباطنة من البصرة والكوفة مجتمع الدور والأسواق فى قصبتها ، والضاحية ما تنحى عن المساكن وكان بارزاً » .

١٥٧ ـ المازح والمدبر (١٢٢ : ١٢)

موضعان قرب الرقة ، أنزل بهما معاوية ــ حين كان والياً على الشام والجزيرة من قبل عثمان ــ أخلاطًا من قيس وأسد، تنفيذاً للقاعدة التى وضعها عثمان ، على ما جاء فى معجم البلدان ، وهى أن ينزل العرب مواضع نائية عن المدن والقرى ، ويؤذن لهم فى اعتمار الأرضين التى لا حق لأحد فيها . والذى فى معجم البلدان « المازحين » لا « المازح » ولعل فى الأمر تحريفاً أو تخفيفاً[٣].

١٥٨ ـ الخشكنان (١٢٢ : ١٢)

اكتفى الجواليقى بأن قال : إن العرب قد تكلمت بها ، واستشهد لهذا ببيت من الرجز :

يا حبــذا الكعك بلحم مثرود وخشــكنان وسويق مقنــودا[٤]

(١) فتوح البلدان ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

(٢) معجم البلدان ٣ : ٤٢٦ ، وانظر : Christensen, *Iran sous les Sassanides*, p. 91.

(٣) معجم البلدان ٧ : ٣٦٢ .

(٤) المعرب من الكلام الأعجمى ص ١٣٤ .

وكذلك صنع الخفاجى ، قال : إنه معروف ، تكلمت به العرب قديماً[١] ، والذى يؤخذ من السياق هنا أنه نوع من الكعك يحشى بالجوز والسكر . وكذلك يفسر دوزى الكلمة : « خشكنانج » فيقول : إنه نوع من الخبز المصنوع بالزبد والسكر والجوز والفستق ، ويكون على هيئة الهلال[٢].

١٥٩ ــ أبو القماقم (١٢٤ : ٨)

ذكره المبرد ، فقال إنه أبو القماقم بن بحر السقاء[٣] ، كما ذكره الحصرى كذلك بهذا الوصف [٤] ويظهر أن كنيته هذه جاءت من ناحية السقاية التى كان يمتهنها . والقماقم جمع قمقم ، وهو نوع من الجرار . كما رأينا ــ فيما سبق ــ فى السدرى أنه كان يكنى بأبى نبقة ، لأنه كان يمتهن طحن السدر وبيعه ، وهو ورق النبق .

والنوادر التى ذكرت عنه فى الكامل وجمع الجواهر هى من قبيل ما ذكر عنه هنا ، كأنه كان مشهوراً بهذا النوع . وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين نادرة أشبه بأن تكون لأبى القماقم هذا ، ولكن اسم صاحبها أبو القمقام [٥] ، فلعله هو .

١٦٠ ــ الابلة (١٢٥ : ٦)

مدينة قديمة من مدن الخليج الفارسى ، وكانت من المدن التى عنى بتحصينها كما ذكرنا مثل ذلك فى الخريبة . وهى تقع ــ كما يقول ياقوت ــ على شاطئ دجلة البصرة فى زاوية الخليج . ويخرج منها نهر ــ يسمى نهر الأبلة ــ يضرب إلى البصرة . ولعل هذا النهر هو الذى يقصده الجاحظ هنا بأنه كان يمد ويجزر . وقد كان هذا النهر من أجمل المنازه المشهورة ، حتى كان الأصمعى يقول : جنان الدنيا ثلاثة : غوطة دمشق ،

---

(١) شفاء الغليل ، ص ٧٦ .

(٢) Supplément aux Dictionnaires Arabes 1:373.

(٣) الكامل ٢ : ٢٢٩ .

(٤) جمع الجواهر ، ص ١٦٠ .

(٥) ٣ : ١٩٣ . (٤ : ١٩ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠) .

ونهر بلخ ، ونهر الأبلة[١] . وقد كانت تحف به القصور والحدائق ، كما نرى صورة من ذلك فى شعر التنوخى [٢].

أما أهل الأبلة فقد صورهم الجاحظ هنا تصويراً طيباً ، فى بخلهم وتقديرهم المبالغ فيه للثروة .

١٦١ ـ أحمد بن الخاركى (١٢٥ : ١٨)

هو أحمد بن إسحاق، ترجم له محمد بن داود بن الجراح ، فقال عنه: « بصرى شاعر كثير الشعر هاجى الفضل الرقاشى هجاء كثيراً » ، ثم أورد طائفة من مقطوعاته الشعرية ، بعضها فى الهجاء ، وبعضها فى صفة الخمر[٣] .

وهو منسوب إلى خارك : « جزيرة من جزر البحر الفارسى ، يقابلها فى البر جناية ، ومهروبان ، تنظر هذه من هذه للجيد النظر »[٤] ويقول النويرى إنها عامرة آهلة ، وبها مغاص للؤلؤ[٥].

وابن الخاركى هذا شاعر من شعراء عصر المأمون ، كما يقول ياقوت عنه ، وقد ذكره الجاحظ فى غير موضع[٦] ، وليس فيها إلا ما يدل على أنه كان رجلا تافهاً ضيق الأفق ، سريع التصديق ، ضعيف النظر .

١٦٢ ـ ابراهيم بن هانىء (١٢٦ : ١٦)

الأخبار التى لدينا عنه لا تكاد تؤدى إلينا إلا وجهاً واحداً من وجوه صورته ، ومهما يكن من أمر فيظهر أن هذا الوجه كان أبرز هذه الوجوه ، وهو أنه كان رجلا معروفاً بالمجون والعبث فى الحديث ، وقد وصفه الجاحظ بهذا فى سياق عبارة رواها عنه ، وقد ساقها مساق الهزل ، عن الصفات التى اقترنت فى أذهان الناس عن الزامرة والقاص والمغنى والخمار ، حتى كأنها أصبحت من تمام آلتهم ، فقال الجاحظ عنه : « وكان ماجناً

---

(١) انظر معجم البلدان فى : الابلة ، البصرة ، سندان ، نهر الاجانة ، وانظر فتوح البلدان ص ٣٥١ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ١١ : ٢٦٠ ، ط دار الكتب المصرية ، وانظر أيضاً فى صفة الابلة ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، ص ٤١٧ ط الظاهرة ، ١٩٠٨ م .

(٣) الورقة ، ص ٥٨ — ٦٠ ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

(٤) معجم البلدان ٣ : ٣٨٧ .

(٥) نهاية الأرب ١ :

(٦) الحيوان ٢ : ١٩٣ ، ٥ : ١٧٨ ، ٦ : ١٤٧ ط الحلبى .

خليعاً كثير العبث متمرداً »[١] كما روى عنه فى موضع آخر عبارة عقبها بقوله : « وهذا مما يعد فى مجون ابن هانئ »[٢] . وهكذا نرى مبلغ شهرته بهذه الناحية .

وقد حكى الجاحظ حديثاً طريفاً جرى بينه وبين أبى إسحاق النظام ، تظهر فيه هذه الناحية ، قال : « وكان إبراهيم لا يقيم شعراً . . . وكان يدعى بحضرة أبى اسحاق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون ، وأنه يقول الشعر ، فقال أبو إسحاق : نحن لم نمتحنك فى هذه الأمور ، فلك أن تدعيها عندنا . كيف صرت تدعى قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته ؟ قال : فإنى هكذا طبعت ! أن أقيمه إذا قلت ، وأكسره إذا أنشدت . قال أبو اسحاق : ما بعد هذا الكلام كلام »[٣].

والذى يخيل إلينا أن إبراهيم بن هانئ كان كاتباً . وقد أورد له صاحب العقد فقرات فى وصف التفاح ، هى أشبه بأسلوب الكتاب[٤].

وهناك فى المحدثين من يسمى إبراهيم بن هانئ ، ولكنا نراه شخصاً آخر[٥].

١٦٣ ــ الدرياجة (١٢٩ : ١١)

هذه إحدى الكلمات التى لم تعن المعاجم بتدوينها . وقد شرحها السيد سليمان فيضى الموصلى نزيل البصرة ، فى كتاب كتبه إلى صديقه الدكتور داود الجلبى ، وقد نشر خلاصته ، وننقل هنا ما يتعلق بهذه الكلمة . قال : « استفادة من وجود المد والجزر فى البصرة يفصل صيادو السمك قسما صغيراً من الماء مما يلى الشاطئ بالقصب أو بجريد النخل ، على هيئة قوس طرفه الأسفل متصل باليابسة ، وطرفه الأعلى منفصل عنها بمقدار قليل ، ليمكن السمك من الدخول مع الماء أثناء المد . ويعبرون عن ركز القصب أو الجريد ، بهذه الصورة ، بالتسكير ، بمعنى السد ، ويسمون القسم المحصور بين السكر والشاطئ درياجة ، وهى البحيرة بالفارسية »[٦].

وهذا الشرح يتفق مع سياق الكلمة فى النص . أما تفسيره للشلابى بذلك النوع من

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٢ ط ١٣٣٢ هـ . (١ : ٩٣ – ٩٤ ، ط لجنة التأليف ، ١٩٤٨) .
(٢) الحيوان ٤ : ١٥٣ ط الحلبى .
(٣) الحيوان ٣ : ١١٠ .
(٤) العقد الفريد ٤ : ٢٩١ ط ١٣٣٢ هـ .
(٥) انظر تاريخ بغداد ٦ : ٢٠٤ ، لسان الميزان ١ : ١١٨ .
(٦) مجلة المجمع العلمى العربى ٢٠ : ٧ – ٨ (تموز وآب ١٩٤٥) ص ٣٥١ .

الشباك ، وافتراض كلمة « الرمان » محرفة عن « الأوهار » وهو نوع آخر من الشباك ، فلا حاجة إليه ، إذ كان السياق يرجح أن المراد بالشلابى والرمان نوعان من السمك ، وقد ذكرهما المقدسى فى كتابه بين أنواع السمك الدجلية بالبصرة ، وهى — كما يقول — أربعة وعشرون ، غير أن الكلمة التى تناظر فى نص المقدسى كلمة « الرمان » جاءت بهذه الصورة : « الرماين » ، فلعل إحداهما محرفة عن الأخرى[1].

١٦٤ — محمد بن الجهم (١٣٥ : ١٨)

هو محمد بن الجهم البرمكى . ولعل هذه النسبة جاءته من أنه كان قد تربى فى ظلهم . وقد اتصل بالخليفة المأمون ، وكان يحضر مجالسه ، ويجادل الزنادقة فى حضرته[2]. وقد ولاه بعض الولايات .

وكان من المنصرفين إلى الثقافة اليونانية الممثلين لها . يقول عنه ابن قتيبة : « ثم نصير إلى محمد بن الجهم البرمكى ، فنجد مصحفه كتب أرسطاليس فى الكون والفساد والكيان وحدود المنطق بها يقطع عمره » [3] . والجاحظ يعده فى الأطباء من فلاسفة المتكلمين ، كمعمر وإبراهيم بن السندى[4] ويذكره صاعد الأندلسى فيمن اشتهر بعلم النجوم الطبيعى[5] ، كما يشير الجاحظ إلى معرفته بالهندسة وكتاب اقليدس ، وقد روى عنه فى هذا الموضع كثيراً مما يدل على نهمه فى القراءة ، وحرصه على المعرفة[6].

وقد كان متصلا — فيما يظهر — بأبى يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى ، وقد كتب الكندى له بعض الرسائل[7].

ثم هو بعد هذا معدود فى البخلاء ، من صنف سهل بن هارون ، وكان كز العاطفة ، أنانى المذهب . يصفه ثمامة بن الأشرس بقوله : « لم يطمع أحداً فى ماله ، إلا ليشغله بالطمع فيه عن غيره . ولا شفع لصديق ، ولا تكلم فى حاجة متحرم به ، إلا ليلقن

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٣١ ط بريل ١٠٦ .
(٢) الحيوان ٤ : ٤٤٢ ط الحلبى .
(٣) تأويل مختلف الحديث ، ص ٦٠ .
(٤) الحيوان ٢ : ١٤٠ .
(٥) طبقات الأمم ص ٦٩ .
(٦) الحيوان ١ : ٥٣ — ٥٤ .
(٧) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ : ٢١٢ .

المسؤول حجة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان [١]» .

ويؤثر عنه في الحرص والمغالاة في المال أقوال كثيرة ، أورد بعضها ابن قتيبة في عيون الأخبار [٢] والحصري في زهر الآداب [٣] ، والشريشي في شرح مقامات الحريري [٤] . وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث : « وذكر رجل من أصحاب الكلام عنه أنه أوصى عند وفاته ، فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : الثلث والثلث كثير ، وأنا أقول : إن ثلث الثلث كثير . والمساكين حقوقهم في بيت المال ، إن طلبوه طلب الرجال أخذوه ، وإن قعدوا عنه قعود النساء حرموه ، فلا رحم الله من يرحمهم » [٥] وقد تكون هذه العبارة من تحامل ابن قتيبة عليه ، ولكنها — فيما أحسب — تشبهه .

١٦٥ — المعينون (١٣٧ : ٢)

يصف الجاحظ أبا سعيد المدائني بأنه كان من كبار « المعينين » ومياسيرهم ، وأنه كانت له حلقة يقعد فيها أصحاب « العينة » . وقد جاءت كلمة « المعينين » مهملة ، كما جاءت كلمة « العينة » مصحفة ، على الوجه الذي بيناه في النص ، فقرأها فان فلوتن « المغتنين » و « الغنية » ، على نبوهما واضطراب السياق وروح المعنى بهما . واقترحنا في موضعهما ما أثبتناه في النص ، مما يساير روح القصة مسايرة تامة .

والعينة تطلق على نوع من المعاملات المالية ، فهي تطلق إطلاقاً عاماً على الربا — كما في اللسان — يقال : عين التاجر ، أخذ بالعينة أو أعطى بها ، كما تطلق على السلف ، يقال : تعين عينة وعينه إياها . وتطلق إطلاقاً أخص من هذا ، وهو — كما شرحه مجد الدين ابن الأثير — أن يبيع الرجل سلعة بثمن معلوم ، إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به . فإن اشترى ، بحضره طالب العينة ، سلعة من آخر بثمن معلوم ، وقبضها ، ثم باعها المشترى من البائع الأول بالنقد ، بأقل من الثمن ، فهذه

---

(١) عيون الأخبار ٣ : ١٣٨ .
(٢) ٢ : ٤ ، ٣٤ و ٣ : ١٧١ .
(٣) ٣ : ٢٤٦ .
(٤) ٢ : ٣٢٤ .
(٥) ص ٦١ .
وانظر الفصول التي نشرناها من آثار الجاحظ في مجلة الكاتب المصري ، المجلد الخامس ، ص ٥٥ — ٦٢ (فبراير سنة ١٩٤٧) .

أيضاً عينة . وهى أهون من الأولى . وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة ، لأن العين هو المال الحاضر من النقد ، والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة ، تصل إليه معجلة(١).

وهذا النوع من المعاملات المالية كان معروفاً فى البصرة منذ القرن الأول . وقد ذكر الميدانى قول المهلب بن أبى صفرة : « إياك والعينة ، فإنها لعينة ، » ثم حكى عن المهلب أنه قال : « ولقد تعينت مرة أربعين درهماً ، فلم أتخلص منها إلا بولاية البصرة »(٢).

وأما المعينون « فهم الذين اتخذوا "العينة" حرفة لهم ، كأبى سعيد المدائنى هذا . وقد جاء فى اللسان : « وعين التاجر أخذ بالعينة أو أعطى بها » .

١٦٦ – ثوب بن شحمة العنبرى (١٣٧ : ٨)

شخصية جاهلية ، عاصر حاتماً الطائى ، ويذكر الجاحظ فى موضع آخر أنه أسره ، وظل عنده زماناً ، ويصفه فى هذا الموضع بقوله : « وكان ثوب هذا أكرم نفساً عندهم من أن يطعم طعاماً خبيثاً ، ولو مات عندهم جوعاً »(٣) ، ويذكر فى موضع غير هذا أنه كان يلقب بمجير الطير(٤) . ويفسر الثعالبى هذا بقوله : إنه كان « سيداً شريفاً قد أجار الطير فكان لا يثار ، ولا يصاد بأرضه ، فسمى مجير الطير »(٥).

١٦٧ – رافع بن هريم (١٣٧ : ١٤)

شاعر جاهلى قديم ، لا نكاد نعرف عنه إلا ما ذكره عنه أبو عبيد البكرى ، إذ يقول : « هو رافع بن هريم بن سعد ، يربوعى ، شاعر قديم . قال أبو زيد فى نوادره :

---

(١) النهاية فى غريب الحديث ، ٣ : ١٦٤ ، ط الخيرية .
(٢) مجمع الأمثال للميدانى ، ١ : ٩٢ ، ط ١٣٥٢ هـ .
(٣) البخلاء ص ٢٣٦ وانظر الحيوان ١ : ٢٦٩ ، ٣٨٣ .
(٤) البخلاء ص ٢٣٠ .
(٥) ثمار القلوب ص ٣٥٥ ، وقد جاء الاسم مصحفاً فيه إلى « ثور » . وانظر قاموس الفيروزبادى مادة « ث و ب » .

أدرك الإسلام »[١] كما لا نعرف من شعره إلا هذه الأبيات التي رواها له أبو علي :

وصاحب السوء كالداء الغميض إذا يرفض في الجوف يجرى هاهنا وهنا
يبدى ويظهر من عورات صاحبه وما رأى من فعال صالح دفنا
كمهر سوء إذا سكنت سيرته رام الجماح ، وإن رفعته سكنا
إن عاش ذاك فأبعد عنك منزله أو مات ذاك فلا تقرب له جننا[٢]

١٦٨ ـ اشكنج (١٤٣ : ٤)

الإشكنج هو ـ كما يشير السياق ـ قطع الطوب والآجر المكسر . وقد كتب إلى أحد أفاضل العراقيين من أهل بغداد أن الكلمة لا تزال مستعملة بهذا المعنى هنالك ، وأن لفظها هو بالكاف الفارسية إشنكنك .

١٦٩ ـ الكلاء (١٤٥ : ٨)

تطلق كلمة « الكلاء » أولا على مرفأ السفن ، ثم أصبحت تطلق على أحد مواضع البصرة القريبة من البحر ، والتي كان موقعها هذا يتيح لها أن تكون سوقًا بحريًا . وقد ذكرها ياقوت بقوله : « اسم محلة مشهورة وسوق بالبصرة أيضًا »[٣] . كما جاء ذكرها في حديث أنس ، وذكر البصرة : « إياك وسباخها وكلاءها »[٤] . وجاءت أيضًا في قصيدة مسلم بن الوليد التي قالها في البصرة ، وذكر فيها طائفة من محلاتها ومواضعها كالحريبة والعتيك والمربد . قال :

ضللت في فرضه الكلاء مكتئباً أبكى عليها بعين دمعها سرب[٥]

وعندنا أنها هي المقصودة في هذا البيت الذي يورده صاحب اللسان في مادة « بدا » :

بحضرى شاقه بداؤه لم تلهه السوق ولا كلاؤه[٦]

---

(١) اللآلى ص ٨٠٠ .
(٢) الأمالى ٢ : ١٨٢ .
(٣) معجم البلدان ٧ : ٢٦٨ ط السعادة ، ١٩٠٦ .
(٤) النهاية في غريب الحديث ٤ : ٣٢ ط الخيرية ، ١٣٢٢ .
(٥) ديوان مسلم بن الوليد ص ١٧٧ ط بريل ١٨٧٥ .
(٦) لسان العرب ١٨ : ٧٢ ، وينبغى أن تضبط « كلاؤه » بتشديد اللام .

١٧٠ ـ الأنفاق وزيت الماء (١٤٧ : ٣)

نوعان من الزيت . فأما الأنفاق فقد ذكره ابن البيطار ، فقال : إنه « الزيت المعتصر من الزيتون الفج الذى لم يكمل نضجه »(١) ثم أعاد ذكره فى موضع آخر ، بذكر خصائصه (٢) . وقد ذكر الأب أنستاس الكرملى أن كلمة « أنفاق » تنظر إلى الكلمة اليونانية : Ομφάχιον (٣) .

وقد عرض له صاحب اللسان فى مادة (ف و ق) فقال : « والفاق البان ، وقيل الزيت المطبوخ . قال الشماخ يصف شعر امرأة :

قامت تريك أثيث البنت منسدلا   مثل الأساود قد مسحن بالفاق

قال بعضهم : أراد الأنفاق ، وهو الغض من الزيت » :

وأما زيت الماء فلم أجد فيه نصاً صريحاً ، ولعل المراد به ما دخل الماء فى صناعته ، أو ما خلط بالماء . وقد روى ابن قتيبة عن عمر بن الخطاب قوله : « عليكم بالزيت ، فإن خفتم ضرره فأثخنوه بالماء ، فإنه يصير كالسمن »(٤).

١٧١ ـ أسد بن عبد الله (١٤٧ : ٧)

هو أخو خالد بن عبد الله القسرى ، الذى سبق الكلام عليه . وقد ولى خراسان فى عهد ولاية أخيه على العراق ، أيام هشام بن عبد الملك . واستطاع أثناء هذه الولاية أن يخمد ثورات قام الترك بها(٥) ، ولكن أبرز ما حدث فى عهده هو ابتداء الدعوة العباسية ، وكان شديداً على الدعاة ، قاسياً فى الأخذ على أيديهم ، حتى ليمكن القول أن الدعوة لم تظفر بالعمل المطلق إلا بعد موته سنة ١٢٠ ، وكان موته فى بلخ .

١٧٢ ـ خالد بن صفوان (١٤٧ : ١٦)

خطيب من الطراز الأول ، من خطباء العصر الأموى ، وعاش إلى أن أدرك أبا

(١) مفردات ابن البيطار ١ : ٦٦ .
(٢) ١ : ١٧٥ .
(٣) كتاب نشوء اللغة ، ص ٤٨ . وانظر اللسان فى مادة « فوق » ، ١٢ : ١٩٧ .
(٤) عيون الأخبار ٣ : ٢٩٩ .
(٥) فتوح البلدان للبلاذرى . ص ٤١٧ .

أبا العباس السفاح ، ومات فى عهده .

وهو من أسرة تميمية بصرية ، من بنى منقر[١] ، عرفت بالخطابة وبرزت فيها . فكان جده عبد الله بن الأهتم خطيباً ، وكذلك أبوه صفوان بن عبد الله . وقد عد الجاحظ من هذه الأسرة أكثر من عشر شخصيات كان لهم فى الخطابة مكان ملحوظ[٢] منهم شبيب بن شيبة ، صديق خالد وزميله فى المحافل . والجاحظ يجمع بينهما فيقول : « وما علمت أنه كان فى الخطباء أحد أجود خطباً من خالد ابن صفوان وشبيب بن شيبة ، للذى يحفظ الناس ، ويدور على ألسنتهم ، من كلامهما . وما علمنا أن أحداً ولد لهما حرفاً واحداً »[٣].

والجاحظ يظهر إعجابه بخالد بن صفوان فى مناسبات كثيرة ، وهو يصفه بأنه من الخطباء المشهورين فى العوام والمقدمين عند الخواص ، ويورد له كلاماً عرض فيه بأهل اليمن فى مجلس أمير المؤمنين أبى العباس ، ثم عقب عليه بقوله : « فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام ، إنه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد ، ولئن كان هذا شيئاً حضره حين حرك وبسط ، فما له نظير فى الدنيا . فتأمل هذا الكلام ، فإنك ستجده مليحاً مقبولا ، وعظيم القدر جليلا ، ولو خطب اليمانى بلسان سحبان بن وائل حولا كريتا ، ثم صك بهذه الفقرة ما قامت له قائمة»[٤] .

ومهما يكن من أمر فالذى يبدو لنا أن خالد بن صفوان يمثل الخطابة حين صارت صناعة تلتمس لها الأسباب ، وكان أعظم أسبابها فى ذلك الوقت الرواية والدراسة ، وكان خالد ممن يتدارسون الأخبار والآثار والأشعار[٥] ، كما كان يأخذ نفسه بالرواية ، فكان يروى خطب الخطباء المشهورين قبله ، ومن هؤلاء الذين كان يروى خطبهم جده عبد الله بن الأهتم[٦]. ويدل على ذلك عنده ما يتحدث به هو عن نفسه ، فى عقب خطبة من خطب الصلح ، تكلم بها أعرابى « فى بت » ، فأجاد فيها ، فقال لرجل من منقر أنكر أن يبذ هذا الأعرابى خالداً : « كيف نجاريهم ، وإنما نحكيهم ، وكيف

(١) انظر ما كان يقال فى أصل آل الأهتم أنه من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت فى منقر من الروم (الكامل للمبرد ٣ : ١٩٩) .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٣) ١ : ٢٥٣ .

(٤) ١ : ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٥) ١ : ١٥١ .

(٦) ٢ : ٩٥ .

نسابقهم ، وإنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم »[١] وبذلك كان خالد يلحن على بلاغته . وقد عده الجاحظ فى اللحانين البلغاء[٢] .

وللمدائنى كتاب يذكر فى فهرست كتبه اسمه « كتاب خالد بن صفوان »[٣] لعله جمع فيه أخباره وآثاره . وكذلك لأبى أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلوذى[٤].

١٧٣ - زياد بن جرير (١٤٩ : ٣)

جاء فى نشرة « فان فلوتن » زياد بن جديد ، تصحيحاً لما فى الأصل : « جدين » ، ولا نعرف أحداً بهذا الاسم ، وإنما هو زياد بن جرير بن عبد الله البجلى . وقد ذكره الطبرى بأنه كان أعور[٥] ، ولعل هذا هو أصل الإشارة فى كلام المغيرة الثقفى ، كما ذكره فى حوادث سنة ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ : أنه كان على حرب الكوفة من قبل الحجاج ابن يوسف .

١٧٤ - زياد بن عبيد الله الحارثى (١٤٩ : ٧)

هو زياد بن عبيد الله بن عبد الله المدان الحارثى ، كما نسبه الطبرى ، وهو خال الخليفة أبى العباس السفاح ، إذ كانت أمه ريطة بنت عبيد الله الحارثى .

وقد ولاه أبو العباس على المدينة ومكة والطائف واليمامة ، عقب موت داود بن على أميرها ، كما ولى ابن عمه محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثى على اليمن . وبذلك اجتمعت جزيرة العرب لأخوال الخليفة من الحارثيين .

وقد بدأ زياد عمله بأن أرسل أبا حماد الأبرص إلى اليمامة ، لقتال المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان بها هو وأصحابه ، فقتل وقتلوا . وبذلك استطاع أن يشارك مشاركة ما فى تصفية الجو للدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها .

وقد بقى زياد فى هذه الولاية من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٤١ ، فعزل عنها ، وقد عزله

---

(١) ١ : ١٥٤ .
(٢) ٢ : ١٧٤ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٥١ .
(٤) ص ١٦٧ .
(٥) تاريخ الأمم والملوك ٢ : ١١٣٧ ط أوربا .

أبو جعفر المنصور بسبب من فتنة محمد وإبراهيم ابنى عبيد الله بن حسن[١] .

١٧٥ ـ أشعب (١٤٩ : ٨)

هو أبو العلاء ، أشعب بن جبير ، مدنى من أصحاب النوادر . أدرك عثمان ، ويقال إنه كان مولاه . ويروى الهيثم بن عدى عنه أنه قال : « كنت ألتقط السهام فى دار عثمان إذ حصر . قال : فلما جرد مماليكه السيوف ليقاتلوا ، فقال عثمان من أغمد سيفه فهو حر ، قال أشعب : فما هو والله إلا أن وقعت فى أذنى فكنت أول من أغمد سيفه ، فأعتقت » .

وقد أجمل أبو عبيد وصفه فى قوله : « وكان أشعب أزرق أحول أكشف أقرع ألثغ ، وكان لا يبين الراء ولا اللام ، يجعلهما ياء . وكانت فيه خلال حميدة : كان حسن الصوت بالقرآن ، وربما صلى بهم ، وكان أطيب أهل زمانه عشرة ، وأكثرهم نادرة ، وأحسن الناس أداء لغناء سمعه ، وأقوم أهل دهره بحجج المعتزلة ، وكان امرأ منهم »[٢] .

وقد كان سراة المدينة يستطيبونه لنوادره وحسن غنائه ، كمصعب بن الزبير ، وعبد الله ابن مصعب .

ووفد فى آخر حياته إلى بغداد ، روى الخطيب عن الأصمعى أنه قال : « حدثنى جعفر بن سليمان ، قال : قدم أشعب أيام أبى جعفر بغداد ، فأطاف به فتيان بنى هاشم ، فغناهم فإذا ألحانه طرية ، وحلقه على حاله . وقال : أخذت الغناء عن معبد ، وكنت آخذ عنه اللحن ، فإذا سئل عنه قال : عليكم بأشعب فإنه أحسن تأدية له منى »[٣] .

وذكر أبو عبيد أنه بقى فى بغداد إلى أيام المهدى ، وأن الفضل بن الربيع قال : « كان أشعب عند أبى سنة أربع وخمسين ومائة ، ثم خرج إلى المدينة فلم يلبث أن جاء نعيه . »

---

(١) راجع الطبرى فى حوادث سنة ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٤٤ .

(٢) اللآلى ص ٩٥٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٦ : ٣٧ .

وهو كما قلنا صاحب نوادر ، وقد عرف بأشعب الطامع ، لأنه — فيما يظهر — كان يفتن فى نوادر الطمع ، وقد أورد الخطيب فى ترجمته له طائفة كبيرة من نوادره ، كما نجد ذلك فى العقد لابن عبدربه ، وثمار القلوب للثعالبى ، وجمع الجواهر للحصرى ، والأمالى لأبى على[١].

وقد ترجم له أيضاً صاحب الأغانى ، وصاحب لسان الميزان[٢].

١٧٦ — صعصعة بن صوحان (١٥٠ : ١)

خطيب من الخطباء الذين يشيد الجاحظ بهم ، وهو ممن نشأ فى صدر الإسلام ، واختص بأمير المؤمنين على بن أبى طالب . وهو من عبد القيس ، من أسرة معروفة بالخطابة ، منهم زيد بن صوحان ، وشيخان بن صوحان . ويظهر من كلام الجاحظ أنه من عمان[٣] . وكان على يكبره ويقول له : « والله ما علمتك إلا كثير المعونة قليل المؤونة ، فجزاك الله خيراً »[٤] . وكان أكبر غنائه عند على — فيما يبدو — فى الرد على الخوارج ، ومغالبتهم فى الخطابة[٥].

١٧٧ — حويطب بن عبد العزى (١٥٠ : ١٠)

هو حويطب بن عبد العزى بن أبى قبيس ، من عامر بن لؤى . وكان من سراة قريش ورءوسهم وسفرائهم إلى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بعد الهجرة[٦] وقد أسلم عام الفتح ، ويعتبره المؤرخون من المؤلفة قلوبهم . مات فى آخر خلافة معاوية وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وقد ترجم له صاحب أسد الغابة[٧].

---

(١) العقد ٣ : ٤٤٢ ط ١٢٩٧ هـ وثمار القلوب ص ١١٨ ، ٣٠٢ وجمع الجواهر ص ٥٤ — ٥٦ و ١٦٦ والأمالى ٣ : ١٨٩ ، ٢١٦ .

(٢) الأغانى ١٧ : ٨٣ ط بولاق ، لسان الميزان ١ : ٤٥٠ — ٤٥٤ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٩٤ ط ١٩٣٢ م .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٢٧٨ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٧ ط ١٣٣٢ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، حوادث السنة السادسة .

(٧) ١ : ٧٥ .

١٧٨ - بلال بن أبي بردة (١٥٠ : ١٦)

هو بلال بن عامر بن أبي موسى الأشعرى ، أحد الأمراء القضاة الذين ولوا إمارة البصرة وقضاءها منذ سنة ١٠٩ إلى سنة ١٢٥ ، وليها فى عهد خالد بن عبد الله القسرى . وقد حكى أبو العباس المبرد أنه « كان يقال إن أول من أظهر الجور من القضاة فى الحكم بلال بن أبي بردة . . . وكان بلال يقول : إن الرجلين ليتقدمان إلى ، فأجد أحدهما على قلبى أخف ، فأقضى له »[١]. وقد أثارت ولايته طائفة من الخصومات يتردد صداها فى كتب الأدب .

ويصفه المبرد بأنه كان داهية لقناً أديباً ، وأنه كان ذا نظر فى الشعر ومعرفة به[٢] وكانت داره فى البصرة تنتجعها الشعراء والرواة ، كذى الرمة وحماد الراوية .

وقد ظل على إمارة البصرة إلى أن قدم العراق يوسف بن عمر الثقفى ، فعزله عن الإمارة ، وأودعه السجن ، ونكل به ، حتى مات فى حبسه .

١٧٩ - عمر بن يزيد الأسدى (١٥١ : ٤)

هذا الخبر الذى يذكره الجاحظ هنا ، يورده أبو الفرج فى الفصل الذى كتبه عن الحكم بن عبدل منسوباً إلى عمر بن يزيد الأسدى هذا ، ومن هذا الخبر نعلم أنه كان على شرطة الحجاج[٣].

وقد تعرض لهجاء الحكم بن عبدل بسبب بخله[٤] . ويظهر من هذا أنه كان من أهل الكوفة .

١٨٠ - عبد الرحمن بن أبي بكرة (١٥٢ : ١٦)

هو عبد الرحمن بن نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفى ، وهو تابعى ، بصرى ، وقد ولاه زياد بن أبيه بعض أعمال البصرة . ولم يدرك القرن الثانى .

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٤٦ .
(٢) ٢ : ٤٧ .
(٣) الأغانى ٢ : ٤٢٣ .
(٤) الأغانى ٢ : ٤١٤ .

١٨١ ــ أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفى (١٥٤ : ١)

سرى من سراة البصرة ، ومن أعرق أسرها ، وقد ورد اسمه فى أخبار أبى نواس ، فى عدة أبناء عبد الوهاب الثقفى ، من بانه بنت أبى العاص[١] ، وهو أخو عبد المجيد الثقفى ، صاحب ابن مناذر الشاعر الذى رثاه بعد موته بقوله :

إن عبد المجيـــد يوم تولى هد ركنا ما كان بالمهدود[٢]

وأبوه عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ، وقد وصفه النظام ، فيما حكى عنه الجاحظ بأنه أحلى من أمن بعد خوف ، ومن خصب بعد جدب ، وغنى بعد فقر . ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب[٣] . وذكره ابن قتيبه فى أصحاب الحديث ، وقال إنه ولد سنة ١٠٨ ، وتوفى بالبصرة سنة ١٩٤[٤].

ويرجع نسبه إلى الحكم بن أبى العاص الثقفى ، من أوائل من نزل البصرة وأقام بها ، فى ولاية عبيد الله بن عامر ، من قبل عثمان بن عفان . وقد أقام بها هو وإخوته : عثمان وحفص وأمية والمغيرة . وإلى أخيه عثمان ينسب شط عثمان بالبصرة[٥].

١٨٢ ــ كعب بن مامه (١٥٨ : ١)

يشير الجاحظ فى هذا الموضع إلى قصة ذكرها فى موضع آخر ، ونقلها عنه الثعالبى ، قال : « قال الجاحظ : العامة تحكم بأن حاتماً الطائى أجود العرب ، ولو قدمته على هرم فى الجود لما اعترض عليهم . ولكن الذى يحدث به عن حاتم لا يبلغ مقدار ما رووه عن كعب ، لأن كعباً بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود فى المال ، فساوى حاتماً من هذا الوجه ، وباينه ببذل المهجة . ومن حديثه : أنه خرج فى ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط فى شهر ناجر ، فضلوا وعطشوا ، فتصافنوا ماءهم ــ والتصافن

(١) أخبار أبى نواس لابن منظور ، ص ١٨٤ .
(٢) الأغانى ١٧ : ١٤ ، ط التقدم .
(٣) زهر الآداب (هامش العقد الفريد) ٢ : ١٠٠ .
(٤) المعارف ، ص ٢٥٧ .
(٥) معجم البلدان ٢ : ٢٠٠ .

أن تطرح حصاة فى القعب، والتفت كعب ، فأبصر النمرى يحدق النظر إليه ، فآثره بمائه ، وقال للساقى : اسق أخاك النمرى . فشرب النمرى نصيب كعب فى ذلك اليوم . ثم نزل المنزل الآخر ، فتصافنوا بقية مائهم ، ونظر النمرى إلى كعب كنظر أمسه ، فقال كقول أمسه . وارتحل القوم ، وقالوا : ارتحل يا كعب ، فلم يكن به قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقيل له : رد يا كعب ! إنك وراد ! فعجز عن الجواب ، ثم فاضت نفسه النفيسة »[١].

وجاءت هذه القصة أيضاً فى المحاسن والأضداد[٢] ، بعبارة أوجز . كما أورد الثعالبى فى ثمار القلوب طرفاً من أخبار جوده .

١٨٣ ـ جد بن قيس (١٦٢ : ١٨)

هو جد بن قيس بن صخر ، من كعب بن سلمة ، وقد كان سيد بنى سلمة . صحابى أنصارى ، ويقال إنه كان منافقاً ، كما يقال إنه تخلف يوم الحديبية عن البيعة . وقد ذكر قتادة أن قوله تعالى : « خلطوا عملا صالحاً ، وآخر سيئاً . عسى الله أن يتوب عليهم » نزلت فى نفر ممن تخلف فى تبوك ، منهم الجد بن قيس . وقد عاش إلى إلى خلافة عثمان[٣].

وقد ذكر الخطيب البغدادى هذا الحديث المروى هنا بطرقه المختلفة ، ثم قال عن محمد بن مسعر : « لما حدثت ابن عيينة بحديث جد بن قيس أنشدنا لحسان بن ثابت :

وسال رسول الله ، والحق لازم … لمن سال منا : من تسمون سيدا ؟
فقلت له : جد بن قيس ، على الذى … نبخله فينا ، وقد نال سوددا
فقال : وأى الداء أدوى من البخل … رميتم بها جداً وأعلى بها يدا

إلى آخر الأبيات ، وباقيها فى بشر بن البراء[٤].

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٩٨ — ٩٩ .
(٢) ص ٥٤ .
(٣) أسد الغابة ١ : ٢٧٤ ، الإصابة فى تمييز الصحابة ١ : ٢٢٨ .
(٤) كتاب البخلاء للخطيب ، ورقة ٨ مخطوطة المتحف البريطانى .

١٨٤ ـ قيس بن عاصم (١٦٣ : ٨)

أبو على ، قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر . قدم فى وفد تميم بعد الفتح فأسلم ، ووصفه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بأنه سيد أهل الوبر[١] . وكان فارساً شاعراً معروفاً بالحلم ، مشهوراً بالركانة . وقد أورد له أبو تمام قطعة من الشعر ، يتحدث فيها عن خلقه ، ويفخر بنبل قومه[٢] .

١٨٥ ـ النمر بن تولب (١٦٣ : ١١)

شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام وعاش إلى أيام عمر ، فيما يبدو ، وقد بلغ سناً عالية . ويقال إنه هاجر إلى البصرة ودخل المربد . وهو يمثل الشعراء المترفين الذين لم يصطنعوا الشعر لمدح أو هجاء ، كما يعد أيضاً من الشعراء المقلين . ولكنه مع إقلاله كان ــ كما يقول حماد الرواية عنه ــ كثير البيت السائر والبيت المتمثل به . كما كان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس بجودة شعره وحسنه ، وكذلك كان يشبه شعره بشعر حاتم الطائى . وكانا يشتركان فى الجود وإتلاف الأموال وأريحية الطبع والتغنى بذلك فى الشعر .

وجزء كبير من شعره جاء فى زوجته جمرة بنت نوفل الأسدية . وكانت سبية سباها أخوه الحارث بن تولب فى غارة له على بنى أسد ، ثم وهبها له ، ففركته ، فحبسها حتى استقرت ، وولدت له أولادها ، ولكنها كانت ما تزال تحن إلى أهلها ، وما زالت به حتى أزارها قومها ، بعد أن واثقها . ولكنها مضت فلم تعد إليه ، فقال فيها أشعاراً كثيرة أورد الأصبهانى طرفاً منها[٣] .

وأما سائر شعره غير ما جاء فى ترجمته فى الأغانى وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة ، فمفرق فى كتب الأدب . وقد عنى الجاحظ برواية طرف منه[٤].

وقد نقل صاحب الإصابة عن ابن حزم أنه فرق فى الجمهرة بين النمر بن تولب

---

(١) المعارف لابن قتيبة ، ص ٩٧ ، الإصابة .

(٢) ديوان الحماسة ٢ : ٢٥٠ .

(٣) الأغانى ١٩ : ١٥٧ – ١٦٢ ط التقدم .

(٤) انظر مثلا : البيان والتبيين ١ : ٢٦ ، ١٦٢ ، ٢٣٢ ، ٣١٠ ، الحيوان ١ : ٨ ، ٣ : ٣٧ ، ٤٣ وانظر أيضاً الكامل للمبرد ١ : ١٤٩ .

العكلى ، فساق نسبه وأثبت صحبته ، وبين النمر بن تولب الشاعر ، فنسبه فى النمر بن قاسط ، وقال إنه الذى عاش حتى خرف .

١٨٦ – تميم بن مقبل (١٦٥ : ٤)

هو تميم بن أبى بن مقبل ، من بنى العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعه بن عامر بن صعصعة[١] . من الشعراء المخضرمين ، أدرك النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يره . وقد عاش إلى أيام عمر بن الخطاب ، ووقع بينه وبين النجاشى الشاعر شر ، فهجاه النجاشى بقطعة موجعة يقول فيها :

إذا الله جازى أهـــل لؤم ودقة   فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيـــلة لا يغـــدرون بذمة   ولا يظلمون الناس حبـــة خردل

فاستعدى عمر بن الخطاب عليه ، فحاكمه إلى حسان بن ثابت ، وحبسه .

ولم يصل إلينا من شعره إلا القليل مفرقاً[٢]. ومن هذا الشعر نعرف أنه شاعر بدوى الديباجة والصور . وقد ذكره ابن النديم فى الشعراء الذين عمل أبو سعيد السكرى أخبارهم ، ثم ذكر أن ممن عمل شعره أيضاً أبا عمرو والأصمعى والطوسى وابن السكيت[٣] .

١٨٧ – أبو ذر الغفارى (١٦٥ : ٦)

هو جندب بن جنادة بن عبيد الغفارى ، صحابى من أوائل من أسلم ، وفى حلية الأولياء قصة تنسب إليه ، تحكى أوليته ، وملابسات إسلامه[٤] . وكانت له – فيما يبدو – نزعة تميل به إلى الزهد، وقد هاجر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشام . وكان يقدم إلى الحجاز حاجاً ، فكان ينكر على عثمان ، وكذلك كان أمره فى الشام .

---

(١) انظر فى تحقيق اسمه (تميم بن مقبل ، تميم بن أبى مقبل ، تميم بن أبى بن مقبل) معجم البلدان ٢ : ٩١ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٢١٤ ، ط السلفية ، الإصابة ص ٨٥٨ .

(٢) انظر مثلا : الأمالى لأبى على ١ : ١٥ ، ٢٢٩ واللآلى ص ٦٦ – ٦٧ ومعجم البلدان ٢ : ٩١ ، ٦ : ٩٢ ، ٨ : ٢٣ الخ . جمهرة أشعار العرب ص ١٦٠ – ١٦٣ ط بولاق .

(٣) الفهرست ص ٢٢٤ . وانظر أيضاً فى ترجمته الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وفيها طائفة من شعره (١ : ٤٢٤ – ٤٢٨ ط دار إحياء الكتب العربية) .

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ١ : ١٥٧ – ١٥٨ ط السعادة .

كان ينكر على معاوية ، ويقول : « والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها . والله ما هى فى كتاب الله ولا سنة نبيه . والله إنى لأرى حقاً يطفأ . وباطلا يحيا ، وصادقاً يكذب ، وأثرة بغير تقى ، وصالحاً مستأثراً عليه » . فخشى معاوية أن يفسد عليه الشام ، فكتب بأمره إلى عثمان ، فبعث عثمان أن يحمله إليه . فلما كان عنده سيره إلى الربذة . فأتاها وبقى بها إلى أن مات فيها[1].

وفى نهج البلاغة المنسوب إلى على بن أبى طالب كلام قيل إن عليا وجهه إلى أبى ذر وهو خارج إلى الربذة[2] ، ويشبه أن يكون صحيحاً . وقد حكى البلاذرى أن علياً شيع أبا ذر ، فأراد عثمان ومروان أن يمنعاه ، حتى جرى بينهما وبين على كلام ، تغالظ الفريقان فيه .

وقد كان أمر أبى ذر من الأمور التى أنكرت على عثمان ، وكانت تتردد فى الثورة عليه .

١٨٨ ــ عبيد الله بن عكراش (١٦٧ : ٨)

تميمى من أهل البصرة ، فى القرن الأول . وأبوه هو عكراش بن ذؤيب ، صحابى كان رسول قومه ، بنى نزال بن مرة ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصدقات أموالهم . وكان ممن شهد الجمل مع عائشة[3].

أما عبيد الله ابنه فيذكره ابن قتيبة فى ترجمة أبيه ، ويذكر عنه أنه هو الذى يقول فيه أبو النضر مولى عبد الأعلى :

قل لسوار إذا ما جئته وابن علاثة
زاد فى الصبح عبيد الله له أوتاداً ثلاثة

وقد روى له هذه الفقرة ، كما روى له فى موضع آخر هذين البيتين :

وإنى لأرثى للكريم إذا غدا على طمع عند اللئيم يطالبه
وأرثى له فى مجلس عند بابه كمرثيتى للطرف والعلج راكبه[4]

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ٥٢ – ٥٦ ط الجامعة العبرية ، بيت المقدس .
(٢) نهج البلاغة ١ : ٢٦٦ ط العمومية ١٣٢١ هـ .
(٣) المعارف ص ١٠٥ ط الشرفية ، ١٣٠٠ هـ .
(٤) عيون الأخبار ١ : ٨٩ .

١٨٩ ـ ابن التوام (١٦٩ : ١)

ورد اسمه فى البيان والتبيين فى غير موضع[١] ، كما ورد فى عيون الأخبار[٢] ، وذلك فى رواية بعض العبارات عنه . ثم لم نعثر بعد ذلك بشىء من أخباره ، يجلى بعض الشىء عنه .

والذى ينبغى أن نقرره هنا أن قطعة من رسالة ابن التوأم هذه قد أوردها ابن قتيبة فى عيون الأخبار منسوبة إليه ، دون أن يذكر اسم الجاحظ فى روايته ، كما فعل فيما نقل من وصية أبى عبد الرحمن الثورى . وقد يشككك هذا فى افتراض وضع الجاحظ لهذه الرسالة . ولكن يبقى هنالك فرضان : أن يكون ابن قتيبة نقل ما نقل عن البخلاء ، معتقداً أنه لابن التوأم ، ولم يجد ضرورة لذكر المصدر ، وأن يكون الوراقون قد أفردوا هذه الرسالة بالنسخ ، منسوبة لابن التوأم . كما صنعوا فى قصة خالد بن يزيد ، كما قدمنا .

١٩٠ ـ المتلون والجموح الخ (١٦٩ : ١٨ ـ ١٧٠ : ٦)

عرض الجاحظ لهذه الحالات النفسية فى موضع آخر ، كما وجدناه فى نسخة فتوغرافية بعنوان : « المختار من كلام أبى عثمان الجاحظ » كان يملكها المرحوم الدكتور كروس ، وأصلها فى مكتبة برلين . قال :

« وأنا أحذرك اللجاج والتتابع ، وأرغب إلى الله فى السلامة من التلون والتزيد ، ومن الاستطراف والتكلف ، فإن الإفراط فى اللجاج لا يكون إلا من خلل فى القوة ، وإلا من نقصان يدل على التمكن (كذا) . واللجوج فى معنى المغلوب ، والمتصرف فى معنى الغالب ، والمتلون لا يكون إلا والعقدة منحلة ، والنفس منقوضة ، ثم لا يصل إلا ضعف المنة بقلة المعرفة . ومتى نقصت المعرفة ، ولم تكن المنة فاضلة ، كان الفاعل إما لجوجاً متتابعاً ، وإما ذا بدوات متلوناً . فاعرف فصل ما بين التلون والتصرف . . . والتلون أن تكون سرعة رجوعه عن الصواب كسرعة رجوعه عن الخطأ . واللجاج أن

---

(١) ١ : ٧٩ ، ١١٥ ، ٢ : ٩٢ ، ٣ : ٥٩ ط ١٩٣٢ م .
(٢) عيون الأخبار ١ : ٢٩٩ ، ٣١٢ .

يكون شأن عزمه على إثبات الخطأ الضار ، كشأن عزمه على إمضاء الصواب النافع . والذهول عن العواقب مقرون باللجاج ، وضعف العقدة مقرون بالبدوات »[١] .

١٩١ – ابن سيرين (١٧٨ : ١١)

هو محمد بن سيرين ، وسيرين هو اسم أبيه كما يقول البلاذرى[٢] ، أو اسم أمه كما يقول ياقوت[٣] وكان أسر سيرين فى كنيسة بعين التمر . وصار ولاء آل سيرين إلى أنس بن مالك ، وقد عمل محمد بن سيرين هذا لأنس ، يكتب له ، حين كان بفارس ، ثم اتخذ البصرة مقاماً له ، وكان يصطنع تجارة البز . وقد روى الحديث عن أنس وأبى هريرة وعبد الله بن عمر ، ويسند إليه البلاذرى طائفة من أخبار الفتنة فى أيام عثمان ، وروح هذه الأخبار تميل إلى الدفاع عنه ، وإلى تبرئة على ، معاً .

وقد عرف ابن سيرين بالورع ، فكان يقال : فقه الحسن وورع ابن سيرين ، وهو صديق للحسن ، وماتا فى عام واحد ، سنة ١١٠ .

١٩٢ – ابن هرمة (١٨١ : ٥)

هو إبراهيم بن على بن هرمة ، من بنى الحارث بن فهر ، إن صح نسبه . شاعر حجازى ، من مخضرمى الدولتين . حكى أبو الفرج أنه ولد سنة تسعين ، وأنشد أبا جعفر سنة مائة وأربعين ، ثم عمر بعدها مدة طويلة ، وكانت إقامته بالمدينة ، وكاد يختص بعبد الله بن حسن وآل الحسن من الفاطميين ، كما كانت صلته طيبة بمحمد بن عمران الطلحى ، كما وفد على السرى بن عبد الله باليمامة . فلما قامت دولة بنى العباس وفد على أبى جعفر المنصور ، كما وفد على المهدى من بعده .

وقد أورد أبو الفرج صورة له ، فحكى أنه كان قصيراً دميماً أريمص . أما خلقه ، فقد اشتهر باستهتاره بالنبيذ ، كما كان – فيما يبدو – رجلا متقلباً لا يدوم على عهد ،

---

(١) ورقة ٩٨ ، وانظر فى ذلك أيضاً مختارات مؤنس الوحيد ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ (ط فينا سنة ١٨٢٩ م) . البيان والتبيين ٢ : ١٥٣ ، ط ١٩٣٢ ، العقد الفريد ١ : ٧٣ ط لجنة التأليف ، محاضرات الراغب ٢ : ٢٨٢ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٤٨ .

(٣) معجم البلدان ٦ : ٢٥٣ .

وأخباره التي تشهد لذلك كثيرة[1] .

أما شعره فقد كان موضع إعجاب الأصمعي ، وكان يعده ممن ختم بهم الشعر ، وأما الجاحظ فيقول : « ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة والعتابي»[2] وإذن فقد كان ابن هرمة من أوائل أصحاب البديع ، وشعره يدل على أنه من أهل الصناعة ، ولعل من أبرز مظاهر ذلك قصيدته التي تكلف فيها ألا تتضمن حرفاً معجماً . ويقول أبو الفرج إنه لم يكن يظن أن أحداً تقدم رزينا العروضي إلى هذا الباب .

١٩٣ – مروان بن أبي حفصة (١٨١ : ٦)

أبو السمط ، مروان بن أبي سليمان بن يحيي بن أبي حفصة . شاعر من مخضرمي الدولتين . كان يحيي بن أبي حفصة جده شاعراً من شعراء المروانيين ، وقد أورد له أبو الفرج شيئاً من الشعر السياسي الذي قاله في خروج يزيد بن المهلب ، وهو شعر جيد ، عربي الديباجة قوي الروح . وهكذا نرى أن مروان نشأ على عرق من الشعر .

وقد أدرك عهد الأمويين ، ويقال إنه صنع قصيدة يمدح بها مروان بن محمد ، ولكن بعد فوات الوقت[3] .

وقد اتصل في أول أمره بمعن بن زائدة ، وكان يقصده في ولايته على اليمن ، ثم جعل يتهيأ للاتصال بالعباسيين إلى أن أتيح له أن يمدح المهدي بما كان موضع الإعجاب الشديد ، وكذلك مدح الهادي والرشيد . وكان مذهبه في هذه المدائح أن يتعرض لهجاء الطالبيين ، فكان ذلك من الأسباب التي رفعت من شأنه لدى الخلفاء[4].

ولكن هذا المذهب قد أوغر عليه بعض الصدور . وإذا صح ما يرويه أبو الفرج عن صالح بن عطية الأضجم ، فإن المذهب الذي رفع من قدره ، هو الذي قتله وقضى عليه .

على أن الرجل عاش عمراً غير قصير ، فقد عمر إلى أيام محمد بن زبيدة ، وكان إذ ذاك شيخاً كبيراً .

ويعتبر مروان كذلك من أهل الصناعة الشعرية ، ويحكي هو عن نفسه ، كما

(١) الأغاني ٤ : ٣٦٧ – ٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠ .

(٣) الأغاني ١٠ : ٧١ – ٩٥ .

(٤) الأوراق للصولي (قسم أخبار الشعراء) ص ١٤ .

يذكر صاحب الأغانى عن حماد الأرقط : « إنى إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها فى حول : أقولها فى أربعة أشهر ، وأنتخلها فى أربعة أشهر ، وأعرضها فى أربعة أشهر » .

١٩٤ ــ الشماخ بن ضرار (١٨١ : ١٧)

هو معقل بن ضرار بن سنان ، من ذبيان ، شاعر مخضرم ، وقد عده ابن سلام فى الطبقة الثالثة مع لبيد والنابغة الجعدى وأبى ذؤيب الهذلى ، وهو من أسرة شاعرة ، فقد كان أخواه ، مزرد وجزء ، شاعرين .

وقد ترجم له أبو الفرج وأورد فى خلال الترجمة طائفة من شعره[١] ، كما أن فى جمهرة أشعار العرب قصيدة منسوبة إليه ، فى باب « المشوبات »[٢] ، وهن ــ كما يقول أبو زيد الخطابى فى المقدمة ــ اللاتى شابهن الكفر والإسلام .

ويصفه ابن سلام بأنه « كان شديد متون الشعر ، أشد أسر الكلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقاً »[٣] ، وروى أبو الفرج أن الحطيئة قال فى وصيته : « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان » .

١٩٥ ــ أحيحة بن الجلاح (١٨٢ : ١)

سيد من سادات يثرب ، ورأس من رءوس الأوس ، فى القرن الخامس الميلادى . وقد ولد حسب تقدير العلامة كوسان دى برسيفال Caussin de perseval فى سنة ٤٦٤[٤] . وقد ترجم له أبو الفرج ، وأورد له أخباراً مع أبى كرب الحميرى آخر تبابعة اليمن ، كما أورد أخباراً أخرى له فى معركة نشبت بين بنى النجار وبنى عمرو بن عوف . وكان أحيحة عليهم .

وقال أبو الفرج فى صفته : « وكان أحيحة إذ ذاك سيد قومه من الأوس ، وكان رجلا صنيعاً للمال شحيحاً عليه ، يتبع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهم .

---

(١) الأغانى ٩ : ١٥٨ – ١٧٢ .

(٢) ص ١٥٤ – ١٥٨ ط بولاق ١٣٠٨ هـ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٧ ط السعادة . (ص ١١٠ ط دار المعارف ، ١٩٥٢)

(٤) *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme.*

وكان له تسع وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها . وكان له بالجرف أصوار من نخل . . .
وكان له أطمان »[١].

وقد ذكره المبرد بالبخل فقال إنه كان « إذا هبت الصبا طلع من أطمه ، فنظر إلى ناحية هبوبها ، ثم يقول لها : هبي هبوبك ، فقد أعددت لك ثلثمائة وستين صاعاً من عجوة ، أدفع إلى الوليد منها خمس تمرات ، فيرد على ثلاثاً — أى لصلابتها — بعد ما يلوك منها اثنتين »[٢] .

وكذلك أورد النويرى طرفاً من أخباره فى البخل[٣] .

وقد عده أبو زيد القرشى فى أصحاب المذهبات ، وأورد له قصيدة منها بعض الأبيات التى أوردها الجاحظ هنا[٤]. كما أورد له ياقوت فى سياق كلامه عن « أيلة » أبياتاً يرثى بها ابنه [٥].

١٩٦ — عروة بن الورد (١٨٣ : ٤)

هو عروة الصعاليك العبسى . « شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد » كما يقول أبو الفرج . وقد حكى ابن الأعرابى عن أبى فقعس أسلوب حياته ، إذ يقول : « وكان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة ، تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته ، فى الشدة . ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف . ويكسبهم . ومن قوى منهم — إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته — خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى » .

وقد نسجت القصص المختلفة حول بطولة عروة فى العصر العباسى ، وأورد أبو الفرج طائفة منها . أما شعره فأكثره فى وصف هذه الحياة ، والتحدث عن الصعاليك ، وذكر

---

(١) الأغانى ١٣ : ١١٩ — ١٢٧ .
(٢) الكامل للمبرد ٣ : ٢٣ ط الفتوح الأدبية ١٣٣٩ هـ .
(٣) نهاية الأرب ٣ : ٣٠٥ .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٥ — ١٢٦ ط بولاق .
(٥) معجم البلدان ١ : ٣٩١ ط مطبعة السعادة ، ١٩٠٦ م .

المثل الجديرة بهم . ومنه ما هو حديث عن هذه أو تلك من النساء اللواتى كان يسبهن ويتزوجهن[١] .

وقد عده أبو زيد القرشى فى أصحاب « المنتقيات » وأورد له قصيدة يتحدث فيها عن حياته ، كما يتحدث عما ينبغى للصعاليك[٢] .

١٩٧ ــ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (١٨٣ : ١٠)

هو ابن زيد بن عمرو ، أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ذبائحهم ، وذهب يلتمس دين إبراهيم ، حتى أثار حوله فى مكة ثائرة أخرجته منها[٣] ، ولم يدرك الإسلام . فأما سعيد ابنه فقد أسلم هو وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، أخت عمر ، حين كان المسلمون يستخفون بإسلامهم . وفى بيته أسلم عمر بن الخطاب[٤] . وقد شهد المشاهد كلها . ويعد من العشرة المبشرين بالجنة .

وقد كان رجلا من أصحاب الرأى ، قوى الشخصية ، ولو أنه ظل بعيداً عن الفتن السياسية . كما كان شاعراً بليغاً . وقد عاش إلى سنة ٥١ ، ومات عن ثلاث وسبعين سنة .

١٩٨ ــ الأخنس بن شهاب (١٨٤ : ٣)

شاعر فارس ، من بنى تغلب ، عاش فى أيام حرب البسوس . والأبيات التى يوردها الجاحظ هنا هى من قصيدة له يرويها المفضل الضبى فى المفضليات[٥] ، وأولها :

لابنة حطان بن عوف منازل   كما رقش العنوان فى الرق كاتب

وقد عرض له الآمدى فترجم له بكلمات أورد فيها نسبه[٦].

---

(١) الأغانى ٣ : ٧٣ — ٨٨ .
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ١١٤ — ١١٥ .
(٣) الأغانى ٣ : ١٢٣ — ١٢٧ .
(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٣٦٧ ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٦ م .
(٥) المفضليات ص ٤١٣ ط أكسفورد .
(٦) المؤتلف والمختلف ، ص ٢٧ .

١٩٩ ــ ابن الذئبة (١٨٤ : ٦)

شاعر فارس جاهلى ، ترجم له الآمدى ، فقال : « فأما ابن الذئبة ، فهو ربيعة ابن الذئبة ، والذئبة أمه ، وأبوه عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم بن قسى ، وهو ثقيف . شاعر فارس ، وهو القائل :

إن المنيـــة بالفتيـــان ذاهبـــة ولو تقوها بأسيـــاف وأدراع
بينا الفتى يبتغى من عيشة سددا إذ حان يوماً فنادى باسمه الداعى
لا تجعل الهم غلا لا انفراج له ولا تكونن كؤوماً ضيق الباع[١] »

ونسب له أبو عبيد هذين البيتين :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه سفاهاً وينوى من سفاهته كسرى
أظن خطوب الدهر منى ومنهم ستحملهم منى على مركب وعر[٢]

وكذلك نجد له ترجمة صغيرة فى اللآلى[٣].

والشعر الوارد هنا منسوب فى الأصل لإبن أذينة الثقفى ، ولكن ابن أذينة ليس ثقفياً بل ليثيا . ومنسوب فى عيون الأخبار إلى ابن الدمينة ، وابن الدمينة كذلك ليس ثقفياً ، بل هو خثعمى . والفرض الذى افترضته أنه لابن الذئبة يتفق مع نسبة الشعر فى الحيوان ، كما بينا فى النص .

٢٠٠ ــ غيلان بن سلمة (١٨٦ : ٦)

شاعر جاهلى أدرك الإسلام . وقد وفد على كسرى . وعده أبو عبيد من حكام قيس فى الجاهلية[٤] وقد أورد الجاحظ له قطعة من الشعر . وقد ترجم له ابن سعد فى الطبقات ، وابن حجر فى الإصابة ، وأبو الفرج فى الأغانى[٥].

---

(١) المؤتلف والمختلف ، ص ١٢٠ .
(٢) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ، ص ٢٤ .
(٣) اللآلى لأبى عبيد ، ص ٧٩٢ .
(٤) اللآلى ص ٤٧٨ .
(٥) طبقات ابن‌سعد ٥ : ٣٧١ ، الإصابة ٥ : ١٩٢ — ١٩٥ ، ط الشرفية ، ١٩٠٧ ، الأغانى ١٢ : ٤٨ — ٤٩ .

٢٠١ ـ ديسيموس (١٨٨ : ٩)

تحدث الجاحظ عنه ، وروى طرفاً من نوادره وأقواله فى غير موضع . فقال فى الحيوان : « حدثنى العتبى ، قال : كان فى اليونانيين ممرور له نوادر عجيبة ، وكان يسمى ديسيموس . قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة < ما من نادرة > إلا وهى غرة وعين من عيون النوادر » ؛ ثم أورد طائفة من هذه النوادر[١] ، كما أورد بعض نوادره أيضاً فى البيان والتبيين[٢] .

ويؤخذ من بعض هذه النوادر التى ذكرت فى الحيوان أن ديسيموس هذا كان يقيم على شاطئ الفرات ، أى أنه كان يقيم على الحدود الشرقية للمملكة الرومانية .

وفى رسالة التربيع والتدوير من أقواله : « لولا العمل لم يطلب علم ، ولولا العلم لم يطلب عمل . ولأن أدع الحق جهلا به ، أحب إلى من أن أدعه زهداً فيه ؛ وإن كان الجهل لا يكون إلا من نقصان فى آلة الحس ، فإن المعاندة لمن زيادة فى آلة الشر . ولأن أترك جميع الخير ، أحب إلى من أن أفعل بعض الشر »[٣] وهذه الأقوال هى ـ ولا ريب ـ من أروع الكلام .

وقد عرض الأستاذ أحمد أمين لهذه النوادر وعدها فيما كان لليونان من أثر فى الأدب العربى[٤] .

٢٠٢ ـ الأضبط بن قريع (١٨٩ : ١٦)

أحد شعراء الجاهلية وفرسانها ، الذين تحملوا الكثير من الأخبار المصنوعة . وهو من بنى عوف بن كعب بن سعد ، رهط الزبرقان بن بدر .

ومما روى عنه ابن قتيبة أنه كان المؤسس لمدينة صنعاء ، إذ يقول : « أغار على بنى الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر ، وجدع وخصى . ثم بنى أطما ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء » . وهذا ـ ولا ريب ـ قول عجيب .

---

(١) الحيوان ١ : ٢٨٩ ٢٩٠ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ١١٧ ط ١٣٣٢ هـ .
(٣) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ٢٣٧ .
(٤) ضحى الإسلام ١ : ٢٨٢ .

وقد ترجم له ابن قتيبة [١] وأبو الفرج[٢] وأبو عبيد [٣] وكلهم يروون له قصيدة رقيقة مهذبة الحاشية : « يا قوم من عاذرى من الخدعة » ما أبعد أن تكون صحيحة النسبة له .

٢٠٣ ـ مطرف بن الشخير (١٩٢ : ٨)

هو أبو عبد الله ، مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشى العامرى ، من بنى عامر ابن صعصعة . تابعى من أهل البصرة ، ولد فى حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ومات فى أواخر القرن الأول. وقد وصفه غيلان بن جرير بقوله : « إنه كان يلبس المطارف ، ويركب الخيل ، ويغشى السلطان . ولكن إذا أفضيت إليه أفضيت إلى قرة عين »[٤].

وقد ذكره الجاحظ بأنه كان مضرب المثل فى العقل[٥] ، وذكره فى موضع آخر بأنه كان قاصاً ،[٦] وكان يمثل القصص بمعناه الأول ، حين كان الغرض منه إرهاف العاطفة الدينية ، فى وسط تلك الملابسات الدنيوية . وكان أول أمره يحضر مجالس زيد ابن صوحان الخطيب القاص ، كما أشار إلى ذلك أبو نعيم فى ترجمته له[٧] . وقد ترجم له ابن قتيبة أيضاً[٨].

وذكره المرزبانى ، فأورد له بيتين من الشعر ، ينافح عن بيته بنى وقدان [٩] .

٢٠٤ ـ الزبير (١٩٣ : ٧)

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، شخصية من الشخصيات الإسلامية الكبرى

---

(١) الشعر والشعراء ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٢) الأغانى ١٦ : ١٥٩ .
(٣) اللآلى ، ص ٣٢٦ .
(٤) تهذيب التهذيب ١٠ : ١ .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٦٣ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٩٦ .
(٧) حلية الأولياء ٢ : ١٩٨ — ٢١٢ .
(٨) المعارف ، ص ٢٢٣ .
(٩) معجم الشعراء ، ص ٣٨٩ .

التى صحبت الإسلام منذ أول عهده . وقد هاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد ، ويعد فى العشرة « المبشرين بالجنة » .

وقد ظل بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم مسموع الكلمة ، وقد كان تاجراً واسع التجارة عظم الثروة ، وجعله عمر من الستة « أصحاب الشورى» . وإن كان يصفه بأنه « لقس ، مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، شحيح»[١] . وفى أواخر أيام عثمان كان من المنكرين عليه ، كما كان يتهم بأنه هو وعلى وطلحة كانوا يثيرون الثائرة ضده . وبعد المبايعة لعلى خرج مع عائشة فى يوم الجمل ، وقد قتل غيلة فى منصرفه . لقيه عمرو بن جرموز التميمى فقتله ، وكان هذا عام ٣٦ عن ٦٦ أو ٦٧ عاماً[٢] .

٢٠٥ ــ عبد الرحمن (١٩٣ : ٧)

هو عبد الرحمن بن عوف الزهرى القرشى . من أكبر الشخصيات الإسلامية أيضاً . كان من السابقين إلى الإسلام ، وممن هاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد وأبلى فيها ، وأحد « العشرة » ، كما كان تاجراً واسع التجارة ، وقد أبلى بماله أيضاً فى سبيل الإسلام خير البلاء[٣] .

وكان كذلك من الستة « أهل الشورى » ، ولكنه كان ممتازاً فيها ، فقد وضعه عمر فى موضع الترجيح . إذ قال ــ كما يحكى أبو مخنف ــ : إن كانوا ثلاثة وثلاثة ، كانوا مع الثلاثة الذين فيهم ابن عوف . فلما مات عمر ، واجتمع مجلس الشورى ، كان هو صاحب الكلمة الفاصلة ، بعد أن أخرج نفسه وسعداً من الأمر ، وبذلك وسد الأمر لعثمان .

ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بينه وبين عثمان ، ولا سيما بعد أن سير أبا ذر إلى الربذة فمات فيها ، ويحكى البلاذرى أن عبد الرحمن بن عوف كان حلف ألا يكلم عثمان أبداً ، وكذلك أوصى ألا يصلى عثمان عليه[٤] .

وقد مات سنة ٣٢ عن اثنين وسبعين عاماً .

٢٠٦ ــ عبد الله بن جعفر (١٩٣ : ١١)

هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأبوه جعفر بن عم الرسول صلى الله عليه

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٧ .
(٢) الإصابة ١ : ٥٤٦ .
(٣) الإصابة ٧ : ٤١٦ ــ ٤١٧ .
(٤) أنساب الأشراف ٥ : ١٩ ــ ٢٢ ، ٥٧ .

وسلم ، وقد ولد عبد الله فى مهاجر أبيه بالحبشة ، فى السنة الأولى من الهجرة . فلما كانت الخصومة بين على ومعاوية فى صفين ، كان أحد الأمراء فى جيش على .

ولكنا نراه بعد ذلك بعيداً عن هذه الخصومات السياسية ، بعد ما استقام الأمر للأمويين . ولعله كان بطبعه السمح ، ونزعته إلى الاستمتاع بالحياة ، أبعد ما يكون عن المحادة السياسية ، ولذلك نراه فى مجلس معاوية ، ومجلس عبد الملك .

وكان يمثل ترف أهل الحجاز من الهاشميين ، وحياته صورة مثلى من تلك الحياة التى تحدث عنها الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء[١] ، ووصف أسبابها وملابساتها . ويمكن اعتباره من أهم الشخصيات التى شجعت الحياة الفنية فى الحجاز . وهى نواة الحياة الفنية فى بلاد الإسلام بعد ذلك ، ويذكر صاحب الأغانى فى مواضع مختلفة طائفة من مواليه ، كنشيط وسائب خاثر ونافع الخير وعمارة ، وهم أساتذة الغناء والمغنين[٢] كما يذكر أن ابن سريج كان منقطعاً إليه[٣] ، وأن طويس كان حسن الصلة به[٤].

ويعده ابن عبد ربه أحد أجواد الحجاز الثلاثة[٥] ، ويحكى عنه المبرد أنه أنشد قول الشاعر :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة   حتى تصيب بها طريق المصنع

فقال : هذا رجل يريد أن يبخل الناس . أمطر المعروف مطراً، فإن صادف موضعاً فهو الذى قصدت له ، وإلا كنت أحق به[٦] . وقد عاش إلى سنة ٩٠ .

٢٠٧ ــ المعلوط القريعى (١٩٤ : ١٠)

هو المعلوط بن بدل القريعى ثم السعدى ، شاعر إسلامى ، كما يقول أبو عبيد . وقد أورد له قطعة من ثلاثة أبيات ، يتحدث فيها عن الفقر والغنى . على الطريقة

---

(١) حديث الأربعاء ١ : ٢٣٥ وما بعدها ، ط مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٧ م .
(٢) انظر مثلا : ١ : ٣٨ ، ٣٩ ، ١١٧ ، ١٨٨ .
(٣) ١ : ٢٤٩ .
(٤) ٣ : ٣٢ — ٣٣ .
(٥) العقد الفريد ١ : ٣٣٩ .
(٦) الكامل للمبرد ١ : ٩٤ — ٩٥ .

البدوية [١] ، كما روى له أبو تمام قطعة أخرى من الشعر الغزل الأعرابى [٢].

٢٠٨ – إبراهيم بن عبد العزيز (١٩٦ : ٧)

لست أدرى – على التحقيق – من هو . ولعله هو الذى جاء ذكره على لسان أبى إسحاق إبراهيم النظام ، فيما روى الجاحظ عنه ، من قصة متربتة ، وقصده قصبة الأهواز ، ثم نزوله فى فرضتها ، وصيرورته إلى خان هناك ، وتعرضه فى أثناء ذلك كله لأسباب الطيرة . ثم يقول النظام : « فبينا أنا جالس إذ سمعت قرع الباب ، قلت : من هذا عافاك الله تعالى ؟ قال : رجل يريدك . قلت : ومن أنا ؟ قال : أنت إبراهيم . قلت : ومن إبراهيم ؟ قال : النظام . فقلت : هذا خناق أو عدو أو رسول سلطان . ثم إنى تحاملت وفتحت الباب . فقال : أرسلنى إليك إبراهيم بن عبد العزيز ، ويقول : نحن وإن كنا اختلفنا فى بعض المقالة ، فإنا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرية . وقد رأيتك حين مررت بى على حال كرهتها منك . وما عرفتك حتى خبرنى عنك بعض من كان معى وقال : ينبغى أن تكون قد نزعت بك حاجة ، فإن شئت فأقم بمكانك شهراً أو شهرين ، فعسى أن نبعث إليك ببعض ما يكفيك زمناً من دهرك . وإن اشتهيت الرجوع فهذه ثلاثون مثقالا ، فخذها وانصرف ، وأنت أحق من عذر » [٣]

وليس يبعد عندنا أن يكون إبراهيم هذا هو المقصود هنا ، فإن صح هذا ، فقد كان متكلماً ، ولعله كان معتزلياً ، وإن كان يختلف مع النظام فى بعض المقالة ، وكان إلى جانب هذا من سراة الأهواز .

٢٠٩ – البياح السبخى (١٩٦ : ٨)

قال صاحب اللسان : « البياح ، بكسر الباء مخفف : ضرب من السمك ، صغار أمثال شبر . وهو أطيب السمك » . وجعل الفريق أمين المعلوف هذه الكلمة مرادفة لكلمة البورى التى تطلق فى مصر على ذلك النوع من السمك ، وقد وصفه بقوله : « سمك مشهور صغير أو متوسط الحجم ، كبير الحراشف يكون فى معظم البحار ، ويصعد فى الأنهار أحياناً ، وهو أنواع كثيرة » . وبعد أن ذكر بعض هذه الأنواع نقل عن العالم

(١) اللآلى ص ٤٣٤ .
(٢) ديوان الحماسة ٢ : ١٤٠ ط ١٣٣٥ هـ .
(٣) الحيوان ٣ : ٤٥١ – ٤٥٣ .

الهندى الكلونل جاياكار Jayakar أن فى مسقط (على خليج عمان نوعين آخرين يطلق عليهما هناك اسم « البياح »[١] ومن هذا نعلم أن كلمة البياح التى كانت تطلق فى عصر الجاحظ على ذلك الضرب من السمك لا تزال مستعملة حتى الآن فى ذلك الإقليم .

والبياح السبخى الذى يذكره الجاحظ هنا إما أن يكون منسوباً إلى السبخة ، وهى قرية من قرى البحرين ، أو إلى ذلك الموضع من نواحى البصرة ، وهو الذى ينسب إليه الزاهد المشهور : فرقد السبخى[٢].

ومهما يكن من أمر فقد كان ذلك الضرب من السمك كثيراً فى البصرة . ويذكر صاحب الأغانى عن عيسى بن سليمان بن على الهاشمى أنه كان له فى البصرة محابس يحبس فيها البياح ويبيعه ، ويعيره أبو عيينة المهلبى بذلك إذ يقول فى قصيدة له فيه :

رأيت أبا العباس يسمو بنفسه إلى بيع بياحاته والمباقل[٣]

٢١٠ ــ أبو المنجوف السدوسى (١٩٧ : ١٤)

أخبارى ، نسابة ، من أهل القرن الثانى . كان يسكن البصرة بجوار الرقاشى ، كما يقول القالى عنه[٤]، وقد ذكره ابن النديم فقال : إنه روى عن أبى عبيدة ، وإن له من الكتب كتاب الغول . وقد مات بعد المائتين[٥].

٢١١ ــ الجيسران (١٩٧ : ١٦)

نوع من التمر ، وصفه ابن قتيبة بقوله : « وأحمد البسور الجيسران »[٦]، وذكره أدى شير فقال : « الجيسران جنس من أفخر النخل ، فارسيته كيسران . ومعناه الذوائب »[٧].

---

(١) معجم الحيوان ص ١٦٣ — ١٦٤ ، ط المقتطف ١٩٣٢ .
(٢) معجم البلدان ٥ : ٢٧ .
(٣) الأغانى ١٨ : ١١ ، ١٢ ط التقدم .
(٤) ذيل الأمالى ، ص ٤٤ .
(٥) الفهرست ، ص ١٥٩ .
(٦) عيون الأخبار ٣ : ٢٩٧ .
(٧) الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ٤٩ .

٢١٢ ـ قاسم التمار (١٩٨ : ٧)

أحد المتكلمين فى عصر الجاحظ . وقد وصفه ابن قتيبة ، وابن عبد ربه ، بعد خبر نقلاه عن الجاحظ ـ وقد أورده الجاحظ شاهداً على التخليط ـ بأنه متقدم فى أصحاب الكلام[١].

والذى يؤخذ من أخباره فى البيان والتبيين وعيون الأخبار ، أنه كان رجلا على شىء من الغفلة ، ولعله كان يصطنعها أحياناً ، التماساً للنادرة . وقد كان يلابس المتكلمين ويطايبهم بنوادره ، كما أن سراة المتكلمين كثُمامة كانوا يصلونهُ ويكرمونه ، بالرغم من أنه كان قذر المؤاكلة ، وأنه كان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط ، كما وصفه الجاحظ فى البخلاء[٢].

وكان إلى هذا قبيح الخلقة ، مشنوء المنظر ، كما يؤخذ من خبر ساقه الجاحظ عنه فى الحيوان[٣] وقد ذكره فى رسالة التربيع والتدوير بعظم العنق ، إذ يقول مخاطباً أحمد ابن عبد الوهاب : « وأنا دقيق العنق ، وعنقك عنق قاسم التمار »[٤].

ولكنه كان مع هذا ـ فيما يبدو ـ خفيف الروح ، طيب النكتة ، فكان المتكلمون يتقبلونه ، وقد أخذ عنهم بعض ما كانوا يتدارسونه ، وبذلك عد فيهم . ويصف الجاحظ أمثاله بقوله : « وفى حشوة المتكلمين أخلاق قبيحة »[٥].

٢١٣ ـ الشبارقات والأخبصة والفالوذجات (٢٠٣ : ١٢ ـ ١٣)

الشبارقات جمع شبارق . وقد ذكرها الجواليقى ، فقال نقلا عن ابن دريد : « والشبارق الذى تسميه الفرس بيشبارة . ولحم شبارق يقطع صغاراً ويطبخ ، وزعموا أنه فارسى معرب . وقال فى موضع آخر : فأما الشبارقات وهى ألوان اللحم فى الطبائخ ففارسى معرب ، وهو الشفارج للذى تقول له العامة فيشفارج وبشارج »[٦].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ، ص ٩٥ ، العقد الفريد ٢ : ٤٨٢ ط لجنة التأليف .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٩١ ط ١٣٣٢ هـ ، عيون الأخبار ٢ : ١٥٧ ، البخلاء ص ١٩٨ .

(٣) الحيوان ٦ : ٨٢ ط التقدم .

(٤) رسائل الجاحظ (مجموعة السندوبى) ص ١٠١ .

(٥) البخلاء ص ١٩٩ .

(٦) المعرب من الكلام الأعجمى . ص ٢٠٤ .

على أنه ذكر « الفيشفارج » وفسرها بقوله : « ما يقدم بين يدى الطعام من الأطعمة المشهية له »(١).

وأما الأخبصة فجمع خبيص ، وهو طعام عربى يعمل من التمر والسمن ، ويظهر أنه صار يعمل بعد ذلك من العسل بدلا من التمر ، ومن ذلك ما ذكره الراغب : « وقيل : ذهبت بهجة الخبيص منذ عمل من عسل(٢) » .

وأما الفالوذجات فجمع فالوذج ، وهو طعام أخذه العرب من الفرس ، كما يؤخذ من القصة التى تروى عن عبد الله بن جدعان . وجملة صفته تؤخذ من كلمة الحسن حين سمع رجلا يعيبه ، فقال : « فتات البر ، بلعاب النحل ، بخالص السمن . ما عاب هذا مسلم »(٣).

٢١٤ – إياس بن معاوية (١٨٧ : ٣)

هو أبو واثلة ، إياس بن معاوية المزنى ، أحد رجال البصرة فى القرن الأول ، وقد امتاز بالزكانه وقوة العقل ، حتى ليقول فيه أحد البصراء بالرجال : « ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا ما كان من الحجاج وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس »(٤) وقد أورد الجاحظ طائفة من شواهد عقله ودقة بصره(٥) ، ومما قال فى صفته : « وجملة القول فى إياس أنه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمى القضاة ، وكان فقيه البدن ، دقيق المسلك فى الفطن . وكان صادق الحس نقاباً ، وعجيب الفراسة ملهماً . وكان عفيف الطعم ، كريم المدخل والشيم ، وجيهاً عند الخلفاء ، مقدماً عند الأكفاء »(٦).

وقد كان إياس يعالج أنواع العلم الأخرى ، ويحاول أن يتناول المعارف الطبيعية بالوصف والتصنيف كما يؤخذ من كلام الجاحظ عنه ، فى سياق كلامه عن الخلق المركب ، وإن كان رأى الجاحظ فيه هنا مختلفاً بعض الشىء عن رأيه الذى أسلفنا ،

---

(١) ص ٢٣٩ .
(٢) محاضرات الراغب ١ : ٢٩٦ ط الشرفية .
(٣) عيون الأخبار ٣ : ٢٠٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٢٦ ط ١٩٣٢ م .
(٥) انظر مثلا : البيان والتبيين ١ : ٥٥ – ٥٦ ط ١٣٣٢ هـ . الحيوان ٢ : ٧٥ – ٧٦ ، ١٥٢ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٥٦ ط ١٣٣٢ هـ .

لاختلاف الموضوع . قال : « ورووا عن أبى واثلة أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل ، أن الناس لم يجدوا ، فى طول ما أكلوا الشبابيط ، فى جوفها بيضاً قط . فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً . وذلك أنى سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وتقسيم الأجناس ، يدل على أن الرجل حين أحسن فى أشياء وهمه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه ، وغره من نفسه الذى غر الخليل بن أحمد ، حين أحسن فى النحو والعروض ، فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحون . . . إلخ »(١).

وقد ولى إياس قضاء البصرة ، فى إمارة عدى بن أرطأة ، أيام عمر بن عبد العزيز(٢)

ولأبى الحسن المدائنى كتاب مقصور على ذكر إياس وإبراز نوادره ، كما يذكر الثعالبى ، وقد نقل الجاحظ عن أبى الحسن ، كما نقل عنه الثعالبى . وكذلك نجد طائفة من أخباره وشواهد فراسته — ومنها ما هو منقول عن المدائنى — فى كتاب الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، لابن قيم الجوزية(٣) .

وقد عاش إياس إلى سنة ١٢٢ .

٢١٥ — الحشرية (٢٠٥ : ٨)

اصطلاح خاص بالمواريث التى لا وارث لها ، وقد ذكره القلقشندى ، فقال . « المواريث الحشرية ، وهى مال من يموت ، وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء أو الباقى بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ، ولا عاصب له ، والحشرى هو من يموت كذلك »(٤).

٢١٦ — جعفر بن يحيى (٢٠٥ : ١١)

هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكى وأنبههم وآثرهم عند الرشيد . ويذكر الجهشيارى

---

(١) الحيوان ١ : ١٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٩٧ ط ١٩٣٢ .

(٣) انظر مثلا الصفحات : ٢٥ ، ٣١ — ٣٤ ط الآداب والمؤيد ١٣١٧ هـ .

(٤) صبح الأعشى ٣ : ٤٦٤ .

أنه غلب على الرشيد غلبة شديدة ، حتى صار لا يقدم عليه أحداً ، وأنس به كل الأنس ، وأنزله بالخلد بالقرب من قصره . وقد ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية كما جعله قيم ابنه المأمون ومنشئه [١].

وقد كان أكثر سراة عصره ترفاً ، سواء فى ذلك الترف المادى والترف المعنوى . فقد كانت داره ندوة عامرة بالشعراء والرواة والعلماء ، من أبان اللاحق ، إلى الأصمعى ، إلى جبرئيل بن بختيشوع ، إلى كثير غيرهم ، وكان هو رجلا أديباً سرى اللفظ . وقد حكى الجاحظ وصف ثمامة بن أشرس له ، قال :

« كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة . ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ، كما استغنى عن الإعادة » . وقال مرة : « ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتلجلج ولا يتنحنح ، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولايلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتداراً ، ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى »[٢].

وقد بقيت لنا بقايا من كلامه المطول والموجز ، فى بعض خطبه وتوقيعاته[٣].

ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بينه وبين الرشيد ، فقتله ونكب البرامكة تلك النكبة المعروفة سنة ١٨٧ .

٢١٧ ــ أبرويز (٢٠٦ : ٦)

هو أبرويز بن هرمز ، أحد ملوك الساسانيين ، فى عهد بعثة الرسول ، صلى الله عليه وسلم . ويصفه ابن الأثير بأنه « كان من أشد ملوكهم بطشاً ، وأنفذهم رأياً . وبلغ من البأس والنجدة ، وجمع الأموال ومساعدة الأقدار ، ما لم يبلغه ملك قبله » . وفى عهده حدثت الحرب بين الفرس والروم ، وهى الحرب التى جاءت الإشارة إليها فى القرآن ، فى سورة الروم . كما كانت وقعة ذى قار فى عهده أيضاً[٤].

---

(١) الوزراء والكتاب ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٠٠ ط ١٩٣٢ م .

(٣) انظر مثلا : الوزراء والكتاب ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ٢٠٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٦٧ — ٦٨ ط الحسينية .

(٤) الكامل لابن الأثير ١ : ٢٧٩ وما بعدها .

ولأبرويز فى الأدب العربى مكان ظاهر ، بفضل ما ترجم عن الفرس فى حركة التيقظ الشعوبى ، فلدينا قطع كثيرة من وصاياه ونصائحه ، مما جاء فى كتاب التاج ، وقطع أخرى من كتابه الذى كتبه إلى ابنه شيرويه ، وهو محبسه[1].

٢١٨ ـ ابن سافرى (٢٠٨ : ١٧)

جاء ذكره فى قصة قصها الجاحظ عن أبى حكيم الكيماوى ، وكان أبو حكيم هذا يجهد جهده فى أن يحل عقدة ثمامة فيفعل له كيت وكيت ، أو يطرد له الذباب والبعوض وكان ابن سافرى هذا فى مجلس ثمامة ، فلم تقع الحيلة إلا به ، والجاحظ يصوره فى هذه القصة رجلا غفلا ، ضعيف المنة ، سهل القياد للخادع والمتغفل[2].

وقد ترجم الخطيب لمحدث اسمه أيوب بن إسحاق بن إبراهيم بن سافرى[3] .

٢١٩ ـ أبو همام السنوط (٢٠٩ : ١٦)

هو رجل من طبقة المتعبدين الأغفال ، كما يدل عليه السياق هنا وما جاء عنه فى الحيوان ، إذ يقول الجاحظ فى سياق ذكر الأعراض التى تعرض لمن يخصى : « . . . وكما عرض لأبى همام السنوط ، من امتلاخ اللحم مذاكيره وخصييه . أصابه ذلك فى البحر فى بعض المغازى ، فسقطت لحيته ، ولقب بالسنوط وخرج لذلك نهماً وشرهاً .

وقال ذات يوم : لو كان النخل بعضه لا يحمل إلا الرطب ، وبعضه لا يحمل إلا التمر ، وبعضه لا يحمل إلا المجزع ، وبعضه لا يحمل إلا البسر ، وبعضه لا يحمل إلا الخلال ، وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين ، لما كان بذلك بأس . ثم قال : أستغفر الله ! لو كنت تمنيت أن يكون بدل نواة التمر زبدة كان أصوب »[4] ولا ريب أن الصورة التى عرضها الجاحظ له هنا فى غاية الوضوح والقوة .

---

(١) عيون الأخبار ، فى كتاب السلطان .
(٢) الحيوان ٣ : ٣٨٥ – ٣٨٨ .
(٣) تاريخ بغداد ٧ : ٩ .
(٤) ١ : ١٢٢ – ١٢٣ ط الحلبى .

٢٢٠ ـ عبادان (٢٠٩ : ١٧)

بلدة واقعة فى زاوية الخليج الفارسى[١] بين فرعى الدجلة ، وهى تتفرع فى شكل دال عند قرية « المحرزى » ، وهى ـ كما يقول ياقوت ـ « موضع ردىء سبخ » ، لا خير فيه ، وماؤه ملح ، فيه قوم منقطعون عليهم وقف فى تلك الجزيرة يعطون بعضه » . وقد كانت قبل ذلك رباطاً . وقد أعدها لذلك الربيع بن صبح الفقيه[٢] .

٢٢١ ـ الشمرية (٢١٠ : ٤)

أحسب أن المراد بهم أتباع أبى شمر ، وهو من متكلمى المرجئة الثوبانية[٣] ، والخصومة شديدة بينهم وبين المعتزلة . وقد ذكر الجاحظ أبا شمر ، ووصفه بأنه « كان شيخاً وقوراً ، وزميتاً ركيناً ، وكان ذا تصرف فى العلم ، ومذكوراً بالفهم والحلم » ، وبذلك كان « إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة » . وقد ذكر الجاحظ أن مناظرة قامت بينه وبين النظام ، عند أيوب بن جعفر ، اضطره فيها إلى تحريك يديه ، وحل حبوته . وفى ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبى شمر إلى قول إبراهيم[٤] .

٢٢٢ ـ الغاضرى (٢١٠ : ٦)

أحد المصطنعين للنادرة ، والمعروفين بها ، ممن قدمنا بعض صورهم ، من أهل المدينة . وقد ذكره الآبى فى الباب الذى عقده لنوادر المدنيين[٥] . وقد كان معاصراً لأشعب ، ومنافساً له فى الباب الذى اتخذه لنفسه ، وهو باب الطمع[٦] ، كما رأينا من قبل .

وقد عاش إلى عهد المنصور ، وكان متصلا بالحسن بن زيد ، أمير المدينة فى ذلك

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٢) معجم البلدان ٦ : ١٠٥ .
(٣) الملل والنحل للشهرستانى ، ص ١٠٥ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٥١ ، ط ١٣٣٢ هـ .
(٥) نثر الدرر ٢ : ٢٠٨ مخطوط فى دار الكتب .
(٦) جمع الجواهر ، ص ٩ .

العهد . وله معه نادرة ذكرها الحصرى فى ذلك الموضع ، كما أورد له ، — فى موضع آخر — نادرة أخرى[١] ، قد تروى أحياناً عن غيره كمزبد .

وقد حكى ابن قتيبة خبراً عنه ، على أنه من حمقه[٢] ، وهو — فيما نحسب — من تحامقه ، والتحامق كان — فيما نقدر — من الصور التى تساق فيها النادرة ، ويلتمس بها ذلك الباب ، باب الإضحاك .

وإلى جانب هذا نجد الجاحظ قد روى حديثاً له ، قال إنه من ملح أحاديث الأصمعى ، وقد قال إن شيخاً من أهل المدينة عالى السن حدثه به . وإذا لم يكن هذا الحديث صحيح النسبة للغاضرى ، فإنه — على كل حال — يبين لنا ما كان معروفاً به فى أحاديثه[٣] .

٢٢٣ — محمد بن عباد (٢١٠ : ١٥)

لست أدرى ، على التحقيق ، الشخصية المقصودة بهذا الاسم ، وهو هنا أديب من مشايخ الظرفاء ، بخيل مشهور البخل ، فأنا أكاد أستيقن أن ليس المقصود به محمد بن عباد المهلبى ، أمير البصرة المتوفى سنة ٢١٤ ، فذلك رجل مشهور بالسخاء والأريحية ، حتى إن المأمون ليقول له : « أردت أن أوليك ، فمنعنى إسرافك فى المال » ، فقال « منع الموجود سوء ظن بالمعبود »[٥] . وقال أبو العباس المبرد ، فى صفته : « كان سيد أهل البصرة أجمعين »[٤] . وليس يتفق هذا مع الصورة التى صورها الجاحظ هنا لمحمد ابن عباد .

على أن هناك شخصية أخرى بهذا الاسم ، يذكرها الجاحظ ويروى عنها ، ولعلها هى المقصودة هنا ، فهى شخصية أديب كاتب شاعر ، لا يبعد أن تنطبق عليها تلك الصورة ، وهى شخصية محمد بن عباد بن كاسب . وقد عرف به بأنه كاتب زهير ، ومولى بجيلة ، من سبى دابق ، وأنه كان شاعراً راوية ، وطلابة للعلم علامة[٦] وذكره فى

---

(١) جمع الجواهر ، ص ٥٦ ، ١٢٤ .
(٢) عيون الأخبار ٢ : ٥٢ .
(٣) الحيوان ٥ : ٢٤١ — ٢٤٣ ط الحلبى .
(٤) تاريخ بغداد ٢ : ٣٧١ .
(٥) الكامل للمبرد ٢ : ٢٥ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٥١ ط ١٩٣٢ م .

موضع آخر بأنه صديق ثمامة(١) وقد روى له فى هذا الموضع قطعة من الشعر الهجائى، أشبه فى ديباجتها بشعر الكتاب ، يهجو بها أبا سعيد ، دعى بنى مخزوم . وفى رسالة أبى بكر الصولى إلى أبى الليث مزاحم بن فاتك أبيات أخرى من هذه القطعة(٢) . وأكبر الظن أن محمد بن عباد هذا هو محمد بن عباد الذى روى عنه الجاحظ — أو أسند إليه — حديث أبى المبارك الصابى(٣) .

وقد وقع الخلط بين محمد بن عباد هذا ومحمد بن عباد المغنى المكى(٤) ، الذى ترجم له أبو الفرج (٥)، والشخصيتان مختلفتان — فيما عدا الاسم — اختلافاً تاماً .

٢٢٤ — الورشان (٢١٢ : ١)

ذكره القلقشندى فى الكلام على « القمرى » فقال إنه ذكر القمرى ، وإنه يوصف بالحنو على أولاده ، حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها فى يد القانص ، وذكر أنه يسمى ساق حر ، ويكنى أبا الأخضر ، وأبا عمران ، وأبا الناجية ، وأن ابن سيده عده ، فى المحكم ، من الحمام(٦) .

وعد النويرى من أصنافه النوبى ، وهو ورشان أسود ، والحجازى . وقال إن النوبى أشجاها صوتاً(٧) .

وذكر صاحب القاموس أن لحمه أخف من الحمام ، وأورد فيه مثلا يقول : « بعلة الورشان ، يأكل رطب المشان » ، يضرب لمن يظهر شيئاً والمراد منه شىء آخر . والذى نعتبره فى هذا المثل أنه يسكن أعالى النخل .

---

(١) الحيوان ١ : ٢٦٥ .
(٢) أخبار أبى تمام للصولى ، ص ٤٥ — ٤٦ .
(٣) الحيوان ١ : ١٢٦ — ١٢٨ .
(٤) انظر هامش ص ٤٥ — ٤٦ من أخبار أبى تمام ، هامش ص ٢٦٥ من الجزء الأول من الحيوان ، ط الحلبى .
(٥) الأغانى ٦ : ١٧١ — ١٧٢ ط دار الكتب .
(٦) صبح الأعشى ٢ : ٧٣ .
(٧) نهاية الأرب ١٠ : ٢٥٩ .

٢٢٥ ـ الكردناج (٢١٢ : ٤)

جاءت هذه الكلمة أيضاً فى خبر رواه الآبى عن كتاب الأكلة للمدائنى : « ... فأكل جميع دجاجة كردناك »[١] ، وليس يفيد هذا النص شيئاً فى تفسير الكلمة ، ولعلنا نستطيع أن نتفهمها من القصة التى جاءت فى سياقها ، عن شيلمة ، محمد بن الحسن بن سهل ، كما ذكرها ياقوت . فقد كان محمد بن الحسن هذا شريكاً فى مؤامرة كان يدبرها أحد أولاد الواثق ، لينتزع الخلافة لنفسه من المعتضد . ولكن هذه المؤامرة لم تلبث ـــ بالرغم من اتساع نطاقها ـــ أن أحبطت ، وقبض على شيلمة ، وعرفت أسماء المؤتمرين إلا اسم « المستخلف » ، فأخذ المعتضد « يسائل شيلمة عن الخبر . فصدقه عن جميع ما جرى إلا اسم الرجل الذى يستخلف ، فرفق به ليصدقه عنه ، ، فلم يفعل . فطال الكلام بينهما ، فقال له شيلمة : والله لو جعلتنى « كردناكاً » ما أخبرتك باسمه قط . فقال المعتضد للفراشين : هاتوا أعمدة الخيم الكبار الثقال ، وأمر أن يشد عليها شداً وثيقاً ، وأحضروا فحماً عظيماً ، وفرش على الطوابيق بحضرته ، وأججوا ناراً ، وجعل الفراشون يقلبون تلك النار ، وهو مشدود على الأعمدة ، إلى أن مات »[٢] .

وهذه الصورة تدلنا على أن « الكردناج » هو اللحم المشوى على السفافيد ، وأحسب أن كلمة « كردناج » تدل بالفارسية على « السفود » كما جاء فى شعر إسماعيل بن عمار .

يشوى لنا الشيخ شورين دواجنه بالجردناج وشحاج الشقابين[٣]

٢٢٦ ـ التبليا والبربند (٢١٢ : ٧)

أداتان لصعود النخل ، فأما « البربند » ففارسية معناها الرباط . وأما « التبليا » فقد جاء فى مقالة للعلامة فرنكل Fraenkel تضمنت بعض الكلمات الآرامية أن هذه الكلمة مأخوذة عن : كلمة آرامية فى لفظها ومعناها المصعد المصنوع من الحبال . ثم ذكر أن هذه الكلمة غير مستعملة الآن فى العراق[٤] . وقد أشار إليها صاحب اللسان عرضاً فى مادة « ش و ى »[٥].

---

(١) نثر الدرر ٢ : ٢٢٠ خ دار الكتب .

(٢) معجم الأدباء ١٨ : ١٤٤ ـــ ١٤٥ .

(٣) الأغانى ١١ : ٣٦٦ ط دار الكتب .

(٤) Z.D.M.G. 1906, 369-370 .

(٥) « والشاة التى يصعد بها النخل ، فهو المصعاد وهو الشوائى . قال وهو الذى يقال له « التبليا ؛ وهو الكر بالعربية » (١٩ : ١٨٠) . وانظر مادة « ك رر » (٦ : ٤٥١) .

٢٢٧ – إبراهيم بن سيابه (٢١٢ : ١٠)

شخصية من شخصيات النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة . يمثل هذه الطبقة من الأدباء أو المتأدبين الذين غلب عليهم حب النادرة ، والحياة اللاهية العابثة ، والذين يعدون فى مجالس المترفين لوناً من الألوان الضرورية لها . وكذلك كانت صلته بالفضل ابن الربيع . وبإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق . وصفه أبو الفرج بأنه « من مقاربى شعراء وقته ، وليست له نباهة ولا شعر شريف ، وإنما كان يميل بمودته ومدحه إلى إبراهيم الموصلى ، وابنه إسحاق ، فغنيا فى شعره ورفعا منه ، وكانا يذكرانه للخلفاء والوزراء ويذكرانهم به إذا غنيا فى شعره ، فينفعانه بذلك . وكان خليعاً ماجناً طيب النادرة »[١] .

وكذلك استطاع أن يتصل بيحيى بن خالد البرمكى ، وقد أورد الجاحظ رسالة كتبها إليه ، يتنصل فيها ويعتذر ويتخشع ويتضرع . وقال فى تقديمها : « وبلغنى أن عامة أهل بغداد يحفظونها فى تلك الأيام »[٢] . وله أيضاً مثل هذا الاعتذار والتضرع فى قطعة من الشعر وجه بها إلى الفضل بن الربيع[٣] .

٢٢٨ – ابن عون (٢١٣ : ١٠)

هو أبو عون ، عبد الله بن عون بن أرطبان ، أحد نساك البصرة ومحدثيها ، من الطبقة التى تلى طبقة الحسن وبكر بن عبد الله . ولد سنة ٦٦ ، عام خروج مصعب لقتال المختار ، كما يقول ابن قتيبة[٤] وعاش إلى سنة ١٥١ . ويعد فى المحدثين المتزمتين الضابطين ، فهو مثال لرجل الحديث الذى يكره المراء ويمقت الجدل ويتجنب الاسترسال فى القول . وقد كانت هذه أظهر صفاته ، كما يتردد ذلك فى الأخبار المختلفة التى تؤثر عنه[٥] .

---

(١) الأغانى ١١ : ٦ ط التقدم .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ١١٠ ط ١٣٣٢ هـ . وانظر أيضاً الوزراء والكتاب ص ٢٠٣ ط الحلبى .
(٣) الأغانى ١١ : ٧ .
(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ٢٤٥ .
(٥) حلية الأولياء لأبى نعيم ٣ : ٣٧ – ٤٤ .

٢٢٩ ـ عمرو بن عبيد (٢١٣ : ١١)

أبو عثمان ، عمرو بن عبيد بن باب ، أحد شيخى المعتزلة الأولين .

وكان جده « باب » من سبى فارس ، ومن موالى تميم . وكان أبوه « عبيد » نساجاً ، ثم تحول شرطياً أو حارس سجن ، فى أيام الحجاج ، وأما عمرو فقد نشأ فى حلقة الحسن البصرى هو وصديقه واصل ، وبدأ داعية من الدعاة كما كان الشأن فى كثير من تلاميذ الحسن ، وتأثر بجو الزهد والنسك الذى كان يحيط به . ثم لم يلبث أن اختلف واصل وشيخه فى الحكم على صاحب الكبيرة ، فاعتزل حلقته ، واعتزلها معه عمرو ، وأخذا يكونان فرقة جديدة كانت من أبلغ الفرق أثراً فى الحياة العقلية فى الإسلام ، وهى فرقة المعتزلة . وإذا كان واصل صاحب الأثر الأكبر فى تكوين هذه الفرقة ، بما كان يمتاز به من قوة الحجة ، وحضور البديهة ، والقدرة على الجدل والمناظرة ، فإن عمرو بن عبيد كان أثره غير قليل بما كان له من شخصية مترفعة ، وسمعة جليلة ، وزهد أصيل . ولا ريب أن مواقفه مع المنصور كانت ما تزال تتردد فى البيئات البصرية بين الإعجاب والفخر . وقد أورد شيئاً من هذه المواقف الخطيب البغدادى فى الفصل الطويل الذى كتبه عنه[١] ، كما أورد ابن قتيبة طرفاً من حديثه فى مجلسه[٢] .

وقد تعرض عمرو بن عبيد لخصومة المحدثين العنيفة التى تظهر ألوانها المختلفة فى ذلك الفصل الذى كتبه الخطيب ، ولكنه كان يدفع هذه الحملة بمسلكه ، ويقابلها صامتاً . وحكى الجاحظ أن رجلا قال له : إنى لأرحمك مما يقول الناس فيك . قال : أفتسمعنى أقول فيهم شيئاً ؟ قال : لا . قال : فإياهم فارحم[٣] .

وفى العقد كتاب وصف بأنه كتاب واصل بن عطاء الغزال إلى عمرو بن عبيد ، وهو كتاب عجيب ينكر عليه مسلكه فى « تفسير التنزيل وعبارة التأويل » ، والكتاب أجدر أن يكون كتاب محدث ، لا كتاب متكلم ، فضلا عن أن يكون شيخ المتكلمين . وهذا إلى أن فيه ما يكاد يكون صريحاً فى نفى نسبته إلى واصل ، إذ يقول له ، يذكر

---

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٦٦ — ١٨٨ .
(٢) عيون الأخبار ٢ : ٣٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ٢ : ٤٧ .

مجلسه من الحسن : «وأنت عن يمين أبى حذيفة أقربنا إليه» وأبو حذيفة هو واصل نفسه[١] .

وقد مات عمرو بن عبيد فى أيام المنصور، سنة ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٤ .

٢٣٠ ـ مساور الوراق (٢١٣ : ١٩)

شاعر كوفى من طبقة حماد عجرد ، وفيه دعابة تلك الطائفة ، وقد ظهرت هذه الدعابة بصورة واضحة فى قصيدته التى يسخر فيها من هذه الطبقة التى تتصنع الديانة ، التماساً للعائدة ، وهى التى يبدؤها بقوله :

شمر قميصك ، واستعد لنائل واحكك جبينك للقضـــاء بثوم[٢]

وهذه القصيدة تصور حالة اجتماعية أجدر أن تكون كوفية منها أن تكون بصرية ، إذ كاد القضاء فى ذلك الوقت أن يكون خاصاً بالكوفيين .

كما ظهرت فى قصيدة أخرى أوردها ابن عبد ربه ، وهى فى وصف مائدة من موائد السراة ، وهى قصيدة جميلة الوصف ، لطيفة الأسلوب ، خفيفة الدعابة[٣].

وكان مساور ــ إلى جانب كونه شاعراً ــ متصلا بالبيئات الدينية فى الكوفة ، وله شعر فى مدح أبى حنيفة[٤] وهو نفسه يعد فى المحدثين . وله ترجمة قصيرة فى تهذيب التهذيب[٥].

٢٣١ ـ ابن القمينئة[٦] (٢١٤ : ٣)

البيت الذى ذكره له هنا الجاحظ من قطعة أوردها فى موضع آخر ، وقبله هذه الأبيات[٧] :

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٣٨٦ . ط لجنة التأليف .
(٢) الأغانى ١٦ : ١٦٨ ، وانظر البيان والتبيين ٣ : ٨٨ ط ١٣٣٢ هـ .
(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٨٢ ط ١٢٩٧ هـ (٤ : ٢٩٥ ط ١٩١٣ م) .
(٤) عيون الأخبار ٢ : ١٤٠ .
(٥) تهذيب التهذيب ١٠ : ١٠٣ .
(٦) هكذا جاء الاسم هنا بالألف واللام (على القول بلمح الأصل) ، والمشهور «ابن قميئة» مجرداً عنهما .
(٧) الحيوان ٥ : ٧٣ ط الحلبى .

ليس طعمى طعم الأنامل إذ قلّـ ـص درّ اللقـاح فى الصـنبر
ورأيت الإماء كالجعثن البا لى عـكوفاً على قُرارة قِـدر
ورأيت الدخان كالودع الأهـ ـجّن ينبـاع من وراء الستر

وابن قميئة هو عمرو بن قميئة بن ذريح البكرى، شاعر من أقدم الشعراء الجاهليين ، من عصر مهلهل بن ربيعة التغلبى . « وتزعم بكر بن وائل أنه أول من قال الشعر وقصّد القصيد » [١] . ويعده ابن سلام فى شعراء ربيعة الذين ابتدأ الشعر بهم قبل أن يتحول فى قيس كالمرقشين وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة[٢].

نشأ يتيما فى كفالة عمه مرثد بن سعد . وقضى زمناً فى الحيرة ، والرواة يقصون فى سبب رحيله إليها قصة زعموا أنها وقعت بينه وبين زوج عمه ، وليست هناك[٣] . كما أنه صحب امرأ القيس فى رحلته إلى بلاد الروم وكان إذ ذاك شيخاً « خلا من عمره وكبر » . قالوا : وإياه عنى امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقـان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك ، إنما نحاول ملـكاً أو نموت فنعذرا

كما قالوا : إنه مات معه فى طريقه ، وسمته العرب عمراً الضائع ، لموته فى غربة ، وفى غير أرب ولا مطلب .

ويعد ابن قميئة فى المعمرين ، وله قصيدة من أجود الشعر يذكر فيها أنه جاوز التسعين ، جعله بها حماد الراوية أشد الناس ، كما حكى عنه الهيثم بن عدى[٤] .

٢٣٢ ـ مذهب الأصمعى فى المبتدل والمتروك (٢١٤ : ١١)

يقول الجاحظ هنا : « كان الأصمعى يقول : قد كان للعرب كلام على معان ، فإذا ابتدلت تلك المعانى لم تتكلم بذلك الكلام » .

وقد علق « مرسيه » على هذا بقوله : « يجب أن نضيف كلمة « تزل » بين « لم »

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٠٠ ، ط القدسى ١٣٥٤ هـ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٢ ، ط السعادة . (ص ٣٤ ، ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .
(٣) الأغانى ١٦ : ١٥٨ ط التقدم .
(٤) المصدر نفسه ١٦ : ١٥٩ ، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٣٣٧ — ٣٣٨ ط الحلبى .

و « تتكلم » ليؤدى النص معنى مقبولا » ثم يقول : « بيد أن من الممكن أن الجاحظ قد خلط هنا بين نوعين من الكلمات : الكلمات التى احتفظت اللغة بها ، وهى تفسر بعادات قديمة مهجورة ، والكلمات التى اختفت من المعجم اللغوى ببطلان الحوادث التى تدل عليها ، أى « المتروك » ، كالنشيطة والمرباع والنوافج وغير ذلك مما ذكر السيوطى فى المزهر (١ : ١٤٢) » .

والذى يظهر من كلام الجاحظ أن هذا كان مذهب الأصمعى : إلغاء التعبيرات التى بطلت معانيها الأولى . ومما يدل على ذلك قوله بعد هذا : « وفى قياس قول الأصمعى أن أصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم كانوا لا يقولون : ساق فلان صداقه » ، وقوله : «وكان الأصمعى يقول : لا يقولن أحدكم : أكلت مله ، بل : أكلت خبزه » .

وأصرح من هذا فى رواية مذهب الأصمعى ما ساقه الجاحظ فى الحيوان : « ومنه قولهم : ساق إلى المرأة صداقها . قال : وإنما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون فى الصداق إبلا ، وتلك الإبل يقال لها : النافجة . . . قال : فإذا كانوا يدفعون الصداق عيناً وورقاً فلا يقال : ساق إليها الصداق . ومن ذلك أنهم كانوا يضربون على العروس البناء ، كالقبة والخيمة والخباء ، على قدر الإمكان ، فيقال : بنى عليها ، اشتقاقاً من البناء ، ولا يقال ذلك اليوم ، والعروس إما أن تكون مقيمة فى مكانها ، أو تتحول إلى مكان أقدم من بنائها »[١].

فهذا مذهب الأصمعى فى صلاحية تلك التعبيرات ، وليس فى الخبر عن استعمالها فى عهده . وأما أن الجاحظ خلط بين النوعين فغير صحيح ، فهو كما ذكر هذا النوع ، ذكر النوع الآخر ، وهو ما يسمى بالمتروك ، « وأسماؤه زالت مع زوال معانيها ، كالمرباع والنشيطة »[٢].

٢٣٣ — بسطام بن قيس ، ومالك بن المنتفق ، وعاصم بن خليفة (٢١٦ : ٧ — ٨)

يشير الجاحظ فى ذكره لهؤلاء الفرسان الثلاثة إلى يوم الشقيقة ، وهو يوم كان لضبه على شيبان . وقد قتل بسطام بن قيس ، سيد شيبان فى هذا اليوم . قتله عاصم بن

(١) الحيوان ١ : ٣٣٣ — ٣٣٤ .
(٢) الحيوان ١ : ٣٣٠ .

خليفة الضبي . وقد فصل حديث هذا اليوم فى نقائض جرير والفرزدق المنسوب إلى أبى عبيدة[١] ، عند قول الفرزدق :

وأصحاب الشقيقة يوم لاقوا بنى شيبان بالأسل الحرار

وكذلك نجد ذكر هذا اليوم فى الكامل لابن الأثير[٢] .

٢٣٤ ـ أمية بن أبى الصلت (١ : ٢١٧)

هو أمية بن عبد الله[٣] أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، وأمه قرشية وهى رقية بنت عبد شمس بن مناف . شاعر من طراز فريد فى الشعر الجاهلى ، إذ كان ـ كما يقول أبو الفرج ـ « قد نظر فى الكتب وقرأها ، وحرم الخمر وشك فى الأوثان ، وكان محققاً ، والتمس الدين وطمع فى النبوة »[٤] وقد كان شعره مظهراً لهذه المعرفة ، وكان من أسبابها رحلاته التجارية إلى الشام واليمن ، إذ أتاحت له أن يلابس رجال الدين وأن يقرأ شيئاً من كتبهم ، فجاء شعره يردد تلك القصص والأساطير الدينية ، مما لم يكن الشعراء يعرضون له إلا بالإشارات الخاطفة .

ويصفه الجاحظ بأنه « كان داهية من دواهى ثقيف . وثقيف من دهاة العرب . وقد بلغ من اقتداره فى نفسه أنه قد كان هم بادعاء النبوة ، وهو يعلم كيف الخصال التى يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له . نعم ! وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات ودرس الكتب . وقد بان عند العرب علامة ، ومعروفاً بالجولان فى البلاد ، راوية »[٥] .

وأدرك أمية الإسلام ، ولكنه لم يسلم ، بل إنه كان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ـ كما يحكى أبو الفرج فى ترجمته له ـ وكان يرثى من قتل من قريش فى وقعة بدر ، وقريش أخواله كما تقدم . وقد أورد أبو الفرج من رثائه لهم هذا البيت

ماذا ببدر والعقنقل من مرازبة جحاجح

ثم قال : « وهى قصيدة نهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن روايتها » .

---

(١) ١ : ٢٢٠ – ٢٢٣ ط الصاوى .
(٢) ١ : ٣٧٤ ط المنيرية .
(٣) هذه رواية الأغانى فى اسم أبيه ، وقد جاء فى الحيوان (٧ : ١٩٨) ان اسمه ربيعة .
(٤) الأغانى ٤ : ١٢٢ ، ط دار الكتب .
(٥) الحيوان ٢ : ٣٢٠ ط الحلبى .

وإن يكن شعر أمية قد ضاع أكثره شأن أكثر الشعر فى العصر الجاهلى ، وفى هذه الفترة ، فقد بقيت لنا طائفة من شعره ، ولا سيما الشعر الذى يمثل تلك النزعة الدينية إلى حكاية الأساطير المأخوذة من كتب أهل الكتاب .

وقد أورد الجاحظ طائفة من شعره هذا ، نحو عشر قطع[1] ، كما أن له ديواناً طبع فى بيروت ، ويحتاج ما يتضمن من الشعر للتحقيق .

٢٣٥ ــ ابن مناذر (٢١٧ : ١٢)

هو محمد بن مناذر ، شاعر بصرى تميمى ، من بنى صبير بن يربوع . وكان معاصراً لأبان بن عبد الحميد اللاحقى ، ويتهمه أبان بأنه لا يجيد الشعر إلا فى المراثى ، وقد أورد له الصولى قطعة فى هجاء أبان ، وهى من الهجاء الماجن[2] . ومما كان يقال فى شعره ما قاله أبو العتاهية له : « شعرك مهجن لا يلحق بالفحول ، وأنت خارج عن طبقة المحدثين. فإن كنت تشبهت بالعجاج ورؤبة ، فما لحقتهما ، ولا أنت فى طريقهما. وإن كنت تذهب مذهب المحدثين ، فما صنعت شيئاً »[3].

٢٣٦ ــ القطامى (٢١٧ : ١٥)

هو عمير بن شييم بن عمرو ، شاعر تغلبى أموى ، عده ابن سلام فى الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين مع البعيث وكثير وذى الرمة ، ووصفه بأنه كان « شاعراً فحلا رقيق الحواشى ، حلو الشعر »[4]، وكان ــ كالأخطل ــ من نصارى تغلب . ومنازل تغلب كانت فيما بين الخابور والفرات ودجلة من أرض الجزيرة .

وقد عاش القطامى فى أثناء الفتن التى كانت بين قيس من ناحية ، واليمن وتغلب من ناحية أخرى . وجعل يقول الشعر فى تأريث الحرب ضد قيس ، مع الأخطل وعمرو

---

(١) انظر الحيوان ٢ : ٣٢١ ــ ٣٣٦ ، ٣ : ٥١١ ، ٤ : ١٤ ، ٤٦٦ ــ ٤٦٧ ، ٥ : ٤٣٦ ، ٧ : ١٩٨ ط الحلبى .

(٢) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ، ص ٣٢ ــ ٣٣ ، ط الصاوى .

(٣) الأغانى ٤ : ٩٠ ــ ٩١ ط دار الكتب المصرية .

(٤) طبقات الشعراء ، ص ١٨٠ ، ط السعادة . (ص ٤٥٢ ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .

ابن الأهتم ومن إليهما من شعراء تغلب[١] . وقد أسر القطامى فى بعض هذه الحروب ، وأخذ ماله . ولكن زفر بن الحارث الكلابى قام بأمره ، حتى رد عليه ماله وجميع ما أخذ منه ووصله ، كما يقول البلاذرى ، وقد مدحه بشعر من أصدق الشعر وأرقه[٢].

وللقطامى ديوان شعر مطبوع فى ليدن ، وقد ترجم له أبو الفرج[٣] .

والقطعة التى أوردها الجاحظ هى قطعة من قصيدة رائعة الوصف ، يهجو بها امرأة من محارب ، نزل بها فلم تقره ، وهى فى ديوانه ، وفى الأغانى ، وفى زهر الآداب للحصرى[٤].

٢٣٧ ـ الراعى (٢١٨ : ٤)

هو عبيد بن حصين النميرى ، يعده ابن سلام فى الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين ، ويقول عنه إنه «كان من رجال العرب ووجوه قومه ، وكان ـ مع ذلك ـ بذياً هجاء لعشيرته» . وقد عاش فى تلك الفترة التى أشرنا إليها ، وشارك أيضاً فى تلك الفتن بشعره ، وقد أورد له البلاذرى بيتين يذكر فيهما ما كان بين قيس وتغلب فى يوم الخابور ويوم ماكسين[٥] ، ومن أجل هذا لم يستطع أن يتصل بالخليفة ، «وكان عبد الملك ثقيل النفس عليه » كما يقول ابن سلام[٦] . ولكنه استطاع أن يتصل ببشر بن مروان ، أمير العراق ، فكان من أصحاب مجلسه ، وله شعر فى مدحه .

ويذكر الراعى فى المعركة الشعرية التى كانت بين الفرزدق وجرير ، وكان فى جانب الفرزدق فهجاه جرير بقصيدته التى كان معجباً بها ، وكان يسميها الدماغة والدهقانة[٧]

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

وقد صار الراعى بعد ذلك مغلَّباً . وقال فيه رجل من قومه : « كان فحل مضر ، حتى ضغمه الليث » .

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٣١٥ - ٣١٦ .
(٢) طبقات الشعراء، ص ١٨٠-١٨١ ،(ص٤٥٣-٤٥٤ ط المعارف) أنساب الأشراف ٥:٣٢٨ .
(٣) الأغانى ٢٠ : ١١٩ .
(٤) ٣ : ٧١ - ٧٢ ، ط الرحمانية .
(٥) أنساب الأشراف ٥ : ٣١٨ .
(٦) طبقات الشعراء ، ص ١٧٤ . (ص ٤٣٧ ط دار المعارف ، ١٩٥٢) .
(٧) النقائض بين جرير والفرزدق ٢ : ١٣٢ - ١٥٥ ، ط الصاوى ، وانظر ترجمة الراعى فى الأغانى ٢٠ : ١٦٨ ، وشعره فى حماسة أبى تمام ، وجمهرة أشعار العرب .

٢٣٨ ـ الغنوى (٢٢٠ : ٦)

لم يعين واحداً بعينه . ولعله يكون أحد الشاعرين : طفيل بن عوف ، وكعب بن سعد .

فالأول هو أبو قران ، طفيل بن عوف بن ضبيس الغنوى ، شاعر جاهلى اشتهر بإجادة صفة الخيل ولذلك كان يسمى بطفيل الخيل ، كما يقال له « طفيل المحبر » لحسن شعره[١].

وله ديوان مطبوع ، وقد ترجم له أبو الفرج[٢].

وأما الآخر فهو كعب بن سعد ، أحد بنى سالم بن عبيد ، وهو شاعر إسلامى[٣] .

٢٣٩ ـ العجير (٢٢٠ : ١٠)

هو أبو الفرزدق ، العجير بن عبد الله ، شاعر من بنى سلول ــ وهم أبناء عم بنى عامر بن صعصعة ــ ومن شعراء العهد الأموى . وقد وصفه المرزبانى بأنه شاعر من المحسنين[٤] ، وعده ابن سلام فى شعراء الطبقة الخامسة مع أبى زبيد الطائى وعبد الله ابن همام السلولى ونفيع بن لقيط الأسدى[٥] ، وإن كان لم يتحدث عنه ، وإنما اكتفى بإيراد قطعتين من شعره .

وهو شاعر بدوى أعرابى ، ولد فى البادية ونشأ بها ، ولم يتصل بعبد الملك بن مروان أو هشام بن عبد الملك إلا وافداً . وشعره يمثل الروح البدوية تمثيلا صادقاً فى ديباجته وفى المثل التى يصورها ، وهى مثل الرجولة كما كان يتصورها عربى البادية بمظاهرها المادية والمعنوية جميعاً . فمن الأولى تلك القصيدة التى رواها ابن الأعرابى وقال إنه قالها فى رفيق له يقال له « أصبح » ، وكانا يصيبان الطريق معاً ، ومن الأخرى قصائده التى يتحدث فيها عن كرمه وقراه للأضياف ، وهو يخاطب زوجته أم خالد أو أم مالك ، وما إلى ذلك من المعانى العربية التى نراها بصورة بينة فى مراثيه التى قالها فى ابن عمه سليم بن زيد السلولى[٦].

---

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ، ص ٨٤ ، اللآلى ص ٢١٠ .

(٢) الأغانى ١٤ : ٨٨ .

(٣) اللآلى ، ص ٧٧١ — ٧٧٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٢٣٢ .

(٥) طبقات الشعراء ص ١٩٦ ، ص ٥٠٥ ط دار المعارف ١٩٥٢

(٦) انظر الأغانى ١١ : ١٤٩ — ١٥٠ ، وابن سلام ص ١٩٩ — ٢٠١ وحماسة أبى تمام ١ : ٣٨٧ — ٣٨٨ و٢ : ٢٦٥ — ٢٦٧ ومعجم البلدان ٨ : ٢٢ — ٢٣ .

٢٤٠ ـ أبو سعيد الخدري (٢٠ : ١٦)

هو سعد بن مالك بن سنان ، صحابي أنصاري ، من الخزرج . وكان من أكثر الذين رووا عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وعاش إلى سنة ٧٤[١].

٢٤١ ـ المغيرة بن شعبة (٢٢١ : ٥)

أحد الشخصيات العربية البعيدة الأثر في تكوين الدولة الإسلامية الأولى . وهو ثقفي الأصل ، ولد قبل الهجرة بعشرين عاماً ، وأسلم قبل الحديبية ، وقد شهدها مع الرسول ، وكان له موقف فيها مع أحد رسل قريش : عروة بن مسعود الثقفي ، حكاه ابن هشام[٢]، كما كان في الوفد الذي بعثه الرسول إلى ثقيف حين غزا الطائف ، سنة ثمان[٣] فلما كان عهد الفتوح في أيام عمر بعثه مدداً لسعد بن أبي وقاص وهو مقبل على القادسية سنة ١٤ ، كما شهد بعد ذلك فتح الأبلة . ثم لم يلبث أن صار أمير البصرة بعد موت واليها عتبة بن غزوان سنة ١٥ ، ويذكر ابن حجر أنه كان أول من وضع الديوان بها[٤] ، وقد ظل عليها إلى سنة ١٧ حين أشخصه الخليفة إليه للتحقيق معه فيما ادعاه عليه أبو بكرة وقذفه به[٥]، ثم ولاه بعد ذلك أذربيجان بعد فتحها سنة ٢٢، كما ولي الكوفة وبقي عليها إلى أيام عثمان ، فأقره ثم عزله . وقد وقف في فتنة عثمان موقفاً محايداً ، وكذلك كان شأنه في الخصومة بين علي ومعاويه . فلما صار الأمر إلى معاوية استعمله على الكوفة ، وقد ظل عليها إلى أن مات سنة ٥٠ . وقد وصف الطبري حكمه فيها بقوله : « فأحب العامة ، وأحسن في الناس السيرة ، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم . وكان يؤتى فيقال له : إن فلاناً يرى رأي الشيعة ، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج ، فكان يقول : قضى الله ألا يزالون مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون»[٦] .

---

(١) تهذيب التهذيب ٣ : ٤٧٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢١٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٣١٤ وانظر أيضاً ٢ : ٣٥٠ .

(٤) الاصابة في تمييز الصحابة ٣ : ٩٢٧ ، ط كلكوتا ، ١٨٨٨ م . .

(٥) انظر تاريخ الطبري ١ : ٢٥٢٩ – ٢٥٣٣ ، ط بريل ، ١٨٩٣ ، الأغاني ١٤ : ١٣٩ – ١٤٢ ، ط التقدم .

(٦) تاريخ الطبري ٢ : ١٩ – ٢٠ ، ط بريل .

ويعتبر المغيرة من أصحاب الرأى والدهاء فى العرب ، وكان يلقب بمغيرة الرأى . وتؤثر عنه محاورة مع رستم قائد الفرس فى القادسية . وأخرى مع صاحب أصبهان[١].

٢٤٢ — سعد بن أبى وقاص (٢٢١ : ٥)

أحد كبار الصحابة ، قرشى ، زهرى . أحد العشرة المبشرين بالجنة ، كما كان من الستة « أصحاب الشورى » ، وقد وصفه عمر بأنه « صاحب مقنب وقتال »[٢] وكذلك كان ، فهو فاتح العراق ، وبطل القادسية ، وهو الذى اختط مدينة الكوفة بعد ذلك وقد وليها فى أيام عمر بن الخطاب . وكانت ولايته الكوفة سنة وتسعة أشهر . وقد شكا أهل الكوفة قوته وصرامته ، فخلف عليهم عمار بن ياسر ، فشكوا ضعفه ، فتولى بعده المغيرة بن شعبة . ثم وليها سعد فى أيام عثمان . ولم يلبث أن عزل عنها بالوليد ابن عقبة[٣] . وقد ترك العراق وعاد إلى المدينة ، وظل فيها إلى أن مات بها سنة ٥٥ .

٢٤٣ — عثمان الشحام (٢٢١ : ٧)

هو أبو سلمة عثمان الشحام العدوى ، راوية محدث ، من أهل البصرة . يروى عن عكرمة ، ويروى عنه حماد بن سلمة ، ووكيع بن الجراح[٤] . ويلاحظ أن الأصمعى يروى عنه أحياناً ، كأنه أحد شيوخه[٥].

٢٤٤ — عبد الملك بن عمير (٢٢١ : ١١)

أحد رجال الكوفة ومحدثيها ، وأصحاب الرواية والخبر فيها ، فى القرن الأول وأوائل القرن الثانى . وقد تولى قضاءها فى أيام الحجاج عاماً ، خلفاً للشعبى ، عامر بن شراحيل ، ثم لم يلبث أن استعفى من منصبه هذا فأعفى . ويذكر الرواة أن هذا المنصب عرضه لبعض ما يكره ، إذ أوقعه فى لسان بعض الشعراء ، وهو هذيل الأشجعى ، فى تلك القصة التى يذكرها الجاحظ وابن قتيبة وأبو الفرج ، وقد قضى فيها لإحدى المدعيات

---

(١) المصدر السابق ١ : ٢٣٥٠ ، ٢٦٤٣ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ : ١٦ — ١٧ .
(٣) فتوح البلدان ، ص ٢٥٥ — ٢٧٩ .
(٤) الأنساب للسمعانى ، ورقة ٣٣٠ .
(٥) انظر مثلا : عيون الأخبار ١ : ١٠٤ .

على أهلها[١] . وقد كان عبد الملك بن عمير هذا — فيما يظهر — رجلا مرهف الحس ، شديد التحرج ، مبالغاً فى التحوط لمروءته .

وهو — فيما يقولون — عربى يمنى ، فصيح العبارة . وقد وصف أعرابى كلامه — فيما يحكى الجاحظ — بقوله : « لو كان الكلام يؤتدم به لكان هذا »[٢] . ومع هذا فهو يلقب بالقبطى . ولا ندرى ما حقيقة هذا اللقب الذى نجده فى شعر هذيل الأشجعى :

ففتنت القبطى حين قضى لهـا بغير قضاء الله فى السور الطول

فلو كان من بالقصر يعلم علمه لما استعمل القبطى فينا على عمل

على أن ذلك يثير فينا التساؤل عن العنصر القبطى فى الكوفة لذلك العهد ، وقد كان ينسب إليه غير واحد من أهلها .

وعبد الملك بن عمير هو أحد الذين يسند الهيثم بن عدى روايته إليهم ، ولكن الجاحظ يشك فى قيمة هذا الإسناد ، إذ كان يرى الهيثم وضاعاً مختلفاً للأحاديث ، كما سنرى ذلك فيما يلى .

٢٤٥ — الهيثم بن عدى (٢٢٢ : ٤)

هو أبو عبد الرحمن ، الهيثم بن عدى ، الطائى الكوفى ، منبجى الأصل وإن كان كوفى المولد ، ولد سنة ١٣٠ وعاش إلى سنة ٢٠٧ . « وكان أخبارياً علامة راوية ، نقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً » ، كما يقول ياقوت فى ترجمته له[٣] ، ثم يضيف إلى ذلك آراء علماء الحديث فيه . وهم مجمعون على تجريحه ، وأنه كان يكذب ، ولعل رجال الأدب لم يكونوا أقل اتهاماً له بوضع الأخبار ، وتوليد الأحاديث . فالجاحظ يقول بعد إيراده أسماء جماعة من ولد العباس ، من أصحاب العلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة : « وكان إبراهيم السندى يحدثنى عن هؤلاء بشىء هو خلاف ما فى كتب الهيثم ابن عدى وابن الكلبى ، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور »[٤] . ويقول فى موضع آخر : « وهذه الأشياء ولدها الهيثم بن عدى »[٥] .

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٧١ ط ١٩٣٢ م ، عيون الأخبار ١ : ٦٣ ، الأغانى ٤ : ٢٧ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٥٣ .
(٣) معجم الأدباء ١٩ : ٣٠٤ — ٣١٠ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ١٨٢ .
(٥) ٢ : ١٢٣ .

وقد رأينا أنه كان من صناعة الهيثم أن يسند أخباره إلى بعض الثقات، كعبد الملك ابن عمير، ولكن الجاحظ كان يشك فى صحة هذا الإسناد، ونلاحظ هذا الشك فى غير موضع. من ذلك ما نقله عنه من صفة الأحنف مسنداً إلى أبى يعقوب الثقفى عن عبدالملك بن عمير، فإذا أورد الجاحظ هذه الصفة علق عليها بقوله: «ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضاً لمنعه، ولولا أنه لم يجد بدًّا من أن يجعل له شيئاً على حال لما أقر أنه إذا تكلم جلى عن نفسه»[1] وإذن فليس عبد الملك بن عمير هو الذى يصف الأحنف هذه الصفة، وإنما هو — فيما يرى الجاحظ — الهيثم بن عدى نفسه، وإن أسند القول إلى عبد الملك بن عمير.

ونظير هذا ما نراه هنا فى هذا الحديث الذى يورده الجاحظ فى البخلاء، مصدراً بقوله:

«وذكروا عن عبد الملك بن عمير . . . .» ثم يعلق عليه بقوله: «وأنا أتهم هذا الحديث لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربى يعرف مذاهب العرب. وهو من أحاديث الهيثم».

٢٤٦ — المنتجع بن نبهان (٢٢٣ : ١٤)

راوية كان علماء العراق يأخذون عنه. وقد ذكره الجاحظ فى رسالة فضل السودان، فقال: «وكان المنتجع سندياً فى أذنه خرته، وقع إلى البادية وهو صبى، فخرج أفصح من رؤبة»[2].

٢٤٧ — الأفوه الأودى (٢٢٣ : ١٦)

صلاءة بن عمرو بن مالك، من كبار الشعراء القدماء فى الجاهلية، كما يروى أبو الفرج فى ترجمته له، وكان سيد قومه وقائدهم فى حروبهم، وكانوا يصدرون عن رأيه[3]. ويذهب بعضهم إلى أنه أول من قصد القصيد[4]. وقد جمع الشيخ عبد العزيز الميمنى شعره، وضمنه المجموعة التى أسماها بالطرائف الأدبية.

(١) ١ : ٣٢ ط ١٣٣٢ هـ.
(٢) مجموعة رسائل للجاحظ، ص ٦٥.
(٣) الأغانى ١١ : ٤٤.
(٤) المزهر ٢ : ٢٩٦ ط محمد على صبيح.

٢٤٨ ـ معن بن أوس (٢٢٤ : ٣)

شاعر من فحول الشعراء المخضرمين ، وقد عاش أكثر حياته فى الإسلام ، وهو من قبيلة مزينة ، وكانت منازلها بين مكة والمدينة . ويبدو أن الشعر الذى وصل إلينا من شعره شعر ناضج ، ولعله جميعاً شعر إسلامى .

وشعر أوس شعر رصين جيد الصنعة ، متمهل ، وقور ، وهو كثير الحكمة التى تصدر عن التمرس بالحياة . وقد دخل الشام ، وأقام بالبصرة زماناً ، ولكنه لم يكن يلبث حتى يحن إلى حياته البدوية . وحسبه أن يمدح سراة المدينة كعبيد الله بن العباس ، وعبيد الله بن جعفر ، وعاصم بن عمر بن الخطاب ، وسعيد بن العاص .

والقطعة التى هنا هى من قصيدة له يمدح بها سعيداً ، ومطلعها :

إليك سعيد الخير جابت مطيتى   فروج الفيافى وهى عوجاء عيهل

وله ديوان شعر طبع فى ليبسج ، ثم طبع فى مصر .

٢٤٩ ـ سعيد بن العاص (٢٢٤ : ٣)

سرى من سراة المدينة المشهورين ، وهو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية . قتل أبوه يوم بدر وكان صغيراً ، فكفله عمه الحكم بن سعيد . فلما كانت خلافة عثمان كان سعيد شاباً فولاه الكوفة . فلم يلبث أن فسد الأمر بينه وبين أهلها فساداً أدى إلى انتقاض أهل الكوفة على عثمان على النحو الذى فصله البلاذرى[1] . وقد استدعاه عثمان فرجع إلى المدينة ، وأقام فيها معه إلى أن كانت الثورة عليه ، فكان فى المدافعين عنه . فإذا كانت فتنة الجمل بين على وعائشة ، فقد اعتزل السياسة ، وأقام فى مكة .

وفى خلافة معاوية ولاه الحرمين ، وكان يعاقب بينه وبين مروان بن الحكم . وقد كانت تحدث بينهما أشياء ، ولكن سعيدا كان يرى نفسه أكبر من هذه الهنات ، وقد ظل على هذه الولاية حتى مات سنة ٥٩ .

وأحاديث كرمه وتخرقه فى الثناء كثيرة ، نجد أطرافاً منها عند البلاذرى وأبى الفرج وابن عبد ربه[2].

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٣٩ ـ ٤٧ .

(٢) أنساب الأشراف ، القسم الثانى من الجزء الرابع ، ص ١٣٠ ـ ٢٣٦ ، الأغانى ١ : ٣٢ ، ٣٣ ، العقد الفريد ١ : ٣٤٤ ـ ٣٤٧ ، ط لجنة التأليف .

٢٥٠ ـ الكميت (٢٢٥ : ٣)

هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدى ، شاعر كوفى أموى . « من شعراء مضر وألسنتها ، والمتعصبين على القحطانية ، المقارنين المقارعين لشعرائهم ، العلماء بالمثالب والأيام ، المفاخرين بها . وكان معروفاً بالتشيع لبنى هاشم » كما يقول أبو الفرج فى ترجمته له[١]. ويصفه الجاحظ فوق ذلك بأنه خطيب ، ويذكر معه فى ذلك البعيث والطرماح[٢] . وأشهر شعره « الهاشميات » ، وقد عاش إلى أواخر الدولة الأموية ، ولم يدرك العباسية .

٢٥١ ـ عبد الله بن الزبير (٢٢٦ : ٤)

هو أبو كثير ، عبد الله بن الزبير الأسدى[٣] . من أسرة معروفة بالشعر . كان أبوه الزبير بن الأشيم شاعراً ، وكذلك كان عمه مطير بن الأشيم[٤] . « وهو شاعر كوفى المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية ، وكان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم ، والتعصب والنصرة على عدوهم » ، كما يقول أبو الفرج فى ترجمته[٥]. وأكثر شعره فى أسماء بن خارجة الفزارى . « وكان أسماء أموى الهوى » .

وكذلك يعد ابن الزبير من الشعراء الهجائين للناس المرهوب شرهم ، وقد هجا عبد الرحمن بن أم الحكم حين كان والياً على الكوفة من قبل خاله معاوية . وهجا عبدالله ابن الزبير بن العوام حين أسرف على أخيه عمرو بن الزبير فى العذاب حتى مات فى سجنه .

وقد أدرك عهد الحجاج فى الكوفة ، وخرج فى بعث له إلى الرى فمات فيها .

---

(١) الأغانى ١٥ : ١٠٨ — ١٢٥ .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ٢٧٢ ط مصطفى محمد ١٩٣٢ م .
(٣) يذكر صاحب القاموس أن الزبير أبا عبد الله هذا بفتح الزاى وكسر الباء كأمير .
(٤) أنظر الأغانى ١٣ : ٤٦ ، ط التقدم ، معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٧٠ ، وكذلك كان الزبير ابن عبد الله بن الزبير شاعراً ، ممن اتصل بمحمد بن عيينة بن إسماعيل بن أسماء بن خارجة ومدحه .
(٥) الأغانى ١٣ : ٣١ — ٤٧ .

٢٥٢ ـ أسماء بن خارجة (٢٢٦ : ٤)

هو أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزارى . سرى من سراة الكوفة فى القرن الأول ، وإن لم يل للسلطان عملا ، كما يحكى ابن عبد ربه عنه وعن مالك بن مسمع[١] وهو أحد ثلاثة يعدون أجواد الكوفة الظاهرين[٢] وقد تزوج بشر بن مروان ابنته عند ما ولى الكوفة[٣] . مات فى عهد الحجاج ، ويروى الجاحظ أن الحجاج حين بلغه موته قال : « هل سمعتم بالذى عاش ما شاء ، ومات حين شاء »[٤].

٢٥٣ ـ ابن عبدل (٢٢٦ : ١٣)

هو الحكم بن عبدل الأسدى الغاضرى ، « شاعر مجيد فى طبقته ، هجاء خبيث اللسان ، من شعراء الدولة الأموية . وكان أعرج أحدب ، وكان من أطيب الناس وأملحهم » كما يقول أبو الفرج فى ترجمته[٥] وهو من بنى غاضرة ، وبنو غاضرة ـ كما يقول أبو الفرج أيضاً ـ قوم ظرفاء ، وقد رأينا فيهم من هو أهل النادرة . وبهذا الظرف وخفة الروح وحضور البديهة والنكتة الرائعة يمتاز شعر الحكم ، سواء منه ما كان فى باب الهجاء وغيره .

وقد ظل بالكوفة إلى أن ظفر ابن الزبير بالعراق ، وأخرج عنها عمال بنى أمية ، فخرج الحكم معهم إلى الشام ، وهناك اتصل بعبد الملك بن مروان ، وكان سميره : يتقارضان الشعر ، ويتذاكران أحوال العراق . ثم عاد من بعد إلى العراق .

وكان شديد الاتصال ببشر بن مروان ، وحين تحول بشر إلى البصرة صار معه إليها ، كما كانت صلته طيبة بابنه عبد الملك بن بشر ، على حين كانت صلته سيئة بالولاة الآخرين ، كيزيد بن هبيرة ، ومحمد بن حسان بن سعد ، وعمر بن يزيد الأسدى ، وكان يهجوهم هجاء لاذعاً ، وكان هذا الهجاء من وسائله إلى ارتفاع المنزلة . ويقول الجاحظ : « قالوا : ولما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدى لمحمد بن حسان بن

---

(١) العقد الفريد ١ : ١٥٩ ط لجنة التأليف .
(٢) الأمالى لأبى على ٣ : ٢٠ ، العقد ١ : ٣٤٠ .
(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٧٣ .
(٤) البيان التبيين ١ : ١٤٤ .
(٥) الأغانى ٢ : ٤٠٤ .

سعد وغيره من الولاة هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الصغير والكبير — وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه — فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ، ويبعث بها مع رسوله فلا يحبس له رسول ، ولا يؤخر لقراءة الكتاب ، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدر »[١].

هذا وعندنا أن الحكم بن عبدل يعتبر زعيم تلك المدرسة الماجنة العابثة التى صيرت ذلك العبث باباً من أبواب الفن ، ولا ريب عندنا فى أن أثره فيمن جاء بعده من شعراء الكوفة والبصرة كان أثراً غير قليل .

ولم يبق لنا من شعر الحكم إلا قدر غير كثير . على أن أكثر ما بقى له إنما نجده عند الجاحظ[٢] لا عند أبى الفرج . وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى قطعة، قال إن النضر بن شميل أنشدها المأمون[٣] .

٢٥٤ — بشر بن مروان (٢٢٦ : ١٣)

هو أبو مروان ، بشر بن مروان بن الحكم بن أبى العاص ، أخو عبد الملك ، ووالى الكوفة فى عهده . وذكر البلاذرى أن بشراً كان منقطعاً إلى عبد العزيز بن مروان قبل أن يلى عبد الملك الخلافة ، فلما وليها استعمله على الكوفة ثم أضاف إليه البصرة بعد ذلك . وقد كانت ولايته ولاية كريمة ، إذ كان — كما يقول البلاذرى — « لين الولاية سهل الحجاب ، طلق الوجه ، كريماً . وكان صاحب شراب ينادم عليه » .

وقد كان مجلسه فى الكوفة ثم فى البصرة من أرحب الأندية الأدبية التى تتسع للشعراء المختلفين ، كجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وكثير ، وأعشى بنى شيبان ، وأيمن ابن خريم ، وسراقة البارقى ، ونصيب ، إلى غيرهم ، وكان بشر نفسه يتذوق الشعر ويلذه ، ويقوله فى بعض الأحيان ، كما كان يلذ له أن يؤرث بين الشعراء ليشهد ألواناً من المنافرة الأدبية .

ولم يزل بشر على الكوفة حتى ضمت إليه البصرة سنة أربع وسبعين ، فانحدر إليها ، ولكن مقامه لم يطل فيها ، إذ أدركته العلة ، وحضرته الوفاة بعد أشهر أربعة أو ستة[٤].

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٣٨ ، ط ١٣٣٢ هـ .

(٢) انظر مثلا : الحيوان ١ : ٢٣٦ ، ٢٤٩ — ٢٥٣ ، ٣٥٠ ، ٢ : ٣٠٥ ، ٣ : ٣٨٠ — ٣٨١ ، ٥ : ٢٩٧ — ٣٠٠ .

(٣) ص ١١٢ ط المنيرية .

(٤) انظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٦٦ — ١٨٠ .

٢٥٥ ـ الرقاشي (٢٢٧ : ١)

لا ريب أن المقصود بالرقاشي هنا الفضل بن عبد الصمد ، وإن جعله فان فلوتن في الفهرست التي وضعها لكتاب البخلاء الفضل بن عيسى الرقاشي ، وبينهما بون بعيد . فالفضل بن عيسى خطيب قاص متكلم ، من طبقة واصل وعمرو بن عبيد وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبه ، والفضل بن عبد الصمد شاعر أدنى إلى الخلاعة والمجون ، من طبقة أبي نواس وعمرو الوراق والحسين الخليع وداود بن رزين الواسطي وعلي بن الخليل اسماعيل القراطيسي ، وبقية هذه الجماعة التي كانت تعيش في البصرة عيشة لاهية عابثة ، وتتخذ من الشعر أداة حية لتصوير هذه الحياة .

والرقاشي هذا من أهل الري ، وقد مدح الرشيد وأجازه ، كما يقول أبو الفرج[1] إلا أن انقطاعه كان إلى آل برمك ، مستغنياً بهم عمن سواهم . وقد اشتدت صلته بهم ، وعظم تقديرهم له ، حتى إذا نكبوا كان أحد القلة القليلة التي بقيت على الوفاء لهم والتنويه بهم ، وقد « صار إليهم في حبسهم . فأقام معهم مدة أيامهم ، ينشدهم ويسامرهم ، حتى ماتوا فأكثر من رثائهم ، » وقد أورد أبو الفرج طائفة من مراثيه فيهم .

هذا وقد كانت بينه وبين أبي نواس مهاترة شعرية . وقد احتفظ لنا ديوان أبي نواس بمجموعة من أهاجيه فيه[2] . أما شعره فقد ضاع معظمه ، فلم يبق لنا منه إلا القليل . وفي البيان والتبيين أرجوزتان قصيرتان في صفة القوس[3] يعبران عن هذه النزعة البدوية التي كانت تظهر أحياناً في شعر هؤلاء الشعراء .

٢٥٦ ـ الآزاد مردية (٢٢٨ : ١٢)

أنقل هنا ما ذكره صديقي المرحوم الدكتور كروس عن « الشعوبية الآزاد مردية » في مقالة نشرها بهذا العنوان في مجلة الثقافة ، مناقشاً رأياً كنت ذهبت إليه في تفسيرها ، وأعترف هنا أني رجعت عنه ، وأنه ـ رحمه الله ـ كان موفقاً أحسن التوفيق في رأيه . قال :

(١) الأغاني ١٥ : ٣٤ ، ط التقدم .

(٢) ديوان أبي نواس ، ص ١٤٧ — ١٤٩ ، الحميدية ، ١٣٢٢ .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ٥٠ ، ٦٤ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .

« ليس آزادمرد اسم علم ولا لقباً لأشخاص معينين ، بل هو تسمية فارسية للأرستقراطية الإيرانية ، تسمية يفتخر بها أنصار الشعوبية ، ويتحدون بها العرب والتراث العربى . وإن أردت فقل : إن لفظ الشغوبية المعروف عنه أنه مشتق من العبارة القرآنية « . . .شعوباً وقبائل . . . » لم يستعمله أنصار الوطنية الإيرانية إطلاقاً على أنفسهم ، وأنه ليس هنا كلمة إيرانية أجدر بأن تكون لقب شرف لمقاصدهم من لفظ الآزادمردية ، مما يكاد أن يفسر لك تلك الواو الصغيرة التى ربط بها الجاحظ بين الشعوبية « و » الآزادمردية .

هذا وقد يعرف كل من تعلم شيئاً من اللغة الفارسية أن آزاد معناه الحر ، ومرد معناه الرجل أو المرء ، وقد وردت الكلمة آزاد مرد الفارسية فى كثير من النصوص القديمة والحديثة بمعنى الرجل الكريم ، والنبيل ، وبعيد الهمة ، كما نجدها بهذا المعنى نفسه ، وبصيغة « آزات مرت » أو « اذاذ مرد » فى كثير من المصادر الفهلوية القديمة . وأمامى فى هذه اللحظة تصوير خاتم فهلوى ، من العهد الساسانى ، منقوش عليه اسم صاحبه هكذا : « أزبوتان آزاد مرد زميني أوت » ومعناه : « أزبوتان المرء الحر من أرض أوت » .

أما بعد ، فإذ قد وصلنا إلى هذه الغاية ، فإنا نورد لك نصاً أخيراً ، يثبت ما نحن فيه أحسن الإثبات إذ استعملت فيه عبارة « الآزادمردية » فى المعنى بعينه الذى استعمله فيه الجاحظ ، فى كتاب البخلاء ، أى بمعنى الشعوبية والوطنية الايرانية ، وقد عثرت على هذا النص فى كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة الاصفهانى . . . وهاك به :

« ذكر علماء الآزاد مردية أنهم ألفوا لغات جميع الأمم فى الكمية على ما كانوا ناطقين وعلى الحيلة فى مبدأ الكون ، لايتولد فيها الزيادات والنماء ، على مرور الأزمان ، وتصرم الليالى والأيام ، وأنهم وجدوا اللغة العربية على الضد من سائر لغات الأمم ، لما يتولد فيها مرة بعد أخرى » .

فهذ النصر يعبر عن مقاصد الشعوبية أحسن التعبير »[١] .

وأنا أسلم أن « الآزاد مردية » كانت تطلق على بعض الطبقات الرفيعة فى المجتمع الإيرانى[٢] قبل الإسلام ، وقد بقيت هذه التسمية لطبقة معينة بعد الإسلام ، كما جاء فى الطبرى ، فى حوادث سنة ١٣٢ ، فى ذكر الخبر عن تبييض أبى الورد :

(١) مجلة الثقافة ، العدد ٢٢٤ ، السنة الخامسة (١٣ أبريل ١٩٣٤) ص ١٢ .

(٢) انظرا : Christensen, *Iran Sous les Sassanides.*

« فقدم بالسرقائد من قواد عبد الله بن علي، من الآزاد مردين، في مائة وخمسين فارسًا»[١].

على أن هذه الكلمة قد ترجمت إلى العربية منذ العصر الجاهلي ووضع بإزائها كلمة « الأحرار » أو « بني الأحرار » ، على النحو الذي نراه في شعر الأعشى ، إذ يتحدث عن وقعة ذي قار ويمدح بني شيبان بن ثعلبة في موقفهم إزاء الفرس ، وذلك إذ يقول :

تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فولت[٢]

فبنو الأحرار تدل هنا على الفرس .

ثم نراها بعد ذلك في كلام ابن المقفع دالة على طبقة بعينها ، إذ يقول في كتابه الأدب الكبير : « ليتفقد الوالي — فيما يتفقد من أمور الرعية — فاقة الأحرار منهم ، فليعمل على سدها ، وطغيان السفلة منهم فليقمعه»[٣] فكلمة « الأحرار » هنا صريحة في أنها تدل على الطبقة التي تقابل طبقة « السفلة » ، أي أنها تقابل كلمة « الأشراف » التي كانت تستعمل قبل ذلك ، وكذلك نراها مستعملة هذا الاستعمال في شعر إسحاق ابن إبراهيم الموصلي إذ يفتخر بأصله وولائه :

إذا كانت الأحرار أصلي ومنصبي ودافع ضيمي خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداي الثريا قاعداً غير قائم[٤]

ومثل هذا ما جاء في شعر بشار :

تفاخر يا ابن راعية وراع بني الأحرار؟ حسبك من خسار[٥]

فكل هذا — إلى غير ذلك من الشواهد — صريح في أن كلمة « الأحرار » أصبحت تستعمل استعمالا خاصًّا ، صادرًا عن ذلك المعنى الذي كشف عنه الدكتور كروس للآزاد مردية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل جرت على الكلمة سنة العربية ، فاشتق منها ، فجاءت كلمة « الحرية » لا بالمعنى الذي يقابل العبودية ، بل بمعنى

(١) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ١٣٧ ، ط الحسينية المصرية .
(٢) ديوان الأعشى الكبير ص ٢٦١ ط المطبعة النموذجية ، القاهرة ، ١٩٥٠م .
(٣) رسائل البلغاء ، ص ٦٦ ، ط ١٩١٣ م .
(٤) الأغاني ٥ : ٢٧٨ .
(٥) الأغاني ٣ : ١٦٦ .

الشرف والنبل ، فكانوا يقولون: « الحرية نسب[١]» و « أنت ابن الحرية والمروة ، ومن لا يلحقه عار أبوة ولا بنوة »[٢] ويقول الجاحظ فى مقدمة الحيوان : « وهل الغيرة اكتساب وعادة ، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة ، ولبعض التزيد فيه والتحسن به ، أو يكون ذلك فى طباع الحرية ، وحقيقة الجوهرية »[٣] ، بل إن الوصف بالحرية ، إن كان فى معنى الشرف والنبل ، لم يعد مقصوراً على الإنسان ، فنرى الجاحظ يقول : « إن عتاق الخيل وأحرار الطير ، أدق حسًّا وأشد اكتراثاً »[٤] .

٢٥٧ ــ عبد الله بن جدعان (٢٢٩ : ١٥)

سرى من سراة قريش فى الجاهلية ، تروى عنه أخبار كثيرة فى الكرم ، وحتى ليضرب المثل بجفانه التى كان يأكل منها الراكب والقائم والقاعد[٥] ، ويقال إنه وفد على كسرى ، وإنه نقل عن الفرس طعام الفالوذج ، فكان يصنعه فى مكة ويطعمه الناس ، وجاء فى ذلك المدح المشهور الذى يذكر فيه هذا الطعام :

إلى ردح من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

وكان ممدوح أمية بن أبى الصلت[٦] ، كما جاء فى أخبار دريد أنه هجاه ثم مدحه[٧] .

٢٥٨ ــ الهذلى (٢٣٠ : ١٦)

البيت الذى ينسبه الجاحظ له هنا ينسبه الأصبهانى إلى صخر بن عبد الله الخيثمى الهذلى ، المعروف بصخر الغى . فالمقصود بالهذلى ، إذن ، هنا هو صخر الغى هذا . وقد ذكر الأصبهانى أنه لقب بهذا لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شره . وكذلك كان أخوه الأعلم

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢١٧ .
(٢) عيون الأخبار ٢ : ٢٢٧ .
(٣) الحيوان ١ : ٤ .
(٤) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٩٦ ط لجنة التأليف .
(٥) الحيوان ٣ : ٤٠٣ .
(٦) الأغانى ٤ : ١٢٠ .
(٧) الأغانى ١٠ : ٢٠ — ٢١ .

يعد « أحد صعاليك هذيل ، وكان يعدو على رجليه عدواً لا يلحق » . كما كان أيضاً شاعراً يقول الشعر فى مغامراته ومخاطراته .

وهذا البيت هو جزء من قطعة كان يرتجز بها فى إحدى مخاطرته ضد بنى المصطلق من خزاعة، إذ أحاطوا به ، فظل يرميهم ويقاتلهم حتى قتلوه[١].

٢٥٩ ـ المرار بن سعيد (٢٣١ : ٣).

أبو حسان ، المرار بن سعيد ، الفقعسى ، شاعر بدوى أموى ، وقيل بل من مخضرمى الدولتين ، ووصفه المرزبانى بأنه كثير الشعر ، ولكن الباقى لنا من شعره قليل ، فعدا ما جاء منه فى ترجمته بالأغانى[٢] ، نجد أبا تمام يروى له قطعتين قصيرتين[٣] وكذلك المرزبانى[٤].

والمرار بن سعيد يعد فى اللصوص ، كما يقول صاحب الأغانى : « كان المرار بن سعيد وأخوه بدر لصين ، وكان بدر أشهر منه بالسرقة وأكثر غارات على الناس » . ولكن القليل الذى وصل إلينا من شعره لا يكاد يصور شيئاً من ذلك ، إلا ما كان من قصيدته التى قالها وهو فى سجن اليمامة . ومن أروع شعره قصيدته التى رواها أبو الفرج فى رثاء أخيه ، وقد مات فى السجن :

ألا يا لقومى للتجلد والصبر ... وللقدر السارى إليك وما تدرى
وللشىء تنساه وتذكر غيره ... وللشىء لا تنساه إلا على ذكر

٢٦٠ ـ كامل بن عكرمة (٢٣١ : ١٣)

ذكره المرزبانى ، ولم يعرفه بشىء ، أكثر من إيراد بيتين له :

أرى كل عام موعداً غير ناجز ... وخلفاً إذا ما رأس حول تجرما
وإن أوعدت شراً أتى قبل وقته ... وإن وعدت خيراً أراث وأعتما[٥]

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٢٠ — ٢٢ ، ط التقدم ، القاهرة

(٢) ١٠ : ٣١٧ — ٣٢٢ .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ٣١٥ .

(٤) معجم الشعراء ، ص ٤٠٨ .

(٥) معجم الشعراء ، ص ٣٥٥ .

٢٦١ – بشر بن أبي خازم (٢٣٢ : ٢)

ترجم له ابن قتيبة ، فقال إنه من بنى أسد ، وإنه جاهلى قديم ، شهد حرب أسد وطئ ، كما شهد هو وابنه نوفل بن بشر الحلف بينهما . وقد ظهر فى شعره أثر هذه الخصومة بين القبيلتين ، فكان – كما يقول ابن قتيبة – يهجو أوس بن حارثة بن لام الطائى [١] .

وبشر بن أبى خازم مشهور عند نقاد الشعر بإقوائه ، هو والنابغة[٢] ، وهذا الإقواء الذى يذكرونه وقع فى قصيدة له أوردها المفضل الضبى ، ومطلعها :

أحق ما تقول أم احتلام   أم الأهوال إذ صحبى نيام

وهى واحدة من قصائد أربعة متوالية رواها المفضل ، وهى – فيما عدا المقدمات الغزلية – فى وصف ما كان بين بنى أسد وخصومهم من طيء وسعد بن ضبة وبنى عامر [٣]

وقد قتل بشر فى إحدى هذه الحروب ، قتله عمرو بن حذار ، من بنى وائلة ابن صعصعة[٤].

٢٦٢ – أبو الصلت بن أبى ربيعة (٢٣٢ : ١٦)

هو أبو أمية بن أبى الصلت ، المتقدم ذكره ، ويذكره أبو الفرج فى ترجمة أمية ، فيقول : «وكان أبو الصلت شاعراً ، وهو الذى يقول فى مدح سيف بن ذى يزن :

ليطلب الثأر أمثال ابن ذى يزن   إذ صار فى البحر للأعداء أحوالا »[٥]

وهذا البيت من قصيدة أوردها ابن هشام[٦] ، منسوبة إلى أمية ، وأجدر أن تكون لأبيه . كما ينسب الجاحظ البيت المذكور هنا له ، وهو من هذه القصيدة أيضاً .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٢٩ ط دار أحياء الكتب العربية .
(٢) الموشح للمرزبانى . ص ٥٩ ط السلفية ، ١٣٤٣ هـ .
(٣) المفضليات ، ص ٦٠ – ٧٠ .
(٤) معجم الشعراء للمرزبانى ، ص ٢٢٢ .
(٥) الأغانى ٤ : ١٢٠ .
(٦) السيرة لابن هشام ١ : ٤٢ – ٤٣ .

٢٦٣ ـ عدى بن زيد (٢٣٣ : ٥)

يصفه أبو الفرج فى ترجمته له بأنه « شاعر فصيح من شعراء الجاهلية ، وكان نصرانياً ، وكذلك كان أبوه وأمه وأهله ، وليس ممن يعد من الفحول ، وهو قروى » . ويذكر عن ابن الأعرابى قصة اتصاله بكسرى ، وأنه كان أول من كتب بالفارسية فى ديوان كسرى ، إلى آخر ما يحكى من قصة حياته ، وهى قصة طريفة مثيرة ، يتخللها شعر عدى .

ورأى النقاد العرب فى هذا الشعر يتلخص فيما يروى عن الأصمعى وأبى عبيدة : إذ يقولان : « عدى بن زيد فى الشعراء ، بمنزلة سهيل فى النجوم : يعارضها ولا يجرى مجراها »[١] .

٢٦٤ ـ خداش بن زهير (٢٣٣ : ١٣)

هو خداش بن زهير بن ربيعة ، من عامر بن صعصعة ، كما نسبه الآمدى[٢] . أحد الشعراء الفرسان فى الجاهلية . وقد ذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة[٣] ، وروى عن أبى عمرو أنه أشعر فى قريحة الشعر من لبيد ، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد . وكان يهجو قريشاً ، ويقال إن أباه قتلته قريش أيام الفجار .

وقد أورد له ابن سلام قطعتين فى هجاء قريش ، من إحداهما البيت الذى أورده الجاحظ هنا .

كما أن له بيتين فى جميل والحارث ابنى معمر ، وردا فى « المؤتلف والمختلف » عن أنساب قريش للزبير بن بكار[٤] .

٢٦٥ ـ عبد الله بن همام السلولى (٢٣٣ : ١٥)

ذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة ، من طبقات الشعراء الإسلاميين . ووصفه بقوله :

---

(١) الأغانى ٢ : ٩٧ — ١٤٦ .
(٢) المؤتلف والمختلف ، ص ١٠٧ .
(٣) طبقات الشعراء ، ص ٥٣ — ٥٤ . ص ١١٩ ، دار المعارف ، ١٩٥٢
(٤) المؤتلف والمختلف ص ٧٣ .

« كان عبد الله بن همام رجلا له جاه عند السلطان، ووصلة بهم ، وكان سريًّا فى نفسه ، وله همة تسمو به ، وكان عبد آل حرب مكيناً حظيًّا فيهم ، وهو الذى حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية » . ثم ذكر بعد ذلك قصيدة له فى رثاء معاوية بن أبى سفيان ، والحض على البيعة لمعاوية بن يزيد[١] . وقد أورد له الجاحظ قطعة أخرى فى رثاء يزيد كذلك[٢] . وشعره فيما عدا ذلك مفرق فى كتب الأدب كالبيان والتبيين والحيوان وعيون الأخبار والكامل[٣] . وقد عاش كما يقول أبو عبيد إلى أيام سليمان أو بعده[٤].

٢٦٦ ـ فائد بن حبيب (٢٣٦ : ١٠)

ذكره المرزبانى فسرد نسبه ، ثم قال إنه كوفى إسلامى معروف ، ولم يزد[٥].

٢٦٧ ـ ابن داره (٢٣٦ : ١٢)

ذكره أبو الفرج ، فقال إنه عبد الرحمن بن مسافع بن داره ، من شعراء الإسلام ، من غطفان . وقد أكثر فى هجاء بنى أسد ، لأنها أخذت نديمه السمهرى العكلى ، وكان متهماً فى حادث قتل،فبعثت به إلى السلطان ، فقتله ، وقد ظفرت بنو أسد أخيراً بعبد الرحمن بن داره ، فقتله واحد منهم[٦] .

٢٦٨ ـ البراء بن ربعى (٢٣٧ : ١)

لعله شاعر إسلامى ، كما قد يؤخذ من سياق إيراده فى هذا الموضع ، ومن قول المرزبانى فى الكلام عن أخيه مضرس إن له خبراً مع الفرزدق[٧] . وقد ذكره الآمدى

---

(١) طبقات الشعراء ، ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ . ص ٥٢٢ ــ ٥٢٤ ، ط دار المعارف ، ١٩٥٢
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٦٦ ــ ٦٧ .
(٣) انظر مثلا : البيان ١ : ٣١١ ط ١٩٣٢ م ، الحيوان ١ : ٢١٦ ، ٤ : ١٣٧ ، ٦ : ٢٣ ، الكامل للمبرد ١ : ٤١ ، ٢ : ١١ ، عيون الأخبار ١ : ٤١ ، ٥٧ ــ ٥٨ .
(٤) اللآلى ص ٦٨٣ .
(٥) معجم الشعراء ص ٣١٦ .
(٦) الأغانى ٢١ : ٤٩ ــ ٥٧ ، وانظر الشعر والشعراء ١ : ٣٦٢ ط دار إحياء الكتب العربية .
(٧) معجم الشعراء ص ٣٩٠ ط القدسى ١٣٥٤ هـ .

فقال[١] : «أبو الحناك البراء بن ربعى الفقعسى القائل :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا أرجى الحياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى من أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم وما الكف إلا إصبع ثم إصبع
لعمرك إنى بالخليل الذى له على دلال واجب لمفجع
وإنى بالمولى الذى ليس نافعى ولا ضائرى فقدانه لممتع »

وهذه القطعة من اختيارات أبى تمام فى حماسته[٢].

٢٦٩ — مضرس بن ربعى (٢٣٧ : ١)

فأما مضرس هذا فقد كان — فيما يبدو — أشهر من أخيه البراء ، وقد وصفه الآمدى فى كلمته الصغيرة عنه بأنه « شاعر محسن متمكن »[٣]. وأما خبره مع الفرزدق الذى أومأ المرزبانى إليه ، كما ذكرنا ، فقد أورده أبو عبيد البكرى فى التنبيه واللآلى[٤].

وأما شعره فقد بقيت منه قطع قليلة قصيرة ، منها ما جاء فى كلام الآمدى والمرزبانى عنه ، ومنها ما يقع بين مختارات أبى تمام[٥] ، ومنها ما هو مشتت متناثر فى الكتب المختلفة ، كالذى جاء منه فى معجم البلدان فى سياق الكلام عن هذا الموضع أو ذاك ، لأنه ورد فى هذه القطعة أو تلك من شعره[٦].

وجملة القول فى الشعر أنه شعر بدوى ، تظهر فيه المثل العربية الخالصة ، فى المعانى والصور ، وفى الديباجة المحكمة .

---

(١) المؤتلف والمختلف ص ٨٦ ، ط القدسى .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٣٥٧ ، ط ١٣٣٥ هـ .

(٣) المؤتلف والمختلف ص ١٩١ .

(٤) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ، ص ١٢١ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ م ، واللآلى فى شرح أمالى القالى ، ص ٨٥٩ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .

(٥) ديوان الحماسة ٢ : ٣٦ ، ٣٠٣ ، ط ١٣٣٥ هـ .

(٦) انظر ٢ : ٤١٣ و ٣ : ٧٢ و ٦ : ٣٥٦ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ ، فى الكلام عن « تنانير » و « جراميز » و « فردوس » . ويبدو أن هذه القطع الثلاث أجزاء قصيدة واحدة .

٢٧٠ ـ أعشى تغلب (٢٣٨ : ١٣)

أحد الأعاشى الذين استقصاهم الآمدى ، وقد ذكر أن اسمه نعمان بن نجوان ، أو ربيعة بن نجوان ، من جشم بن بكر ، وقد أورد له قطعاً من الشعر ، يذكر فى إحداها عشاه ، ولعله من أجلها لقب بالأعشى .

وهو شاعر إسلامى ، شارك بشعره فى الحروب التى كانت بين قيس وتغلب . وقد أشار الآمدى إلى قصيدة له مدح بها مسلمة بن عبد الملك ، وقال إنها من نادر الشعر ، وأورد أبياتاً منها[1].

٢٧١ ـ عمران بن عصام (٢٣٩ : ١٠)

ذكره الجاحظ بقوله : « ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العنزى . وهو الذى أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز ، والبيعة للوليد بن عبد الملك ، فى خطبته المشهورة ، وقصيدته المذكورة . وهو الذى لما بلغ عبد الملك قتل الحجاج له ، قال : ولم قتله ؟ ويله ! هلا رعى له قوله فيه :

وبعثت من ولد الأغر معتب ... صقراً يلوذ حمامه بالعرفج
فإذا طبخت بناره أنضجتها ... وإذا طبخت بغيرها لم تنضج
وهو الهزبر ، إذا أراد فريسة ... لم ينجها منه صياح الهجهج » [2]

٢٧٢ ـ ذو الرمة (٢٤٠ : ٣)

أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس . شاعر مضرى ، إسلامى ، بدوى ، عده ابن سلام فى شعراء الطبقة الثانية من الاسلاميين ، وشعره بدوى الديباجة ، يصنعه على غرار الشعر الجاهلى . وقد حكم عليه أبو عمرو بن العلاء بأنه كنقط عروس يضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء لها مشم فى أول شمها ، ثم تعود إلى أرواح البعر .

وكان ذو الرمة فى عهد الخصومة بين جرير والفرزدق ، وكان هواه مع الفرزدق ، وقد شرح ابن سلام موقفه شرحاً كافياً[3].

---

(١) المؤتلف والمختلف ، ص ٢٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٥٦ ــ ٥٧ ، ط مصطفى محمد، ١٩٣٢ م . (١ : ٤٨ ط لجنة التأليف) .

(٣) طبقات الشعراء ص ١٨٦ ــ ١٩٠ (ص ٤٦٩ ــ ٤٧٤ ط دار المعارف) .

٢٧٣ ـ ابن أعيا (٢٤١ : ٥)

هو صخر بن أعيا الأسدى ، أحد بنى أعيا بن طريف بن نصر بن قعين ، كما يذكره أبو عبيدة ، فيما يروى أبو الفرج ، وقد ذكره فى خلال ترجمته للحطيئة ، والأبيات التى يذكرها الجاحظ هنا ، أوردها أبو الفرج ، وقد قالها ابن أعيا رداً على شعر قاله الحطيئة ، بعد أن سقاه شربة لبن[١].

٢٧٤ ـ مزرد بن ضرار (٢٤٣ : ٤)

هو يزيد بن ضرار ، شاعر جاهلى من غطفان ، وهو أخو الشماخ ، وأشبه أخويه به فى الشعر ، كما يقول ابن سلام[٢]. ويصفه المرزبانى بأنه كان هجاءً خبيث اللسان[٣] ويشهد بهذا شعره الذى جاء فى المفضليات فى هجاء زرع بن ثوب ، فى القصيدة التى أولها :

ألا يالقومى ، والسفاهة كاسمها   أعائدتى من حب سلمى عوائدى

وقد أدرك الإسلام ، وأسلم ، وهو يعد فى الصحابة .

٢٧٥ ـ النابغة الجعدى (٢٤٣ : ١٠)

أبو ليلى ، حبان بن قيس بن عبد الله ، من بنى جعدة بن كعب ، من عامر بن صعصعة . شاعر مخضرم ، يعد فى الصحابة . ويبدو أن معظم شعره قاله فى الإسلام . ويروى أبو الفرج عن أبى عبيدة أنه كان ممن فكر فى الجاهلية ، وأنكر الخمر والسكر ، وهجر الأوثان والأزلام ، وكان يذكر دين ابراهيم والحنيفية .

وكان فى البصرة فى ولاية أبى موسى الأشعرى عليها ، ووقع بينه وبينه شر ، فهجاه ، ولما خرج على إلى صفين خرج معه ، وقال الشعر يمدحه . وبعد مقتل على واستقامة الأمر للأمويين لم يصانعهم ، وإنما يروى أنه جاهر معاوية بالخصومة ، فسيره معاوية

---

(١) الأغانى ٢ : ١٧٢ .
(٢) طبقات الشعراء ، ص ٤٧ — ٤٨ . ص ١١١ ، ط دار المعارف ، ١٩٢٥
(٣) معجم الشعراء ، ص ٤٩٦ .

إلى أصبهان مع أحد ولاتها ، فمات فيها .

ومن الأحداث الأدبية فى حياة النابغة مهاجاته أوس بن مغراء ، فاجتمعا فى المربد ، وتنافرا وتهاجيا وحضرتهما الشعراء ، وقد أعان الأخطل على النابغة ، وقد غلب أوس عليه . ثم مهاجاته لليلى الأخيلية ولم تكن أول الأمر بينه وبينها ، وإنما كان الخصومة بينه وبين « ابن الحيا » فتدخلت ليلى بينهما ، فغلبته أيضاً .

أما شعره من الناحية الفنية ، فتروى فيه كلمة للفرزدق ، قال : « كان صاحب خلقان ، عنده مطرف بألف ، وخمار بواف »(١) .

٢٧٦ ـ الخنساء (٢٣٤ : ١٣)

هى تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، يعدها ابن سلام فى طبقة شعراء المراثى(٢) ، وقد اشتهرت بمراثيها التى قالتها فى أخويها : صخر الذى قتلته بنو أسد ، ومعاوية الذى قتلته بنو مرة بن غطفان ، وهى أم عباس بن مرداس الشاعر المخضرم الذى سخط عطاء الرسول ، وقال فى ذلك شعره المشهور(٣) .

وقد ترجم لها أبو الفرج(٤) ، كما أن لها ديوان شعر مطبوعاً .

٢٧٧ ـ معدان بن جواس (٢٤٤ : ١)

شاعر كندى سكونى ، وإنما كان له حلف فى ربيعة ، كما يقول المرزبانى . وهو شاعر مخضرم نزل الكوفة . وكان نصرانيًّا ، فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير ابن العوام بأمره ، فمدحه(٥) .

وهذا الشعر الذى رواه الجاحظ هو من شعره فى الجاهلية ، وقد قاله ــ على ما جاء فى شرح ديوان الحماسة ــ للنعمان بن المنذر ، يتبرأ لديه مما اتهم به ، من أنه هو الذى أنذر تميما حين أراد النعمان أن يغير عليها ، فهزمته .

---

(١) الأغانى ٤ : ١ ــ ٣٤ ، الإصابة ٣ : ٣٥٧ .
(٢) طبقات الشعراء ، ص ٨٢ . ص ٤٦٩ ، ط دار المعارف .
(٣) اللآلى ، ٣٢ ، تاريخ الأمم والملوك ٣ : ١٣٧ .
(٤) الأغانى ١٣ : ١٣٦ ــ ١٥٠ .
(٥) معجم الشعراء ، ص ٤٠٧ .

٢٧٨ ــ ابن سيحان (٢٤٤ : ١٠)

هو عبد الرحمن بن سيحان بن أرطأة ، من محارب بن خصفة . وقد كان آل سيحان حلفاء حرب بن أمية ، ومن ذلك كان عبد الرحمن هذا مع بنى أمية كواحد منهم ــ كما يقول أبو الفرج ــ لا أن اختصاصه بآل أبى سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر ، وخصوصه بالوليد بن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم ، لأنهما كانا يتنادمان على الشراب ، وإلى جانب هذا كانت صلته قوية بسعيد بن العاص .

وشعر ابن سيحان يجمع الرقة والجزالة ، كمعظم الشعر المدنى لذلك العهد .

أما هذا الشعر الذى أورده الجاحظ هنا فقد حكى أبو الفرج قصته فى هذه الترجمة [١] .

---

(١) الأغانى ٢ : ٢٤٢ ــ ٢٦٠ .

الفهارس

فهرس أسماء الأشخاص

* نعنى بالرمز (م) أن هذا الرقم من أرقام المقدمة (بما يشمل التصدير) .

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس أسماء الأماكن

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(ه)

(و)

(ى)

فهرس أسماء الأطعمة *

* نعنى بالأطعمة هنا ما يتناول تناول الطعام ، مما يشمل الأشربة والأدوية .

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس أسماء الأدوات *

(*) نعني بالأدوات هنا جميع ما يرتفق به مما يشمل أدوات المنزل والنقود والملابس وما إليها

فهرس الشعر *

(*) لاحظنا فى ترتيب كل قافية أن نبدأ بالمضمومة ثم المفتوحة ثم المكسورة ثم الساكنة ، وأن نبدأ من كل ذلك بما كان غير موصول بالهاء وما إليها ثم نتبعه بما جاء موصولا بها ، ثم لم نلتزم بعد ذلك غير ترتيب مجىء الأبيات فى الكتاب .

قافيــة الفاء

قافية القاف

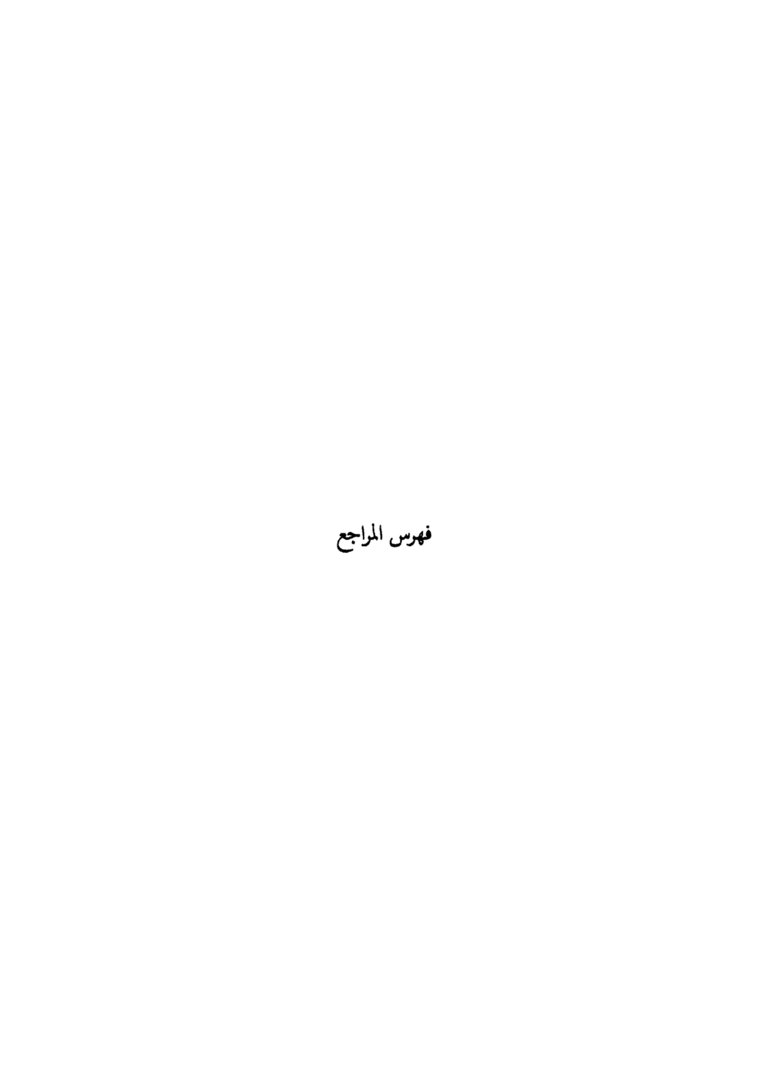
قافية الكاف

قافية اللام

قافية الميم

قافية النون

أنصاف الأبيات



فهرس المراجع

فهرس المراجع

أبو العلاء المعرى ، لأحمد تيمور ، طبع بعد وفاته ، فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤٠ م .

الأحجار لأرسطاليس، ترجمة لوقا بن اسرافيون، نشره جيوليوس رسكا J.Ruska وطبع فى هيدلبرج ، سنة ١٩١٢ م .

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر الشامى المقدسى المعروف بالبشارى ، نشره دى جويه فى مكتبة جغرافيى العرب (المجلد الثالث) ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٩٠٦ م . وكان قد طبع قبل ذلك فى ليدن أيضًا سنة ١٨٧٧ .

أخبار أبى تمام ، نشره وحققه وعلق عليه خليل محمود عساكر ، محمد عبده عزام ، نظير الدين الهندى ، طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م .

أخبار أبى نواس ، نشر الجزء الأول منه محمد عبد الرسول إبراهيم ، عباس الشربينى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٢٤ م . والجزء الثانى فى بغداد ، سنة ١٩٥٢ م .

أدب الكاتب ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، طبع لأول مرة فى ليبسك ، سنة ١٨٧٧ م ، ثم طبع فى ليدن ، سنة ١٩٠١ ، ثم طبع غير مرة فى القاهرة . وتوجد منه فى مكتبة بلدية الإسكندرية نسخة مخطوطة فى أولها إجازة بخط أبى اليمن زيد بن الحسن الكندى ، يقول فيها إنه قرأها عليه الشيخ أبو نصر الشيرازى سنة ٥٣٧ . وهذه النسخة منقولة عن نسخة المفضل بن سعيد الشاعر ، ومقروءة على أبى العلاء أحمد بن سليمان .

الأزمنة لأبى على محمد بن المستنير المعروف بقطرب ، نشر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، سنة ١٩٢٢ م .

(*) اكتفينا فى هذا الفهرس ، من أسماء الكتب التى اعتمدنا عليها أو صدرنا عنها ، بما أشرنا إليه فى الهوامش والتعليقات .

أسد الغابة فى معرفة الصحابة لأبى الحسن ابن الأثير الجزرى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣١٩ هـ .

الإشارة إلى محاسن التجارة ، لأبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ، طبع فى القاهرة، سنة ١٣١٨ هـ .

الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة ، لأحمد بن حجر العسقلانى نشره شبرنجر ، طبع فى كلكوتا ، سنة ١٨٨٨ م ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٧ هـ .

إصلاح المنطق ، لابن السكيت ، نشر فى مجموعة ذخائر العرب ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، ط دار المعارف ، بمصر .

الأصمعيات ، اختيار الأصمعى ، طبع فى دار المعارف ، بمصر ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون .

الأعلاق النفيسة ، لأبى على أحمد بن عمر بن رسته ، نشره دى جويه فى مكتبة جغرافيى العرب (المجلد السابع) ، طبع فى ليدن ، سنة ١٨٩٢ .

الأغانى ، لأبى الفرج على بن الحسين الأصبهانى ، نشر قطعة منه للمرة الأولى كوزجارتن Kosegarten ، وطبعت فى جريفسفالد ، سنة ١٨٤٠م ، ثم طبع فى القاهرة بمطبعة بولاق ، سنة ١٢٨٥ هـ ، ثم نشر الجزء الحادى والعشرين منه رودلف برونو Brünnow ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) ، ثم طبع فى القاهرة (بمطبعة التقدم) ، سنة ١٣٢٣ هـ . ثم أخذت دار الكتب المصرية فى نشره نشرة محققة ، وظهر الجزء الأول سنة ١٩٢٧ م ، وانتهت إلى الجزء الرابع عشر ، سنة ١٩٥٦ م .

الإكليل . لأبى محمد الحسن بن أحمد الهمدانى ، نشر الجزء الثامن منه الأب انستاس مارى الكرملى ، طبع فى بغداد ، سنة ١٩٣١ م .

الألفاظ الفارسية المعربة ، للأب أدى شير الكلدانى ، طبع فى بيروت ، سنة ١٩٠٨

أمالى السيد المرتضى ، (غرر الفوائد ودرر القلائد ، فى المحاضرات) ، للإمام أبى القاسم على ، المرتضى . طبع فى فارس ، سنة ١٢٧٣ ، ثم طبع فى مصر غير مرة .

أمالى أبى على القالى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم طبع فى دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٢٦ م .

أمراء البيان ، لمحمد كرد على ، طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٣٧ م .

الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، لأبى الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط المعتزلى ، حققه وقدم له وعلق عليه نيبرج H.S.Nyberg ، ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبع فى مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٢٥ م .

أنساب الأشراف ، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى ، نشر الجزء الخامس منه غويطاين S.D.F. Goitein ، وطبع فى مطبعة الجامعة العبرية بالقدس ، سنة ١٩٣٦ م . ونشر القسم الثانى من الجزء الرابع منه مكس شلوسنجر Max Schloessinger ، وطبع فى مطبعة الجامعة العبرية بالقدس ، سنة ١٩٣٨ م .

الأنساب ، للسمعانى ، عبد الكريم بن محمد المروزى ، نشره مرجليوث Margoliouth طبع بالزنكوغراف فى ليدن ، سنة ١٩١٢ م .

الأوراق ، لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، نشر ثلاثة أقسام منه ج . هيورث دن J. Heyworth Dunne وطبع القسم الأول (أخبار الشعراء) سنة ١٩٣٤م ، والثانى (أخبار الراضى بالله والمتقى بالله) سنة ١٩٣٥ م ، والثالث (أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم) سنة ١٩٣٦ م ، فى القاهرة .

الإيضاح ، شرح المقامات الحريرية ، للمطرزى ، أبى الفتح ناصر بن أبى المكارم الخوارزمى . لم ينشر بعد . أقدم مخطوطاته — فيما نعرف — فى مكتبة بلدية الإسكندرية (سنة ٦٧٣) ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة سنة ٧٣٠ ، وأخرى سنة ٩٥١ .

البخلاء للخطيب البغدادى ، أبى بكر أحمد بن على . لم ينشر بعد . ومنه مخطوطة فى مكتبة المتحف البريطانى ، ولها صورة فتوغرافية فى مكتبة جامعة القاهرة .

البلدان ، لأحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب اليعقوبى ، نشره دى جويه فى مكتبة جغرافيي العرب (المجلد السابع) ، طبع فى ليدن ، سنة ١٨٩٢ م .

البيان والتبيين ، للجاحظ ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣١٣ هـ ، ثم طبع فيها غير مرة . وفى دار الكتب المصرية أكثر من مخطوطة له ، وفيها صورة فتوغرافية لمخطوطة مكتبة كوبريلى باستنبول . وقد نشره عنها عبد السلام محمد هارون ، وطبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٨ – ١٩٥٠) .

التاج فى أخلاق الملوك ، للجاحظ (؟) ، نشره أحمد زكى ، وطبع فى القاهرة سنة ١٩١٤ م .

تاريخ الأمم والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، نشره دى جويه ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٨٧٩ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٣١ م .

تاريخ بغداد ، لطيفور أبى الفضل أحمد بن أبى طاهر الكاتب ، نشر الجزء السادس منه كلر Keller ، طبع فى ليبسك ، سنة ١٩٠٨ م .

تأويل مختلف الحديث ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٦ هـ .

تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب ، لداود بن عمر الأنطاكى ، طبع فى القاهرة بمطبعة بولاق ، سنة ١٢٨٢ هـ ، ثم طبع فيها غير مرة .

الترغيب والترهيب ، للمنذرى ، الحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المصرى ، طبع فى الهند ، سنة ١٣٠٠ هـ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ، للخطيب البغدادى ، طبع فى دمشق ، سنة ١٣٤٦ هـ .

التنبيه والإشراف ، للمسعودى أبى الحسن على بن الحسين . نشره دى جويه فى مكتبة جغرافيى العرب (المجلد الثامن) ، طبع فى ليدن ، ١٨٩٤ م ، ثم طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ، لأبى عبيد البكرى ، عبد الله بن عبد العزيز ، أتم تحقيقه محمد عبد الجواد الأصمعى ، بعد أن كان أعده الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، طبع فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، سنة ١٩٢٦ م .

تهذيب الألفاظ ، لأبى يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعى ، طبع فى بيروت سنة ١٨٩٥ م .

تهذيب التهذيب ، للحافظ أحمد بن حجر العسقلانى ، طبع فى الهند ، سنة ١٣٢٦ — ١٣٢٧ هـ .

ثلاث رسائل للجاحظ ، نشرها يوشع فنكل J. Finkel ، طبعت فى القاهرة ، سنة ١٩٢٦ م .

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، للثعالبى ، أبى منصور عبد الملك بن محمد النيسابورى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٠٨ م .

الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٦ .

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، لضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقى النباتى (ابن البيطار) طبع فى بولاق ، سنة ١٢٩١ هـ .

الجماهر فى معرفة الجواهر ، لأبى الريحان البيرونى ، طبع فى حيدر آباد ، سنة ١٣٥٥ هـ .

جمع الجواهر فى الملح والنوادر ، لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحصرى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٥٣ هـ . ثم طبع فيها مرة أخرى ، بتحقيق على محمد البجاوى ، بمطبعة عيسى الحلبى .

جمهرة أشعار العرب ، لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٣٠٨ هـ ، ثم طبع بعد ذلك غير مرة .

حديث الأربعاء ، لطه حسين ، طبع الجزء الأول سنة ١٩٢٥ ، والثانى سنة ١٩٢٦ ، ثم طبعا مع الجزء الثالث سنة ١٩٣٧ . فى القاهرة .

الحسن البصرى ، لأبى الفرج عبد الرحمن الجوزى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٣١

حكاية أبى القاسم البغدادى ، لأبى المطهر الأزدى ، محمد بن أحمد ، نشره آدم متس Adam Mez ، طبع فى هيدلبرج ، سنة ١٩٠٢ م .

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٣٢ م .

حماسة البحترى ، أبى عبادة الوليد بن عبيد الطائى ، نشره مرجليوث ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٩٠٩ م ، ثم نشره عنها الأب لويس شيخو اليسوعى ، فى بيروت .

حماسة أبى تمام ، حبيب بن أوس الطائى ، نشره فريتاج ، وطبع فى بون ، سنة ١٨٢٨ — ١٨٤٧ م ، ثم طبع فى الهند ، سنة ١٨٥٦ م ، ثم طبع سنة ١٣٣٤ هـ ، كما طبع فى مصر مراراً .

حماسة ابن الشجرى ، انظر : مختارات أشعار العرب .

حياة الحيوان الكبرى ، للدميرى ، كمال الدين أبى البقاء محمد بن موسى ، طبع فى بولاق . سنة ١٢٩٢ هـ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

الحيوان ، للجاحظ ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ ، ثم طبع فى نشرة حققها عبد السلام هارون ، بمطبعة مصطفى الحلبى ، سنة ١٩٣٨ — ١٩٤٥ م .

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، للبغدادى ، عبد القادر بن عمر ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٩٩ هـ ، ثم طبع قسم منه فى القاهرة ، سنة ١٣٤٧ هـ .

دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، انظر : العقد الثمين .

ديوان الأعشى ، نشره جاير Geyer ، طبع فى لندن ، سنة ١٩٢٨ م ، وطبع

فى القاهرة (دون تاريخ) ثم طبع بعد ذلك ، سنة ١٩٥٠ ، بشرح م . محمد حسين .

ديوان الأفوه الأودى ، نشره عبد العزيز الميمنى فى مجموعة « الطرائف الأدبية » .

ديوان امرئ القيس ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٤ هـ .

ديوان البحترى ، طبع بمطبعة الجوائب بالآستانة ، سنة ١٣٠٠ هـ ، ثم طبع بالقاهرة سنة ١٣٣٩ هـ .

ديوان جران العود النميرى ، طبع فى دار الكتب المصرية ، بالقاهرة ، سنة ١٣٥٠ هـ .

ديوان جرير ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣١٣ هـ ، ثم سنة ١٣٥٣ هـ .

ديوان حسان بن ثابت ، طبع فى تونس ، وفى الهند ، سنة ١٢٨١ هـ ، وطبع فى ليدن ، بعناية هرشفيلد ، سنة ١٩١٠ م ، وطبع فى مصر ، سنة ١٣٢١ ، ١٣٣١ هـ .

ديوان الفرزدق . نشره بوشيه ، وطبع فى باريس ، سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٥ م ، وفى القاهرة ، سنة ١٩٣٦ م .

ديوان القطامى ، نشره برت Barth ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٩٠٢ م . ومنه فى دار الكتب المصرية مخطوطة بخط العلامة ابن المستوفى الأربلى ، كتبها سنة ٥٨٢ .

ديوان مسلم بن الوليد ، نشره دى جويه ، طبع فى ليدن ، سنة ١٨٧٥ م ، وطبع فى الهند ، سنة ١٣٠٣ هـ . وطبع فى القاهرة غير مرة .

ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكرى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٠٢ م .

ديوان معن بن أوس ، نشره شوارتس Paul Schwarz ، طبع فى ليبسك ، سنة ١٩٠٣ م ، وفى القاهرة ، سنة ١٩٢٧ .

ديوان النابغة الذبيانى ، نشره ديرنبورج Derenbourg ، طبع فى باريس ، سنة ١٨٦٨ م ، وفى بيروت .

ديوان أبى نواس ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٢٧٧ هـ ، وسنة ١٨٩٨ م ، وسنة ١٣٢٣ هـ ، ثم طبع فى مطبعة مصر ، سنة ١٩٥٣ ، بشرح أحمد عبد المجيد الغزالى .

ذيل الأمالى ، لأبى على القالى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٤ هـ و ١٩٢٦ م .

رسائل إخوان الصفا ، طبع فى الهند ، سنة ١٣٠٦ هـ ، وفى القاهرة ، سنة ١٩٢٨ م .

رسائل البلغاء ، نشرها محمد كرد على ، وطبعت فى القاهرة ، سنة ١٩٠٨ م ، ثم أعيد طبعها سنة ١٩١٣ م ، ثم طبعت طبعة ثالثة مع إضافات سنة ١٩٤٧ م .

رسائل الجاحظ ، جمعها حسن السندوبى ، طبعت فى القاهرة ، سنة ١٩٣٣ م .

زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبى إسحاق الحصرى ، إبراهيم بن على ، طبع الجزء الأول منه فى القاهرة طبع حجر ، بدون تاريخ ، كما طبع على هامش العقد الفريد ، سنة ١٢٩٣ هـ ، ثم نشره زكى مبارك ، وطبع سنة ١٩٤٦ م . ثم طبع بعد ذلك بتحقيق على البجاوى .

سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ، لجمال الدين بن نباته ، طبع فى بولاق ، كما طبع على هامش الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، للصفدى سنة ١٣٠٥ هـ .

السياسة فى علم الفراسة ، لشيخ الربوة ، محمد بن أبى طالب ، طبع فى القاهرة سنة ١٨٨٢ م .

سيرة عمر بن عبد العزيز ، لأبى محمد عبد الله بن عبد الحكم ، نشره أحمد عبيد ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٢٧ .

سيرة ابن هشام ، لأبى محمد عبد الملك بن هشام الحميرى البصرى ، نشره وستنفلد F. Wüstenfeld ، طبع فى جوتنجن ، سنة ١٨٥٧ — ١٨٦٠ م ، ثم طبع فى بولاق ، سنة ١٢٩٥ هـ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

شرح ديوان زهير للشنتمرى ، أبى الحجاج يوسف بن سليمان النحوى الأعلم ، نشره لندبرج Landberg ، طبع فى ليدن ، سنة ١٨٨٩ م ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٦ هـ .

شرح صحيح البخارى للكرمانى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٧ م .

شرح صحيح مسلم للنووى ، انظر : المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج .

شرح المعلقات العشر ، للتبريزى ، أبى زكريا يحيى بن على الخطيب ، نشره ليل Lyall ؛ طبع فى كلكوتا ، سنة ١٨٩٤ م ، ثم طبع فى مصر غير مرة .

شرح مقامات الحريرى للشريشى ، أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٤ هـ ، ثم سنة ١٣٠٠ ، ثم طبع بعد ذلك فى القاهرة مراراً .

شرح مقامات الحريرى ، للمطرزى ، انظر : الإيضاح .

شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد ، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله . طبع فى طهران ، سنة ١٢٧١ هـ ، وفى مصر ، سنة ١٣٢٩ هـ .

الشعر والشعراء لأبى عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة ، نشره للمرة الأولى ريترهوزن ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٨٧٥ م ، ثم أعاد دى جويه نشره ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٩٠٢م ثم طبع بعد ذلك فى مصر غير مرة ، طبعات سقيمة ، ثم نشرته دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٤ — ١٣٦٩) ، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر .

شعراء النصرانية ، جمعها الأب لويس شيخو اليسوعى ، طبعت فى بيروت ١٨٩٠ — ١٨٩١م .

شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجى ، أحمد بن محمد بن عمر ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٢ هـ ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٣٥ هـ .

صبح الأعشى فى كتابة الإنشا ، لأبى العباس أحمد القلقشندى ، طبع جزء منه فى بولاق ، سنة ١٩٠٣ ، ثم طبع جميعه فى دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٢٢ م .

صحيح البخارى ، أبى عبد الله محمد بن إسماعيل ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٦ هـ ، ١٢٩٦ هـ ، ١٣١٣ هـ .

صحيح مسلم ، أبي الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٩٠هـ .

الصداقة والصديق ، لأبى حيان التوحيدى ، على بن محمد بن العباس ، طبع بمطبعة الجوائب بالآستانة ، سنة ١٣٠١ هـ ، وفى القاهرة ، سنة ١٣٢٣ .

ضحى الإسلام ، لأحمد أمين ، طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، الجزء الأول سنة ١٩٣٣ م ، والثانى سنة ١٩٣٥ م ، والثالث سنة ١٩٣٦ م .

ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى ،نشر سنة ١٩٤١ م فى : *The journal of the Palestine Oriental Society*, vol. XIX, No.3-4

طبقات الأمم ، لأبى القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى ، نشره الأب لويس شيخو ، وطبع فى بيروت سنة ١٩١٢ م ، وطبع فى القاهرة دون تاريخ .

طبقات الشعراء ، لأبى عبد الله محمد بن سلام الجمحى ، نشره هيل وطبع فى ليدن ، سنة ١٩١٦ م ، وطبع فى القاهرة غير مرة . ثم نشره ، عن أصل مختلف ، باسم طبقات فحول الشعراء ، فى مجموعة ذخائر العرب ، محمود محمد شاكر ، سنة ١٩٥٢ م .

الطبقات الكبير ، لأبى عبد الله محمد بن سعد ، كاتب الواقدى ، نشره سخاو Sachau، طبع فى ليدن ، سنة ١٣٢١هـ — ١٣٢ هـ ، ثم طبع أخيراً فى القاهرة .

الطرائف الأدبية ، نشرها الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وطبعت فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٣٧ .

العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، لابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد التونسى ؛ طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٤ هـ . وبدأت دار الطبع والنشر بفاس وتطوان بالمغرب فى إعادة نشره محققا ، وطبع منه الجزء الأول والثانى ، سنة ١٩٣٦ م . وفيما عدا ذلك كان المستشرق كاترمير نشر المقدمة ، سنة ١٨٥٨ م ، ونشر نويل دى فرجيل الجزء الخاص بدولة بنى الأغلب بأفريقية وصقلية وبقية أخبار صقلية إلى حين

استيلاء الفرنج عليها ، سنة ١٨٤١ م ، ونشر البارون دى سلان ما جاء فى ذلك التاريخ خاصاً بالبربر ، سنة ١٨٥١ م .

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، للقزوينى ، زكريا بن محمد ، نشره وستنفيلد وطبع فى جوتنجن ، سنة ١٨٤٩ م ، ثم طبع فى القاهرة . دون تاريخ .

العشر مقالات فى العين ، منسوب لحنين بن إسحاق ، نشره مكس مايرهوف ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٢٨ م .

العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، نشره ألورت Ahlwardt، طبع فى لندن سنة ١٨٦٩ م .

العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، أحمد بن محمد القرطبى . طبع فى بولاق ، سنة ١٢٩٣ هـ . ثم طبع فى القاهرة مراراً ، ثم نشره نشراً جديداً أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابيارى ، وطبع فى ستةأجزاء ، عدا جزء الفهارس ، فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤٠ — ١٩٤٩ م .

عيون الأخبار ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . أخذ فى نشره بروكلمان Brockelmann وطبع قسماً منه فى جوتنجن ، سنة ١٨٩٩ —١٩٠٨ ، وطبع الباب الأول منه وهو كتاب السلطان فى القاهرة ، سنة ١٩٠٧م، ثم نشرته دار الكتب المصرية ، وطبع فيها ، سنة ١٩٢٥ م — ١٩٣٠ م .

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، لابن أبى أصيبعة ، موفق الدين أحمد بن القاسم السعدى ، نشره من سمى نفسه امرأ القيس بن الطحان ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٨٨٢ م .

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ، للوطواط جمال الدين محمد ابن إبراهيم الأنصارى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٤ هـ ، ثم فى القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ .

الفاخر ، لأبى طالب المفضل بن سلمة بن عاصم النحوى الكوفى ، طبع فى ليدن ،

سنة ١٩١٥ م ثم نشر فى القاهرة بتحقيق عبد العليم الطحاوى ؛ سنة ١٩٦٠

فتوح البلدان ، للبلاذرى أبى العباس أحمد بن يحيى ، نشره دى جويه ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٨٦٥ م ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، لابن الطقطقى محمد بن على بن طباطبا ، نشره ألورت . ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣١٧ هـ و ١٣٤٥ هـ .

الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، لعبد القادر بن طاهر البغدادى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩١٠ م .

فصول التماثيل ، لعبد الله بن المعتز ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٥٢

الفهرست ، لابن النديم ، أبى الفرج محمد بن إسحق الوراق ، نشره فلوجل ، طبع فى ليبسك . سنة ١٨٧١ — ١٨٧٢ م ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٤٨ هـ .

فوات الوفيات ، لمحمد بن شاكر الكتبى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٣ هـ ، ثم فى سنة ١٢٩٩ هـ .

القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط ، للفيروزابادى مجد الدين محمد بن يعقوب . طبع فى كلكوتا بالهند، سنة ١٢٣٠—١٢٣٢. وفى بولاق ، سنة ١٢٧٢ وسنة ١٢٨٩ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

القصيدة الساسانية، لصفى الدين الحلى ، عبد العزيز بن سرايا، لم تنشر بعد، ويوجد منها مخطوطتان فى دار الكتب المصرية ، إحداهما مأخوذة عن مخطوطة فى دار الكتب الأحمدية بطنطا .

الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير عز الدين أبى الحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٩٠ هـ ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٤٨ هـ .

الكامل للمبرد ، أبى العباس محمد بن يزيد الأزدى، طبع فى الآستانة، سنة ١٢٨٦هـ،

وطبع فى ليبسك ، سنة ١٨٦٤ — ١٨٨١ م (نشره ريت wright) ، ثم طبع فى القاهرة مراراً .

كشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوى محمد بن على الفاروقى ، طبع فى كلكوتا بالهند ، سنة ١٨٦١ م ، ثم طبع فى الآستانة ، ١٣١٨ هـ .

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . لحاجى خليفة ملا مصطفى بن عبد الله كاتب چلبى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٧٤ هـ ، ثم طبع فى الآستانة ، ١٣١٠ هـ . ، ثم ظهرت له فى الآستانة طبعة جديدة محققة .

اللآلى فى شرح آمالى القالى ، لأبى عبيد البكرى ، نشره عبد العزيز الميمنى ، طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، سنة ١٩٣٦ م .

اللباب فى تهذيب الأنساب ، لابن الأثير أبى الحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٥٧ هـ (وطبع مختصره لب اللباب فى تحرير الأنساب للسيوطى فى ليدن ، سنة ١٨٤٠ — ١٨٤٢ م) .

لسان العرب ، لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى الأفريقى المصرى . طبع فى بولاق سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٧ هـ . وأخذ عبد الله إسماعيل الصاوى يعيد نشره بعد أن رتب مواده بحسب أوائلها فقط ، وقد ظهر منه خمسة أجزاء (إلى آخر حرف التاء) ، وطبعت فى القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ .

لسان الميزان ، لأحمد بن حجر العسقلانى المصرى ، طبع فى حيدر آباد ، سنة ١٣٣٠ هـ .

المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، للآمدى أبى القاسم الحسن بن بشر ، عنى بتصحيحه كرنكو ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٥٤ هـ .

مبادئ اللغة ، لأبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافى ، طبع فى القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

مجلة الثقافة ، أسبوعية ، كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، أنشئت فى يناير سنة ١٩٣٩ م .

مجلة الكاتب المصرى ، شهرية ، كانت تصدرها دار الكاتب المصرى بالقاهرة ، وكان يرأس تحريرها طه حسين ، أنشئت فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ .

مجلة كلية الآداب ، بجامعة القاهرة ، بدأ صدورها فى مايو سنة ١٩٣٣ م .

مجلة لغة العرب ، شهرية . كان يصدرها الأب أنستاس مارى الكرملى ، بغداد ، أنشأها سنة ١٩١١ ، ثم وقف صدورها قبل وفاته بزمن .

مجلة المجمع العلمى العربى ، شهرية . يصدرها المجمع العلمى العربى فى دمشق .

مجلة المشرق ، شهرية . كان يصدرها الأب لويس شيخو اليسوعى ، فى بيروت أنشئت سنة ١٨٩٨ م ، وظلت تصدر طيلة حياته .

مجلة المقتطف ، شهرية ، أصدرها فارس نمر ويعقوب صروف فى بيروت ، سنة ١٨٧٦ م . ثم جعلت تصدر بالقاهرة منذ سنة ١٨٨٦ م .

مجمع الأمثال ، للميدانى ، أبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى . نشره فريتاج ، وطبع فى بون ، سنة ١٨٣٨ م ، ثم طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٤ هـ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

مجموع رسائل الجاحظ ، نشره باول كروس وطه الحاجرى ، طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٣ م .

مجموع النقود العربية ، للأب انستاس مارى الكرملى ، طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٩ م

مجموعة رسائل للجاحظ ، طبعت فى القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، جمعها محمد حميد الله الحيدر آبادى ، طبعت فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤١ م .

المحاسن والأضداد ، المنسوب للجاحظ ، نشره فان فلوتن ، طبع فى ليدن ، سنة ١٨٩٨ م ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٤ هـ .

المحاسن والمساوى ، للبيهقى إبراهيم بن محسن ، نشره شفالى ، وطبع فى جيسن بألمانيا ، سنة ١٣٢٠ هـ ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٢٥ هـ .

محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء ، للراغب الأصبهانى أبى القاسم الحسين بن محمد ، طبع فى جمعية المعارف بالقاهرة . سنة ١٢٨٧ هـ ، ثم طبع غير مرة بالقاهرة .

المختار ، لعبد العزيز البشرى . طبع الجزء الأول سنة ١٩٣٥ ، والثانى سنة ١٩٣٧ ، بالقاهرة .

مختار رسائل جابر بن حيان ، نشرها باول كروس . وطبعت فى القاهرة ، سنة ١٣٥٤ هـ .

المختار من كلام أبى عثمان الجاحظ ، مخطوط محفوظ بمكتبة برلين . برقم ٥٠٣١ .

مختارات أشعار العرب ، لابن الشجرى هبة الله بن على العلوى ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٠٦ هـ ، ثم سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) .

مختارات فصول الجاحظ ، مخطوط محفوظ فى مكتبة المتحف البريطانى ، برقم ١١٢٩ ملحق .

مختارات كتاب مؤنس الوحيد ، للثعالبى أبى منصور عبد الملك بن محمد النيسابورى ، نشره فلوجل ، طبع فى فينا ، سنة ١٨٢٩ م .

مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه الهمدانى ، نشره دى جويه فى مكتبة جغرافيى العرب (المجلد الرابع) ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٨٨٥ م .

المخصص ، لابن سيده ، أبى الحسن على بن إسماعيل المرسى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٣٢١ هـ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لأبي الحسن على بن الحسين المسعودى ، نشره باربييه دى مينار وباڤيه دى كورتى C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille ، طبع فى باريس سنة ١٨٦١ — ١٨٧٧ م ، وطبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٣ هـ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

المزهر فى علوم اللغة ، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، طبع فى بولاق ، سنة ١٢٨٢ م ، ثم طبع فى القاهرة بعد ذلك غير مرة .

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمرى شهاب الدين أحمد ابن يحيى ، نشره أحمد زكى . طبع الجزء الأول فى دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ م .

مسالك الممالك ، للاصطخرى أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى ، نشره دى جويه فى مكتبة جغرافيى العرب (المجلد الأول) ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٨٧٠ .

المسالك والممالك ، لابن خرداذبه ، نشره دى جويه فى مكتبة جغرافيى العرب (المجلد السادس) وطبع فى ليدن ، سنة ١٨٨٩ م .

المستطرف من كل فن مستظرف ، لشهاب الدين أحمد الأبشيهى ، طبع بالمطبعة الكستلية بمصر سنة ١٢٧٩ هـ ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٨٥ هـ وسنة ١٢٩٢ هـ . ثم طبع بعد ذلك فى القاهرة مراراً .

المعارف ، لابن قتيبة ، نشره وستنفيلد Wüstenfeld ، وطبع فى جوتنجن ، سنة ١٨٥٠ م ، ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٠٠ هـ

معانى الشعر ، للاشناندانى ، أبى عثمان سعيد بن هارون ، طبع فى دمشق ، سنة ١٩٢٢م .

معجم الأدباء ، لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى ، نشره مرجيلوث Margoliouth ، وطبع فى القاهرة ، سنة ١٩٠٧ — ١٩٢٥ م ، ثم أعيد طبعه فى القاهرة بإشراف أحمد فريد الرفاعى ، سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٨ م .

معجم البلدان ، لأبى عبد الله ياقوت الرومى ، نشره وستنفيلد Wüstenfeld ، طبع فى ليبسك ، سنة ١٨٦٦ — ١٨٦٩ م ثم طبع فى القاهرة ، سنة ١٩٠٦ .

معجم الشعراء ، للمرزبانى أبى عبد الله محمد بن عمران ، عنى بتصحيحه كرنكو Krenkow ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٥٤ ﻫ .

المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ، لأبى منصور الجواليقى موهوب ابن أحمد ، نشره سخاو . طبع فى ليبسك ، سنة ١٨٦٧ م . ثم أعاد نشره أحمد محمد شاكر ، وطبع فى دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٦١ ﻫ .

المعلقات السبع ، نشرها أرنولد ، وطبعت فى ليبسك ، سنة ١٨٥٠ م ، ثم طبعت فى برلين سنة ١٨٩١ م ، وطبعت فى القاهرة ، سنة ١٣١٩ ﻫ .

مفاتيح العلوم ، للخوارزمى ، أبى عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف ، نشره فان فلوتن ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٨٩٥ م ، ثم طبع فى القاهرة (دون تاريخ) .

المفضليات ، لأبى العباس المفضل بن محمد الضبى ، نشرت لأول مرة فى ليبسك ، سنة ١٨٨٥ ، ثم طبعت فى القاهرة غير مرة .

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لأبى الحسن الأشعرى ، على بن إسماعيل ، نشره ريتر Ritter، وطبع فى استنبول ، سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ م .

مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد التونسى ، نشرها كاترمير ، وطبعت فى باريس ، سنة ١٨٥٨ م ، ثم طبعت فى بولاق سنة ١٢٧٤ وسنة ١٣٢٠ ، كما طبعت فى القاهرة بعد ذلك غير مرة .

الملل والنحل ، للشهرستانى ، أبى الفتح محمد بن عبد الكريم ، نشره كيورتن W. Cureton، طبع فى لندن ،سنة ١٨٤٦ ، ثم أعيد طبعه فى ليبسك ، سنة ١٩٢٣ ، وطبع فى القاهرة على هامش الفصل لابن حزم ، سنة ١٣٢١ ﻫ .

من حديث الشعر والنثر ، لطه حسين ، طبع فى القاهرة ، فى سنة ١٩٣٦ م .

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، لمحيى الدين يحيى النووى ، طبع فى دهلى بالهند (دون تاريخ) .

المنية والأمل ، لأحمد بن يحيى بن المرتضى ، نشر قطعة منه فى ذكر المعتزلة توماأرنولد T.W. Arnold وطبع فى حيدر آباد ، فى سنة ١٣١٦ ﻫ .

الموازنة بين الطائيين ، للآمدى أبى القاسم الحسن بن بشر ، طبع بمطبعة الجوائب بالآستانة ، سنة ١٢٨٧ ﻫ ، ثم طبع فى بيروت ، ١٣٣٢ ﻫ ، ثم طبع فى القاهرة غير مرة .

الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى أبى عبيد الله محمد بن عمران ، نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ، وطبع فيها سنة ١٣٤٣ ﻫ .

نثر الدرر فى المحاضرات ، للآبى زين الكفاة منصور بن الحسين ، وزير مجد الدولة البويهى . لم ينشر بعد ، وفى دار الكتب المصرية بعض المخطوطات له ، وصورة فتوغرافية لنسخته المحفوظة فى مكتبة كبريلى بإستنبول .

نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ، للأب أنستاس مارى الكرملى ، طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

النقائض بين جرير والفرزدق ، لأبى عبيدة معمر بن المثنى (؟) ، نشره بيفن ، وطبع فى ليدن ، سنة ١٩٠٥ م ، ثم طبع قسم منه فى القاهرة ، سنة ١٩٣٥ م .

نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ، نشره طه حسين وعبد الحميد العبادى ، وطبع فى دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٢ م ، ثم طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر .

النقود الإسلامية ، للمقريزى ، طبع بمطبعة الجوائب بالآستانة .

النقود العربية وعلم النميات ، للأب انستاس مارى الكرملى ، طبع بالمطبعة العصرية بالقاهرة ، ١٩٣٩ م .

النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير مجد الدين مبارك بن محمد الجزرى ، طبع فى القاهرة فى سنة ١٣١١ ﻫ ، ثم فى سنة ١٣٢٢ ﻫ .

نهج البلاغة ومشرع الفصاحة ، للشريف المرتضى أبى القاسم على بن الحسين ، طبع فى تبريز ، سنة ١٢٤٧ هـ ، ثم طبع فى بيروت ١٨٨٥ م ، كما طبع فى القاهرة غير مرة .

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، للنويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، تنشره دار الكتب المصرية ، منذ سنة ١٩٢٣ .

النوادر فى اللغة ، لأبى زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، نشره سعيد الخورى الشرتونى بلبنان ، وطبع فى بيروت ، سنة ١٨٦٤م .

نور العيون فى تلخيص سيرة الأمين المأمون ، لابن سيد الناس أبى الفتح محمد بن محمد ، لم ينشر بعد ، وله مخطوط فى مكتبة باريس الأهلية ، وأخرى فى مكتبة بلدية الإسكندرية .

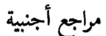
الورقة ، لأبى عبد الله محمد بن داود الجراح ، حققه عبد الوهاب عزام ، عبد الستار أحمد فراج ، ونشرته دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب سنة ١٩٥٣ م .

الوزراء والكتاب ، للجهشيارى أبى عبد الله محمد بن عبدوس ، نشره منزيك ، وطبع فى فينا ، سنة ١٩٢٦ م ، ثم طبع بعد ذلك فى القاهره طبعتين .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان بما ثبت بالنقل أو أثبته العيان ، لابن خلكان شمس الدين أحمد بن إبراهيم الأربلى ، نشره دى سلان de Slane ، طبع فى باريس ، سنة ١٨٣٨ م ، ثم فى بولاق ، سنة ١٢٩٩ .

وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم المنقرى ، نشره عبد السلام محمد هرون ، طبع فى القاهرة ، سنة ١٣٦٥ .

يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر ، للثعالبى أبى منصور عبد الملك بن محمد ، طبع فى دمشق ، سنة ١٣٠٣ هـ ، ثم طبع فى القاهره فى سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٤ م) .



مراجع أجنبية

Aristote, *Histoire des animaux*, traduite en français par Barthélemy Saint-Hilaire, Paris, 1883.

Caussin de Perceval, *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane*, Paris, 1847.

Christensen, *l'Iran sous les Sassanides*, Copenhague, 1936.

Dozy, *Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845.

— *Supplément aux dictionnaires Arabes*, Leide, 1881.

Egger, *Essai sur l'Histoire de la critique chez les Grecs*, Paris 1886.

Journal Asiatique, publié par la Société asiatique, Paris.

Journal of the Palestine Oriental Society, Jerusalem.

Kraus (Paul), *Jabir Ibn Hayyan, contribution à l'histoire des idées scientifiques dans l'Islam*, Le Caire, 1943.

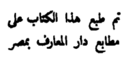
Lenormant, *Histoire ancienne de l'Orient jusqu'aux guerre médiques*, Paris, 1883-1886.

Le Strange, *Bághdad during the abbasid Caliphate from contemporary arabic and persian sources*, Oxford Univ. Press, 1924.

Le Strange, *The lands of Eastern Caliphate : Mesopotamia, Persia, and central Asia from the Moslem conquest to the time of Timour*, Cambridge, 1905.

Steingass, *Persian-English dictionary*, London, 1930.

Z.D.M.G.: *Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft*, Leipzig.


تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

